فيض الرحمن

في التفسير الموضوعي للقرآن

أ. د. توفيق علوان
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
جامعة البنات - الرياض

مكتبة الرشد
ناشرون

فيض الرحمن

في التفسير الموضوعي للقرآن

أ.د. توفيق علوان
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
جامعة البنات - الرياض

مكتبة الرشد
ناشرون

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

مكتبة الرشد - ناشرون

المملكة العربية السعودية ـ الرياض

شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)

ص.ب.: ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ ـ هاتف: ٤٥٩٣٤٥١ ـ فاكس: ٤٥٧٣٣٨١

E-mail: alrushd@alrushdryh.com

Website: www.rushd.com

فروع المكتبة داخل المملكة

★ الرياض: فرع طريق الملك فهد - غرب وزارة الشئون البلدية والقروية: هاتف: ٢٠٥١٥٠٠

★ فرع مكة المكرمة: شارع الطائف - مقابل مستشفى علوي التونسي: هاتف: ٥٥٨٥٤٠١ - ٥٥٨٢٥٠٦

★ فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري: هاتف: ٨٣٤٠٦٠٠

★ فرع جدة: مقابل ميدان الطائرة: هاتف: ٦٧٧٦٣٣١

★ فرع القصيم: بريدة - طريق المدينة: هاتف: ٣٢٤٣٢١٤

★ فرع أبها: شارع الملك فيصل: هاتف: ٢٢١٧٢٠٧

★ فرع الدمام: شارع ابن خلدون: هاتف: ٨١٥٠٥٦٦

وكلاؤنا في خارج المملكة

★ القاهرة: مكتبة الرشد - مدينة نصر: هاتف: ٢٧٤٤٦٠٥

★ بيروت: دار ابن حزم: هاتف: ٧٠١٩٧٤

★ المغرب: الدار البيضاء / مكتبة العلم: هاتف: ٣٠٣٦٠٩

★ تونس: دار الكتب المشرقية: هاتف: ٨٩٠٨٨٩

★ اليمن: صنعاء - دار الآثار: هاتف: ٦٠٣٢٥٦

★ البحرين: مكتبة الغرباء: هاتف: ٩٥٧٨٣٣

★ الإمارات: الشارقة - مكتبة الصحابة: هاتف: ٥٦٣٣٥٧٥

★ سوريا: دمشق - دار الفكر: هاتف: ٢٢١١١٦

★ قطر: مكتبة ابن القيم: هاتف: ٤٨٦٣٥٣٣

★ الأردن: عمان - دار الفكر: هاتف: ٤٦٥٤٧٦١

تحذير: حقوق الطبع محفوظة، ولا يجوز تصوير أو نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، وكل من يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية من جانب الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

في القرن الرابع عشر الهجرى انقضت صاعقة على وجه الأرض، وخاض الإسلام معركة فاصلة أمام الصليبية الشاكية سلاحها والمندفعة في تهور لتحطيم كيان دولة الإسلام. وقد كان الهجوم صاعقاً ومتمثلاً في استخدام أحدث الوسائل العلمية وهي ثمار التقدم العلمي الهائل الذي انفتحت به أبواب السموات والأرض أمام علماء الغرب.كذا كان الهجوم الفكري النظري عن طريق التشكيك في الدين عموماً، وفي الإسلام خصوصاً ووصفه بأبشع الصفات من التخلف والجهل والهمجية وغيرها مما ابتدعه الغرب وروج له وسار وراءه الكثيرون من أبناء المسلمين. وسقطت أعداد كبيرة ضحايا هذا الهجوم العقلي الفكرى المدمر بعدما سقطت مساحات هائلة من أراضي المسلمين تحت قبضة الصليبية والغرب الكافر.لقد كان على المخلصين في هذه اللحظات الفاصلة من تاريخ الإسلام المواجهة الفكرية على ساحات القلوب والعقول والمواجهة الجهادية على ساحات المعارك الطاحنة فوق كل شبر من أرض الإسلام.ولقد كان بريق أحدث المخترعات وأشدها إبهاراً لأعظم العقول رصانة وحلماً مؤد إلى حالة من الإحباط العام في أوساط المسلمين.وكان أمراً بدهياً أن يرجعوا إلى القرآن العظيم كتابهم العتيد وملاذهم الأمين، والذي كان طوال تاريخ الإسلام الحصن الحصين والركن الشديد. يبحثون فيه عن المخرج من الفتنة وعن النجاة من الحصار الكافر المضروب فكراً وواقعاً على حاضرهم.

لقد كان التفسير الموضوعى للقرآن الكريم هو السلاح الماضي الذي أعاد الثقة إلى المضللين من المسلمين بكتابهم بعد أن اهتزت تحت الدعاوى الهائلة للغرب الكافر.

ولقد كان التفسير الموضوعى للقرآن الكريم هو الحافز الصارم كي ينهض العاثرون ويلتقط المترنحون أنفاسهم.

ولقد كان الأزهر الشريف هو الصخرة الصلبة التي استعصت على محاولات الغرب لضرب الإسلام، ولقد واجه علماؤه الحرب المفروضة عليهم في أوائل هذا القرن (الرابع عشر الهجرى) وكانوا عند الظن بهم تضحيةً وجهاداً، وفطنة وذكاءً وارتفاعاً إلى السماء في مستوى الأحداث الجسام التي واجهها الإسلام.

ولقد كان على رأس الناهضين للمواجهة الشيخ محمد عبده مفتي الأزهر الشريف وعضو مجلس إدارته، والذي ساعده بل وقذف به إلى بؤرة الأحداث محدثا هذا الأثر الهائل والتجديد التفسيرى المشهود هو المعركة الطاحنة والهجوم الضاري للهجمة الإستعمارية الغربية عسكريا وفكريا وذلك لكسر شوكة المسلمين وهدم مقاومتهم جنبا على جنب مع التشويش على معتقداتهم وغزو عقولهم وغسيل أمخاخهم،

لقد كانت حالة السعار والميول الإنجليزية والفرنسية للافتراس والتوغل في الجسد الإسلامي على أشدها، ونظر الساسة الإنجليز والفرنسيين إلى العالم الإسلامي نظرة السيد الذي أيقن بانهيار فريسته وسقوطها إلى غير رجعة بين براثنه. وبدا الأمر وكأن الإسلام قد طويت صفحته ودرست سيرته وطمست معالمه.

ومنه يتبين إن قضية التفسير الموضوعى للقرآن والسنة قد ظهرت بصورتها الكاملة مصاحبة لموجة الإستعمار التي فتحت بها أبواب العالم الإسلامى في القرون الأخيرة، ولقد بلغت المحنة ذروتها بسقوط الخلافة الاسلامية نهائيا فى الثلث الأول من القرن العشرين، ووقوع معظم دول الإسلام تحت الهيمنة المباشرة لدول الكفر مما أدى الى ردود فعل بالغة العنف على عامة المسلمين وعلمائهم، على المستوى العقدى والسياسي والاجتماعي والنفسى.

لقد كان تفسير القرآن بالطريقة المأثورة والمطولات والأسانيد والإختلافات – وإن كان تراثا مهيبا رفيعاًعالياً – إلا أنه كان بعيدا بلغته عن القدرات المتواضعة لقوم لعبت العجمة بألسنتهم، وبعيدا بعمقه البالغ عن مدارك قوم عصفت رياح الشعارات الجوفاء،والدعاوى المتضاربة بأدمغتهم، وبعيدا بحجمه الضخم والذي يدل على بعد همة المتقدمين بما لا تحتمله العزائم الواهنة للذراري المتقاذفة الى أتون فتنة عمياء صماء تسحق ولا تبقي هناك باقياً.

لقد كان على علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الحقبة المضطربة واجبا تنوء بحمله الجبال، إذ كان عليهم أن يسهروا على تفاسير السلف، سواء بالدراية أو الرواية، وأن يجمعوا ما فيها من ذخائر تفوق الحصر بينما الحصار حولهم من كل جانب، كذا كان واجباً إسلاميا مقدسا أن يحيلوا هذا جميعه إلى لغة تفسيرية معاصرة تحقق تواصل المسلمين المصيرى مع كتاب ربهم في هذا المنعطف المر من تاريخ الإسلام.

لم يكن الظمأ إلى نور الإسلام بحالة تسمح لهم بالإنكباب السنوات الطوال على التفاسير الأولى بأحجامها وتشعيبها ودسامتها وغزارتها، فقد كانت تمثل حقيقة الاسلام في أزهى عصوره وأغناها علما ومعرفة وهداية وأمانا.

وهكذا وجدنا أمامنا هذه المدرسة الجديدة في تفسير القرآن التى خصص لها العلماء أبوابا منفردة في مصنفاتهم تحت عناوين كثيرة كلها تندرج تحت مسمى التفسير الموضوعى، وكلها تصب في معنى واحد هو جهود علماء العصر الحديث لتفسير القرآن - ذاك الغيث النازل - لجموع الزاحفين وسط الظلمات، الجهد الذي فرضته الطبيعة الصارمة القاسية لمرحلة من أشد مراحل الاسلام إيلاماً.

لقد كان (التفسير الموضوعى) للقرآن العظيم جامعا حلقات هذه المدرسة، وقد علمت الأمة الضرورة التي دعت إليه، غير أنه فاجأ الكافة في إبرازه سيلا من المعجزات الكبرى التى كانت كامنة في جنبات القرآن، وقف أمامها الكفر ذاهلا، ومن خلفها الاسلام من قاع محنته غازيا ومنتصرا وفاتحا.

لقد بدا الأمر فوق الأسطورة، إذ تفجرت من ثنايا هذا الكتاب المعجز قضايا لم يكن أشد المؤمنين تشددا، ولا أشد الكافرين كفرا يخطر بباله أنها تمت له بصلة.

هذه الآيات المتدفقة العذبة، المذيبة لأشد القلوب قساوة وجموداً، كيف كانت تحمل هذا الحجم من المعارف، وتسبح حول المجرات تحكي أسرارها، وتغوص في أعماق النفوس لتشهد لباريها، وتتسلل بين ثنايا الفكرالإنسانى والعلاقات البشرية لتصدم عقولا أطغاها العلم وأفسدتها المعرفة.

كل هذا كان كامناً بين دفتي ذلك الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، حتى جاءت اللحظة الحاسمة، بينما الجميع يتلفتون في يأس وإحباط بعدما عدم الإسلام كل وسيلة للمقاومة، وأعلن الكفر سيطرته الكاملة على مقاليد الأمور، فإذا بالمعجزة المزلزلة الصاعقة تخرج فجأة لتعلن على رؤوس الأشهاد (أولم

ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد إقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون).

ولما كنت ممن قدر لهم الوقوف على هذا الثغر من ثغور الإسلام بمَنّ الله تعالى وعظيم فضله عليّ من غير استحقاق لى، وذلك بحكم تفرغى لتدريس التفسيروعلوم القرآن فى الجامعة فقد توفرت على ما صنفه المصنفون فى هذا الباب فإذا أكثره تطبيقات واجتهادات مرسلة، يكاد أكثرها يفتقر إلى التأصيل المتكامل من الأدلة الشرعية الوافية مما أورث فى طلبة العلم تشتتا وحيرة أعاقت التعرف على المنهج الكامل للتفسير الموضوعى فضلا عن الإحاطة به، بما ظهر جليا فى كثرة تساؤلاتهم المقلقة عن جوانب هذا المنهج وخصائصه حيث افتقدوه فى سائر المصنفات المتاحة، مما دفعنى ــ بعد الإستعانة بالله تعالى ورجاء توفيقه ــ إلى هذه المحاولة المتواضعة للتصنيف فيه، وقد أودعته القدر الذى رزقته منه مع كثرة الشواغل والآفات وقلة الأعوان والرفقاء. جامعا ما أمكن بين المتنافرات وموفقا بين المختلفات ومرتكزا أشد ما يكون على التأصيل الشرعى وبيان الملامح الواضحة للتفسير الموضوعى وأنواعه وطرائقه، بانيا على ما شاده السابقون، ومضيفا من المنافع والزيادات ما لم يأت لها ذكر فى سائر المصنفات، وما ذاك من علم، بل من رحمة الله تعالى وفيض كرمه عليّ، أنا العبد العاصى المشتت الذهن، الواهن العزم، العظيم التفريط فى جناب الله تعالى. وقد ذكرت الشبهات التى اعترضت بعض المخلصين فى أصل المسألة، وأسهبت فى الفوائد الجمة لهذا العلم الجليل، والذى أجمعت الأمة اليوم بفضل الله تعالى على مشروعيته ومنافعه العظيمة. ثم ختمته بتطبيق عملى على أشهر أنواعه وهو التفسير الموضوعى من جملة القرآن الكريم، يتبين به المقصود

وتتضح به الغاية وتظهر أعظم ظهور، فى بحث أرجو به رضى الله تعالى وسابغ عفوه وكرمه، جامعا فيه بين فرعين من أشق أفرع العلم ألا وهما علم التفسير وعلم الطب، حيث نقل عن الإمام الشافعى قوله أن أنبل العلوم بعد علم الكتاب والسنة هو علم الطب، فاجتهدت أن أجمع بينهما، نبلا على نبل، ونورا على نور فى هذا البحث التطبيقى ألا وهو: (معجزة خلق الإنسان بين الطب والقرآن). وقد تحرر بجملة ما جاء فى هذا المصنف تأصيلا وتطبيقا بيان نسبة هذا العلم الجليل للأصل الأصيل من التفسير التحليلى الذى نهج عليه سلف هذه الأمة المرحومة، فإذا كان التفسير التحليلى هو اللبنات المباركة التى توفر السلف عليها فى صبر ودأب فإن التفسير الموضوعى هو البنيان المرصوص فى مواجهة رياح التغريب والكفر العاتية، وإذا كان التفسير التحليلى هو الذخيرة الحية المتولدة من وهج قلوب علماء السلف الصالح فإن التفسير الموضوعى هو السلاح الماضى على جبهات المواجهات المضرجة العاصفة، وإذا كان التفسير التحليلى من تراث السلف مصبوغا باللون الأخضر المهيب فإن التفسير الموضوعى من جهاد الخلف مصبوغ باللون الأحمر الخضيب.

وها أنا أيها القارىء الكريم أتوجه به إليك قاضيا حق أخوتك ومرتجيا بركة دعائك وموصيا نفسى وإياك بإدامة النظر فى كتاب الله طريقا رشيدا لمعرفة الله تعالى والتقرب إليه بسائر الطاعات، فبه تنال غاية السعادة. جعلنا الله تعالى وإياك من سعداه بفضله وجوده وطوله وسعة رحمته إنه هو الجواد الكريم الرؤوف الرحيم، كما أرجومنك حسن القبول والتجاوز عما تجده من زلات وهنات متمثلا قول ناظم الشاطبية.

فـيالأيها المجـتاز نظمى ببابـه ينادى عليه كاسـد السـوق أجمِلا
وظـن بـه خيرا وسامح نسيجه بالإغضاء والحسنى وإن كـان هلهلا
وسـلم بإحـدى الحسنيين إصابةٌ والأخرى اجتهاد رام صَـوْبا فأمحلا
وإن كـان خـرقٌ فادّركه بفَضلةٍ مـن العلم وليُصلِحه من جـاد مِقْوَلا

وفـى الله رجائـى وإليه سؤالى أن يجعلنى ممن اختارهم واجتباهم لخدمة كـتابه العظيم وسنة نبيه الكريم وأن يتجاوز عن زلاتى الكثيرة وأن يجعله فى ميزان حسناتى إنه ولى ذلك والقادر عليه.

د.توفيق علوان

الباب الأول

(التأصيل الشرعى للتفسير الموضوعى)

التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

ثمرة بهيجة فى رياض الكتاب والسنة

الفصل الأول

سلفية المنهج وعصرية المواجهة

تعريف التفسير الموضوعى

وتقاطر الأدلة الشرعية على مشروعيته

تعريف التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي:

هو اصطلاح مركب من لفظين: لفظ: (التفسير)، ولفظ: (الموضوع).

ولبيان التعريف يلزم تعريف كل واحد من هذين اللفظين، ثم تعريف الاصطلاح المركب بناء على تعريف مفرداته وعلى هذا نبدأ بتعريف لفظة: (التفسير)لغة واصطلاحاً.

أولاً: تعريف التفسير لغة واصطلاحاً:

١) التفسير في اللغة:

التفسير مصدر عن وزن (تفعيل) وفعله الثلاثي " فَسَرَ "

يقال: فسَر الشئ فَسْرا. والفعل الماضي من التفسير هو الرباعي: فَسَّرَ.

يقال فَسَّر الشئ تَفْسيراً. والجذر الثلاثي للكلمة هو: الفَسْر.

قال ابن منظور في لسان العرب:الفَسْر: البيان، يقال: فَسَرَ الشئ فَسْراً أي أبانه والفَسْر: كشف المغطى، والتَفْسرة: البول الذي يكشف به عن المرض.

قال أهل البيان: التفسير هو أن يكون في الكلام لبس وخفاء، فيؤتى بما يزيله ويفسره، قاله أبو البقاء الكفوي فى الكليات.

٢) التفسير في الاصطلاح:

أورد السيوطي في كتاب " الاتقان " عدداً من التعاريف لمصطلح التفسير نذكر منها مايلي:

أ) التفسير في الاصطلاح هو:

" علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ومكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرهاونهيها، وعبرها وأمثالها " الاتقان ١١٩١/٢.

ب) قال الزركشي في البرهان:

التفسير: "علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج ذلك لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ "

ويلاحظ أن هذين التفسيرين يتحدثان عن تفريعات وعن مصادر وموارد أكثر من الحديث عن تعريف موجز جامع مانع لعلم التفسير.

جـ) قال محمد بن عاشور: " التفسير: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع " التحرير والتنوير – ابن عاشور ١١/١

د) قال محمد أبو سلامة في (منهج الفرقان):

" علم يبحث عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله، بقدر الطاقة البشرية " (منهج الفرقان ٦/٢).

قال الزرقاني في مناهل العرفان:

- المراد بكلمة " علم ": المعارف التصورية.
- وخرج بقولنا: " يبحث فيه أحوال القرآن " العلوم الباحثة عن أحوال غيره.
- وخرج بقولنا: " من حيث دلالته على مراد قوله تعالى " العلوم التي تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته، كعلم القراءات، فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها. ومثل علم الرسم العثماني فإنه يبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث كتابة ألفاظه.
- وقولنا: " بقدر الطاقة البشرية ": لبيان أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني المتشابهات، ولا عدم العلم بمراد الله في الواقع ونفس الأمر "

{ملحوظة: هذا التعريف الأخير هو الأقرب للصواب وقد رجحه الزرقاني في مناهل العرفان}

فخلاصة القول:

أولاً: التفسير لغة: هو البيان والإيضاح، مشتق من: الفَسْر، والتفسير مبالغة.

ثانياً: التفسير اصطلاحاً هو: "علم يبحث في كتاب الله من حيث مراد الله بحسب الطاقة البشرية".

هذا على أقرب التعاريف للصواب. وتفصيل شرح هذا التعريف مبسوط في موضعه من كتابنا (إرواء الظمآن فى علوم القرآن).

الموضوع في اللغة

وأما لفظ: "الموضوعي" فهو منسوب إلى "الموضوع"، والموضوع: مشتق من "الوَضْع"

والوَضْـــع: مصـــدر يضع، وَضَع، " وهو جعل الشئ في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الالقاء والتثبيت في المكان، يقال: ناقة واضـــعة: إن رعت الحمض حول الماء ولم تبرح، وقيل: وضعت تضع وضيعة فهي واضعة، وكذلك موضوعة يتعدى ولا يتعدى.

ويقال: وَضَع العلم: اهتدى إلى أصوله وأولياته (وهو تعريف "مولَّد" بمعنى أنه استعمل قديماً ولكن بعد عهد الرواية).

والموضوع: المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه.(٤)

والموضوع في الفلسفة: المُدْرَك، ويقال الذات.

والموضوع في المنطق: المقول عنه، ويقابل المحمول.

(هذه معان محدثة أقرتها مجامع اللغة العربية)

ومنه:

أولاً: وضعت الإبل، وضيعة: رعت الحمْضَ حول الماء ولم تبرح، فهي واضعة وواضع.

* وَضَع الشيء: ألقاه من يده وحطَّه [ضد رفعه].

* وضع الشيء إلى الأرض: أنزله.

* وضع الشيء في المكان: أثبته فيه.
* وضع يده في الطعام: جعل يأكله.
* وضع عنقه: ضربها.
* وضع عنه الدَّيْن والجزية: أسقطه.
* وضعه: اختلقه [يعني اخترعه]
* وضع الرجل الحديث: افتراه وكذبه واختلقه.
* وضعت الحامل ولدها وَضْعاً: ولدته. فهي واضع.
* هو موضوع في تجارته: خاسر فيها.

ثانياً:

* وَضَع يضَعُ، وموضوعاً: أسرع في سيره.
* وَضَع السراب على الآكام: لمع وسار

ثالثاً:

* واضَعَ فلانٌ فلاناً: وافقه في الأمر.
* واضَعَ فلان فلاناً في الأمر: ناظره فيه
* واضع فلان فلاناً في الرأي: أطلعه هو على رأيه وأطلعه الآخر على رأيه.

رابعاً:

* وَضَّعَ الباني الحجر: نضَّد بعضه على بعض.
* وَضَّعَ الحائك الحلة: خاطها بعد وضع القطن فيها.
* وَضَّعَتَ النعامة بيضها: وضعت بعضه فوق بعض.

خامساً:

* المَوْضِع: اسم المكان.

سادساً:

* الوَضِيعَةُ: قوم من الجند يوضعون في كورة لا يغزون منها.

* الوضِيعة: واحدة الوضائع، وهي أثقال القوم.

* هؤلاء أصحاب وضيعة: أصحاب حَمْض مقيمون فيه لا يخرجون منه.

سابعاً:

* وَضَع العلم: اهتدى إلى أصوله وأولياته. (استعمله الناس قديماً بعد عهد الرواية ويسمى مُوَلّد)

ثامناً:

* المَوضُوع: المادة التي يبنى عليها المتكلم أو الكاتب كلامه.

* الموضوع: في الأحاديث: المختلق [المخترع].

* الموضوع: في الفلسفة: المُدرَك، ويقابل الذات.

* الموضوع: في المنطق: المقول عنه، ويقابل المحمول.

* الموضوعيّة: في الفلسفة: منحى فلسفي يرى أن المعرفة إنما ترجع إلى حقيقة غير الذات المدركة.

[هذه المعاني للفظة: الموضوع، أقرها مجمع اللغة العربية بمصر]

تاسعاً:

* الوَضْـعِيَّة: مذهب (أوجست كونت) وهو ينكر ما وراء الطبيعة [الغيب] ويقيم المعرفة بناءعلى الوقائع والتجربة.

[بإقرار مجمع اللغة العربية المصري]

عاشراً:

* الوَضْعُ: الموضوع (تسمية بالمصدر)

* الوَضْـعُ: هيـئة الشـيء التي يكون عليها، جمعه: أوضاع (لفظ مولَّد استعمله الناس قديماً بعد عهد الرواية).[1]

فثـبت ممـا تقـدم معان جليلة كثيرة كلها من سمات التفسير الموضوعى وبيانه ما يلى:

أولاً: "الوضـع جعـل الشـيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الالقاء والتثبيت في المكان"

"الأول: وضـع مـادي حسـي، ومنه وضعه على الأرض، بمعنى: حطه والقائه وتثبيته عليها.

الثانـي: وضـع معنوي، ومنه: الوضيع، وهو الدنيء المهان الذليل، الذي قعـدت به همته أو نسبه، فكأنه ملقى على الأرض، موضوع عليها، لا يفـارق موضعه الذي التصق به. والنوعان يلتقيان على البقاء في المكان وعدم مغادرته، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي،

(١) المعجـم الوسـيط – الجـزء الثاني: صـ١٠٣٩ –دار الدعوة– استانبول – تركيا بدون تاريخ. (مجمع اللغة العربية – الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث).

لأن المفسر يرتبط بمعنى معين، وموضوع محدد من موضوعات القرآن، يبقى معه، ولا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ منه"[1][2][3]

ثانياً: المعنى الثاني هو الظاهر من قولهم: "وضع الأمر: بمعنى اختلقه أي اخترعه" وابتكره على غير سابقة، ولذا كان مذموماً عن النسبة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أي بمعنى الكذب والافتراء فيما عرف بالحديث الموضوع، ولكن هذا المعنى العربي على الجملة إنما يفيد اختراع أمر على غير مثال سابق، وهو بالنسبة للتفسير الموضوعي ملاحظ من جهة إظهار أمور جديدة وكأنها مخترعة على غير سابقة ولا يتم ذلك إلا بعد استفراغ الجهد في معنى معين ومسألة بذاتها في كتاب الله واستعراضها من كافة جوانبها للخروج بنتيجة لا سابقة لها في جهود الأولين.

ثالثاً: من قولهم: "وضع يده في الطعام أي جعل يأكله"، يفيد معنى الدأب والمثابرة والفهم فيما يتعلق بالآكل حتى ينتهي من طعامه، ويفرغ من أطرافه جميعها، وهذا المعنى في التفسير الموضوعي ظاهر في مثابرة الباحث ونهمه في جمع أطراف الموضوع المطلوب، ومتابعة البحث دون هوادة حتى يتم الاستيعاب الكامل لأصول المسألة وتفريعاتها، والخروج بخلاصتها بعد تمام هضمها.

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: جدد. مصطفى سلم -دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤١٨ -١٩٩٧م.

(٢) المدخل إلى التفسير الموضوعي. د.عبد الستار سعيد - دار الطباعة والنشر الإسلامية ص٢٠-٢٣.

(٣) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص٢٩ د. صلاح عبد الفتاح الخالدي - دار النفائس للنشر والتوزيع- الأردن. الطبعة الأولى١٤١٨.

رابعاً: من قولهم: ".. موضوعاً: أي أسرع في سيره" "وضع السراب على الآكام: لمع وسار" ووجه مناسبة ذلك لخصائص التفسير الموضوعي، هي تميزه بالقاء الضوء على جوانب الموضوع المختار والمرور من أول القرآن لآخره في سرعة وسير حثيث للانتهاء إلى معان وأفكار جامعة رابطة بين الأطراف، وهذا خلاف التفسير التحليلي الذي يستلزم الوقوف على الآيات بنفس ترتيبها في المصحف مع السير البطيء العميق في تؤده إلى بلوغ نهاية المصحف وذلك يتطلب آجال طوال وأزمنة بعيدة. فالسرعة النسبية وتجلية المعاني البارقة الجديدة هي خصال من أظهر خصال التفسير الموضوعي.

خامساً: من قولهم: "واضع فلانٌ فلاناً: وافقه في الأمر -ناظره فيه- أطلع كل منهما رأيه على الآخر"، والمناسبة بين هذه المعاني وطبيعة التفسير الموضوعي ظاهرة حيث يتأسس على المناظرة وإبداء الدفوع ورد الشبهات، بل لعل هذه المهمة من أهم أسباب نشوئه رأساً كما سنبينه إن شاء الله تعالى. ولا تستقيم الفكرة وتتوجه العقيدة إلا بعد النظر والاستكشاف لجوانب الموضوع والتوفيق بين أطرافه، خاصة إذا تشعبت في جنبات الكتاب الكريم تفصل مئات الآيات والأحكام والأفكار، ففيه معنى الموافقات بين الأطراف، والمناظرة، وإطلاع الآخرين على المذهب النهائي للكتاب في الموضوع محل النزاع.

سادساً: من قولهم: "وضَّع الباني الحجر: نضَّد بعضه على بعض، وضَّع الحائك الجبة: خاطها بعد مصنع القطن فيها. وضَّعت النعامة بيضها: وضعت بعضه فوق بعض" وهذا منهج أصيل في البحث الموضوعي

والتفسير الموضوعي يرتكز على البناء المحكم المتكامل للفكرة والموضوع، بحيث تبدو بنيته كالبنيان المتراكب من لبنات بعضها فوق بعض وأخذ بأعناق بعض، حتى كأنه نسيج متكامل من أطراف شتى أو ثوب موشى من عناصر متجانسة، مع وصف الباني، والحائلة، ويشترك الجميع ها هنا في انتقاء اللبنات أو الخامات والدأب والمثابرة وحسن الاختيار وفن البناء.

سابعاً: من قولهم: "الموضع: اسم المكان": وذلك أن التفسير الموضوعي يتميز بالاستقرار في "مكان" فكري واحد ويلزمه فلا يبرحه، كما ذكرنا في أولاً، وفي إطار هذه البقعة من الفكر يبذل جهده ويتم سعيه على ما بينا سابقاً.

ومن ذلك أيضاً قولهم: الوضيعة: أثقال القوم –الجند في جهة لا يغزون منها– أصحاب روضة لا يخرجون منها فالمفسر الموضوعي يلتزم دائرة بحثة كأنه جندي في ثكنة لا يغادرها، أو روضة يتجول فيها ولكنه لا يخرج منها، وفيه معنى اقتصار التفسير الموضوعي على مسائل بعينها، بحوث بذاتها، لا يجاوزها إلى غيرها حتى ينتهي منها.

ثامناً: من قولهم: "وَضَع العلم: اهتدى لأصوله وأوليائه" والتفسير الموضوعي يتميز بالبحث عن أصول الموضوع وأوليائه في كتاب الله عن طريق منهج البحث الموضوعي المقرر عند أصحاب الاختصاص والدراية، فالاهتداء إلى أصل المسألة هو غاية من أعظم غايات التفسير الموضوعي ولا يتوصل إليها إلا باستفراغ الجهد الشرعي في جمع أطراف أدلتها من كتاب الله والنظر والتدبر والمقارنة لبلغ الغاية المرجوة.

تاسعاً: من قولهم: "الموضوع: المادة التي يبنى عليها المتكلم أو الكاتب كلامه" هذا القول حديث معلوم، ولعل هذا المعنى أقرب إلى العقلية المعاصرة مما سبق، وخاصة فيما يتعلق بمناقشة الموضوعات وعرض الأفكار، فالموضوع ها هنا هو المقصود من هذا النوع من التفسير، حيث هو مادة يبنى عليها المفسر فكرية واستنتاجاته وهذه المادة عادة ما تكون فكرة مطروحة وسواء كانت غربية وافدة أو علمانية منحرفة أو نظرية إلحادية، أو غير ذلك فالمفسر الموضوعي يبدأ في استعراض النص الكريم للوصول إلى بناء فكري متكامل يدحض شبهة أو يقوم إعوجاجاً أو يظهر عقيدة إسلامية من كتاب الله تعالى.

عاشراً:من قولهم: "الموضوع: المدرك – المقول عنه" "الموضوع: الوضع: هيئة الشيء التي يكون عليها"، والتفسير الموضوعي هو مسألة يدرك عن طريق النظر في كتاب الله، ثم يكون الكلام عنها بحسب الهيئة التي وجدت عليها في الكتاب مع تجلية جوانبها وإظهار ملامحها بحسب الدرجة التي تم إدراكها عليها.

* * * * *

خصائص للتفسير الموضوعى

مستنبطة من تعريفه اللغوى

فمن جملة المعاني السابقة والمستنبطة من الدلالات اللغوية للفظ: الموضوع ومشتقاته تتجلى حقائق بينه حول الخصائص البارز للتفسير الموضوعي، وخلاصتها ما يلي:

- هو تفسير يرتبط بمعنى معين وموضوع محدد من موضوعات القرآن لا يتجاوزه إلى غيره.
- هو تفسير يستخلص الأفكار من بين ثنايا الآيات المتفرقة وكأنها أفكار مبتكرة لا سابقة لها.
- هو تفسير يتميز بعدم عرض النتائج قبل الانتهاء من جمع أطراف الأدلة وهضمها واستيعابها.
- هو تفسير يركز الضوء على المعاني الخافية حتى تسطع وتتجلى بعد البحث الحثيث في الكتاب، فهو أسرع من التحليلي وأشد تركيزاً.
- هو تفسير يعتمد على عمق النظرة والتدبر والموافقة بين الآيات المتباعدة في الموضوع وعرضها كرد على شبهة أو كدعوة للهداية.
- هو تفسير يقوم على رص الأفكار والعناصر لبنة فوق أخرى حتى تتكامل الفكرة كأنها بناء محكم.

- هـو تفسير يسعى إلى الغوص في أعماق الكتاب لبحث الأمور من جذورها والكشف عن أصول الموضوعات وأولياتها.
- هـو تفسـير يبحث في المسائل من جهة الهيئة التي هي عليها في الكتاب بعد إدراكها، ولا يهتم بمسألة لا أصل لها في كتاب الله.
- هـو تفسـير واقعي لا يتخيل الموضوعات ودوره هجومي دفاعي إيماني بحسب الظروف العصيبة التي خاضها ويخوضها الإسلام في العصر الراهن.

فهـذه بعض الخصائص والخصال التي يتميز بها التفسير الموضوعي من واقع المعاني اللغوية.

****

التعريف الاصطلاحي للتفسير الموضوعي

نظـــراً لحداثـــة التفســـير الموضوعي من جهة الزمن، والقلة النسبية لعدد العلمـــاء المهتمـــين بـــه خاصة في بداياته الأولى، وجدنا أنهم قد اختلفوا حول التعـــريف الجامع المانع لهذا العلم التفسيري الجديد، بحيث يشتمل على ما يميزه ويجمع خصاله، وكذلك يمنع كل الصفات التي ليست منه، أو الخصائص التي لا تنتسب إليه.

فذكـــر العلمـــاء تعـــريفات متعددة للتفسير الموضوعي منها ما هو شارح لمـــنهجه أكثـــر مـــنه تعريف له، ومنها ما هو مقتصر على بعض سماته دون البعض، ومنها ما هو قريب من التفسير المراد. فكانت التعريفات على ما يلي:

(١) التفسير الموضوعي:

"عـــبارة عـــن جمـــع الآيـــات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، مشتركة في الهدف، وترتيبها على حسب النزول- كلما أمكن ذلك- ثم تناولها بالشرح والتفصيل وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين والملحدين من أعداء الدين"[١]

وهذا التعريف يؤخذ عليه مسائل:

---

(١) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم – د.زاهر بن عواض الألمعي – الطبعة الأولى ١ /١٤٠٤/١هـ ص٧.

١- لم يذكر فيه أنه "علم" وهذا البدء ضرورة لتعريف التفسير وذلك لاطباق السلف والخلف على تعريف التفسير عموماً بأنه علم، والعلم من قبيل التصورات أو التصديقات على الخلاف بين العلماء، فوصف التفسير بأنه "جمع الآيات" مخالف لما هو مقرر في تعريف التفسير بين العلماء.

٢- قوله "جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد" هذا منهج بحث وطريقة عمل، وليس تعريفاً للتفسير الموضوعي، والتعريف يجب التفرقة بينه وبين وسيلة البحث ومنهاج العمل.

٣- قوله: "مشتركة في الهدف" هو قصر للتفسير الموضوعي على الموضوعات ذات الأهداف فقط بينما التفسير الموضوعي يشمل الألفاظ على مدارات استعمالها دون اشتراك في الهدف بين الآيات المتناولة لهذه الألفاظ كما سيتبين إن شاء الله عند عرض أنواع التفسير الموضوعي.

٤- الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد قد تكون في سورة واحدة أو عدد من السور أو بعض سورة أو في القرآن بكامله في لفظ منه والتعريف ذكر "الآيات القرآنية" دون إشارة أو توضيح لهذه الفروق الكبيرة.

٥- قوله: "ترتيبها حسب النزول..." فيه أمران:

الأول: إن الترتيب هو خطة بحث وعمل ووسيلة للوصول إلى النتيجة وهذا ليس تعريفاً بل منهج بحث.

الثانـــي: إشـــعار بلزوم ترتيب الآيات حسب نزولها ضرورة كمنهج بحـــث فـــي التفسير الموضوعي،وهو لا يلزم، وربما كان ذلك أفضل غيـــر أنـــه ليس حتماً، فربما ظهرت قيمة الموضوع بترتيب الآيات حسب النزول أو ترتيبها حسب المصحف أو غير ذلك مما يخدم فكرة الموضوع.

٦- قوله: "وتناولها بالشرح.. إلى "كما ورد في القرآن الكريم" يرد عليه مـــا ذكـــرنا مـــن أنه طريقة وتفاصيل منهاج عمل وبحث ولا تصح التعريفات كشروح لخطط البحث.

٧- قوله: "والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين.." هو قصر لمجالات التفسير الموضوعي على موضوعات بذاتها وفي ذلـــك تضييق لدائرة البحث الموضوعي في كتاب الله والتي لا يحدها حـــد ولا يحـــيط أحد بها، فهي متسعة قدر اتساع علم الله تعالى في كـــتابه، ومـــثل ذلك يرد أيضاً على قوله: "وبيان حكمة الشارع في شـــرعه" فهـــو جانب من مجالات الانطلاق في التفسير الموضوعي غيـــر أنه واحد من مجالات وموضوعات لا تحصى من كثرتها في كتاب الله.

ممـــا ســـبق يتبـــين أن هـــذا التعـــريف هو أقرب إلى شرح خطة البحث الموضـــوعية في كتاب الله، وربما أراد الكاتب هذا المعنى فعلاً، ولم يقدمه على أنـــه تعريف صارم جامع مانع على الطريقة المعروفة في صياغة التعريف والله تعالم أعلم.

* * * * *

(٢) التفسير الموضوعي:

"إلقاء نظرة عامة على السورة تضم الكيان الذي نزلت به، وتلتقط صورة شمسية لها تبدو فيها الملامح والمعالم مجتمعة ويستطيع التالي أن يدرك أهداف السورة وقضاياها الكبرى"[١]

ويرد على هذا التعريف ما يلي:

١- أنه لم يذكر أنه "علم" مع أن العلماء أطبقوا على اعتبار التفسير "علماً" والتفسير الموضوعي هو نوع من التفسير ينطبق عليه ما ينطبق على علم التفسير فيجب أن يبدأ أي تعريف بتقرير أنه "علم" من علوم الإسلام عموماً وعلوم العناية بالقرآن خصوصاً.

٢- قوله: "إلقاء نظرة عامة على السورة.." هو قصر التعريف على التفسير الموضوعي للسورة فقط ولم يشمل التفسير الموضوعي للقرآن كجملة من حيث الموضوع الواحد، أو اللفظ القرآني الدائر على معانٍ مختلفة ومتكاملة في عموم كتاب الله.

٣- وجود ألفاظ غير مألوفة وغير مناسبة للتعاريف الشرعية مثل قوله: "تلتقط صورة شمسية للصورة" فهذا تقريب وتصوير لخطة البحث وطريقة العمل، باستخدام ألفاظ خاصة بالعامة بما لا يناسب مقام التعريف الرصين لواحد من علوم تفسير القرآن الكريم. فيتقرر مما سبق أمران: الأول: أن هذا أقرب إلى شرح منهج العمل، الثاني: أن العبارة لا تناسب تعريف التفسير.

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم – محمد الغزالي- الطبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣م – دار الشروق-ص٥.

٤- قــوله: "ويستطيع التالي أن يدرك... الخ" هو أيضاً شرح للمنهج والغاية المطلوبة منه، وهي لفت نظر القارئ إلى موضوعات السورة وأهدافها، والفــرق ظاهــر بــين الأغراض والوسائل والمناهج، وبين التعريفات الجامعة المانعة.

٥- لعــل الكاتب نفسه قد أدرك هذا القصور -وهو عالم فذ وداعية جليل- فقال معقباً: "والرائد يشغله عناء الكشف عن إحسان الترتيب والتبويب" "فلــيكن ذلــك التفسير تمهيداً لمن يجيئون بعدي يبنون عليه ويزيدون فيه"[١]

فهــو يقرر عدم اهتمامه بدقائق الترتيب والتبويب بما يفيد انشغاله بصميم العمل عن غيره، ومنه ما ذكرناه.

* * * * *

(٣) التفسير الموضوعي:

"هــو جمــع الآيــات القرآنية التي تتحدث عن قضية أو موضوع واحد، وتفسيرها مجتمعة واستنباط الحكم المشترك منها ومقاصد القرآن فيها"[٢]

ويرد على هذا التعريف ما يلي:

١- التفسير الموضوعي "علم يبحث فيه" ولم يذكر ذلك في التعريف، بل بدأ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) بحوث في أصول التفسير ومناهجه - د. فهد عبدالرحمن الرومي - مكتبة التوبة - الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ.صـ٦٢

بشـــرح المـــنهج فـــي بحـــث الموضوع وهو "جمع الآيات" وفرق بين التعريف ومنهج البحث كما ذكرنا.

٢- قوله "جمع الآيات القرآنية" لم يحدد ما إذا كانت في سورة أو عدة سور أو بعـــض سورة، والمتبادر من قوله أنها (في القرآن كله) بما يفهم منه نـــوع واحد فقط من أنواع التفسير الموضوعي، فهو تعريف جزئي لا يشمل عموم التفسير الموضوعي.

٣- ذكـــر بعض الألفاظ التي لا تناسب التعاريف مثل قوله "تتحدث" "قضية" وذلـــك لغـــرابتها أو أنهـــا موهمة، "فتحدث الآيات عن موضوع يمكن التعبيـــر عنه بتعبير سلفي مفهوم لأهل العصر مثل "تناولت" "بينت" أو تعبيـــر القـــرآن نفسه "بيناً"، "قضينا"، "فصلنا" وغيرها. أما لفظ "قضية" فهـــو مـــوهم لاحتمال القضية للقضاء والتحاكم وغيرها مما يتبادر إلى الـــذهن بمـــا لا ينصـــرف إلى "الموضوع" ويحسن ذكر لفظ غير هذه اللفظـــة، والملاحـــظ أنهـــا مكـــررة في التعاريف، نظراً لتأثر العلماء بالمصطلحات الدارجة في هذا الزمان.

٤- قوله: "وتفسيرها مجمعة" هو مصادرة على المطلوب، والمطلوب تعريف "التفســـير" الموضوعي، فقول "تفسيرها" في التعريف يلزم تعريفه أولاً، فـــلا يجوز الإشارة إلى "تفسير الآيات مجتمعة" في التعريف الذي يلزم فـــي المقـــام الأول تبيينه لمعنى "تفسير الآيات مجتمعة" وهو "التفسير الموضوعي" فتأمل.

٥- قـــوله: "واســـتنباط الحكـــم المشـــترك" هي طريقة بحث وليست تعريفاً

للمسألة، فالجمع والنظر والاستنباط وغيرها من الوسائل والمناهج هي أمور خارجة عن تعريف ذات المطلوب، والذات غير الوسائل المؤدية إليها، وهو ظاهر فتدبره.

فهـذه مآخذ واردة على التعريف السابق يلزم تداركها في معرض البحث عن تعريف واف للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

* * * * *

(٤) التفسير الموضوعي:

"هـو بـيان مـا يـتعلق بموضـوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده"[١]

وهذا التعريف يرد عليه ما يلي:

١- قوله" هو بيان" مردود بأن التفسير الموضوعي "هو علم" وليس بيان لما يـتعلق بموضـوع قرآني هذا من جهة التعريف، بل البيان هنا بمعنىٰ "التبيين" وهو منهج بحث وليس تعريفاً كما أسلفنا.

٢- تحديـد توجهات الموضوعات وأنواعها (فكرية – اجتماعية – كونية) هـو تضـييق لدائرة البحث الموضوعي، التي لا حصر لها ولا يمكن الوقوف عليها إذ هي شاسعة بقدر اتساع علم الله وتفاصيله المتغلغلة في كـتابه حتـى لقد قرر بعض العلماء أن العلوم التى في القرآن لا يمكن

(١) مـباحث في التفسير الموضوعي. د. مصطفى سلم – دار القلم- دمشق – الطبعة الثانية ١٤١٨- ١٩٩٧. صـ١٦.

حصـــرها – وســيأتي في بيان مبررات التفسير الموضوعي – إن شاء الله– فــتحديد مجــالات الــبحث في التعريف هو اجتزاء لدائرة البحث الموضوعي في القرآن.

٣- قــوله "مــن زاوية قرآنية" ألفاظ لا تناسب التعريف الجامع المانع لعلم برسوخ علم التفسير، ويحسن اختيار ألفاظ قرآنية معبرة عن المعنى مثل مقاصــد "قرآنية" أو "بيان قرآني" أو "أحكام القرآن" وغيرها من الألفاظ الشرعية المعتبرة.

٤- قوله "للخروج بنظرية قرآنية بصدده" مردود بأن المفسر الموضوعي لا ينشئ نظريات قرآنية، بل يكشف ويبين النظرة القرآنية على هيئتها في الكــتاب، فدوره الكشف والتجلية وليس إنشاء وخلق النظريات، أو كما قال العلماء: القرآن كالدرة حيثما نظرت لها من زاوية تكشف لك ضوء بلــون جديد بديع، فالمفسر الموضوعي دوره ضبط زاوية النظر لتجلية الشعاع باللون الباهر الجديد. فاعلمه.

(٥) التفسير الموضوعي:

" هــو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن، المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية"[١]

ويرد عليه ما ورد على غيره:

١- (جمع الآيات) منهج بحث وليس تعريفاً، وقد تبين الفرق بينهما.

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي – مصطفى سلم – مرجع سابق – صـــ١٦.

٢- "في سور القرآن" أغفل التفسير الموضوعي المتعلق بالسورة الواحدة، فكأنه ألزم بالتفسير الموضوعي للقرآن كله في الموضوع أو على الأقل في ثلاثة سور منه وذلك من قوله "في سور القرآن" وأقل الجمع ثلاثة.

٣- قوله: "لفظاً أو حكماً" قيد مجالات البحث الموضوعي بهذين الأصلين؛ بحيث لو تم البحث الموضوعي في غيرهما، كالأمور الهدائية أو الأدبية أو العلمية التي لا تستلزم الأحكام، لما جاز على هذا التعريف أن يكون تفسيراً موضوعياً وهو خطأ لدخول ما ذكرنا في صميم التفسير الموضوعي.

٤- قوله "وتفسيرها" مصادرة على المطلوب، والمطلوب ليس تعريف مصطلح "موضوعي" فقط، بل المطلوب تعريف مصطلح "التفسير الموضوعي"، فذكر لفظة "التفسير" في التعريف بينما هي شق المصطلح المطلوب تعريفه هو مصادرة على المطلوب.

* * * * *

(٦) التفسير الموضوعي:

"هو بيان موضوع ما من خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة"

ويرد عليه ما يلي:

١- "بيان" هنا بمعنى "تبيين" والتبيين متعلق بجهد الباحث وهو منهجه وطريقته، وهذا لا يعرف العلم المسمى "بالتفسير الموضوعي".

٢- قـــوله: "في سورة واحدة أو سور متعددة"لا يشمل ما هو أقل من السورة في الموضـــوع المبنـــي علـــى الألفـــاظ والمصطلحات، ولا يشمل الموضوع المستخرج من القرآن من أوله إلى آخره"

٣- لم يذكر الأساس الذي ينبني عليه البحث الموضوعي في الكتاب وأنه لا بـــد أن يكـــون تابعا للمقاصد القرآنية نفسها، فربما فهم أن مجرد البيان على أي طريق كافٍ ليكون تفسيراً موضوعياً، بل لا بد أن يتبع كليات القرآن ومقاصده.

٤- أغفـــل التصريح بأنه "علم يبحث في القرآن"، والتفسير الموضوعي هو "علم شرعي قرآني في المقام الأول".

* * * * *

(٧) التفسير الموضوعي:

" هـــو علـــم يـــبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية عن طـــريق جمـــع آياتهـــا المتفـــرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع"[١]

ويرد عليه:

١- الغمـــوض في قوله: "المتحدة معنى أو غاية" وما هو المعنى؟ وما هي الغاية؟، وإذا كان يمكن اجتماعهما في موضوع معين، فلما فرق بينهما بضرورة اختيار أحدهما؟!.

(١) مباحث في التفسير الموضوعي – مرجع سابق – صـــ١٦.

٢- قـوله: "عـن طريق...." معناه الدخول في تفاصيل منهج البحث وقد أوردنـا الفـرق بين تعريف ذات العلم المسمى بالتفسير الموضوعي، وبين شرح مناهج البحث فيه.

٣- قوله (وربطها برباط جامع) مشعر بإنشاء الباحث للرباط الرابط بينها واختـراعه بينما هو كامن في نفس آيات الموضوع، وما دور الباحث إلا إبـرازه وتجليته والكشف عنه وإظهاره، فهو لا يربط بل يكشف ما هو مرتبط فعلاً، فتنبه.

****

(٨) التفسير الموضوعي:

"هـو علـم يتـناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر"[١]

وهذا التعريف هو اختيار صاحب كتاب "مباحث في علوم القرآن" وقد علق علـيه بقوله: "ولعل التعريف الأخير هو الأرجح، لخلوه عن التكرار، ولإشارته إلـى نوعـيه الرئيسيين والتعاريف السابقة يغلب عليها طابع الشرح والتوضيح لمنهج البحث في التفسير الموضوعي"انتهى.

ولنا في ذلك جواب وهو:

١- "القضـايا" لفظـة محدثة ربما اشتبه معناها، بل هو مشتبه فعلاً مع ما يتـبادر إلـى الذهن من أنها المسائل التي ترفع إلى القضاة للبت فيها، بيـنما التفسير الموضوعي لا يتطرق إلى ما تختص به المحاكم إلا من ناحية حكم القرآن على ذلك.

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي -مرجع سابق- صـ١٦.

ورد في المعجم الوسيط:

"القضية: الحكم، والقضية: مسألة يتنازع فيها وتعرض على القاضي أو القضاة للبحث أو الفصل" وهذا المعنى مستخدم قديماً ولكنه مع ذلك بعد عصر الرواية.

٢- لعل هذه اللفظة "القضايا" [جمع قضية]، قد شاعت وذاعت بسبب ورودها في علم المنطق كمصطلح حديث للفلاسفة، وقد عرفها المناطقة المحدثون بأنها "قول مكون من موضوع ومحمول يحتمل الصدق والكذب لذاته، ويصح أن يكون موضوعاً للبرهنة وجمعها قضايا"[١]

وخلافها لأمور العقيدة، وأصول التفسير الموضوعي بهذا المعنى لا تحتاج إلى بيان، فإن موضوعات القرآن ليست (قضايا) تحتمل الصدق والكذب لذاتها، وإنما هي موضوعات لا تحتمل إلا الصدق الذي لا يتطرق إليه الشك في عقيدة المسلم، وإذا كان أهل المنطق يخترعون "القضايا" ذات الاحتمالات، فإن المفسر الموضوعي لا يخترع القضايا من حيث هي بل يبحث عنها في كتاب الله، ثم هي لا تقبل الاحتمالات. فدوره بيان وكشف وتجليته غاية الصدق والحق المبين الراسخ في كل حرف منها. ثم قولهم بأن "القضية" تصح أن تكون موضوعاً للبرهنة، لا ندرى البرهنة على ماذا؟، وغاية مراد المفسر الموضوعي هو تكثيف الأدلة الساطعة من الحق في كل آية للبرهنة للمخالفين على بطلانهم وشرودهم وبوار مذاهبهم. أو لأهل الهدى والحق على ثبات عقائدهم ورسوخ دينهم ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم.

---

(١) المعجم الوسيط ـ مرجع سابق

والحاصل أن هذه الألفاظ المحدثة وأمثالها مورثة لأشد حالات التشويش والغموض ويحسن الاستعاضة عنها بما يلائم ولا يؤدي إلى ما ذكرناه من الاضطراب فافهمه.

٣- أشار التعريف إلى النوعين الرئيسيين من التفسير الموضوعي وهما الموضوع في السورة، والموضوع في أكثر منها، ولكنه لم يشر إلى التفسير الموضوعي المبني على الألفاظ، وكذلك التفسير الموضوعي المتعلق بالموضوع المستخلص من القرآن كله، فإن قيل: فهذا داخل في قوله "أو أكثر" قلنا: أو أكثر يشمل الثلاثة إلى المائة وأكثر بينما القرآن كله محدد ومعلوم واستخلاص التفسير الموضوعي من جملته من صميم ضروب التفسير الموضوعي فلا يتبادر إلى الذهن عند إطلاق "أكثر" جملة القرآن، ويحسن في التعريف أن يقطع أي احتمال وأن يستوعب المعرَّف بشكل تام ويطرد ما سواه بصورة جازمة. إذ هو كالعَلَم على الذات، وتنعدم وظيفته عند أدنى احتمال.

* * * * *

التعريف المختار للتفسير الموضوعي اصطلاحاً

وعندنا أن التعريف المختار للتفسير الموضوعي ينبني على ما قرره العلماء الأوائل من جهة أنه نوع من التفسير، وقد أشبع العلماء مسألة تعريف التفسير بحثاً وانتهوا إلى تعاريف أقربها للصواب:

"هو علم يبحث في كتاب الله من حيث مراد الله تعالى بحسب الطاقة البشرية"[1]

والتفسير الموضوعي هو تفسير قطعاً فيندرج تحت هذا التعريف الجامع على أن يقيد بما يميزه عن سائر صنوف التفاسير كالتفسير التحليلي والتفسير المقارن والتفسير الإجمالي وغيرها.

وما يميزه في ما نرى هو كونه يتعلق بالموضوع القرآني لفظاً أو معنى، فعند هذا يكون التعريف الأمثل للتفسير الموضوعي هو:

"علم يبحث في موضوع لفظي أو معنوي من كتاب الله أو بعضه من حيث مراد الله بحسب الطاقة البشرية"

وتخريجه كما يلي:

أولاً: علم: يفيد أن التفسير الموضوعي واحد من العلوم الشرعية المتعلقة بالقرآن الكريم وأنه من قبيل التصديقات أو التصورات على خلاف العلماء في ذلك.

---

(١) مناهل العرفان – الزرقاني – التفسير والمفسرون – الذهبي وغيرهما.

ثانـــياً: "يـــبحث في موضوع" يخرج التفسير التحليلي وغيره لأنه لا يبحث الموضوعات في القرآن بل يلتزم بترتيب الآيات والسور على ما هي علـــيه فـــي المصـــحف، أو غيـــرها مـــن خصائص التفاسير غير الموضوعية.

ثالثاً: "لفظي أو معنوي" يشمل كافة الموضوعات الواردة في الكتاب أو في حياة الناس العقيدية والدعوية الفكرية واللغوية والاجتماعية والسياسية والاقتصـــادية والأدبية والكونية العلمية التجريبية وغيرها مما لا يقع علـــيه الحصر، فإنه يجمعها كلها أنها تندرج تحت ألفاظ أو معاني أو ألفاظ ومعاني، فإن كانت عمدتها الألفاظ فهو موضوعي لفظي، وإن كانـــت المعانـــي فكل فكرة ترد على قلب بشر لها معنى، وإن كانت الألفاظ والمعاني فهي الأدبيات والموضوعات الشبيهة بها.

رابعـــاً: "مـــن كتاب الله" أخرج به البحوث الموضوعية في غير كتاب الله مـــثل موضوعات المؤلفات الوضعية البشرية في كافة جوانب العلوم الفكرية والعلمية والأدبية وغيرها.

خامسًـــا: أو بعضـــه: يـــدخل فيه ما هو دون كتاب الله تعالى بجملته فهو يتـــناول السورة واللفظ وأقل من ذلك كالحرف وأكثر منه كالعدد من السور ذات الموضوع المشترك أو أكثر أو أقل منه

سادسًـــا: "مـــن حيث مراد الله" قيد البحث في التفسير الموضوعي بمنهج القـــرآن فـــي تناول المسائل ومقاصده الأولية والتابعة بحيث لا يعد تفســـيراً موضـــوعياً ما ينشأ من مناهج الباحثين ومحض معتقداتهم وأفكـــارهم، وبه تخرج التفاسير الموضوعية المنحرفة والقائمة على

غيـــر أساس شرعي وهي كثيرة في أيامنا مع الأسف وهدفها خدمة مذاهب منحرفة وأفكار وافدة مما هو معلوم وظاهر.

ســـابعاً: "بحسب الطاقة البشرية" توضيح لأن المفسر غير مكلف بمطابقة مزاد الله تعالى على الحقيقة في كل بحث أو مسألة وذلك لاستحالته، وإنمـــا غايـــة المطلوب هو استفراغ الجهد الشرعي واستيفاء شروط المفسر المعتمدة على مذهب أهل السنة والجماعة فما وافق مراد الله حقـــيقة فبفضـــل الله ومنته وكرمه، وما خالف بعد استيفاء الشروط المذكـــورة فالخطأ مغفور والجهد مأجور كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يقدح ذلك في كونه "تفسيراً موضوعياً".

فهـــذا ما رأيناه في هذه المسألة سائلين الله عز وجل التوفيق والسداد، فإن كـــان صواباً فمن الله تعالى وإن كان غير ذلك فاستغفر الله العظيم على التقصير والضعف وأسأله من خيره ما يليق بجوده وإنعامه وكرمه آمين.

*****

الفصل الثانى

جمرة تتقد بين الرماد

من هنا ولد إلى العالم علم ربانى جديد

أسباب ظهور التفسير الموضوعى

ملحمة القرآن فى وجه الطوفان

فـــي القـــرن الـــرباع عشر الهجرى انقضت صاعقة على وجه الأرض، وخاض الإسلام معركة فاصلة أمام الصليبية الشاكية سلاحها والمندفعة في تهور لتحطـــيم كيان دولة الإسلام. وقد كان الهجوم صاعقاً ومتمثلاً في استخدام أحدث الوسائل العلمية وهي ثمار التقدم العلمي الهائل الذي انفتحت به أبواب السموات والأرض أمـــام علمـــاء الغـــرب.كـــذا كان الهجوم الفكري النظري عن طريق التشـــكيك في الدين عموماً، وفي الإسلام خصوصاً ووصفه بأبشع الصفات من الـــتخلف والجهل والهمجية وغيرها مما ابتدعه الغرب وروج له وسار وراءه الكثيـــرون مـــن أبناء المسلمين. وسقطت أعداد كبيرة ضحايا هذا الهجوم العقلي الفكرى المدمر بعدما سقطت مساحات هائلة من أراضي المسلمين تحت قبضة الصـــليبية والغرب الكافر.لقد كان على المخلصين في هذه اللحظات الفاصلة من تـــاريخ الإســـلام المـــواجهة الفكرية على ساحات القلوب والعقول والمواجهة الجهاديـــة على ساحات المعارك الطاحنة فوق كل شبر من أرض الإسلام.ولقد كـــان بريق أحدث المخترعات وأشدها إبهاراً لأعظم العقول رصانة وحلماً مؤد إلى حالة من الإحباط العام في أوساط المسلمين.وكان أمراً بدهياً أن يرجعوا إلى القـــرآن العظيم كتابهم العتيد وملاذهم الأمين، والذي كان طوال تاريخ الإسلام الحصن الحصين والركن الشديد. يبحثون فيه عن المخرج من الفتنة وعن النجاة من الحصار الكافر المضروب فكراً وواقعاً على حاضرهم.

لقد كان التفسير الموضوعى للقرآن الكريم هو السلاح الماضي الذي أعاد الثقة إلى المضللين من المسلمين بكتابهم بعد أن اهتزت تحت الدعاوى الهائلة للغرب الكافر.

ولقد كان التفسير الموضوعى للقرآن الكريم هو الحافز الصارم كي ينهض العاثرون ويلتقط المترنحون أنفاسهم.

ولقد كان الأزهر الشريف هو الصخرة الصلبة التي استعصت على محاولات الغرب لضرب الإسلام، ولقد واجه علماؤه الحرب المفروضة عليهم في أوائل هذا القرن (الرابع عشر الهجرى) وكانوا عند الظن بهم تضحية وجهاداً، وفطنة وذكاءً وارتفاعاً إلى السماء في مستوى الأحداث الجسام التي واجهها الإسلام.

الشيخ محمد عبده وشرارة البداية

ولقد كان على رأس الناهضين للمواجهة الشيخ محمد عبده مفتي الأزهر الشريف وعضو مجلس إدارته ولقد ذكرنا من آرائه وما فيها من حق، وكذلك ما أخذ عليها فى الترجمة المختصرة له.

ولكن يبقى ها هنا نبذة نبين بها الأثر الأكبر - برغم شطط بعض الآراء والتي راجعه فيها العلماء.

والذي ساعده بل وقذف به إلى بؤرة الأحداث محدثا هذا الأثر الهائل والتجديد التفسيرى المشهود هو المعركة الطاحنة والهجوم الضاري للهجمة الإستعمارية الغربية عسكريا وفكريا وذلك لكسر شوكة المسلمين وهدم مقاومتهم جنبا على جنب مع التشويش على معتقداتهم وغزو عقولهم وغسيل أمخاخهم، وقد تصدى محمد عبده للرد فى سلسلة متلاحقة.

وزير خارجية فرنسا يهذى:

(يجب إبادة خمس المسلمين وهدم الكعبة ووضع قبر محمد فى متحف اللوفر)

لقد كانت حالة السعار والميول الإنجليزية والفرنسية للافتراس والتوغل في الجسد الإسلامي على أشدها، ونظر الساسة الإنجليز والفرنسيين إلى العالم الإسلامي نظرة السيد الذي أيقن بانهيار فريسته وسقوطها إلى غير رجعة بين براثنه. وبدا الأمر وكأن الإسلام قد طويت صفحته ودرست سيرته وطمست معالمه. ونضرب على ذلك مثالاً واحداً كان فيه الهجوم على الإسلام من قبل

مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا وقد نشر في جريدة الجورنال الباريسية. وترجمته جريدة المؤيد المصرية ونشرته بالعربية وقد جاء في المقال ما يلي:

«فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت في صدر الإسلام وكبده حيث فتحت أراضيه، وأخضعت لسطوتها شعوبه، وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين، وهي تدبر اليوم شئونه وتجبي ضرائبه، وتحشد شبابه لخدمة الجندية، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال».

إلى أن قال:

«يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لاتزال موجودة في ثنيات الفتوح وفي أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم. نعمْ ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامي بأسره كافلة بالرئاسة»

«وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان: إحداهما ربانية والأخرى بشرية...»

«أما الأولى: فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين...»

«على حين أن الديانة الثانية وهي الإسلام، المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالإنسان إلى أسفل الدرك...»

«قال المسيو كيمون في كتابه (باثيولوجيا الإسلام):

(إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو

مـــرض مـــريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور، ويجمح في القبائح.

ومـــا قبـــر محمـــد فـــي مكة إلى عمود كهربائي يبث الجنون في رؤوس المســـلمين، ويلجـــئهم إلـــى الإتيان بمظاهر الهستريا (الصرع) العامة والذهول العقلي وتكرار لفظة (الله) إلى ما لا نهاية»

إلى أن قال:

«أمـــثال هـــذا الكاتـــب يعـــتقدون أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترســـة (كالفهـــود والضـــبع كمـــا يقـــول المسيو كيمون) وأن الواجب إبادة خمســـهم والحكـــم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر»[1]

هذا المقال من وزير الخارجية الفرنسي يعبر بوضوح على الحالة المريرة من الجهاد التي كان على المسلمين أن يخوضوها إزاء هجمة بربرية عاتية هذه أهدافها المعلنة.

(١) دون رقـــم طبعة (١٤٠٠هـــ-١٩٨٠م) الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير - المركز العربي للثقافة والعلوم - د. عبدالغفار عبدالرحيم - ص ٨٥-٨٦.

الشيخ محمد عبده

(ليعلم كل من يخدع نفسه أن الإسلام وإن صدعت به النوازل فله نوبة)

وقد رد الإمام محمد عبده على المقال السابق ثلاثة ردود متتابعة جاء في أولها:

«هـل يظن مسيو هاناتو أن التمدن الذي وصل إليه الأوروبيون حمل إلى أوروبا مع المهاجرين الأولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية إلى الأقطار الغربية.

ألـم يخطـر بباله تلك العظائم التي انفتح بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوروبا الآرية من الهمجية. وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها، وإنما جاءها بمخالطة الأمم»

«إني لأكيل لمسيو هاناتو إجمالاً بإجمال والتفصيل لا يجهله قومه، وكثير مـن منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به» «ثم اعلم أن أول شرارة في المدنية الغـربية كانت من شعلة حضارة الأندلس التي عمل رجال الدين المسيحي على إطفائها»

«ليس هناك علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة. يتضح ذلك من النظر في الإنجيل بما فيه من وصايا ملكوتية تدعو إلى الانقطاع عن هذا العالم الفاني»

إلى أن قال:

«وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في إجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسـلم في الله على رأيه، إني إن صغرت شأن هاناتو في معارضته التاريخية، فذلك لأنه صغير فيها حقيقة، وكثير من قومه يعرف ذلك منه، ولأنه لا أمير في العلم إلا العلم والسلام».

وفي رده الثاني عليه قال:

«هـل عهـد بين الكتاب وأهل النظر تشويش في الفكر، وخلل في المقال يشبه ما جاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم».

إلى أن قال:

«هذه هي العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الإسلامية، ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض، لم يتلمظوا بشيء من نعيم الحضـر، ولم يتذوقوا من العلم والصنعة حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل».

إلى أن قال:

«أقامت النصرانية في الأرض ستة عشر قرناً ولم تأت بفلكي واحد، وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين».

قال:

«إذا اعـتقدت بقصـور فضل الله عليك وقفت نفسك حيث وضعتها، ولن تسـتطيع إلى التقدم سبيلاً، هكذا يرجع الإسلام الصحيح نفس صاحبه، وهذا هو معنى الإسلام والاستسلام الذي أخطا في فهمه مسيو هاناتو»

ثم ينهي خطابه إليه قائلاً:

«يـرى كيمون أن يخلي وجه الأرض من الإسلام والمسلمين، ويستحسن رأيه هاناتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين. وبئسما اختارا لسياسة بلادهما: أن يظهرا ضعفهما، ويجعلا خطل رأيهما وضعف حلمهما. أما

فلـيعلما، وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به الغيبة فله أوبة، وإن صدعت النوائب فله نوبة»[1] انتهى.

فمـن هـنا كان الاهتمام البالغ من الإمام محمد عبده بالتقدم مباشرة إلى ساحة هذا الجهاد الفكرى الضارى عملا بقوله تعالى: (وجاهدهم به جهادا كبيرا) والاهـتمام بموضوع المواجهة من الكتاب الكريم واستخلاصها من الآيات وقد حشـد فـي دروسـه مـنها عـدداً كبيراً سجله رشيد رضا مطولاً في تفسيره المنار.الأمر الذى افتر بعدها عن هذا الوجه البديع من وجوه التفسير القرآنى ألا وهو التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

كيف وأنت ترى أن المعركة الحامية الوطيس رحاها الحضارة والتقدم العلمي، وتعيير الغرب للمسلمين بالتخلف والجهل وتوعدهم بإفنائهم عن بكرة أبيهم.

كذلك أثرت أسفاره ولقاءاته مع الأجانب واطلاعه على جوانب تقدم الغرب في نزعة إبراز الوجه العلمي للإسلام.: «ولقد كان في تقلبه في هذه البلاد موضع التجلة والاحتـرام مـن كبار أهل العلم حيث يستقبل أعظم استقبال. ينزل ضيفاً على مستر ويلفرد بلنت، ويستقبله الفيلسوف الاجتماعي هربرت سبنسر، ويدعوه الدكتور ادوارد بـراون إلى طعام الغداء وسط حفل كبير من الأساتذة والمستشرقين، ويكتب براون في الجرائد الإنجليزية في شأن زيارته لكلية كمبريدج:

(لقـد كـان كـل من في المدرسة فرحاً مسروراً بزيارة هذا الرجل العالم العظـيم، وأعجب بعلمه وفضله وسمو آرائه جميع العلماء والعظماء، وتمنوا لو أقام بينهم زمناً طويلاً، وفي اعتقادي أن فضيلة المفتي قد شرف الشرق وعلماءه في هذه الديار»[2].

---

(١) المصدر السابق – ص ٩٢-٩٣.

(٢) المصدر السابق – ص ٩٧.

فـتجواله فـي الجامعـات الغربية وبين العلماء، لا شك كان معاوناً جيداً لاتجاهه لإبراز جانب العلم والإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

والحاصـل أن محمـد عـبده هو رائد هذه الطريقة فى التفسير التجديدى في القرن الرابع عشر الهجري وقد أسس مدرسة لذلك، وكان من تلاميذ هذه المدرسة: .

أولاً: السيد محمد رشيد رضا.

ثانياً: عبدالقادر المغربي.

ثالثاً: محمد مصطفى المراغي.

رابعاً: جمال الدين القاسمي.

خامساً: عبدالحميد بن باديس.

سادساً: محمد الطاهر بن عاشور

سابعاً: سيد قطب

ثامنًا: محمد عبدالله دراز.

تاسـعًا: محمـود شـلتوت...وغيـرهم مـثل مصطفى صادق الرافعي، وعبدالرحمن الكواكبي.

وكـل منهم كان له من المؤلفات والمصنفات ما أثرت به تجربة الإعجاز القرآنـى أو التفسير الموضوعى تأصيلاً وإضافة وتصنيفاً. ولهم في ذلك القرن الحافـل جهـد مشـكور، وفضل لا ينكر على مسيرة تجديد التفسير فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجرى.

الشيخ محمد عبده [1]

يطلق عليه لفظ الإمام، وله مدرسة تجديدية في تفسير القرآن اعتبرها بعض العلماء تحوي شيئا من التجاوز، وتحمس لها آخرون، وقد تولى الإفتاء في الأزهر الشريف.، وقد تأثر تأثرا عظيما بالإمام أبي حامد الغزالي من المتقدمين، وكذا تأثر بجمال الدين الأفغاني، وله آراء عقلية هي محل نقد في كثير منها حول تفسير بعض الآيات، وهو عضو مجلس إدارة الأزهر، ومفتي الأزهر. وما يهمنا في مجال بحثنا ليس التعرض لآرائه في إصلاح الأزهر، وغير ذلك، بل مايتعلق بموقفه من تفسير القرآن الكريم. [2]

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله، ولد سنة ١٢٦٥هـ-١٨٤٩م وتوفي سنة ١٣٢٣هـ-١٩٠٥م. عن عمر سبعة وخمسين عاما، وقد نشأ في قرية محلة نصر مركز شبراخيت مديرية البحيرة بمصر،. وكانت أسرته متوسطة الحال وأتم حفظ القرآن في سنتين" ونجح في تعلم التجويد وأتم فنونه في سنتين على الوجه الأكمل وفي سنة (١٢٨١هـ: ١٨٦٤م) جلس في دروس العلم في المسجد الأحمدي. قال الشيخ محمد عبده:

(وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس، واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر، ثم عثر على أخي وأخذني إلى المسجد الأحمدي وأراد اكراهي على طلب العلم، فأبيت وقلت

---

(١) انظر: علوم التفسير د.عبد الله شحاته- مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة ١٩٨٦ من ٢٦-٣٩

(٢) كتاب: الامام محمد عبده ومنهجه في التفسير - د. عبدالغفار عبدالرحيم - صـ٩-٣٠

لـــه: قد أيقنت أن لا نجاح لي فى طلب العلم ولم يبق على ألا أن أعود إلى بلدي وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثرة من أقاربي، وانتهى الجدل بتغلبي عليه، وأخـــذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم، وتزوجت في سنة (١٢٨٢هـــ: ١٨٦٥م على هذه النية) [١].

ولكـــنه عـــاد إلى طلب العلم مكرهاً فقد أجبره أبوه وأخوه على العودة إلى الجامـــع الأحمـــدي، ولكنه هرب إلى قرية (كنيسة أورين) وهي قرية من قرى شـــبراخيت غالـــب ســـكانها من أقارب أبيه، وهناك اتصل بمعلمه الأول الشيخ درويش خضر أحد أخوال أبيه، وكان ذا قوة نفسية تؤثر وتجذب، وقد استشف ما في نفسية الفتى الهارب فقام بترويضه وتحويل كراهيته المطبقة لتقى العلوم إلى شغف وولع، يقول الشيخ محمد عبده:

("جاءنـــي هـــذا الشيخ وبيده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني إلى بغض مريديه بالأطراف بخط مغربي دقيق، وسألني أن أقرأ له فيها شـــيئاً لضعف بصره، فدفعت طلبه بشدة ولعنت القرأة ومن يشتغل بها، ونفرت مـــنه أشد النفور، ولما وضع الكتاب بين يدي رميته إلى بعيد، لكن الشيخ تبسم وتجلـــى فـــي ألطف مظاهر الحلم، ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضـــعة أسطر، فاندفع يفسر لي معاني ما قرأت بعبارة واضحة تغالب إعراضي فتغلـــبه تســـبق إلـــى نفسي، وبعد قليل جاء الشبان يدعونني إلى ركوب الخيل واللعب بالسلاح، والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب، وانصرفت إلـــيهم، وبعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح علي في قراءة شيء منه فقرأت وفســـر، ثم تركته إلى اللعب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في اليوم الأول، أما

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٢٠

اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها، فقال لي أنه في حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة، ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه، ومضيت أقرؤه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها إلى أن جاء وقت الظهر، وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهو ينازعني إلى البطالة، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم. "لم يأت على اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلى ما كنت أحبه من لعب ولهو، وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إلى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني إلى ما كنت أحب، ويزهدونني في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا أحتمل أن أرى واحداً منهم بل أفر من لقائهم جميعاً كما يفر السليم من الأجرب. "وفي اليوم السابع سألت الشيخ: ما هي طريقتكم؟ فقال: طريقتنا الإسلام، فقلت: أو ليس كل هؤلاء مسلمين؟ قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب. هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم، متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون وان كنا في غمرة ساهين، سألته: ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات؟ فقال: لا ورد لنا سوى القرآن، نقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر قلت له: أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً؟ قال: أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك بالتفضيل، وإذا خلوت فاذكر الله، وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض على بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر، غير الذي كنت أعهده،

واتسع لي ما كان ضيقاً، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً وعظم عندي من أمـــر العـــرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب الـــنفس، ولم أجد إماما.. يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي، إلا ذلك الشيخ الذي أخرجنـــي في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد. هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي، وهـــو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرية، وهو مفـــتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان من غاب عن غريزتي، وكشف لي ما كان خفياً عني مما أودع في فطرتي"[1].

دراسته في الجامع الأزهر

التحق الشيخ محمد عبده بالجامع الأزهر في شوال سنة ١٢٨٢هـــ-فبراير سنة ١٨٦٦م.

وقد وصف بعض علماء الغرب ما رآه في ما يجرى من وسائل تعليمية آنـــذاك فقـــال: ("ولـــئن كانت أنماط التعليم والبحث في الأزهر تختلف عما هو مســـتعمل في الغرب الآن اختلافاً أساسياً، فهي لا تختلف في شيء عن الأنماط التـــي كانت عندنا قديماً".-"ليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر، هو البحث للتحقيق والمقارنة والتمحيص، ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون"."[2].

(١) تاريخ الإسناد الإمام ٢٣/١.

(٢) تـــرجمة الأستاذ الامام، لفضيلة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق. كتاب الهلال العدد ٩٦ مارس سنة ١٩٥٩.

ولقد أصابت الشيخ محمد عبده صدمته فى المرة الأولى من نفس طريقة التعليم في الأزهر، وقبل أن يصيبه اليأس مرة أخرى، التقى الشيخ حسن الطويل، وهو الذى قد تخصص فى علوم المنطق وتعمق فى دراسة الفلسفة ووقف على كتب ابن سينا وفلسفة أرسطو، وهي كتب لم تكن مألوفة ولا معروفة في الأزهر، فتعرف عليها الشيخ محمد عبده، وضم بذلك في تحصيل معرفته إلى كتب الأزهر التقليدية هذه الكتب الفلسفية، وأضاف إلى العلم بها ضرب آخر من العلوم أخذها على يد الشيخ البسيوني الأديب، وهو عالم ضليع فى الأساليب الأدبية وصنوف البلاغيات وعلى منهج تميز به ألا وهو اعتبار الأدب و الفصاحة والبيان العربي.هى مواهب ربانية ودربة وملكة وشعور مرهف وإحساس بليغ، أكثر منها قواعد جامدة ومناهج مقررة وقوالب محفوظة.

فساعدت كل العناصر السابقة فى تكوين شخصيته.مع رغبة عارمة فى التغيير ورفض المألوف، وفكر جديد يرى في القرآن العظيم موسوعة إلهية كانت نورا وهدى للسابقين وهي الملاذ والنجاة للحاضرين، فصرف همته لتفسيره والوقوف على عجائبه، وكان تفسيره ذو المنهاج الجديد الذى لم يسبق إليه هو النبتة التى أزهرت فى بستان العلم ومنها خرج هذا الصنف الجديد من التفسير ألا وهو (التفسير الموضوعى) الذى لم تلبث أن تلقفته أيدى وقلوب أهل العلم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وتعاهدته بالتقويم والتهذيب والإضافة والتكميل والتجميل حتى استوى على سوقه وأثمر ثمرا بهيجا وصار فتحا إلهياً ونهضة دينية، وتجديدا فى التفسير استفاد به المسلمون أيما فائدة فى لحظات عصيبة من تاريخ الإسلام وتأثروا به غاية التأثر، بل كان سلاحا ماضيا لا يكل فى هذه الحرب العوان المفروضة فى شراسة وتهور حول الأمة الأسلامية

الجـــريحة التـــى كان عليها مرة أخرى أن تواجه وسط آلام جراحها المبرحة معـــركتها الفاصلة من أجل حماية نفسها ودينها الذى هو عصمة أمرها فى وجه هجوم كاسح جبار لا يرحم من أمم حازت قدم السبق فى وسائل الغلبة والقوة فى هجمـــة عاتـــية عاصفة لم يشهد لها الإسلام عبر تاريخه الحافل الطويل مثيلا، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

نظرة حديثة فى تفسير القرآن

إنــه القــرن الــرابع عشر الهجري حيث شبت واحدة من أشد ملاحم الإســلام دموية تدور رحاها حول منارات الأزهر الشريف وفي قلب العاصفة يجلــس الشــيخ محمــد عبده بلباس الأزهر وحوله عدد من تلاميذه جثياً على الركب على الحالة الأزهرية فى طلب العلم.

ذلكــم الشــيخ محمــد عبده يقرر لتلاميذه في بداية درسه القرآن الكريم أمــورا فــى غايــة الأهمية تلك التى سطرها تلميذه السيد رشيد رضا وفيها الأصــول الجديدة التى ينبغى أن يتسلح بها حامل القرآن فى سبيله للمواجهة والإرشاد فى عالم يغص بالعداء المرير لكل ما هو إسلامى:

"للتفســير مــراتب: أدناهــا: أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنــزيه، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير وهذه هي التي قلنا أنها متيسرة لكل أحد (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) [1].

وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور:

(أحــدها): فهــم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن -بحيث يحقق المفســر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلــك بزمن قريب أو بعيد... إلى أن قال.... يجب على من يريد الفهم الصحيح

(١) سورة القمر: الآية ١٧.

أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة، ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى، فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه، وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية... ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا أن القرآن يفسر بعضه ببعض، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ: موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.

(ثانيها): الأساليب:

فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة. وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه نعم أننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة ويحتاج في هذا إلى الإعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب....

(ثالثها): علم أحوال البشر:

(رابعها): العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي: أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه؟...

(خامســها): العلــم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويهاً وأخرويها"[1].

الشيخ محمد عبده وتفسير المنار

أضــف إلى ما تقدم واحدا من معالم التفسير البارزة في العصر الحديث ألا وهــو: (التفســير الموضوعى)، والذى كانت أول بداية له هى تفسير محمد عبده للقرآن الكريم، ذلك أن الشيخ محمد عبده كان أول من أضاء هذه الشعلة لمــن جــاء بعده، وكان ــ على ما أخذ على شخصه أو على منهجه من مآخذ نوهنا لها فى ما تقدم ــ علماً من أعلام التوجيه والإصلاح الديني والاجتماعي.

وقــد تأثر الشيخ محمد عبده في منهجه الإصلاحي والديني بعدد من الأساتذة والمصــلحين، وكان من أبرز هم على الإطلاق هو جمال الدين الأفغاني الذي قدم إلــى مصر سنة ١٨٨٧م، ثم التقى به الشيخ محمد عبده، فما لبثت أن نشبت علاقة حميمة بينهما، فلازم مجالسه، واتخذ جمال الدين أخاً وصديقاً وترجمانا لأفكاره.

وكــان مــن أثر جمال الدين دفع الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح، فشرع يكــتب فــي جــريدة (الأهــرام) فصــولاً متتابعة مشتملة على أصول الدعوة الإصلاحية التي صرف حياته في سبيلها، وقد استرعت تلك الفصول نظر الناس إلــى ذلــك الفتى الناهض إلى السابعة والعشرين من عمره، نهضة المصلحين الكبار عاقلاً جريئاً. [2]

ولقــد شنت على الشيخ حملات هجوم أضرمها خصومه منها ملازمته للسيد جمال الدين الأفغاني، واشتغاله بالفلسفة وترجيحه لبعض مذاهب المعتزلة،

---

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا ج١ ص٢١-٢٤ باختصار.

(٢) انظر: علوم التفسير د.عبد الله شحاته - مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة ١٩٨٦

وتقديم العقل على المأثور فى بعض مواضع التفسير، ونهيه عن التقليد، ودعوته إلـــى الاشتغال بالعلوم الحديثة، وتحبيذه لعلوم الغرب، وإطالة شعره أيضا، إلى غيـــر ذلك من التهم والحملات، ومنها ما هو منه براء، ومنها ما له وجه من الحق، وعلى أية حال فلسنا فى مقامنا هذا فى معرض الحكم النهائى على ما بدر مـــنه مـــن هـــنات التفســـير تلـــك التى أشار إليها أخلص تلاميذه محمد رشيد رضـــا،حيث قـــال في مقدمة تفسير المنار: ("هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاتـــه، خالفت منهجه رحمه الله بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة؛ ســـواء كـــان تفســـيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغـــوية، والمســـائل الخلافـــية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة)"[1].

ولكنـــنا بصدد التحدث عن دوره الرائد دون خلاف فى نشأة هذا النوع الجديـــد مـــن تفســـير القـــرآن والذى تلقته الأمة بالقبول بحمد الله تعالى فصار مشـــروعية اعـــتماده هو الإجماع الذى هو الأصل الثالث من أصول التشريع إضـــافة إلى الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة والتى فصلناها لك فى مواضعها، فصار علما صميما من علوم التفسير بالكتاب والسنة والإجماع ولله الحمد والمنة

نـــال الشـــيخ محمد عبده شهادة العالمية من الدرجة الثانية. وهو ابن ثمان وعشـــرين ســـنة،، وزاده ذلـــك نشاطاً، فأخذ يكتب فى الصحف، وتولى رياسة تحريـــر: (الوقائع)، فاتخذ منها منبراً للتوجيه والدعوة، وانضم إليه من تلاميذه وصـــحبه مـــن عاونوه في رسالته، كل ذلك وبوادر الثورة السياسية قد ظهرت فخاض الشيخ محمد عبده غمراتها مندفعا بكل ماأوتى من قدرات وإمكانات، ولمـــا احتلت مصر بعد خيانة كبير حكامها، كان الشيخ ممن أصابتهم عقوبتها،

(١) تفسير المنار ١٦/١.

فسجن ونفى،، فالتقى بشيخه وصديقه جمال الدين الأفغانى، وأخذا يعملان على جمع شمل المسلمين، فى همة وعزيمة، ومع تلاحق المواقف وتتابع الأحداث رأي التلميذ أن أسلم طريق لايقاظ الأفهام هو سلوك طريق العلم الشرعى و تعليم المسلمين والرجوع بهم إلى التمسك بعلومهم الشرعية، بينما رأى شيخه جمال الدين الافغانى رأيا آخر هو ضرورة إيقاظ الهمم،وتحريض الناس على المقاومة، ونفخ الروح فى جموع المسلمين، فافترقا فى آخر الأمر، وسلك كل منهما على منهاجه.

أخذ محمد عبده يلقى دروسه في الشام، ثم لما عاد من منفاه إلى مصر أخذ يلقى دروسه الباعثة الموقظة بين الأزهريين، وقد قام المسؤولون بتعيينه في منصب القضاء، فى محاولة لصرفه عن رسالته التي صار وحده الحامل لها، بعد وفاة جمال الدين الأفغانى، ولكنه لم يصرف عنها، فأنشأ الجمعية الخيرية الإسلامية للتعليم وعقد الندوات العلمية، وألقى الدروس والمحاضرات، وكان الدرس الذي يمكنه من أداء رسالته العلمية هو تفسير القرآن، فهو معجزة الإسلام، وفيه شريعته، وهو حبل الله الذي يعتصم به المسلمون، وهو برهان الله ونوره المبين (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) (المائدة:١٦).

وإنك لترى الإمام محمد عبده يتجه في تفسيره اتجاهاً لم يسلكه أحد من المفسرين، فإن المفسرين من قبله كانوا أما أن يعتمدوا على رواية الأثر والمنقول بحروفه، وأما أن يعتمدوا على ما تؤديه الألفاظ من معان لغوية أو تصاريف نحوية، وما يشتمل عليه القرآن في ألفاظه وجمله وأساليبه من بلاغه، وهو مايعرف الآن فى محافل العلم (بالتفسير التحليلى) فكل المفسرين حتى ذلك الحين لم يخرجوا عن النهج التحليلى فى النظر فى القرآن الكريم، وهو المنهج الأصل والاساس والذى توارثته أمة الإسلام كابرا عن كابر، ولكنه كما

أسلفنا يعنى عناية فائقة بعدد من الجوانب و غير أنه لا يحيط بكل جانب وخاصة المقاصد العامة الكبيرة التى من أجلها تنزل الكتاب وقد أوردناه لك مستفيضا فى الفـــرق بين التفسير التحليلى والتفسير الموضوعى فراجعه فإنه عظيم النفع، وقد حـــاول الشـــيخ محمـــد عبده بالتزامه منهاج التدبر في المعاني أن يوجه أذهان تلاميذه إلى أسرار المعاني القرآنية، وأنك تقرأ ما نقل من تفسيره فتجد المحاولة الجديـــة لمعـــرفة ما في آيات القرآن من مرام وغايات وتقرأ تفسير آيات كتبها بقلمـــه كتفســـير قـــوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة) (البقرة:٢١٣) فتجد فيها المحاولة بينة جلية تحمل الروح الجديدة، فى علم التفسير تلك التى حمل لواءها الشـــيخ محمـــد عـــبده ولقد كان يقرأ ما يقرأ من التفاسير على كثرتها، ولكنه يستعين بمجموعها، إلى ألباب المعنى، لا لينقل ما فيها، أو يتيه فيما يقرأ.، ولقد تكـــونت مدرســـة من العلماء والمثقفين تطلب علمه وترويه وتنشره، ومن أقوى هـــذه المدرســـة تأثـــراً به السيد رشيد رضا، فقد حاول في تفسير المنار حكاية طـــريقة الشـــيخ،. ولكن تفسير المنار قد اشتمل على أمرين لم يكونا في تفسير الإمام محمد عبده:

أولهما: العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك جهد طيب مبارك وخير عميم أضاف للتفسير قيمة علمية وبعدا شرعيا لا يخفى على ذى علم.

وثانـــيهما: الـــنقل الكثير عن المفسرين، و السبب في ذلك أن محمد عبده عـــندما كان يلقى درساً، كان يلقى ما تمثل في عقله وقلبه مما قرأ وتأمل وتدبر في القرآن، ولأن كل همة نفسه كانت متجهة إلى لباب القرآن فلم يستشهد بأقوال المفسرين من السلف إلا قليلا.. [1]

(١) المرجع السابق

منهج الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن

ظهر الشيخ محمد عبده إبان فترة حرجة من تاريخ الأمة المسلمة، فاتخذ من تفسير القرآن الكريم منبراً لتوجيه الأمة، وتربية أبنائها وبث روح الإيمان في قلوبها، وكان تفسيره طريقة رائدة تأثر بها كثير من أئمة الإصلاح والتوجيه، وأساتذة التفسير والتشريع في العصر الحديث.

ويعتمد منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن أسس منها:

الأول:عموم القرآن وشموله:

ذلك أن الله تعالى قد ختم الله رسالات الأنبياء جميعا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وختم الكتب المنزلة كلها بالقرآن الكريم، وهو كتاب البشرية الخالد (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، "وقد ترتب على هذه الخاصية الفاصلة لهذا الكتاب أن تميز بالمعانى الشاملة والإرشاد المستمر إلى يوم القيامة فلا يحمل وعظه ووعده ووعيده على أشخاص بعينهم نزلت بعض الآيات بسببهم أو فى زمنهم، وإنما نيط وعده ووعيده وتبشيره وإنذاره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في جميع الأمم والشعوب إلى قيام الساعة "(١).

وكثيراً ما كان يتوسع محمد عبده في معنى الآيات و يطبق القرآن على ما هو واقع بين الناس: فهو إذ يفسر الآيات الواردة في صفات المنافقين من أول سورة البقرة، يطبق هذه الصفات على المنافقين في عصرنا، وفي كل عصر" فلا يغترن أحد بقول بعض المفسرين أن هذه الآيات نزلت في المنافقين الذي كانوا

(١) تفسير المنار، ١/١٧٩-١٨٠.

فـــي عصر النبي صلى الله عليه وسلم، فيتوهم أنها لا تتناوله وإن كانت منطبقة علـــيه، لأنه لم يتخذ القرآن إماماً وهادياً، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له، بل اكتفى من ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه في كل ما هم فيه".

الأساس الثاني: الوحدة الموضوعية للسورة ووصل الآيات بعضها ببعض:

لكل سورة من سور القرآن روح يسري في أجزائها وفكرة عامة تربط بين آياتهـــا وقد كانت فكرة التناسب والتناسق بين الآيات المتجاورة تسيطر عليه في تفسيره وفي ترجيح بعض آراء سابقيه على بعض، بل ربما روى آراء السابقين من المفسرين ثم رفضها جميعها لأنها لا تحقق التناسق بين الآيات، وإن كان لنا فـــي ذلـــك نظـــر، فنراه يستهل تفسيره لسورة الفجر قائلاً: "كثر الخلاف بين المفســـرين والرواه في معنى كل من الفجر وليال عشر، وقد يفسر الواحد منهم الفجـــر بمعنى، ثم يأتي في الليالي العشر بما لا يلائمه. وغالب ذلك يجري على خلاف ما دعونا الله في نسق كتابه الكريم".

ثـــم يفســـر الفجر بأنه جنس ذلك الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض الـــنهار فـــي جلـــد الليل، وينبعث الضياء لمطاردة الظلام. ويفسر الليالي العشر بالليالـــي العشر الأول من كل شهر، وهي الليالي التي يبتدئ فيها تكون الهلال، ولا يزال يشق الظلام إلى أن يغلبه فينشر نوره على الأفق، فكأنه وضع التناسب علـــى شـــيء من التقابل، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل، وضوء الأهلة يغالب الظلام إلى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبه.

والـــوحدة فـــي مـــنهج السورة القرآنية تتميز عن الوحدة الفنية في الانتاج الأدبـــي للإنسان، فالقصة مثلاً، لها قواعد فنية تحكم تأليفها مثل العقدة والصراع

والمـــأزق والحل. ولكن القرآن الكريم كتاب هداية، قد يكتفي من ذكر القصة أو الحادثـــة بمـــا يحقق هذه الهداية، وأحياناً يبسط الموضوع وأحياناً يوجزه حسب مقتضى الحال.

وأحياناً يترك الموضوع ويتكلم عن شيء مناسب أو مجانس، ثم يرجع إلى الموضـــوع الأول أو ينتقل إلى غيره، وهذا مسلك لو اتبعه بشر لكان تأليفه تافها ســـاقطا، ولكن القرآن كتاب الله وهو على كل شيء قدير. ومن قدرته أنه يؤلف بـــين الأجناس المختلفة، فترى بينها نهاية التضام والالتحام. وكل امرئ يستطيع أن يجرب نفسه حين يطول به الوقوف أمام منظر واحد جميل، هل يجد لديه من هـــزة الاستحســـان فـــي هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلسلة من المناظر الـــرائعة، قـــد صفت فيها ضروب الفوائد والمتع، ثم جعلت تمر به أبدع تنسيق وأحسن تقويم؟ اللهم لا فذلك كذلك[1].

ويمـــيل الأســـتاذ الإمام إلى أن فكرة السورة يجب أن تكون أساساً في فهم آياتهـــا، والموضوع يجب أن يكون أساساً في فهم الآيات التي نزلت فيه، وكان هـــذا مـــن أســـباب رفضـــه كـــل تفسير لا يحقق التناسق والتوافق بين أجزاء السورة[2].

****

(١) د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: ص١٦٢ حاشية.

(٢) انظر تفسيره لقوله تعالى: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) تفسير المنار، ٣/ ٢٩٣.

فوائد تفسيرية جليلة
فى تناسب ترتيب السور فى القرآن الكريم

قال محمد رشيد رضا:

"مـن نظـر في ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد روعي في تـرتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة ومن حكمته أن في ذلك عوناً على تلاوته وحفظه، فالناس يبدءون بقراءته من أوله فيكون الانتقال من السبع الطول إلى المئين فالمثاني فالمفصل أنفى للملل وأدعى إلى النشاط، ويبدءون بحفظه من آخـره لأن ذلـك أسـهل علـى الأطفال، ولكن في كل قسم من الطول والمئين والمفصـل تقـديماً لسور قصيرة على سور أطول منها، ومن حكمة ذلك أنه قد روعـى التناسـب فـي معاني السور مع التناسب في الصور أي مقدار الطول والقصر"[1].

وقال عن المناسبة بين هذه السور:

"سـورة البقـرة أجمـع سور القرآن لأصول الإسلام وفروعه ففيها بيان التوحـيد والبعث والرسالة العامة والخاصة وأركان الإعلام العملية وبيان الخلق والـتكوين وبـيان أحـوال أهل الكتاب والشمركين والمنافقين في دعوة القرآن ومحاجة الجميع وبيان أحكام المعاملات المالية والقتال والزوجية،

والسـور الطـوال التي بعدها متممة لما فيها: فالثلاث الأولى منها مفصلة

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا ج٧ ص٢٨٧.

لكـل مـا يـتعلق بأهل الكتاب، ولكن البقرة أطالت في محاجة اليهود خاصة، وسورة آل عمران أطالت في محاجة النصارى في نصفها الأول، وسورة النساء حاجـتهم في أواخرها، واشتملت في أثنائها على بيان شؤون المنافقين مما أجمل في سورة البقرة، ثم أتمت سورة المائدة محاجة اليهود والنصارى فيما يشتركان فيه وفيما ينفرد كل منهما به.

ولما كان أمر العقائد هو الأهم المقدم في الدين وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظـم مـن شـأن المشركين قدمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل، وناسـب أن يجيء بعدها ما فيه محاجة المشركين بالتفصيل، وتلك سورة الأنعام لـم تسـتوف ذلك سورة مثلها، فهي متممة لشرح ما في سورة البقرة مما يتعلق بالعقائد.

وجـاءت سورة الأعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى في الأنبـياء المرسلين وشؤون أممهم معهم وهي حجة على المشركين وأهل الكتاب جميعاً.

ولكن سورة الأنعام فصلت الكلام في إبراهيم الذي ينتمي إليه العرب وأهل الكتاب في النسب والدين، وسورة الأعراف فصلت الكلام في موسى الذي ينتمي إلـيه أهل الكتاب ويتبع شرعته جميع أنبيائهم حتى عيسى المسيح، عليه الصلاة والسلام.

ولمـا تـم بهـذه السورة تفصيل ما أجمل في سورة البقرة من العقائد في الإلهـيات والنـبوات والـبعث ناسب أن يذكر بعدها ما يتمم ما أجمل فيها من الأحكـام ولا سـيما أحكـام القتال والمنافقين وكان قد فصل بعض التفصيل في

ســورة النساء فكانت سورتا الأنفال والتوبة هما المفصلتين لذلك وبهما يتم ثلث القرآن"[1].

وقــال الشيخ محمود شلتوت – رحمه الله تعالى- فقال: "إن جميع ما في القــرآن وان اخــتلفت أماكنه وتعددت سورة وأحكامه فهو وحدة عامة لا يصح تفريقه في العمل ولا الأخذ ببعضه دون البعض"[2].

****

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا ج٧ ص٢٨٨ –٢٨٩.

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة: محمود شلتوت ص٤٨٧.

نماذج من التفسير الموضوعى للشيخ محمد عبده

(دعوة للتدبر والتفكر)

بحث موضوعى مقارن فى علاقة الدين بالعلم

جاء في تفسير المنار[1]:

(إشتمال القرآن علي تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون، وتاريخ البشر، وسنن الله في الخلق، وهذه مرتبة فوق ماذكرناه في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشئ مما فيه، ولا تدخل في المراد من أخبار الغيب المبينة في الوجه الخامس، وإن كان لبعضها إتصال بقصص الرسل عليهم السلام، ونحن ننبه على كل ماعلمناه من هذا النوع في محله من تفسيرنا هذا، ونشير هنا إلى بعضه، فمن ذلك قوله تعالى: (وأرسلنا الرياح لواقح) كانوا يقولون فيه: إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة على السحاب بما يكون سببا لنزول المطر، بتلقيح ذكور الحيوان لأناثه، ولما إهتدى علماء أوربة إلى هذا، أو زعموا أنه مما لم يسبقوا إليه من العلم، صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه. قال مستر (إجنبري) المستشرق الذي كان أستاذ اللغة العربية في مدرسة اكسفورد في القرن الماضي: ("إن أصحاب الأبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرناً")

---

(١) تفسير المنار – محمد رشيد رضا – الجزء الأول – صـ ٢١٠-٢١١.

ثـم جعـل الشيخ محمد عبده يستعرض تفسيرا علميا موضوعيا متتابعا لآيـات كونية في القرآن العظيم يمكن اعتبارها موضوعا علميا كونيا قرآنيا إلى أن قال:

" وحاصل القول أن الله تعالى خلق هذه الأرض وهذه السماوات التي فوقنا بالتدريج، وما أشهدنا خلقهم، وإنما ذكر لنا ماذكره للإستدلال على قدرته وحكمته وللإمتنان علينا بنعمته، لالبيان تاريخ تكوينها بالترتيب، لأن هذا ليس من مقاصد الـدين، فابـتداء الخلـق غيـر معروف، ولا ترتيبه إلا أن تسوية السماء كانت موجـودة، إلا أنهـا لم تكن سبعا، ولذلك ذكر الإستواء إليها وقال (فسواهن سبع سـماوات). فـنؤمن بأنه فعل ذلك لحكمة يعلمها، وقد عرض علينا ذلك لنتدبر ونتفكـر، فمن أراد أن يزداد علما فليطلبه من البحث في الكون (وعليه بدراسة ماكتبه الباحثون فيه من قبل، وما اكتشف المكتشفون من شئونه، وليأخذ من ذلك بمـا قام عليه الدليل الصحيح، لابما يتخرص به المتخرصون، ويخترعونه من الأوهام والظنون) وحسبه أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه. هذه الإباحة للنظر والـبحث فـي الكـون، بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التي تبعث الهمم، وتشوق النفوس ككون كل مافي الأرض مخلوقا لنا، محبوسا على منافعنا، هو مما إمتاز بـه الإسلام في ترقية الإنسان، فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين أن أهل الكتاب كانـوا متفقـين فـي تقاليدهم وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضدان لا يجـتمعان، والعلم والدين خصمان لا يتفقان، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل.

ولـذلك جـاء القـرآن يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلي، والتفكير، والتدبر، والتذكر، فلا تقرأ منه قليلا إلا وتراه يعرض عليك الأكوان ويأمرك بالنظر فيها،

وإستخراج أسرارها، وإستجلاء حكم إتقانها وإختلافها ".. " كانت أوروبا المسيحية في غمرة من الجهل وظلمات من الفتن، تسيل الدماء فيها أنهارا لأجل الدين، وباسم الدين وللإكراه على الدين، ثم فاض طوفان تعصبها على المشرق ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبساً من دين الاسلام، وعلوم أهله فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا: إن لنا الحق في أن نتفكر، وأن نعلم وأن نستدل، فحاربهم الدين ورجاله حربا عوانا انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله، وبعد غسل الدماء المسفوكة قام منذ مائتي عام إلى اليوم رجال منهم يسمون هذا المدنية القائمة على دعائم العلم: المدنية المسيحية، ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها بعد إنهزامها من أمام الدين المسيحي، لأنها لا تتفق مع العلم، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، وحجتهم على ذلك حال المسلمين. نعم إن المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها في العلم حتى سقطوا في جاهلية أشد جهلا من الجاهلية الأولى، فجهلوا الأرض التي هم عليها، وضعفوا عن إستخراج منافعها، فجاء الاجنبي يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون، وكتابهم قائم على صراطه يصيح بهم:

(هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعا) (وسخر لكم مافي السماوات وما في الارض جميعا منه) (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ق ، هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا)، وأمثال ذلك، ولكنهم (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) إلا من رحم الله، ولو عقلوا لعادوا، ولو عادوا لاستفادوا وبلغوا ما أرادوا، وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلهم يرجعون، ولا نيأس من روح الله (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) [1]

(١) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - الجزء الأول - صـ٢٤٩-٢٥١.

وقال في مجلة المنار: [1]

" لا يستشـــعر معتـــنقو هذا الإتجاه خوفا ولا خشية على الإسلام أمام العلم الحديث. وهم يعلمون جيدا أن كثيرا ممن يصطنع العلم على الطريقة الأوروبية يطـــرح تعاليم الدين ظهريا في متابعته لما اصطنعه. ولكن السبب في هذا أنه لم يعرف الاسلام ولم يتعلمه قبل العلم الأوربي ولا بعده. ولهذا نطالب علماء ديننا بـــأن يجتهدوا في جعل زمام تعليم العلوم الكونية بأيديهم، لأننا نثق أتم الثقة بأنه لايمكـــن أن يـــرجع عن الاسلام من عرفه، وكيف يختار الظلمة من عاش في النور " انتهى.

*****

(١) مجلة المنار – الجزء الرابع – صـــ٤٥٣

الأسباب التي أدت إلى ظهور التفسير الموضوعي

أولا: جمرة تتوقد بين الرماد

أولاً: كانت بداية التفسير الموضوعي، وأول أسباب انبعاث جمرته المتقدة فى حدة بين رماد الركود الكامن فى حياة المسلمين الدينية والفكرية والعملية، كما تقدم بتفاصيله، الرغبة الجارفة لدى علماء الإسلام لاتخاذ سبيل تفسيري مواكب لتلاطم أمواج العصر وتدافع القوى والثقافات، مع بدايات الحملات الاستعمارية على أطراف العالم الإسلامي إبان الفترات الأخيرة من ضعف الخلافة العثمانية.

لقد كانت حالة السعار والميول الإنجليزية والفرنسية للافتراس والتوغل في الجسد الإسلامي على أشدها، ونظر الساسة الإنجليز والفرنسيين إلى العالم الإسلامي نظرة السيد الذي أيقن بانهيار فريسته وسقوطها إلى غير رجعة بين براثنه. وبدا الأمر وكأن الإسلام قد طويت صفحته ودرست سيرته وطمست معالمه. ومن أكبر الدلائل ما أوردناه مما كتبه سيد هاناكو وزير خارجية فرنسا قريبا فر جعه فهو فاجع ومثير لأشد مشاعر النقمة والغضب، وأمام هذه الموجه العاتية من الاستكبار والغطرسة والرغبة الدموية في إبادة الإسلام والمسلمين كان طبيعياً أن يعود المسلمون في تشبث إلى كتابهم يبحثون بين جنباته عن الشفاء الناجع لهذه الكارثة المطبقة الهاوية دون رحمة على دينهم. وكانت أوائل ذلك هي تلك المحاولات المستميتة والتي بدأت في مقالات تفسيرية متتابعة للرد على هؤلاء الوحوش الضارية المتلمظة للفتك والولوغ في الدماء المسلمة. وكتب

الأفغانـــي ومحمد عبده مقالات متواصلة قد أتينا على ذكرها سابقاً. وكانت هذه المحاولات هي البداية للتفسير الموضوعي للقرآن بصورته المعاصرة ثم لم تلبث هذه القطرات أن تكاثفت وتقاطر أجناد الله من كل جانب وتوافر العلماء وتوسع التفسير الموضوعي إلى الأصناف التي ذكرناها، باعتباره السلاح الماضي أمام العدو في هذه اللحظات الفاصلة من تاريخ الإسلام.

ثانيا: التفسير الموضوعى

من اندفاع ساحات المواجهة إلى ضوابط قاعات الدرس

انـــتقل التفســـير الموضـــوعي من مرحلة رد الفعل المندفع وغير المتقيد بالضـــوابط الصـــارمة للعولم الشرعية العمتدة عند سائر أهل العلم إلى التأصيل الرصـــين والتـــناول الهادئ والضبط العميق بحيث يشمل منهاجاً متكاملاً خادماً للمقاصـــد العظمـــى التي من أجلها أنزل القرآن، منتقلاً من الاشتباكات الضارية علـــى صفحات الدوريات، والتناوش المرير في الطباعات والكتب وغيرها. إلي قاعـــات الـــدروس والمحاضـــرات الجامعية بالقيود العلمية الصارمة والضوابط التفسيرية القاطعة التي لا تذر فسحة للاعب بالكتاب، أو متنفساً لجاهل أو سبيلاً لأخرق. فكان تدريس التفسير الموضوعي في الجامعات هو الخطوة الفاصلة فى وضـــعه على الطريق القويم الذى به يكلل بمباركة أهل العلوم الشرعية ويفسح لنفسه مجالا واسعا فى الصدارة من العلوم الشرعية عامة وعلوم التفسير خاصة. وأول من بدأ بذلك وبهذا الاسم جامعة الأزهر في مصر – سبباً رئيسياً لانتشار هـــذا المصـــطلح، والـــثقة بـــه واعتباره علماً شرعياً قرآنياً بارزاً. ثم لم تلبث

الجامعـــات الإســـلامية عامة والجامعات العربية الشرعية فى تلقف ما كتب فيه وتقريره منهجا دراسيا أساسيا من مناهج تفسير القرآن الكريم، وها نحن اليوم نراه فى صميم المقررات على كافة درجات تلقى العلم وسواء فى سنوات النقل فـــى الجامعـــات أو فى الإعداد لنيل درجات التخصص الأولى (الماجستير)، أو العالمية العليا (الدكتوراة) هدفا لازما لا يتخلف يتسلح به حامل القرآن فى عالمنا وسط هذه الرياح المتلاطمة والعواصف الهائجة التى كان على حملة الكتاب أن يخوضوا غمراتها لتخليص هذه الأمة من الخطر المحدق بها من كل ناحية.

ثالثا: التفسير الموضوعى

إنقاذ من نيران الغرب إلى جنة الإسلام

بعـــد ســـقوط الخلافـــة العثمانـــية، نشأت الحياة في كثير من دول العالم الإســـلامي علـــى أسس غريبة لا تمت للإسلام بصلة، وتأسست حكومات على شرائع ما أنزل الله بها منن سلطان وتمكن المغلوبون على عقولهم من المنتسبين للإســـلام بأســـمائهم بينما يهيمون باغرب وكل ما هو غربى من صميم قلوبهم، فارادوا توجيه حياة المسلمين فى فلك الغرب والشرق نابذين كلام أحكم الحاكمين وراءهـــم ظهريا، فأوشكت الفتنة العمياء الصماء ان تجتث أمجد ما ورثته هذه الامـــة عـــن نبيها من جذوره وهلك من هلك تحت أظلافها التى لا ترحم، فهب أنصـــار الله تعالى وجنده المخلصون وعلى رأسهم حملة القرآن العظيم وحراس العقـــيدة الناصعة كالنهار، وتصدوا لغربان الفتنة وشنوا الهجوم الذى لا يتوقف على كل فكرة مستوردة لا تمت للإسلام بصلة وعلى كل اصحاب دعاوى السير

الاعمـــى الاصـــم كجراء الكلاب وراء الشرق حينا ووراء الغرب حينا، وعادوا إلـــى القـــرآن العظيم سلاحهم الماضى وركنهم الركين وسر الحياة فى جنبات الأمة وسر النجاة والبقاء، فأضرموا نيران المواجهة وتداعى الأنصار والأقران مـــن كل جانب وسالت شعاب البلاد الإسلامية وأركانها بالجند المبارك المتدفق كالبحـــر اللجى تحت لواء القرآن العظيم شهادة أمام الله تعالى وأمانة لحملة العلم العظـــيم، فقامـــوا بالوظائف الثلاث التى نزل لأجلها القرآن ألا وهى: الهجوم الصـــارم علـــى هذه الهجمة الفكرية الجبارة التى خلفت ما خلفت تحت عمايتها بين قتيل القلب وجريحه، والدفاع المرير عن معتقدات الإسلام إزاء حملة عاتية مـــن التشكيك والإرجاف وتلبيس الحق بالباطل وتقليب الأمور وإشاعة الفتنة فى بـــلاد المســـلمين تولى كبرها النبت الشيطانى المتولد عن تلاقح النفاق فى بلاد الإســـلام مع الإلحاد فى أصقاع الغرب والشرق فخرج من ذرارى المسلمين من يمقـــت الإسلام ويستحى من أنصع أمجاده ويذوب عشقا وهياما لأنتن إفرازات الجاهلية الغربية والشرقية ممن سموا انفسهم بالمتحضرين والمثقفين والعلمانيين والتقدميـــين وغيـــرها مـــن دعـــاوى الشرود والتغييب العقلى والمرض القلبى والخواء الروحى فى خطر داهم على الإسلام المنتفض وسط جراحه للدفاع عن بقية الخير والصلاح فى هذا العالم بل على القرآن العظيم، وأيضا الهدف الثالث الرئيســـى ألا وهـــو تثبـــيت المسلمين فى وجه الطوفان الكاسح وترسيخ العقائد وتـــربية الأمة على العقيدة الصحيحة والمعطيات الاساسية والركائز القويمة فى كتاب الله تعالى مما دعا علماء الإسلام عامة، وعلماء القرآن خاصة إلى القيام بـــواجب دعوة أقوامهم إلى العودة الحميدة إلى كتاب الله والحياة في ظلاله، مما اســـتلزم دراســـة عمـــيقة للموضوعات في القرآن أو بعبارة ناصعة: (التفسير

الموضـــوعي للقرآن الكريم) وتقديمها في سلسلة من الأعمال التفسيرية الدعوية الهدائية المتشعبة إلى كافة جوانب الحياة الاجتماعية – الاقتصادية – النفسية – وغيـــرها، فهـــذا الســـبب الدعـــوي هـــو أحـــد الأسباب الهامة لنشوء التفسير الموضوعي،وانتشاره وتحديد سماته وملامحه.

رابعا: التفسير الموضوعى

شموخ الإسلام فى وجه جاهلية القرن العشرين

لما عجز المستعمر الإنجليزى عن مواصلة تخريب وابتزاز دول الإسلام عقـــب غنهـــيار الخلافـــة وعلم أن رحيله آت لا محالة ن بدأ فى خطة جهنمية لـــزرع أدوات له فى بلاد المسلمين تقوم بمآربه وتحقق أهدافه بل وتوغل فى الهجـــوم علـــى الإسلام وعقائده بالصورة التى لا يجرؤ اشد الكافرين كفرا على المضـــى إلـــيها وقـــد تولـــى عبد الناصر فى مصر كبر المسالة ووشن الحملة المســـعورة التـــى لا تهـــدا علـــى رموز الإسلام وعلى الحركة الإسلامية حتى تحـــولت مصر على معسكر من أشد معسكرات المناوئة والحرب على الإسلام جملـــة وعلـــى رموزه من العاملين خاصة طورا تحت دعوى الرجعية وطورا تحـــت دعـــوى معارضة الإشتراكية، ولكا استعرت المواجهة وكان التمكين من نصـــيب الإشـــتراكيين نصبوا المشانق وأعملوا فى أنصار الإسلام قتلا وتعذيبا على الصورة الفاجعة التى لم تحدث فى القرون الأولى يمدهم فى ذلك بالوسائل والخطط والأدوات أربابهم فى الشرق حينا وفى الغرب حينا، وقد أدى ذلك على تلفت المسلم المخ٩ص حوله يبحث عن طوق النجاة وكان القرآن الكريم كالعادة هـــو المـــلاذ الآمن والحصن الحصين، وقد افرزت التجربة الدامية المريرة فى

المعـــتقلات ولاسجون الناصرية سواء فى مصر أو فى سورية نمطا من النظر وتفســيرر القرآن على صورة تناسب المعطيات الحرجة لهذه المرحلة النازفة من تاريخ المواجهة العاصفة بين الكفر والإيمان ن وخرج من ذلك كتابات جديدة فى تـــناولها جديـــدة فـــى النتائج التى توصلت لها جديدة فى منهجها تحت المطارق الثقلـــيلة لآلة التعذيب الناصرية، وكان كتاب (فى ظلال القرآن) نموذجا فذا من التفســـيرر الموضـــوعى القائم على السورة الواحدة منن القرآن، وكذلك كتابات وتخريجات سعيد حوى فى سورية من التفاسير الموضوعية التحليلية التى تمثل أوضـــح تمثـــيل هذه المدرسة الجديدة حصاد المذابح الناصرية وكان ذلك سببا ظاهرا فى قيام وبلورة مدرسة التفسير الموضوعى.

خامسًا: التفسير الموضوعى

ثورة العلوم تبرز وجها جديدا للإعجاز القرآنى العلمى

مع انتصار الغرب وفتوحاته العلمية، وتلاحق الكشوفات العلمية الحديثة في الفلك والطب والجيولوجيا والبحار وغيرها من فروع العلم والكونيات التي جاء ذكـــرها فـــي القرآن، مما أظهر وجهاً جديداً من وجوه الإعجاز القرآني بتطابق الإشـــارات القـــرآنية مـــع أحـــدث البحوث، مما أدى إلى ظهور اتجاه التفسير الموضوعي العلمي والذي تبنته مؤسسات علمية ودعوية، وأقيمت له المؤتمرات التـــي تـــوافد إلـــيها العلماء بتفاسير موضوعية للآيات الكونية، وهو اتجاه من الاتجاهـــات الموضـــوعية التـــي كانت أسبابها كامنة في التطور العلمي الهائل والـــتحدي الحضـــاري الذي فرض على الإسلام، وكذلك الرغبة في إبداء وجه جديد من وجوه الإعجاز القرآني.

سادساً: التأثر بالمنهج العلمي الغربي

الذي جعل العلوم تتجمع في وحدات عامة، حتى انهم صاروا يبحثون عن نظريات شاملة للكون تحت أسماء (نظريات الكل) أو " الأصل الواحد " وخلاف ذلك جامعين بين تخصصات كانت تعد من قبل من قبيل المتباعدات التي يصعب جمعهـا، ومـثال ذلك تجميع نظريات الكم (Quantum Theory) لماكس بلانك والخاصـة بتفاصيل التكوين الذري مع نظرية النسبية العامة والخاصة لأنشتين والمعنـية بالفيزياء الكونية الفلكية. النسبية" Relativity " للنظر إلى الكون نظرة شاملة من أصغر وحداته إلى أعظم وحداته (من أدق الذرة إلى المجرة).

فهـذا المنهاج في هذا المجال وغيره وخاصة المجالات الفكرية ثم الهجوم علـى الإسلام موضوعياً أدى إلى اقبال المفسرين على القرآن والنظر فيه بنفس الطريقة الجامعة والتركيز على المقاصد والأهداف العامة للموضوعات بما رسخ قواعد التفسير الموضوعي.

سابعاً: قيام بعض المستشرقين تأثرًا بالطريقة الغربية الحديثة

بتصـنيف مـؤلفات قرآنية جامعة للموضوعات وذلك في دراسات لفظية معجمـه وذلـك مثل " نجوم القرآن في أطراف القرآن " للمستشرق الألماني " فلوجل " وكتاب " تفصيل موضوعات القرآن " للمستشرق الفرنسي " جول لابوم " ويحوي ثلاثمائة وخمسين موضوعاً قرآنياً. وكتاب " المستدرك " على كتاب " لابوم " للمستشرق الفرنسي " ادوار مونتييه ".

فهـذه الجهـود الاستشراقية المتأثرة بالمنهج الغربي قد لفتت أنظار علماء

الإســلام إلى الوحدة الموضوعية في آيات القرآن الكريم، فنسجوا على منوالها موضوعات متكاملة. وكذلك هناك المعاجم التي أصدرها مصنفون مسلمون مثل " المعجــم المفهــرس لألفــاظ القرآن الكريم " كاتبه محمد فؤاد مصطفى السيد. وكتاب " معجم الأدوات والضمائر في القرآن " للدكتور إسماعيل عمايرة

والدكتور مصطفى السيد. وكتاب " معجم ألفاظ القرآن الكريم " دار مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكتاب " دراسات لأسلوب القرآن " لمحمد عبد الخالق[1].

فهذه كلها سهلت البحث الموضوعي بأيسر سبيل وأبرزت دون جهد الوحدة الحمــيمة لكــل عنصــر من عناصر الموضوعات القرآنية، بما فتح الباب على مصراعيه للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم

ثامناً: الثورة المعلوماتية الهائلة

بظهــوز الكمبيوتــر وتطوره المذهل ودخول القرآن الكريم إليه مما وفر أداة جــبارة لبحث الموضوعات القرآنية من أول أعداد الحروف في كل سورة والقرآن إلــى أعــداد الألفــاظ إلــى تنوع الموضوعات بصورة باهرة، كذلك ما حفظ على الأقــراص الحافظــة لمــا تم إنجازه والتفاسير التحليلية مما يمكن في يسر لا يكاد يصدق جمع كل ما كتب في كل موضوع من أول الإسلام وحتى يومنا هذا، فصار التفسير الموضوعي هو ابن هذا العصر وثمرته، والإدارة القرآنية الفاعلة معه سواء من ناحية المنهاج أو الغاية أو الوسائل التي تؤدي دون كلل إلى بلوغ الغايات.

---

(١) انظر التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق – مرجع سابق صـ ٤٨

تاسعاً: تبني الجامعات لنظام الأبحاث

كطـــريق للحصول على إجازات التخصص (الماجستير) أو العالمية العليا (الدكتوراه) وذلك على مستوى الجامعات عامة، والجامعات الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي خاصة. والبحث الموضوعي هو الطريق الوحيد الذي يستوعب هـــذا التـــنوع الـــذي لا ينحصر للأفكار التي تتبني عليها الأبحاث والدراسات الجامعـــية نظراً لتنوع موضوعات القرآن وفروع ذلك وفروع فروعه، وأيضاً لحاجة الأمة إلى التجديد المستمر في الأفكار والخطط العلمية المتولدة عن آيات الكـــتاب الكـــريم. ويضـــاف إلى ذلك التوجيه المستمر من الأساتذة إلى طلابهم باختـــيار " موضـــوعات " للبحث فيها وخاصة فيما يتعلق بتخصصات التفسير وعلوم القرآن، وأيضا غيرها من الأبحاث الشرعية المتعلقة بالقرآن الكريم.

فهذه أهم الأسباب التي أدت إلى:

أولاً: ظهور التفسير الموضوعي.

ثانياً: تنوع أشكاله وأصنافه.

ثالثاً: تفرعه وانتشاره على الساحة الخاصة والعامة.

رابعاً: تطوره في سرعة واندفاع معتمداً أحداث التقنيات المعاصرة.

الفصل الثالث

الجـــــذور

أصول التفسير الموضوعى

فى تاريخ العلم الشرعى

محاولات التفسير الموضوعي عند المتقدمين

أدلة السلف على مشروعية التفسير الموضوعي

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم:

قال ابن العربي: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم"[1].

طائفة قالت بالتناسب بين آيات القرآن الكريم وتناسقها ومنهم الشيخ ولي الدين الملوي الذي قال: "قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً تأصيلاً فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سورة كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له"[2] وقال بالمناسبة أيضاً الإمام الشاطبي[3] والإمام السيوطي[4] وغيرهم.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي ج٢ ص١٠٨، والبرهان: للزركشي ج١ ص٣٦.

(٢) الإتقان للسيوطي ج٢ ص١٠٨.

(٣) انظر الموافقات: الشاطبي ج٤ ص٤١٤-٤١٥.

(٤) انظر الإتقان: السيوطي ج٢ ص١١٠.

أبو حامد الغزالى يفسر القرآن موضوعيا

مـــن المتقدمين من علماء الأمة فى النظرة الموضوعية الشاملة إلى كتاب الله تعالـــى أبـــو حامد الغزالى ففى كتابه جواهر القرآن والذى صنفه بعد سفره الشهير (إحياء علوم الدين) قال مشيرا بقوة إلى ترامى (الموضوعات) فى كتاب الله تعالـــى وتـــنوعها وما يتطلبه بلوغ فهمها إلى الإستقصاء والدراسة العميقة المضنية فى جنبات الكتاب مصورا إياه بالبحر اللجى فقال:

(فانـــي أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك المتخذ دراسة القرآن عملا، المتلقف من معانيه ظواهر وجملا.

الى كم تطوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائبها؟! أوما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها؟ وتسافر الى جزائرها لاجتناء أطايبها؟ وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها؟ أوما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بادمان النظر الى سواحلها وظواهرها؟!! أوما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين، كما يتشعب عن سواحل البحـــر المحيط أنهارها وجداولها؟! أوما تغبط أقواما خاضوا في غمرة أمواجها فظفـــروا بالكبـــريت الأحمر؟ وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوت الأحمر والدر الأزهر.والزبرجد الأخضر؟! وساحوا في سواحلها فالتقطوا العنبر الأشهب والعود الرطب الأنضر ؟! وتعلقوا الى جزائرها واستدروا من حيواناتها الترياق الأكبر والمسك الأذفر ؟!

وها أنا أرشدك قاضيا حق إخائك ومرتجيا بركة دعائك الى كيفية سياحتهم وغوصهم وسباحتهم.....)

ثـم جعـل الكتاب بكامله غرضا لذلك الإرشاد وكيف كانت سباحتهم فى القـرآن من أوله إلى آخره للوقوف على عجائب درره وجواهره ن وما ذاك إلا البحث الموضوعى المستقصى البليغ إلى غاية أعماق المعانى فى القرآن الكريم وجمع أطرافها

دراسة موضوعية شاملة للقرآن العظيم

وفـى الفصـل الثانـي تركز البحث الموضوعى للغزالى فى (في حصر مقاصد القرآن ونفائسه) فقال:

(سـر القـرآن ولـبابه الأصفى ومقصده الأقصى دعوة العباد الى الجبار الأعلـى، رب الآخرة والأولى، خالق السماوات العلى والأرضين السفلى وما بينهما وما تحت الثرى.

فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع:

ثلاثـة منهاهي السوابق والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتمة:

أما الثلاثة المهمة فهي:

١- تعريف المدعو اليه

٢- وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك اليه

٣- وتعريف الحال عند الوصول اليه

وأما الثلاثة المغنية المتممة:

فأحـــدها: تعـــريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم وسره. ومقصوده التشويق والترغيب وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الاجابـــة وكيفـــية قمع الله لهم وتنكيله لهم وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

وثانـــيها: حكايـــة أحـــوال الجاحدين وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجـــة علـــى الحق وسره ومقصوده في جنب الباطل الافضاح والتنفير وفي جنب الحق الايضاح والتثبيت والتقهير.

وثالـــثها: تعـــريف عمـــارة مـــنازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد فهذه ستة أقسام)

قلت: وكما أنت راء فإنه قد قسم القرآن بجملته إلاى عدد من الموضوعات مســـميا كل بحث بإسمه ن ولا يخفاك أن كل واحد ممتاا ذكر من الأقسام الستة يـــدور حـــوله من الآيات فى كتاب الله تعالى وسواء يبالدلالة المباشرة عليه أو بالدلالـــة الفـــرعية ما هو حقيق باستفراغ لالجهد الموضوعى على غاية طاقته للوصـــول إليه، وعلى الجملة فهو مبحث موضوعى بالمعنى التام للكلمة بل هو تقسيم للكتاب بجملته على عدد أولى من رؤوس الموضوعات ن يصح كل واحد منها إلى أسفار فى ذات المسألة محل البحث الموضوعى.

في شرح مقاصد القرآن

فهذه جملة القسم الأول وفيها أصناف اليواقيت وسنتلو عليك الآيات الواردة

فـيها على الخصوص جملة واحدة فإنها زبدة القرآن وقلبه ولبابه وسره القسم الثاني في تعريف طريق السلوك الى الله تعالى(١)

لقسم الثالث: في تعريف الحال عند ميعاد الوصال وهو يشتمل على ذكر الروح والنعيم الذي يلقاه الواصلون والعبارة الجامعة لأنواع روحها الجنة وأعلاها لذة النظر الى الله تعالى ويشتمل أيضا على ذكر الخزي والعذاب الذي يلقاه المحجوبون عنه باهمال السلوك والعبارة الجامعة لأصناف آلامها الجحيم وأشدها ألما ألم الحجاب والابعاد أعاذنا الله منه ولذلك قدمه في قوله تعالى كلا انهم عن ربهم يؤمئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم ويشتمل أيضا على ذكر مقدمات أحوال الفريقين وعنها يعبر بالحشر والنشر والحساب والميزان والصراط ولها ظواهر جلية تجري مجرى الغذاء لعموم الخلق ولها أسرار غامضة تجري مجرى الحياة لخصوص الخلق وثلث آيات القرآن وسوره يرجع إلى تفصيل ذلك ولسنا نهم بجمعها فهي أكثر من أن تلتقط وتحصى ولكن للفكر فيها مجال وبحث وهذا القسم هو الزمرد الأخضر(٢)

القسم الرابع في أحوال السالكين والناكبين أما أحوال السالكين فهي قصص الأنبياء والأولياء كقصة آدم ونوح وابراهيم وموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ومريم وداود وسليمان ويونس ولوط وادريس والخضر وشعيب والياس ومحمد وجبريل وميكائيل والملائكة وغيرهم وأما أحوال الجاحدين والناكبين فهي كقصص نمرود وفرعون وعاد وقوم لوط وقوم تبع وأصحاب الأيكة وكفار مكة وعبدة الأوثان وابليس والشياطين وغيرهم وفائدة هذا القسم الترهيب والتنبيه

(١) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ١/٢٧.

(٢) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ١/٣٠.

والاعتبار ويشتمل أيضا على اسرار ورموز واشارات محوجة الى التفكر الطويل وفيهما يوجد العنبر الأشهب والعود الرطب الأنضر والآيات الواردة فيهما كثيرة لا يحتاج الى طلبها وجمعها القسم الخامس في محاجة الكفار ومجادلتهم وايضاح مخازيهم بالبرهان الواضح وكشف تخاييلهم وأباطيلهم[1]

وفي محاجة الله تعالى اياهم بالحجج لطائف وحقائق ويوجد فيها الترياق الأكبر وآياته أيضا كثيرة ظاهرة القسم السادس في تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية التأهب للزاد والاستعداد باعداد السلاح الذي يدفع سراق المنازل وقطاعها[2]

فشرح القرآن قانون الاختصاص بالأموال في آيات المبايعات والربويات والمداينات وقسم المواريث ومواجب النفقات وقسمة الغنائم والصدقات والمناكحات والعتق والكتابة والاسترقاق والسبي وعرف كيفية ذلك التخصيص عند الاتهام بالاقراريات وبالإيمان والشهادات وأما الاختصاص بالاناث فقد بينته آيات النكاح والطلاق والرجعة والعدة والخلع والصداق والايلاء والظهار واللعان وآيات محرمات النسب والرضاع والمصاهرات وأما أسباب الدفع لمفسداتهما فهي العقوبات الزاجرة عنها كقتال الكفار وأهل البغي والحث عليه والحدود والغرامات والتعزيرات والكفارات والديات والقصاص أما القصاص والديات فدفعا للسعي في اهلاك الأنفس والأطراف وأما حد السرقة وقطع الطريق فدفعا لما يستهلك الأموال التي هي أسباب المعاش وأما حد الزنا واللواط والقذف فدفعا لما يشوش أمر النسل والأنساب ويفسد طريق التحارث والتناسل وأما جهاد

(١) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ٣١/١.

(٢) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ٣٢/١.

الكفار وقتالهم فدفعا لما يعرض من الجاحدين للحق من تشويش أسباب المعيشة والديانة اللتين بهما الوصول الى الله تعالى وأما قتال[1]

أهـل البغـي فدفعا لما يظهر من الاضطراب بسبب آنسلال المارقين عن ضـبط السياسات الدينية التي يتولاها حارس السالكين وكافل المحقين نائبا عن رسـول رب العالمـين ولا يخفـى عليك الآيات الواردة في هذا الجنس وتحته أساسـيات ومصـالح وحكم وفوائد يدركها المتأمل في محاسن الشريعة المبينة لحدود الأحكام الدنيوية ويشتمل هذا القسم على ما يسمى الحلال والحرام وحدود الله وفـيها يوجد المسلك الأنفر فهذه مجامع ما تنطوي عليه سور القرآن وآياتها وان جمعـت الأقسام الستة المذكورة مع شعبها المقصودة في سلك واحد ألفيتها عشـرة أنـواع ذكـر الـذات وذكر الصفات وذكر الأفعال وذكر المعاد وذكر الصـراط المسـتقيم أعنـي جانبي التزكية والتحلية وذكر أحوال الأولياء وذكر أحوال الأعداء وذكر محاجة الكفار وذكر حدود الأحكام ولا يخفى عليك الآيات الـواردة في هذا الجنس وتحته أساسيات ومصالح وحكم وفوائد يدركها المتأمل فـي محاسن الشريعة المبينة لحدود الأحكام الدنيوية ويشتمل هذا القسم على ما يسـمى الحـلال والحرام وحدود الله وفيها يوجد المسلك الأنفر فهذه مجامع ما تنطوي عليه سور القرآن وآياتها وان جمعت الأقسام الستة المذكورة مع شعبها المقصـودة في سلك واحد ألفيتها عشرة أنواع ذكر الذات وذكر الصفات وذكر الأفعال وذكر المعاد وذكر الصراط المستقيم أعني جانبي التزكية والتحلية وذكر أحوال الأولياء وذكر أحوال الأعداء وذكر محاجة الكفار وذكر حدود الأحكام[2].

(١) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ٣٣/١.

(٢) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ٣٤/١.

تنوع موضوعات التفسير فى كتاب الله تعالى بما يفوق التصور

قال الغزالى:

بـل أقول ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الامكان والقـوة أصـنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود وان كان في قوة الآدمي الوصول اليها وعلوم كانت قد خرجت الى الوجود واندرست الآن فلن يوجد في هـذه الأعصـار على بسيط الأرض من يعرفها وعلوم أخر ليس في قوة البشر أصـلا ادراكها والإحاطة بها ويحظى بها بعض الملائكة المقربين فان الامكان فـي حـق الآدمي محدود والإمكان في حق الملك محدود الى غاية في الكمال بالإضافة كما أنه في حق البهيمة محدود الى غاية في النقصان وإنما الله سبحانه هـو الـذي لا يتناهى العلم في حقه ويفارق علمنا علم الحق تبارك وتعالى في شيئين أحدهما انتفاء النهاية عنه والآخر أن العلوم ليست في حقه بالقوة والامكان الذي ينتظر خروجه بالوجود بل هو بالوجود والحضور فكل ممكن في حقه من الكمال فهو حاضر موجود[1]

ثـم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن فان جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال وقـد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد.

(١) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ١/٤٤.

موضوعات التفسير الموضوعى بحر لا ساحل له

أولا: الطب فى ضوء القرآن الكريم

قال الغزالى:

(فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلا:

* الشـــفاء والمـــرض كمـــا قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام واذا مرضت فهو يشفين وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله اذ لا معنى للطب الا معرفةالمرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه)

قلت: فهذا تفسير موضوعى حول الطب فى كتاب الله تعالى

ثانيا: الفلك فى ضوء القرآن الكريم

قال: (* ومن افعاله تبارك وتعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان وقد قال الله تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقال (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال(وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) وقال (يولج اللـــيل في النهار ويولج النهار في الليل) وقال (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)

ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في الـــنهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر الا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه)

قلت: فقد صرح هاهنا بالتفسير الموضوعى حول الفلك فى كتاب الله تعالى مقارنـــة بالمعارف العلمية المعاصرة، فهو تفسير موضوعى مرتكز على جملة الكتاب كذلك هو تفسير مقارن فتأمله.

ثالثا: خلق الإنسان فى ضوء القرآن الكريم

قـــال: (ولا يعرف كمال معنى قوله تعالى (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكـــريم الـــذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك) الا من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها وقد أشار في القرآن في مواضع اليها وهي من علوم الأولين والآخرين)

قلت: وهذا موضوع آخر فى كتاب الله تعالى يتعلق بعلوم التشريح والأجنة ووظائف الأعضاء يقوم على جمع أطراف الادلة من الآيات حول نفس المسالة وبيان وجوه الإعجاز والروابط التى تبنى منها موضوعا برأسه فتدبر.

رابعا: موضوعات الأولين والآخرين

قال: (وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين)

قلـــت: وقد سبق التنبيه إلى أن الموضوعات التى يمكن أن يتناولها المفسر الموضـــوعى لا تتصـــورها العقـــول ولا تحدها الأو هام وعليه فإن الأبحاث الموضـــوعية لا نهايـــة لها من جهة تنوعها وتباينها وغرابتها إذ من أراد فإنه يغترف من بحر لجى لا يحد له مدى

خامسا: الروح والجسد فى ضوء القرآن الكريم

قـــال: (وكـــذلك لا يعرف كمال معنى قوله تعالى (سويته ونفخت فيه من روحـــي) من لم يعلم التسوية والنفخ والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق وربما لا يفهمونها ان سمعوها من العالم بها)

قلـــت: فهذا موضوع بحث غامض دقيق صعب لا يتأهل له إلا من أوتى علمـــا وبصـــيرة ليصـــل إلى كنه العلاقة بين اللحم والروح مع اليقين باستحالة التعـــرف على كنه الروح ذاتها لقول الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر برى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

هو البحر الذى لا شاطىء له

قال: (ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ولا تمكـــن الاشـــارة الا الى مجامعها وقد أشرنا اليه حيث ذكرنا أن من جملة معرفة الله تعالى معرفة أفعاله فتلك الجملة تشتمل على هذه التفاصيل

وكـــذلك كـــل قسم أجملناه لو شعب لانشعب الى تفاصيل كثيرة فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين وجملة أوائله وانمـــا التفكـــر فيه للتوصل من جملته الى تفصيله وهو البحر الذي لا شاطىء له...)

قلت: وهو كلام نفيس جدا وعظيم النفع لمن عقله رزقنى الله وإياك صدق المسعى ونور البصيرة آمين.

بحث موضوعى شامل حول امتناع التكرار

فى كتاب الله تعالى

(والمقصود أنه لا مكرر في القرآن فان رأيت شيئا مكررا من حيث الظاهر فانظر في سوابقه ولواحقه لتكشف لك مزيد الفائدة في اعادته)[1]

قلت: وهى دعوة صريحة للتفسير الموضوعى فيما يتعلق بالتكرار فى كتاب الله تعالى من أول٨ إلى آخره وغنى عن البيان أن هذا البحث يمكن أن يستفرغ جهد غير مفسر للوصول إلى النتيجة التى قررها الغزالى هاهنا وهى امتناع وجمد التكرار ىفى كتاب الله تعالى رأسا وعجبا مع تكرا كثير من القصص بل بعض الآيات بنصها، بل وعشرات من خواتيم الآيات بالأسماء والصفات الإلهية ومع هذا التكرار الظاهر فإنه ينفى عن الكتاب صفةلار التكرار ولا تسل بعدها عن طول البحث وتنوعه بحسب ما ذكرنا فى كل آية تكرر فيه اللفظ الكريم أو الصفة العليا، وكذا القصص، وما البحث الموضوعى المضنى إن لم يكن هذا الذى أشار إليه هذا العالم منذ عشرة قرون عددا.

موضوعات شاملة لآيات القرآن جميعها

قال:

في جواهر القرآن وهي سبعمائة وثلاث وستون آية.....) قلت: وسردها آية آية[1]

---

(١) أبو حامد الغزالى ــ جواهر القرآن ٦٨/١

(١) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ٨٦/١.

النمط الثاني في درر القرآن وهي سبعمائة وإحدى وأربعون آية....) وسردها آية آية[1].....

فالغزالي كما ترى قد صنف القرى، كاملا إلى موضوعات تشملها آيات فكأنه قام بما جاء فى الزمن الحالى من تصنيف موضوعات كتاب الله تعالى وما ورد فى كل موضوع من آيات تشمله وتعبر عنه وإن شئت زيادة فراجع الكتاب فقد أورد الآيات بأعدادها كالمة، وهو استقصاء موضوعى لا يطيقه إلا من أوتى عزما وتوفيقا لا أقول فى الزمن الأول حيث كتب الغزالى هذا السفر، بل أقول مع وجود التقنيات الحديثة والحواسيب الجبارة وورود المعلومة بأسرع من البرق، والمقصود من ذلك ليس الحكم على ما فعله الغزالى من جهة الخطأ والصواب فإن لذلك مقاما آخر يمكن فيه استعراض الفكرة ومطابقتها بالمقاصد القرين ية ولكن الشاهد هنا هو محاولة التصنيف الموضوعى وهو ظاهر جدا على ماقد رايت ويعد شاهدا بينا على انصراف العلماء الاقدمين لهذا الصنف من التفسير وفيما ذكرنا فائدتان: الأولى ثبوت مشروعية التفسير الموضوعى بفعل الأولين له دون معارض منهم، والثانى بيان بديع لمنهج البحث الموضوعى فليس أوضح مما ترى طريقة ومنهجا للبحث الموضوعى فى كتاب الله تعالى.

(١) جوامع القرآن: أبو حامد الغزالي ١٤٧/١.

السيوطى ومناسبات السور والآيات

الإتقان للسيوطى ٢/٢٨٨: في مناسبة الآيات والسور ٥٢٢. أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سماه البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه نظم الدرر في تناسب الآي والسور وكتابي الذي صنعته في أسرار التنزيل كافل بذلك جامع لمناسبات السور والآيات مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة وقد لخصت منه مناسبات السور خاصة في جزء لطيف سميته تناسق الدرر في تناسب السور.

وعلم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته وممن أكثر فيه الإمام فخر الدين وقال في تفسيره أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

وقال ابن العربي في سراج المريدين ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه.

وقال غيره أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري وكان غزير العلم في الشريعة والأدب وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذهالسورة وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة.

وقـــال الشيخ عز الدين بن عبد السلام المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مخـــتلفة لم يقع فيه ارتباط ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان.عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربـــط بعضـــه ببعض. وقال الشيخ ولي الدين الملوي قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لمـــا قبلها ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له انتهى. وقال الإمام الرازي في سورة البقرة ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظـــه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعل الذين قالوا إنه معجـــز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هـــذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل والـــنجم تستصـــغر الأبصـــار صـــورته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر فصل ٥٢٢٧ المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة ومرجعها في الآيات ونحوها إلـــى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين

والضدين ونحوه..... ومما الكلام فيه التضاد ذكر الرحمة بعد ذكر العـذاب والرغبة بعد الرهبة وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون باعثا على العمل بما سبق ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظـم الآمر والناهي وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة تجده كذلك..... ففـيه من التخلصات العجيبة ما يحير العقول، وانظر إلى سورة الأعراف كيف ذكـر فيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة ثم ذكر موسى إلى أن قص حكايـة السـبعين رجلا ودعائه لهم ولسائر أمته بقوله واكتب لنا في هذه الدنيا حسـنة وفـي الآخـرة وجوابه تعالى عنه ثم تخلص بمناقب سيد المرسلين بعد تخلصـه لأمته بقوله قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسـأكتبها للذين من صفاتهم كيت وكيت وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي وأخذ في صفاته الكريمة وفضائله.....

قـــــاعـدة

قـــال بعـــض المتأخرين الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة وتنظر ما يحتاج إلـــيه ذلـــك الغـــرض من المقدمات وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشـــراف نفـــس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شـــفاء الغلـــيل بدفـــع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة انتهى

ومـــنها أن عـــادة القـــرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعـــرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملا وتركا كما قال في الكهف ووضع الكتاب فترى

مـــن هذا النوع مناسبة فواتح السور وخواتمها وقد أفردت فيه جزءا لطيفا سميته مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع وانظر إلى سورة القصص كيف بدئت بأمر موسى ونصرته وقول (فلن أكون ظهيرا للمجرمين) وخروجه من وطنه وختمت بأمر النبي بألا يكون ظهيرا للكافرين وتسليته عن إخراجه من مكـــة ووعده بالعود إليها لقوله في أول السورة (إنا رادوه) قال الزمخشري وقد جعـــل الله فاتحـــة ســـورة (قد أفلح المؤمنون) وأورد في خاتمتها (إنه لا يفلح الكافـــرون) فشـــتان ما بين الفاتحة والخاتمة وذكر الكرماني في العجائب مثله وقـــال في سورة ص بدأها بالذكر وختمها به في قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين)

وفـــي ســـورة ن بدأها بقوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وختمها بقوله (إنه لمجنون) ومنه مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها حتى أن منها ما يظهر تعلقها بـــه لفظـــا كمـــا في (فجعلهم كعصف مأكول) (لإيلاف قريش) فقد قال الأخفش اتصالها بها من باب (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وقال الكواشي فـــي تفســـير المائدة لما ختم سورة النساء أمرا بالتوحيد وقال غيره إذا اعتبرت افتـــتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ثم هو يخفي تـــارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام المائدة من فصـــل القضاء كما قال تعالى (وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) وكافتـــتاح ســـورة فاطـــر بالحمـــد لله فإنـــه مناســـب لختام ما قبلها من قوله (وحـــيل بيـــنهم وبـــين مـــا يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل) كما قال تعالى (فقطـــع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وكافتتاح سورة الحديد بالتســـبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة بالأمر به وكافتتاح سورة البقرة بقوله (آلـــم ذلـــك الكتاب) فإنه إشارة إلى الصراط في قوله (اهدنا الصراط المستقيم) كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة

قال بعض الأئمة وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه فـــي دين الإسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وآل عمران مكملة لمقصودها فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمـــران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ولهذا ورد فيها ذكر المتشابه لمـــا تمســـك به النصارى وأوجب الحج في آل عمران وأما في البقرة فذكر أنه مشـــروع وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه وكان خطاب النصارى في آل عمران

أكثـــر كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها والنبي لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم وكان جهاده للنصارى في آخر الأمـــر كمـــا كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ولهذا كانت السور المكية فـــيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء فخوطب به جميع الناس والسور المدنية فيها خطـــاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخوطبوا بيا أهل الكتاب يا بنـــي إسرائيل يأيها الذين آمنوا وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس وهي نوعان مخلوقة لله ومقدورة لهم كالنسب والصهر ولهذا افتتحت بقـــوله (اتقـــوا ربكـــم الـــذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) ثم قال واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام فانظر هذه المناسبة العجيبة في الافتتاح وبـــراعة الاستهلال حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما أكثر السورة في أحكامه مـــن نكاح النساء ومحرماته والمواريث المتعلقة بالأرحام وأن ابتداء هذا الأمر كـــان بخلـــق آدم ثم خلق زوجه منه ثم بث منهما رجالا ونساء في غاية الكثرة وأمـــا المائدة فسورة العقود تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين والوفاء بعهـــود الرســـل وما أخذ على الأمة وبها تم الدين فهي سورة التكميل لأن فيها تحريم الصيد على المحرم الذي هو من تمام الإحرام وتحريم الخمر الذي هو من تمـــام حفظ العقل والدين وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين الذي هو من تمـــام حفظ الدماء والأموال وإحلال الطيبات الذي هو من تمام عبادة الله تعالى ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد كالوضوء والتيمم والحكم بالقرآن على كل دين ولهذا كثر فيها من لفظ الإكمال والإتمام وذكر فيها أن من ارتد عوض الله خير منه ولا يزال هذا الدين كاملا ولهذا ورد أنها آخر ما نزل لما فيها من إشـــارات الختم والتمام وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب

تفسير موضوعى سلفى على الحرف القرآنى

وقـــال أبو جعفر بن الزبير حكى الخطابي أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن وضعوا سورة القدر عقب العلق استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) الإشارة إلى قوله (اقرأ) قال القاضي أبو بكر ابـــن العربـــي وهذا بديع جدا قال في البرهان ومن ذلك افتتاح السور بالحروف المقطعـــة واختصاص كل واحدة بما بدئت به حتى لم يكن لترد (الم) في موضع (الـــر) ولا (حـــم) في موضع (طس) قال وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها فـــإن أكثـــر كلماتهـــا وحروفها مماثل له فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها فلو وضع (ق) موضع (ن) لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله وسورة (ق) بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر القرآن والخلق وتكرير القول ومراجعته مرارا والقرب من ابن آدم وتلقي الملكين وقول العتـــيد والرقيب والسائق والإلقاء في جهنم والتقدم بالوعد وذكر المتقين والقلب والقرون والتنقيب في البلاد وتشقق الأرض وحقوق الوعيد وغير ذلك

وقد تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها (الراء) مائتا كلمة أو أكثر فلهـــذا افتـــتحت ب (الر) واشتملت سورة (ص) على خصومات متعددة فأولها خصومة النبيْ مع الكفار وقولهم (أجعل الآلهة إلها واحدا) ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى ثم تخاصم إبليس في شأن آدم ثـــم فـــي شأن بنيه وإغوائهم و (الم) جمعت المخارج الثلاثة الحلق واللسان والشفتين على ترتيبها وذلك إشارة إلى البداية التي هي بدء الخلق والنهاية التي هـــي بدء الميعاد والوسط الذي هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي وكل ســـورة افتتحت بها فهي مشتملة على الأمور الثلاثة وسورة الأعراف زيد فيها

الصاد عل (الم) لما فيها من شرح القصص قصةآدم فمن بعده من الأنبياء ولما فيها من ذكر (فلا يكن في صدرك حرج) ولهذا قال بعضهم معنى (المص ألم نشرح لك صدرك) وزيد في الرعد راء لأجل قوله (رفع السموات) ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما، واعلم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله (ألم ذلك الكتاب) (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق) (المص كتاب أنزل إليك الر تلك آيات الكتاب) (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) (طسم تلك آيات الكتاب يس والقرآن) (ص والقرآن) (حم تنزيل الكتاب) (ق والقرآن) إلا ثلاثت سور العنكبوت والروم ون ليس فيها ما يتعلق به وقد ذكرت حكمة ذلك في أسرار التنزيل.

وقال الحراني في معنى حديث (أنزل القرآن على سبعة أحرف زاجر وآمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال) اعلم أن القرآن منزل عند انتهاء الخلق وكمال كل الأمر بدأ فكان المتحلي به جامعا لانتهاء كل خلق وكمال كل أمر فلذلك هو قسيم الكون وهو الجامع الكامل ولذلك كان خاتما وكتابه كذلك وبدأ المعاد من حين ظهوره فاستوفى صلاح هذه الجوامع الثلاث التي قد خلت في الأولين بداياتها وتمت عنده غاياتها بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وهي صلاح الدنيا والدين والمعاد التي جمعها قوله (اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمرى وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي) وفي كل صلاح إقدام وإحجام فتصير الثلاثة الجوامع ستة هي حروف القرآن الستة ثم وهب حرفا جامعا سابعا فردا لا زوج له فتمت سبعة فأدنى تلك الحروف هو حرفا صلاح الدنيا فلها حرفان حرف الحرام الذي لا تصلح النفس

والـبدن إلا بالتطهـر منه لبعده عن تقويمها والثاني حرف الحلال الذي تصلح الـنفس والبدن عليه لموافقته تقويمها وأصل هذين الحرفين في التوراة وتمامهما في القرآن، ويلي ذلك حرفا صلاح المعاد أحدهما حرف الزجر والنهى الذي لا تصلحالآخرة إلا بالتطهر منه لبعده عن حسناتها والثاني حرف الأمر الذي تصلح الآخـرة عليه لتقاضيه لحسناتها وأصل هذين الحرفين في الإنجيل وتمامهما في القـرآن، ويلي ذلك حرفا صلاح الدين أحدهما حرف المحكم الذي بان للعبد فيه خطاب ربه والثاني حرف المتشابه الذي لا يتبين للعبد فيه خطاب ربه من جهة قصـور عقلـه عن إدراكه فالحروف الخمسة للاستعمال وهذا الحرف السادس للوقـوف والاعتـراف بالعجـز وأصل هذين الحرفين في الكتب المتقدمة كلها وتمامهمـا في القرآن ويختص القرآن بالحرف السابع الجامع وهو حرف المثل المبـين للمـثل الأعلى، ولما كان هذا الحرف هو الحمد افتتح الله به أم القرآن وجمـع فـيها جوامع الحروف السبعة التي بثها في القرآن فالأولى تشتمل على حـرف الحمـد السابع والثانية تشتمل على حرفي الحلال والحرام اللذين أقامت الرحمانية بهما الدنيا والرحيمية الآخرة والثالثة تشتمل على أمر الملك القيم على حرفـي الأمـر والنهي الذين يبدأ أمرهما في الدين والرابعة تشتمل على حرفي المحكـم فـي قوله(إياك نعبد) والمتشابه في قوله (وإياك نستعين) ولما افتتح أم القـرآن بالسـابع الجامـع الموهوب ابتدئت البقرة بالسادس المعجوز عنه وهو المتشابه، انتهى كلام الحراني.

ومـن هذا النوع مناسبة أسماء السور لمقاصدها وقد تقدم في النوع السابع عشـر الإشارة إلى ذلك، وفي عجائب الكرماني إنما سميت السور السبع (حم) علـى الاشتراك في الاسم لما بينهن من التشاكل الذي اختصت به وهو أن كل

واحـدة مـنها استفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب مع تقارب المقادير في الطول والقصر وتشاكل الكلام في النظام

فـي تفسير الخويي ابتدئت الفاتحة بقوله (الحمد لله رب العالمين) فوصف بأنه مالك جميع المخلوقين وفي الأنعام والكهف وسبأ وفاطر لم يوصف بذلك بل بفرد من أفراد صفاته وهو خلق السموات والأرض والظلمات والنور في الأنعام وإنـزال الكـتاب فـي الكهـف وملك ما في السموات وما في الأرض في سبأ وخلقهمـا فـني فاطـر لأن الفاتحة أم القرآن ومطلعه فناسب الإتيان فيها بأبلغ الصـفات وأعمهـا وأشملها في العجائب للكرماني إن قيل كيف جاء (يسألونك) أربـع مرات بغير واو (يسألونك عن الأهلة) (يسألونك ماذا ينفقون) (يسألونك عـن الشـهر الحـرام) (يسـألونك عـن الخمـر) ثم جاء ثلاث مرات بالواو (ويسـألونك مـاذا يـنفقون) (ويسـألونك عن اليتامى) ويسألونك عن المحيض قلـنا لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقا وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد فجئ بحرف الجمع دلالة على ذلك فإن قيل كيف جاء (ويسألونك عن الجبال فقل) وعادة القرآن مجئ قلفي الجواب بلا فاء أجاب الكرماني بأن التقدير لـو سـئلت عنها فقل، فإن قيل كيف جاء (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) وعادة السؤال يجئ جوابه في القرآن (بقل) قلنا حذفت للإشارة إلى أن العبد في حالـة الـدعاء في أشرف المقامات لا واسطة بينه وبين مولاه، ورد في القرآن سـورتان أولهمـا (يأيهـا الناس) في كل نصف سورة فالتي في النصف الأول تشتمل على شرح المبدأ والتي في الثاني على شرح المعاد.

ابن القيم يفسر القرآن موضوعيا

فى القرن الثامن الهجرى[1]

بنظـــرة عابرة على مصنفات العلماء المتقدمين بتين لنا من غير غموض،

(١) ابـــن القيم الجوزية: هو الإمام محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى، المفسر الفقيه الأصولى النحوى، الملقب بشمس الدين والمكنى بأبى عبد الله، والمعروف بابن القيم الجوزية، ولد فى السابع من شهر صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة من الهجرة واحد من أعمدة الحجـــج علـــى مـــنهج الســـلف الصـــالح فى تفسير القرآن الكريم، العالم الجليل ذو الأثر الكبير والمصنفات المشهورة، وهو التلميذ النجيب لشيخ الإسلام ابن تيمية والمنتصر لآرائه حتى أصابهُ من البلاء والأذى من جراء ذلك صنوفا وألوانا، قال ابن حجر فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٥٩٣/٣: (.... أصابه ما أصاب شيخه من أذى فقد اعتقل معه بالقلعة بعد أن أهين وطيف بـــه على جمل مضروبا بالدرة)، وقال ابن رجب الحنبلى فى طبقات الحنابلة ٥٩٣/٢: (وقد حبس آخـــر مرة مع شيخه منفردا عنه، ولم يفرج عنه إلا بعد موته وكان فى مدة حبسه مشتغلا بتلاوة القـــرآن والتدبـــر والتفكر وفتح عليه من ذلك خير كثير)، وقد شهد له أهل العلم بالورع والتقوى والجلـــد والمثابرة وحسن الخلق، وأقوالهم فى ذلك كثيرة ومشهورة نذكر منها ما أورده ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة ٣:٤٠٠: (كان ابن القيم رجلا قوى الخلق وكان ذا عبادة وتهجد كثير الـــتلاوة.... وكان يقول بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين)، وقال ابن كثير فى البداية والنهاية ٢٣٥/١٤: (وكنت من أصحب الناس له وأحبهم إليه، ولا أعرف فى هذا العالم فى زماننا من هو أكثـــر عبادة منه وكانت له طريقة فى الصلاة يطيلها جدا، ويمد ركوعها وسجودها، ويلومه كثير مـــن أصـــحابه فـــى بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله...)، وقال ابن رجب الحنبلى فى طبقات الحنابلة: (ليس بالمعصوم، ولكن لم أر فى معناه مثله..)، وقد توفى رحمه الله وقت العشاء الأخرة الثالث عشر من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة من الهجرة وصلى عليهُ مـــن الغـــد عقيب الظهر بجامع جراح، ودفن بمقبرة الباب الصغير وشيعه خلق كثير حتى كادت شـــوارع دمشق تضيق بالمشيعين (ابن كثير فى البداية والنهاية ٢٣٥/١٤، وذكر ابن رجب أنه قد رؤيـــت لـــه منامات كثيرة حسنة وقد رأى قبل موته شيخه ابن تيمية فى المنام وسأله عن منزلته فأشـــار إلى علوه فوق بعض الأكابر، وقال له: وأنت كدت تلحق بنا، لكن أنت الآن فى طبقة ابن خزيمة (ابن رجب الحنبلى: طبقات الحنابلة: ٥٩٣/٢)

لجوئهم إلى الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم أو فى سورة من سوره أو أقل من ذلك أو أكثر غير أنها بقيت محاولات فردية متناثرة وعبرة عن توجه العالم المفـرد من غير أن تمثل اتجاها عاما او منهجا جديدا فى التفسير يخلع الأطر القديمة وينفض مسألة التقليد فى المنهج أو حتى فى الإتجاه الفرق بين هذين بين وواضح وهو أن المنهج هو الإطار الذى يعتمده المفسر لصوغ أفكاره التفسيرية وإبـرازها بخـيث يمكـن التعبيـر عنها بينما الإتجاه فهو نفس الفكرة الجديدة التفسيرية التى صبغت التفسير المعين بحيث تميزه عن غيره، ونقول ان الإتجاه أو المـنهج فـى الأولين لم يكن يمثل اكثر من فكرة لجأ إليه العالم للتعبير عنها بصـورة موضـوعية دون أن يسـميها كذلك أو حتى يجد فى نفسه الرغبة أو الداعـى لتسميتها رأسا، وهو دليل استئناسى على أن الجم الغفير الطيب الطاهر مـن علمـاء هذه الأمة والذين لا يجتمعون على ضلالة لا شك أن ورودهم هذا الطريق ولو من غير التسمية الحديثة التى اشتهرت فإن النفس حينئذ تكون آنس، ومن أشهر من تجلت الموضوعية فى مؤلفتهم وسواء من جهة اختيار الموضوع أو من جهة التقسيم الموضوعى للمسألة محل التفسير علماء كثيرون منهم العالم الجليل ابن القيم الذى بدت هذه الخاصية جلية فى تفسيره للقرآن الكريم فى كافة مصنفاته تقريبا،

أولا: ابن القيم يفسر آيات الجهاد موضوعيا:

ومـنها المـثال الظاهر مسألة الجهاد فى سبيل الله تعالى حيث قال ابن القـيم: (وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب فى

الجهـــاد والحـــض عليه ومدح أهله والغخبار عما لهم عند ربهم من الكرامات والعطايـــا الجـــزيلات، ويكفى فى ذلك قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم علـــى تجـــارة تنجيكم من عذاب أليم) فتشوفت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التـــى الـــدال علـــيها رب العالمـــين العليم الحكيم فقال: (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهـــدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال: (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)، يعنى الجهاد خير لكم من تعودكم للحياة والسلامة، فكأنها قالت: فما لنا فى الجهاد من الحظ ؟ فقال (يغفر لكم ذنوبكم) مع المغفرة: (ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلـــك الفـــوز العظـــيم) فكأنهـــا قالت: هذا فى الأخرة فما لنا فى الدنيا ؟ فقال: (وأخـــرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) فلله ما أحلى هذه الألفاظ وألصقها بالقلـــوب، وماأعظمها جذبا لها وتسيير الربها ن ما ألطف موقعها من قلب كل محـــب، وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم...ز) [1]

ثم شرع عليه رحمة الله تعالى فى جمع الآيات الدالة على فضل الجهاد من سور القرآن المختلفة كالذى ورد فى سورة التوبة بتفضيل أهلا لجهاد فى سبيل الله تعالـــى علـــى مـــن يقومون بسقاية الحيج وعمارة المساجد عموما والمسجد الحـــرام خصوصـــا، ومـــا ورد فى سورة النساء عن تفضيل المجاهدين على القاعـــدين درجات، حتى عبلا عن فهمه العميق لمذهب الوحدة الموضوعية فى

(١) طريق الهجرتين /٢٥٦

القــرآن بجملته حول هذا الموضوع فختم البحث بقوله: (والقرآن يفسر بعضه بعضا) [1]

وهذا المثال لا يمثل سوى جزء ضئيل مما تعج به مصنفات ابن القين من الإعتــناء الــبالغ والإهتما م الشديد بأمر الموضوعية ويكفيك من ذلك دليلا أن تطالــع أســماء المصنفات الكثيرة مثل مصنفه أمثال القرآن، حيث جمع الأمثال وضــوربها وغاياتهــا وفوائدها فى كتاب الله تعالى من ألوه إلى آخره، وحتتى رسالته المسماة (الوابل الصيب من الكلم الطيب ٩ وهى رسالة خاصة بالأذكار شــأنه شأن غيره من أهل العلم قديما وحديثا الذين ألفوا فى هذا الموضوع غير أنــه قــد مسحها بمسحة موضوعية حول الذكر وفضله واسراره فى كتاب الله تعالى فكأنها تفسير موضوعى مثالى لمسألة (الذكر فى كتاب الله تعالى)

واقــرأ إن شــئت كتابه فى الروحانيات (حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح) فهــو تفسير موضوعى لآيات الجنة فى كتاب الله تعالى، جامعا فيه كافة الآيات الــواردة فــى الموضــوع مع تفسيرها تفسير بليغا من كافة وجوهها غير ناس الإنتصار المعهود لعقيدة أهل السنة والجماعة بالأدلة المتتابعة من الكتاب والسنة مــع رد الشبهات حول وجود الجنة وخلودها وغير ذلك من كبار ا لمسائل التى اعتــرك حــولها أهــل السنة مع أهل البدع، أما كتابه (عدة الصابرين وذخيرة الشــاكرين) فهــو مثال على ما يمكن تسميته بالتفسير الموضوعى المقارن فى القرآن، ووجه العجب هاهنا أنه يقارن بين أمرين كلاهما مشروع ويمكن إفراد

(١) طريق الهجرتين /٢٥٦، ٢٥٧

كـل مـنهما بـبحث موضوعى برأسه، ألا وهما / موضوع: الصبر فى ضوء القرآن الكريم، وموضوع: الشكر فى ضوء القرآن الكريم، ثم عقد المقارنة بين الفضـيلتين: الصبر على البلاء والشكر على النعمة والمفاضلة بينهما فى ضوء ءيات الكتاب والسنة المطهرة والوصول إلى النتيجة النهائية والرآى الأخير بحد عناء وماكابدة البحث المتطاول فى جملة القرآن الكريم، وقس على ذلك مصنفة البديع (جلاء الأفهام) حيث تتبع الآيات الخاصة بالصلاة والسلام على رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى آيات الكتاب وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ن وكشف الجواهر الكانة فى ثنايا المسألة بكاملها، مسألة الصلاة والسلام علـى رسـول الله صلى الله عليه وسلم، مواطنها ومنافعها والصلاة على غيره صـلى الله عليه وسلم من الأنبياء والمرسلين، والصلاة على آله صلى الله عليه وسلم وحكمها على غير آله صلى الله عليه وسلم، وانظر كذلك إلى سفره الضخم روضة المحبين حول موضوع واحد من موضوعات الكتاب ألا وهو (الحب فى ضـوء القرآن الكريم معالجا إياه معالجة دالة دون مرية على طول الباع وسبق القدم وتمكن العلم ورسوخه مناقشا مادة الحب لغويا واصطلاحيا ونابذا مسميات للحـب لـم تـأت فى الكتاب والسنة مع الإستدلال الغزير باقوال السلف وبالغة والشـعر، ولـو تتبعنا هذه الخاصية فى مصنفات ابن القيم لطال الأمر غير أننا هاهنا سوف تكتفى ببعض التفصيل لبيان جوانب وخصائص المنهج الموضوعى عـند ابن القيم ببحث حول واحد من أشهر كتبه رحمه الله تعالى الا وهو كتاب (التبـيان فى أقسام القرآن) فإذا نحن أمام بحث موضوعي صرف حول قسم الله

تعالـــى القـــرآن من أوله إلى آخره وعلى أتم و أبلغ صورة وبيان ذلك قول ابن القيم فى مقدمته: (١)

(وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياتـــه المســـتلزمة لذاته وصفاته وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته.

فالقســـم إمـــا على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى: (فورب السماء والأرض إنه لحق) وإما على جملة طلبية كقوله تعالى: (فوربك لنسألنهم أجمعين عمـــا كانـــوا يعملون) مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر وقد يراد به تحقيق القسم والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكـــون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها فأما الأمـــور الظاهـــرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقســـما بـــه ولا ينعكس وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب وتارة يحذفه.....

وفى موضع آخر يقول رحمه الله(٢): (إذا عرف هذا فهو سبحانه يقسم على أصـــول الإيمان التي يجب على الخلق معرفها، تارة يقسم على التوحيد، وتارة يقســـم علـــى أن القـــرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء

(١) التبيان فى أقسام القرآن ٣/١

(٢) التبيان فى أقسام القرآن ٤/١

والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان:

فالأول كقوله: (والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد)

والثانـــي كقوله: (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقــرآن كريم..... والقسم على الرسول كقوله: (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) إذا قيل هو الجواب .....

وأما القسم على الجزاء والوعد والوعيد ففي مثل قوله: (والذاريات ذروا فالحـــاملات وقــرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق وإن الـــدين لواقع)، ثم ذكر تفصيل الجزاء وذكر الجنة والنار، وذكر أن في السماء رزقهـــم ومـــا يـــوعدون ثم قال: (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)

ومـــثل قـــوله: (والمرســـلات عـــرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا إنما توعدون لواقع)

ومثل: (والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع)

وقد أمر نبيه أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات:

فقال تعالى: (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن)

وقال تعالى: (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قال بلى وربي لتأتينكم)

وقال تعالى: (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين).....

وأقسم على صفة الإنسان بقوله: (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الإنسان لربه لكنود)

وأقسم على عاقبته وهو قسم على الجزاء في قوله: (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)....انتهى

قلت: وكما أنت راء فإن البحث الذى بين يدينا هو بحث تفسيرى موضوعى لا شية فيه ولا شك وقد حفل السفر العظيم الذى ضمنه ابن القيم هذا البحث الموضوعى من النكات اللغوية والبلاغية والعقائدية ما يعد رائدا لمن أراد أن يخطو خطوة على هذا الطريق، ولا شك أن الشيخ ابن القيم بما له من رسوخ فى علوم التفسير والفقه واللغة والحديث وغيرها من الضرورات التى لا بد من استقرار المفسر الموضوعى على أصولها كاملة وإلا فبعض التفاسير الموضوعية المعاصرة ورغم أنها تنادى بهذه المدرسة الحديثة فى التفسير إلا انك تخالها أشباحات هزيلة ودمى ميتة إلى جوار الغزارة التدفق والتمكن من المادة الشرعية التى يتحلى بها الأقدمون مشيرين بمحاولاتهم بقوة إلى الضروروات التى يجب ان يلتزم بها المفسر الموضوعى المعاصر وحتى لا يستحيل عمله الذى عقد نيته أن يخدم به دين الإسلام فى معركته الفاصلة فى العصر الحديث وتحت الأمواج العاتية من الكفر الصريح والكفر المقنع والنفاق المريد والتى خلفت الناس وراءها حيارى ذاهلين.

اقــول أن المفسر المعاصر موضوعيا عليه أن يتلقن من الأقدمين أصول التفسير الموضوعى والمثال الذى بين أيدينا من كتاب الأقسام ليعد رمزا واضحا لما أردنا بيانه فاعرفه هدانا الله وإياك إلى صراط مستقيم.

بحث موضوعى فرعى على التفسير الموضوعى

بل أن ابن القيم قد لجأ وفى عفوية واقتدار إلى التفسير الموضوعى للسورة الواحدة فى موجات بحثه عن حكمة القسم وشروطه فى سورة الشمس، فدخل فى بحــث موضــوعى فرعــى يمكن أن يطلق عليه (أسم التفسير الموضوعى مع اســتطراد موضــوعى) حتــى يكــون نوعا برأسه، كما تبين من المحاولات المعاصــرة عن (التفسير التحليلى مع استطرادات موضوعية) والعكس على ما يأتــيك مستفيضا فى موضعه إنشاء الله تعالى، وإن كنا نعتبر أن الإستطراد من الموضوع الرئيسى إلى موضوع آخرفرعى هو من ضعف البحث الموضوعى نظــرا لما يؤدى إليه من التشتت والتداخل المؤدى إلى اختلال الفكرة وضياع المعنــى مــن بين يدى الباحث، حتى يكاد لأن يضلل عن الغاية والمقصد العام الذى لأجله توفر للبحث من أجله ألا وهو المرجوة الرأى الفاصل للقرآن الكريم فــى القضية محل البحث، غير أننا هنا أمام قمة علمية سامقة قد تسلحت بكل ما من شأنه إبراز الفائدة العلمية الجمة حيثما أسهب أو استطرد هذا رغم أخذ بعض العلماء ذلك عليه إلا انهم عدوه مزية خاصة به وحده كالذى قاله ابن كثير (ابن

القيم طويل النفس في مؤلفاته، يتعانى الإيضاح جهده فيسهب جدا) [1] أن الإستطراد منه فى التفسير لموضوع لصيق الصلة بالموضوع الأول هو من محاسن التفاسير الموضوعية كما لجأ لذلك ابن القيم فى كتابه المذكور فقال فى ذكر ثمود فقط فى سورة الشمس دون غيرها من القرى الظالمة فقال:

قال شيخنا: هذا والله أعلم من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى فإنه لم يكن في الإمم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين وقوم لوط وغيرهم ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)، وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة كاللواط وبخس المكيال والميزان والفساد في الأرض كما في سورة هود والشعراء وغيرهما، فكان في قوم لوط مع الشرك إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها، وفي قوم عاد مع الشرك التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش وقولهم (من أشد منا قوة)، وفي أصحاب مدين مع الشرك الظلم في الأموال، وفي قوم فرعون مع الشرك الفساد في الأرض والعلو. وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم: فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس

(١) الحافظ ابن كثير / البداية والنهاية ٢٣٢/١٤

الأبصـــار وقلـــب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها والخسف بهم إلى أسفل ســـافلين، وعـــذب قـــوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتســـبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال. فإذا كـــان عـــذاب هؤلاء وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم، فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه وعقر عباده وسفك دماءهم كان أشد عذابا.....

قال ابن القيم: (قلت:وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر دون غيرهم معنـــى آخر وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به قد ثلجت له صدورهم واستيقظت له أنفسهم فاختاروا عليه العمى والضلالة كما قال تعالى في وصفهم (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وقال (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي موجبة لهم التبصرة واليقين.

وإن كـــان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم فان الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد ولهذا لما قرنهم بقـــوم عاد قال: (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قـــوة) ثم قال:(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) ولهذا أمكن عادا المكابـــرة وأن يقولوا لنبيهم (ما جئتنا ببينة) ولم يمكن ذلك ثمود وقد رأوا البينة عيانا وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة الـــتامة فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه وهذا داء أكثر الهالكين وهو أعم الأدواء وأغلبه على أهل الأرض والله أعلم) انتهى

قلـــت: وكما ترى فإن الذى ذكر هاهنا هو مبحث آخر من مباحث التفسير الموضوعى والذى يبنى على بيان الحكمة والعلة الربانية فى ذكر بعض القرى وإغفال بعضها، وإن كنا نرى أن تعليل ابن القيم رحمه الله تعالى أقرب للصواب فـــى المســـألة مما ذهب إليه ابن تيمية لما هو معلوم من أن الجاحد بعد معرفته باليقـــين أشـــد تجبرا وعتوا من ذلك الذى يظن انه من المهتدين، ولذا سمى الله تعالى اليهود بالمغضوب عليهم لأنهم عرفوا الحق وجحدوه بينما سمى النصارى بالضـــالين وما ذاك إلا لأنهم أنكروا الحق وجهلوه ولا شك أن غضب الله تعالى علـــى اليهود هو أشد من غضبه على غيرهم لما تقدم، وعلى الجملة فكل القرى التى انتقم الله تعالى منها إنما بلغت من العتو والتجبر حدا أخرجهم عن حلم الله تعلى إلى دائرة الغضب العارم، ولا يكون ذلك إلا مع اشد الظلم والعتو والعدوان لكل من عرف صبر الله تعالى وحلمه عزوجل، وعلى الجملة فنحن أمام تفسير موضـــوعى بالمعنـــى الحرفى للكلمة، بل بإضافات جليلة على المعاصرين أن يسددوا ويقاربوا منها ما ستطاعوا لتتم المنة وتكمل النعمة ويؤتى هذا العلم الفتى أكله والغراض الكبار التى أدت إلى ظهوره

منهج ابن القيم فى التفسير الموضوعى

ويقــوم منهج ابن القيم فى تفسيره الموضوعى على عناصر لا يخلو منها أى تفسير موضوعى وهى باختصار:

أولا: اختــيار موضــوع مــن الموضوعات التى تناولها كتاب الله تعالى بجملــته وعــرض لجوانبها المختلفة، وبالصور القرآنية والأساليب المتــنوعة بــين البلاغة والمنطق وتحكيم الشواهد الفطرية والعقلية ومخاطــبة القلــوب ومحاصرة النفوس وغيرها مما هو معلوم من الطــريق القرآنــى فــى عــرض القضايا، وخاصة العقائدية منها، والموضوع فى هذا المقام هو: (أقسام القرآن)

ثانــيا: جمع أطراف الآيات والأدلة القرآنية التى تناولت الموضوع وذلك عــن طــريق الإستقراء الكلى لكتاب الله تعالى من أوله على آخره للوقــوف علــى كل ما يؤدى إلى تكوين النسيج الكتكامل للموضوع والتعــرف الدقيق على عناصره وأجزائه، وتبين ملامحه وسيمائه، وهو منهج التفسير الموضوعى من جملة كتاب الله تعالى.

ثالثا: تصنيف الآيات المتحصلة إلى مجموعات كل منها تتناول جانب من جــواب الموضوع وهنا صنف ابن القيم الآيات إلى آيات دالة على القســم بــذات الله تعالــى، وآيات دالة على القسم بإسماء الله تعالى

وصـــفاته، وآيات دالة على القسم بأفعال الله تعالى، وآيات دالة على القسم بمخلوقات الله تعالى، ثم القسم الثانى ألا وهو الآيات الدالة على أمر الله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم بالقسم، وحصرها فى ثلاث آيات بعد استقراء القرآن كاملا.

رابعا: كشف الرابطة القوية والعضوية بين الأقسام المذكورة بحيث تكشف عـــن نســـيج واحد متجانس ومتكامل ولا اضطراب فيه ولا تعسف ومـــؤدى إلـــى غايـــات عقائدية وتشريعية فى غاية الأهمية وخادمة للمقاصد العليا التى لأجلها أنزل كتاب الله تعالى.

خامســـا: الإســـتطراد فى بحوث موضوعية فرعية بتمامها خدمة للغرض الاصـــلى من البحث، وهو وإن كان مكروها فى المبتدئين من الذين تناولوا الآيات بالتفسير الموضوعى إلا أنه من البديع جدا من اولئك الراسخين فى العلم من أهل السنة والجماعة لما فيه من الفوائد الجمة والمنافع الجليلة لطالب العلم بل اللعالم الربانى الراسخ

سادسا: الوصول إلى الغاية من البحث والخاتمة

فمما سبق يتبين لك المنهج الموضوعى المعاصر بحذافيره، بل يضاف إليه هاهنا تلك الثروة الهائلة الموسوعية فى العلوم الشرعية التى يتمتع بها هذا العالم الجلـــيل وشـــيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى وهو شرط لا بد منه لمن تصدى لتفسير القرآن عامة وعلى التفسير الموضوعى خاصة

والعجب أن ابن القيم يوم ألف مؤلفه هذا لم يجد فى نفسه حاجة إلى تأصيل هـذا الـنوع مـن الإجـتهاد ولعله يقينا منه بما رسخ عنده من القواعد الكلية والمقاصد العامة للشريعة بأن ذلك ما هو إلا دافع فى نفس المضمار، وربما لأن الأمر لم يكن بذاك الشيوع ولاإنتشار بما يدعو إلى التوفر على تأصيله والوقوف الـتام علـى جوانب الأدلة الشرعية على مشروعيته، وكذلك لأن من تصدى له عـالم بـثقل ابن القيم فهو حجة بذاته وبالأدلة التى يركن إليها بينما أولئك الذن حاولوا فى عصرنا منهم من شط وادعى وانحرف انحرافا عظيما، دعا البعض للـنداء بتأصـيل المسألة ودعى الآخرين لشجب الأمر برمته حماية لكتاب الله تعالـى مـن عبث العابثين ولعب اللاعبين ومعهم الحق إذا أنت طالعت بعض المحـاولات الموضـوعية الركيكة الهزيلة، بل التى تفتقر إلى الحد الأدنى من المعرفة بأصول التفسير، بل جاء أولئك الذين لا يريدون للإسلام ولا للمسلمين خيرا بفواقر (موضوعية) هى للكفر أقرب منها للإيمان والله تعالىالمستعان، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

الفصل الرابع

الفرق بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي

الفرق بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي

ينقسم التفسير من حيث المناهج إلى أربعة مناهج وهي:

التفسير التحليلي.

التفسير الموضوعي.

التفسير المقارن.

التفسير الإجمالي

وعلى الجملة فإن التفسير التحليلي والمقارن والإجمالي تكون وحدة متكاملة، حيث أن المفسر التحليلي ربما لجأ إلى المقارنة بين التفاسير أو غيرها من أنواع المقارنات فيكون تفسيره تحليلياً مقارناً، أو ربما دعت الحاجة إلى اختيار المفسر إلى وجه اختيار واحد من وجوه التفسير المختلفة للآيات المختارة، فتتبعه على صورة إجمالية مبسطة، وذلك مراعاة لحال المخاطبين فيكون تفسيراً تحليلياً اجمالياً.

ومع أن التفسير الموضوعي ربما كان مقارناً في بعض أحواله أو كان اجمالياً أيضاً، فإن خصائصه وسماته الذاتية إنما تغلب الوصف الموضوعي على غيره من سائر الأوصاف.

التفسير التحليلي

"هـو التفسير الذي يعتمد تفكيك كتلة النص وتحويلها إلى مكونات بسيطة، بقصـد الكشـف عـن خصائصـها الجمالية، وإدراك العلاقات القائمة بين هذه الأجزاء"

ويعنـي التركيب: "ربط هذه الأجزاء في وحدات أكبر، حتى يكتمل البناء ثانية"(١)

ويمكن توضيح ماسبق كما يلي:

" التفسير الموضوعي (التحليلي) هو الذي يرجع فيه المفسر إلى موضوع واحـد من القرآن الكريم متتبعاً ترتيب الآيات في سورها. وهذا اللون قد يكون فـي المأثور أو بالرأي المحمود وقد يكون تحليلياً عند التفصيل، أو إجمالياً عند الإختصار، أو مقارناً إذا اتبع المفسر منهج الموازنة "(٢)

وقـد سـماه البعض(التفسير الموضعي)، وسماه البعض التفسير التجزيئي ومعنـى ذلك: " المنهج الذي يتناوله المفسر ضمن اطاره القرآن الكريم آية فآية وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف. والمفسر في اطار هذا المنهج يسير مع المصحف ويفسر قطاعاته تدريجياً "(٣)

---

(١) مناهج في تحليل النظم القرآني ٠٠ د منير سلطان صـ ١١

(٢) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ٠٠د ٠صلاح عبد الفتاح الخالدي صـ ٤٠

(٣) المدرسة القرآنية – محمد باقر الصدر ٩

فممـــا ســـبق تتبين ملامح التفسير التحليلي وأنه المنهج الذي على أساسه يلتزم المفسر بأمرين:

الأول: تفسير الآيات آية آية بحسب ترتيبها في المصحف الشريف.

الثانـــي: تحلـــيل الـــنص الكريم أو تجزأته وتفكيك مكوناته إلى المكونات الأولية لدراستها بعمق واستفاضة

فالمفسر ها هنا يبقى في موضع واحد من القرآن تحليلاً وتفسيراً لا يبرحه إلى الذي بعده حسب ما هو مكتوب في المصحف الشريف.

التفسير الموضوعي

قد تعرضنا في المبحث السابق إلى التعريف اللغوي والإصطلاحي للتفسير الموضوعي، ولكننا هاهنا نتعرض للتفسير الموضوعي من جهة مقابلته للتفسير التحليلي.

فعلى هذا يكون التفسير الموضوعي:

"هو التفسير الذي يلتزم فيه المفسر " موضوعاً " لا موضعاً بعينه، فيجمع الآيـات الكريمة من مواضعها ويقيم منها بناءً متكاملاً يقرر موقف القرآن من قضية ما"[1]

وتفسير ماسبق بشئ من التفصيل أن:

" التفسير الموضوعي ليس جملة من الآيات، ولا استخلاص مضمونها في وحـدة قـرآنية واحـدة. وإنما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل من نظرة موضوعية شاملة، واستخلاص موضوع محدد كمنهج القرآن في تطوير المجتمع أو موقف القرآن من المادية، واستخلاص هدف السورة[2]

وهو بصورة أشد وضوحاً:

"عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، مشتركة في الهدف، وترتيبها على حسب النزول – كلما أمكن ذلك – ثم تناولها بالشرح

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي ..د. عبد الستار السعيد ١٧-١٨

(٢) نحو القرآن .. د . محمد البهي صـ ٨٩

والتفصيل وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه، مع الاحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين والملحدين من أعداء الدين، وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من المباحث والموضوعات المتنوعة التي تخدم الفرد والمجتمع المسلم القوي، وتدفع بالجميع إلى حياة أفضل، هدفها نشر الدين وإعلاء كلمة الله ثم الجزاء بالحسنى والزيادة عند لقاء الله عز وجل في الآخرة

والتفسير الموضوعي تقسيم لآيات القرآن الكريم إلى مجموعات كل مجموعة منها تندرج تحت عنوان يشملها جميعاً، هذه الآيات المتفرقة تكون بحثاً مستقلاً متميزاً عن غيره، ذات موضوع واحد وهدف واحد "[1][2]

فمما سبق تتبين لنا الصفات الأساسية للتفسير الموضوعي وعمادها:

أولاً: أنه لا يتتبع آيات المصحف حسب ترتيبها فيه.

ثانياً: أنه ينبني على الموضوع الذي تتجمع له الآيات من أطراف المصحف.

****

(١) التفسير الموضوعي – د. محمد القاسم صـ ٧-٨

(٢) دراسات في التفسير الموضوعي – د. زاهر الألمعي صـ ٧-٨

مقارنة بين التفسير التحليلي والموضوعي

مـــن أجل زيادة التمييز بين التفسير التحليلي والموضوعي نذكر بعضاً من الفروق التي تنبني على ماذكرناه من سمات كل منها، وأبرز هذه الفروق مايلي:

أولاً):-

• فـــي التفســـير التحليلي يتلقى المفسر عن القرآن كل مايفيض به عليه، وذلـــك حسب دخوله إليه من أول المصحف، فهو يدخل إلى التفسير دون توجيه مســـبق، وكـــل مايقابله يسجله ويفحصه ويعيه سورةً سورةً وآيةً آيةً بحسب ترتيب المسائل دون أن تدخل منه.

• أمـــا في التفسير الموضوعي فإن المفسر يبدأ من الواقع حيث يلم بجملة الأحـــوال التـــي تمر بها أمته ومجتمعه، بل والعالم أجمع، ثم يقبل على القرآن بجملة الحاجات والمشكلات والتساؤلات الكثيرة، والتي يبحث في جنبات القرآن عن هديه لإيجاد الحلول وإبراز مواطن الإنحراف وأسباب المعضلات، فالمفسر الموضوعي: " يجلس أمام القرآن جلسة إيجابية فاعلة، يحاور القرآن ويستنطقه ويســـأله، ويطلـــب مـــن القـــرآن رأيه الإيجابي الصادق الصائب في القضايا والموضـــوعات التي يعيشها الناس في واقعه وعصره، ويأخذ من القرآن حقائقه اليقينية القاطعة وبعدما يتلقى عن القرآن الإجابات العلمية الموضوعية الصائبة و يقوم بترتيب هذه الإجابات، ويقدمها لأمته ليصلحوا واقعهم على أساسها.

إن الباحث في التفسير الموضوعي دائم الربط بين الواقع الذي تعيشه الأمة

وبـين القرآن، وهو يريد إصلاح الواقع على هدي موضوعات القرآن، ويدرك الأبعـاد الواقعية للموضوعات القرآنية "[1][2] والحاصل أن المفسر الموضوعي يشخص داءً بذاته سواء على مستوى الأفكار أو النفوس أو الأمم أو الجماعات، أو الحضـارات أو غيـرها مـن الموضوعات التي تمس الحاجة إلى مناقشتها والـبحث عن علاج لأدوائها، ثم يبحث عن الدواء الشافي من كتاب الله لكل من هـذه العلـل والآفـات، ووظيفته أن يضع يده على مكونات الدواء، وتركيبها وتقديمها شفاءً ودواءً، فإذا بالغمة تنجلي والفكرة تتألق، والظلام ينقشع.

ثانياً):

*إن المفسر في التفسير التحليلي يبذل كل جهده في تحليل الآيات إلى جمل وألفـاظ وحروف باحثاً عن مواطن الجمال فيها والكشف عن دلالاتها التفصيلية والعلاقـات بيـنهما، والبلاغيات ثم في تراكيبها واحكامها التركيبية والإفرادية، وربما قارن بين جهده وجهود غيره من العلماء في ذات الجزئيات والتفصيلات، فهـو يلقـي الضوء على الموضع القرآني كاشفاً عن مكوناته وزواياه وتراكيبه وتفاصيله.

* أمـا المفسـر الموضوعي فكل إهتمامه موجه إلى الجمع بين الدلالات التفصيلية المتفرقة في أنحاء الكتاب فيما يتعلق بموضوع بعينه، متأملاً العلاقات الدقيقة بينها، والروابط المتينة بين أطرافها وبانياً من لبناتها بناءً متكاملاً محكماً، ليظهر في نهاية بحثه وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني أو الهداية والإرشاد إلى

(١) المدرسة القرآنية – د. محمد باقر الصدر صـ ١٨-٢٦

(٢) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق – د. صلاح الخالدي صـ ٤٢

موضـــوع مـــتكامل الســـمات، تام الهيئة، مهيب البناء. قد جمعت أعضاؤه من الآيات البليغات المتفرقات في ثنايا الكتاب الكريم.

والخلاصـــة أن المفســـر التحليلي يعد اللبنات في دأب ومثابرة، لبنةً لبنة، فيأتـــي المفسر الموضوعي ليشيّد منها بناءً متكاملاً بعد إختيار ألوانها وأشكالها ومناسباتها، فجهود التفسير التحليلي عمودية إلى أعماق الآيات، وجهود التفسير الموضوعي أفقية على مستوى الكتاب جامعة بين الآيات.

ثالثاً)

* ســـمة العلوم المستخلصه من التفسير التحليلي، أنها نظرية علمية شديدة التـــنوع بين اللغة والبلاغة، والقراءات والأحاديث والعقائد والتواريخ وغيرها، فدورها زيادة حصيلة المتلقي من هذه المعارف، وترقية مستواه العلمي الشرعي في كافة جوانب المعارف الشرعية المتعلقة بالتفسير.

* بينما سمة التفسير الموضوعي أن معارفه عملية دعوية شديدة الحرارة والحماســـة والواقعية، حيث أنها تعالج جراحاً نافذة في جسد الأمة أو تشير في حســـم إلى أسباب الداء، أو ترد عادية هجوم فكري أو عقائدي على الإسلام أو تجلي الضياء أمام الباحثين بين الظلمات، أو ترفع راية المعجزة القرآنية بين من لا يؤمنون به، حجة بالغة وسراجاً منيراً.

رابعاً):

التفســـير التحليلي خادم للحروف والكلمات والجمل القرآنية، بينما التفسير الموضوعي خادم للغاية من نزول القرآن ومقصده الأسمى، ووظيفته الأولى في حياة المسلمين من جانب، ودعوة الكافرين من جانب آخر.

فالتحليلي تحمل العلم ونقله جيلاً بعد جيل والحفاظ عليه، والموضوعي الإنطلاق به واستخدام ذخائره الفاعلة في المعارك الفكرية والعقائدية التي يخوض غمراتها الإسلام في العصر الراهن. أو في إبراز وجوه هداياته المختلفة كي تضيء حياة المسلمين، وتكون لهم عند كل معضلة أو نازلة هادياً على الطريق وسراجاً منيراً.

****

الفصل الخامس

شبهات حول مشروعية التفسير الموضوعى والجواب عليها

تمهيد

إن قضـــية التفسير الموضوعى للقرآن والسنة قد ظهرت بصورتها الكاملة مصـــاحبة لمـــوجة الإستعمار التي فتحت بها أبواب العالم الإسلامى في القرون الأخيـــرة، ومما يذكر أن هذا الهجوم الفكرى العسكرى جاء مصاحبا لأفول نجم الخلافـــة الاســـلامية فى ذات الفترة الزمنية مع إستحكام السيطرة الكافرة على مقدرات العالم.

ولقد بلغت المحنة ذروتها بسقوط الخلافة الاسلامية نهائيا فى الثلث الأول مـــن القـــرن العشرين، ووقوع معظم دول الإسلام تحت الهيمنة المباشرة لدول الكفـــر مما أدى الى ردود فعل بالغة العنف على عامة المسلمين وعلمائهم، على المســـتوى العقـــدى والسياســـي والاجتماعي والنفسى، وأدى ذلك كما قدمنا فى الفصول السابقة الى عودة كثير من المخلصين لالتماس النجاة في كتاب الله عز وجـــل، بما يلاحق هذه الموجات المتتالية من هجمات الكافرين فكرياً وحضارياً مستخدمين كل ثمرات علومهم فى إخضاع المسلمين وإهانة الإسلام.

وخرجت تفاسير جديدة غالبها موضوعية لم تكن قبل هذه الحقبة ولم يوجد مـــن يفكر فيها، لغياب الدافع والداعي لذلك، وكان المقصد وراء هذا التجديد في تـــناول علم تفسير القرآن مخلصا في عمومه، اذ كانت المحاولات مستميتة لمنع الصخرة المنحدرة من أن تبلغ القاع.

وفـــى مقابل ذلك هبت طائفة أخرى من العلماء على غاية الإخلاص مثل الطائفة الأولى للوقوف بحزم أمام هذه التيارات المستجدة في التفسير، ومتمسكة بكل ما أوتيت من قوة بالنهج السلفي المحض دون أدنى رغبة في التغيير معتبرين

أن الاستبقاء على تراث الأمة كما هو، وعدم إدخال التعديلات والاجتهادات اليه هو ركن الزاوية وسبيل النجاة، ومن هنا وجدنا أن النظر إلى كتاب الله في العصر الحديث قد واجه نفس الخلاف بين فريقين من العلماء كلاهما على القدر العظيم من الاخلاص والولاء، وكلاهما على هذا الشعور الجسيم بالخوف الهائل على مصير الاسلام. ولم يكن الامر متعلقا بالتأويل الموضوعى فقط، فليس هذا الضرب الوحيد من محاولات تفسير القرآن بما يلائم الظروف المستجدة، بل خرجت اجتهادات سياسية وانشاء جماعات اسلامية وإخراج نظريات اجتماعية من القرآن ومواجهات للاستعمار وتخريجات فكرية عصرية وثقافية، وكلها واجهت نفس الصراع بين مؤيد مخلص ومعارض مخلص.

إذن فالخلاف بين المتقدمين كان منصبا على أمور منهجية وتمسك كل رأي بمنهج، فهو أشبه بخلاف أصحاب المذاهب والأصوليين، ولكن الخلاف بين علماء المتأخرين كان خلافاً مريراً تحت ظروف مخوفة خلفت الحليم حيرانا، ومن هنا كانت قضية الموضوعات فى العلوم الإنسانية والعلوم الكونية وتناولها عن طريق الآيات القرآنية، أو كشف بعض أسرار الآيات عن طريق عرض العلوم المعاصرة قضية مشكلة في أول الأمر، تصدى لها علماء كبار شهدلهم بالعلم والاخلاص والتجرد سواء بين متحمس لها وبين رافض لها، وهذه المقدمة ضرورية لعرض القضية على أنها عامة في تطوير مناهج التفسير بما يلائم الحقبة الجديدة بكل ماتحمله من فتن وأهوال نزلت بأمة الإسلام التي صممت في شخص علمائها على التشبث بهذا الكتاب الأعظم. ومن ذلك نستعرض بعضاً من أنواع التفاسير الجديدة والتي لم يعهدها السلف في العصور الأولى، وذلك لاستقرار الاوضاع الاسلامية، ولوجود المناخ المواتي لحفظ العلوم كما هي، بما

لايمكـــن مقارنـــته بالقـــرون الثلاثة الأخيرة التي ذاعت فهي الفتن وقلبت فيها الأمـــور، وعـــدا فـــيه الكافـــرون وزوي فيها المسملون، وعادت النفوس تلعق جراحاتها، وهب العلماء وسط الطوفان الكاسح. إن الذين اندفعوا حين ذاك لجهاد الكافـــرين من الفرنسيين والأمريكيين والإنجليز هم هم الذين اندفعوا في مرارة للتفكيـــر فـــي ســـر تقـــدمهم وتطـــورهم حيث كانوا يرعدون ويبرقون بأعظم المخترعات العلمية

لقـــد أصـــبح المسلم العامي في حالة مؤلمة من الازدواج النفسي والشعور بالإحـــباط والإحساس بالضعف والهوان، يتلمس في كتاب الله عن المخرج من هذا الوضع الأليم فلما فشلت أعداد كبيرة من المسلمين في حل المعضلة النفسية الناشـــئة عـــن هـــذه الهجمة الصليبية الجبارة سقطوا في قاع سحيق من رفض المنهج الاسلامي.

إن هـــذه الحالة المضطربة هي واحدة من أعظم الأسباب التي دفعت كافة المخلصـــين من العلماء الى البحث المضني عن إنقاذ عاجل لايتأخر لأمة مجيدة توشك أن تفل شبابها وتستأصل شأفتها.

وكان الأمل والنجاة والأمن كله في كتاب الله تعالى، فبدأ العلماء يبحثون فـــي ألم بين دفتى القرآن عن السلاح الماضي الذي يمكنهم به الدفاع عن دينهم وأنفسهم وأمتهم إزاء هذا الهجوم الصليبي الكاسح.

إنـــنا إذ نقـــرر ذلك، فنحن لانقول أن إخراج الآيات بصورة تنطبق على المـــناطات الجديـــدة كله كان رد فعل لتطور الاحداث بالصورة التي سردناها، ولكـــن نقـــول: إن هذا التطور – وهو سنة كبرى من سنن الله في خلقه – كان

واحـــداً مـــن أهم الأسباب التي دعت إلى تناول القرآن من نواحي أخرى جديدة وكثيـــرة، ولكن هناك أيضا سبب هام ألا وهو العجائب التي لاتنقضي بين آيات هذا الكتاب الأعظم الذي لايغسله الماء ولا تحرقه النار.

وقد اتفق علماء الاسلام سلفاً وخلفاً على أن به من العجائب والمعجزات، مانزول الجبال والسماوات والأرض ولا تزول منه المعجزة والبينة، كيف وهو كلام الله تعالى، وفرقه عن كلام العالمين كفرق الله ذاته عن سائر خلقه.

فالطبـــيعة المتفردة لهذا الكتاب تجعله معجزاً لكل عصر إلى قيام الساعة، فلا غرو بعد هذا من خروج الصالحين جيلاً بعد جيل وقد وقفوا فيه على إعجاز جديـــد لم يكن معروفا في الأجيال السابقة، لانقول على مستوى العلوم التجريبية فحســـب، بـــل في كل مناحي الحياة ومتطلبات جنس الانسان. ومما سبق يظهر وجـــود تطور عام في النظرة الى تفسير القرآن ووقوع نفس النزاع بين العلماء في كل محاولة، وهو نزاع حميد كريم دال على بقاء الحياة في نفوس الأمة الى قيام الساعة، كما سنبينه بأدلته إن شاء الله.

إن غايـــة كـــل من الفريقين واحدة نبيلة وإن اختلفت الوسيلة بين مطور لوقف هجمة الكفر، ومتشبث بالأصل حماية للاسلام أمام الكفر.

* * *

مدرسة معاصرة في تفسير القرآن

لقد كان تفسير القرآن بالطريقة المأثورة والمطولات والأسانيد والإختلافات - وإن كان تراثا مهيبا رفيعاًعالياً - إلا أنه كان بعيدا بلغته عن القدرات المتواضعة لقوم لعبت العجمة بألسنتهم، وبعيدا بعمقه البالغ عن مدارك قوم عصفت رياح الشعارات الجوفاء،والدعاوى المتضاربة بأدمغتهم، وبعيدا بحجمه الضخم والذي يدل على بعد همة المتقدمين بما لا تحتمله العزائم الواهنة للذراري المتقاذفة الى أتون فتنة عمياء صماء تسحق ولا تبقي هناك باقياً.

لقد كان على علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الحقبة المضطربة واجبا تنوء بحمله الجبال، إذ كان عليهم أن يسهروا على تفاسير السلف، سواء بالدراية أو الرواية، وأن يجمعوا ما فيها من ذخائر تفوق الحصر بينما الحصار حولهم من كل جانب، كذا كان واجباً إسلاميا مقدسا أن يحيلوا هذا جميعه إلى لغة تفسيرية معاصرة تحقق تواصل المسلمين المصيرى مع كتاب ربهم في هذا المنعطف المر من تاريخ الإسلام.

لم يكن الظمأ إلى نور الإسلام بحالة تسمح لهم بالإنكباب السنوات الطوال على التفاسير الأولى بأحجامها وتشعيبها ودسامتها وغزارتها، فقد كانت تمثل حقيقة الاسلام في أزهى عصوره وأغناها علما ومعرفة وهداية وأمانا.

وهكذا وجدنا أمامنا هذ المدرسة الجديدة في تفسير القرآن التى خصص لها العلماء أبوابا منفردة في مصنفاتهم تحت عناوين كثيرة كلها تندرج تحت مسمى التفسير الموضوعى، وكلها تصب في معنى واحد هو جهود علماء العصر الحديث

لتفسير القرآن - ذاك الغيث النازل - لجموع الزاحفين وسط الظلمات، الجهد الذي فرضته الطبيعة الصارمة القاسية لمرحلة من أشد مراحل الاسلام إيلاماً.

ولقد بدأت تظهر بين ثنايا أسفار علوم القرآن أسماء جديدة.."التفسيرالإجمالى" "التفسير المقارن "، "التفسير المنهجي، "التفسير الحركى" "التفسير العلمى" "التفسيرالتصويري" "التفسير الأدبى" وهكذا كان مخاض "المدرسة التفسيرية الموضوعية الحديثة ".

لقد كان (التفسير الموضوعى) للقرآن العظيم جامعا حلقات هذه المدرسة، وقد علمت الأمة الضرورة التي دعت إليه، غير أنه فاجأ الكافة في إبرازه سيلا من المعجزات الكبرى التى كانت كامنة في جنبات القرآن، وقف أمامها الكفر ذاهلا، ومن خلفها الاسلام من قاع محنته غازيا ومنتصرا وفاتحا.

لقد بدا الأمر فوق الأسطورة، إذ تفجرت من ثنايا هذا الكتاب المعجز قضايا لم يكن أشد المؤمنين تشددا، ولا أشد الكافرين كفرا يخطر بباله أنها تمت له بصلة.

هذه الآيات المتدفقة العذبة، المذيبة لأشد القلوب قساوة وجموداً، كيف كانت تحمل هذا الحجم من المعارف، وتسبح حول المجرات تحكي أسرارها، وتغوص في أعماق النفوس لتشهد لباريها، وتتسلل بين ثنايا الفكرالإنسانى والعلاقات البشرية لتصدم عقولا أطغاها العلم وأفسدتها المعرفة.

كل هذا كان كامناً بين دفتي ذلك الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، حتى جاءت اللحظة الحاسمة، بينما الجميع يتلفتون في يأس وإحباط بعدما عدم الإسلام كل وسيلة للمقاومة، وأعلن الكفر سيطرته الكاملة على مقاليد الأمور، فإذا

بالمعجـزة المزلـزلة الصـاعقة تخرج فجأة لتعلن على رؤوس الأشهاد (أولم ينظـروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد إقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون). إن الخلاف العاصف الذي قام بـين العلماء حول التفسير الموضوعى لم يكن خاصاً به فحسب، بل هو موجه حول المدرسة التجديدية بكاملها.

لقد أجاد المدافعون عنه، ولقد أجاد المنكرون له، ولقد كان الفريقان يمثلان أشرف ماورثت أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن محمد صلى الله عليه وسلم، لقـدهب الفـريقان لإيقـاف الصخرة التي كانت تندفع بسرعة مخيفة إلى القاع السحيق، فمن رفض التفسير الموضوعى، فإنما يتشبث بالقرآن وميراث العلماء أملا أخيرا من أجل البقاء، ومن هب بالتفسير الموضوعى منافحاً فوق الطوفان، فإنمـا إندفـع بعقلـه وفكره وجسده لقطع الأيادي والعقول المجرمة التي تريد بالقرآن فناء شاملا، ولا ترضى حتى تنتهي به وبأتباعه في أعماق الهاوية.

*****

الأدلة الشرعية التي اعتمدها المعارضون للتفسير الموضوعي

أولا: أدلة المعارضين من أهل الاصول

أولا: الانـــزعاج مـــن اقتحام كثير من الناس إلى مجال تفسير القرآن، كل بحســـب ماتخصص فيه وسواء في الفلسفة أو علوم الحكمة أو علوم الفلـــك، وغيرها. وهو بلا شك مزلق وعر خطر أدى بالمعارضين الى سد الباب جملة حفظا للقرآن وقداسته.

ثانـــيا: أننا أمة مقتدية بالسلف الصالح. ومنهم من سافر الى بلاد توفرت فيها هذه العلوم وأضرابها، ومع توفر الدواعي لم يتكلم الصحابة في فـــروع مـــن علوم النفس الإقتصاد ولا الحكمة ولا الرياضيات ولا غيـــر ذلك مما يعتبره أصحاب التفسير الموضوعي أساساً في تفسير الآيات حسب الموضوعات القرآنية، ثالثا: اعتبار فهم كل آية للقرآن تابعاً لفهم العرب لها باعتبار أن القرآن أنزل عربيا مبينا، فكل معنى لـــم يتبادر الى ذهن العربي الأول حال نزول القرآن عليه هو معنى مفتعل غير معتبر في فهم القرآن

رابعـــاً: بطـــلان اســـتدلال المستدلين على مشروعية التفسير الموضوعي ببعض آيات الكتاب في غير موضعها مثل قوله تعالى (ونزلنا عليك

الكتاب تبياناً لكل شئ) وقوله تعالى (مافرطنا في الكتاب مشئ) ذلك أن فهم هذه الآيات ينبغي أن يفهم أصلاً بما فهم العربي الأمر منها، وهـو لم يفهم من ذلك شيئا من العلوم الكثيرة التى اقتحمها أصحاب التفسـير الموضوعى. ومنه يتبين لك أن اضافة موضوعات العلوم إلـى القرآن باعتباره هو الكتاب المذكور في الآية هو خطأ من جهة تعريف الكتاب ثم خطأ آخر بتحميل العلوم المذكورة لهذا الكتاب..

خامسا: أن القرآن الكريم لم يأت على نسق الكتب الموضوعية إذ ليست له مقدمة وليست فيه مباحث موضوعية.. مرتبة.. لها مقاصد وأغراض فـي فصـول وأبواب وإنما كان القرآن مشتملاً على عدة سور كل سـورة منه احتوت على آيات متعددة كل آية في غرض. ومن ربط بـين الآيات فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مـثله حسـن الحـديث فضلاً عن أحسنه فإن القرآن نزل في نيف وعشـرين سـنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض"

ثانيا: أدلة المعارضين من أهل التفسير بالمأثور

وتتلخص معارضتهم فيما يلي:-

اولا: أن التفسير الموضوعى ما هو إلا ضرب موغل وجامح من ضروب التفسير بالرأي وهو قول على الله بغير علم. لأن المفسر موضوعيا هو قائل برأيه دون الاستناد الى قول صريح من علماء السلف.

فغايـــته أنـــه يظن أن قوله موافق لمراد الله تعالى، والقائل بالظن هو قائل علـــى الله بغير علم للقطع بأن قوله غير موافق لقول الله تعالى تمام الموافقة. فيستوجب الوعيد فيمن قال فى القرآن برأيه أو قال على الله تعالى بغير علم.

ثانـــيا:أن هناك نهيا صريحا في كتاب الله تعالى ووعيدا شديدا لمن يجرؤ علـــى القول على الله تعالى بغير علم، ولا شك أنه يشمل من يجرؤ على القول في كتاب الله بالرأي المجرد عن أي سند أو أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أو صحابته الكرام.

ثالـــثا:النهي الصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بعدما ذكرنا من نهي القـــرآن عـــن الـــتكلم في القرآن بالرأي.. فاذا صح عن النبي نهي صريح وجب على كل مسلم الإلتزام والتسليم..

رابعاً: ذم النبي صلى الله عليه وسلم لمنهج الرأي رأساً فيما يتعلق بالنظر فـــي كتاب الله، عن طريق اعتبار كل نظر في كتاب الله بالرأي هو خطـــأ ابـــتداءً، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو داود عـــن جندب:"من قال برأيه في القرآن فأصاب فقد اخطأ ".وبذا يصـــح رفـــض التفسير الموضوعى بالرأي، انصياعاً لسنة النبي، وسداً لذريعة الأهواء وهمزات الشياطين.

خامســـاً: إنـــه مـــن المتفق عليه عند كافة المسلمين عالمهم وجاهلهم أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم هم خير هذه الأمة قاطبة، وأنهم

كانـــوا يتحرجون أشد الحرج من القول فى القرآن بآرائهم، ويخافون أشد الخوف كلما سئلوا عن تفسير آية تأويل تنزيل، فلا يخالف ذلك الا من لايأبه بما يقول ولا يدري عواقب ما يذهب اليه.

سادسا: إن هذا النوع من التفسير إنما هو مضاد للأصل التفسيرى الأصيل الذي اتفقت عليه الأمة قاطبة من أن الداخل إلى كتاب الله طلبا للعلم لا ينبغـــي أن يـــدخل بفكرة سابقة ولا برأى مبرم فى المسألة محل البحث بل ينصت فى خشوع وطاعة إلى ما تدل عليه الآيات نفسها، ومـــا أهل التفسير الموضوعي، بل منهجم المقرر عندهم إلا ترسيخ لهـــذا الخروج بحيث يبدأ منهجهم بالفكرة أولاً ثم البحث في القرآن عـــن أدلـــتها، فهو بداية بالرأي المحض الذي إن أصاب مرة أخطأ مرات ولذا وجدنا المناوشات والخلافات بين أصحاب هذه التفاسير.

المعارضون لمدرسة التفسير المعاصر من علماء المتأخرين

وقد بنوا معارضتهم على أسس نذكر منها:

أولا: الناحية اللغوية:إن القرآن عربي مبين، ومعنى عربيته أنه نزل بلسان العـــرب، وقد تداخلت الاصطلاحات اللغوية وتوسعت جداً ولا يعقل أن يحمـــل القرآن على فهم المصطلحات الحديثة ونسبتها إلى القرآن والتوســـع فـــي ذلك لأن اصطلاحات الاقتصاد والإجتماع والتربية والنفس والسياسة والعلم التجريبى وغيرها كلها حديثة.

ثانـــيا: الناحـــية البلاغـــية:البلاغة هي المطابقة لمقتضى الحال، والتفسير الموضـــوعى للقرآن، يضر ببلاغة القرآن، لأن من خوطبوا بالقرآن فـــي وقـــت نـــزوله لم يفهموا منه التفسير الموضوعى، فإن كانوا يجهلـــون هـــذه المعاني، وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ لأنه لم يراع حال المخاطب.

ثالـــثا: مـــن الناحـــية الاعتقادية:أنزل الله القرآن الى الناس كافة حتى قيام الساعة، ولو نحن ذهبنا الى تقصيد القرآن مالم يقصد من نظريات ثم ظهر بطلان هذه النظريات فسوف يتزلزل اعتقاد المسلمين في القرآن الكريم، لأنه لا يجوز للقرآن أن يكذب اليوم ماصححه بالامس

رابعـــا: أن قول من استحسن بعض الأقوال من علماء الإجتماع والنفس

وغيـــرها ووجد لها مقابلا فى القرآن الكريم من موضوعات البحث التفسيرى الموضوعى فليس بحجة يعتمد عليها ولو كانت لديهم أدلة قطعـــية على ماذكروا لم يختلفوا، ولو فرضنا أنهم اتفقوا على ماذكر فاتفـــاقهم ليس بحجة لأنه غير معصوم، وإنما الاجماع المعصوم هو إجماع علماء الاسلام الذي توفرت فيهم شروط الاجتهاد

خامســـا: لايخفـــى أن من تصدوا لتفسير القرآن موضوعيا من المفسرين الجـــدد فـــيهم العالم والجاهل المتقحم بغير علم، وفيهم الثقة الراشد وفـــيهم كـــذلك المجروح بل والمتهم فى نواياه واعتقاده، ومنهم من يعتبـــر الأشـــياء المظنونة قضايا مسلمة لا تقبل الجدال مما يؤدى بالقرآن إلى التمزق بينهم وتعريض النص الكريم إلى تناوش الأهواء وتـــنازع الآراء مما يورث زلزلة الثقة به والتشويش على معتقدات المسلمين فيه.

سادســـا: هذه النظرة الى القرآن خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مســـائل العلـــوم الإجتماعية والنفسية والسياسية والتجريبية في كل زمان ومكان، و التقلب مع الأفكار الوافدة رداً ومواجهة على كثرتها وتباينها وتغيرها بما يجعل العدول عن المنهج السلف إلى هذا المنهج مضيعة للوقت فالجهل وصرف المسلمين إلى ما لا طائل ورائه.

سابعا: إن منهج تقسيم القرآن إلى موضوعات تحاكى نظيراتها فى العلوم البشرية إنما تحتوى أولا على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي

على معان ثلاثة، كلها لايليق بجلال القرآن الكريم:

الأولى: إنها تمثل هزه داخلية أمام طوفان الأفكار الوافدة حتى يحاولوا مناقشتها وإثبات أنها في القرآن حيناً أو أن بعضها فيه أو حتى نقدها بالقرآن. فيجعل الفكر الوافد أصلاً والقرآن تابعاً له.

والثانية: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، والخروج بالكتاب عن دوره الأساسي في الهداية والتوجيه والاستطراد إلى مجالات متشعبة تشوش على المقاصد العظمى للكتاب.

والثالثة: كثيراً ما يلجأون إلى التأويل المستمر - مع التحمل والتكلف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لاتثبت ولا تستقر، وكل يوم يجد فيها جديد

ثامنا: إن هذا النوع من التفسير يمكن استخدامه كسلاح ذى حدين فقد رأينا بعد شيوع التفاسير الموضوعية والمقالات التفسيرية فى سائر وسائل الإعلام أن مبغضى الإسلام ومن تربوا فى أحضان ألد اعدائه من العلمانيين والمرتدين يطوعون الآيات موضوعياً لخدمة مذاهبهم، مما أدت إلى خلط عظيم وخلل جسيم فى منهج الفهم القرآنى حتى غدت خطرا داهما على القرآن وفهمه وهيبته.

تاسعا: إن سياسة ردود الأفعال هى سياسة قصيرة وعقيمة ولا تجدي، والتفسير الموضوعي ما هو إلا سلسلة لا تنقطع من ردود الأفعال

سواء للأفكار الوافدة إلى بلاد المسلمين أو للهجوم الصليبى المحموم على الإسلام

عاشـــرا: أن دعوى المواجهة الحضارية لحماية الأمة بالقرآن عن طريق التفســير الموضــوعي هي دعوى باطلة، فقد أجمعت الأمة على أن أصــحاب رســول الله صلى الله عليه وسلم هم خير هذه الأمة، وقد واجهــتهم مشــكلات حضارية كبيرة حال نزولهم سائر البلدان إبان مرحلة الفتوح الكبرى ولم يعلم منهم من فسر القرآن موضوعياً. كما أن الإسلام قد واجه قديماً هجمات لا تقل شراسة عن ذلك مثل التتار الــذين غــزوا بــلاد المســلمين ولم ينشىء ذلك تفسيراً موضوعياً لمواجهة التتار، رغم توافر العلماء كابن تيمية وابن القيم وابن كثير وغيرهم كثير عجت بهم بلاد الإسلام،.

حــادى عاشــر: إن تمزيق للقرآن خرقاً ومزقا لا رابط بينها عن طريق أسماء الموضوعات الكثيرة التى لا تحصى إنما ينتهي بالقرآن إلى أشلاء متناثرة وجزر معزولة عن بعضها لا رابطة بينها.

ثانى عشر: إن أصحاب التفسير الموضوعي متفاوتون في ثقافاتهم ومناهجهم وحتــى تعريفهم له بحيث لا يكادون يتفقون على صيغة واحدة معلومة مجمــع علــيها بيــنهم وكثيــر منهم غرضه الإقتحام رغبة في الكتابة والتفســير دون تأصيل أو تقعيد معتمد. ويرتكز كل منهم على الطائفة التى يراها من العلماء ويضرب كلامهم بكلام بعض، فإذا بفتنة كبرى

تزيغ فيه الأبصار وتتقلب القلوب ويغدو الحليم حيرانا.

ثالث عشر: لا سبيل إلى وجود تفسير موضوعى تام للقرآن كاملا تتناوله الأجيال على غرار التفاسير التحليلية الكثيرة التى أنارت حياة أجيال مسلمة لا يحصيها إلا باريها لانعدام قدرة البشر على إحصاء مسائله فضـــلا عن تفسيرْها. ذلك أن حفظ القرآن كاملاً كتفسير موضوعى أمـــر مســـتحيل بخـــلاف التفسير التحليلي الذي حفظ القرآن آية آية مفسرة، وما مئات التفاسير السلفية إلا برهان دامغ على هذا.

رابـــع عشر: عن الدافع لدعاة التفسير الموضوعي وجدنا أنهم يفعلون ذلك لأمور:

أولها: اعتقادهم أن طريقة السلف في تفسيره مرتباً لا تمكن من الفهم الدقيق والإدراك الصحيح لمعانيه وأغراضه.

ثانـــيها: أرادوا أن يـــتلافوا بالتفسير الموضوعي التلون المذهبي في التفسير.

وثالـــثها: التحذيـــر من التناول المتفرق للموضوع الواحد مما يشتت الذهن فيه ولا يؤدي إلى الفهم الكامل للقرآن.

وهـــى دوافع داحضة ثبت بطلانها وبيانه: أولها فأن السلف لا يفسر أحدهم آية إلا ويستحضر الآيات الأخرى فى نفس المسألة.أما ثانيها أن التفسير الموضوعي ليس مانعا من التلون المذهبي والانحراف في

التفسير أما ثالثها فلقد خاض دعاة التفسير الموضوعى فى مستنقعات من الإختلاط والتشتيت أدت إلى تشتت الذهن بصورة لا سابقة لها.

خـــامس عشـــر: أن رواد مدرسة التفسير الموضوعى الأوائل وهم جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ومحمد رسيد رضا ومن سار على دربهم إنما يقوم مذهبهم على ثلاثة أركان:

أولا: أنها بالغت فى إعمال العقل وتحكيمه حتى قدمته فى كثير من المواضـــع علـــى الشرع حتى يمكن أن نطلق عليها من غير إجحاف (المدرسة العقلية الحديثة).

ثانـــيا: إنهـــا فـــى كثير من الأحوال لجأت إلى لىّ أعناق النصوص وتأويـــل العقائـــد بمـــا يتمشى مع النظرة الغربية ومكتشفات الحضارة الغربية، حتى أنها قامت بتأويل المعجزات التى اتفق أهـــل الديانات عليها بما يخدم النظرة المادية التى اعتنقتها هذه المدرسة.

ثالـــثا: المحاولـــة المســـتمرة لإيجاد التبريرات لسلوكيات الحضارة الغـــربية وإعطـــاء الســـند الفكـــرى والدعم الدينى لمعطيات الحضارة الغربية ومحاولة تقريب الهوة بين الغرب والمسلمين على حساب رواسخ العقائد الإسلامية

وبناء على ماسبق فإنه يجب أن نعيد النظر فى رجال هذه المدرسة ونعيد

تقيـيمهم وفـق الميزان الإسلامى لأن نسير وراءهم فيما روجوه عن المدرسة التفسيرية الحديثة ومنها التفسير الموضوعى.

***

وبعد فهذا جماع رأى المعارضين للمدرسة التفسيرية المعاصرة وقد جمعنا مـن تـتكامل بهـم حجة التيار المعارض للتفسير التجديدى جملة وعلى رأسه التفسير الموضوعى، وهي حجج لها دوافعها النبيلة وأسبابها الشرعية المعتبرة.

***

الجواب على شبهات المعارضين

أدلة مشروعية التفسير الموضوعى من أقوال العلماء

أولاً: من العلماء المتقدمين

أولا:

قال ابن ابي الفضل المرسي عند الحديث عن إعجاز القرآن مانصه:

"جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط به علما حقيقة الا واهبها والمتكلم بها، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم، خلا ما استأثر به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الاربعة، وابن مسعود وان عباس حتى قال:

لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله.

ثم ورث عنه التابعون بإحسان، ثم تفاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ماحمله الصحابة والتابعون عن علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه، فاعتني قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه، وعد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته، والتعليم عند كل عشر آيات، الى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه فسموا القراء.

واعتنـــى الـــنحاة بالمعـــرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملـــة وغيـــرها، وأوســـعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، والـــلازم والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ماتعلق به، حتى أن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظا يدل على معنى واحد، ولفظا يـــدل على معنيين ولفظا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنـــى الخفـــي منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل فكره وقال بمقتضى نظره.

واعتنى الأصوليون بمافيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله:

"لـــو كـــان فـــيهما آلهة الا الله لفسدتا" الانبياء. الى غير ذلك من الآيات الكثيـــرة، فاســـتنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده، وقدمه وبقائه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لايليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملـــت طائفـــة منهم معاني خطابه، فرأت منها مايقتضي العموم، ومنها مايقتضـــي الخصـــوص الى غير ذلك، فاستنبطوا منها أحكام اللغات من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص والإخبار، والنص والظاهر والمجمل، والمحكم والمتشـــابه، والأمـــر والنهـــي، والنســـخ، إلـــى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال.

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطا حسنا، وسموه بعلم الفروع، وبالفقه أيضا.

وتلمحت طائفة مافيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار فصولا من المواعظ، وأصولا من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ماورد في قصة يوسف في البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فان عز عليهم إخراجها منه، فمن السنة التي هي شارحة للكتاب، فان عسر فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا الى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعرف عاداتهم الذي أشار اليه القرآن بقوله (وأمر بالعرف).

وأخذ قوم مافي آية المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك، وسموه علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن، وحساب الفرائض ومسائل العول، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظـــر قـــوم الـــى مافيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار، والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج وغير ذلك، فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظـــر الكتاب والشعراء الى مافيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن الســياق والمــبادئ والمقاطـــع والمخـــالص، والتلوين في الخطاب، والإطناب والايجاز، وغير ذلك فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

ونظـــر فيه أرباب الاشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان، ودقائـــق جعلـــوا لهـــا أعلامـــا اصطلحوا عليها، مثل الفناء والبقاء والحضور، والخـــوف والهيئة والأنس الوحشة والقبض والبسط، وما أشبه ذلك، هذه الفنون التي أخذتها الملة الاسلامية منه.

وقـــد احتوى على علوم آخر من علوم الأوائل، مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك.

أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعـــتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة (وكان بـــين ذلـــك قواما) الفرقان ٦٧، وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحـــدوث الشـــفاء للـــبدن بعد اعتلاله في قوله:(شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) النحل ٦٩، ثم زاد على طلب الأجساد طب القلوب وشفاء الصدور.

وأمـــا الهيـــئة فهـــي تضـــاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السماوات والأرض، وما بث فيها في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة ففي قوله (إنطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب) المرسلات ٣..

وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة، وغير ذلك شيئا كثيرا، ومناظرة ابراهيم نمرود، ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأيام وأعوام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة الدنيا، وما مضى وما بقي مضروب بعضه في بعض.

وأما النجامة ففي قوله تعالى: (أو اثارة من علم) الاحقاف ٤، وقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة اليها، كالخياطة في قوله (وطفقا يخصفان عليهما) والحدادة (آتوني زبر الحديد)، والبناء في آيات، والنجارة (واصنع الفلك بأعيننا) هود (٣٧) والغزل (نقضت غزلها) النحل(٩٢) والنسج (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) العنكبوت(٤١) والفلاحة (أفرأيتم ماتحرثون) الواقعة(٦٣) والصيد في آيات، والغوص(كل بناء وغواص) ص(٣٨)، والصياغة (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) الاعراف ٤١ والزجاجة (صرح ممرد من قوارير) النحل (٤٤) والفخارة (فأوقد لي ياهامان على الطين) القصص، والملاحة (أما السفينة..) الكهف(٧٩ والكتابة (علم بالقلم) العلق (٤)، والخبز (أحمل فوق رأسي خبزا) يوسف(٣٦، والطبخ (بعجل حنيذ) هود(٦٩) والغسل (وثيابك فطهر) المدثر(٤)، والقصارة

(قـال الحواريـون) آل عمران (٥٢) وهم القصارون، والجزارة (إلا ماذكيتم) المائـدة (٤) والبـيع والشراء في آيات، والصبغ (صبغة الله) البقرة ١٣٨ (جدد بـيض وحمر) فاطر ٢٧، والحجارة (وتنحتون من الجبال بيوتا) الاعراف ٧٤، والكـيالة والوزن في آيات، والرمي (ومارميت إذ رميت) الأنفال ١٧ (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) الانفال (٦).

وفيه أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات، وجميع ماوقـع وما يقع فيه الكائنات مايحقق معنى قوله تعالى (مافرطنا في الكتاب من شئ) الانعام ٣٨ انتهى من كتاب المرسي ملخصا. [١]

ثانياً:

في كتاب الاتقان في علوم القرآن قال الامام جلال الدين السيوطي مانصه:

"وأنا أقول:

قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شئ، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسـألة هـي أصل إلا وفي القرآن مايدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى، وبدء الخلق، وأسـماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة، كقصة آدم مع أبلـيس فـي إخراجه من الجنة، والولد الذي سماه عبدالحارث، ورفع أدريس،

(١) معتـرك الأقران في إعجاز القرآن - جلال الدين السيوطي- الجزء الأول صـ١٤-١٨ - دار الكتب العلميه بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

وغـــرق قوم نوح، وقصة عاد الأولى والثانية، وثمود والناقة وقوم يونس، وقوم شعيب الأولين والآخرين....) [1]

قال: " وحكى ابن سراقة في كتاب "الاعجاز" عن أبي بكر بن مجاهد، أنه قال يوما: مامن شئ في العالم إلا وهو في كتاب الله فقيل له: فأين ذكر الخانات فيه، فقال:

في قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم) النور ٢٩، فهي الخانات.

وقال ابن برجان:

ماقال النبي صلى الله عليه وسلم من شئ فهو في القرآن به أو فيه أصله، قرب أو بعد، فهمه من فهم، وعمه عنه من عمه، وكذا كل ماحكم به أو قضى، وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر إجتهاده، وبذل وسعه ومقدار فهمه.

وقال غيره:

مـــامن شئ إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله، حتى إن بعضهم اســتنبط عمـــر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة من قوله في سورة المنافقـــين: "ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها المنافقين الآية (١١)، فانها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده

(١) الاتقان في علوم القرآن -جلال الدين السيوطي- الجزء الثاني ص١٠٢٧ - ١٠٣٥ الطبعة الثانية - دار ابن كثير للطباعة والنشر - دمشق (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)

"وقال ابن سراقة:

مـــن بعض وجوه إعجاز القرآن ماذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب، والموافقة والتأليف والمناسبة، والتنصيف والمضاعفة، ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه صلى الله

علـــيه وســـلم صادق في قوله، وأن القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة، ولا تلقي الحساب و الهندسة.

وقال الراغب:

إن الله تعالـــى كمـــا جعـــل نبوة النبيين بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم مختـــتمة، وشرائعهم بشريعته من وجه منتسخة، ومن وجه مكملة متممة، جعل كـــتابه المنـــزل عليه متضمنا لثمرة كتبه التي أولاها أولئك، كما نبه عليه بقوله (يتلو صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة) البينة ٢-٣.

وجعـــل مـــن معجزة هذا الكتاب، أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم بحـــيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه، والآلات الدنيوية عن استيفائه، كما نـــبه علـــيه بقوله: "ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفذت كلمات الله " لقمان آية ٢٧.

فهو وإن كان لايخلو للناظر فيه من نور مايريه ونفع مايوليه:

كالـــبدر مـــن حـــيث التفت رأيته يهـــدي الى عينيك نورا ثاقبـــاً
كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشـــى الـــبلاد مشارقا ومغارباً

وأخرج أبو نعيم وغيره، عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم قال:

قيل لموسى عليه السلام: ياموسى، إنما مثل كتاب أحمد في الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن، كلما مخضته أخرجت زبدته.

وقال السيوطي في كتاب (معترك الأقران)[1] تحت عنوان: الوجه الأول من وجوه إعجازه.

" وكيف لا ؟ وقد احتوى على علوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب، ولا أحاط بها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة قال تعالى:(مافرطنا في الكتاب من شئ)، وقال: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ)"

وقال:[2]

"الحمد لله الذي جعل معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، وفضلهم على من تقدمهم، إذ معجزاتهم حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم "

الى أن قال:

"والصواب أنه لانهاية لوجوه الإعجاز كما قال السكاكي في المفتاح:

"إعلم أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولايمكن وصفها وكالملاحة، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت، ولايدرك تحصله لغير ذوي الفطر السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما"

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن-صـ١٢-الجزء الأول-مصدر سابق

(٢) في نفس المصدر صـ٣

وقال في كتاب (الإتقان) [1]

"فائدة:قول إن أبي جمرة:

عن علي رضي الله عنه، أنه قال:

(لوشئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير أم الكتاب لفعلت) وبيان ذلك أنه اذا قال: (الحمد لله رب العالمين) يحتاج تبيين معنى الحمد، وما يتعلق به الاسم الجليل الذي هو الله، وما يليق به من التنزيه، ثم يحتاج الى بيان العالم وكيفيته على جميع أنواعه وأعداده وهي ألف عالم. أربعمائة في البر وستمائة في البحر فيحتاج الى بيان ذلك كله.

فاذا قال:(الرحمن الرحيم) يحتاج الى بيان الإسمين الجليلين وما يليق بهما من الجلال، وما معناهما، ثم يحتاج الى بيان جميع الأسماء والصفات، ثم يحتاج الى بيان الحكمة في اختصاص هذا الموضع بهذين الاسمين دون غيرهما....الخ) [2].

ثالثاً:

قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب "قانون التأويل":

"علوم القرآن خمسون علما، وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، اذ.لكل كلمة ظهر وبطن

(١) الإتقان في علوم القرآن – الجزء الثاني – صـ١٢٢٣. (مصدر سابق)

(٢) المصدر السابق – صـ١٢٢٣-١٢٢٤

وحـــد ومطلع، وهذا مطلق دون اعتبار تركيب، وما بينها من روابط، وهذا مالا يحصى، ولا يعلمه إلا الله.

قال:

" وأمـــا علوم القرآن فثلاثة: توحيد، وتذكير، وأحكام: فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته، والتذكير من الوعد والوعيد والجـــنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام منها التكاليف كلها، وتبيين المـــنافع والمضـــار، والأمر والنهي والندب، ولذلك كانت الفاتحة أم القرآن لأن فيها الأقسام الثلاثة، وسورة الإخلاص ثلثه، لأنها تشمل التوحيد كله "

رابعاً:

قال علي بن عيسى:

" القرآن يشتمل على ثلاثين شيئا: الأعلام والتشبيه، والأمر والنهي،والوعد والوعـــيد، ووصـــف الجـــنة والنار، وتعليم الاقراء باسم الله، وبصفاته وأفعاله، وتعلـــيم الاعتـــراف بإنعامه، والاحتجاج على المخالفين، والرد على الملحدين، والبـــيان عـــن الرغبة والرهبة، والخير والشر، والحسن والقبيح ونعت الحكمة، وفصـــل المعـــرفة، ومـــدح الأبرار، وذم الفجار،والتسليم، والتحسين، والتوكيد والتقريع، والبيان عن ذم الاخلاق، وشرف الآداب "

قال ابن جرير:

"القـــرآن يشـــتمل على ثلاثة أشياء: التوحيد، والأخبار، والديانات، ولهذا

كانت سورة الاخلاص ثلثه لأنها تشمل التوحيد كله "

قال شيذله:

"وعلـــي التحقيق أن تلك الثلاث التي قالها ابن جرير تشمل هذه كله (يعني الثلاثين) بل أضعافها فإن القرآن لا يستدرك ولا تحصى عجائبه. [1]

خامساً:

قال عزالدين بن عبدالسلام في كتاب (الإمام في أدلة الأحكام)

"معظـــم آي القـــرآن لايخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة وأخلاق جميلة، ثم من الآيات ماصرح فيه بالأحكام، ومنها ما يؤخذ بسبيل الاستنباط إما بلاضـــم الـــى آية اخرى كإستنباط صحة أنكحة الكفار من قوله:(وأمراته حمالة الحطب)، وصحة صوم الجنب من قوله (فالآن باشروهن) الى قوله (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود..) الآية. وإما به، كاستنباط أن أقل الحمل ستة أشهر من قوله (وحمله) الاحقاف ١٥. (وفصاله في عامين) لقمان ١٤.

قال:

"ويســتدل علـــى الأحكام تارة بالصيغة، وهو ظاهر، وتارة بالاخبار مثل: (أحل لكم) (حرمت عليكم الميتة) (كتب عليكم الصيام). وتارة بما رتب عليها في العاجـــل أو الآجل من خير أو شر، أو نفع أو ضر، وقد نوع الشارع ذلك أنواعا كثيـــرة، تـــرغيبا لعباده وترهيبا وتقريبا إلى أفهامهم، فكل فعل عظمه الشرع أو

(١) نقلاً عن "الإتقان" للسيوطي "مصدر سابق"

مدحـــه أو مدح فاعله لأجله، أو أحبه أو أحب فاعله، أو وصى به أو رضى عن فاعلـــه، أو وصفه بالاستقامة أو البركة أو الطيب، أو أقسم به أو بفاعله كالاقسام بالشفع والوتر، وبخيل المجاهدين، وبالنفس اللوامة، أو نصبه سببا لذكره لعبده أو لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو بشـــارته، أو وصـــف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بكونه معروفا، أو نفي الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصب سببا لولايته، أو أخبر عن دعـــاء الرسول بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو بصفة مدح، كالحياة والنور والشفاء، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذمه أو ذم فاعله، أو عتب عليه، أو مقت فاعله أو لعنه،أو نفى محبته أو محبة فاعله، أو الرضا به أو عن فاعله، أو شبه فاعلـــه بالـــبهائم أو بالشياطين، أو جعله مانعا من القبول، أو وصفه بالسوء أو الكراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سببا لنفي الفلاح أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذم أو لوم أو ضلالة أو معصية، أو وصف بخبث أو رجس أو نجـــس، أو بكونه إثما أو فسقا، أو سبب لإثم أو رجس أو لعن أو غضب، أو زوال نعمـــة، أو حلـــول نقمة، أو حد من الحدود أو قسوة أو خزي، أو إرتهان نفـــس، أو لعـــداوة الله ومحاربـــته، أو لاستهزائه أو سخريته، أو جعله الله سببا لنســـيانه فاعله، أو وصفه نفسه بالصبر عليه أو الحلم، أو الصفح عنه، أو دعا الـــى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو إحتقار، أو نسبه الى عمل الشيطان، أو تـــزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذلك ككونه ظلما أو بغيا،

أو عدوانا أو إثما أو مرضا، أو تبرأ الأنبياء منه و من فاعله، أو شكوا الى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نهوا عن الأسى والحزن عليه، أو نصب سببا لخيبة فاعله عاجلا أو آجلا، أو رتب عليه حرمان الجنة وما فيها، أو وصف فاعله بأنه عدو الله، أو بأن الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيه، أو قيل فيه: لاينبغي هذا أو لايكون أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل مضاده، أو بهجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو دعا بعضهم على بعض أو وصف فاعله بالضلالة وأنه ليس من الله في شئ، أو ليس من الرسول أو أصحابه، أو جعل اجتنابه سببا للفلاح، أو جعله سببا لايقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أوقيل: هل أنت منته، أو نهي الأنبياء عن الدعاء لفاعله أو رتب عليه إبعادا، أو طردا، أو لفظه (قتل من فعله) (و قاتله الله) أو أخبر أن فاعله لايكلمه الله يوم القيامة، ولاينظر اليه ولا يزكيه، ولا يصلح عمله، ولايهدي كيده أو لايفلح، أو قيض له الشيطان، أو جعل سببا لازاغة قلب فاعله، أو صرفه عن آيات الله وسؤاله عن علة الفعل، فهو دليل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أظهر من دلالته على مجرد الكراهة.

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ونفي الجناح والحرج والإثم والمؤاخذة، ومن الإذن فيه والعفو عنه، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، ومن السكوت عن التحريم ومن الإنكار على من حرم الشئ من الاخبار بأنه خلق أو جعل لنا، والاخبار عن فعل من قبلنا من غير ذم لهم عليه، فان اقترن بإخباره

مدح، دل على مشروعيته وجوبا أو إستحبابا" انتهى كلام الشيخ عز الدين[1].

تعليـــــــق

قلــت: ووجه إجازة التفسير الموضوعى للآيات فيما قال الشيخ عز الدين هــو أن الحض المستمر في القرآن على النظر في القرآن وتدبر معانيه وإحالة الآيــات بعضــها لبعض كما أورده الشيخ فى تحديد أقل الحمل، هو مدح ظاهر لفاعله وحض عليه فهو على مذهب الشيخ دال على مشروعيته

وكــذا ذم الله لمن لايتدبرون ولا يتفكرون ووصفهم بأنهم كالأنعام، وبأن علــى قلوبهم أقفالها، وأنهم صم وبكم وعمون، هو دليل - على مذهب الشيخ - على التحريم لترك التدبر والتفكر. وأيضا ذكر أنواع العلوم في سيرة الانبياء، أو مجــردة، دون ذم لها، بل على سبيل الإمتنان والمدح مما يفيد الاباحة على أقل درجة أو الاستحباب والوجوب.

فهو واجب ومستحب ومباح بناء على ماذكر الشيخ، ومن هنا أوردناه دليلا على مشروعية التفسير الموضوعى بحكم القواعد الاجتهادية التي استنبط منها الأحكام رحمه الله.

سادسا:

قال ابن تيمية: [1]

(١) كتاب الاتقان - السيوطي - الجزء الثاني صـــ١٠٣٩-١٠٤٠

"فهـذه الآثار الصحيحة عن السلف وما شاكلها محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا، فـلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد "

قال:"حمل النهي على من يقول في القرآن بظاهر العربية دون رجوع لما يجب معرفته على من يتكلم في التفسير. على أن حديث جندب ضعيف فيه سهل بن أبي حزم وهو ضعيف متكلم فيه "[٢]

سـابعا: أبو حامد الغزالي في كتاب (إحياء علوم الدين)[٣] قال مانصه: " في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل:

لعلـك تقـول: عظمت الأمر في سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأربـاب القلوب الزكية من معانيه، فكيف يستحب ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم:

(من فسر القرآن برأيه فيتبوأ مقعده من النار).

عن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوبين الى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عـباس وسائر المفسرين، وذهبوا إلى أنه كفر،فان صح ماقاله أهل التفسير فما

---

(١) علوم القرآن - الدكتور نور الدين عتر - صـ٨٧.

(٢) راجع مقدمة التفسير لابن تيمية صـ٢٩-٣١، ومقدمة التفسير للراغب الاصفهاني صـ٤٢٢

(٣) إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - الجزء الأول - صـ٣٢١

معنـــى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره؟، وإن لم يصح فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) ؟.

فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن الا ماترجمه ظاهر التفسير فهو يخبر عـــن حد نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلـــق كافة الى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم.

قال علي رضي الله عنه:

"إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في القرآن ".

فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟.

وقال صلى الله عليه وسلم:

(وإن للقـــرآن ظهـــرا وبطنا وحدا ومطلعا) ويروي أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير. فما يعني الظهر والبطن والحد والمطلع ؟ وقـــال علـــى كـــرم الله وجهه: لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب، فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار ؟.

وقال أبو الدرداء:

لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها. وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم، وما بقي من فهمها أكثر.

وقـــال آخرون: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتين علم إذ كل

كلمـــة علـــم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلـــع، وتـــرديد رســـول الله صلى الله عليه وسلم.(بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة) لا يكون الا لتدبره باطن معانيها، وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله الى تكرير.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه:

"مـــن أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن". وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر

وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شـــرح ذاتـــه وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لانهاية لها، وفي القرآن إشارة الى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع الى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير الى ذلك، بل كل ماأشكل فيه على النظار، واختلف فيه الخلائق فـــي النظـــريات والمعقولات، ففي القرآن اليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم يدركها. فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره؟.

ولـــذلك قال صلى الله عليه وسلم:(اقرأوا القرآن والتمسوا غرائبه)، وقال صـــلى الله علـــيه وسلم في حديث على كرم الله وجهه:(والذي بعثني بالحق نبيا لتفتـــرق أمتـــي عن أهل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضـــلة يدعون الى النار، فاذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل، فيه نبأ من كـــان قبلكم، ونبأ مايأتي بعدكم، وحكم مابينكم، من خالفه من الجبابرة قصمه الله عـــز وجل، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل، وهو حبل الله المتين

ونوره المبين، وشفاؤه النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن إتبعه، لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلقه كثرة الترديد)، وفي حديث حذيفة لما أخبره رسول الله بالاختلاف والفرقة بعده قال: فقلت يارسول الله فماذا تأمرني إن أدركت ذلك ؟فقال:

(تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك) قال: فأعدت عليه ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثا: (تعلم كتاب الله واعمل بما فيه ففيه النجاة).

وقال على كرم الله وجهه: من فهم القرآن، فسر به جمل العلم، أشار الى أن القرآن يشير الى مجامع العلوم كلها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) يعني الفهم في القرآن، وقال عز وجل:(ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) سمي ماآتاهما علما وحكما، وخصص ماانفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم، وجعله مقدما على الحكم والعلم.

فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الادراك فيه.

فأما قوله صلى الله عليه وسلم:(من فسر القرآن برأيه) ونهيه عنه صلى الله عليه وسلم، وقول أبي بكر رضي الله عنه: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني اذا قلت في القرآن برأيي ؟الى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم، أو المراد به أمرا آخر.

وباطل قطعا أن يكون المراد به أن لايتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه:

أحـدها: أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعا من رسول الله صلى الله عليه وسـلم ومسـندا اليه وذلك مما لايصادف إلا في بعض القرآن، فأما مايقوله ابن عـباس وابـن مسعود من أنفسهما فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأي، لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

والثاني:أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لايمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال، ولو كان الواحد مسموعا لرد الباقي، فتبين على القطع أن كل مفسر قـال فـي المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لايمكن الجمع بينها..فكيف يكون الكل مسموعا؟

الـثالث: أنـه صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس رضي الله عنه وقال: "اللهـم فقهـه فـي الـدين وعلمه التأويل " فان كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك ؟

الـرابع:أنه قال عز وجل: (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فأثبت لأهل العلم استنباطا، ومعلوم أنه وراء السماع.

وجملـة مانقلـناه مـن الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشـترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله.

وأما النهي فانه ينزل على أحد وجهين:

أحـدهما: أن يكون له في الشئ رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتناول القـرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لايلوح له من القرآن ذلك المعنى. وهذا تارة يكون مع العلم كالـذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعة، وهو يعلم أنه ليس المراد بالآيـة ذلك، ولكن يلبس به علم خصمه، وتارة يكون مع الجهل،ولكن إذا كانت الآيـة محتملة فيميل فهمه الى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب بـرأيه وهواه،فيكون قد فسر برأيه، أي رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير، ولـولا رأيـه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن، ويستدل عليه مما يعلم أنه ماأريد به كمن يدعو الى الاسـتغفار بالأسـحار، فيسـتدل بقوله صلى الله عليه وسلم: (تسحروا فإن في السـحور بـركة) ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر، وهو يعلم أن المراد به الأكل، وكالذي يدعو الى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله عز وجل: (إذهب الـى فـرعون إنه طغى) ويشير الى قلبه ويومئ الى أنه المراد بفرعون، وهذا الجـنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمسـتمع، وهو ممنوع. وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعـوتهم الـى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به.

فهـذه الفنون أحد وجهي المبلغ من التفسير بالرأي، ويكون المراد بالرأي

الـــرأي الفاســـد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح، والرأي يتناول الصحيح والفاسد، والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأي.

والـــوجه الثانـــي:أن يتســـارع الى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير إستظهار بالسماع، والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمـــبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم بظاهر التفسير، وبادر الى إستنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخـــل في زمرة من يفسر بالرأي. فالنقل والسماع لابد منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والإستنباط.

والغـــرائب التـــي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ونحن نرمز الى جمل منها ليستدل بها على أمثالها، ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا، ولا مطمـــع في الوصول الى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن إدعى فهم أسرار القـــرآن ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن يدعى البلوغ الى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدعي فهم مقاصد الاتراك من كلامهم وهو لايفهم لغة الترك. فـــان ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لابد منها للفهم، ومالا بد فيه من السماع فنون كثيرة منها....."

ثم أخذ الغزالي يسرد الفنون الدقيقة من اللغة وغيرها مما لابد من الوقوف عليه نقلاً وسماعا حتى تتحصل إمكانية الفهم في القرآن إلى أن قال:

"وإنمـــا ينكشـــف للراســـخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حـــد فـــي الترقي الى درجة أعلى منه، فأما الإستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان.

البحـــر مدادا والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لانهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل. فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير، وظاهر التفسير لايغني عنه..."

ثم ضرب مثلا لذلك الى أن اختتم كلامه بقوله:

"ثم إن لها أغوارا وراء هذا، وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنـــى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به، وأسرار ذلك كثيرة، ولا يدل تفسير ظاهـــر علـــيه، ولـــيس اللفـــظ هو مناقض لظاهر التفسير، بل هو إستكمال له ووصـــول الى لبابه عن ظاهره، فهذا مانورده لفهم المعاني الباطنة لامايناقض الظاهر والله أعلم "[1] انتهى

ثانيا: أصحاب التفسير بالدراية من علماء المتقدمين

هـــم الجمهور من المفسرين على ماذكره في (مناهل العرفان)، وكذلك في (علوم القرآن) [2].

وهـــم لا يـــرون بأســـا من الإجتهاد الشرعي بوسائله الشرعية في تفسير القـــرآن العظيم. ولما كان هذا هو مذهبهم، فهم لايرون بأسا من مسائل التفسير الموضوعى والنظر فيها وإبداء الرأي مادامت القواعد الشرعية معتبرة، ووسائل الإجتهاد متوفرة، وما يحتاج اليه المفسر معتمد.

---

(١) إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي–الجزء الاول – صـــ٣٤١–٣٤٧. (مصدر سابق)

(٢) علوم القرآن – د. نور الدين عتر– صـــ٨٥ (مصدر سابق)

ثالثاً: جمهور العلماء أجازوا التفسير بالإجتهاد

بناء على القول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

ومعنى ذلك أن يأتي الجواب أعم من السبب، ويكون السبب أخص من لفظ الجـواب. وذلك جائز عقلا، واقع فعلا، لأنه لامحظور فيه ولا قصور، بل إن عمومه مع خصوص سببه موف بالغاية، مؤد للمقصود وزيادة.

وعلـى ذلـك فـان جمهور العلماء على أن الحكم يتناول كل أفراد اللفظ الشـرعي، وسواء منها أفراد السبب الذي ترتب عليه صدور الحكم أو غيرهم، ماداموا في دائرة اللفظ الشرعي الصادر بهذا السبب، وقد ضربوا لذلك مثلا:

الحادثـة التي نزل فيها قول الله تعالى:"والذين يرمون أزواجهم "الآية فإن سببها خاص بقذف هلال بن أمية لزوجته، لكن الآيات كما ترى نزلت بلفظ عام يشـمل المسبب وغيره، لأن لفظ الذين إسم موصول وهو عند النحاة من صيغ العموم لا الخصوص، وعليه فالحكم يلزم كل قاذف لزوجته وسواء كان هلال بن أمـية أو غيره مادام السياق لغة يفيد العموم، ولا تحتاج الى قياس أو دليل آخر لإثـبات ذلك، إذ هو ثابت في نفسه بعموم اللفظ، فهو نص شرعي في المسألة، ولا إجتهاد ولا قياس مع نص

هـذا مذهب الجمهور، وقس على ذلك ماجاء في القرآن والسنة بما يفوق الحصر من العمومات الآتية على أسباب حوادث أعيان بذاتها[1].

وهذا المذهب يوافق التفسير الموضوعى للقرآن باعتبار أساسه الذي يشمل

(١) هكذا عن مناهل العرفان – الزرقاني – الجزء الأول – صـ١١٨ (مصدر سابق)

كل حادثة من جنس التي نزل بسببها النص، غير أنها تشتمل في عموم ألفاظه، وكثيرا ماكان إبن جرير الطبري وهو من أئمة التفسير المأثور على تأويل اللفظ العام فيقول:

والصـــحيح عندنا أنها تشمل كل مامن شأنه هكذا وكذا، عملا بعموم اللفظ واشتماله كافة ماهو من جنسه الى قيام الساعة، ويراجع تأويله في فواتح السور، "والناشطات نشطا " "والمرسلات عرفا" وخلافه، فقد ذهب الى مابينا.

مجموع أدلة مشروعية التفسير الموضوعى

أولاً: أدلة الأصوليين

أولاً

قوله تعالى:(مافرطنا في الكتاب من شئ) الأنعام ٣٨. وهو صريح في أن الله تعالـــى لم يغفل شيئا في كتابه عز وجل، وقد ذهب الكثيرون من المفسرين الى أن الكتاب المذكور هو القرآن العظيم، ولا منافاة بين ذلك وبين كون الكتاب على قول البعض الآخر هوا للوح المحفوظ، فليس هناك ما يمنع كونه كتاب الله المنزل، لامن جهة إعتقاد المسلمين، ولا من جهة العقل.

فأمـــا مـــن جهـــة الإعتقاد: فكل مسلم على وجه الأرض يلزمه إعتقاد أن القرآن هو كلام الله، وفرقه عن كلام البشر كفرق ذات الله عز وجل عن ذوات البشر، وعليه فلا يبعد بوصفه هذا أن يحوي كل شئ، إذ الله خالق كل شئ وهو منـــزل القرآن. بل الأقرب عدم قياسه على كلام البشر رأساً، إذ كلامهم محدود محصور ضيق يخضع للوهم والهوى والقصور بخلاف كلام الله عز وجل الذي لايخضع لشئ مما يتعارف عليه ألسنة الناس ولغاتهم مما ذكرنا.

وأما عقلاً: فكيف يحيل العقل كون كلام الله عز وجل شاملاً لكل شئ بقدرة الله عـــز وجـــل وكمـــا يشـــاء الله عز وجل، بل إن العقلاء ليحيلون حده بحد، وخضوعه لقياسٍ وإلزامه بمدارك الناس الفقيرة القاصرة الهزيلة.

ثانياً

قول الله تعالى:(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ) النحل ٨٩.

فهنا تقرير المنة الكبرى التي وراء إنزال هذا الكتاب، وأنه بيان لكل شئ، و(كـل): لفـظ عموم واستغراق، يعم كل شئ معلوم للبشر، وقد ذهب إلى ذلك الكثيـرون من أهل العلم في التفسير، وذهب آخرون الى أن المقصود هو: كل شئ يصلحهم في أمر دينهم فقط، ولا منافاة أيضا، إذ القول بأنه يحوي ويبين كل شـئ على إطلاقه يشمل الدين بحذافيره، ويضاف إليه المعارف الإنسانية النافعة بما يعود على الدين أيضاً. وقصر الشئ على أوامر الدين ونواهيه فقط هو تحكم مـن غيـر قرينة تدل عليه، بل القرائن كلها والنصوص كما سنذكر داعية الى المفهـوم الظاهـر مـن الخطـاب وهو أن الله لم يغفل شيئاً في كتابه ولا وجه لاسـتغراب ذلـك بناء على مابينا من أنه كلام الله تعالى الذي لاتحيط به أفهام البشر، ولا يقدرون على الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

ثالثاً

ما أخرجه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"سـتكون فـتن " قيل: وما المخرج منها ؟ قال:"كتاب الله، فيه نبأ ماقبلكم، وخبـر مابعدكم، وحكم مابينكم " وهو نص صريح في أن كتاب الله هو مرجع المسـلمين الـى قيام الساعة، وأن فيه أنباء لم تكن على عهد الصحابة، ودعوة النبـي المسـلمين الى العودة إلى كتاب الله، وتعليل ذلك بأنه يحوي نبأ الأولين، وخبـر الآخرين، وحكم مابين المعاصرين له، هو دليل على إحتوائه على سبل الخـروج من كافة الفتن والمعضلات إلى قيام الساعة، وهو حديث مؤكد لمعنى الآيات المذكورة.

رابعاً

أخرج سعيد بن منصور، عن إبن مسعود قال:

من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين.

قال البيهقي: يعني أصول العلم. وهذا إبن مسعود وهو من هو في تفسير القرآن العظيم، وعلمه الجم بمقاصده وأحكامه، وما يحويه من كنوز وأسرار، قد قطع بأنه يحوي كل شئ، واختصر بأنه خبر الأولين والآخرين، وهذا يظهر خروج مافيه عن الدائرة الضيقة لكل عصر، ولكل قرن، ولكنها العلوم المتدفقة الغزيرة التي وسعت أخبار من مضى وأخبار من سيأتي إلى قيام الساعة.

خامساً

أخرج البيهقي عن الحسن قال:

أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: التوراة والانجيل والزبور والفرقان. ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان.

ووجه الاستدلال بذلك هو إحتواء القرآن لكافة العلوم التي جاء بها الأنبياء من لدن آدم عليه السلام وحتى محمد صلى الله عليه وسلم، ولو كان مافيه من أحكام هو الحلال والحرام فقط، لما قيل هذا مع إعتبار إختلاف التشاريع والتعاليم والأعصار والعادات لكافة البشر قبل نزوله.

وأيضا هذا مشعر بإحساس السلف عليهم رضوان الله بغرائب هذا الكتاب وسعة علومه وتشعبها وتلاطم أمواجها، بما يوجه أنظارهم الى ضرورة وجود كافة العلوم من أول الانبياء إلى آخرهم بين دفتي هذا الكتاب.

سادساً

قال الامام الشافعي رضي الله عنه:

"جميع ماتقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن ".

وقال أيضا: "جميع ماحكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن ".

وهـو ظاهر في استنباط العلوم من كتاب الله، وفيه رد على من يقصرون التفسير على الرواية فقط، إذ هنا استنباطات الأمة بكاملها يعني علماؤها في كافة فروع العلم ماهو إلاشرح مستفيض لما جاء في السنة إذ هي معجزة من جهة قلة الألفـاظ مع إتساع المعاني، كذا السنة بكاملها مع أقضيتها وأحكامها ومقرراتها وأوامـرها ونواهيها وعبرها، وغير ذلك، كله مستنبط من كتاب الله عز وجل، وهو التصريح بأن كل قول قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مما فهم من كـتاب الله. ومذهب الشافعي هنا واضح في مسألة الاستنباط والاجتهاد، وإبطال قول من تحكموا على الرواية والسند فقط وأنه لايصلح تفسير القرآن إلا بهما.

وهو مؤكد أيضا بقول الشافعي:

(ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، فان قيل: من الأحكام ماثبت ابتداءً بالسنة ؟ قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله فـي الحقـيقة، لأن كتاب الله أوجب علينا إتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وفرض علينا الأخذ بقوله) [1]

(١) الاتقان -السيوطي -الجزء الثاني - صـ ١٠٢٨ (مصدر سابق)

سابعاً

ماروي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه قال:

لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى[1].

وهـو صريح في يقين الصحابة رضوان الله عليهم باحتواء كتاب الله عز وجـل على بحار شاسعة من العلوم بكاملها حتى أنه يضرب المثل بقيد بعيره، وأنه يجده في كتاب الله، ولا يمكنه ذلك إلا بإستنباطه من الآيات الكثيرات، إذ لا تـوجد فـي كتاب الله آية صريحة في عقال بعير أبي بكر. ومعلوم أن ضرب المـثل بالأدنى يشمل الأعلى اتفاقا، مثل قوله تعالى: "فلا تقل لهما أفٍ "فلا يباح الضـرب قطعاً لأن النص جاء في الذي هو أدنى منه فشمل الأعلى، ولا يخفاك سـخف من تحكم والتزم النص ظاهراً فقال:إذن يباح ضرب الوالدين لأن النص لم يذكر إلا قوله "أف" فقط. وهو عظيم النفع فتدبره.

فلما أشار أبو بكر إلى هذا الأمر اليسير وأنه واثق من وجوده في كتاب الله كـان غيـره مما هو أهم وأكبر أولى، ومنها سائر العلوم وأصولها كما قد بيناه فتأمل.

ثامناً

واقـع الأمـر مـن إطباق علماء الأمة من أولها الى آخرها على إستخراج اللطائف الخفية والنكات البهية من بين ثنايا الآيات، وعدوا من وصل الى شئ من هذا بعد استفراغ الجهد الشرعي، وعلى أصول أهل السنة بأنه من فطاحل العلماء.

---

(١) المصدر السابق - صـ١٠٢٨

وأنت ترى التفاسير وقد تنوعت في استنباطاتها، وأجاد علماؤها، فمنهم من نبغ في اللغة وأخرج غرائبها وعجائبها من كتاب الله، ومنهم من عدد آياته وفواصله بل وحروفه وسكناته، ومنهم من غاص في ألفاظه ذات المعنى والمعنيين والأكثر، وراح في الترجيح بين محتملاتها، ومنهم من نصب المناظرات لأعداء الاسلام بانيا على المنهج العقلي الرشيد الذي جاءت به الآيات الدالة على المنطق العقلي، واستدلوا به على وحدانيته عز وجل، ومنهم من استنبطوا من آياته مناهج الاستنباط عقلا حيث استخرجوا كنوزا لاحصر لها لم تكن تخطر على بال من سبقوهم، وكلها كانت كامنة في أعماق هذه الآيات حتى قيض الله لها من أظهرها، فكانت آية بعد آية.

ومن دونوا التاريخ بكامله في كتب التاريخ للأمم والملوك قد استفرغوا إشارات القرآن لتواريخ الأمم، ومنهم الأدباء والشعراء، ومنهم مفسروا الأحلام، ومنهم الزهاد والوعاظ، ومنهم السائحون ومنهم الناظرون في ملكوت السماوات والأرض كما أمر القرآن فرأوا من الغرائب والعجائب التي دل عليها القرآن، فما ترى في هذه من أولها الى آخرها عالما في التفسير أو الفقه أو الاصول أو اللغة أو الأدب أو التاريخ أو علوم الهيئة والطب وغيرها وغيرها إلا وقد نهل من كتاب الله عز وجل، وهو أمر واقع مكرر ظاهر في هذه الأمة، ولو راح واحد يحثو التراب على كل هؤلاء ما أبقى في الأمة بعدها من خير ولا رجاء.

ووجه إستدلالنا ليس بالعقل فقط أو النقل فقط، بل بإجماع العلماء على كل ماسبق فكان النظر في موضوعات العلوم العقدية والإنسانية والكونية والعلوم وجمع الآيات المفرقات فى ثنايا الكتاب إنطلاقا من آياته الظاهرة في كتاب الله على المنهج الموضوعى واحدا من هذه الإجتهادات يصح في حقه مايصح في حق كافة العلوم غيره من الإعتبار والقبول.

تاسعاً

وجـود مئات الآيات البليغات في كتاب الله والداعيات الى النظر والتفكر، وهي آيات لا تعد بالعشرات بل بالمئات، وضرب الصفح عنها جميعا بدعوى أن القـرآن كتاب هداية وليس كتاب موضوعات وعلوم هو إبطال للحكمة والبلاغة والعقـل، فلـزم أن ينتفى ذلك عن كتاب الله من باب أولى، فوجب اعتبار هذه الآيـات لما نزلت من أجله من وجوب تأملها وتدبرها، والاستفادة الكاملة منها مباشرة، أو منها عن طريق ضمها بنظائرها في كتاب الله، أو منها وغيرها عن طـريق إسـتنباط مـا فـيها مـن أسرار مكنونة وكنوز مدفونة وهو المنهج الموضوعى فى التفسير فتدبر.

عاشرا

إن وجـود الآيـات الشارحة لأحوال النفس والإجتماع البشرى والإقتصاد والمـال والسياسة و الفلك والطب والأرض والأجنة والمنطق والبراهين والأدلة العقلية، هو من أكبر البراهين على إعجاز هذا الكتاب، ونزوله من عندالله على قلـب محمد صلى الله عليه وسلم الذي علم القاصي والداني أنه كان أمياً لم يقرأ كـتاباً قـط، كذا لم يخالط أهل الحساب ولا علماء الفلك ولا هو درس الطب أو عـرف عـنه ذلـك، وماخالط الفلاسفة والمناطقة، ولا علماء النفس والإقتصاد والإجـتماع ولا علمـاء الجيولوجـيا وطبقات الأرض وعلوم البحار وعلماء الحـيوان وغيرها من العلوم المتشعبة التي مستها الآيات مساً دقيقاً أو وتوغلت فـيها في تحد وإعجاز،، فمن أين له ذلك ؟! وهو الناشئ في بيئة البدو الرحل، العـرب الجاهلـين بكل هذه المعارف وتلك العلوم، فهو دليل قاطع لا مرية فيه

علـــى أن هـــذا الكتاب نزل على قلبه من لدن حكيم خبير، لايغادر صغيرة ولا كبيـــرة إلا أحصـــاها، الأمـــر الـــذى يبدو ناصعا عن طريق البحث والتفسير الموضـــوعى للآيـــات وهو ملزم لأشد المعاندين عناداً، وهو حجة صارمة في أعناق أكبر الزائغين زيغاً وضلالاً.

حادى عشر

إن المسلمين كافة يعرفون بالإضطرار أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هي خاتمة لسائر الرسالات من قبله، وكذا شريعته لشرائع الأولين إما ناسخة أو مكملة متممة، فكذلك جعل الله كتابه المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الجامـــع لثمـــرات الكتب السابقة بأجمعها على قلة حجمه وإيجاز عبارته، فهو يحوي من العلوم مالا يحصيه إلا الله عز وجل، والمعاني الكبار الواسعات مالا يدركه إلا منزله سبحانه، بحيث يستحيل على البشر بقدراتهم المحدودة وعزائمهم الهـــزيلة، وهممهـــم المنقطعة أن يقفوا على معشاره، وهو صريح في قوله عز وجل:

" ولـــو أن مافي الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله "لقمان ٢٧. فتحار فيه العقول وتتيه حوله الأفئدة، وهو يضئ وامضـــاً لكل ناظر هادياً إلى أقوم سبيل.هذا السيل الذى لا ينقطع والذى يبرزه التفســـير الموضـــوعى فى جلاء وإبهار ليس لأنه قادر مع استفراغ غاية جهود العاملين فيه على أن يحصى الموضوعات فى الكتاب، ولكن لأنه يثبت من غير غمـــوض عجـــز البشر ومهما تكاتفوا وكان بعضهم لبعض ظهيرا عن إحصاء موضـــوعاته المـــتماوجة كالبحـــر الـــذى لاســـاحل لـــه.فالعجز عن الإحاطة

بالموضـــوعات لـــيس حجة علي مدرسة التفسير الموضوعى بل بالحرى هو الحجة الدامغة لوجودها فهى البرهان الدامغ على عجز البشر أمام كلام الله تعالى إحاطـــة أو إحصاء، والعجب من قوم قصروا فهمه على قدر أفهامهم، وضيقوا واســـعه على حد ضيقهم، فأوشكوا على الإعراض عن سناه وشذاه الذي يتجلى في كل جيل بعجيبة وآية، ولكل أمة بعد أمة إلى قيام الساعة بدليل باهر على أنه من عند الله يقينا لا زيغ فيه ولا هزل.

ثانى عشر

يؤكده ماجاء في الكتاب الأول نبوءةً عن هذا الكتاب من صفته وخصائصه فيما رواه أبو نعيم وغيره عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم قال قيل لموسى عليه السلام:

"ياموســـى إنمـــا مـــثل كتاب أحمد في الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن، كلما مخضته أخرجت زبدته"

وهـــو كلام نفيس بليغ مطابق تمام الانطباق لأعظم خاصية من خصائص هـــذا الكـــتاب، وهو أنه كلما اجتهد الناس في فهمه تبدى لهم من العلوم مالم يك باديـــاً، وظهر لهم من المنافع الجليلة ماكان خافياً، بحيث لا تنقضي منافعه ولا تبلى روائعه، ولا تنقطع عجائبه الى قيام الساعة.

وإن تعجب فعجب من حجر هذه الفيوضات السانية الباهرة وقصرها علي جيل بعينه، أو موضوع بذاته، مما يؤدي به الى حجب الأنوار الساطعة كالشمس في رابعة النهار عن الناس إلى قيام الساعة، وكما ذكرنا فإن العلة الكبرى وراء هذا هي القياس المذموم بين كلام الله وكلام الناس، وكذا بين شأن الله عز وجل

وشـــئون الـــناس، وقـــد أطبق علماء التوحيد على منع التشبيه والتمثيل جميعا، فيوشـــك مـــن يقيس كلام الله عز وجل على أفهام الناس، ووظيفته على وظيفة منطق البشر العاجزين أن يقع في ذات الوهدة التي حذر منها العلماء سلفاً وخلفاً، نسأل الله العافية والسلامة.

ثالث عشر

جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه سلم أنه قال:

"ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرفٍ حد، ولكل حدٍ مطلعٌ".

وقـــد رتـــب العلماء على هذا الحديث من الفوائد الخفية مايعد بالآلاف من العلوم بحسب دلالات كل آية بظاهرها وما وراءها وبحدها وبمطلعها، كما أخبر الصادق المصدوق، ولا يعنينا في هذا المقام شرح العلوم التي توصلوا اليها. بل مجرد إثبات وجودها، فمنهم من قال أن العلوم بالمئات ومنهم من جعل أصولها ثلاثـــين تتفـــرع عـــنها سائر العلوم، ومنهم من جعلها ثلاثة فقط وتتفرع عنها الثلاثين من سائر العلوم وأضعافها، ولا شك أن التفسير الموضوعى للقرآن هو واحد من أعظم السبل للوقوف على أسرارهذه العلوم الكثيرة أو على أقل تقدير الوقـــوف علـــى بعـــض أسرارها، حيث أطبقوا على أن القرآن لايستدرك ولا تنقضي عجائبه.

رابع عشر

هـــو دلـــيل مـــن أصـــول الفقه حول تعريف الواجب والمستحب والمباح والمكـــروه والمحـــرم. فكل فعل عظمه الشرع ومدحه ومدح فاعليه أو دعا إليه

وحـــض علـــيه فهو باتفاق الأصوليين إما واجب شرعا وإما مستحب يندب إليه علـــى حسب القيود المفرقة بين الاثنين عند العلماء. وكل فعل ذمه الشرع وذم فاعله ونهى عنه وحرض ضده فهو بين التحريم والكراهة عند عامة الأصوليين علـــى حسب الفروق المعروفة بينها في مصنفاتهم، وكل فعل نفى عنه المؤاخذة والجناح والحرج أو سكت عنه فهو دليل الإباحة عند جمهور الأصوليين.

وإن التفكـــر في كتاب الله والتدبر في آياته مذكور في الكتاب على سبيل الحـــض ومدح فاعله والدعوة اليه مما يجعله واجبا في حق المسلمين، وكذا جاء الـــذم صـــريحاً ظاهـــراً لمن لم يتفكر ولم يتدبر، فثبت بما قلنا وجوب التفكر، وحرمة تركه أو الإعراض عنه.

ولا شـــك أن ثمـــرات التفكر بجمع الآيات على المنهج الموضوعى هي زيـــادة اليقين وتمام السكينة بوجود الله ووحدانيته، وظهور الآيات الباهرات في فـــى سائر الموضوعات التى تناولها القرآن من أعظم الأسباب المؤدية له فكان إلى الوجوب والفرضية أقرب، فتدبر.

خامس عشر

إن الفقهـــاء مطـــبقون على أن الأحكام منها ماتم التصريح به في الآيات فيؤخذ الحكم منها مباشرة ومنها مايؤخذ عن طريق الاستنباط، إما مما في الآية نفسها من غير ضم إلى غيرها، وإما عن طريق ضمها إلى غيرها أى الطريقة الموضوعية فى استنباط الأحكام، وكذا الاستنباط عن طريق الصيغة أو الإخبار علـــى مـــا أوردوا في مصنفاتهم، وكله يؤدي إلى غاية واحدة، وهي أن الباب مفـــتوح أمام كل قادرٍ ممن أراد الله بهم خيرا فقدحوا زناد الفكر، وغاصوا في

بحار علوم القرآن، وخرجوا بكل غال وثمين، وتركوا التقليد الذميم حيث يركن كل قاعد الهمة كسير العزم، مفلول العريكة

سادس عشر

قد علم كل من له أدنى وقوف على مصنفات العلماء أنهم أحسوا الروح الإلهي في هذا الكتاب المنزل، وعرفوا أنه ليس من هذا العالم سواء في نظمه أو خصائصه أو علومه، وأنه معجز باسمه ومعجز برسمه ومعجز بجمعه ومعجز بنظمه ومعجز بذاته وموضوعه وصفته، فألفوا في ذلك الكتب وجمعوا له الأدلة من الأثر والنظر،وكتبوا في إعجاز القرآن مايؤيد ماذهبنا إليه ومنهم الخطابي، والرماني، والزملكاني، والرازي، وإبن سراقة، والباقلاني، والسيوطي وغيرهم، وعرفوا الإعجاز فيه تعريفات كثيرة ليس من بينها أنه موقوف على فهم طائفة، أو إدراك أمة أمية كما ذهب بعض الأصوليين، وليس من بينها أن عجائبه قد انقضت في القرون الأولى، وليس من بينها أن علومه محصورة محدودة لا يجاوزها ولا يخرج عن حدها، بل تباروا في إبراز تفرده وتميزه، وتسابقوا إلى إظهار أغرب مافيه من معجزات متتابعات، وقد كل منهم العزم في النهاية، فاقروا بقصورهم عن إدراك كنه إعجازه ومعنى مراده، فإذا بهم وقد عرفوا الإعجاز بعجزهم عن وصف إعجازه، بعد أن أظهروا قصارى مابلغوه من علوم لم يحيطوا بهاحصراً، ومن شاء فليراجع مصنفاتهم في الإعجاز ليقف على ماذهبنا إليه. فالعجب ممن طرح هذا كله جانباً وقرر أنه قد حده وأحاط بعلومه، وأنه لايجوز أن يكون كذا، أو لاينبغي أن يكون كذا، مما أوردناه في شبهات المعارضين.

فاذا عرفت مابيناه، قرت عينك بماحررناه، وهان عليك ماعظموه، وقرب إلى قلبك ما أنكروه، والله المستعان.

ثانياً:أدلة مشروعية التفسير الموضوعي بحسب تفسير القرآن بالدراية

أولاً

جـواب علـى من قال: أن المفسر بالرأي غير موقن من أنه يصيب فيما يقـول، وكـذا تعرضه للوعيد الشديد في قوله تعالى: (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)

بـأن الله تعالى في كتابه قد قال:(لايكلف الله نفساً إلا وسعها) ومعلوم أنه لـيس فـي وسـع البشر القطع بمراد الله تعالى في كتابه، وإنما غاية التكليف الشـرعي هـو مايـدخل في نطاق الوسع البشري من استفراغ الجهد الشرعي بحسـب الأصـول المعتمدة شرعاً، وليس في ذلك إلزام بمطابقة اجتهاد البشر لحقيقة المعنى الذي عند الله عز وجل، ومن هنا أطبق الفقهاء والأصوليون على اعتـبار الظن – بمعنى الراجح من الأمر، وليس القطعي – أنه علم، طالما أنه لـيس هناك نص قطعي ولا دليل عقلي في المسألة محل النزاع، بل كلهم عرف الفقـه بـأن جلـه ظـن وليس فيه من القطعي إلا القدر اليسير، فالقول بإبطال الاجتهاد في كتاب الله مع استيفاء الشروط المطلوبة للتفسير، لمجرد عدم التحقق من مطابقة التحصيل البشري لمراد الله وسنة رسوله هو تحكم دون دليل.

فـاذا تبـين ذلك ظهر عدم دخول المفسرين الموضوعيين تحت وعيد الله تعالى بأنهم يقولون على الله مالا يعلمون، لأنهم تكلموا فيما يعلمون من أنه جائز من العلم في كتاب الله عز وجل، وداخل في وسع البشر من الاجتهاد الشرعي، ألا وهو الظن الشرعي.

ثانياً

يؤكده صريحاً من السنة الشريفة ماصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"مـن اجتهد وأخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران". وهو حض صريح على الاجتهاد الشرعي. ولو كانت كل الأمور المتعلقة بالشرع لا تؤخذ إلا رواية عـن النبـي، أو عـن من سمعه منه صلى الله عليه وسلم، ما كان هناك معنى للإجتهاد رأساً، ومن باب أولى لا فرصة للخطأ الذي حدث عنه النبي في حديثه، ولا معنـى للاصـابة في مقابل الخطأ، فالحديث ظاهر في إباحة الاجتهاد دون تعلـيق الجزاء على مطابقة النتيجة لمراد الله أو مراد النبي، بدليل وقوع الأجر للمجتهد المخطئ، ولو كان مؤاخذاً بخطئه ما تحقق له الأجر، فضلاً عن وقوع الوزر به، وإنما جعل الأجران للمصيب لحض الشارع على دفع العلماء للمقاربة والتسديد لبلوغ الإصابة ما استطاعوا وبكل وسيله شرعية،

والحديث يظهر الفرق الجلي بين الإجتهاد فيما ليس فيه نص شرعي، وبين القـول علـى الله بغيـر علم، وهو المقصود بالوعيد في القرآن، وبينهما مابين المشرق والمغرب، اذ لا يعقل أن يأمر النبي أصحابه وعلماء الأمة بالقول على الله تعالى بغير علم،وإذن فهو صلى الله عليه وسلم إنما أمرهم بشأن عظيم غير ماسـتدل بـه المانعون من إتيانهم بالآية في غير موضعها، وعلى غير وجهها الذي من أجله توعد الله تعالى الذين يقولون على الله مالا يعلمون.

ثالثاً

عـندما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن سأله: بم تقضي بينهم، فأجاب معاذ: بكتاب الله عز وجل، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

فان لم تجد، قال معاذ: بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله: فان لم تجد، قال معاذ: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب النبي على صدره وقال: الحمد الله الذي وفق رسول رسول الله الى مايحبه الله ويرضاه،هكذا المعنى وهو صحيح.

وفيه فصل الخطاب عن طريق السؤال والجواب، ولو كان خروج معاذ عن الرواية عن الكتاب أو السنة هو في نفسه قول على الله بغير علم، لماأجازه النبي له، بل لما انشرح به صدر رسول صلى الله عليه وسلم، وفيه أن المسائل الشرعية التي لانص فيها يفصل النزاع سواء في كتاب الله أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وجب في حق من له الدراية والقدرة أن يجتهد فيها برأيه، وأن السكون حينذاك هو تقصير ومخالفة، ودليله مدح النبي الله عز وجل لإجابة معاذ بالإجتهاد برأيه، وهو رضي من الشارع وحض ومدح منه لهذا النهج، وهذا عند الأصوليين هو الواجب أو المستحب على أدنى حالاته، وبالتالي لا يكون مباحا بحال، وأظهر منه أن تركه يفيد ترك الواجب أو ترك المستحب على القولين، وترك الواجب حرام اتفاقا، وترك المستحب مكروه، فثبت بما بينا أن ترك الإجتهاد مع وجود أدوات الاجتهاد الشرعي هو مكروه أو حرام، اذ يؤدي الى تعطيل الشرائع، وتأخير البيان عن وقت الحاجة، ومخالفة قول النبي صلى الله عليه وسلم.

رابعاً

في جوابهم عن ذكر حديث رسول الله:

(من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) والآخر (ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)

إن هذين الحديثين بجمعهما مع الأحاديث المذكورة في حث النبي أصحابه علـــى الاجتهاد، يظهران معنيين مختلفين، ولما كانت أحاديث الإجتهاد صريحة فـــي القـــول بالرأي مع استفراغ الجهد الشرعي، لزم إذ ذاك إعتبار احتمالات تأويـــل الأحاديث المذكورة هنا، وذلك لقبولها للاحتمال بخلاف الأخرى حيث لا إحتمال فيها، وقد أورد العلماء إحتمالات لها منها:

أن الوعـــيد في الحديث مقصور على من قال في القرآن برأيه، بمعنى أنه يخـــوض فـــي المتشابهات التي نص الله تعالى علمها بذاته عز وجل، أو خص علمها بتعليم النبي صلى الله عليه وسلم، فلزم الوقوف وعدم اقتحام هذه اللجات العمـــيقة، مـــادام الله تعالى قد ألزم الناس بذلك، فالقائل برأيه فيها هو مخطئ لا محالة في منهجه حيث خالف الأمر الشرعي الصريح في القرآن اذ قال الله:(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا). ولما كان مخطئا في أمر كـــان لـــه فـــيه التوقف والكف، فكل مايترتب عليه من مفاسد إضافة الى وزر المخالفـــة أصـــلا في المنهج بورده أوخم العواقب، ويصدق فيه قول المصطفى (فليتـــبوأ مقعـــده من النار)، إذ هو متقول على الله تعالى بما يعلم أنه لا يعلمه، وذلك من تصريح الله في القرآن بذلك. **هذا هو الاحتمال الاول.**

فأما الاحتمال الثاني:

فهو حمل الأحاديث المتوعدة على أولئك الذي يخالفون الحق وهو يعلمون إنتصـــارا لمذاهـــبهم ومعـــتقداتهم الفاســـدة وسواء كانوا من أصحاب التفسير الموضـــوعى أو التفســـير التحليلى أو غير ذلك، والتي يجعلون فيها الرأي هو الركن الركين ثم يلوون الكتاب والسنة ليأ للاستدلال على مايذهبون إليه، فالرأي عـــندهم هو المقدم والكتاب والسنة ماهما عندهم إلا أدوات ينتصرون بهما عن

طريق التخريجات الشاذة المخالفة للأصول من أجل مذاهبهم، فهو تقديم بين يدي الله ورسوله، وطاعة للهوى، واتباع لنزغات النفوس، وهو رأي فاسد لا يتبع كتابا ولا سنة، ولا تسل بعدها عن الوعيد الذي ينتظر هؤلاء فيصح فيهم وعيد الحديث وتقريره بشرودهم وخطأهم.

والاحتمال الثالث:

أن هذا محمول على من لا يستفرغ جهدا شرعيا، ولا يستعين بسفينة الشروط والأصول التي تتبغي للمفسر قبل أن يخوض البحر اللجي، فهو قاذف نفسه بين اللجات المتلاطمة بلاسفين، فمصيره محتوم لا محالة، إذ يأخذ في التفسير بظواهر الآيات دون الرجوع والبحث المضني وراء معاني المبهمات، والنقل عن الراسخين من العلماء، والوقوف على آراء السابقين، وليس هنا محل النزاع بل هو في المرحلة التالية للنقل عن السلف الصالح، فهو ضرورة لا ينكرها الا أخرق لا يعي، وإنما مرادنا هو فيما بعد الوقوف على ماقاله الأولون، ثم التوسع في العلوم بعد ذلك، وركوب البحر على سفين ثابت، والاستنباط والترجيح والتعميق بحسب الزمان والمكان، عملا بالآيات والأحاديث الداعية لذلك، الحاضة عليه المذكرة به. فيتحقق بما أوردنا إعمال حكم الآيات والأحاديث مجتمعة على مذهب راشد دون إجتزاء أو تضارب..

خامساً

وأيضا في حديث:

(من قال برأيه في القرآن فأصاب فقد أخطأ).

قد أورد العلماء مقالات في صحته، فهو غير ثابت الصحة، وبفرض صحته، فمعناه على ما أوردنا هو أنه أخطأ في المدخل الشرعي والسبيل القويم الذي به تستخرج الأحكام، إذ ذلك معقود على العلم باللغة علما راسخا، والعلم بالمنقول والعلم بالمجمل والمبين والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، وكلها وسائل وأركان لاغنى عنها لمن أراد أن يفهم كتاب الله، وهذا هو السبيل الصحيح للفهم، فمن أغفله وأراد القول فقد اخطأ، كذا القاطع دون ماسبق بأن مايقول هو مراد الله عز وجل، هو قاطع بما لا يعلم، إذ لا يعلم ذلك إلا بإخبار النبي صلى الله عليه وسلم، فما لم يرد عن النبي شئ في المسألة فليس له أن يقطع بما يذهب إليه أنه مراد الله يقينا، وإن كان الشارع قد أحل له الاجتهاد والنظر مادام مستوفيا شروطه واقفا على وسائله.

سادساً

أما المانعون بدعوى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتحرجون أشد الحرج من القول في كتاب الله بما لا يعلمون، فجوابه أن ذلك صحيح قطعا، ولكنه محصور فيما لا يعلمون وجها للصواب فيه على أية صورة، أما إذا تبين لهم وجه من وجوه التأويل النافع، ولو كان ظنيا لا قطعيا، فإنهم يقدمون اليه راجين الأجر من الله عز وجل، ومفوضين له جل وعلا أمر الصواب، فأبو بكر الصديق الذي قال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله بالذي لا أعلم، هو نفسه الذي سئل عن الكلالة في قوله تعالى:"يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة " فقال: أقول فيها برأيي فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان، الكلالة كذا وكذا، ومثله

عــن ابن عباس كثير، وعلى بن ابي طالب كما أوردنا وغيرهم من الصحابة والتابعين، ومن له أدنى وقوف على أخبار القوم علمه دون مرية أو زيغ، فلزم إذ ذاك تقيــيد أقــوالهم المانعة من القول بما لا يبطل إجتهاداتهم، بحيث يختلف مناط الكلام في الأمرين.

فالأول: المنع من القول بدون دراية أو أداة أو أي علم عن الله.

والثانـــي: في الاجتهاد بوسائله الشرعية وإعمال الرأي والدراية لاستنباط ماينفع الناس مما يمتلئ به كتاب الله.

سابعاً

أن هذه المعضلة قد لفتت أنظار العلماء فجمعوا لها أطراف الأدلة والجمع بين الروايات، وانتهوا الى حمل إحجام الصحابة في بعض المواطن عن الفتيا أو القول في الكتاب أو السنة على أمور:

أولا:

أنه من باب الورع الذي تميز به الصحابة عن كل القرون التي تليهم، وقد عرف العلماء الورع بأنه:ترك مالا بأس به حذرا من الوقوع فيما به بأس. فعليه يكــون توقف الصحابة غير ملزم للآخرين، إذ هو توقف فيما لا بأس به ورعا، وذاك أبو بكر الصديق ظل يتقيأ اللبن الذي اشتراه دون علم بأنه مسروق، حتى كادت تزهق روحه، ولا شك أنه يعلم أنه لا بأس به مادام لم يعلم، وأنه معذور شرعا، ولكن هكذا كان شأنهم في الورع والخشية.

ولقائل أن يقول: ماداموا قد توقفوا ورعا، فيجدر بنا أن نقف حيث وقفوا،

ولا نجاوزهم، إذ هم الأعلم والأحكم، وجوابه أن هذا صحيح، ولكن محل النزاع في تحريم القول بالاجتهاد دون رواية، وقد تبين لك أنه ليس حراما، بل هو فضل وسبق، وهو المطلوب.

ثانياً:

أنه مقيد بمسائل بعينها دون القول في القرآن عامة، مثل القطع في المسألة كما بينا، بينما الدليل ليس بقطعي، ولذا جاز الاجتهاد، ولو كان الدليل قطعيا لما صح الاجتهاد، فبه يكون الدليل ظنيا على أفضل أحواله، فكيف يصح القطع بدليل ظني، ولذا توقف الصحابة – ليس عن القول في القرآن بالرأي مادامت الشروط مستوفاه – ولكن توقفوا عن القطع بمراد الله حيثما كان الدليل ظنيا، إذ القطع في هذا هو قول على الله بغير علم، يؤدي إلى تحقق الوعيد الشديد فيمن تجرأ على القول على الله بغير علم.

ثامناً

إننا علمنا من سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن منهم من توقف تماما عن الفتيا والتعليم، ومنهم كذلك من جلس مجالس الإفتاء والتدريس حتى سارت إليهم الركبان، وذاعت بأخبارهم الآفاق، ومنهم ابن عباس، وابن عمر، وابن سعود، وغيرهم، وكذلك من التابعين الجم الغفير، فعلم من ذلك أن الامتناع عن الكلام في التفسير ليس مذهبا واحدا أطبق عليه الصحابة، ولكنه مذهب نفر منهم، قد كفوا بغيرهم في أداء فريضة تفسير القرآن وبيانه للناس، فاطمأن الساكتون إلي ظهور الحق وبيان الكتاب، فلاذوا بالتورع والصمت، ولو علموا أنهم وحدهم المسئولون، وأنه لا يعلم الكتاب إلا بهم، ولا يدرك الناس العلم

بالآيـــات إلا عن طريقهم، لأفتوا واجتهدوا وعلموا الناس دينهم، كيف وهم أول من يعرف عاقبة تأخير البيان عن وقته، ومدى إثم كتم العلم بعدما قصد الشارع بيانه للناس.

والحاصـــل أن سكوتهم كان مبنياً على قيام غيرهم بالواجب، فجاز لهم إذ ذاك مانهجـــوا إلـــيه مـــن الـــتورع عن التكلم في القرآن، وتجشم محاذير ذلك وشروطه.

الادلة الخاصة بالمجيزين للتفسير بالرأي دون تعلق بحجج المانعين

وأمـــا الحجـــج والأدلـــة التي أوردها المجيزون للتفسير بالرأي إنتصارا لمذهـــبهم دون تعلق بما أورده المانعون، فهي كثيرة ومتشعبة، ولكننا نورد منها ما يوافق المقام وأهمها:

أولاً

قـــوله الله تعالـــى: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب)

فهـــو صريح في تحديد الغاية من إنزال الكتاب على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهي تدبر آياته، والتدبر هنا يفيد تعمق الفكر، وإعمال النظر، وبذل الجهد في الفهم.

ولو كانت كل آيات الكتاب بادية ظاهرة، وليست في حاجة إلى نظر سواء بـــنظمها أو إخـــبار النبي بما فيها وما وراءها جميعا، لما كان هنا معنى لذكر التدبـــر ومدحـــه والدعوة إليه في حق المسلمين. وفي الآية ذكر بأن هذا الكتاب "مـــبارك" والبركة هي الزيادة، وتجدد الخير، وتلاحق النعم والمنن، ولو ظهرت آياته كلها في جيل واحد، أو لطائفة واحدة، لما صح أن يكون مباركا متزايدا، إذ البركة في هذا الكتاب لاتبدو وتظهر إلا بإستخراج ثمراته وكنوزه دائما إلى قيام

الساعة، واللام في قوله (ليدبروا) تفيد العلة من نزول الكتاب، وكأنه أنزل لعلة التفكـــر فـــيه، وإستنباط درره الخفية وكنوزه السخية، وختام الآية بتذكر أولي الألـــباب، يفيد الثمار الدانيات المتحصلات من هذا التدبر، وهي التذكر كما أراد الله، وأنـــه لا يكـــون الا لذوي العقول، وذكر الألباب والعقول في هذا المقام ينم علـــى مقصـــود الشارع من جانب، والأداة المطلوبة لتحصيل هذا المطلوب من جانب آخر، أي التدبر وأداته العقل، ولا يخفاك أن تعليما هذا نصه أبعد مايكون عـــن التحجـــر والتقليد والاقتصار على معارف محدودة في أزمان معدودة.ولا يخفاك كذلك أن منهج التفسير بحسب الموضوعات المترامية فى كتاب الله تعالى محقق لهذا المقصد القرآنى على أتم غاية.

ثانياً

قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها).

وهـــذا هو الحد الثاني من القضية، إذ لاتتم قضية إلا بحدين، فأما الاول: فهـــو إبراز محاسنها وإظهار فوائدها والحث عليها، وأما الثاني: فهو ذم تركها والتشـــنيع على تجاهلها وتبكيت من جافاها، وكماترى فان القرآن قد مدح مسألة التدبـــر والتفكـــر والتذكر كما ذكرنا، وهاهنا ذم من ترك هذا، وحذر من مغبة الترك، عاقبة الغفلة عنه.

والســـياق مشعر بالوعيد الشديد لمن لم يتدبر القرآن، بل إن القرآن اعتبر مـــن لـــم يفعل هذا، أغلف القلب ميت الفؤاد شارد الجنان، وحسبك هذا التشبيه المدمـــدم، بأن قلوبهم عليها أقفالها، وماذا بقي من خير في قلب موصد مقفل لا يعي ولا يفقه؟.إن ذكر هذا التشبيه في هذا السياق وبشأن هذه المسألة يدلك على

الفـور علـي طـريقة الشـارع التـي لا يزيغ عنها إلا هالك من لزوم التدبر والتفكر.الأمر الذى تقوم عليه مدرسة التفسير الموضوعى بحذافيرها.

ثالثاً

قول الله تعالى: "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يسـتنبطونه مـنهم" ورب قائـل يقول: إن المقصود بالتدبر المذكور في الآيات السـابقة هو مجرد يقظة القلب وتنبه الحواس إلى معاني القرآن الظاهرة، والتي لاتحـتاج فـي نفسها إلى استخلاص معان غير ظواهرها، ونقول:إن هذه الآية تحسم المراد دون غبش ولا غموض، إذ هي في العلم المطلوب تحصيله شرعا عـند إنعـدام الـنص الشرعي القاطع، فالآية واردة في مسألة اختلاف وحيرة، والنصيحة برد الأمر حتى يتبين جليا لاخفاء فيه، وقدأورد القرآن المصادر التي ينبغي أن ترد إليها أمور الإختلاف في العلم، وهما مصدران أساسيان:

الاول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والثاني: هم أولو الأمر من المسلمين.

وقـد تأكد ذلك بالرد المكرر باستخدام (إلى)، فالرد إلى الرسول مكافئ للرد إلـى أولى الأمر في حالة عدم وجود النص الصريح من الرسول، وتأمل إختلاف ذلك عن سياق نص الطاعة، إذ قال الله: (أطيعوا لله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر مـنكم)، وكمـا قـال العلمـاء لم يفرد طاعة لأولى الأمر مستقلة، بل الطاعة لله وللرسول وطاعة أولى الأمر واجبة ما أطاعوا الله والرسول صلى الله عليه وسلم.

أمـا بخصـوص الإستنباط للأحكام فقال تعالى: (إلى الرسول وإلى أولي

الأمـــر)، فجعـــل الـــرد للاستنباط مستقلا بأولي الأمر، مما يشعر بصلاحيتهم لإســـتخراج الأحكام، و الإستنباط، والعلم لقوله: (لعلمه)، أي أن ما يصلون إليه بعـــد التأمل والتدبر هو (علم) بنص الكتاب، فلا يصح معه إدارجهم تحت قوله تعالى:" وأن تقولوا علي الله مالا تعلمون "، لأن الكتاب نص على أن الاستنباط علم وليس جهالة أو زيغ.

والآية فاصلة في مسألة الاجتهاد بالرأي والدارية، وضرورة الإستنباط عند انعدام النص القاطع، وأنه يسمى علما، وأنه المقصود من مسألة التدبر والتفكر، ولاشـــئ غيـــره. وهو دليل لايماري فيه، وهو أصل أصيل ترتكز عليه مدرسة الإســـتنباط عـــن طـــريق ضم النصوص المتفرقة لاستخراج الأحكام ومعرفة الشـــرائع وقد اعتمده الأولون فى كثير من المواضع وقد بيناه لك مستفيضا فى موضعه فتدبر.

رابعاً

فـــي ماصـــح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا لابن عباس وضرب على صدره وقال:

"اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ".

وتخصيص إبن عباس بهذه الدعوة يدل على مطلوب النبي صلى الله عليه وســـلم. لشئ متفرد، وخصلة خاصة بابن عباس، ولو أن علم الدين جميعاً ماهو إلا راويـــة ونقل، لعلمه إبن عباس، وغيره من الصحابة، وكلهم على ماتعلم من الحفظ ويقظة القلب وسمو النفس، ولكن تميز إبن عباس عن غيره من الصحابة بهـــذه الدعوة دال على أن التأويل المذكور هو شئ وراء مجرد النقل، وأنه أمر

يأتي من الله عز وجل، وبتوفيق منه عز وجل لمن أراد بهم خيرا عظيما، فالفقه في دين الله، وتأويل آيات الله بهذا، هي أمور من أعظم ما أراد الشارع، وقد هيأ الله من يقوم بها.

وأنـــت ترى إستجابة هذه الدعوة في واقع الأمر، إذ كان إ بن عباس يذكر فـــي تفسير القرآن مافتح الله به عليه مما لا يعرفه كثير من الصحابة، ومما لم يســمعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكان مطابقا لما ذهبنا اليه سواء بنص دعـــوة النبـــي صلى الله عليه وسلم أو بتحققها واقعا، فكان تفسيرا واقعيا لمراد النبي صلى الله عليه وسلم من دعوته لإبن عباس رضي الله عنه.

خامساً

تـــؤكده حادثـــة ظاهـــرة وقف عليها كل أهل العلم في تفسير سورة من سور القرآن العظيم وهي سورة الفتح، فيما روي عن إبن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

"كـــان عمـــر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تـــدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر: ماتقولون في قوله تعالى:(إذا جاء نصـــر الله والفتح) فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينـــا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا. قال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس، فقلت: لا، قـــال: فما تقول ؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلمه له: قـــال: إذا جاء نصر الله والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابا، فقال عمر: ماأعلم منها الا ماتقول " رواه البخاري.

وهي مسألة في عين الموضوع إذ هي خاصة بتفسير آية من كتاب الله عز وجل، وليس لها مأثور يجمع عليه الصحابة، بدليل سؤال عمر لمشايخ بدر عن

تفسيرها، وها أنت ترى أنهم إنقسموا على ثلاثة مذاهب: فمنهم المذهب الاول الآخذ بظاهر النص دون تأويل، وهو أمر المسلمين بالحمد والاستغفار، وهو منطوق الآية دون تغيير، والمذهب الثاني: هو السكوت وعدم القول في القرآن تورعا، والمذهب الثالث: هو التأويل بتفسير إبن عباس للسورة تفسيرا لاوجود له في ألفاظها، كذا هو غير مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلا لزم الجميع المذهب الواحد وهو إتباع تفسير النبي صلى الله عليه وسلم، فكان هذا هو الإجتهاد والتدبر وإستنباط النكات البليغة من الآيات الكثيرة التي تمر على المئات والآلاف فلا يدركون منها مايدركه إبن عباس.

والرواية مؤكدة أن ذلك هو مذهب عمر بن الخطاب أيضا، إذ قال أنه لا يعلم منها إلا ما يعلم إبن عباس. فواعجبا لمن أراد أن يلزم مذاهب الصحابة الثلاثة على مذهب واحد موافق لمذهبه.

ثانيا: أن ينكر هذه الوقائع الصريحة والتي تقبلها أصحاب النبي بالقبول والإنشراح، ولولا ذلك لما سكت أشياخ بدر على تأويل ابن عباس وعمر، ولعارضوا من باب أولى لو رأوا منكرا، ولم لا؟ وهم الذين عارضوا عمر في وجود إبن عباس بينهم أصلا، ولا شك أنها أخف على دينهم وتقواهم من تحمل مخالفة السنة في تفسير القرآن، فلما لم يعترضوا على تأويل إبن عباس علم إجماعهم على التأويل بالدراية مذهبا اسلاميا صحابيا رشيدا، ولا ينافي هذا ماذهب اليه بعضهم من التفسير على اللفظ أو السكوت، فلا منافاة بين سكوت الصحابي وإقراره لصحابي آخر إذا تأول القرآن وفسره، وهو ظاهر جدا فاعرفه.

سادساً:

يؤكده ما أوردنا عن على رضى الله عنه أنه قال:

"لو شئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير أم الكتاب لفعلت ".

وقــوله ذلــك والصــحابة متوافرون سامعون يدلك على تلقي هذا المنحي بالقبول والتسليم من الصحابة، وعدم غرابته عليهم وإلا لأنكروا ذلك أشد النكير، ولو فعلوا لعلم ذلك عنهم وذاعت به أخبارهم. ألا ترى أنهم عارضوا أبا بكر في حــروب الــردة فعلم ذلك وتواتر عنهم قبل رجوعهم عنه، وعارضوا عمرفي مسألة الخراج وكذا عثمان، فلما لم يعارضوا عليا في تبحره في تفسير كتاب الله بمــا لا يعرفون أنه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمع، دل على وقــوفهم مذهبا واحدا يجيز هذا في كتاب الله، اذ لم يكونوا ممن يسكت رغبة أو رهبة عليهم رضوان الله.

فســكوتهم بأجمعهم، مع تأويلات الكثير منهم كما أوردنا يرسو بك على شاطئ آمن، وفي ظل وريف

واعلــم أنــنا لا نريد بإيراد هذه الحجج المتتابعة من الأثر والنظر إبطال قول من قال بالتفسير بالرواية ولا يتجاوزه، فهذا لا يقول به مسلم، إذ هو حافظ لتفســير النبــي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، ولكننا نقول أنه - مع الرجوع إلي المأثور والوقوف عليه بغاية الإعتبار والإتباع والالتزام - يمكن مع تتابع الحوادث وجدة الأمور القول بالدراية الخاصة بعلماء كل عصر، وبما فتح الله به عليهم من فهوم وفتوح ماداموا قد إستوفوا الشروط الشرعية قبل الدخول علــى القــرآن لا بــرأي سابق لهم، أما فى التفسير الموضوعى فإن القائل بأن

المفسر الموضوعى داخل إلى الكتاب بالرأى السابق فهو مناف للحقيقة ذلك أن المفسر الموضوعى إنما يدخل إلى الكتاب بسؤال مسبق ـ لا برأى مسبق ـ فى مسألة بعينها هى موضوع التفسير يريد معرفة الحكم فيها من كتاب الله تعالى من غير تقرير ذلك الحكم مسبقا، والفرق بينهما ظاهر جدا فتأمله، وهو الفرق بين سؤال السائل وجواب المفتى، فسائل السؤال عالم بما يسأل عنه مسبقاً، غير أنه يبحث فى دأب بين ثنايا الكتاب عن العلاج لمسألته بما يقرره الكتاب لا بما يقرره الباحث، وأما حكم الكتاب فيتوصل له الباحث الموضوعى بما يتيسر له من الوقوف على التفسير بحسب ماتؤدي إليه المقدمات المشروعة والمعتبرة.

هذا ماقصدناه، فإذا عرفته إطمأنت له نفسك واستقر على حياضه فؤادك، وعلمت أنه النفع الأكبر من هذا الكتاب المتتابع الآيات والمتضافر البينات.

سابعاً

أنه لو وقف المتأخرون عن أي قول في كتاب الله، لتعطل باب الإجتهاد بالكلية وتعطلت بذلك الأحكام، وحار الناس في أمور شرائعهم، وصاروا إلى هرج عظيم، ذلك أن من التزم التفسير بالرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط دون إجتهاد، إنما يلزمه إستحضار تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لكل آية في كتاب الله تعالى، وهو لم يحدث ولم يقل به أحد، وإلا لتوفر العلماء على جمعه وتحقيقه، وإعتباره التفسير الأكمل والأعظم لكتاب الله تعالى، ألا وهو تفسير النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا مالا يعلم في تاريخ المسلمين، وغاية مافي الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر عددا من الآيات في

مختلف المناسبات وترك البقية من كتاب الله لإجتهاد المسلمين من بعده، وهو معلوم من سيرته صلى الله عليه وسلم، وكراهيته لكثرة السؤال فيما لا طائل وراءه، وكذا تحذير القرآن غير مرة من كثرة السؤال كي يبقى القرآن على عمومه وإجماله يتسع لأجيال المسلمين جيلا بعد جيل. ولو سأل كل صحابي سؤالا عن آية وجاوبه النبي صلى الله عليه وسلم بالجواب لكان ملزما للمسلمين إلى قيام الساعة، ولكان في ذلك من الحرج والضيق مالا يعلمه إلا الله تعالى.

ووجه الاستدلال هاهنا على مشروعية منهج التفسير الموضوعي بجمع متفرقات الآيات فى سائر الموضوعات، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفسر كل آية فكيف يكون الإلتزام في كل آية بقول الرسول صلى الله عليه وسلم مع إنعدامه في كثير من الآيات، فإما أن تبقى الآيات التي لم يرد بها نص دون دون تفسير أو فهم، فيتعطل الإجتهاد مع ما فيه من مصلحة هائلة للمسلمين، وإما أن يقدم العلماء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إليها برد مجملها إلى بينها ومتشابهها إلى محكمها، وفروعها إلى أصولها، واستخلاص الأحكام، وجمع النظائر من الآيات إلى نظائرها على طرق شتى ومن بينها طريقة المنهج الموضوعى فى التفسير والخروج منها بأعظم الفوائد، وإثراء القلوب والعلوم والعقول بما فتح الله عز وجل، فهم السادة الذين جعلهم الله أولى أمر المسلمين بنص الآية، وقد أجمع أهل العلم أنهم (العلماء)، وقد بينا الأمر بما تنقشع به الغشاوة وترتفع به الجهالة ويرسو الجميع على الصراط المستقيم.

ثامناً

إن قصد الشارع إلى الإجتهاد في الدين بعد استفراغ وسائله الشرعية

ظاهـــر لايخفى، وأمثله ذلك أعظم من أن تحصى، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم سمح بالاجتهاد في حياته، والقول بالرأي مع وجود النص الحمال للوجوه، ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يغضب، بل كان في أمثال هذه القضايا أقرب إلى الرضى التام والاطمئنان على فقه الصحابة، ولعل حادث بني قريظة والذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة)، وكيف إجتهد الصحابة والنبي صلى الله عليه وســلم بــين ظهــرانيهم، إذ عدوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قابل للاحــتمال، فمنهم من صلى العصر بمجرد الأذان قبل الوصول إلى بني قريظة وأولــوا حــديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على لزوم الاجتهاد والإسراع للوصـــول إلى بني قريظة بكل جهد وهمة، ووقف الآخرون عند ظاهر الحديث فأجلــوا صلاة العصر حتى يصلوها في بني قريظة بعد الوصول كما نص على ذلك الحديث.

وعلـــم النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر على هؤلاء ولا هؤلاء، وهو تقريـــر من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حدث من الفريقين وإعتباره أن كلا الاجتهادين صحيح، وهذا في حياته صلى الله عليه وسلم، وهو قادر على أن يجعلهـــا مذهـــبا واحدا فاصلا بكلمة منه صلى الله عليه وسلم يخضع له القريب والبعـــيد، والحاضر والغائب، فلما لم يفعل، علمنا أن قصد الشارع هو التوسعة وإفســـاح مجـــال الاجـــتهاد بالدراية والعلم والرأي بما يتسع له كتاب الله وسنة رســـوله إلـــى قـــيام الساعة، حتى لا يعدم الخير ولا ينقطع الوحي ولا تنقضي الآيات والمعجزات.

تاسعاً

إن الأصـــل فـــي الاسلام هو التوسعة. والعنت هو الوقوف على الحرف. وأعظـــم دليل علي ذلك ماورد في سورة البقرة، وفي قصة البقرة نفسها، فأنت تـــرى أن الأمر الإلهي الأول قائم على التيسير والسعة وإفساح الفرصة، بقوله: (إن الله يأمـــركم أن تذبحـــوا بقرة)، والبقرة هاهنا نكرة أي أن المطلوب شرعا مايصـــح عليه اسم (بقرة) بيضاء أو صفراء أو عرجاء أو جلحاء، ولو إختلف الناس في البقرة المقصودة على مائة مذهب لأجزأتهم جميعا، ولكان الاجتهاد في لونها وجنسها وأرضها وطعامها ولحمها وشحمها كله من باب المشروع الذي لا تثريب عليه.

ولكـــن بنـــي إسرائيل جاءوا بالفاقرة التي كان الله قد أراحهم منها، وهي إختزال الأمور إلى مذهب واحد ضيقٍ حرج بنص واحد، ظاهره هو باطنه وحده هـــو مطلعـــه، وكلمـــة لافكاك منها ولا مهرب، فجاءهم المذهب الحرفي الذي يريدون، ولا تسل عن قدر الحرج الذي أصابهم، فإنهم جابوا الأرض جميعا بحثا عن الثمرة المرة لتعنتهم وتنطعهم، (فذبحوها وماكادوا يفعلون).

وبالـــرجوع إلـــى ســـياق القـــرآن تعرف المذهب الإسلامي من المذهب الإســـرائيلي، وطـــريقة القرآن العظيم ويسره وسماحته وسعته من طريقة قتلة الأنبياء والمرسلين وعنتهم ووقوفهم على الحرف حتى ماتوا به، وأماتوا غيرهم، وباتوا في ضلال مبين.

والقصد مما ذكرنا توجيه نظر القارئ إلى أن الاجتهاد مع استيفاء شروطه هـــو خاصية من خصائص هذا الدين بها تفرد على غيره، وعن طريقها إستمده

قوته وديمومته، إنه ليس أمرا مستحبا أو واجبا فحسب، بل هو يجري من أركان هذا الدين مجرى الدماء من العروق. ومن عرف المقاصد عرف ما أردنا بيانه فالزمه.

عاشرا

إن ما أوردناه إجمالا قد جاء تصريحا في أقوال كثير من الصحابة مثل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:"إنما أخاف عليكم رجلين. رجلا يتأول القرآن على غير تأويله، ورجلا ينافس الملك على أخيه "

وقوله رضي الله عنه:"ماأخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق تبين فسقه، ولكني أخاف عليها رجلا قد قرأ حتى أزلقه بلسانه ثم تأويله على غير تأويله "(١).

ووجه الاستدلال هو خوف هذا الصحابي الجليل من صنف من الناس يتأولون القرآن على غير تأويله، وفيه أن للقرآن تأويلا صحيحا وتأويلا غير ذلك، والخوف ليس من التأويل مطلقا، ولكنه من ذاك الصنف من التأويل الذي لا يطابق التأويل الصحيح، ولو كان المقصود هاهنا بالتأويل هو التفسير المأثور لما كان للخوف معنى، إذ من تجرأ على القول بما يخالف ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم عنه لا يعد متأولا، بل هو فاسق ظاهر الفسق، لأنه يخالف ماعلمه الناس جميعا من تفسير رسول الله، فدل ذلك الخوف على أنه صنف يدس السم في العسل بحيث من خفائه يصير مخيفا، وهو الدخول إلى كتاب الله بذلاقة اللسان فقط، ومن غير الاحتياط والشروط، فيأول القرآن على

(١) مناهل العرفان - الزرقاني - الجزء الأول - صـ٥٢٧ (مصدر سابق)

غيـــر مقدمـــة شرعية، وهو ما حدث فعليا فى التفاسير المنحرفة قديما كتفاسير المبتدعة وحديثا كتفاسير العلمانيين والملاحدة ولى أعناق الآيات للمذاهب الهدامة الوافدة فضلوا وأضلوا، ومن هنا يقع الخوف من الصالحين على الأمة منهم.

وهو صريح في قول إبن مسعود رضي الله عنه حين قال:"ستجدون أقواما يدعـــونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع وإياكم والتقطع ".

قال في مناهل العرفان[1]:

(فكل هذا محمول على مالم يوافق تفسيره الأدلة الشرعية ولا قواعد اللغة العـــربية، ولا يخفى أن القول في القرآن بالرأي مغناه أن الله أراد بكلامه كذا، وهذا أمر له خطره الخطير ومسئوليته الجسيمة، نسأل الله تعالى السلامة ".

أي لابد من أخذ الشروط اللازمة قبل القول، لضمان السلامة، ويؤكده قول إبن مسعود: (فعليكم بالعلم) إذ هو الدواء الناجع من طرح الكتب وراء الظهور، ومن التبدع ومن التقطع.

حادي عشر

إن الصـــحابة عليهم رضوان الله قد تناولوا بعضا من الآيات في التفسير، ولم يكن فيها رأيهم موحدا، بل حدث خلاف بينهم في تفسير الآية الواحدة، ولو أنهـــم تلقـــوا تفســـيرا لها عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان رأيهم موحدا بما ســـمعوه عـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أنهم فهموه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تصريحه صلى الله عليه وسلم لما اختلفوا أيضا.

---

(١) المصدر السابق – الجزء الاول – صـــ٥٢٧

فدل ذلك على أنهم إجتهدوا برأيهم فيما لم يسمعوه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما داموا قد فعلوا فقد أقروا ذلك المذهب، ونهجواعليه فلا مجال لرفض مذهـــبهم الرشيد، والتحجر على مالم يأت به أثارة من علم ولا عليه دليل بإلزام كل أحد إلى يوم القيامة بالمأثور الذي ربما لم يوجد، وإن وجد فله إحتمالاته كما قد علمت.

ثاني عشر

إن تشديد النكير على من قال في القرآن بإجتهاده ودراية عصره ومن بينه التفسير الحديث كالتفسير الموضوعى بدعوى القول على الله بغير علم أو شرود بعض من قالوا في القرآن بما يرون، مثل بعض التفاسير الموضوعية الإلحادية أو المنحـــرفة وســـواء لجهالـــة القائمين بها أو للأهواء والشبهات التى لابست تفاسيرهم وفيها الشطحات وغير ذلك، أو بعض التفاسيرالموضوعية العقلية التي لا تلتـــزم بقـــواعد ولا شروط. نقول إن هذا لا يؤدي بالدعوى إلى مرادها، إذ مانحن عليه هو القول بالتفسير الموضوعى مع عدم إغفال الرواية هذا أولا. أما ثانـــيا: فـــلا قول بالرأي فيه إلا بعد استفراغ الشروط المطلوبة للمفسر والعلوم اللازمة لذلك كما هو وارد في فصول بأكملها فى مظانه من كتب التفسير وعلوم القرآن.

ووجود الشواذ الخارجين عن القواعد والشروط حادث فى كل علم شرعى ولـــم يقل أحد سلفا أو خلفا بإبطال العلوم الشرعية نتيجة لذلك بل شمر جند الله تعالـــى من طلبة العلم وعلماء الأمة لتنقية الشرائع العظام وكشف زيف الزائفين وتدلـــيس المدلسين وفضح الأدعياء والجهلة والمفترين. ومن ذلك أن كثيرا من

تفاسير المأثور قد عجت بالإسرائيليات المنسوبات إلى النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، ومن طالع هذه التفاسير يرى من الغرائب والعجائب والأكاذيب الهائلة، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وقد أقر العلماء أنها جميعا من الإسرائيليات المدسوسة على كتاب الله، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى الصحابة، وعلى التابعين، ولم يقل أحد سواء أهل التفسير بالدراية ولا من أهل التفسير بالرواية أنه لا بد من إبطال العمل بالمأثور الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة، ولهذا قامت طائفة من فطاحل العلماء بتنقية المأثور مما داخله من إسرائيليات فقرت عيون الصالحين، وهجعت قلوب المفسرين. والمقصود أن التفسير كله سواء بالرواية أو بالدراية عرضة للغث والسمين، وأن علاج هذه المعضلة ليس بإلغاء علم التفسير من أساسه، بل بتنقية التفاسير مما خرج عن الشروط المشروعة، واعتماد كل ماصح عن النبي صلى الله عليه وسلم وسواء المرويات عنه صلى الله عليه وسلم في التفسير، أو المأثور عنه في الأصول والمناهج التفسيرية التي بينها أو دعا إليها أو أقرها لأصحابه وأمته، ومنها التفسير بالرأي والدراية ومن فروعه التفسير الموضوعى الذى يجمع بين الرواية والدراية فى كثير من حلقات مناهجه كما قد تبين لك من الأدلة التي سردناها، فراجعه فهو نفيس جدا

*****

الأدلة باعتبار

التفسير بعموم اللفظ لا خصوص السبب

إن العمـــل بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو مذهب جمهور المفسرين وعلمـــاء الأصول، وهو الذي تضافرت عليه الأدلة الصحيحة أثرا ونظرا، وهو الذي ينسجم مع المقاصد السامية لهذا الشرع القويم، وهو الذي يعبر أعظم تعبير عـــن الخصائص المتفردة الدائمة لهذا الدين، ولا عبرة بمخالفة القلة من العلماء لهـــذا الأمـــر الظاهر وقد أوردوا من الشبهات والأدلة ما لا يصلح ولا ينهض للإستدلال.

ووجه الإستدلال أن العبرة بعموم اللفظ تفتح آفاق الإجتهاد والتفسير بحسب درايـــة كـــل عصر جيلا بعد جيل، فتظهر الآيات المتتابعات لكتاب الله إلى قيام الســـاعة، ومـــن ذلك تلك الآية الباهرة حول مسائل التفسير الموضوعى والتي تـــراها بكل ظهور وسطوع في العمومات الفسيحة لكتاب الله فضلا على النص علـــيها صـــراحة في مواضع أخرى، وأدلتنا على أن العبرة في كتاب الله وسنة النبي صلى الله هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، هي من العموم والتشعب بمـــا يضـــيق بهـــا هذا المقام، غير أننا سنكتفي ببعض منها وهو قاطع جلي لا يختلف فيه، وفيه الدلالة الظاهرة على مالم نذكر، والله المستعان.

الدليل الأول

هـــو إجماع العلماء على أن الحجة اللازمة في حق كل مسلم هو قول الله

تعالى وقول النبي صلى الله عليه وسلم، وليس هناك قول هو حجة في ذاته غير ماذكـر لا قـول عالم ولا عامي، والذين اعتبروا خصوص السبب مقدما على عموم اللفظ قد وهموا من حيث مقارنة قول البشر بقول الله تعالى، إذ اللفظ العام هـو اللفـظ الـوارد في كتاب الله، وهو كلام الله الحجة الملزمة على كل بشر، والسـبب الخاص هومتعلق بسؤال الصحابي وهو كلام بشر لا حجة فيه شرعية فـي حق مسلم، فكيف نجعل الكلام البشري الذي لا حجة فيه متحكما في الكلام الإلهي بالتخصيص، مع أنه هو الحجة المعتبرة البالغة.

فـإذا عـرفت هـذا تبين لك أنه إذا جاء اللفظ القرآني عاما وجب إعتبار عمـومه دون النظر إلى سبب نزوله، وماذاك إلا لأن السبب متعلق بالبشر وهم الـذين لا حجة في أقوالهم وتصير الحجة في ما جاء به القرآن، فإذا كان لفظا عاما، إعتمد عمومه، وصارت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الدليل الثاني

إن مقتضى الحكمة ربما جاوز بالإجابة سؤال السائل إلى ما ينفعه ويصلحه فـي الموضوع، وعدم الاقتصار على مضمون سؤال السائل، وهذا شأن الحكيم الخبيـر، والمثل الظاهر في ذلك هو ماجاء في كتاب الله تعالى بقوله: "يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فلله والوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل "

وظاهـر الـنص أنهم يسألونك عن ماهية ماينفقون، بمعنى أي جزء من الأمـوال والمـتاع يجب عليهم أداؤه، والاجابة المتوقعة في مثل ذلك هي: إن عليكم إن تنفقوا من أموالكم قدر كذا ومن ذهبكم وفضتكم قدر كذا، لتكون الإجابة

مطابقة للسؤال، ولكن القرآن سرد المواطن التي يجب الانفاق فيها دون التعرض لموضوع السؤال فقال: إن الانفاق للوالدين وللأقربين ولليتامى وللمساكين، بينما السائل لم يقصد هذا، والاجابة المختصرة جدا حول الماهية في قوله تعالى: "من خيـــر " لا تشـــبع رغبة السائل ولا تفصل له شيئا، وهو دليل واضح على عدم إعتـــبار الشارع سبب النزول، بل الأهم هو مصلحة المشرع لهم حتى لو كانت الاجابة غير مطابقة للسؤال كما ظهر لك من المثال السابق.

ولا شك أن المنفق عليهم في هذا الموطن أهم من ماهية المنفق منه، كيف وبـــه يلتـــئم شـــمل جماعة المسلمين، وتعم المواساة، وتتأصل الروابط، ويحيا المعدمـــون، ويفـــرح ا لمحزونون، وكلها منافع ومقاصد شرعية راسخة عامة سابغة، وإذا كان الأمر على مابينا ظهر عدم التقيد بخصوص السبب خلافا لمن قال به، فضيق واسعا وحجر فسيحا، وجاء بما لا يعتد به أو يسمع له.

الدليل الثالث

إن المشرع لا يتقيد بالسبب الذي من أجله يأتي التشريع، بل يعتبر عوامل ضـــعف السائل وعدم إحاطته بما يصلحه، فجيب بما يؤدي إلى دفع الضرر عن المكلفين، وإن هم لم يسألوا عن ذلك سؤالا عاما شاملا. ومثاله: الذين جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن ماء البحر هل يجوز الوضوء منه أم لا ؟ فأجـــاب النبي فيما صح عنه صلى الله عليه وسلم:"هو الطهور ماؤه الحل ميتته".

فالســـائل هاهـــنا يسأل عن طهارة ماءالبحر، وصلاحيته للوضوء، والنبي صـــلى الله عليه وسلم يجيب في ذلك ويضيف إليه طعام البحر، لعلمه صلى الله

علـيه وسلم أن الراكب في البحر لا يحتاج للوضوء فقط، بل للطعام والشراب وغيـرها مـن لوازم حياته، غير أن السائل مع غياب وعيه بما يصلحة كاملا إجتـزأ في سؤاله، فلم يعتبر الشارع خصوص هذا السبب، وأتى بالفتوى العامة التـي تصـلح السـائل وغيره إلى قيام الساعة، ومنه إعتبره الأصوليون أصلا أصـيلا في وجوب إجابة المفتي بما يزيد على حاجة المستفتي من السؤال مادام يعرف أن ذلك يصلحه في الدين والدنيا. والحاصل مما أوردنا أن إجابة الشارع بغيـر المطابقة التامة لخصوص السبب يدلك بما لامرية فيه على إعتباره لعموم ألفاظه لا لخصوص الأسباب، ولو كان الأمر متعلقا بخصوص الأسباب للزمت الإجابة على السائل حذو القذة بالقذة لا تزيد ولا تنقص، وهو بين فاعرفه.

الدليل الرابع

إن كثيـرا من الآيات والأحاديث قد شرعت للمسلمين ووعظتهم وأرشدتهم دون وجـود سـبب رأسا، فهي منة من الله تتنزل ورحمة للناس، بل إن النبي صـلى الله عليه وسلم أرسل للناس رحمة من غير سؤال سائل ولا بحث باحث، وأمثله الآيات والأحاديث التي جاءت لحكمة يعلمها الله، ورحمة يهديها أكثر من أن تحصى، وكل من وقف على أسباب النزول يدرك أنها قد إختصت بعدد يسير مـن الآيات. وقد وقف عليها المفسرون آية آية وعلموا أنها لا تختص بكل آية، هذا فضلا عن الأحاديث في ذات الشأن، فظهر من ذلك عدم تقيد الشارع بسبب أصلا إذا ما ظهرت المصلحة الشرعية، فإن الآيات تتنزل والأحاديث تظهر من غيـر سؤال سائل ولا خصوصية حادثة، وهو مؤكد لما بينا من أن إعتبار لفظ الشـارع العـام هـو الأصل الأصيل والعمد المتين والحجة الملزمة، ولا عبرة بسبب أو واقعة أوسؤال أو خلافه.

جاء في مناهل العرفان: [1]

يمكن أن تنظم منه قياساً إستثنائياً تقريره:

لو لم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاص معتبراً عمومه، لما كان لفظ الشارع وحده هو الحجة، لكن التالي باطل، فبطل ما أدى إليه وهو المقدم، وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام الوارد على سبب خاص يعتبر عمومه وهذا هوا المطلوب "

الدليل الخامس

في مسألة الحقيقة والمجاز وهي مسألة قتلها الأصوليون بحثا، وانتهوا إلى أن الأصل في الألفاظ الشرعية هو حملهاعلى معانيها المتبادرة إلى الأذهان عند إطلاقها، فاللفظ العام لا يمكن اعتباره مصروفا عن عمومه لغير قرينة دالة على ذلك، والشارع قد أورده عاما والمكلف يرتل القرآن بألفاظه العامة، ولا دراية له بخصوص أسبابها، فهاهناعدمت القرينة في السياق والتي تدل على صرفه عن معناه المتبارد. فإن قيل: فخصوص السبب هو قرينة صارفة، فاالجواب أن اللفظ العام من حيث هو لفظ لا يمنع غير السبب عن الدخول في عمومه، فبقى هكذا على دلالته العامة، وبه يسقط الاستدلال بخصوص السبب كقرينة صارفة عن العموم. [2]

---

(١) مناهل العرفان - الزرقاني -الجزء الأول - صـ ١٢١ (مصدر سابق)

(٢) يراجع كتاب: إرشاد الفحول - الشوكاني - باب الحقيقة والمجاز - صـ٢٢،٢١.

الدليل السادس

إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذلك المجتهدين من الفقهاء ومن الأصوليين، كلهم قد أنزلوا النصوص العامة، وإستيعابها لكل ما من شأنه الدخول في عموماتها، ورغم علمهم بأسباب النزول وأسباب النص، فلم يراعوا ذلك عند تخريج القواعد الأصولية الكلية، أو الأحكام النازلة على كل من ينطبق عليه عموم اللفظ، دون حاجة منهم إلى قياس أو قرينة أو غير ذلك من وسائل الإستنباط، بل إعتبروا النص العام هو دليل بنفسه دون حاجة لغيره، فأعملوا آية قطع السارق في كل سارق دون النظر إلى سببها، وآية الرجم في كل زان محصن دون القياس على السبب، وغيره كثيرا جدا بحيث أصبح كالمعلوم بينهم بالإضطرار. فان تعجب فعجب قولهم بتعليق الحكم الشرعي الباقي إلى قيام الساعة وتقييده بالسبب الخاص الذي تسبب عنه التشريع وهو مالا يقول به من له أدنى دراية بسيرة الفقهاء والمجتهدين والأصوليين.

جاء في مناهل العرفان: (١)

"عموم اللفظ الوارد على سبب خاص قد اعتبره الصحابة والمجتهدون، وكل ما كان كذلك فهو المعتبر، فعموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر، فلو لم يكن عموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر لما إعتبره الصحابة والمجتهدون، لكن التالي باطل فبطل المقدم وثبت نقيضه وهو المطلوب"

---

(١) مناهل العرفان – الزرقاني – الجزء الأول – صـ ١٢٢

الدليل السابع

فـــي مجاوبـــة من قال بانعقاد الاجماع على عدم جواز إخراج السبب من العموم،.وحتى يتم ذلك فلابد من إعتبار السبب أولا قبل عموم اللفظ العام، وهو صـــحيح، ولا مـــنافاة بين ذلك وبين دخول غير السبب في عمومه طالما شمله اللفـــظ العام بناء على الأدلة الأخرى المتتابعة التي أوردناها، فبهذا يصح إعمال الإجمـــاع والأدلة الأخرى. وهو جواب قائم على إبطال التلازم بين إمتياز أفراد السبب في عدم الخروج عن النص العام، وبين إشتمال النص العام على غيرهم ممـــن يشملهم اللفظ، وبالتالي يتساوى الجميع دخولا في النص العام، أي السبب وغيـــره ممن يشملهم اللفظ العام ولا يتساوى الجميع خروجا، فلا يمكن إخراج أفراد السبب بحسب الإجماع، وأيضا يمكن إدخال غيرهم بحسب الأدلة المذكورة حول العبرة بعموم اللفظ.

الدليل الثامن

جـــواباً علـــى مـــن قال أن الرواة وأصحاب الأسانيد قد انشغلوا وصنفوا المصـــنفات فـــي أسباب النزول، ولو لم تكن العبرة بخصوص السبب لما كان لجهـــدهم معنى، فنحن نقول أنه لا تلازم بين جمع أسباب النزول وبين إعتبارها مقدمة على عمومات الألفاظ، أما أن يقوم نفر من الأمة بجمع المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، وخاصة أسباب النزول، فلها من الفوائد الجمة، والمنافع العميمة.

فمنها الإعانة على فهم الآية وفهم حكمها ومعرفة ملابساتها، ومعرفة من نـــزلت فـــيه حتى لا يتهم برئ ولا يبرأ متهم، وتيسر الحفظ والفهم لمن أدرك

السبب في نزول الآيات، كذا هو دليل على حفظ هذه الأمة لدينها وحدبها على حمايته وغير ذلك من المنافع والأسباب، ولا يلزم من ذلك إعتبار جهدهم للجمع بقصد إعتبارها مقدمة على عمومات الألفاظ، وفرق بين إعتبار الواقعة مقدمة على عموم لفظ الآية، وبين ذكر الواقعة لإزالة إشكال في إحتمالات الألفاظ أو المعاني.

ولا شك أن سبب النزول عند النزاع يفصل كثيرا من المعضلات، ويرجح وجه الحق فيما يتنازع فيه، وبه ذكرت أسباب النزول في التفاسير،ونحن لا نقصد إلغاء فائدة السبب أصلا، فهذا لا يقول به كل من وقف على التفاسير والأحكام الفقهية، فالإستدلال عند النزاع بالسبب أكثر من أن يحاط به في كتب الأحكام والتفسير، ولكننا نقصد أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند شبهة التعارض فتدبره.

الدليل التاسع

جواباً على من قال أنه لو لم تكن العبرة بخصوص الأسباب لما أخر الشارع تنزيله وعلقه على السبب، وجوابه ظاهر فيما بينا من أن الشارع لم يؤخر بيانه موقوفا على سبب في كل حالة، ولو كان قولكم صحيحا لما نزلت آية أو حديث إلا ولها سبب، والحادث غير ذلك فبطل الاستدلال، هذا أولاً.

الثاني: لا ملازمة بين نزول النص على سبب وبين إعتبار السبب مخصص للنص ولو كان لفظه عاما، إذ يتسع الأمر أيضا لإعتبار السبب داخلا في العموم بما لا ينافي دخول غير السبب مما يشمله اللفظ العام، فثبت بهذين الدليلين بطلان الإحتجاج بهذا الدليل العقلي، بل العقل يمنع قصر الشريعة الباقية

إلى قيام الساعة وحصرها في حوادث معدودة لا تجاوزها ولا تدخل غيرها رغم عمومات الألفاظ العربية، ومعانيها المتبادرة إلى أذهان الناس، وصرفها عن هذا بدعوى إعتبار الحادثة الفريدة التي تنزلت بسببها.

الدليل العاشر

أمـــا في المثال اللغوي الذي أورده المانعون بأن المرء يحنث إذا أقسم ألا يتغدى عند واحد بعينه دعاه فقال: تغدى عندي. فقال المدعو: والله لا أتغدى، ثم تغـــدى عـــند غيره فإنه لا يحنث، نقول: نعم لا يحنث، وليس ذلك بسبب قصر العـــام على سببه بزعمكم ولكن لوجود القرينة على تخصيص العام هاهنا وهي العـــرف الساري بين الناس بأن الحالف هاهنا إنما يقصد ترك الطعام عند داعية فقط برغم أنه أقسم بلفظ عام، وليس هذا محل الخلاف، وإنما هو في اللفظ العام الـــذي لا تـــوجد له قرينة صارفة عن عمومه لا من شرع ولا من لغة ولا من عرف، وإعتباره مخصصا لمجرد السبب الذي نزل بسببه.

فثـــبت مـــن ذلـــك عدم مطابقة المثل لواقع الخلاف، وخروجه عن حدود النزاع، وتحقق به ما ذهبنا إليه مضافا إلى الأدلة السابقة.

الدليل الحادي عشر

فـــيمن قـــال أن مقتضى الحكمة والبلاغة المساواة بين السؤال والجواب، فكيف يمكن في كلام الشارع الحكيم طرح السؤال جانبا، والكلام في عمومات لا علاقة لها بالسؤال.

فـــنقول: إن الحكمة قائمة طالما أن الجواب قد إستوعب حاجة السائل ولم

يتجاهل أو يغفل أو ينصرف إلى غير موضوع السؤال، والذي عندنا هو أن اللفظ العام يستوعب ما يشتهي السائل تماما، ويزيد عليه بإضافة الآخرين الداخلين في عموم اللفظ، وهذا لا ينافي الأول وبه لا تنتفي الحكمة، بل ربما أن من مقتضى الحكمة توسيع دائرة المعرفة للسائل ممن يحرص على صالحه ويعرف حاله ومآله، بينما السائل مع قصور فهمه، وضعف طبعه، يسأل عما لا يحقق له نفعا ولا يدفع عنه ضرا، فكان أبلغ كلام وهو كلام أحكم الحاكمين، وبهذا الفهم للعلاقة بين السائل الجاهل الضعيف الغافل كل الغفلة عما ينفعه ومايضره، وبين كلام الرب الحكيم الخبير العليم بالحال والمآل وبالمتبدي والمنتهي، مايدعو بمقتضى الحكمة والبلاغة أن يسرد ما يزيد ومايعم وما يفيد السائل وغيره.

•••••

والحاصل أن كل من عرف طبيعة هذا الدين، والمقصد الأعظم من إرسال النبي للناس كافة إلى قيام الساعة، أدرك لزوم اعتبار عموم اللفظ لا خصوص السبب حتما، ولو أننا لم نستدل إلا بقوله تعالى:" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، وقوله تعالى: "إنا أرسلناك كافة للناس بشيرا ونذيرا" لكفى في إعتبار القرآن شاملا بعمومه هذه الأعداد التي لا تحصى من البشر أداء لواجب الرسالة، والتزاما بحجة البلاغ، وتحقيقا لوعد الله تعالى، وأداء لسبب إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة.

ولقد تبين الأمر بما يدفع أي شبهة ويزيل أي شائبة، وهو مذهب الجم الغفير الطيب الطاهر من علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، عليه تواطأوا وبه سلكوا وهم القوم لا يشقى جليسهم، والله تعالى أعلى وأعلم.

والـــذي أردناه من نصب هذه المناظرة هو علاقتها الوثيقة بموضوع بحثنا وهو التفسير الموضوعى، وإثبات مشروعيته، وتأصيل ذلك بالأثر والنظر، ولا يخفـــاك أن إعتبار عموم اللفظ شاهد للأحداث العظام إلى قيام الساعة وفى كافة جـــوانب الحـــياة البشرية، ويتسع لما يجد من موضوعات وآيات بينات إحتوتها عمومات الألفاظ، فلما تبينت بضم أطراف أدلتها فى كتاب الله تعالى عن طريق الســـبيل الموضوعى فى التفسير إنكشف نورها وبدا جلالها وكأنما أنزلت لأول مـــرة، لما أشرقت معاني الآيات ذات العموم في ألفاظها جيلا بعد جيل بظهور إعجازهـــا فيما اكتشف من مطابقة للآيات القرآنية المنزلة، كما سيأتي مستفيضا فى التطبيقات الموضوعية إن شاء الله تعالى.

*****

الجواب على شبهات المعارضين لمشروعية التفسير الموضوعى

ثلاثون دليلاً تأصيلياً عقلياً ونقلياً

على مشروعية التفسير الموضوعى بفروعه المختلفة

تمهيد

قد تبين مما تقدم أن التفسير الموضوعى لم يكن سوى حلقة من سلسة الجهود المضنية التي هب لها نفر من كبار العلماء في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي فترة فاصلة من تاريخ الإسلام، إذ الكفر شاكٍ كافة أسلحته الفكرية والعلمية والعقائدية والحضارية، وكان لا بد من قائم بالحجة وداعٍ إلى المحجة، وكان أمراً بدهيا أن ترجع الأمة إلى كتاب ربها تبحث في ألم عن المخرج من هذه الموجات العاتية من الفتن، وقد أدى بهم ذلك إلى إعمال غاية فكرهم وإجتهادهم بإعتبار أن هذا الكتاب طوق أمان، وملاذ للجموع الهائمة على وجوهها فلا تدري لها دربا ولا مرعي ولا ماءً. لقد كان تفسير القرآن بالطريقة المأثورة والمطولات والأسانيد والإختلافات - وإن كان تراثا مهيبا رفيعاًعالياً - إلا أنه كان بعيدا بلغته إلى قوم لعبت العجمة بألسنتهم، وبعيدا بعمقه البالغ على قوم عصفت رياح الشعارات الجوفاء،والدعاوى المتضاربة بأدمغتهم، وبعيدا بحجمه الضخم والذي يدل على بعد همة المتقدمين بما لا تحتمله العزائم الواهنة للذراري المتقاذفة الى أتون فتنة عمياء صماء تسحق ولا تبقي هناك باقياً.

لقد كان على علماء أمة محمد في هذه الحقبة المضطربة واجبا تنوء بحمله الجبال، إذ كان عليهم أن يسهروا على تفاسير السلف، سواء بالدراية أو الرواية،

وأن يجمعوا ما فيها بينما الحصار حولهم من كل جانب، كذا كان واجباً إسلاميا مقدسا أن يحيلوا هذا جميعه إلى لغة تفسير يحقق تواصل المسلمين مع كتاب ربهم في هذا المنعطف المر من تاريخ الإسلام، لقد كان على العلماء أن يحفروا في الصخر جسرا داميا تمر عليه الآيات إلى قلوب الأفواج المتعطشة إلى النجاة في غمرات بحر لجي من برق الكفر ورعده في حملة جبارة عاتية لم يشهد لها تاريخ الإسلام نظيرا.

لم يكن الظمأ إلى نور الإسلام بحالة تسمح لهم بالإنكباب السنوات الطوال على التفاسير الأولى بأحجامها وتشعيبها ودسامتها وغزارتها، فقد كانت تمثل حقيقة الاسلام في أزهى عصوره وأغناها علما ومعرفة وهداية وأمانا.

وهكذا وجدنا أمامنا مدرسة جديدة في تفسير القرآن خصص لها العلماء أبوابا منفردة في مصنفاتهم تحت عناوين "المدرسة الحديثة في التفسير "، وكلها تصب في معنى واحد هو جهود علماء العصر الحديث لتفسير القرآن – ذاك الغيث النازل – لجموع الزاحفين وسط الظلمات، الجهد الذي فرضته الطبيعة الصارمة القاسية لمرحلة من أشد مراحل الاسلام إيلاماً.

ولقد بدأت تظهر بين ثنايا أسفار علوم القرآن أسماء جديدة وهكذا كان مخاض "المدرسة التفسيرية الموضوعية الحديثة ".

لقد كان التفسير الموضوعى للقرآن العظيم واحدا من أقوى حلقات هذه المدرسة، وقد علمت الأمة الضرورة التي دعت إليه، غير أنه بز الكافة في إبرازه معجزة كبرى كانت كامنة في جنبات القرآن، وقف أمامها الكفر ذاهلا، ومن خلفها الاسلام من قاع محنته غازيا ومنتصرا وفاتحا.

لقــد بــدا الأمــر فوق الأسطورة، إذ تفجرت من ثنايا هذا الكتاب المعجز قضايا لم يكن أشد المؤمنين تشددا، ولا أشد الكافرين كفرا يخطر بباله أنها تمت له بصلة.

هذه الآيات المتدفقة العذبة، المذيبة لأشد القلوب قساوة وجموداً، كيف كانت تحمل هذا الحجم من المعرفة، وتسبح حول المجرات تحكي أسرارها، وتغوص في أعماق البحار لتشهد لباريها، وتتسلل بين ثنايا الذرات لتصدم عقولا أطغاها العلم وأفسدتها المعرفة.

كــل هــذا كان كامناً بين دفتي ذلك الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، حتى جائت اللحظة الحاسمة، بينما الجميع يتلفتون في يأس وإحباط بعدما عدم الإسلام كــل وســيلة للمقاومــة، وأعلن الكفر سيطرته الكاملة على مقاليد الأمور، فإذا بالمعجــزة المزلــزلة الصــاعقة تخرج فجأة لتعلن على رؤوس الأشهاد (أولم ينظــروا في ملكوت السماوات والأرض وأن عسى أن يكون قد إقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون)

إن الخــلاف الذي قام بين العلماء حول التفسير الموضوعى لم يكن خاصاً به فحسب، بل هو موجه حول المدرسة التفسيرية الحديثة بكاملها.

إننا إذ نقدم بهذه المقدمة هذا المبحث الذي نعرض فيه أدلة ذلك النفر من العلماء الذين فتحوا في جرأة هذا الطريق، ودافعوا عنه فومضت على أيديهم آية باهــرة بارقة بلغت أضواؤها الآفاق إنه الثمن الباهظ الذي على الرواد في كل علــم أن يــبذلوه بنفوس راضية، أولئك الذين قيضهم الله هداة مهديين، وورثهم المعجزة والبينة، يضربون بحر الكفر "فانفلق كل فرق كالطود العظيم ".

إنه القرآن الأعظم الذي تزول الراسيات ولا تبدل منه الكلمة، وتميد الجبال ولا تميد منه الكلمة.

وهـذا مختصـر جامـع للأدلـة والبراهين التي حشدها أنصار التفسير الموضـوعى للقـرآن الكـريم، مجمعة من ثنايا أقوالهم حيث كانت مرسلة في معـرض الإستشـهاد والمجادلة، كذا ما رأينا توضيحه وإضافته بما تتجلى به الحجة. هذا مع ماأوردناه لك سابقا وفى مواضعه من الأدلة البينة المستفيضة ، وهـا نحـن نـوردها بمـا يمكـن معه مزيد فهم للأصول الشرعية للتفسير الموضوعى دون غموض. وهي ثلاثون حجة بينة تكشف أية شبهة وتجلى كل غمة والله تعالى المستعان:

أولاً

أنـنا حين تأملنا آيات الكتاب العزيز وقفنا على أعداد كبيرة من الآيات التي تصـف، أو تحـض على النظر، أو تشرح إبتداء علوما وفنونا ومعارف اجتماعية وثقافية ونفسية وعلمية لم تكن معروفة للناس وقت نزوله، ثم سرعان مادار الزمان دورتـه وبـدأت العلـوم تتفـتح علـى ذات المجالات الفسيحة الكونية والنفسية والإجتماعـية وسـائر نواحى الحياة والتى شملت حياة الناس بأجمعها التي تصفها الآيـات، ووقعـت المطابقة بينهما في كثير من الأمور، حتى من غير إجتهاد إلى إيجادها، مما أثار إنتباه الكثرة، ومع تشعب العلوم كانت المفاجآت من الكثرة بحيث لا يمكن تجاهلها، وكانت المطابقات من الظهور بحيث يستحيل التغافل عنها.

فمـن زعم أن كل هذه الآيات الواصفة للكون والشارحة للإنسان والمتسقة عبـر القرآن جميعه فى تناول موضوعات كثيرة جدا فى كل ما يتعلق بالإنسان

حياة وموتا ومعادا كلما وقف الباحث عليها أدرك منها ولا محالة وجها متكاملا ذا ملامح محددة ورؤية متسقة منسجمة مع الموقف العقدى القرآنى وخاصة بعد اختـراع الحواسـيب والأدوات التى يسرت الوقوف السهل على هذه الملاحظة الباهـرة، نقـول من زعم أن هذه الأطراف المتناسقة فى كل مسالة عرض لها القرآن كلها جاءت دونما غاية ولا مبرر، فقد إتهم القرآن العظيم، لأن القول من غير غاية هو عبث يترفع عنه حكماء الناس، فكيف بكلام أحكم الحاكمين. فثبت بمـا بيـناه أن هـذا الحشـد المترامى من الآيات ذات الموضوعات المختلفة والمتفرقة بين ثنايا القرآن العظيم لم يأتي إلا لحكمة بالغة، وبإرادة قاصدة، وهي إثبات جديد يناسب العصر الجديد بأنه كتاب ممن عند الله تنزيل من حكيم حميد.

ثانياً

إنـنا بملاحظة سلوك أعداء الله وحدبهم ودأبهم على النيل من القرآن ومن نبي الإسلام، وخاصة ماورد عن المستشرقين وغيرهم حيث نسبوا للنبي أمورا هـي مـن محـض خيالهم، ومن لوثات عقولهم، وكذلك للقرآن العظيم، وهذا الحـرص علـى حـرب الله ورسوله يهيج الدواعي والفكر إلى البحث عن كل نقيصـة ممـا يؤدي إلى إختلاق الأكاذيب، فكيف لو وجدت واقعة واحدة تؤيد مذهـبهم الفاسد ومشربهم اللئيم، خاصة في عصر العلم الذي قام في ديار الكفر على أشلاء الدين هنالك، فلا شك أن سهام أرباب العلوم والحضارة كانت أقرب ما تكون إلى نحر الاسلام باعتباره دينا من جملة الأديان التي كفروا بها.

نقـول: رغـم توفـر الدواعي وتراكم الأحقاد وتكاتف المساعي، لم تثبت أية مناقضة معرفية صحيحة أو حقيقة علمية ثابتة لما جاء في مجالها في كتاب الله، ولو وجـدوها لملأوا الدنيا بها عجيجا، وأثبتوا من غير شك أنه كتاب مختلق على الله –

وحاشـــا لله - نظرا لمناقضته للمسلمات العلمية، ولو فعلوا لاشتهرت الحادثة الواحدة ولعرفها القاصي والداني، فلما لم تعرف دل ذلك على أنها لم توجد.

بـــل علـــى عكـــس ذلك دخل الكثير من علماء الكون والنفس والإقتصاد والإجـــتماع والـــتاريخ في الإسلام لما عرفوا هذا الأمر الجلل والحدث معجز، حـــيث طـــرح القـــرآن أعقد القضايا العلمية والإنسانية والتشريعية والعقدية في بســـاطة متناهية ودقة لا حدود لها، وقد أثبت بعض علمائهم ذلك جاهرا شاهرا مطـــبوعا منشورا، مثل الذي كتبه العالم الفرنسي الشهير (موريس بوكاي) في مطابقة القرآن لجماع العلوم الكونية، بل ولمز التوراة والأنجيل التي بين أيديهم لمـــزا مـــوجعا، وتجـــريحا ظاهرا، ولم ينهض واحد لمجاوبته أو للرد عليه أو الإنتصـــار لديانتهم، فكان السكون علامة الإقرار، ودليل العجز، لما في ذلك من إهانة لمعتقداتهم، وهدم لمقررات كتبهم.

والشـــاهد مـــن ذلـــك أن ظهور هذا المساجلات على أيدي الأجانب الذي لايمـــتون للاســـلام بصلة، وسكوت أصحاب التوراة والأنجيل من جانب آخر، وعجـــز الدائبـــين على لمز الاسلام بما ليس فيه من جانب ثالث، يجعل قضية موضـــوعية العلـــوم في كتاب الله تعالى على هذا القدر من الحضور، بحيث لا يمكن تغافلها أو الانتقاص من أهميتها، أو إدعاء الإفتعال أو التكلف في حق من أراد أن ينتصـــر لهـــا أو يجلي آياتها أو ينصبها حربة في وجه أعداء الاسلام، ومروجي الشائعات ضده.

ثالثاً

إن القول بأن القرآن كتاب أنزل لتعليم الناس تفاصيل الحرف المختلفة، أو تفريعات وأبواب العلوم الكونية والنفسية والإنسانية، وأنه يقصد إلى ذلك ويسعى إليه، هو قول لا يصدر عن عاقل.

فـنحن أول من يقر بأنه كتاب قصده الهداية والإرشاد، وأن ماجاء فيه من آيات كونية ونفسية إنما جاء بقصد شرعي رشيد هو التفكر والتدبر والإستدلال من دقة الصنعة على عظمة الصانع، كذا جاء بقصد إفحام أعداء الدين، وإبراز جانب المعجزة في الكتاب، وهي مقاصد جلية عالية كما ترى، وليس فيها ما يدل علـى أنه كتاب تدريب مهني أو تعليم وظيفي لأصحاب الميكانيكا أو الكيميا أو المراصد وغير ذلك.، فزعم أن هناك من يقول أن القرآن كتاب حرف ومهن هو زعم باطل، وليس هناك من يقول به، ولا من يتصدى للدفاع عنه، وذلك لظهور الأمر وعدم خفائه، إنما محل النزاع تحديدا هو: هل قصد القرآن بإيراده الآيات المعجـزة من أنه كتاب الله، وإلزام الكافرين الحجة عن طريق سبق هذه العلوم والإشـارات الباهـرة فـي مجـالات كانت البشرية غفلا عنها بأجمعها عربها وعجمها، حتى تفجرت العلوم في القرنين الأخيرين. هل قصد القرآن إثبات ذاته كآيـة عظمـى لله تعالى بهذا في حق هؤلاء أم لا ؟؟ فإن قلت: لا، لزمك إثبات العـبث للقـرآن- وهـو منتف عنه إتفاقا - إذ ورود القول لغير حاجة عبث، والحاصل هو عشرات الآيات الشارحة لدقائق كونية ونفسية واجتماعية ودعوية، فلـزم من ذلك الإقرار بأن هذه الآيات إنما وردت لحكمة، ولما أقررنا أنه كتاب هدايـة وإرشـاد، كانت الحكمة هي الهداية والإرشاد، ولا يمكن هداية الكافرين المطبقـين علـى الكفر وإرشادهم إلا بمعجزة تظل أعناقهم لها خاضعين، وهي الآيات الكونية وبدائع التفاصيل التشريعية والعقائدية والسياسية والإجتماعية التي تصدم عقولهم وعلومهم بسبقها وإحاطتها وهو المطلوب فتدبر.

رابعاً

إن من له أدنى دراية بطبيعة هذا الدين، خاصة فيما يتعلق بإطلاق العنان للفكر والتدبر والنظر، وأهم منه الدعوة الملحة للتدبر والتفكر في هذا القرآن نفسه ومقارنته بكلام البشر ليتبدى دون لأى أو جهد حجم الفارق بين كلام المخلوق وكلام الخالق وتسفر عن وجهها آلاف المعجزات فى سائر الموضوعات الأمر الذى كان خافيا قبل سنين قلائل أدرك أنها خاصية وميزة عظمى من مزايا الكتاب الأعظم، وكل من وقف على أقوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وجد عندهم العمى الكامل هو لازم الإيمان الكامل، كما ورد في شروحهم، بينما القرآن يدعو إلى النظر والبرهان والفكر والاستدلال، وبطرائق بليغة مشوقة وباعثة للهمم.ولا شك أن غاية كبرى تكمن وراء هذا النهر الدافق وهذه الأمواج المتدافعات، فإذا جاء من يضع الغمامة على عيون الكافة، ويمنع هذه الواسطة القدسية من بلوغ غايتها، وغنى عن البيان أنه لا يتم إلا بدراسة الكتاب كاملا دراسة موضوعية بل ومقارنته بغيره من الكتب البشرية فإنما حجر واسعا، وجهل المقاصد الكبرى لهذا الكتاب.بل وعطل أعظم ميزات هذا الدين والتي تعد بحق أكليل غار إذا قورنت بالكتب المزورة على الله تعالى، والتي بين يدي أهل الكتاب اليوم الذين خاضوا بحار دماء لا نهاية لها لمنع النظر والتفكر وإطلاق العقل من عقاله، بما هو معلوم لكل من له أدنى دراية بسيرة القوم وتاريخهم، والمقصود أن أسرار القرآن الكريم والدعوة للنظر فيها، وبلوغ منتهى الغاية من إعجازها مقصد قرآني خالف به مذاهب أهل الكتاب، فمن نفى عن القرآن هذا عن طريق رد المنهج التفكرى الموضوعى التفسيرى فى كتاب الله تعالى ألزمه مالزم أهل الكتاب من غاية الإنتقاد

والانـــتقاص، لمخالفتهم لظاهر الفطرة في إعمال التدبر والفكر والنظر، وحمله كافة التبعات المترتبة على ذلك بما لا يرضاه مسلم على دينه ولا على كتابه.

خامساً

أنـــه لا ينبغـــي لأي من المخلصين الحريصين على كتاب الله عز وجل، والباذلين لحمايته أغلى مايملكون أن يخشوا عليه، ولا يتوجسون من أولئك الذي يشـــنون الحملة عليه، وخاصة ممن ينتسبون إلى الاسلام بأسمائهم، وقلوبهم قد أشـــربت حـــب الغـــرب وطـــريقة الغرب ومنهج الغرب، ذلك أنهم لم يدرسوا الحضـــارة الغربية إلا بعدما جهلوا كل شئ عن دينهم جهلا مطبقا، فصاروا من ألد اعدائه من حيث لا يشعرون، فهجوم هؤلاء على الاسلام شريعة وعقيدة من جانـــب، وتجاهلـــه واحتقاره من جانب آخر، ليس راجعا لأي نقص في الإسلام بقـــدر ماهو راجع إلى غبائهم وسيرهم وراء الغرب الذي نصب المعركة حامية الوطيس بين الدين والحياة، الدين الذي تبرأ الله تعالى منه في عدد لا يحصي من الآيـــات في كتابه، الدين المكذوب المدخول المدلس على الله ظلما وزورا، الدين الجـــبار الأعمى الذي وضعه الأحبار والرهبان كأمثال الجبال على رقاب الناس ولم يرفعوه عن كواهلهم بأطراف الخناصر.

أي علاقة بين هذا الدين الذي أدى بعلماء الغرب إلى الكفر التام بكل ماهو سماوي أو منسوب الى الله، أي علاقة بينه وبين الاسلام الأسمى الذي نزل من عند الله صافيا عذبا طهورا لاشية ولا شائبة فيه ؟.

وأي خوف من المواجهة على هذا الكتاب الذي أنزله رافع السماء وواضع الأرض ومنشئ الجبال ومسير البحار. إننا نجزم بأن خوف هؤلاء من مدرسة التفسير الجديدة الموضوعية لا مبرر ولا سبب له، وليس هناك مايدعو إليه.

سادساً.

إنـــنا نقـــر ونجزم ونؤكد أن الحقائق الظاهرية الشرعية البادية من الآيات والأحاديـــث، والتي بينها لنا السلف الصالح، أثراً عن النبي صلى الله عليه وسلم والصـــحابة التابعـــين، هـــي مسلمة محفوظة لا يجوز تبديلها ولا تغييرها لأنها نصـــوص ومحكمات وقواعد يجب الإيمان بها، ذلك أن الكتاب عربي مبين مما يقتضـــي الظهور التام في معانيه، ومن أنكر المعنى الظاهر للنصوص الشرعية وســـواء متذرعا بالبحث الموضوعى أوغيره فكأنما كذب الله تعالى وإتهم فهم النبـــي العربي للقرآن العربي، فتحصيل فهم السلف ونقولهم للمعاني شرط لازم لافكـــاك عنه قبل أي نظر أو إجتهاد موضوعى أو حتى تحليلى للقرآن الكريم، ومن قال أن القرآن لا يقصد المعاني الظاهرة فهو ضال هالك تابع لشرار الخلق من الباطنية وأشباههم.

ونحـــن إذ نقول بالتفسير الموضوعى فعلى الأسس المذكورة، وفي حدود القواعد المقررة، ولا نزعم معنى باطنيا خافيا لم يعرفه الأولون والآخرون، بل الفهـــم الذي يؤتيه الله من يشاء بعد الوقوف الراسخ على المنقول والمأثور دون أدنى معارضة بينهما وبعد جمع الآيات والوقوف على دلالاتها.

سابعاً

إن كـــل مسلم على وجه الأرض يدرك أن هذا القرآن إنما أنزل للأجيال، جيلا بعد جيل إلى قيام الساعة، ومعلوم أن هذه الأجيال تختلف إختلافا لا يعلمه إلا الله في أفهامها وأذواقها وأحوالها، فلزم أن يكون القرآن منظوما بطريقة تسع هذا جميعه، ولذا أطبق السلف والخلف على أن القرآن حمال ذو وجوه، وأجمعوا

على أن كل وجه هو معنى صحيح للقرآن، بشرط عدم مخالفة العربية أو العقيدة أو البلاغة أو الإجماع. وكتب التفسير تشهد بذلك وتنادي به، وأنت ترى كم أكثر القرآن من حذف الخاص للتعميم، والإعراض عن سبب النزول إلى اللفظ العام، ليتسع لمدارك الناس وأفهامهم على تباينها وتغايرها، ولذا نرى أن الشريعة قد حسمت كثيرا من القضايا والمسائل التي يفترض فيها الاحتياط وعدم التغير، بينما لمست بأمارات وإشارات، وأحالت إلى الاستنباط ما فيه مظنة التغيير وتباين الأفهام. وهكذا صح أن يقال أن القرآن كتاب هداية وإرشاد من هذا الجانب، يعني التفسير والتوضيح في مسائل لا غنى عن التصريح دون أدنى غبش فيها، وكذلك الإجمال والإشارة في أمور تسع الناس هداية وإرشادا جيلا بعد جيل وما مدرسة التفسير الموضوعي إلا إبراز لمعان بديعة جليلة كانت كامنة في ثنايا القرآن وقد برزت كأكمل ما يكون عن طريق تجريد الموضوعات وجمع المتفرقات واستنباط المعجزات الكامنات، وهو ظاهر جدا فافهمه.

ثامناً

إنه لا خلاف في أن أصل الأصول، وعمدة المقاصد من إنزال القرآن هو إثبات الصانع والنبوة واليوم والآخر، وأن القرآن قد استوفى في سبيل هذه الغاية من الدلائل والآيات مالا يحصى كثرة.

ونحن نؤمن أن ذكر هذه الآيات ليس غاية بذاته، بل هو استدلالي واستطرادي لتأكيد المقاصد المذكورة، ومادام الأمر كذلك فإن العقلاء جميعا أطبقوا على استحسان ظهور الدليل ووضوحه، وكلما كان أظهر وأوضح كلما

كـــان اقرب للتمام والكمال، فمن ذا الذي يعتبر أن مقتضى الإرشاد والهداية في كـــتاب الله باعتـــباره كـــتابا للإرشاد والهداية يقتضى الكف عن إشارات الأدلة ومســـها دون إظهـــار وتبـــيان وإفصاح.أليس من المقرر أنه كلما خالطت هذه المـــباحث الموضـــوعية القـــرآنية معـــارف الناس، وطابقت منتهى جهودهم وعلـــومهم، فإنها حال ذلك تكون أظهر وأوضح وأتم كأدلة على المقصود وهو: نســـبة هذا الكتاب لله أولا، وإثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا: وهي ليســـت مـــن قضايا الفروع التي يجوز الاختلاف فيها، أو التغافل عنها، بل هي أصل القضايا، وغاية المراد من إنزال الكتاب ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

تاسعاً

إنـــه مـــن المعلوم أن أي مفسر للقرآن لا يفسره لنفسه، أو يحدث به ذاته، وإنمـــا يفسره لعصره وقومه، ولذا ينقل المفسرون للناس مافهموا من كتاب الله عـــوز وجل، وأدواتهم هي عقولهم وعلومهم، التي مادتها الأصلية هي معارف عصـــورهم وحصـــاد أزمـــانهم. ولذا رأينا التفاسير تختلف اختلافا بينا بحسب اختلاف أعصار المسلمين وأمكنتهم، من أول التفاسير بالمأثور ومرورا بتفاسير اللغـــة وتفاسير الفلسفة، وتفاسير البلاغة وتفاسير الفقه وغيرها، وكل له عطاؤه وجـــناؤه، ومعظمها تلقته الأمة بالقبول، مالم يحمل بدعة ظاهرة أو مروقا معيبا من الدين.

وفـــي هـــذا العصـــر العاصف الذي لعبت فيه الرياح الفكرية بسفن النجاة واختلطت الأمور على الراشدين وخلفت الحليم حيرانا، وحيث الهجمة الصليبية الإلحاديـــة الجبارة على حياض الإسلام فكريا وحضاريا، كان أمرا طبيعيا، بل

واجـبا إسلامياً أن يهب المخلصون دفاعا عن دينهم لمواجهة الهجمة العلمية بما وجـدوه في كتاب الله تعالى من رد حاسم، وبيان معجز، وعلوم لم تخطر على بـال مؤمن ولا كافر منذ قرن واحد من الزمان. الوظائف الكبار التى من أجلها نـزل القرآن وهى هجومية فى الهجوم الذى لا يهدأ على عقائد الكفر ومقرراته ودفاعية فى الدفاع المستميت عن عقائد الإسلام وشرائعه العظام وتثبيتية لتثبيت رواسـخ معتقدات المسلمين وما تضمنه الكتاب من عقائد وشرائع نفس مجالات التفسير الموضوعى الذى يخاطب هذا العصر المائج بالفتن موج البحار والتحفز لكل ما هو إسلامى فى عالم جبار لا يعرف عن الله شيئا.

عاشراً

إنـنا حـين نفسر القرآن موضوعيا مقارنة بمقررات الحضارات والأديان فـنحن بـذلك لا نخضـع القرآن العظيم لنظريات العلم المتغيرة ولا للأهواء المتقلـبة، ولا أقوال علماء الكفر المتضاربة، ونؤمن أن القرآن في هيبته وبهائه أعلـى مـن ذلك وأجل، وأكبر من هذا وأعظم، وكذلك نؤمن أن القرآن فيه من الإعجاز ما تخضع له أعناق أشد الكافرين كفرا وأصلب المعاندين قلبا، وبيانه أنهم يقسمون العلوم إلى شقين: شق في عداد المسلمات المحسوسات التي عليها تبنـى البـنايات، وتشـيد المعامل والصناعات، وتطير بها الطائرات، ومراكب الفضاء وغيرها. وشـق يسمـونه "النظريات " (THEORIES)، "وفروض" (HYPOPHESIS)، وهـي عندهم ليست من المسلمات، بل هي في عداد الظن الغالب في أحس أحوالها.

فإذا أخذنا هذا انكشفت الغمة، وحل من الاشكال ماظنه البعض مستعصيا،

إذ لـن نجـد آيـة واحدة في القرآن يتحدث فيها فن أى موضوع تخالف حقيقة مسـلمة محسوسة، بينما لا يجوز إخضاع القرآن للفروض والنظريات لأسباب كثيرة أظهرها أن أهلها أنفسهم لم يستقروا عليها.

وبذلك تقر القلوب وتنشرح الصدور وينحسم الخلاف، ويحفظ للقرآن هيبته وجلاله، حتى إذا ما ظهرت حقيقة جديدة كالمسلمة والمحسوسة وجدنا القرآن قد سبق لها مثبتا وجها جديدا من إعجازه الذي لا ينقضي إلى قيام الساعة.

حادي عشر

إن هـذا الكـتاب بكل هذا السجل من المعارف، إنما أنزل على رجل أمي وفي أمة أمية لا تأبه بهذه العلوم، ولا تهتم بتدوينها، ولا علم لها بها، وهو دليل قاطع في السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآيات. وهذه الدعوة المستمرة للتفكر والنظـر من نبي أمي هي الدليل الأعظم على أن هذا الكتاب إنما أنزل إليه من عـند الله، وقد استدل القرآن على هذه المعجزة بقوله تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذن لإرتاب المبطلون، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون "

وهـو إسـتدلال ظاهر على بينة القرآن، مما يدفع الريب قطعا من قلوب المبطلـين بسـبب أمية النبي صلى الله عليه وسلم، فلو كان كاتبا لإرتابوا، أي لظـنوا أنـه نقل العلوم قراءة وكتابة، وهو تصوير لمسألة علوم القرآن الفائقة، وأنـه يمتنع عقلا أن تجتمع لمن لا يقرأ ولا يكتب، بهذه التفاصيل والتفريعات، وهـو نـص فـي المسـألة محل النزاع، ويؤكده ما بعده بأنه آيات بينات، أي ظاهـرات لاغـبار عليهن في صدور الذي أوتوا العلم.والحاصل أن أمية النبي

صلى الله عليه وسلم إتخذها القرآن دليلا قاطعا على أنه كتاب من عند الله، ولا معنـــى لذلك إلا بتوافر العلوم التي يستحيل على أمي أن يجمعها من تلقاء نفسه، تلـــك التى تندرج تحت مئات الموضوعات والتى يظهرها بحيث لا تخفى منهج البحث الموضوعى، فلا يبقى إلا أنه كتاب من عند الله ولا ريب ولا مرية فيه.

ثاني عشر

أن فـــي هذا الوجه من النتائج الموضوعية ومن الإعجاز في كتاب الله من الفـــوائد مـــا لا يخفى، فقد زادت الذين آمنوا إيمانا مع إيمانهم وأشبعت حاجات الناس بتفسير كتاب ربهم، ودفعت المزاعم الملحدة من عداوة الدين للعلم، وكانت سببا مباشراً لإسلام عدد من أئمة العلوم الكونية وكان من الوهم تصور إسلامهم بغيـــر هـــذا الســـبيل، واليقين الكامل بأن هذا الكتاب لا يحاط بكنوزه، ولا تحد جواهـــره، وكذلك حث المسلمين على الإنتفاع بعطايا الله السابغة في هذا الكون والسماء والأرض، وحفز المسملين على طلب الصدارة والريادة بين الأمم. وهي مـــنافع جلـــية ظاهـــرة لا تخفـــى، وأنى لنا بالوصول إليها بمعزل عن التفسير الموضوعى، وهي فوائد لا يجحدها أشد الناس عناداً وذلك لظهورها، مع ظهور هذا الوجه من الإعجاز في كتاب الله تعالى.

ثالث عشر

إن القـــول بـــتحديد العلـــوم التـــى حـــواها القرآن، وزعم الوقوف عليها وحصـــرها، إنما يستلزم انقضاء معجزته وانتهائها بعصر من العصور، أو فهم مـــن الأفهـــام، ومـــن زعم ذلك فقد أدعى لنفسه الإحاطة بكنه كلام الله، وغاية مراميه ومنتهى علومه، وإحصائها وتحديدها، وهو بذلك يزعم لنفسه مالا يملك

ولا يمكنه، ويقيس القرآن على فكره القاصر وعلمه المحدود، فقد جهل قدر نفسه وجهل قدر القرآن، وخالف النصوص المتظاهرة باستحالة الإحاطة بعلم الله ولا بكلام الله، ونقض المعلوم بين كافة المسلمين بمعجزة هذا الكتاب وتجددها جيلا بعد جيل، كذا أنكر الآثار والمنقولات المتواترة عن أن هذا كتاب هائل القدر عظيم الجناب لا تنقضي عجائبه إلى قيام الساعة.

رابع عشر

أنه بإستقصاء المقاصد العظمى التي جاء القرآن لبيانها، وجد أن مقصدا منها لا يخفى، وغاية لا تختلط، هي إعجاز القرآن ليكون آية دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ظاهر جدا لمن وقف على القرآن أدنى وقوف، إذ القرآن خطاب للكافرين من أجل التصديق، وخطاب للمؤمنين للتكليف، فأما الكافرون فلا يصح أن يكون خطابا لهم من أجل التصديق إلا بدلالة معجزته بعد تحديهم، وقد أطبق المسلمون على أن القرآن معجزة في لفظه، وأنه متحد للكافرين بمعانيه، فإذا كان الكافرون أهل علوم، كانت المعاني متحدية بإعجازهم في مجالهم، ولو لم يكن ذلك في القرآن لما كان متحديا ولا معجزا لهم، ولبطل القول بإعجازه وهو خلاف الإجماع كما تقدم.

فلزم أن تكون الآيات في كل موضوع مما مسه القرآن مقصودا بها الإعجاز والتحدي لجنس الكافرين النابغين فيه، الأمر الذى أظهره أيما إظهار البحث التفسيرى الموضوعى فإذا بإعجاز تشريعى وإعجاز بيانى وإعجاز علمى وإعجاز أدبى وإعجاز تصويرى وإعجاز نفسى وغيرها كثير، وأنت ترى أنهم يملأون هذا الزمان بالتشنيع على كتاب الله، والتشكيك في نبوة محمد صلى الله

عليه وسلم، وكأن هذا هو الزمن الأمثل لإعمال أعظم مقاصد إنزال القرآن، وهو تحـدي الكافـرين وإعجازهم، إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وتقريرا لوحدانية الله عز وجل وجل، وأن هذا الكلم منزل تحقيقا لامرية ولا ريب.

خامس عشر

أن النبـي صـلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبي إلا أوتي – أو أعطي – من الآيات مامثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله، فأرجـو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) البخاري ومسلم، ولا يمكن أن يكون أكثرهم تابعا يوم القيامة، إلا أن تكون آيات القرآن متجددة إلى يوم القيامة، حتـى تشمل أمما عدة مع إختلاف الحضارات والقرائح والعلوم والفهوم. فثبت مـنه أن هذا القرآن يحوي العلوم المتجددة المناسبة لكافة الأزمنة والأمكنة، ولا يمكن حصول ذلك مع الإقتصار على النقول القليلة التي أثرت عن الصحابة أو التابعين، بل هي أصول لا غنى عنها، ولا بد من حفظها ونقلها، على أن تكون سبيلا يفتح الله به بعد ذلك على من يشاء من عباده من الفهم، والاستنباط في كل عصـر، مما ينتهي إلى اليقين التام بإعجاز هذا الكتاب فيؤمن من يؤمن في كل جـيل، فـيكون النبـي بها أكثر الأنبياء تابعا يوم القيامة، لا بمعجزة حسية قد انقضت، بل بمعجزة قولية فكرية عقلية علمية باقية إلى قيام الساعة.

سادس عشر

إن علمـاء التفسـير من السلف والخلف لا يزالون يستخرجون من بعض الآيـات الجامعة، ولو بالأمارة أو الإيماء أو التلويح، كثيرا من العلوم دون نكير أو مراجعة مثل قوله تعالى:(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) ومثل قوله

(لكي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) لتقرير تفاريع علوم المال والسياسة، وفي الأولى راجع تفاسيرهم حول مفهوم الحكمة، وكذا قوله تعالى:(لو كان فيهما آلة إلا الله لفسدتا) على أصول علم الجدل والمنطق والمناظرة، وغيرها كثير جدا، وكتب التفسير سواء بالمأثور أو الرواية مملوءة به،فإذا ماتجلت بالتفسير الموضوعى زادت المقصود خدمة وظهورا، مع وضوح ذلك، وتدافع العلماء لإبراز ماهو أخفى منه بكثير في جوانب أخرى كما ذكرنا، فإذا تبين لك ذلك استقر عندك ماحررناه وتقبلت برضاء النفس ما أوردناه.

سابع عشر

نقل العلماء الإجماع على أن آيات القرآن لا يجوز أن تحمل بكاملها على مجرد ظواهرها، كذا لا يجوز أن تصرف بأجمعها عن ظاهرها بالتأويل، ذلك أن لكل آية ظاهر وباطن، بسبب إختلاف قرائح الناس وتباين قدراتهم وأنظارهم.ومنهج الجمع الموضوعى للآيات التى جاءت بسياق يفسح أوسع المجالات للتأويل الحميد، بما يثبت المجاز القرآنى، ومن غير مخالفة الظاهر أو المنقول، وأمثلة ذلك فوق الحصر.

ثامن عشر

أن معارضة التفسير الموضوعى بدعوى أن القرآن إنما جاء لأمة أمية، وأنه خطاب للأميين ولا يجوز فهمه إلا بقدر الأفهام الأمية، إنما أرتكز على أوهن الأسس لأسباب لا تخفى، وأهمها أنه رأي يفترض خلود أمية أمة الاسلام، وهو باطل.

ويفترض أن القرآن لم يأت للعرب الأميين بشئ غير مايعرفون قبل نزوله وهو باطل.

وأن مقاصد القرآن محصورة في فهم قرن واحد من البشر ولا يتسع لغيره إلى قيام الساعة وهو باطل.

وأن القرآن قد انقضت عجائبه ومعجزته بإنحصار معانيه بفهم الأمة الأمية وهو باطل.

وأن السلف لم ينطقوا حرفا خارجا عن الفهم الأمي ولم يفصلوا ولم يبينوا بما فتح الله عليهم وهو باطل.

فأنت ترى أن هذا القول ظاهر البطلان وذلك لبطلان لوازمه جميعا، وهو عجيب إذ يضيق شريعة جاءت لكافة الأجناس واللغات والأفهام والأصقاع، مع مافي القرآن من الآيات الداعيات إلى العلم والتعلم، والتشريف العظيم لكل من حاز قدم السبق في العلوم والمعارف، وهذا معلوم بالإضطرار لكل من قرأ القرآن وعرف مقاصده.

تاسع عشر

إننا إذا رجعنا إلى نماذج تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لكثير من الآيات أدركنا أن المعنى الذي ذكره رسول الله ليس هو الأسبق إلى الفهم من ظاهر سياق الآيات، بما يفهم منه منهج التفسير والاستنباط والفهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما وجه بذلك إلى تفتيح الأذهان وخط السبيل وترشيد الطريق إلى التفسير الراشد الأقوم، ونحن وإن كنا ملزمين بأخذ كل مافسره

النبـــي فـــي الآيـــات التـــي تعرض لها صلى الله عليه وسلم علي سبيل التسليم والإنقـــياد باعتباره وحيا من عند الله، فنحن كذلك ملزمون بالتفكر في التأسي به صـــلى الله علـــيه وسلم فيما لم يفسره حتى نسلك على نفس منهجه في استنباط أعماق الآيات، واستخراج الكنوز الخافيات على نفس السنة التي سنها لنا، ونظرا لضـــيق المقـــام فلا نطول أذيال الكلام في تلك الأمثال، ولمن شاء الرجوع إلى تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم وملاحظة ماذكرنا فانه في غاية الظهور.

عشرون

إنـــه لا خلاف في أن القرآن كتاب دعوة إلى العالمين، ولا يمكن أن يصح ذلـــك أو يـــتم واجب بلاغ هذه الدعوة إلى غير العرب إلا بطريق تصح بها في حقهـــم حجـــة الله عليهم، ولو قيل:أن مافي القرآن من أخلاق وعبادات وشرائع كـــاف لـــذلك، لكـــان الجواب أن كل ديانة بين يدي أي منهم فيها من الأخلاق والعـــبادات والشرائع ما يمكنهم مع كفرهم أن ينصبوها مناظرة لما في القرآن، رغـــم عدم التساوي بين هذا وذاك، كما أن البلاغة والفصاحة لا تأثير لها على الأعجمـــي باتفاق، فكيف يمكن تبليغ دعوة الله وهي واجب على المسلمين دون خلاف، ومعلوم أنه مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وبالنظر إلى منهج جمع الآيـــات فـــى موضوع معين وجدنا أنها تخاطب كافة أجناس البشر، إذ تصير الحقيقة العلمية المستخرجة من مجموع الآيات في القرآن ملزمة لأي قوم وبأي لغـــة ودون الاضطرار إلى ضروب من الإعجاز الخاص بالعرب وحدهم بحيث لا تلزم هؤلاء الحجة، بل وتكون لهم الحجة - على كفرهم - إذ لم يتم له البلاغ بما تتحقق به عليهم الحجة.

واحد وعشرون

أنـــه إن لم يتم التفكر الموضوعى فى القرآن، يتم تجاهل أصل أصيل من دعوة القرآن للمسلمين، وهو التفكر والنظر، وكذلك شرح الوسيلة القرآنية لذلك وهـــي القراءة والكتابة، بل والتصريح بها في أول آية نزلت من القرآن العظيم، كـــذا الدعـــوة المســـتمرة للسير والنظر، فإن لم تكن هذا الآيات المتتابعة حافزا لاســـتيعاب خفايـــا الآيات ذات الموضوع الواحد، ودافعا للكشف عن أسرارها، واعتبارها آية كبرى لكتاب أنزل على رجل أمي في أمة أمية، فأي سبيل بعدها يمكـــن اعتباره سبيلاً للعلوم، وما حكمة نزولها، وما مقصد الشارع من وجودها على تفريعات وإختصاصات علمية لم تك في العالم كله حال نزول هذا الكتاب.

ثاني وعشرون

أن هناك آيات لا يمكن تفسيرها الابالعلم التجريبي العميق، مثل قوله تعالى: (يخلقكـــم فـــي بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث) الآية أو قوله تعالـــى:(فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما) الآية أو قوله تعالى: (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق) الآية.

فهـــل هـــذه آيـــات معاملات أو عبادات أو هي آيات رقائق وتذكرة، إن التفصـــيل الـــوارد فيها يقسر المفسر قسرا إلى تحليل الألفاظ ومقارنتها بحقائق العلـــوم للوصول إلى التفسير الأمثل، ومن غير ذلك لا يمكن إلا تجاهلها مطلقا، وهـــو مـــالم يفعله واحد من السلف الكرام، بل أعملوا عقولهم وعلوم عصورهم بقـــدر مـــا أتـــيح لهـــم. أفإن جاء العصر الذي تكشفت فيه غاياتها علميا، وتم تصـــويرها خلية خلية وذرة ذرة، يحظر على المسلمين تسليط هذا الأنوار على

ظلمات الكفر قاطعة لكل شك، ملزمة لأشد قلوب الكافرين جحودا وعنادا؛ ولأي قصد يحظر ذلك من يحظره، وعلى أن منهج وبأي دليل ؟

ثالث وعشرون

إن وجود معجزة ترامى العلوم والموضوعات والقضايا فى كتاب الله تعالى جاء تصريحا في بعض آيات الكتاب مثل قوله تعالى:(لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه) وقد أطبق المفسرون على أن معنى (أنزله بعلمه) أي أنزله وفيه علمه، ولا يخفاك أن وجود كتاب على الأرض فيه علم الله عز وجل الذي لايحد له مدى ولا يعرف لبحره قرار، يشمل علوما لا طاقة لبشر بالاحاطة بكنهها أو حصرها أو إدعاء الوقوف عليها،، وكلها من علم الله تعالى دعا غير مرة للتأمل لما فيها من آيات باهرات ومعجزات مذهلات، والآية التي أوردناها صريحة في وجود علم الله في ذلك الكتاب، ولا شك أن علم الله تعالى فى الكتاب لا يتأتى الوصول إليه إلا بتتبع الآيات فى سائر الموضوعات والوقوف على روابطها وأسرارها وإعجازها، وهذا ما أردنا إظهاره وهو جلي لا يخفى فافهمه.

رابع وعشرون

إن كثيرا من الآيات قد لمحت إلى أن كثيرا من أسرار هذا القرآن سوف تتضح في الأزمنة المستقبلة، بل هناك آيات مصرحة بذلك، مثل قوله تعالى:(ولتعلمن نبأه بعد حين) وقوله: (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) وبمراجعة أقوال المفسرين تعلم أنهم فسروا ذلك على أن الأنباء التي وردت في كتاب الله، ولم يكن لها ظهور وقت نزوله سوف تتضح معانيها وتظهر حقيقتها بعد حين، وقد أقروا أن هذا الحين يشمل ماقبل الموت وما بعد الموت، وما قبل قيام الساعة وما بعد قيام الساعة، فأنباء القرآن المتعلقة بأحوال الدين تظهر بعد

حـين فـي الدنـيا بما يناسب ذلك، وتظهر بعد حين في الآخرة إذا كان السياق يطرح ذلك، ولا شك أن القرآن يعج بالأنباء الدنيوية والأخروية، التى هى محك التفسير الموضوعى ومجال اجتهاد القائمين عليه.

خامس وعشرون

قـول الله تعالـى:(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد).

هـو قـول فاصل في المسألة محل النزاع، وإن وعد الله تعالى بأن يرى الكافـرين آياته في الآفاق لا يمكن لأي منازع أن يكابر ويصرفها عن ظهورها ووضـوحها، لأن وعدالله حق ولا بد للكافرين أن يروا آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، فمن زعم أن آيات الله تظهر بمجرد النظر الساذج الأمي الأعرابي فقد أوغل في الوهم وأبعد النجعة، اذ الآيات هي البينات الملزمات القاهرات التي لا يمكن للنفس أن تهرب من إحاطتها ونفاذها وسطوتها، ولا يكون ذلك إلا بظهور الأمر الهائل الذي تظل الأعناق له خاضعة بعد إستفراغ غاية الجهد، خاصة أن الله عقب بقوله:(حتى يتبين لهم أنه الحق)، "وحتى" تفيد الغاية أي يبذلون الجهد إلـى أن يتبـين لهم، فدل ذلك على أن الوعد المتحدى به من الله عز وجل لن يكـون مـتحققا مالم يتبين من البينات مالم يدر قط ببالهم من قبلها، فتبهت لذلك قلوبهم، وتنعقد ألسنتهم، ويعرفون أن كتاباً يذكر هذه الأسرار هو الحق المحض المبـين.والآيات فيها دليل لا ينازع، وهو المقصد الأعظم للقرآن ولنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن نازع في فقد كابر وباهت وشرد إلى مرتع وخيم.

سادس وعشرون

إنـنا نقر أن بعضا ممن تصدوا لمسائل التفسير الموضوعى لم يكونوا على مسـتوى المعرفة الشرعية بأصول التفسير وما ينبغي للمفسر، وشروط القول في

كـتاب الله عز وجل، فشاب تفسيرهم الرأي الذميم أحيانا، والجهل بالأوليات في أحـيان أخـرى، ولكننا أيضا نؤكد على أن وجود هذا العيب لا يستلزم ضرورة وصـم كـل الجهود المبذولة في هذا المضمار بالقصور، كذا لا يمكن بناء عليه تجاهـل كافـة الأدلة من الأثر والنظر، والتي أوردناها، وضرب الصفح عنها، وأيضا فإن كل علم إسلامي قد شابته الشوائب في بعض مسيرته، لم يلجأ السلف الصالح إلى إلغاء العلوم لوجود قصور من بعض الدخلاء، وحسبك مثلا من ذلك علـم الحديث، وما دخل فيه من إسرائيليات وموضوعات وغيرها فكانت الطريقة المثلـى هي التشمير عن ساعد الجد لخدمة القرآن، وخدمة الحديث بنفي الدخلاء عـن ذلـك العلـم وتنقيـته من الشوائب هذا من جانب، وإثرائه والإضافة إليه واستخراج الكنوز وصقل المناقب والمزايا من جانب آخر، لا طمس دلائل آيات ظاهرات في كتاب الله تعالى تلك التى تتبدى تترى عبر جهود المدرسة التفسيرية الموضـوعية، أن ينهضـوا لخدمة القرآن كما فعل السلف الصالح وذلك بوضع الضوابط الشرعية للتفسير الموضوعى التي تحفظ للقرآن جلاله، وتحض وتؤدي إلى إستخراج كنوزه ودرره التي لا تنقضي إلى قيام الساعة في آن واحد.

سابع وعشرون

إن الجمهـور مـن علماء الأمة قد قرروا التفسير بالدراية والرأي الحميد مادام المفسر مستوفيا للشروط الشرعية، ومالم يعارض التفسير ظاهرا للنص أو قاعـدة للغـة العـرب، أو إجماعا أو عقيدة، وما زال هذا المذهب ظاهرا بينهم يفسرون بناء عليه، ومن راجع أنواع التفاسير رأي من ذلك مالا يخفى، فتفاسير بلاغـية وأخـرى فقهـية وثالثة منطقية، ومن ذلك الكثير الذي يدركه الكافة، فلامعنـى بعد إجتماع هذا الجم الغفير الطيب الطاهر من علماء أمة محمد صلى الله علـيه وسلم على هذا المذهب إلى نقضهم جميعا، واعتبار قولهم قول بالرأي

الذميم وتعرضهم للوعيد الشديد الذي نص عليه الحديث، ونصت عليه الآيات في حق أولئك الذين يقولون على الله مالا يعلمون، ووجب على أدنى الدرجات تأويل مذهبهم إلى مايصلح الناس في الدنيا والآخرة، لا إلزامهم أو الحكم فيهم بما يجب في حق الجاهل المتخبط الحيران الذي يتخرص في القرآن دون علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ثامن وعشرون

إن من فائدة التفسير الموضوعى والتي ظهرت لسلف هذه الأمة، ما أدى إلى حثهم على إختراق لجج العلوم واقتحام أبواب المعارف، لما وجدوا القرآن يحبذ ذلك، ويحض عليه، ويمدح الداعين إليه،، فإذا بالمسلمين يضعون أيديهم على مفاتح العلوم، ولو كان كتابهم يذم ذلك أو يعرض عنه، لما ظهرت تلك الثمار اليانعة والظلال الوريفة، ومن هذا يظهر لك جليا الفرق الساطع كالشمس بين كتاب تقرأه أمة أمية، فإذا بهم قادة للعالم في كافة علوم الأرض والسماء، وكتاب محرف يستلزم العلم الكفر به، والخروج الصارخ عليه، وتمزيقه كما هو معلوم عن سيرة أوروبا إبان نهضتها.

تاسع وعشرون

إنبه من فائدة الآيات الموضوعية الشارحة للصناعات والعلوم، أن خرج الفقهاء عليها أبوابا جعلت العلم بالحرف المختلفة دنيوياً هي فروض كفاية تماما مثل العلوم الشرعية ولا فرق، وما ذاك إلا بسبب ذكر الكتاب والسنة لأدلة الكونيات وأدلة الشرعيات، ومعلوم أن التفسير والحديث والفقه كلها علوم حكمها فرض الكفاية، وليست واجبة على المسلمين جمعياً، وكذلك الفلك والطب والهندسة والزراعة والصناعة، هي فروض كفاية شرعية بإجماع الفقهاء، تأثم الأمة بكاملها إن لم تستوفى، وذلك لأهميتها الشرعية، واستحالة الحياة بدونها.

فـإذا عـرفت هذا الحكم الفقهي عرفت اعتبار الفقهاء لأمثال هذه لآيات، وعدم تجاهلها بل وإدراجها في مباحث الفقه على أنها هي والعلوم الشرعية من جهة الجكم الفقهي سواء بسواء.

ثلاثون

إنه باستقراء آيات الكتاب وجدت العلوم التي يحويها القرآن، وكذلك العلوم التي لها علاقة بالقرآن على ضروب، منها علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والتشـريعات وغيـرها، ومنها علوم تزيد المفسر علما مثل علوم الفلك والطب والـزراعة وخلافـه، فإذا أحاط بها المفسر زاد علمه الشرعي بوجوه التأويل. ومنها علوم أشار القرآن إليها وجاءت مؤيدة له مثل إنباء القرآن ببعض ظواهر الكـون والنفس، ومنها علوم لا علاقة لها بالقرآن من قريب أو بعيد مثل علوم السحر والموسيقي وغيرها.

وهذه الحجة الأخيرة نختمها بلفت الإنتباه إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم فـي غيـر مرة قد كان حريصا على أن يوافق الواقع المحسوس ما تنبأ به، بل وأظهر غاية السرور والرضى عندما طابقت نبوءاته، أقوال من أسلموا من أهل الكـتاب، وغير ذلك مما يرد قول القائلين بأن هذا الدين ليس بحاجة إلى حجج علمـية أو غيرها لإثبات ذاته، فهو ثابت من غير ذلك. وهذا حق لا مرية فيه، غير أن وجود المطابقة بين ما جاء به القرآن وبين الواقع المحسوس يزيد الذين آمنوا إيمانا، ويرفع الريب والشك عن قلوب الكافرين، ويفضح تآمر المتآمرين، ويكشف نفاق المنافقين، ولن يكون أتباع محمد صلى الله عليه وسلم أحرص على الإسلام من محمد صلى الله عليه وسلم، ولا أكثر ثقة بالدين منه صلى الله عليه وسلم، فلما وجدناه عليه الصلاة والسلام على غاية الاستبشار والسعادة كلما ظهر مايطابق قوله، علمنا أن هذا هو الصراط المستقيم، وهو الدرب القويم وهو منهج الشـارع الذي هو أغير على الشرع من أي منا، وأحرص عليه من تصوراتنا، وتبـين أن مغـالاة الآخرين في رفض الأدلة على صدق الاسلام إنما هي من خطرات النفوس وهوى الرأي

والله تعالى المستعان

الفصل السادس

الفوائد والمنافع الشرعية للتفسير الموضوعي

الفوائد والمنافع الشرعية للتفسير الموضوعي

مـن جملة ما سبق تتبدى كثير من المنافع الشرعية للتفسير الموضوعي، غيـر أننا في هذا المقام نأتي على ذكر أهم المنافع والفوائد التي أبرزت جوانب باهرة من خصائص النظم القرآني الكريم والتي طالما كانت خافية أجيالاً عديدة إلى أن كشف التفسير الموضوعي عن كوامنها الهائلة وذخائرها المذهلة.

ومن هذه الآثار والفوائد ما يلي:

أولاً: التفسير الموضوعى

خطاب لكافة الثقافات بموضوعات القرآن

التفسـير الموضوعي هو الوسيلة المناسبة لإنسان هذا العصر لتلقي العلوم الغزيرة التي يشتمل عليها القرآن الكريم وبطريقة بسيطة ميسرة حسب طاقة كل طائفة: بدءاً من ذوي الثقافات المتواضعة من المهتمين بأحوال الإسلام إلى أصـحاب الثقافة الدنيوية من غير المتعمقين فى الثقافة الدينية، إلى أصحاب الـثقافة الدينـية العميقة في أنواع التفاسير الموضوعية التحليلية مع فقر الثقافة الدنـيوية، عن طريق تنوع المقال و عرض موضوعات قرآنية شديدة الأهمية والفائدة. فالتفسير الموضوعي علاج واسع المدى شامل لكل طوائف الناس على اخـتلاف درجـات ثقافاتهم الدينية أو الدنيوية فهو بحق تفسير هذا الزمن الذي تداخلت فيه المعارف وذابت الحدود بين الأمم وتحول العالم إلى قرية صغيرة إذا عطس واحد في شرقها قال الملايين في غربها يرحمك الله.

ثانياً:التفسير الموضوعى

علاج شاف لأدواء أمة الإسلام

التفسير الموضوعي علاج مباشر للأدواء الكثيرة المنتشرة في الجسد الإسلامي المثخن بالجراح، فمن المعلوم أن الشكوى من خلل اجتماعي ناجم عن استبعاد تطبيق الإسلام في قطر إسلامي ليست بحاجة إلى تفسير القرآن من أوله إلى آخره بحثاً عن علاجها، بل بالحري الدخول مباشرة إلى موضوع الشكوى والتشخيص الدقيق لأسبابها، ثم العلاج الحاسم من كتاب الله في الموضوع محل الشكوى دون كثير من استطراد أو استبحار. فإن المعرفة الدقيقة لأسباب الداء هي أول الطريق لتوصيف الدواء، وإن المعرفة الدقيقة بالدواء هي الطريق الأوحد للشفاء. وما أكثر الأدواء التي أصابت المسلمين في عصرنا على مستوى الأخلاق والاجتماعيات والنفسيات وغيرها مما هو شاهر وجاهر. وإن التفسير الموضوعي هو التشخيص ووصف الدواء وسبيل الشفاء لو حسن الانتفاع به.

ثالثاً: التفسير الموضوعى

دحض للشبهات المعاصرة ضد الإسلام

التفسير الموضوعي هو التطبيق الحي لمنهج أصيل من أعمق مناهج تناول القرآن للمسائل، ذلك أن القرآن إنما اعتمد سبيل سرد شبهات المناوئين ثم الكر عليها بالتفنيد والإبطال وهذا المنهاج القائم على رد الشبهات يسري في القرآن مسرى الماء في العود الأخضر.

ولقد غفل كثير من المفسرين في القرون الماضية والذين كان جل همهم

منصـــباً على التحليل عن هذه الجزئية الهامة من المنهج القرآني، فوجدنا خدمة هائلة للقرآن ذاته لفظاً وآية، مع شبه إغفال للشبهات الكثيرة التي يثيرها أعداؤه في وجهه، حتى جاء التفسير الموضوعي الذي يقوم على المواجهة والمصارحة وكشـــف الشبهات الهائلة التي يروجها أعداء الإسلام على كافة القنوات المرئية والمســـموعة والمكتوبة. والرد الحاسم بطريق الأثر والنظر والمعارف الحديثة والـــدلائل القاطعة، مما كان له أكبر الأثر في ترسيخ إيمان المؤمنين و وزلزلة شبهات الكافرين.

رابعاً: التفسير الموضوعى

كشف باهر لبحر من المعجزات القرآنية

التفســـير الموضوعي، وخاصة نوع التفسير الموضوعي العلمي، والتفسير الموضـــوعي الأدبـــي المشـــتمل على الثقافات الاجتماعية والنفسية والتاريخية وغيـــرها، هـــذان الصنفان من التفسير قد أفادا إفادة بالغة في إثبات وجه جديد وكاســـح مـــن وجوه الإعجاز القرآني بعد أن بقي إعجاز القرآن قرابة ألف عام منصباً عند علماء الإسلام على الإعجاز البياني البلاغي مجمعاً عليه بينهم،وهذا حـــق، غير أن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، قد أسفر عن وجه عجيب معجز مهيب، كشف الستار عنه المفسرون الموضوعيون، فظهر الإعجاز التشريعي – الإعجـــاز العددي – الإعجاز العلمي – الإعجاز النفسي –الإعجاز الاجتماعي، فـــي مـــوجة هائلـــة من المعجزات القرآنية التي كانت كامنة طوال القرون في انتظار اللحظة الحاسمة تلك التي أبرز نورها الساطع منهج التفسير الموضوعي.

خامساً: التفسير الموضوعى

دراسات قرآنية مركزة بجهود عالية

التفسير الموضوعي يضمن وسطاً عميقاً لبحث أي موضوع قرآني بالإتقان الكامل، ذلك أن الباحث في القرآن بكامله تحليلياً من أوله خطوة خطوة إلى آخره سرعان ما تفتر همته وينفذ صبره قبل بلوغ غايته في تحليل القرآن كاملاً، إلا من اختارهم الله وهم قليل عبر السنين الطوال، وذلك بخلاف التفسير الموضوعي، فإنه يتيح تركيز الجهد والهمة والمعرفة في موضوع واحد محدد، نسبر غوره وبحث الآيات النازلة فيه وأسباب نزولها ووقت نزولها، وكذلك شبهات المشتبهين وحجج المناوئين، والمقارنة بالأفكار البشرية في ذات الموضوع، واستخلاص النتائج ونصب المناظرات في همة عالية وعلم واسع في حيز ضيق مما يؤدي إلى الكشف التام والاستقصاء الكامل لجوانب المسألة، هذا الذي يتعذر في أي منهج آخر كالتحليلي أو الإجمالي منفرداً أو المقارن منفرداً.

سادساً: التفسير الموضوعى

إثراء للبحث العلمى التفسيرى الجامعى

إثراء البحث العلمي الجامعي، فإنه دون التفسير الموضوعي، كان من المحال وجود هذا الكم الهائل من الدراسات التفسيرية الجامعية في شتى الموضوعات القرآنية، وفي هذا العدد الكبير من الجامعات الإسلامية ذات الأقسام المختلفة والمعنية بالتفسير وعلوم القرآن بل في الدراسات العلمية

التجـــريبية المستشهدة بآيات القرآن. إن التفسير الموضوعي هو الوسيلة المثلى لاســتيعاب هــذا الســيل الجــارف مــن الأفكار العلمية والتاريخية والبلاغية والاجتماعــية والتشريعية وغيرها مما لا يقع عليه الحصر، وما يضمن الإمداد المستمر والإثراء الدائم لأداة الأبحاث والدراسات الجامعية في العالم الإسلامي.

سابعاً: التفسير الموضوعى

تطبيق لنداء القرآن الكريم بالسياحة فى الكتاب الكونى

التفســير الموضــوعي هو الاستجابة المباشرة لنداء الله تعالى في القرآن الكريم بوجوب التفكر والتدبر في القرآن، والتفكر والنظر في الكون، والاستدلال القاطــع علــى صدق الأول بالنظر في الثاني، والاستدلال القاطع على التوحيد المحــض بالسياحة في الكتاب الكوني، ومراجعة الكتاب المنزل، وكم من عالم خــر ساجداً أثر معلومة صاعقة قدمها التفسير الموضوعي، وكم من كافر معاند بهت ووجم بمواجهته بقذيفة حق من التفسير الموضوعي، وكم من مشرك أبصر الحق وكان أعمى عند عرض الحقيقة القرآنية مجردة ونافذة عن طريق التفسير الموضوعي.

ثامناً: التفسير الموضوعى

كشف فريد للروابط الباهرة بين موضوعات القرآن

التفسير الموضوعي هو الوسيلة المعاصرة لإبراز الوشائج المتينة والروابط العميقة بين مختلف موضوعات القرآن حتى لتبدو وكأنها نسيج موشى لا تتنافر له خيوط ولا تضطرب له ألوان،. فالموضوع التشريعي ينبني على الموضوع النفسي، والنفسي ينبني على الاجتماعي، والاجتماعي ينبني على الموضوع العبادي وغير ذلك من الموضوعات التي يثبت بالبحث الموضوعي تأثيراتها المتبادلة، وما بينها من روابط متشابكة، فكل موضوع يمده من بعده موضوعات في سائر المجالات، ولا يمكن لمس هذه الحقائق وإبصار نورها الوهاج إلا عن طريق التفسير الموضوعي كل بحسب مجاله، وكل يعتمد على جهود الآخرين في سائر التخصصات لتتم هذه الباقة الباهرة، والحديقة الزاهرة، من موضوعات الكتاب الكريم.

فهذه بعض الفوائد التي نقتصر عليها اختصاراً ودونها كثيرة لهذا النوع من التفسير الذي يتفرع من الفروع البهيجة إلى ما قد علمت. نسأل الله التوفيق والسداد.

••••

مناهج البحث في التفسير الموضوعي

تبين مما سبق أن أنواع التفسير الموضوعي تنقسم إلى أقسام:

أولاً: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني (يدخل فيه ضمناً التفسير القائم على الأدوات والحروف).

ثانياً: التفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

ثالثاً: التفسير الموضوعي بالنظر إلى القرآن كاملاً (يدخل فيه ضمناً التحليلي الموضوعي والمقال التفسيري).

ولكل صنف من الأصناف السابقة طريقته الخاصة به في البحث العلمي.

خطوات وعناصر أساسية لأي بحث موضوعي

أولاً:

أن يقرر الباحث مقدماً ما هو الغرض الشرعي الذي من أجله أقدم على بحثه، وأن يحدد الهدف من اختيار هذا البحث بصورة واضحة ليس فيها غموض أو تعميم، كأن يقول: هدفي الدفاع عن الإسلام، أو الرد على الشبهات وغيرها من التعميمات التي لا تصلح أن تكون أهدافاً معينة لأبحاث معينة.

ثانياً:

أنه لا يجوز الدخول على كتاب الله برأي مقرر أو فكرة محددة سلفاً، فإن

ذلـك يؤدي حتماً إلى ليّ أعناق الآيات لخدمة الأهداف البشرية الخاصة، وإلى الاعتسـاف في التأويل بما يقدم الغرض المقرر سلفاً، وهذا فضلاً عن أنه حرام شـرعاً، ذلـك أن النبـي صلى الله عليه وسلم قال: " من قال في القرآن برأيه فأصـاب فقد أخطأ "، كذلك هو مناف لأمانة البحث العلمي التي تفترض التجرد من الهوى، والالتزام بما يقرره القرآن نفسه تعبيراً عن موضوعاته.

ثالثاً:

لا بد للباحث من استقصاء جهود السابقين في الموضوع محل البحث فقد يكون قد بحث بحذافيره، فيكون إعادة البحث إهدار للوقت والجهد و وربما كان البحث مبحوثاً بصورة جزئية فيفيد الباحث من الجهود السابقة، وربما لم يبحث من قبل فيكون جهد الباحث إضافة علمية يفيد منه الآخرون.

رابعاً:

لمـا كـان الـبحث الموضـوعي فـي حقيقته مواجهه فكرية أو إبراز موضوعات عقائدية أو ترسيخ معان قرآنية أو بحث عن حلول إسلامية ثقافية أو اجتماعـية أو نفسية أو علمية وغيرها، فعلى الباحث أن يلم إلماماً وافياً بكل ما يخدم أغراضه بحثه من معلومات شرعية من جانب وكذلك الثقافية والاجتماعية وغيـرها ممـا له صلة بموضوع بحثه، بحيث يصدر البحث مستوفياً أغراضه الخادمة لأغراض القرآن، مكافئاً للثغرة التي يقوم لسدها ورأب صدعها.

خامساً:

على الباحث عدم الاستطراد والتطويل خارج الموضوع الذي اختاره، وأن يبقـى طـوال بحـثه مـرتبطاً ارتـباطاً وثيقاً بعناصر القرآن الكريم في ذات

الموضـــوع، وإذا اضـــطر إلى الاستدلال بأقوال المفسرين أو اللغويين أو أهل القـــرآن ولأداء أو أهل الحديث والرواية فيكون ذلك باختصار وبما يفيد المعنى المطلـــوب لتوضـــيح الآيات القرآنية المقصودة دون أن يتحول ذلك إلى بحوث ثانـــوية فـــي فروع العلوم الإسلامية بما تضيع معه ملامح البحث الموضوعي الأصلي.

سادساً:

في حالة الاستشهاد بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم أو أقوال الصحابة، فيجب تجنيب الإسرائيليات قطعياً إلا إذا جئ بها لنقدها وتفنيدها، ويجب الالتزام بالصـــحيح من الأحاديث والتقيد به ولا يحل له إيراد الحديث الذي لم يصح مع علمـــه بذلك، أو نقل القول عن الصحابي وهو لم يثبت، فإن هذا جميعاً لا يجوز أن ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو صحبه الكرام فضلاً عن أن يفسر به كتاب الله.

سابعاً:

علـــى الـــباحث أن يكون على غاية الدراية بخصائص القرآن من الناحية البيانـــية والعلمية والموضوعية فلا يقيس كلام الله على كلام البشر حتى العرب الذين نزل القرآن بألسنتهم، فإن فارق كلام الله عن كلام البشر كالفرق بين ذات الله عز وجل وبين ذوات المخلوقين. ومن خصائص القرآن الهامة:

أ – المقاصـــد القرآنية العليا تدور حول الهداية والإعجاز والتقيد بألفاظ كتاب الله.

ب– لا تكرار ولا زيادة أو نقصان في كلام الله تعالى.

جـ- كلام الله هو الغاية في الإيجاز المعجز بحيث يعد كل إيجاز معجزة.

د - الأصـــلي في تفسير كلام الله هو ظاهر النص ولا يحال إلى المجاز إلا لقرينه، كذلك مجاز

القـــرآن حـــق كله لا كمجازات العرب بما ربما حملته من توهمات ليست واقعية.

هـــ- لا يحمـــل القـــرآن علـــى القصـــور الجبلي للعرب مما تفترضه الضرورات الشعرية وغير ذلك،

فكلام الله منزه عن الاضطرار للفاصلة والقافية والضرورة الشعرية وغيرها.

ثامناً:

علـــى الـــباحث أن يكون على بصيرة تامة بأصول المقاصد القرآنية، ألا وهي:

١- الهدايـــة: فهو كتاب هداية ودعوة إلى الله تعالى في الأساس وكل ما فيه من أساليب وبراهين إنما هي أدوات خادمة لهذا المقصد الأعظم.

٢- إثـــبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم: وهو المعروف بالأعجاز فهو كتاب معجز وبه من الدلائل اللغوية والعقلية والعلمية القاطعة بإعجازه، ونسبته إلى الله تعالى بما يقطع بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

٣- تعـــبد الخلـــق بتلاوته: فإنه لا يوجد كتاب غيره في الإسلام ولا غيره يجب التعبد بتلاوته حرفاً حرفاً ,وعلى هذا فحفظه وألفاظه، وعدم جواز تلاوته بالمعنى أو بأي لغة غير عربية هو من أعظم المقاصد القرآنية.

تاسعاً:

الـــثقة المطلقة التي لا يساورها ريب أو شك بالحق المحض الذي لا مرية فيه، في كل ما قرر القرآن من عقائد وعبادات ومعاملات، وأن ما فيه هو أسمى وأعظـــم مـــا عرف الإنسان في تاريخه الطويل و سواء عن طريق النبوات أو غيـــرها، فهـــذا الكـــتاب ناسخ لما قبله ومهيمن عليه وبه الحجة البالغة والنعمة الكاملة والديانة التامة، وإنما قررنا ذلك لأن الكثيرين من الباحثين الموضوعيين ربما بهرتهم الأفكار المزينة وإن كان في طياتها السم الزعاف و وهي من نتاج بشـــري هزيل، فعلى الباحث الموضوعي أن يكون عند غاية العزة بما هو عليه من إسلام وإيمان والتزام بهذا الكتاب الأعظم.

عاشراً:

أن تتسم الأفكار الموضوعية للباحث بالعملية والواقعية، فلا ينبغي عليه أن يســـبح في خيالات لا صلة لها بالواقع أو نظريات فكرية محضة لا تعالج مسألة أو تتـــناول قضـــية، فإن مهمة البحث الموضوعي كما ذكرنا هي خدمة وظائف القـــرآن ذاتـــه من نزوله، وأنت تدرك أن القرآن إنما كان يتنزل بحسب الوقائع والأحداث في منهاج عملي واضح، كذلك نهيه الظاهر عن كثرة التساؤلات التي لا نصـــيب لها في أرض الواقع، فهذا المنهاج القرآني الشافي المداوي الواقعي العملي يجب أن يكون القدوة لكل باحث في التفسير الموضوعي،وإن نجاحه في البحث مرتهن بمدى التزامه بهذا النهج القرآني الرشيد[1].

---

(١) انظر أيضاً المدخل إلى التفسير الموضوعي – د. عبد الستار السعيد.

خطوات البحث في التفسير الموضوعي

أولاً: المصطلح القرآني

يتبع الباحث في القرآن موضوعياً فيما يتعلق بالمصطلح القرآني (المفردات – الحروف) الخطوات

التالية:

أولاً: جمع المادة العلمية:

تحديد المصطلح المطلوب البحث حوله مثل مصطلح: الأمة – الذكر – الكتاب..الخ.

تحديد الجذر الثلاثي للكلمة المختارة: مثلاً: الأمانة: أمن، الميثاق: وثق، ا لجهاد: جهد، الكتاب: كتب.. الخ.

البحث حول تصريف ومشتقات المصطلح من مظانها في الكتب المعتمدة وذات الاختصاص ومن أهمها:

أ – معجم مقاييس اللغة لابن فارس (متوفي ٣٩٥هـ).

ب _ مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني (متوفي ٤٢٥هـ).

جـ معجم لسان العرب لابن منظور (متوفي ٧١١هـ).

د _ الكليات لأبي البقاء الكوفي (متوفي ١,٩٤هـ).

جمـــع كـــل مـــا ورد في القرآن من مشتقات المصطلح المطلوب و وذلك باستخدام المعجم المفهرس

لألفـــاظ القـــرآن الكـــريم لمحمد فؤاد عبد الباقي وغيره. وكذلك يمكن استخراجها بصورة أشمل وأيسر باستخدام الكمبيوتر حيث تم جمع القرآن كاملاً في قرص واحد C room

إيجاد الرابطة بين المشتقات في المعاجم اللغوية وبين نظيراتها القرآنية.

مراجعة أمهات كتب التفسير التي تناولت المصطلح باشتقاقاته المختلفة في القـــرآن، على أن يهتم الباحث بأمهات كتب المأثور للوقوف على رأي السلف، وكذلك كتب التفسير بالرأي للاطلاع على اجتهادات الأولين. وأن يجمع ما ورد وما تحصل من اطلاعه في الكتب التفسيرية المذكورة.

مراجعة الأفكار الواقعية المتعلقة بالمصطلح المختار والنظريات المطروحة والشبهات وغير ذلك مما له علاقة بالأمر وجمع ما يتحصل لديه.

ثانياً: خطة البحث:

تنبني خطة البحث على المادة العلمية التي تم تجميعها، على أن يلاحظ ما يلي:

١) وضـــع خطـــة الـــبحث على هيئة مقدمة أو مدخل إلى الموضوع ثم فصول مقسمة إلى مباحث والمباحث إلى مطالب وغيرها. أو التقسيم إلـــى أبواب والأبواب تقسم إلى فصول والفصول مقسمة إلى مباحث ثم الانتهاء بخاتمة وخلاصة للبحث.

٢) تحديـد العنوان المناسب لكل فصل من الفصول، وكذلك لكل مبحث من المباحث، وأيضاً إذا كان البحث على هيئة أبواب يكون لكل باب عنوان محدد ومعبر بدقة عما يحتويه من مادة علمية

٣) يـبدأ الباحث في إنجاز أجزاء البحث فصلاً فصلاً بحيث يبدأ الفصل الثانـي مـن حيث انتهى الفصل الأول وهكذا على أن تكون كتابته خالية من التعقيد والاستطراد غير المفيد، وكذلك يكون الأسلوب بليغاً مؤثر لما في ذلك من بلوغ الهدف المقصود.

٤) هـناك ثـوابت فنـية يجب على الباحث مراعاتها بدقة، مثل قائمة المـراجع التي رجع إليها، والتوثيق العلمي الدقيق لكل ما يستدل به، وتخريج الأحاديث وبيان درجتها و وترقيم الآيات، وتشكيل الكلمات الموهمة، والاهتمام بالحواشي والهوامش، وفهارس الأعلام، وغيرها من الفهارس.

اهـتمام الباحث بتجميع خيوط البحث بأكملها خطوة خطوة صوب الهدف الـذي حـدده من بحثه بحيث تصير جميع أطراف المادة العلمية عبر الفصول المتتالية خادمة للهدف ومؤدية إليه، ومنتهية به في النهاية، فلا يحسن أن يشتت الـباحث أدلته ويضيع قيمة مادته العلمية، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث طالما وضـع الهـدف نصـب عينيه وركز جهوده لإبرازه والتدليل عليه بكل طريق مشروع عليه.

ثانياً: الموضوع القرآني

أولاً: تجميع المادة العلمية:

١) تحديد الموضوع القرآني المطلوب البحث فيه:مثل المرأة في القرآن – التوحيد في القرآن.. ألخ.

٢) اختيار عنوان للبحث على أن يكون متقيداً قدر الإمكان بالمصطلح القرآني نفسه ولا يلجأ الباحث لاختيار عناوين غير قرآنية خشية اختلال الفهم نظراً لاختلاف المصطلح.

٣) جمع الآيات القرآنية من أنحاء القرآن، والتي تدل على الموضوع وتتعلق به، ويحسن أن يستقرئ القرآن من أوله إلى آخره بحثاً عن الآيات المتعلقة بموضوعه فإن هذه هي الطريقة المثلى للبحث الموضوعي.

٤) إذا قعدت بالباحث ظروفه أو همته فيمكنه جمع الآيات المطلوبة عن طريق المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أو الكمبيوتر فإن في ذلك كفاية.

٥) تصنيف الآيات إلى مكية ومدنية نظراً لتميز كل صنف بمميزات لها أهميتها في ترتيب الموضوع وربما كان البحث مبنيا على مكية الآيات ومدنيتها، ذلك أن زمن النزول له أثر لا يخفى في فهم الأحكام والناسخ والمنسوخ وغير ذلك.

٦) الالتزام التام بالخصائص القرآنية التي سبق ذكرها.

٧) قـراءة أمهات كتب التفسير حول الآيات المختارة، وخاصة التفسير المأثـور كتفسير الطبري وابن كثير، والتفسير بالرأي مثل الرازي والظـلال والتفسـير البلاغي مثل تفسير أبي السعود والزمخشري وغيرها.

٨) قـراءة الثقافات المعاصرة الخاصة بالموضوع المطلوب وكما ذكرنا فـلا بـد للباحث أن يكون ذا اطلاع عظيم ومعارف جمة اجتماعياً ونفسـياً وتـربوياً، وأصـول السياسـة وأصـول الاقتصاد وأسس الحضـارة، والعلوم التجريبية، والنظريات التشريعية وغيرها، فيأخذ الـباحث مـا يناسـب موضوعه للمقارنة أو النقد أو رد الشبهة أو الاستفادة أو إثبات الإعجاز القرآني.

٩) بمـا سـبق تـتجمع لـدى الباحث المادة العلمية المواتية لقيام بحثه الموضوعي على أكمل وجه.

ثانياً: خطة البحث:

نفـس أسـلوب الخطـة المذكـور آنفاً هو المعتمد لإنجاز البحث الموضوعي المتكامل من القرآن

الكـريم بأجمعـه و ولا فـرق فـي خطوات وهيكل الخطة إلا في العناوين والمخل والخاتمة. إذ

تتبدل بحسب عناصر كل موضوع وهيكله.

ثالثاً: السورة القرآنية

يقوم البحث الموضوعي حول السورة على خطوات نختصرها فيما يلي:

أولاً: تحديد اسم السورة التوقيفي، وربما كان لها أكثر من اسم توقيفي واستخلاص الصلة بين اسم السورة وموضوعها.

ثانياً: تحديد زمان ومكان نزول السورة وهل هي مكية او مدنية، وذلك لتمييز السور المكية بترسيخ أصول العقائد بينما المدنية بتنوع التشريعات وتحديد ما اذا كانت السورة بكاملها مدنية أو مكية أو بعضها مدني أو مكي.

للتعرف الدقيق على المقاصد والآيات المتتابعة للتعبير عنها.

رابعاً: معرفة " شخصية السورة " أي ما يميزها عن غيرها من سور القرآن كله والجو العام الذي يحيط بها، وهذا العنصر قد تميز به سيد قطب رحمه الله في كتاب (في ظلال القرآن) إذ أجاد في وصف شخصية كل سورة تعرض لها.

خامساً: ربط السورة بما قبلها وما بعدها من سور إذا كانت مصلحة البحث تقتضي ذلك، وإلا شغل الباحث نفسه بموضوعات السورة المختارة وما فيها من عبر وفوائد.

سادساً: السور الطويلة عادة تكون عبارة عن أقسام ينتهي كل قسم بمعنى تام يبدأ من بعده القسم الذي يليه، فيراعي الباحث هذه الأقسام ويحدد معالمها ويستخرج من كنوزها ما ييسره الله له، أما السور القصار

فعادة يكون موضوعها واحد دون حاجة إلى تقسيم.

سابعاً: تكون للسورة مقدمة ومدخل وفي نهايتها خاتمة (كما ذكرنا في الأمثلة في موضعها فلترجع) وبين المقدمة والخاتمة و سلسلة من الموضوعات المتتابعة التي تصب جميعها في الهدف الذي تدور حوله السورة بكاملها، فيجب على الباحث ابراز هذه السمات المميزات لكل مقطع من مقاطع السورة وتوضيح الروابط الظاهرة والخفية بين المقاطع وإظهار الروح العامة المسيطرة على السورة من أولها إلى آخرها.

ثامناً: يجب لزاماً على كل باحث المراجعة الدقيقة لأمهات كتب التفسير التحليلي بالمأثور والرأي ما أمكنه قبل أن يدلي بدلوه، فإن هنالك من الفوائد الجمة التي وقف عليها العلماء ما هو أثمن من الدرر وأغلى من الجواهر، وأن تجاهل ذلك مؤد إلى أوخم العواقب والوقوع في شر المصائب.

تاسعاً: بذلك تتجمع لدى الباحث المادة العلمية الخاصة بالسورة الواحدة.

عاشراً: يبدأ الباحث في ترتيب معلوماته وصياغتها حسب ما تقرر سابقاً للوصول إلى الهدف النهائي من التفسير الموضوعي للسورة ألا وهو: إبراز شخصية السورة – وحدتها الموضوعية الواحدة – هدفها الرئيسي – أغراضها ومقاصدها وبعد فهذه أهم ملامح البحث العلمي في التفسير الموضوعي بأنواعه المختلفة واضعين في الاعتبار دخول بعض ما ذكرناه في مقدمة هذا المبحث – فراجعه.

الباب الثاني

أنواع التفسير الموضوعى بحسب بناء النظم الكريم

زهور يانعة في روضات الكتاب الكريم

القسم الأول

أنواع التفسير الموضوعى بحسب بناء النظم الكريم

مقدمة عظيمة النفع

وإحاطة كاملة بكافة أنواع التفسير الموضوعي

أولا: التفسير الموضوعي

بحسب مركبات النظم الكريم

قد تعددت أنواع التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وذلك بحسب المجالات التي يسلكها كل باحث للوصول إلى غايته من بحثه في كتاب الله، وكذلك بحسب الصورة النهائية التي يخرج بها بحثه والهيئة التي يخرج البحث عليها. فأما المجالات التي يسلكها الباحث فهي متعددة، فمنهم من يجعل مرتكز بحثه على حروف الربط وغيرها من الأدوات التي لا يستغني عنها الباحث في القرآن، وذلك للخروج بموضوع أو رد شبهه، فهو تفسير موضوعي يعتمد أساساً على الحروف الرابطة

ومنهم من يجعل مجال بحثه الألفاظ التي وردت في القرآن على استخدامات مختلفة أو متشابهه فيما عرف قديماً باسم (الأشباه والنظائر) فهو تفسير موضوعي أساسه بحث لفظة واحدة من القرآن الكريم.

ومنهم من يجعل بحثه منصباً على المناسبات بين عدد من سور القرآن وبين أجزاء كل واحدة ببعضها وبالأخرى، فهو بحث موضوعي يعتمد على المناسبات.

ومنهم من يسلك البحث في مسألة بعينها على مستوى القرآن بكامله من أوله إلى آخره يتتبع عناصرها ويستجلي أسرارها وينتهي بنتيجة متكاملة، فهذا تفسير موضوعي مجاله القرآن بكامله. ولزيادة البيان فى هذا الوجه فقد تبين بعد البحث والإستقصاء أن عناصر تحليل النظم الكريم من جهة النظم فقط دون غيره هى ذاتها عناصر ارتكاز البحث الموضوعى بحسب ما يشتغل به الباحث، وبه يتسع البحث الموضوعى ليشمل كل وحدات التحليل للنظم الكريم والنظر فيها موضوعيا، فتتم بذلك نعمة الله تعالى لمن أراد خدمة كتاب الله تعالى موضوعيا، فيكون البحث الموضعى متنوعا بحسب الوحدة المعنية من النظم الكريم والتى جعلها الباحث ميدانا لبحثه الموضوعى، فتكون الأنواع بناء على ما تقدم كما يلى:

* الموضوع الذى عمدته الحرف الواحد من كتاب الله تعالى
* الموضوع الذى عمدته اللفظ الواحد من كتاب الله تعالى.
* الموضوع الذى عمدته الآية الواحدة كالمثال الذى بين أيدينا الآن للكرمانى وهو فى المتقدمين والأمثلة على ما ذهب إليه كثيرة جدا لمن أنار الله تعالى بصيرته وهدى فؤاده ووفقه لخدمة كتابه.
* الموضوع الذى عمدته ربع الحزب فقط دون السورة الواحدة (مثل ما سنأتى على ذكره من ربع الحياة فى البقرة وربع النور فى النور بما فتح الله تعالى به علينا.
* الموضوع الذى عمدته السورة الواحدة من كتاب الله تعالى
* الموضوع الذى عمدته الجزء من القرآن كالذى أورده سيد قطب رحمه

الله تعالى في الظلال من موضوع جزء عم وجزء تبارك وسنأتى عليه بتفصيله فى موضعه والله تعالى المستعان.

* أشهر ضروب التفسير الموضوعى وهو التفسير الموضوعى الذى عمدته وركيزته كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره، وهو المتبادر من إطلاق التفسير الموضوعى والأبحاث والمصنفات فيه أعظم من أن تحصى.

فهذه سبعة أصناف للتفسير الموضوعى لكتاب الله تعالى من جهة ميدان العمل فى رسم كتاب الله تعالى وسوف نوردها صنفا صنفا مع التوضيح اللازم بالأمثلة الوافية قياما بحق خدمة الكتاب ورجاء للدعاء الصالح من طلبة العلم وخدمة الكتاب نسأل الله تعالى أن ينور بالحق بصائرنا وأن يهدينا سبلنا أو يأخذ بنواصينا للذى يحبه ويرضاه سبحانه

ثانيا: أصناف التفسير الموضوعي
بحسب منهج المفسر وعمله في التفسير

ثم من جهة اخراج البحث وطريقة عرضه على المخاطبين، نرى تعدداً بين المفسرين الموضوعيين،

- فمنهم من يختصر خلاصة بحثه على هيئة مقال تنشره الدوريات العلمية أو غيرها، فهو مقال تفسيري،
- ومنهم من يخرجه على هيئة بحث متكامل العناصر والأركان في صورة كتاب كبير أو صغير فهو موضوعى صرف.
- ومنهم من يلجأ إلى الأسلوب التحليلي في التفسير على المنهاج المعروف ثم يستطرد من التحليل بإفراد مسألة بعينها ببحث موضوعي متكامل، فهذا تفسير تحليلي موضوعي.
- ومنهم من يبدأ بسرد أهداف السورة وموضوعاتها ومناسباتها على الطريقة الموضوعية، ثم يشرع في تفسيرها تحليلياً، فهذا تفسير موضوعي تحليلي.

وهكذا تنوعت وتعددت أشكال وصور التفسير الموضوعي على أساس هذه المداخل التي ذكرناها.

ثالثا: أصناف التفسير الموضوعي

بحسب الموضوعات التي يختارها المفسر

وهذه تشمل موضوعات لا تنحصر، مع كل فكرة فى كل بحث علمى، وكل دفاع عن عقيدة الإسلام ضد سهام الكفر المتلاحقة، وكل حملة من حملة القرآن لهدم صروح عقائد الزيغ والضلال، وكل بيان لمحاسن الشرع كله أو بعضه، أو كل دعوة صادقة حشدت لها الآيات البينات والحجة العالية، وعلى الجملة فإن موضوعات القرآن وعلومه غير قابلة للحصر كيف؟ وهى علم الله تعالى التى لا يحيط به خلقه ولا يبلغ مداه ولا قطرات منه أحد ابتغاه، ولكن يمكن على سبيل التقريب حصر رؤوس الموضوعات المعلومة إلى الآن فقط منذ بدأ المفسرون الموضوعيون يتناولون موضوعات الكتاب، موقنين أنه يوجد به علوم لم تبلغها أذهان البشر ليومنا هذا، أما رؤوس الموضوعات فهى كما يلى:

أولا: التفسير الموضوعى العلمى:

وهو ما يتعلق بالأمور العلمية التجريبية ومدى ما فيها من إعجاز ومطابقة مذهلة لما ورد به الكتاب قبل ألف وأربعمائة عام، ففيها ميزة إثبات المعجزة وهو مقصد أسمى من مقاصد نزول القرآن على ما ورد فى علوم القرآن الكريم، ومن أمثلة هذه البحوث الموضوعية، بحوث الطب والقرآن، والفلك والقرآن، والجبال والقرآن، والبحار والقرآن، وإعجاز النبات فى القرآن، وغيرها من فروع المعارف العلمية التجريبية، ومطابقتها بما ورد بشأنها فى كتاب الله تعالى، ومنها رسائل جامعية أكاديمية شرعية وعلمية تجريبية وربما أتينا على بعض أمثلتها فى موضعها إن شاء الله تعالى.

ثانيا: التفسير الموضوعى الأدبى:

ولا يقصد به هاهنا ما يتعلق بالأدب الذى هو فرع البيان والبلاغة، وإنما يقصد كل ما من شأنه أن يكون فى الدراسات الأدبية التى هى اليوم قسيمة الدراسات العلمية التجريبية، ومنها الدراسات الشرعية والتربوية والفلسفية والتاريخية والجغرافية والإجتماعية وغيرها من علوم الدراسات الأدبية حيث نجد كثيرا منها قد قام به من انتدبوا أنفسهم لبيان إحكام التشريع وجلال القرآن، فى كل فرع منها، فهناك دراسات موضوعية قرآنية اجتماعية، ودراسات قرآنية تاريخية، وغيرها فى كل مجال من المجالات المذكورة فهذا هو النوع المبنى على الدراسات الحضارية والفكرية بكافة فروعه التى مثلنا لها فقط فى هذه العجالة.

ثالثا: التفسير الموضوعى الدعوى (الهدائى) .

وهذا النوع من التفسير يشمل الموضوعات المتعلقة ببيان محاسن الشرع والقرآن ومعجزاته، وكل ما من شأنه الدعوة لهذا الدين وترغيب الناس فى الدخول إليه وهذا النوع من التفسير الموضوعى هو المستند على أن المقصد الأساسى لنزول القرآن الكريم هو الهداية، ومنه فإن التركيز الشديد على اختيار الموضوعات الدعوية الهدائية كموضوع التوحيد وبيان تمامه وجماله وجلاله وبراءته من الشركيات والنواقص فى كتاب الله تعالى أو كالأسماء والصفات أو إحكام الشريعة أو حب الله تعالى أو الخضوع لله تعالى وكلها موضوعات فى غاية الأهمية من الناحية الدعوية الهدائية فإنها تندرج تحت هذا النوع من التفسير الموضوعى من حيث الموضوع الذى يعنى به الباحث.

وليس ما أوردناه هاهنا من قبيل الحصر فلقد تبين لك أن هذا البحر الطامى تعجز هممم المخلوقين ولواجتمعوا وكان بعضهم لبعض ظهيرا على الولوج فى مباديه فكيف بالغوض إلى أعماقه واستجلاب جميع جواهره ومعانيه، وخلاصة المسألة قد حسمها القرآن بأبلغ عبارة فقال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

قال الغزالى:[1] (بل أقول ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الامكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود وان كان في قوة الآدمي الوصول اليها، وعلوم كانت قد خرجت الى الوجود واندرست الآن فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس في قوة البشر أصلا ادراكها والإحاطة بها ويحظى بها بعض الملائكة المقربين، فان الامكان في حق الآدمي محدود والإمكان في حق الملك محدود الى غاية في الكمال بالإضافة، كما أنه في حق البهيمة محدود الى غاية في النقصان. وإنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم في حقه ويفارق علمنا علم الحق تبارك وتعالى في شيئين:

أحدهما: انتفاء النهاية عنه.

والآخر: أن العلوم ليست في حقه بالقوة والامكان الذي ينتظر خروجه بالوجود، بل هو بالوجود والحضور فكل ممكن في حقه من الكمال فهو حاضر موجود

ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن

---

[1] جواهر القرآن /٤٤

فان جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد....) انتهى

التفسير الموضوعى

التفسير الموضوعى بحسب مركبات النظم الكريم

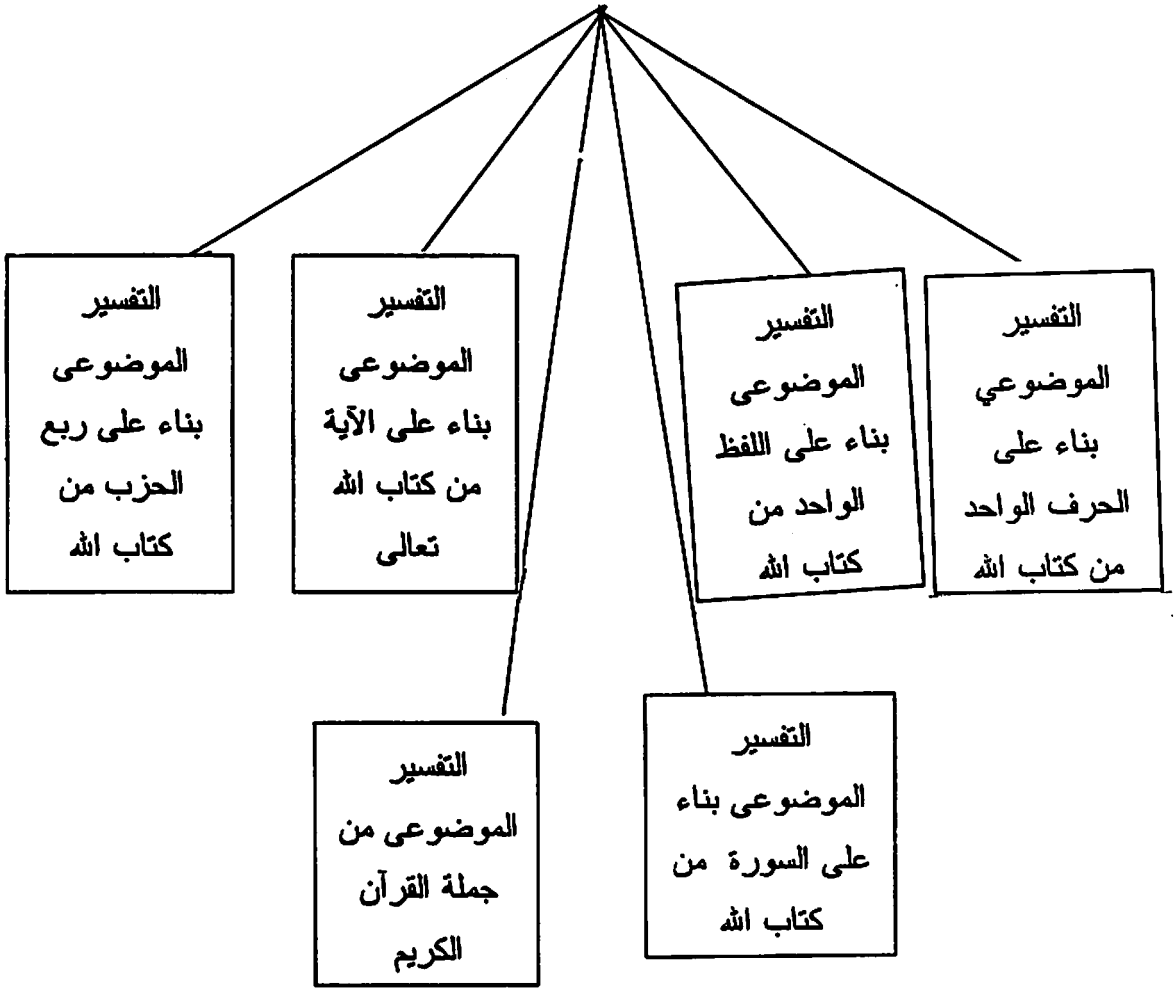

التفسير الموضوعى بحسب منهج المفسر

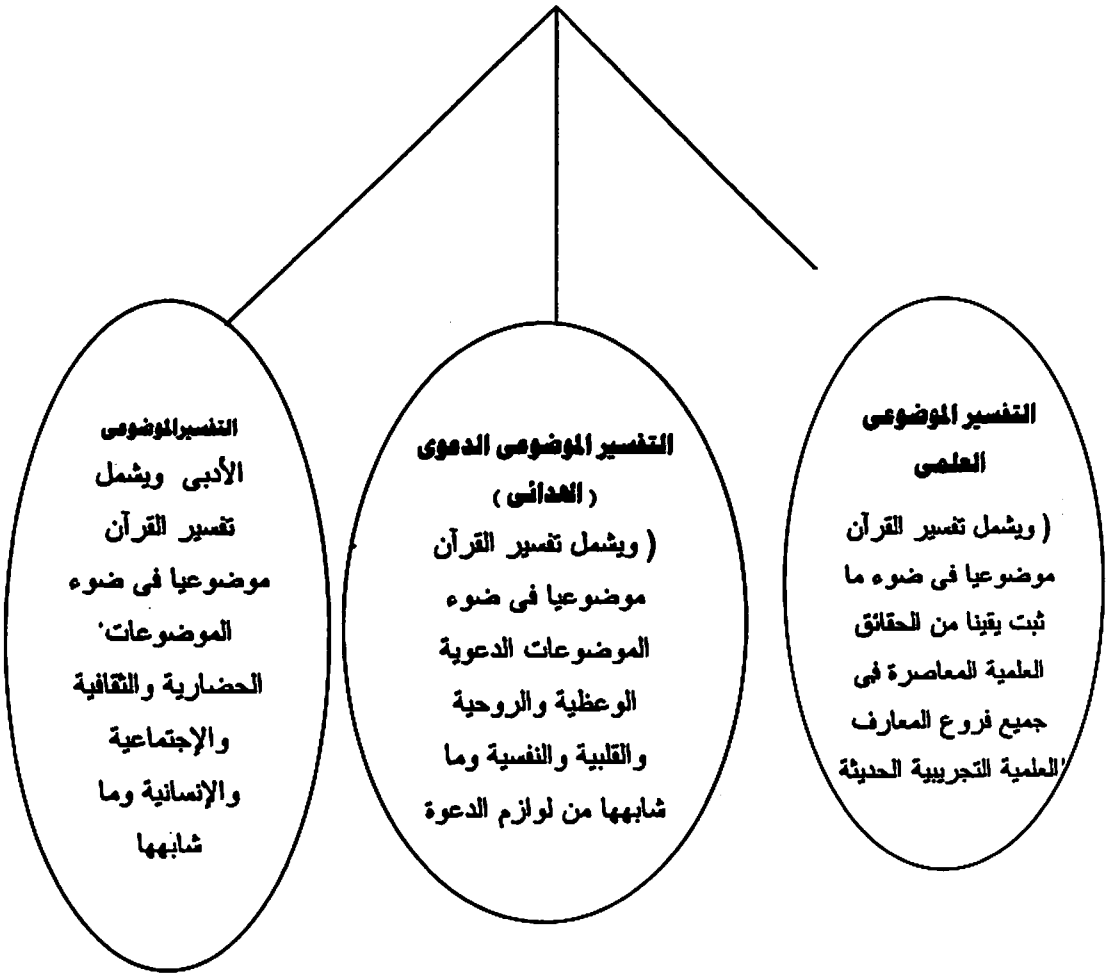

التفسير الموضوعى بحسب مخرجات المفسر

التفسير الموضوعى التام

وهو التفسير الموضوعى المثالى ويشمل الدراسات الموضوعية الصرفة وأمثلته كثيرة جدا فى الأبحاث الجامعية التفسيرية للحصول على الدرجات العلمية وكذلك الكتب المنشورة فى موضوعات قرآنية شتى

التفسير الموضوعى التحليلى

(تفسير بمقدمة موضوعية مع المنهج التحليلى ومثاله تفسير فى ظلال القرآن)

التفسير التحليلى الموضوعى

(تفسير تحليلى مع استطرادات موضوعية ومثاله تفسير المنار)

المقال التفسيرى

(تفسير موضوعى إجمالى على صورة مقال تفسيرى للنشر فى الدوريات أو وسائل الإعلام وأمثلته كثيرة فى المقالات التفسيرية فى الصحف والمجلات والأبحاث المحكمة المختصرة وأشباهها

أنواع التفسير الموضوعي بحسب بناء النظم الكريم

أولاً: التفسير الموضوعي

الذي يدور على الحروف الرابطة

الحروف اللغوية الرابطة مثل الواو والفاء وثم والهمزة وغيرها من الأدوات التي لا يستغني عنها المفسر، هي من المباحث اللغوية البلاغية في أصلها، وكذلك هي من مباحث علوم القرآن. ووجه فائدتها في البحث الموضوعي، هو دلالاتها الدقيقة والتي بها ترتفع كثير من الشبهات التي وجهت إلى كتاب الله تعالى من أعدائه، وأظهرها دعوى التكرار من غير فائدة – بزعمهم _ نظراً لتناول القرآن الكريم للأحداث والقصص والوقائع، مرة بعد مرة ومن وجوهها المختلفة.

ومن هنا وجدنا المفسرين يصبون همهم في بحث هذه الأدوات وأثرها في تفسير الآيات موضوعياً بحيث تتكشف الشبهات والاختلافات، من وجوه أظهرت اعجازاً بيانياً وموضوعياً في كتاب الله تعالى كما سنذكر.

قال السيوطي في الاتقان:

" في معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وأعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف: إعلم أن معرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها، كما في قوله تعالى:(وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)

فاستعملت (على) في جانب الحق وفي جانب الضلال لأن صاحب الحق مستعمل يصرف نظره كيف يشاء، وصاحب الباطل منغمس في ظلام منخفض لا يدري أين يتوجه "[1]

فمن ذلك تقرر الصلة بهذه الحروف والأدوات بالتفسير، وإن كانت مباحثها في الأصل لغوية بلاغية. فإذا تتبع المفسر استعمالها حسب تسلسل المصحف، فهو تفسير تحليلي على مسند اللغة، ومثال ذلك ما فعله الزجاج في كتابه (اعراب القرآن ومعانيه) فهو تحليل لغوي للنظم الكريم.

وإذا وجد المفسر الحاجة إلى جمع آيات متفرقات في موضوع بذاته ثم اعتمد في تفسيره وكشف الشبهات وابراز المعاني الدقيقة من جملة الآيات على هذه الأدوات، فهو تفسير موضوعي عمدته اللغة واستعمالات الحروف والأدوات في مقابلة التفسير التحليلي اللغوي للزجاج وغيره.وقد ظهر هذا جلياً في تناول المتأخرين للتفسير مع شدة الدعاوي والشبهات حول تكرار المعاني والموضوعات في القرآن وغير ذلك.

فالفائدة من التركيز على هذه الأدوات على طريقة البحث الموضوعي للآيات أمور.

١) رد الدعاوي والشبهات التي تزعم التكرار في كتاب الله.

٢) إثبات وجه إعجازي في كتاب الله يقطع بنسبته إلى الله سبحانه وتعالى.

٣)الدخول إلى الفهم الأعمق لكتاب الله تعالى والوقوف الصحيح على مراد الله عز وجل من الآيات.

---

(١) الاتقان – السيوطي – جزء ٢ صـ ٣٠٩ (النوع) الأربعون.

المثال الأول

ومن الأمثلة التي تظهر التفسير الموضوعي على النوع الذي ذكرناه:

قوله تعالى في سورة البقرة:

" وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم.. الآية "

قال الزرقاني (مناهل العرفان)

" ولعلمائنا – أكرمهم الله – أذواق مختلفة في استنباط الفروق الدقيقة بين استعمال حرف أو كلمة مكان حرف أو كلمة – ومن السابقين في حلبة هذا الاستنباط الخطيب الاسكافي المتوفي سنة ٤١٢هـ في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) وهاك مثالاً منه يفيدنا فيما نحن فيه، إذ يتحدث عن سر التعبير بالفاء في لفظ (كلوا) من قوله تعالى في سورة البقرة (وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم) وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء في لفظ كلوا، أيضاً لكن من قوله تعالى في سورة الأعراف: (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم)، ومدخول الحرف الواحد. قال رحمه اله:

" الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلمه به تعلق الجواب بالإبتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء.

ومنه (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا) فإن وجود الأكل متعلق بالدخول، والدخول موصل إلى الأكل، فالأكل وجوده معلق بوجوده، بخلاف (وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا)، لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء، وجب العطف دون الفاء " أ. هـ

فمن هذا المثال تتكشف شبهة طالما استغلها المستشرقون مرسلين سهامهم بـأن القرآن ملئ بالتكرار، وأن التكرار لغير فائدة هو عبث، وكيف يكون ذلك في كتاب أنزل من عند الله،وغير ذلك من سخافاتهم ومفترياتهم. فظهر من هذا التفسير الدقيق للآيتين اللتين تتشابهان إلى درجة كبيرة، بحيث لا يلاحظ الفرق بينهما، أن الفرق مع دقته ظاهر ظهوراً أشبه بالمعجزة.

فالآية الأولى في سورة البقرة، تصف الأمر لبني إسرائيل بدخول القرية فقط فإذا دخلوها فإنهم سيصلون إلى الطعام والشراب فيها، فانبنى حصولهم على الطعام على دخولها، فكان العطف بالفاء.

أما الآية الثانية في سورة الأعراف، فإنها تحكي حالهم عند استقرارهم وسكنهم في القرية وبعد دخولها، بحيث لا يوجد دخول يترتب عليه طعام، بل هنا سكن واستقرار وطعام، فكان العطف بالواو لما سبق.

فكان جملة القصة من الآيتين في سورتين مختلفتين، هي دخول – استقرار وسكن – أكل وشراب.

فتبين الموضوع من أكثر من سورة على أساس حرف العطف. وهذا تفسير موضوعي فتأمله.

المثال الثاني

في الآيات الكثيرة التي وردت في كتاب الله تعالى تأمر بالسير والنظر للإتعاظ من العواقب التي أصابت الهالكين من الأمم الآبقة عن أمر الله تعالى، وجد أن الله تعالى عطف النظر على السير بالفاء في أحد عشر موضعاً من الكتاب، غير أنه عز وجل عطف بحرف التراخي (ثم) مرة واحدة في سورة الأنعام.

فأما الآيات التي عطفت بالفاء، فقوله تعالى:

" أفلـم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم " في ثلاث مواضع في سورة يوسف (١٠٩)، وسورة غافر (٨٢) وسورة محمد (١٠)٠

وقوله تعالى " أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المكذبين " في ثلاث مواضع هي: سورة الروم (٩)، سورة فاطر(٤٤)، سورة غافر (٢١)

وكذلك جاء ذلك بصيغة الأمر في قوله تعالى:

" فسيروا في الأرض فأنظـروا كيف كان عاقبة المجـرمين " آل عمران (١٣٧)، والنحل (٣٦)٠ وقوله تعالى " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل" سورة الروم (٤٢)٠

وأما المرة الوحيدة في كتاب الله التي جاءت بها الآية وفيها العطف بحرف التمهل والتراخي، فكانت في سورة الأنعام حيث قال الله تعالى:

" قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " الأنعام(١١)٠

فهذه جملة آيات في موضوع واحد في كتاب الله تعالى، ألا وهو ضرورة السير والنظر والاعتبار بأحوال السابقين٠

ولكـن الاخـتلاف في العطف في سورة الأنعام قد لفت أنظار المفسرين، فتكاثرت تعليلاتهم، فقال الزمخشري، أن معنى ذلك: سيروا في الأرض للتجارة وغيرها، ثم أوجب النظر في أحوال الهالكين، قال: " نبه على ذلك " بثم " لتباعد مابين الواجب والمباح"[1] أي بين التجارة والعبرة٠

---

(١) الكشاف – الزمخشري جـ٢ – صـ٧

واعترض أبوحيان فقال:

"وعلى تسليم أن الفاء تفيد السبب فلم كان السير هنا سير إباحة، وفي غيره سير واجب؟! "[1].

واجتهد صاحب الإنصاف في رد تأويل الزمخشري فقال:

"وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحد على أن النظر هو المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لاغير،وشتان بين المقصود والوسيلة"[2]

ولكن صاحب درة التنزيل، قد كشف في عبارة دقيقة عن المعنى العميق لهذا الإختلاف فقال:

"فقوله في سورة الأنعام: " قل سيروا في الأرض ثم انظروا " لم يجعل النظر فيه واقعاً عقيب السير، متعلقاً وجوده بوجوده، لانه بعث على سير بعد سير، لما تقدم من الآية التي تدل أنه تعالى حداهم على استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثراً بعد أثر، في ديار بعد ديار، قد غم أهلها بدمار لقوله تعالى: (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم)، ثم قال (فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) ثم ذكر في قوله (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) يعني قروناً كثيرة من قبلهم أهلكناهم، ثم قال " وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين " فدعا إلى العلم بذلك بالسير في البلاد ومشاهدة هذه الآثار وفي ذلك ذهاب أزمنة كثيرة، ومدد طويلة تمنع

(١) البحر المحيط – أبو حيان – جـ ٤ – صـ ٨١

(٢) الانصاف فيما تضمن الكشاف من الاعتزال – ابن المنير الاسكندري – جـ ٢ صـ٧.

النظـــر مـــن ملاصقة السير، كما قال في المواضع الأخر التي دخلتها الفاء، لما قصـــد مـــن معنـــى التعقـــيب واتصال النظر بالسيز، إذ ليس في الأماكن التي استعملت فيها الفاء، مافي هذا المكان من البعث على استواء الديار"[1]

فهـذا موضـــوع مـــن الموضوعات التي تناولت مسألة من أهم المقاصد القـــرآنية، ألا وهـــي الســـير والاعتبار والنظر لتجنب المهاوي التي سقط فيها الهالكـــون. وقـــد رأيت كيف اهتمام العلماء بها وجمع الآيات، وترجيح الأقوال للوصول إلى السر الكامن،والحكمة الكبرى وراء هذا التغيير الذي لا يكاد يلتفت إلـــيه بـــين حرفين من حروف العطف، فكل تفاسيرهم للآيات ترتكن على هذا الحـــرف أو ذاك، حتى يتبين أن ذكر حرف التمهل والتراخي في سورة الأنعام إنمـــا كان لسبب أصيل وعلة فاعلة. ونحن نضيف هاهنا أن سورة الأنعام دون غيـــرها من السور التي ذكر فيها السير والنظر، إنما توجهت بجملتها وبصورة بالغـــة إلـــى مســـألة العقائـــد ورد الشبهات والتشنيع على الكافرين و مذاهبهم، فـــراجعها تجد هذا منهاجها من أولها إلى آخرها، فحسن في هذا السياق الحافل بذكر أحوال الكافرين وشبهاتهم، والروح العام الذي يصبغ هذه السورة أن يكون النظر كثيراً، وفي أزمان متطاولة وعلى وجوه مختلفة وعبر أمكنة متباينة بما لا يصلح له حرف الفاء المفيد التعقيب والسرعة بحال.

فممـــا ســـبق ترى أن هذا " موضوع " قرآني تناوله المفسرون، وعمدتهم الحـــروف، للوصول إلى غاية محددة من بحث الموضوع، وما ذاك إلا التفسير الموضوعي على مابيناه. فتدبر.

---

(١) درة التنزيل – الخطيب الاسكافي صـــ ١١٢

المثال الثالث

قوله تعالى في سورة المؤمنين:

" ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة. فخلقنا العلقة مضغة. فخلقنا المضغة عظاماً. فكسونا العظام لحماً. ثم أنشأناه خلقاً. فتبارك الله خير الخالقين " المؤمنون " ١٢- ١٤

وقوله تعالى في سورة الحج:

" ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم " الحج ٥

وقد استراح بعض الشراح إلى قول القائلين بأن هذه الحروف مثل " ف" و " ثم" ينوب بعضها عن بعض، أي أن الله سبحانه وتعالى أحياناً يأتي بالفاء، وأحياناً – ودون سبب في المعنى المقصود – يأتي بدلاً منها " بثم " اعتماداً على القول المذكور. وفي هذا افتئات على كتاب الله تعالى الذي لاتعتريه الضرورة، ولا يلزمه الإضطرار. ولقد تنبه المحققون من العلماء إلى الغلط الظاهر في هذا القول فقال ابن تيمية:

" والعرب تضمّن الفعل (معنى الفعل) وتعديه تعديته. ومن هنا غلط من جعل من بعض الحروف تقوم مقام البعض كما يقولون في قوله تعالى: (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه)، أي مع نعاجه، و(من أنصاري إلى الله) أي مع الله، ونحو ذلك.

والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من (التضمين)، فسؤال النعجة يتضمن

جمعهـــا وضمها إلى نعاجه، وكذلك قوله (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك) ضمن معنى: يزيغونك ويصدونك، وكذلك قوله (ونصرناه من القوم الذين كذبـــوا بآياتنا) ضمن معنى: نجيناه وخلصناه،وكذلك (يشرب بها) ضمن: يروى بها، ونظائره كثيرة "[1]

فـــتأمل كـــيف نـــزه المحققون من العلماء كتاب الله تعالى عن الارتجال، وأعادوا كل حرف إلى معني رصين عميق أراده الله تعالى، ويمكن الكشف عنه والوصـــول إلـــيه بشئ من التدبر والتأمل والجهد الذي ينأى بالعلماء عن القول المرسل المريح بأن الحروف ينوب بعضها عن بعض لينتهي البحث عند ذلك.

والآيات المذكورة تمثل مراحل تكون الجنين تبين المسألة من وجهين.

الوجه الأول: فيما يتعلق بتتابع المراحل في رحم الأم نسبة إلى بعضها من حيث البطء والسرعة، فكان قوله تعالى: " فخلقنا العلقة مضغة " وقبلاً " ثم خلقنا الـــنطفة علقـــة " أي بمجرد استقرار النطفة في الرحم كان التحول وبدء تسلسل النموإلـــى قـــوله " ثم أنشأناه خلقاً آخر " أي بعد فترة طويلة إذا ما قورنت بما قبلها. وبالبحث الدقيق والنحوي عند أهل الاختصاص من علماء الأجنة ثبت ذلك بصورة قاطعة.

أما الوجه الثاني الذي جاء في سورة الحج، فهو مقام مجاوبة المرتابين في المبعث بإعطائهم الدليل الظاهر الذي لا يختلف فيه، ألا وهو أنفسهم حال تقلبها فـــي الأرحـــام طوراً بعد طور، فالأمر هاهنا للمرتاب بالنظر الدقيق من حتمية البعث، فكان طلب الدقة والنظر الطويل هاهنا يناسبه حرف التمهل والتراخي إذ النظرة العجلى التي لا تدبر فيها لا تؤدي إلى المقصود.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير – ابن تيمية – صـــ ٦٤

فالآيـــة الأولى فيها وصف للأمر على حالته وهيئته، والآية الثانية طلب الاعتبار والتدقيق والنظر الطويل، كذلك الأولى فيها تسليم المراحل بعضها إلى بعـــض، والثانـــية هيمنة الله تعالى وتحكمه في خلق الناس من كل مرحلة على حدتها، وهو مناسب لذكر البعث من التراب فإنه عليه قادر. فتأمل هذا واعلمه. فهو ضرب من التفسير الموضوعي عماده الحرف الواحد، لتعلم درجة الاعجاز في هذا الكتاب الذي لا يغسله الماء ولا تحرقه النار.

ومـــثل ذلـــك يمكن القول في قوله تعالى في شأن فرعون: " فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ". وفي الأخرى " فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى "

فالآية الأولى معجلة بمشهد دمار فرعون والمقدمات التي أدت لذلك، وهذا يهـــدف بـــيانه العظة والعبرة لمن لا يفهمها أو للغبي الذي يستكبر ويذهل عن المعاني المطولة.

والآيـــة الثانية تشرح المشهد من جهة نفس فرعون وكيف أسرع أولاً ثم تـــردد أخيراً وذلك قوله تعالى " ثم أتى " أي: أتى على تردد وتثاقل، بما يقطع بأنه كان يختان نفسه حين قال أنا ربكم الأعلى، وأنه يعلم عكس ذلك من نفسه، ويعلـــم قوة حجة موسى وسطوع برهانه، فهذه توطئة من القرآن لما سيكون من أمـــر جحـــده وهو يعلم، وهو بيان لنفسه المتضاربة المترددة عند هذا الموقف الجلل. فاعرفه.

المثال الرابع

أولا: تفسير موضوعى لسورتين على الحرف القرآنى

(حكى الخطابي أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن وضعوا سورة القدر عقب العلق استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) الإشارة إلى قوله: (اقرأ)، قال القاضي أبو بكر بن العربي وهذا بديع جدا)[1]

قلت: فهذا حرف واحد جمع موضوع سورتين من قصار السور وهما سورة العلق وسورة القدر فعرف الصحابة رضوان الله عليهم بما حباهم الله تعالى من الفهم موضوع السورتين، وأنه القرآن المشار إليه فى قوله تعالى: (إنا أنزلناه) أى القرآن وأن هذا الضمير عائد على السورة التى ذكر فيها القرآن ألا وهى العلق وذلك لقوله تعالى فى مفتتحها: (إقرأ) أى هذا القرآن، فتأكد لهم ما اشتبه من ترتيب السور بأن سورة (القدر) لا بد أن تكون عقب العلق نظرا لكون الموضوع واحد ألا وهو كلام الله تعالى عن القرآن وضرورة تعلق الضمير بمعموله، ففطنوا إلى أنه المذكور فى مفتتح سورة العلق، ومن هنا استحسن العلماء هذا التخريج (الموضوعى) على حرف واحد، كما أوردناه لك فتأمل.

تفسير موضوعى لسورة واحدة على الحروف

قال الزركشى في البرهان:

(ومن ذلك افتتاح السور بالحروف المقطعة واختصاص كل واحدة بما

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/٢٨٨

بـدئت بـه حتـى لـم يكـن لترد (الم) في موضع (الر)، ولا(حم) في موضع (طس).....

وذلـك أن كل سورة بدئت بحرف منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل لـه، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع (ق) موضع (ن) لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله، وسورة (ق) بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول ومراجعته مـرارا، والقـرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد والرقيب والسائق، والإلقـاء في جهنم، والتقدم بالوعد وذكر المتقين، والقلب والقرون، والتنقيب في البلاد، وتشقق الأرض، وحقوق الوعيد،وغير ذلك. وقد تكرر في سورة يونس مـن الكلـم الواقـع فـيها (الراء) مائتا كلمه أو أكثر فلهذا افتتحت ب: (ألر)، واشـتملت سورة (ص) على خصومات متعددة: فأولها خصومة النبي مع الكفار وقـولهم (أجعل الآلهة إلها واحدا)، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم، ثم في شأن بنـيه وإغوائهم. و (الم) جمعت المخارج الثلاثة: الحلق واللسان والشفتين على تـرتيبها، وذلـك إشـارة إلى البداية التي هي بدء الخلق، والنهاية التي هي بدء المـيعاد، والوسط الذي هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي. وكل سورة افتـتحت بها فهي مشتملة على الأمور الثلاثة. وسورة الأعراف زيد فيها الصاد علـى (الم) لما فيها من شرح القصص: قصةآدم فمن بعده من الأنبياء، ولما فيها من ذكر(فلا يكن في صدرك حرج)، ولهذا قال بعضهم معنى (المص): ألم نشـرح لك صدرك وزيد في الرعد (راء) لأجل قوله:(رفع السموات)، ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما .

واعلـم أن عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يـتعلق بالقرآن كقوله:(ألم ذلك الكتاب)، (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل علـيك الكتاب بالحق)،(المص كتاب أنزل إليك) (الر تلك آيات الكتاب)،(طه ما أنـزلنا علـيك القـرآن لتشـقى)،(طسـم تلـك آيات الكتاب)،(يس والقرآن) (ص والقـرآن)،(حـم تنزيل الكتاب)،(ق والقرآن)، إلا ثلاث سور: العنكبوت والروم ون ليس فيها ما يتعلق به، قال السيوطى فى الإتقان: (وقد ذكرت حكمة ذلك في أسرار التنزيل) إنتهى

فوائد جليلة حول التفسير الموضوعى على الحرف القرآنى

قلـت: فإن قال قائل فما هو وجه علاقة هذا الشرح للرابطة بين الأحرف المقطعـة فى أوائل السور وبين ما نحن بصدده من التفسير الموضوعى عموما والتفسير على الأحرف خاصة للسورة قلت: لذلك وجوه

الأول: أن الموضـوع الذى دار عليه بحث السادة العلماء المذكورين فى الأحـرف التـى ذكرت فى كل سورة هو موضوع من أهم موضوعات التفسير وعلـوم القـرآن عامـة، بـل من أهم الموضوعات التى تناولها كتاب الله ردا للشبهات ومنافحة للكفريات، ألا وهو موضوع (إعجاز القرآن)،وما تبدى لك من بحـث فهـو هـذا الموضـوع القرآنى على مستوى السورة من جانب وعلى مسـتوىالقرآن بكاملـه مـن جانـب، وفى الجانبين فإن عمدة البحث وأساسه وصـميمه هـو الحرف فى القرآن الكريم أى تقرير وجه من الإعجاز القرآنى يـتعلق بالأحـرف وهو ما أردنا إثباته فتدبر ، إذ من المعلوم أنه لا طاقة لبشر ومهما أوتى من فطنة وذكاء أن يؤلف فصلا من كتاب مفتتحا إياه بالأحرف التى سـتكون محـلا للتكرار فيه وسواء بذواتها أو بما تعبر عنه من مسائل وقضايا

وموضـــوعات، ثم يأتى الأمرفى التصنيف مطابقا لمراده ومبتغاه تمام المطابقة بـــل ومخالفا لغيره من الفصول والأبواب فى ذات المصنف ، هذا من شدة دقته وخفائـــه لا يخطـــر علـــى قلب بشر أولا وهو ما تثبته كتابات البشر فى جميع اللغات منذ عرف الإنسان الكتابة، وعدم وروده علامة العجز عن تصوره فتثبت الدعـــوى دون مرية أو شك بنسبته حتما إلى الله تعالى. فإن قال قائل: فما يمنع أن يكـــون ذكـــر الأحرف المقطعة عفويا بحيث لا تربطها بالسورة المعنية أى رابطـــة ولا صـــلة؟ وبـــه فهو أقرب إلى خبط العشواء بالأحرف التى لا فائدة ظاهـــرة من وراء ورودها أو نفع فى علم أو معنى من جراء تقديم السورة بها؟ فـــيكون الجـــواب الصـــاعق بما ذكره العلماء الأجلاء قريبا من وجه الإعجاز العجـــيب فى ورود الأحرف بأكثر اعدادها فى ذات السورة حتى لا يمكن تغيير أو تبديل حرف منها أو تحويله إلى غيرها من السور ذات الأحرف المقطعة في أوائلها، وهو أمر فوق تصور البشر أولا من جهة التأليف والتصنيف كما قدمنا، ثـــم بتسليم وروده فكرة على قلب مصنف فإنه يبقى فوق طاقة الكتاب والمؤلفين تنفـــيذا وعمـــلا، إلا بتصور مصنف يبدأ الباب بالأحرف ثم يختم بعدد الأحرف التى أوردها فى هذا الباب ثم يتابع بالتغيير والتبديل فى الكلمات والحروف حتى تستقيم فى كثرتها العددية مع ما قدم لها فى أوله، ثم يراجع المصنف بكامله من دهـــة عـــدد أحرفه للتأكد من أن أى فصل آخر ليس به من العدد المقرر ما هو اربـــى منه بالتناسب مع الحروف المقطعة الأخرى، ثم يتابع تكرار ذات العمل الـــبالغ التعقـــيد فى كل فصل ذكر في أوائله حروفا مقطعة وهكذا يتبدى لك أنه لـــيس فى طوق عالم ولا جاهل الدخول فى هذا الركن الحرج، فتبين به أنه من الله الذى لا يشغله أمر عن أمر ولا شأن عن شأن، وما الإعجاز إلا ورود الأمر خارقا للعادة مقرونا بالتحدى سالما من قدرة البشر على معارضته وهو بحذافيره فـــى هـــذه المســـألة العابـــرة التى لا يلتفت إليها فقط فكيف بغيرهامن وجوه

الإعجاز؟ فكيف بعظائم المعجزات التى تتلاطم كالموج الصاخب فى هذا البحر اللجى الذى لا ساحل له من البينات (فبهت الذى كفر) والحمد لله رب العالمين ، فثبت منه وجه موضوعي للبحث فى أحرف الكتاب العزيز وما ذاك إلا البحث التفسيرى الموضوعى مرتكزا على الأحرف.

ولعل فيما ذهب إليه العلماء من المنهج السابق مستندا للمتأخرين من العلماء الذين حاولوا الوقوف على هذا النوع من الإعجاز وأسموه (الإعجاز العددى فى القرآن الكريم) [1]، ولو صح ما أوردوه من المطابقة والعجائب حول الأحرف والكلمات وأعدادها فى كتاب الله تعالى لكان وجها من الإعجاز لا مرية فيه ولا شائبة فاعلمه.

الثانى: وجه التفسير الموضوعى للسورة الواحدة من القرآن بناء على الأحرف التى فى أولها، ألاترى أن البحث فى سورة (ق)، وما بدئت به من المعانى، وما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد والرقيب والسائق، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد وذكر المتقين، والقلب والقرون، والتنقيب في البلاد، وتشقق الأرض، وحقوق الوعيد،وغير

(١) من أشهر المؤلفات فى ذلك كتاب : الإعجاز العددى فى القرآن الكريم لعبد الرزاق نوفل المولود سنة ١٣٣٧ هـ ، والمتوفى سنة ١٤٠٤ هـ وصدر فى ثلاثة أجزاء ، وقد ووجه الكتاب المذكور بنزاع أهل العلم بين مؤيد ومعارض ، وليس هاهنا مجال الإطالة فى مناقشة الآراء والترجيح بينها ، ولكن فقط تقرير ما صنعه علماء السلف من حيث الأمر الواقع حيث لم يجدوا حرجا فى تتبع أعداد الحروف للوصول إلى نتيجة موضوعية للسورة الواحدة أو لعدد من السور فى كتاب الله تعالى وهو محل البحث فى هذا المصنف فلا يلهينك عن الغاية المبتغاة خلافات وتفرعات ليست من غاياته أو محل النزاع فيه.

ذلـــك. أليس ما ذكر جميعه من الموضوعات بالغة الأهمية والرسوخ من الديانة والعقيدة والمعاملة وغيرها من أخطر ما بنى عليه الإسلام جملة، ثم أليس البحث حـــول الطـــريقة العربية والصياغة اللغوية والتى صبت فيها المعانى المذكورة موضـــوعا آخر من موضوعات البحث فى ذات السورة، ثم ألا يستلزم ما ذكر قراءة مستفيضة رصينة للسورة من أولها إلى آخرها مرات عديدة للوصول إلى النتـــيجة العجيبة المذكورة، ثم ألم يكن من اللازم كذلك دراسة إحصائية لأعداد الأحرف بما فيه من جهد ومشقة وعناء عجيب شاهد بمدى سهر هذه الأمة على العناية بكتابها والقيام بحقه من جانب كذلك الشاهد على مدى المعجزة الكامنة فى كتاب الله تعالى، أليس جمع الأحرف ومقارنتها بالأحرف الاولى، وجمع المعانى مـــن السورة، وجمع الصياغات والوقوف على العلاقة بينها وبين أوائل السورة، ثـــم الوصول إلى النتيجة المرجوة كل هذه هي خطوات البحث ومراحله الدقيقة فـــى التفســـير الموضـــوعى جملة، ولكنه هاهنا يقوم على الحرف الواحد، أى موضـــوع تفســـيرى بكامله ونتيجة كا ملة قائمة على الإستقصاء الكلى للسورة، والوصـــول إلى الهدف القرآنى الذى من أجله أتت الحروف بالذات فى أول كل سورة فلا يمكن تبديل حرف مكان حرف ولا تغيير حرف بدلا من حرف وهو المطلوب إثباته وبالله تعالى الهداية والتوفيق، وهو نفيس فتدبره

ثالثا: أما ما ورد فى سورة ص، فهو صريح فيما يسمى بالإعجاز العددى فـــى كـــتاب الله تعالى ومن عجب أن هؤلاء العلماء على بعد الشقة والزمن قد فطـــنوا إلـــى هذا الصنف من الإعجاز القرآنى، ولم يكن لديهم حواسيب تأتيهم بالبيانات كالبرق الخاطف وبغاية الدقة واليسر، حتى جاء فى زماننا وبعد سطوع الحجة وبيان المحجة ووجود الوسيلة المبهرة والتى لم تخطر على قلب بشر قبل

مائة عام عددا، فترى من ينتسب للعلم والعلماء يثيرون العاصفة الشعواء حتى أن بعضهم قد وصف هذه المحاولات للعد والإحصاء المؤدى إلى إبراز هذا الوجه من الإعجاز بأنه (فضيحة)[1]، وواقع الأمر أن أمثال هؤلاء إنما أصابوا فيما يظنونه دفاعا عن حرمة كتاب الله تعالى والذب عن حياض التفسير والعلم، ولكن خطأهم البين هو رد الخلق كافة إلى درجة علمهم وحد فهمهم،و من شاء دليلا دامغا مسكتا فليقرأ تارة أخرى ما نقله السيوطى عن الزركشى موافقا إياه مما يقارب القرون العشرة هذه العبارة الفاصلة: (وقد تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها (الراء) مائتا كلمة أو أكثر فلهذا افتتحت ب: (الر)،....) هكذا بالعد اليدوى المثابر الدؤوب من غير حاسوب ولا أقراض مدمجة تأتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فاعجب لمبصر فى الظلام ولمغمض عينيه فى وضح النهار، فهو الفرق بين الأمس واليوم وبين من أحب على بصيرة ومن أحب على عمى وبالله تعالى الهدى وله الآخرة والأولى.

رابعا: قس على ما ذكرناه ترى ذات الحجة فيما ذكر عن سورة الأعراف وأشباهها، غير أن الموضوعات هنا تقررت بصورة أشمل حتى جمعت أمور البدء مرورا بالحياة وحتى النهاية، وأعجب منه ملاحظة زيادة الموضوعات فى كل سورة مع زيادة الأحرف الأولى حرفا حرفا وهو من عجائب القرآن التى لا تزال تتحف المؤمنين وتدمغ الكافرين جيلا بعد جيل، مع يقيننا بأن فى نفس الأحرف والسور من الغرائب ما يربو على ما ذكر، وما لا يمكن لبشر الوقوف على نهاية بحره الطامى وأسراره العجيبة ومما تزال تظهره الجهود والأيام

(١) صدر مقال للدكتور محمد أحمد أبو فراخ بعنوان (بدعة الإعجاز الحسابى) ، ومما أوردنا يتبين أن الأمر ليس ببدعة ، بل وقف عليه سلف العلماء خدمة لكتاب الله تعالى ولقد جاءك من أنبائهم من عشرة قرون عددا.

تحقيقا لقول النبى صلى الله عليه وسلم عن القرآن العظيم (لا تنقضى عجائبه)

خامسا: هنا بحث موضوعى آخر عماده الحرف القرآنى وهو نفيس وفريد، ألا وهو العلاقة بين الأحرف المذكورة فى أوائل السور وبين الآيات التالية لها مباشرة، حيث تم ملاحظة أنها جميعا إنما تمثل مقدمة تتلوها صفة جليلة من صفات القرآن الكريم عدا ثلاث سور منها فى القرآن بأجمعه، فهل هذا الإستقصاء الكلى للقرآن وهذا الوصف للأحرف وعلاقتها بالآيات التالية إلا منهج البحث الموضوعى؟، غير أن الإضافة التى يجب التنبه لها هاهنا هى ركيزة البحث وعماده ألا وهو الحرف القرآنى فقط.

فسبحان الذى أنزل الكتاب وجعله الآية الماثلة الناطقة شهادة للنبى صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة.

النوع الثاني من التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني

وهـذا النوع من التفسير يتتبع فيه الباحث لفظاً واحداً في كتاب الله تعالى يـدور علـى معنـى واحد أو معاني مختلفة وذلك في سور القرآن، ثم يستنبط العلاقات بين المعاني المختلفة، أو معاني اشتقاقات اللفظ المختار واستعمالاته في كـتاب الله. وهـذا النوع هو أقدم ما عرف عن التفسير الموضوعي، حيث أن الأوائـل قـد تنـبهوا لذلك فصنفوا المصنفات المعنية به تحت أسماء " الأشباه والنظائر " وبالنظر إلى هذه المؤلفات نجد أن أقدمها ما صنفه " مقاتل بن سليمان البلخـي " المتوفي سنة ١٥٠ هجرية حيث ألف كتاباً بعنوان " الأشباه والنظائر فـي القـرآن الكـريم " ذاكراً الألفاظ التي اتحدت لفظاً في كتاب الله واختلفت معنى.وكذلك صنف يحيى بن سلام المتوفي سنة ٢٠٠هجرية كتاب " التصاريف " معالجـاً الألفـاظ التـي اشـتبهت فـي القرآن واختلفت معانيها أما الراغب الأصفهاني المتوفي سنة ٢٠٥هجرية فكتابه المشهور في غريب القرآن واسمه " المفـردات في غريب القرآن " قد تتبع جذور الألفاظ القرآنية ومدار دلالاتها في مخـتلف آيات القرآن الكريم.وفي كتاب " نزهة الأعين النوافذ في علم الوجوه والنظائـر" سـلك ابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ هجرية نفس الطرق السابقة مبـرزاً الاسـتعمالات المتبايـنة للألفاظ القرآنية على وجوهها المختلفة. ومثله الدامغانـي في كتابه " اصلاح الوجوه والنظائر " ومثل ذلك تتابعت المصنفات، فكتب الفيروز آبادي المتوفي سنة ٨١٧ هجرية كتاب بصائر ذوي التمييز في لطائـف الكـتاب العزيز"، وابن العماد المتوفي عام ٨٨٧ هجرية، وفي كتابه "

كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر ". وكلها على ذات المنهج المذكور. ويغلب عليها المعالجات اللغوية وتطبيقها على آيات القرآن الكريم. فهذه كلها وأمثالها هي المحاولات الأولية في هذا الجانب من التفسير الموضوعي، ولقد ذكرها المصنفون في كتاباتهم حول القرآن وعلومه، وكما قلنا، فقد أتوا بها على أنها لطائف ومحاسن في كتاب الله سبحانه وتعالى، وضربوا على ذلك الأمثال.وقد اختصرت أمثال هذا النوع من تفسير القرآن بناءً على الألفاظ إلى أربعة أنواع:

أولاً: اللفظ الواحد ذو المعاني المتعدده في كتاب الله تعالى.

ثانياً: اللفظ المترادف (الألفاظ المتعددة ذات المعنى الواحد في كتاب الله)

ثالثاً: اللفظ المترادف المتكرر طويلاً بذات المعنى في كتاب الله

رابعاً: اللفظ المتغير المواضع بحسب المعاني التي يدل عليها في كتاب الله.

وسوف نضرب إن شاء الله أمثلة على كل صنف من الأصناف المذكورة، على أن يوضع في الاعتبار أنها كلها، أو بعضها انما تعتبر من التفسير الموضوعي على قدر من التجوز، حيث أن

التفسير الموضوعي بناء على مدارات الألفاظ في كتاب الله لم يثبت بصورته النهائية المتكاملة إلا في العصر الحديث كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

أولاً: التفسير الموضوعي بناء على اللفظ الواحد ذي المعاني المتعددة

• قال السيوطي في الإتقان:[1]

" صنف فيه قديماً مقاتل بن سليمان، ومن المتأخرين ابن الجوزي وابن الدامغاني وأبو الحسن محمد بن عبد الصمد المصري وابن فارس وآخرون.

فالوجوه: اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ الأمة "

والنظائر: كالألفاظ المتواطئة، وقيل النظائر في اللفظ والوجوه في المعاني "

وهم يذكرون في تلك الكتب اللفظ الذي معناه واحد في مواضع كثيرة فيجعلون الوجوه نوعاً لاقسام، والنظائر نوعاً لآخر.

وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر.

وذكر مقاتل في صدر كتابه حديثاً مرفوعاً " لايكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة " وروى عن أبي الدرداء موقوفاً، ولفظه " لا يفقه الرجل كل الفقه ". وقد فسره بعضهم بأن المراد أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة فيحمله عليها، إذا كانت غير متضادة ولا يقتصر به على معني واحد "

قال:

---

(١) الاتقان في علوم القرآن – السيوطي – جزء ١ – صـ ٢٩٩ بتصريف يسير.

"وهذه عيون من أمثلة هذا النوع، ومن ذلك:

الهدى: يأتي على سبعة عشر وجهاً:

- بمعنى الثبات : (اهدنا الصراط المستقيم).
- والبيان : (أولئك على هدى من ربهم)
- والدين : (إن الهدى هدى الله).
- والايمان : (ويزيد الذين اهتدو هدى).
- والدعاء : (ولكل قوم هاد)، (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا).
- وبمعنى الرسل والكتب: (فإما يأتينكم منى هدى).
- والمعرفة : (وبالنجم هم يهتدون).
- وبمعنى النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى).
- وبمعنى القرآن : (ولقدجاءهم من ربهم الهدى).
- والتوراة : (ولقد آتينا موسى الهدى).
- والاسترجاع : (وأولئك هم المهتدون).
- والحجة : (لا يهدي القوم الظالمين) بعد قوله تعالي (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) أي لا يهديهم حجة.
- والتوحيد : (إن نتبع الهدى معك).
- والسنة : (فبهداهم اقتده). (وإنا لعلى آثارهم لمهتدون).

- والاصلاح : (إن الله لا يهدي كيد الخائنين).
- والإلهام : (أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) أي ألهم المعاش.
- والتوبة : (إنا هدنا إليك).
- والارشاد : (أن يهديني سواء السبيل).

ومن ذلك: السوء

- يأتى على أوجه الشدة: (يسومونكم سوء العذاب).
- والعقر: : (ولا تمسوها بسوء).
- والزنى : (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً). (ماكان أبوك امرء سوء).
- والبرص : (بيضاء من غير سوء).
- والعذاب : (إن الخزي اليوم والسوء).
- والشرك : (ما كنا نعمل من سوء).
- والشتم : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول). (وألسنتهم بالسوء).
- والذنب : (يعملون السوء بجهالة).
- وبمعنى بئس : (ولهم سوء الدار).
- والضر : (ويكشف السوء)، (وما مسني السوء).

- والقتل والهزيمة : (لم يمسهم سوء).

ومن ذلك الصلاة: تأتي على أوجه

- الصلوات الخمس : (يقيموا الصلاة).
- وصلاة العصر : (تحبسونهما من بعد الصلاة)
- وصلاة الجمعة : (إذا نودي للصلاة).
- والجنازة : (ولا تصل على أحد منهم).
- والدعاء : (وصل عليهم).
- والدين : (أصلاتك تأمرك).
- والقراءة : (ولا تجهر بصلاتك).
- والرحمة والاستغفار : (إن الله وملائكته يصلون على النبي).
- ومواضع الصلاة : (وصلوات ومساجد).(لا تقربوا الصلاة) [1]أ.هـ

ومـن الأمثلة: مثل الرحمة – الفتنة – الروح – القضاء – الذكر – الدعاء – الاحصان وغيره كثير جداً في كتب الأشباه والنظائر.

ثم إن في العصر المتاخر زاد المفسرون الموضوعيون على ماسبق إذ هو مجرد جمع الآيات التي اسخدمت فيها نفس الألفاظ في كتاب الله ومعرفة المعاني

(١) الاتقان – المرجع السابق صـ٣٠٠إلى ٣٠١ جزء ٢

الكثيـرة التـي دار القـرآن عليها فيها، ولكن هؤلاء جمعوا المعاني المذكورة وكشـفوا عـن الـروابط الدقـيقة بيـنها والعلاقات الخافية والظاهرة، وأتموا الموضـوعات وأظهـروا النكات الباهرات ووافقوا بين المتباعدات، فإذا بجسد واحـد متكامل ذي أعضاء وأطراف وملامح وسمات، وذلك مثل لفظ " الأمة " الذي ورد كذلك في الأشباه والنظائر بمعانيه كثيرة، فإذا ببحث جديد حوله مظهر لأمورجديدة:

" عندما نلقي نظرة على مباحث كتاب " الأمة في دلالتها العربية والقرآنية " فإننا ندرك طريقة بحث هذا اللون من التفسير الموضوعي "

لقد اختار المؤلف بحث مصطلح " الأمة " في القرآن فنظر في ورود (الأمة) في الآيات القرآنية، ثم ذهب إلى كتب اللغة، لاستخراج معنى الأمة منها.

وتكلـم في هذه المواطن عن المباحث التالية: أصل المعنى اللغوي للأمة، والاشـتقاق اللغـوي، الأمـة بمعنى الجماعة، الأمة بمعنى الدين، الأمة بمعنى الرجل المنفرد، الأمة بمعنى الحين والزمن، نظرة جديدة تربط هذه المعاني.

ثـم تكلم عن الأمة في القرآن بمعنى الملة والدين، وتوفر المعنى القرآني والاسـلامي فـي الأمـة التـى شكلها الرسول – صلى الله عليه وسلم – من المهاجرين والأنصار، واستخلص من ذلك حقائق بارزة.

وعرجَ بعد ذلك على العناصر الأربعة لتكوين الأمة في المفهوم الغربي، وهي: العرق، والأرض، والتاريخ، واللغة. ونقد هذه العناصر نقداً إسلامياً علمياً،

وبين سر استبعاد الغربيين للدين في تكوين الأمة.

وختم ببيان تحقيق معاني وأبعاد " الأمة " في القرآن، في الأمة المسلمة التي أخرجها الله للناس وجعلها الأمة الوسط، فصارت هي الترجمة العملية الواقعية للأمة كما عرضها القرآن "[1]

مما سبق يتبين الأصل في هذا النوع من التفسير الموضوعي، وكذلك المحاولات العصرية لاستيفاء أركانه وأسسه وتكملة بيانه حتى تتم وتتجلى ملامح الموضوع.

ومؤلف كتاب الأمة هو د. حسن فرحات،

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق – د. صلاح عبد الفتاح الخالدي صـ ٥٣_٥٣ (بتصرف يسير).

ثانياً: التفسير الموضوعي بناء على الألفاظ المتعددة ذات المعنى الواحد

ذكـر الطبـري في تفسير قوله تعالى (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ...الآية)

أن هـناك آيات بها ألفاظ متعددة تستخدم في القرآن بمعنى واحد. وضرب لذلك الأمثال:

مثل قوله تعالى:

" فأسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك " المؤمنون ٢٧

قوله تعالى:

" قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك " هود ٤٠

وقوله تعالى:

" اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء " القصص ٣٢

وقوله تعالى:

" وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء " النمل ١٢

فهذه وأمثالها في القرآن الكريم مثل قوله تعالى:

" لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون " الأنعام ١٢٧

" قـل إن كانـت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت " البقرة ٩٤

" الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب " فاطر ٣٥

فهي معنى الجنة.

وكذلك قوله تعالى:

" وقـنا عـذاب النار ". " عذاب الجحيم ". " السموم ". وغيرها فهي ألفاظ مختلفة لها معان واحدة، ويمكن التحقق من الأمر عن طريق البحوث الموضوعية كما سبق لمعرفة درجات هذه الألفاظ وأمثالها، ومناسباتها ومعانيها والفوائد من وجودها في القرآن على هذه الهيئة. والنكات الدقيقة والروابط الخفية، وهو هام ذلك أن كتاب الله تعالي هو البحر الزاخر، والفيض الغامر الذي لا يكاد بشر يحيط بعجابه وعلومه.

ثالثاً: التفسير الموضوعي المبني على لفظ واحد يدور عليه القرآن بمعنى واحد

وهـذا ضـرب من موضوعات اللفظ تنبه له الأولون، حتى إن أبا البقاء الكفوي كتب كتاباً كبيراً أسماه " الكليات " وكله في كليات القرآن من استخدامات الألفاظ في معان مطرده في جميع القرآن.

وقد ذكر السيوطي نماذج على ذلك في كتاب الله تعالى وعدها من الوجوه والنظائر أيضاً.

ونقلها عن ابن فارس في كتاب " الأفراد " ومنها:

- كـل ما ورد في كتاب الله من ذكر الأسف فمعناه الحزن إلا قوله تعالى " فلما آسفونا " فمعناه أغضبونا.
- وكل مافيه من ذكر البروج فهي الكواكب إلا " ولو كنتم في بروج مشيدة " فهي القصور الطوال الحصينة.
- وكل ما فيه من البعل فهو الزوج إلا " أتدعون بعلاً " فهو الصنم.
- وكل مافيه من البكم فالخرس عند الكلام بالايمان إلا " عمياً و بكماً وصماً " فـي الاسـراء، " وأحدهما أبكم " في النحل، فالمراد به عدم القدره على الكلام مطلقاً.
- وكـل مافـيه من حسرة فهو الندامة إلا " ليجعل ذلك حسرة في قلوبهم " فمعناه الحزن.
- وكـل مافـيه من الدحض فالباطل إلا " فكان من المدحضين " فمعناه: من المقروعين.

- وكل مافيه من رجز فالعذاب إلا " والرجز فأهجر " فالمراد به الصنم.
- وكل مافيه من الريب فالشك إلا " ريب المنون " يعنى حوادث الدهر.
- وكل مافيه من الرجم فهو القتل إلا " لأرجمنك " فمعناه: لأشتمنك، " ورجماً بالغيب " أي ظناً.
- وكل ما فيه من سخر فالاستهزاء إلا " سخرياً " في الزخرف فهو التسخير والاستخدام
- وكل سعير فهو النار إلا " في ضلال وسعر " فهو العناء.
- وكل مافيه من أصحاب النار فأهلها إلا " وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة " فالمراد خزنتها.
- وكل نكاح فيه تزويج إلا " حتى إذا بلغوا النكاح " فهو الحلم.
- وكل صبر فيه محمود إلا " لولا أن صبرنا عليها "، " واصبروا على آلهتكم ".

قال السيوطي: هذا آخر ماذكره ابن فارس.

وقال غيره: كل صوم فيه فمن العبادة إلا " نذرت للرحمن صوماً" أي صمتاً.

وقال الداراني: كل مافيه من الحضور فهو بالضاد من المشاهدة إلا موضعاً واحداً فإنه بالظاء من الإحتظار وهو المنع، وهو قوله تعالى: " كهيئة المحتظر".

- وقد تعرض النبي – صلى الله عليه وسلم – والصحابة والتابعون لمثل

هـذا النوع من التفسير، فقد أخرج الامام أحمد في سنده عن أبي سعيد الخـدري عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " محل حرف القـرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة " قال السيوطي: هذا اسناده جيد وابن حبان يصححه.

- وأخرج بن أبي حاتم عن طريق عكرمة عن ابن عباس قال: كل شئ في القرآن أليم فهو الموجع.
- وأخـرج أبي العالية قال: كل آية في القرآن يذكر فيها حفظ الفرج فهو مـن الزنـي إلا قوله تعالى " قل للمؤمنين يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم " فالمراد أن لا يراها أحد.
- أخـرج ابن أبي حاتم عن وهب من منبه قال: كل شئ في القرآن قليل، وإلا قليل فهو دون العشرة.
- وعن سفيان بن عيينه قال كل شئ في القرآن " مايدريك " فلم يخبر به، وما أدراك فقد أخبر به.

فهذا النوع كما ترى كانت بداياته قديمة جداً، وهو دال على النظر الشامل في القرآن الكريم للخروج بفائدة لا تتعلق بترتيب الآيات والسور على هيئتها في المصحف المكتوب، وهو دليل على مشروعية التفسير الموضوعي على الجملة، وعلى هذا النوع من النظر في كتاب الله خاصة.

رابعاً: التفسير الموضوعي على مدار الألفاظ تقديماً وتأخيراً

وهذا النوع قد أثار حيرة العلماء العلماء نظراً لتقديم اللفظ في بعض آيات القــرآن، وتأخيره نفسه في آيات أخرى، وقد قال بعضهم أن ذلك سببه مراعاة الفواصل وغير ذلك من الأسباب ولكن بالنظر الموضوعي الدقيق يمكن الوقوف على معان بديعة هي الاعجاز القرآني الذي لا تنفض عجائبه، ومن أمثلة ذلك:

- قوله تعالى: " فلله الآخرة والأولى "
- وقوله تعالى في الآية الأخرى: " له الحمد في الأولى والآخرة ".
- قوله تعالى: " آمنا برب هارون وموسى "
- وقــوله تعالــى فــي الآية الأخرى: " آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون "
- تقديم موسى في الثانية وتأخيره في الأولى.
- ومثله قوله تعالى: " قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ".
- وفي الآية الأخرى " فأوجس في نفسه خيفة موسى ".
- وفيه تقديم موسى فى الآية الأولى وتأخيره فى الآية الثانية.
- غير ما ذكرنا من الأمثلة التي فيها هذا التقديم والتأخير لذات الألفاظ مع تكــرارها في مواضع مختلفة في كتاب الله، وقال بعضهم مراعاة للفاصلة وهــو غلــط على مذهب المحققين من العلماء إذ أن الله تعالى لا تضطره

الضـــرورة لمـــراعاة الفاصـــلة، معاذ الله، وبذا قال حتى من زعم مراعاة الفاصـــلة كمـــا أورد السيوطي عن ابن الصائغ قال: " لا يمتنع في توجيه الخـــروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم كما جاء في الأثر لا تنقضى عجائبه " أ.هـ[1]

قلـــت : وهـــذه الأمور الأخرى هي مجال البحث الموضوعي في الآيات المذكورة وأمثالها للخروج

مـــن القول بمراعاة الفاصلة، تنزيها لكتاب الله وابراز المعاني الباهرة الكامنة وراء هذا التنوع في استعمال اللفظ ومواضعه ومعانيه في الكتاب العزيز.

ومما تبين لنا من المعانى البليغة حول ما مثلنا به هاهنا فى المثال الأول، أى قوله تعالى: " فلله الآخرة والأولى "

وقـــوله تعالـــى فـــي الآية الأخرى: " له الحمد في الأولى والآخرة "ن أن المعنى التام الكامل كامن فى الآيتين الكريمتين كما هما وإن لم تكونا فى موضع الفاصـــلة، فأمـــا الآيـــة الأولـــى والواردة فى سورة النجم فقد جاءت عقب آية الإســـتفهام الإنكارى على الإنسان وظنه أن ما يريده يكون أو أنه يفعل ما يشاء كـــيف شـــاء وذلك فى قوله تعالى (أم للإنسان ما تمنى) فقد رده الله تعالى إلى جادة الصواب منكرا هذا الإعتقاد ومشنعا عليه، فكان مناسبا إذ ذاك تقرير تمام ضعفه وغاية هوانه، فناسب مقام التحدى البدء بالأعظم ألا وهى الآخرة التى لا وجه لمقارنتها بالدنيا ثم التثنية بالأدنى وهى الدنيا المشاهدة التى يعرفها المؤمن والكافـــر، ولو عكس لما كان للتحدى معنى،إذ ظن الكافر أنه مستمكن من الدنيا

(١) الاتقان في علوم القرآن – السيوطي – جـ ٢ صـ ٢١

قادر عليها ن وبه لا يقوم التحدى على صورته المرهبة كما يظهر من السياق. أمـــا بالنسبة للآية الثانية وهى قوله تعالى (وله الحمد فى الأولى والآخرة) فليس لها دخل بالفاصلة رأسا وبتسليم ذلك فلا يصح عكسها ، إذ هى إما تقرير من الله تعالـــى للعباد باستحقاقه الحمد فى الدنيا والآخرة، أو هى تعليم للعباد أن يحمدوا الله تعالى حق حمده وكما يستحقه سبحانه على التأويلين المعتمدين للآية الكريمة، وفـــى الحالـــين فلا يصح البدء بالآخرة، وإنما يجب البدء بالدنيا لأنها هى دار العمل للمكلفين من عباد الله،وهى مضمار الحمد والشكر على ما أسبغه الله تعالى علـــيهم من النعم التى لا يقف الحصر عليها، فكان ذكر الدنيا أولا هو المناسب لتعليم الناس حمده عز وجل حيث لا يمكنهم ذلك إلا فى الدنيا ولا ينفع المرء أن يحمـــد الله تعالى فى الآخرة إذا لم يوفق إلى حمده فى الدنيا، ثم التعقيب بالآخرة لتقريـــر الحق المحض فيما يكون من أمر الآخرة من حمد الملائكة والصالحين علـــى مـــا هداهم الله تعالى وما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم سبحانه، جعلنا الله تعالى منهم آمين.

أما المثال الثانى وهو قوله تعالى: " آمنا برب هارون وموسى "

وقوله تعالى في الآية الأخرى: " آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون "

تقديم موسى في الثانية وتأخيره في الأولى.

فلا وجه فيه كذلك للقول بمراعاة الفاصلة، ذلك أنه دال على أمرين كلاهما فى غاية البيان لهذه الواقعة الفاصلة فى تاريخ بنى إسرائيل:

الأول: أن السحرة حين سجدوا لم يقفوا كلهم صفا واحدا وصاحوا بتوجيه واحـــد وقالوا آمنا برب هارون وموسى أو قالوا رب موسى وهارون، بل كان

الأمـــر أشبة بصدمة عنيفة لهم جميعا بحيث اختلط كلامهم واضطرب حالهم واندفعوا على غير انتظام ، كل واحد على حالة مختلفة فى شغل ذاهبل من هول ما أنزلت بفؤاده المعجزة المزلزلة التى صدمهم بها موسى عليه السلام ، فمنهم من قال (رب موسى وهارون)، ومنهم من قال (رب هارون وموسى) فى عفوية وتـــداخل وبغيـــر انتظام أو ترتيب مسبق، فهو دال على المفاجأة والصدمة ورد الفعـــل التلقائى المباشر من كل واحد على حدته ، وهو تصوير بليغ لواقع هذه الحادثة الهائلة ووقعها المزلزل على نفوس السحرة أجمعين.

ثانـــيا: أن الـــذين ســـبق لسانهم إلى قول (رب هارون وموسى) مع كون الآيـــات الباهـــرات إنما صدرت عن موسى، إنما ذكروا هارون أولا لأنه ذلك الرجل الذى يعرفونه، إذ من المعلوم أن موسى عليه السلام كان غائبا عن مصر مـــن يـــوم خـــرج منها خائفا يترقب وحتى هذه الواقعة، وهى فترة مديدة بلغت السنوات العشر طولا ، وبدهى أنه من غاب عن البصر غاب عن الذكر والفكر، بخلاف هارون عليه السلام،حيث كان ماثلا آمامهم معروفا لديهم فهم وإن كانوا رأوا الآيـــات الكبرى على يد موسى فقد ذكروا الأقل شرفا وهو هارون لسابق معـــرفتهم به وتقلبه بينهم، مثلما يأتى عالم جليل الخطر لزيارة بيت فى صحبة أحد أهل ذلك البيت، فإن من رآه من أهل البيت إنما يقول: جاء أخى مع العالم، فـــيقدم ذكر أخاه على ذكر العالم ، وليس ذلك لشرف أخيه عن العالم بل لكونه معروفا لديهم قبل العالم، وهو ظاهر فافهمه.

وأما الذين قالوا (آمنا برب موسى وهارون) فلا إشكال فى قولهم إذ هو معقـــول مـــن كـــل وجه، فإنهم بدأوا به لما شاهدوا من أحواله وكلامه وجرأته ومواجهته لفرعون ثم رأوا الآية الكبرى تجرى على يديه فصاحوا إذ ذاك آمنا

بـــرب موســـى وهارون، فبدأوا بموسى لما رأوه عجيب آياته وأفعاله ، ثم ثنوا بهارون لمعرفتهم به ومؤازرته لموسى في ذلك المشهد العظيم، فمنه يتبين أن التقديم والتأخير هاهنا إنما جاء لفائدة جليلة في الخبر وزيادة عظيمة في المعنى لم تكن لتتأتى بغيره، دع عنك قول من قال بتنيير المعنى وتبديل الخبر في كتاب الله تعالى حفاظا على مشابهة الفواصل ورؤوس الآيات.

● أما المثال الثالث

وهو قوله تعالى: " قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله "

وفي الآية الأخرى " فأوجس في نفسه خيفة موسى ".

وفـــيه تقديم موسى في الآية الأولى وتأخيره في الآية الثانية.فلحكمة بالغة كذلك، إذ في الآية الأولى كان موسى في موضع الفاعل، وجمهور أهل اللغة أن حق الفاعل أن يكون مكانا بعد الفعل، ولا يتقدم أو يتأخر إلا لعلة من العلل التي قررها أهل اللغة وليس هاهنا موضع بسط الكلام فيها، وبه يتقرر أن قوله تعالى (قـــال موسى ما جئتم به السحر) إنما جعل موسى في المكان الأصيل من حيث اللغة وهو مناسب للمعنى حيث أن قول موسى وإنكاره على السحرة سحرهم هو مـــن صميم دعوته عليه السلام فحسن تقديمه في هذا الموطن كونه قائما بتبليغ الرســـالة على وجهها، فتقديم الفاعل هاهنا تقديم له شرفا ورفعة حيث وقف عند غايـــة التجـــرد والإنقياد لأمر الله تعالى. وأما في الآية الثانية وهي قوله تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى) فقد تأخر الفاعل (موسى) عن موضعه الأصلي إلـــى آخـــر الآيـــة، وفي ذاك معنى لطيف ودقيق لمن وفقه الله تعالى لفهمه، إذ الإيجـــاس خيفة في هذا الموطن إما أن يكون من رهبة الموقف، أوخيفة على

الـنفس مـن أعـدائها، أو على مصير الدعوة من شدة مارأى من تأثير سحر السحرة وهو الأرجح وأصح أقوال المفسرين، للإتفاق بأن الأنبياء لا تصدر منهم المعصية بعد الرسالة، ولكون موسى عليه السلام من أولى العزم من الرسل، فلا يعقـل وهذا شأنه أن يخاف على نفسه الهلاك أو أن يرهب الموقف مهما عظم، ولكن بتسليم خوفه على الدعوة من أثر السحر فإنه خلاف الأولى بمقام النبوة،إذ لمـن يكـن لـه ذلك مع كلام الله تعالى له وبمارأى من الآيات وبما معه من البيـنات، فكـأن تأخير إسمه عليه السلام كلمتين مسا قرآنيا لطيفا لهذا المعنى الدقـيق، وشتان بين موسى وهو يهدر بقول الحق دون هيبة أو وجل في وجوه السحرة في الآية الأولى وبينه متوجسا خيفة في نفسه في الآية الثانية فتقدم هناك وتأخر هنا وهو المعصوم في الحالين وهذا معنى نفيس فتدبره.

النوع الثالث من التفسير الموضوعى

التفسير الموضوعى على الآية من كتاب الله تعالى

فى كتابه القيم: أسرار التكرار فى القرآن افتتحه الكرمانى بقوله[1]:

....فإن هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وأبين ما السبب في تكرارها والفائدة في إعادتها، وما الموجب للزيادة والنقصان والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرى؟ وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها أم لا؟ ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها وتمتاز بها عن أشكالها من غير أن أشتغل بتفسيرها وتأويلها، فإني بحمد الله قد بينت ذلك كله بشرائطه في كتاب لباب التفسير وعجائب التأويل مشتملا على أكثر ما نحن بصدده، ولكني أفردت هذا الكتاب لبيان المتشابه. فإن الأئمة رحمهم الله تعالى قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها، وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه. وقد قال أبو مسلم في تفسيره عن أبي عبد الله الخطيب في تفسيره كلمات معدودات منها وأنا أحكي لك كلامه فيها إذا بلغت إليها مستعينا بالله ومتوكلا عليه وسميت هذا الكتاب:

---

(١) ١/١٧.

(البرهان في متشابه القرآن) لما فيه من الحجة والبيان، وبالله وعليه التكلان.

قلت: فمما تقدم من تقديم الكرمانى لسفره المذكور يتبين لك وجه من النظر الموضـــوعى فى كتاب الله تعالى من علماء المتقدمين وعماده فى هذا الضرب الدقيق هو الآية الواحدة ونظيرتها فى كتاب الله تعالى، وتأمل قوله: من غير أن أشـــتغل بتفســـيرها وتأويلهـــا، أى أنه رحمه الله تعالى قصد أنه لن يأتى على تفســـيرها تحليليا حيث أن الضرب الوحيد المعتمد والشاهر فى الزمن الأول هو التفسير التحليلى أى الوقوف على تفكيك النظم إلى مكوناته والتعرف على أسرار البلاغة الإعجاز وما بين الأجزاء من روابط ووشائج.شأن التفسير التحليلى عند الأولـــين، وتأمـــل هذه الملاحظة فإنها نفيسة فى التفرقة بين البحث الموضوعى الـــذى لا يقـــف طويلا عن التحليل، بل يهتم بالروابط بين الآيات المتباعدة فى كـــتاب الله تعالـــى (انظـــر فصل الفرق بين التفسير التحليلى والموضوعى فقد اســـتوفينا الـــبحث هنالك فراجعه)، فما ذكره الكرمانى هاهنا ما هو إلا البحث الموضـــوعى بحذافيره مع التفرقة الدقيقة بينه وبين البحث التحليلى، وقد لمسه ببصـــيرة واعـــية وبوضـــوح ربما خفى عن الكثيرين فى زمننا حتى بعد طول الشـــرح والبـــيان والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، فكان غاية بحثه هو الوقوف على أسرار مناسبة كل آية لموضعها فى الكتاب الكريم بما يستلزمه ذلك مـــن بيان (وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها، وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه) كما تقدم من قوله وإليك الأمثلة التى أوردها فى كتابه وهى أمثلة بينة على هذا الصنف من التفسير الموضوعى لكتاب الله تعالى المبنى على آية واحدة فيه وهو عظيم النفع فتدبر.

المثال الأول

(قــوله: (فســجدوا إلا إبليس أبى واستكبر) ٣٤ ذكر هذه الخلال في هذه السورة جملة ثم ذكرها في سائر السور مفصلا فقال في الأعراف (إلا إبليس لم يكــن مــن الساجدين) ١١ وفي الحجر (إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين) ٣١ وفــي سبحان (إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) ٦١ وفي الكهف (إلا إبلــيس كان من الجن) ٥٠ وفي طه (إلا إبليس أبى) ١١٦ وفي ص (إلا إبليس اســتكبر وكــان من الكافرين) ٧٤ ١١ قوله: (اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا) ٣٥ بالــواو وفــي الأعــراف (فكلا) ١٩ بالفاء (اسكن) في الآيتين ليس بأمر بالســكون الــذي هو ضد الحركة وإنما الذي في البقرة من السكون الذي معناه الإقامــة وذلــك يستدعي زمانا ممتدا فلم يصلح إلا بالواو لأن المعنى اجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها ولو كان الفاء مكان الواو لوجب تأخيرالأكل إلى الفــراغ من الإقامة لأن الفاء للتعقيب والترتيب والذي في الأعراف من السكنى الــذي معناها اتخاذ الموضع مسكنا لأن الله تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله اخــرج منها مذموما ١٨ وخاطب آدم فقال: (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) ١٩ أي اتخذاها لأنفسكما مسكنا (فكلا من حيث شئتما) ١٩ فكانت الفاء أولى لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زمانا ممتدا ولا يمكن الجمع بين الاتخاذ والأكل فيه بل يقــع الأكل عقيبه وزاد في البقرة (رغدا) لما زاد في الخبر تعظيما بقوله: وقلنا بخــلاف سورة الأعراف فإن فيها قال: والخطيب ذهب إلى أن ما في الأعراف ١٢ قــوله: (اهبطوا منها) ٣٨ كرر الأمر بالهبوط لأن الأول من الجنة والثاني من السماء)

المثال الثاني

(١٩ قوله: (ويقتلون النبيين بغير الحق) ٦١ في هذه السورة(البقرة) وفي آل عمـــران (ويقتلون النبيين بغير حق) ٢١٠ وفيها وفي النساء (وقتلهم الأنبياء بغيـــر حق) ١٨ ١٥٥ لأن ما في البقرة إشارة إلى الحق الذي أذن الله أن تقتل الـــنفس بـــه وهو قوله (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) ٦ ١٥١ فكان الأولـــى أن يذكر معرفا لأنه من الله تعالى وما في آل عمران والنساء نكرة أي بغير حق في معتقدهمودينهم فكان هذا بالتنكير أولى وجمع النبيين جمع السلامة فـــي البقـــرة لمـــوافقة مـــا بعده من جمعى السلامة وهو (النبيين) (الصابئين) وكـــذلك فـــي آل عمران (إن الذين) وناصرين ومعرضون بخلاف الأنبياء في السورتين)

المثال الثالث

(٢٠ قوله (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) ٦٢ وقال في الحج (والصابئين والنصارى) ١٧ وقال في المائدة (والصابئون والنصارى) ٦٩ لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة والصابئون مقدمون على النصارى في الزمان لأنهم كانوا قبلهم فقدمهم في الحـــج وداعى في المائدة بين المعنين وقدمهم في اللفظ وأخرهم في التقدير لأن تقديـــره والصـــابئون فـــي كذلك قال الشاعر فإن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب أراد إني لغريب وقيار كذلك فتأمل فيها وفي أمثالها يظهر لك إعجاز القرآن)

المثال الرابع

(٢٤ قوله (وإن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) ١٢٠ وفيها أيضا (من بعد ما جاءك من العلم) ١٤٥ فجعل مكان قول (الذي) ما وزاد في أوله (من) لأن العلم في الآية الأولى علم بالكمال وليس وراءه علم لأن معناه بعد الذي جاءك من العلم بالله وصفاته وبأن الهدى هدى الله ومعناه بأن دين الله الإسلام وأن القرآن كلام الله فكان لفظ (الذي) أليق به من لفظ (ما) لأنه في التعريف أبلغ وفي الوصف أقعد لأن (الذي) تعرفه صلته فلا يتنكر قط وتتقدمه أسماء الإشارة نحو قوله (أمن هذا الذي هو جند لكم) ٦٧ ٢٠ (أمن هذا الذي يرزقكم) ٦٧ ٢١ فيكتنف (الذي) بيانان هما الإشارة قبلها والصلة بعدها ويلزمه الألف واللام ويثنى ويجمع وليس لما شيء من ذلك لأنه يتنكر مرة ويتعرف أخرى ولا يقع وصفالأسماء الإشارة ولا تدخله الألف واللام ولا يثنى ولا يجمع وخص الثاني (بما) لأن المعنى من بعد ما جاءك من العلم بأن قبلة الله هي الكعبة وذلك قليل من كثير من العلم وزيدت معه (من) التي لابتداء الغاية لأن تقديره من الوقت الذي جاءك فيه العلم بالقبلة لأن القبلة الأولى نسخت بهذه الآية وليست الأولى مؤقتة بوقت، وقال في سورة الرعد (بعد ما جاءك) ٣٧ فعبر بلفظ (ما) ولم يزد (من) لأن العلم هنا هو الحكم العربي أي القرآن فكان بعضا من الأول ولم يزد فيه (من) لأنه غير مؤقت وقريب من معنى القبلة ما في آل عمران (من بعد ما جاءك من العلم) ٦١ فهذا جاء بلفظ (ما) وزيدت فيه من)

المثال الخامس

(قوله (محصنين غير مسافحين) ٢٤ في أول السورة وبعدها (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخذان) ٢٥ وفي المائدة (محصنين غير مسافحين

ولا متخذي أخذان) ٥ لأن في هذه السورة وقع في حق الأحرار المسلمين فاقتصر على لفظ (غير مسافحين) والثانية في الجواري وما في المائدة في الكتابيات فقال (ولا متخذي أخذان) حرمة للحرائر المسلمات لأنهن إلى الصيانة أقرب ومن الخيانة أبعد ولأنهن لا يتعاطين ما يتعاطاه الإماء والكتابيات من اتخاذ الأخذان) [1]

المثال السادس

(٩٣ قوله (ألم يروا كم أهلكنا) ٦ في بعض المواضع بغير واو كما في هذه السورة وفي بعضها بالواو وفي بعضها بالفاء هذه الكلمة تأتي في القرآن على وجهين أحدهما متصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة فذكره بالألف والواو لتدل الألف على الاستفهام والواو على عطف جملة على جملة قبلها وكذا الفاء لكنها أشد اتصالا بما قبلها والوجه الثاني متصل بما الاعتبار فيه بالاستدلال فاقتصر على الألف دون الواو والفاء لتجري مجرى الاستئناف ولا ينقض هذا الأصل قوله (أو لم يروا إلى الطير) ٧٩ في النحل لاتصالها بقوله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) ٧٨ وسبيله الاعتبار بالاستدلال فبنى عليه (أو لم يروا إلى الطير) ٩٤ قوله (قل سيروا في الأرض ثم انظروا) ١١ في هذه السورة فحسب وفي غيرها (سيروا في الأرض فانظروا) ٣ ١٣٧ و ١٦ ٣٦ و ٢٧ ٦٩ و ٣٠ ٤٢ لأن ثم للتراخي والفاء للتعقيب وفي هذه السورة تقدم ذكر القرون في قوله (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) ٦ ثم قال (وأنشأنا بعدهم قرنا

---

(١) ١/٥٤.

آخـــرين) ٦ فأمروا باستقراء الديار وتأمل الآثار وفيها كثرة فيقع ذلك سيرا بعد ســير وزمانـــا بعد زمان فخصت بثم الدالة على التراخي بين الفعلين ليعلم أن السير مأمور به على حدة والنظر مأمور به على حدة ولم يتقدم في سائر السور مثله فخصت بالفاء الدالة على التعقيب) [1].

المثال السابع

سورة الزخرف قوله : (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) ٢٠

وفي الجاثية: (إن هم إلا يظنون) ٢٤ لأن ما في هذه السورة متصل بقوله: (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) ١٩، والمعنى أنهم قالوا الملائكة بـــنات الله، وإن الله قـــد شـــاء مـــنا عبادتنا إياهم، وهذا جهل منهم وكذب فقال سبحانه: (ما لهم من علم إن هم إلا يخرصون) ٢٠ أي يكذبون.

وفي الجاثية خلطوا الصدق بالكذب فإن قولهم: (نموت ونحيا) صدق فإن المعنـــى: يموت السلف ويحيى الخلف، وهي كذلك إلى أن تقوم الساعة، وكذبوا فـــي إنكارهم البعث وقولهم : (ما يهلكنا إلا الدهر) ٢٤ ولهذا قال : (إن هم إلا يظنون) ٢٤ أي: هم شاكون فيما يقولون) [2].

---

(١) ٦٦/١.

(٢) ١٩١/١.

النوع الرابع

التفسير الموضوعى لربع حزب من السورة

تبين لى بعد التأمل والتتبع أن ربع الحزب فى القرآن الكريم فى كثير من الأحـوال لـه خصائص موضوعية فريدة، ووحدة متناسقة، إذ يحمل بين ثناياه موضوعا متجانسا ومنسجما من الموضوعات التى يعمد القرآن الكريم إلى بيانها وبلاغهـا وشـرحها، ومـن جملة ثمار التأمل وقفت فى هذا المقام على طريقة قـرآنية مثالية لعرض المسألة المقصودة على هيئة بهية وضيئة، وذلك بعرض آية محكمة بينة من أجلّ الآيات وأكرمها تتلألأ بقوة كأنها قلب ومرتكز للمسألة المطلـوبة، أو كأنها شمس باهرة سانية تدور بقية آيات الربع فى فلكها كأجرام علـوية تعكـس ضـوءها فتقوم المنظومة بكاملها وفى حدود ربع الحزب فقط بومضـة بارقة على قضية قرآنية خطيرة على الهيئة المذكورة، شمس تضىء تحـوطها مـن كل جانب كواكب من الآيات الجامعات لأطراف الموضوع فإذا بتحفة قرآنية بهيجة تطوف فى سماء القرآن بالمعارف الكبار التى بلغ الله تعالى بهـا خلقـه، جانبا بارقا جديدا من جوانب العرض الموضوعى القرآنى للعقائد والمعـاملات والـذى بدا كحديقة غناء تتمايل فى جنباتها آلاف الزهور اليانعة بألـوانها البهـيجة حيث ترتاح الأفئدة وتلذ العيون وتقر الأنفس وتطمئن القلوب بذكر الله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

فوائد هذا النوع من التفسير الموضوعى:

أولا: عـرض قرآنـى فـريد ووجيـز دون تطويل أو تفصيل مما يجعل المقصـود علـى أظهر غاية للمسائل التى تحتاج إلى عظيم اعتقاد والتى احتفل الشارع بشأنها وعنى أعظم العناية بتبليغها وتقريرها.

ثانيا: طريق بديع ومبين للبلاغ يعين طالب المعرفة على الفهم بأيسر سبيل

وأبين حجة والإعتقاد الجازم الذى لا تشوبه شائبة على أوضح طريقة ومحجة.

ثالثا: إبراز الرتبة العالية لبعض الآيات المختارة فى كتاب الله تعالى والتى تمثل بمجردها شموس قرآنية متكاملة الضياء كآية الكرسى وآية النور.

رابعا: بينة كبرى على تفرد القرآن العظيم بالتنوع المعجز فى أساليب العرض والخطاب القرآنى على هيئات ووسائل يحيل العقل وجودها بهذا التنوع والإبداع والكثرة إلا فى كتاب الله تعالى

خامسا: سهولة عرض غوامض ومعضلات المسائل الغيبية والعقائدية بطريقة مباشرة بحيث تقربها للأذهان الكالة والفهوم الحائرة دون كثير إغراق فى التفاصيل اللافتة عن المقصود الأول.

سادسا: دليل جديد لمذهب القائلين بأن إعجاز القرآن كله فى الإيجاز وهو الحق ورتبوا على ذلك توهين مذهب القائلين بوجود الإطناب فى كتاب الله تعالى.

سابعا: دليل لأصحاب مذهب التفسير الإشارى فى القرآن الكريم بشروطه المعتبرة عند الأثبات من علماء أهل السنة فراجعها تأصيلا وتطبيقا فى مظانها فى مناهج المفسرين وعلوم القرآن الكريم فهى نفيسةعظيمة النفع.

ثامنا: دليل لمذهب القائلين بالتفسير بالدراية وهو الذى عليه جمهور علماء الأمة والجم الغفير الطيب الطاهر من الأئمة.

منهج البحث الموضوعى فى ربع الحزب القرآنى

أولا: قراءة ربع الحزب قراءة متأنية متدبرة وخاصة فيما يتعلق بالموضوعات التى تناولها الربع والوقوف على المسألة الهامة المقصودة من الربع محل البحث.

ثانيا: الوقوف على الآية الرئيسية التى تمثل درة العقد وجوهرة التاج ورأس الموضوع، والتفكر في جملة المسائل التى تناولتها بدرجات متفاوتة.

ثالثا: الوقوف على الموضوع الأهم الذى سلطت ضوءها عليه من بين الموضوعات التى تناولتها الآية الرئيسية.

رابعا: بحث وجه العلاقة بين موضوعات سائر آيات الربع والموضوع الرئيسى للآية الوسطى.

خامسا: تقسيم الموضوع الجامع للآيات إلى مباحث فرعية تتفرع على الموضوع الرئيسى.

سادسا: الخروج بالتصور الشامل للموضوع المقصود فى الربع والنتائج المترتبة على البحث.

المثال الأول : رُبْع الحياة

فـــى سورة البقرة وجد أن الربع الذى فيه آية الكرسى سيدة آيات القرآن الكـــريم قـــد نظم كعقد درى بهيج جوهرته الكبرى هى الآية المختارة ويتفرع عـــنها تفاريع بهية من لوازم نفس الموضوع، فالآية تبدأ بقوله تعالى: (الله الإله إلا هـــو الحى القيوم) مقدمة إلى العالم هذه الصفة القدسية والتى هى من أخص صفات الله تعالى بل من آثارها كل ما أنت راء أمامك من تماوج الحياة فى كون الله تعالـــى الفســـيح فى منظومة معجزة مبهرة يقف أمامها العقل ذاهلا والفؤاد مشدوها مأخوذا، إنها صفة الحياة لله تعالى تلك التى انعكست على كل حى فى خلـــق الله تعالى حيث كانت حياته أثرا ونفخة من روح الله تعالى، ولإثبات تلك الصـــفة وآثارهـــا ولـــوازمها وتفرد الله تعالى بها على الحقيقة بحيث لا يمكن لمخلوق أن يدعيها لنفسه على الحقيقة بل الأصل موته وهو قول الله تعالى لنبيه صـــلى الله علـــيه وســـلم (إنك ميت وإنهم ميتون) فالموت المطبق هو الأصل الأصيل لغير الله تعالى والحياة الدائمة التامة ليست إلا لله تعالى

فأمـــا معجزة الحياة فى الكون ودلالتها التى لا تخفى على أصلها الأقدس ومنـــبعها الأســـنى فهي معجزة من حيث أن مجالها التراكيب العجيبة في سائر الأحياء.

وكـــل واحـــدة من الأشكال والصور البهيجة لهذه الحياة هي معجزة كاملة الأركـــان تامـــة البنيان، صادمة لكافة الأذهان، فمجرد أمر القرآن بالنظر فيها، وتوجـــيه الأفكـــار إلى هذه المعجزات التي تفوق الحصر في كل زاوية مضيئة ومظلمـــة من هذا الكون، هو بحد ذاته إعجاز على غاية الإبهار والإثارة . ولم يوجد في أي من الكتب الدينية التي بين أيدي الناس اليوم كتاب واحد يحض بهذا

الالحـــاح والتكـــرار والعرض المستفيض على النظر في هذه المخلوقات الحية المـــتماوجة فـــى كون الله تعالى موج الضياء، ويعتبرها " آيات " أي معجزات وبراهين دامغة على المطلوب العقائدي والشرعي.

لقـــد أمـــر القرآن الكافرين بالنظر الفاحص الصادق في أي ركن أو بقعة ومهما كانت تراكيبها ليقعوا على سلسلة لا تنقطع من الآيات التي يطلبونها،

أليس وجود هذه الأمم المتكاثرة والبالغة التنوع والتباين خرقا للعادة وأبعد عن المألوف وأذهل لكل ذي عقل سليم.

لماذا كان ينبغي أن يعتبر خروج الميت من قبره أعظم معجزة من خروج الطفـــل من بطن أمه مع البون الشاسع عند النظر السديد بين وجوه الاعجاز في كلـــيهما. ألـــم يكف الكافرين وجود البشر السوى ذى الأنف والشفتين والأرجل والـــيدين سابحاً في ظلام وماء دون هواء أو ضياء أو فسحة من المكان ولمدة تسعة أشهر كاملة غائصـاً غائشاً حياً يرزق في بطن أمه، إخراج جنين من ظلمة رحـــم أمـــه يتنفس ويصرخ ويلهو ويلعب ويملأ الحياة ضجيجاً ونشاطاً مستمراً أمـــداً طـــويلاً إلى أن يشاء الله. العادة المنخرقة في رحم كل إمرأة من نسائهم وفـــي كـــل جنـــين من أبنائهم.ماذا يطلبون؟؟.آيات باهرات معجزات خارقات للعادات، والكون كله خوارق للعادة. الحيات التي تملأ الغابات والأحراش يأتين من كل فج عميق أليست خوارق تخرج كل يوم من بيضات مظلمات مائتات، لو نظر أشد الناس فكراً وأحدّهم عقلاً قبلها بالأمس ماظن أن هذه الكرات الصخرية الميـــتة التي لاهواء فيها ولا حراك: يمكن أن تهتز كأنها جان لتخرج منها حية تـــسعى، لا نقـــول ثـــم ترجع فيها، بل هي تسعى مطلقا وتسعى دائما وتتغذى وتتناسل وتتكاثر وتنتج غيرها من الحيات بإذن الله تعالى . المعجزات المخرجة للحـــيات من قاع الموات لتتدفق مالئة الأرض حياة وحركة. ماذا يريد الكافرون

مـــن آيات ومعجزات؟؟ وما هي الآيات والمعجزات؟؟ وكيف يكون خرق العادة إذا لـــم يكن تفجر الحياة ببهجتها وحبورها وطيرها وزهورها من محض العدم المـــوحش، وهذا الكوكب الصخري المعتم وبين هذه الجبال العابسة والأحراش القاسية، إعجازا وصدمة للعقل والقلب والفكر جميعاً.

إن القـــرآن حينما دعا من غير هوادة إلى أن ينظر أعظم الكافرين كفراً، وأشـــدهم بـــلادةً، وأكثـــرهم عناداً إلى هذه الحياة المتدفقة كالشلال بين السماء والأرض، إنما أطلق أعظم معجزة في تاريخ معجزات الأنبياء جميعاً، بل أعظم وجوه الاعجاز حول القرآن ذاته.

المعجزة الشرارة الوامضة التي تتقاذف من ورائها معجزات الكون بأكمله تترى لتترك أعتى المعاندين ذاهلاً مأخوذاً مبهوراً.

إن معجـــزة النظر والتأمل والتدبر هي أم المعجزات جميعا، الباب الأعظم الـــذي انفـــتح فامـــتلأت حياة الناس إعجازاً، وغداً الكون بكل تفاصيله التي لا تحصـــى ولا تعد كله آيات باهرات موجبات التسليم والأذعان لكل من لم تسعه كل معجزات النبيين مجتمعين، وآيات المرسلين متضافرين.

إن الذين طلبوا خرق العادة، لم يدروا أن العادة الوحيدة اللائقة بهذا الكون قـــبل وجوده هي محض العدم والموت والنسى المنسي. وكل حدث كان بعد هذه العـــادة المظلمـــة الموحشة الموغلة في القدم أنما هو خرق متتابع دائم لا ينقطع للعـــادة، فالحـــق أنه لا توجد في هذا العالم عادة، فهو عالم خارق لكل عادة من أولـــه إلى آخره. وكل حبة تدفن في حفنة من الرمال لتخرج خلقاً بهيجاً جميلاً جليلاً يضاهي أبهى زينة لفرعون في زينته. وكل تغريده لطير على غصن باهر رطـــيب. وكل صرخة لطفل وليد خرج من بين دماء وفرث وماء. وكل طلعة شمس وغروبها، وخروج قمر وغيابه لتتفجر ينابيع الحياة. وكل ليل وكل نهار

تـتقلب فـيه تمـاويج الحياة. هي آيات في أثرها آيات وبينات تسوق البينات، وبراهين تقود براهين.

يقول الله:

" أولـم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد أقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون " صدق الله العظيم.

ومـن هنا كان هذا الربع بصدد ايقاف الناس على هذه الحقيقة الكبرى مبينا أصـل الحـياة فى العالم والحياة النافعة والحياة المهلكة وكيفية الإحياء والإماتة والدعـوى العريضـة الباطلة المضللة من شرار الطواغيت بزعم بارد لا يخجل بالقـدرة علـى الإحـياء والإماتـة والبراهين الدامغة على تفرد الله تعالى بهذه الخاصـية الأولـى فى الكون ومن ذلك ترى أن هذا الربع قد حفل بالحياة أصلا وسـببا ومعنـى وآية بينة ودليلا بليغا، فصح أن يسمى: (ربع الحياة) وأن درته الفريدة وجوهرته البهيجة هى الآية العالية المجيدة والتى وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل آيات الكتاب وانها سيدة آيات القرآن وهى آية الكرسى

وقـد بـدأ هـذا الربع بالحياة الحقة عند الله تعالى وهى حياة القلوب التى عمدتها وأساسها المتين إرسال الله تعالى للرسل لتتفجر بهم بإذن الله تعالى ينابيع الحـياة،هذا الوحى من الله أنبيائه هو الحياة. هى القلوب الحية التى أحياها وحى الله تعالـى فلذا بدأ هذه الملحمة الباهرة بقوله تعالى: (تلك الرسل فضلنا بعضهم علـى بعض)، وانتهى بتمجيد أولئك الذين بعثوا أحياء بعدما كانوا موتى وعدما ونسيا منسيا فهم يوم أصاخوا السمع والفؤاد دبت بينهم أمواج الحياة بقوله تعالى: (الـذين ينفقون أموالهم ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) إلى قوله تعالى (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

التفسير الموضوعي لربع الحياة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَالْكَـٰفِرُونَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ * اللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَـٰتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَـٰهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَـٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَـٰهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَـٰهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ * أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً

لِلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ . مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ)

أولا: بدأ الربع بقوله تعالى: (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

وفي هذه البداية المباركة أشاد الله تعالى بالحياة الحقيقية ألا وهى حياة القلوب والتى أرادها الله تعالى لعباده عن طريق إرسال الرسل بحيث يكون مفهوما أنه من لم يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر وينبع الرسل فهو من الموات وليس من الأحياء كقوله تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن هو فى الظلمات ليس بخارج منها) وأن هذه الحياة قد تلبس بها أولو العزم من الأنبياء وذلك بفضل الله تعالى وكرمه، فمنهم من كلمه فكان

كلامه حياة له بعد أن كان ميتا وهو موسى عليه السلام ورفع محمدا صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء درجات عالية، وأماعيسى فقد بـــدت الآيـــات الباهـــرات على يديه علامات لما خصه الله به من الكرامة وأيده بروح القدس ولا يخفاك اللمحة الباهرة فى ذكر عيسى بـــن مـــريم وحده باسمه صريحا مع تعميم ذكر سائر الأنبياء بصفة النبوة فيهم دون تخصيص بأسمائهم بما فى ذلك سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم، لموافقة المقام حيث كانت معجزاته عليه السلام بإذن الله تعالـــى على أشد التعلق والصلة والمناسبة بالحياة وتوابعها فهو علـــيه السلام إما أحيا الميت بإذن الله تعالى أو خلق من الطير كهيئة الطير فنفخ فيها فكانت طيرا حيا بإذن الله أو مس عضوا سقيما منيتا فى جسد حى فأعاد له الحياة بإذن الله تعالى وفيه المناسبة البديعة لما تعلـــق بـــه الربع من أحوال الحياة ومعجزاتها وعجائبها التى ذهلت أمامها العقول والقلوب منذ أبصر الإنسان النور على سطح كوكبنا، فمن حائر منكر أو مهتد موقن أو مرتاب لا يكاد يقف فى بيداء شكه على راحة أو جواب. وفى معجزات عيسى بن مريم كما يتبين لك ضروب معجزة من نفخ الحياة صارخة وناطقة يراها الكافة ويرسلها الله تعالـــى للعـــالم على يد واحد من خاصته وأنبيائه لتكون للعالمين بـــرهانا لا يكذب ولا يخفى ولا يتوارى على قدرة الله تعالى التى لا ساحل لبحرها الخضم على بث الحياة أصلا وفرعا، وعلى مصدرها الربانى المتدفق فى أمواج لا تهدأ، الحق المحض المبين الذى لامرية فيه ولا ريب.

ثانيا: لما قام هؤلاء الأحياء بالدعوة إلى الحياة الربانية القدسية الطيبة هب فـــى وجههـــم أعـــداء الحياة من الكفار ومن شايعهم فنشبت المعارك الضارية التى قتل فيها من قتل من الفريقين فكان قتل الصالحين فناء الحـــياة الفانية الغرورة لقاء الحياة الدائمة الحقة، وقتل الكافرين بوار حـــياتهم الدنسة النجسة وتعجيل الحياة البائسة المعذبة الأبدية، فهاهنا أنـــواع الحياة وهى أربعة: الأولى حياة الدنيا مع الإيمان والثانية حياة الدنيا مع الكفر فهى الموت العاجل، والثالثة حياة الآخرة والنعيم المقيم للمؤمنين والرابعة حياة الآخرة للكافرين وهى الشقاء الدائم، وذلك كله مـــن قوله تعالى (ولو شاء الله ما قتتلوا، ولكن الله يفعل ما يريد) أى أنه تعالى أراد اقتتال الناس حول مسائل النبوة تلك التى تفجر الفاصلة بـــين المـــوت والحـــياة، فهو اقتتال تفجر ينابيع الحياة الحقة الحياة الأسمى بين سراديب الموت المحدق بها من كل ناحية، وانكفاء الحياة الضـــنك للكافر حيث يحوطه الموت موت القلب وموت الغاية وموت الوسيلة وموت الفكر من كل مكان، ومن ورائه عذاب غليظ.

ثالثا: عقب الله تعالى على هذه الحقيقة الكبرى التى تتفرع عنها كافة حقائق الإيمان بدعوة المؤمنين للإنفاق مما رزقهم الله تعالى وذلك فى قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) ووجه المناسبة اللطيفة بين الحياة بالوحى والإنفاق من المال، أنه البرهان الصـــادق الذى لا يكذب على معرفة المنفق للحياة الباقية أولا وعلى صدقه فى طلبها ثانيا، فكل مشتر صادق باذل ولا محالة، فباذل نفسه

فى سبيل مبتغاه، وباذل ماله، ولما كان باذلوا الأنفس كالذهب النفيس فـــى الـــناس قليل نادر، ولما كان طلب النفس منهم اختبارا لصدقهم عزيـــزا وعسيرا، كانت الدعوة لبذل المال أقرب كونها فى مكنة كل أحـــد إذا كـــان صـــادقا، والناس كافة يكادون يجمعون عليه، إذ لا يخـــتلفون فى أن من يشرى سلعة فعليه البذل حتما عند العقلاء، ولا تجد بينهم نزاعا إلا ما يتفاوتون فيه من قيمة المبذول بحسب هممهم وقدرتهم، فثبت مما تقدم المناسبة الوثيقة بين بذل المال فى سبيل الله وطلب الحياة الطيبة إلى جوار الله تعالى.

رابعا: يستتبع ذلك الآية الكبيرة فى هذا الربع بل فى القرآن جميعه وهى التى تقرر أصل الحياة وأنها صفة الله تعالى بما يليق بعظمته وجلاله ســـبحانه لـــيس كمثله شىء سبحانه عز وجل، وكل ما يهتز أمام ناظـــريك، كل ما فى الكون من آثار الحياة ونبضها الذى لا يتوقف إنمـــا هـــو من الله تعالى، وأنى لخلق من خلقه نبى مرسل ولا ملك مقرب أن يمنح هذه الحياة ولا يقترب أو يدنو من هذه الربوة المنيفة العالـــية فقال تعالى: (ٱللَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَـــا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُـــوَ ٱلْعَلِـــىُّ ٱلْعَظِيمُ) فهى آية جامعة فذة أفردت الله تعالى بالحياة الكاملـــة العظمـــى وما يستتبع ذلك من القيومية على الكون بأسره، الحـــياة التـــى لا تـــنقطع طرفة عين سواء بالغفلة أو النوم، الحياة

السرمدية التى لا تتصورها الأذهان ولا تبلغ شطآن بحارها الأوهام كما شاء ربنا وكما هو أهل له سبحانه مع العلم المحيط بجميع الاشياء ما علمناها وما لم نعلمها مع العلو والعظمة فمن أراد الحياة ففى هذا الكتاب ومن لم يصدق لا يصدق الموتى وإن قامت الموتى من قبورها.

خامسا: بعدما تبدى الحق جاهرا باهرا سنيا بينا وظهر الصبح لذى عينين، كان إلزام الناس بالقهر بالسير فى ومضات النور ونبذ دياجير الظلام نوعا من العبث الذى لا يعقل فمن لم يصدق النور تبصره عيناه متوهجا على رأس السراط المستقيم كيف تجرجره إليه عنوة واقتدارا، وهل يكره جدث ميت على الحياة أم ينفخ فى موات الخشبة الهامدة حيث لا بصر ولا بصيرة ولا روح ولا حياة، وماذا بعد انفجار الفجر ماذا بعدما تبين الرشد ممن الغى يقول الله تعالى: (لا إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لاَ ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

سادسا: بعدما تم تقرير أصل الحياة ووصف الأحياء على الحقيقة من الناس أولئك الذى أخرجهم الله تعالى من ظلمات الموت الكفرى إلى نور الحياة الإيمانية، وأن المقصد الربانى هو بث حياة الإيمان بين الناس كما بث حياة الكائنات فى جنبات الأرض والسموات عرض

مـــثلا بالـــغ الحقـــارة والجرأة والتبلد من أعداء الحياة حياة التوحيد وإفراد الله تعالى بالملك والعبادة فإذا نبضات الحياة تتنفس فى القلوب يقول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْـرَٰهِيمُ فَـإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

إنه ضرب قمىء فج من ضروب الهوس الذى يعترى بعض الأموات من الطواغيت الذين ركنوا إلى الطين واغتروا بظاهر من الملك فانٍ حتى ظنوا فى حميا تهوسهم أنهم قادرون إلى الإحياء والإماتة وهم كثيـــرون بـــل أن كل متربب من البشر آتاه الله تعالى الملك لا يكاد يفلـــت من هذه الفاقرة المهلكة فمنهم من يذيع بها ويجاهر فى تبجح وقحـــة ومـــنهم من يخفيها ويسرها فى نفسه وإن كان لا يشك فى قدرته عليها وهو عام فى سائر الطواغيت والفراعنة والأكاسرة ومن طالع سير القوم ظهر له الأمر دون خفاء، غير أن المثال المضروب فى القرآن إنما هو لواحد من أشأمهم وأشدهم غباء حيث واجه وأعلن بهذا الإفتراء الفاضح والدعوى الشنيعة، وكما ترى فإن هذه القضية لصيقة الصلة والمناسبة بقوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) فهو الحى سبحانه وهو وحده سبحانه مانح الحياة وهو وحده سبحانه نـــازع الحياة ولا يشاركه أحد من خلقه فى هذه الخصوصية الفريدة النورانـــية فكـــان من أنسب الموافقات عرض الصورة المزرية لمن تجـــرأ علـــى تحدى السيل الكاسح من البراهين حيثما قلبت ناظريك

ومناقضة هذه الحقيقة الربانية الكبرى، وكيف كان دليل إفحامه بنقل نقــل الشمس من مكانها، فتبين أن تفرد الله العلى الكبير الحى القيوم بالإحــياء والإماتة فى خلقه أثبت من رسوخ النجوم فى أفلاكها فمن أراد أن يــبدل أو يقــتحم هــذه العقبة الكأداء فقد طلب ما ترتج منه النفوس السوية وكان كمن طلب نقل الشموس من أفلاكها وهدم دورة الكون الشاسع من اوله إلى آخره .

سابعا: قال الله تعالى: (أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَــالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَــٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَــمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَــىٰ طَعَامِــكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)

ســؤال تــال وصــورة أخرى كثيرا ماتعترى أولئك الذين لم تستقر الحقــيقة فــى قلوبهم ألا وهو الشك واللبس الذى يصيب عامة غير المؤمنين فى هذه القدرة الربانية المذهلة على الإحياء والإماتة، وما يدعــو هــؤلاء لذلك هذه السر الخفى فى الحياة نفسها وأن بشرا لم يطلــع على عملية الإحياء وأن الله تعالى قد حجب هذا السر المهيب عــن ســائر خلقه فلم يتخذ منهم فيه شريكا ولا أشهدهم كيف يحيى الموتــى ومنه تظهر فائدة الأمثال الكثيرة فى القرآن الكريم بالأرض الميــتة التــى تهتز وتربت وتنبت من كل زوج بهيج وغيرها كثير، وإنما جاء السؤال والجواب على لسان رجل صالح لنفسه أولا ولبيان

حقيقة الحياة فى العالم حيث أماته الله تعالى مائة عام ثم أحياه ثم أراه عـيانا كيف تشب الحياة فى العدم المحض والموات المطبق فهاهنا انـتقل القـرآن الكريم من قضية المنازعة فى أصل تفرد الله تعالى بالحياة ومنحها إلى كيفية وجود الحياة بعد الإقرار بأنها من الله تعالى وبيانه فى قوله تعالى على لسانه (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) فهو مقـر كمـا ترى بأن الله تعالى يحيى الموات ولكنه استغرب حدوث الأمر لما تعلق بأسباب الفانية، فكانت هذه الآية الكريمة كمتممة لما قـبلها فـيما يتعلق بمسألة الحياة والإحياء نزولا ممن ينازعون الله تعالى ظلما وعدوا فى أصل المسألة إلى من يقرون لله بها غير أنهم لا يتصـورون الهيئة التى بها تبث الحياة فى الموات الهامد، فأعطى سـبحانه للكافة مثلا بليغا فى الإحياء والإماتة مؤكدا أن السر الإلهى فـيها لا يتسـنى للبشـر مطالعته لأسباب قاهرة خاصة بإمكاناتهم وقـدرتهم المحـدودة الهزيلة ولكن فى النهاية وبعد السؤال قد مات السـائل ثم بعث ليجد نفسه تارة أخرى بين الأحياء بقدرة قادرعليم ولـم يمكـنه مطالعة عملية إحيائه بعد مماته ليقف بها على الجواب الفاصـل فكـان هذا الأمر الواقع هو الجواب الفاصل ، ولكن البينة الكبـرى أسـفرت عـن وجهها فى حماره ورأى عيانا كيف تتشكل العظـام وكـيف تزحف من حولها طبقات اللحم الكاسية لها وكأنها ملحمة أسطورية تأخذ بالقلوب والألباب (ذلك تقدير العزيز العليم) .

ثامـنا: قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَـمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُـرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ

سَـعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أن هذه المسألة الملحة هى مسألة البحث الأزلى للإنسان عن سر الموت والحياة، وأنها تخالج خطرات الإنسان حتى مع الإيمان العميق بأن الله تعالى هو واهب الحياة من غيـر مـرية ولا شك ولعلها من بين المسائل المرتبطة بالخصائص الخلقـية فـى الإنسان نفسه وما جبله الله تعالى عليه من البحث عن المجهـول، والـتطلع إلى كل ما هو غامض وغريب، والحب الذى لايقاوم للمعرفة والفضول المسيطر على جنبات النفس للوقوف على الغيبيـبات، هـى قضية السؤال الملح حتى على أعلى المستويات الإيمانـية فهنا إبراهيم يسأل سؤالا مباشرا عن كيفية الإحياء للموتى وهـى متعلقة بالإيمان الراسخ بالخروج يوم القيامة بعد موت الكافة وأن الأمر فى علم الله تعالى بحاجة إلى براهين عقلية وبراهين مادية مشـاهدة ومحسوسة للوقوف على هذا السر الأعظم وإشباع الرغبة البشـرية الجامحة فى مشاهدة تفجر الحياة بين دياجير الموت، وقد أدى ذلك إلى إنزال الله تعالى واحدة من أعظم الآيات وأشدها ظهورا وتحـديا حـيث تم تمزيق أربعة من الطير ثم تفريق أجزائها أشتاتا متناثـرة، ثـم دبت الحياة تارة أخرى على هيئة مثيرة معجزة بأن انحـاز كل جزء من كل طائر إلى بقية أجزائه برابطة قهرية ملزمة كامنة بينها، ولما كان السؤال هو عن الكيفية فى الإحياء فقد أبرزت هـذه الآيـة حقيقة أخرى تحكم سر الحياة ألا وهو أن الأحياء على مراتب متباينة لا يقف عليها الحصر، وأن كل جزء حى فى كل كائن حـى إنما يرتبط بسر خالص به مع سائر الأجزاء وهى خاصية من الخصائص الغامضة العجيبة للحياة قد وضعها الله تعالى بسر مهيب

فـــى الأحياء، ومنه هرعت الأجزاء بإذن الله تعالى كل لأصحابه من غيـــر تردد ولا خلل ولا خطأ وفى ذلك تقرير تفرد الرب عز وجل بهـــذا الأمر الجلل وعلى هيئة وأسباب هائلة لا يمكن للبشر الوقوف عليها أو فهم تفاصيلها وإن كانت من التنوع والتباين الذى ظهر من هذه الآيات بما يحير العقول، فالآية السابقة حول إحياء الكائن بكامله من غمرات الموت، والثانية فى الروابط والوشائج المعقدة والآسرة الكامـــنة فـــى كل جزء من كل كائن حى بحيث يناسب بقية الأجزاء وبـــرتبط ارتـــباطا بها فتتجاوب نداءاتها له كأنها أوامر صارمة لا تتخلف، فلا يمكنه إلا الإنصياع لها، ولا يضل الطريق إلى غيرها، ممـــا يشـــعر بأن مسألة الحياة من الموات هى من التعقيد والتشعب والتداخل بحيث يستعصى على الفهم البشرى الإحاطة بها أو الوقوف على كنهها، غاية ما فيه أنه يطلع على قليل من أسرارها بما يتبدى فـــى النتائج الباهرة المذهلة من إحياء الميت أو تجمع أجزاء الطائر وطيرانها لتجتمع وتصير حياة تسعى، إنه السر الذى يستعصى بحكم طبيعـــته ومصـــدره وهيئته على المدارك البشرية القاصرة العمياء، ولعـــل هـــذا لـــه العلاقة الوثيقة بنفخ الروح والهيئة الغيبية الموغلة لتفرعها ببهائها وروعتها وانسيابها بين جنبات الطين الكالح الموحش الكئيب إنه قوله الله تعالى: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربـــى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)، فالمقصود أن الوقوف على سر الروح الذى هو سر الحياة أمر لا طاقة للبشر بمعرفته، ولأجل ذلك وردت الأمـــثلة المـــتقدمة الكثيـــرة لإراحة ضمائر الناس والوقوف الراســـخ بهـــم على هذه الحقيقة، وأنه يمكنهم بدلا من طلب المعاينة

للوصـــول إلـــى اليقـــين، فلهم بلوغ مرتبة اليقين عن طريق الآيات والظواهر المتفجرة حولهم فى كل مكان.

تاســـعا: ختم الربع بما بدىء به من الإنفاق فى تأكيد على الصلة الحميمة والـــرابطة والوثيقة بين الإنفاق وبلوغ مراتب الحياة الربانية القدسية كـــيف والدنيا بحذافيرها إنما هى المال الذى هو دنيا الناس بأثوابها وألوانها المتقلبة من حال لآخر فتارة هى المسكن وتارة هى الملبس وتـــارة هى الزوجة وتارة هى المركب وتارة هى المنصب وغيرها مـــن الدروب الموهمة والشعاب الكثيرة التىْ يتحكم بها المال ويفتح مغاليق أبوابها، فالحاصل أن ما فى هذه الحياة الدنيا من زينة إنما مـــرده كلـــه إلى المال فمن بذل المال بذل دنياه الفانية رجاء الباقية فذكـــر الإنفـــاق هنا عقب تفصيل الحياة وكأنه سبب رئيسى للحياة الأبديـــة فقـــال الله تعالى: * مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَـــن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْـــبِعُونَ مَـــآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَـــيْهِمْ وَلَا هُـــمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ) وفيه أن الحياة مرة أخرى على ضروب واشـــكال وتـــنوعات لا يحيط بأسرارها إلا البارى سبحانه وتعالى ومـــنها حياة مباركة متزايدة النماء والخير كالحبة الوادعة الصغيرة التـــى تبدو واهنة ضعيفة بيد أنها تمتلىء بركة وتتفجر نماء، فلا تلـــبث بـــنعمة الله تعالى أن تنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة فمن واحدة إلى سبعمائة وكل واحدة من السبعمائة إلى سبعمائة على

بـــركات وفيوضـــات للحياة لا يقف الحصر عليها إذا عرف العاقل الحصـــيف كـــيف يـــوجهها ويقبض على فرصتها الغالية التى لا تعـــوض، فالحياة جوهرة ثمينة وهبت فإن انتفع المرء بها وإلا فاته النفع العظيم فكيف إذا لطخها بالأذى ومرغها فى الطين وهوى بها إلـــى أســـفل ســـافلين، وفـــيه أن كثرة السؤال عن السر فى الحياة لايتحصل به عظيم نفع ولا كبير فائدة، فالوقوف على سر استثمار الحياة واغتنام فرصتها النادرة أجدى من محاولة الوقوف على السر فـــى وجـــودها ، فالدلـــيل الـــذى لا يمارى على وجودها هو نفس وجـــودها ويمكن بغاية اليسر للعقلاء جميعا الوقوف على هذه الفائدة الـــناطقة مـــن مجرد إطلاق البصر فى مقارنة بين الموت الموحش والحـــياة البهـــية فالموت الشاسع قائم حيثما نزلت والحياة الزاحفة الصـــاخبة مـــتدفقة أينما حللت ، والفرق بينهما صارخ شاهر شاهد ناطـــق بالحى القيوم الخلاق العليم الخبير، والبحث فيما كانت لأجله الحياة ألا وهو عبادة الله تعالى وتوحيده والتقرب له عز وجل واتباع شـــرائعه أنفع من صرف الأوقات فى البحث عن كيفية الحياة وسر وجودها فيكفى وجودها برهانا مبينا وهو قول الله تعالى (الذى خلق المـــوت والحـــياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فالموت والحياة غايتهما الإمـــتحان والإختبار والبلاء وأن من ينفق ماله فقد بذل الدليل البين والبرهان على صدقه فى طلب الحياة السرمدية الدائمة الكاملة، أولئك هم الأحياء على الحقيقة وما عداهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون، أولئك لا خوف عليهم و لاهم يحزنون، فمن لم يجد ما يـــنفقه فلن تفوته فرصة الحياة حيث يمكن أن يحصلها تامة من غير

نقصان بالقول المعروف ومغفرة من الله تعالى تحوطه وتقيه مصارع السوء، وأن من حبط عمله فمن نفسه إذ يتبع صدقاته المن والأذى وفيه النزعة التربية المقيتة الدفينة حيث يسول شيطانه أنه قد ملك أرزاق الناس ببذل المال مبددا عمله ونفقته وثمرة فؤاده فى مهالك من المن والأذى النفسى والأذى المادى فى ظن قائل مهلك من أنه المانح المانع المسيطر، بعد الإنكفاء على حظ النفس والفخر والخيلاء والتعالى على خلقه سبحانه وتعالى، وهى كما قد علمت صفات إلهية لا يفلح من شخص لها ولا من تشبه بها وهو بيّن فى انتفاء خالص توحيد الله تعالى والتواضع له سبحانه بل لعله ينفى صدق الرغبة فى طلب الحياة الطيبة فى الآخرة ففيه خصلة من فاقرة قارون ومصيبة فرعون بل من مهلكة النمرود عليهم لعائن الله إلى يوم الدين.

عاشرا: تبين من السرد الموضوعى لهذا الربع البليغ أنه إنما يدور بكامله حول فكرة الحياة وجودا وكيفا ومصدرا وغاية ونوعا وتجريدا لها لله تعالى ونفيا للأنداد والمدعين والشركاء، كذلك توجيه ربانى بليغ على ما يتوجب على الناس السؤال عنه من غيب الحياة وأن السؤال عن سرها لا يأتى بكثير نفع فوجب صرف الأوقات فى السؤال عن الطرائق الكثيرة للإنتفاع بها وسلوك مساراتها الرحيبة نحو الله تعالى نفعا يناسب قيمتها وإرادة واهبها سبحانه والحكمة البالغة من وجودها، فهذا الربع فيه الحياة ومنه تفهم الإرادة الإلهية منها ومآل الناس بعدها حتى يمكن أن نسمى هذا الربع من القرآن الكريم: (ربع الحياة) والله تعالى أعلى واعلم.

المثال الثانى: ربع النور

هذا الربع العظيم من القرآن العظيم إنما يسلط النور على مسألة من النور فـــى كـــتاب الله تعالـــى مصدرا وفائدة وغاية مع الإستدلال القرآنى البديع على مقاصده بالظواهر الضوئية بأشكالها المختلفة قياسا بالظواهر النورانية فى قلوب عـــباد الله تعالـــى حـــال أشرقت عليهم أنوار الفتوحات الربانية، وكذلك الظلمة والوحشـــة والكآبـــة حال فارقتها روح الإشراقات الإلهية، فهذا الربع البديع من كتاب الله تعالى يمثل شمس المعرفة بالله تعالى وما يتوصل به إليها وفيوضات مـــن أنعم الله عليه بها، وحرمان من حرمه الله تعالى منها مع استخدام معجز للظواهـــر الضوئية التى طالما مرت على الناس مر الكرام لتنزيلها على الواقع العقدى والإيمانى وبيان سطوع النور فى القلوب عند معرفة الله تعالى، ووحشة الحـــرمان لمـــن حرم معرفته عز وجل، حيث بدأ الربع بالنور الباهر الذى يعم الســـموات والأرض مـــن فيوض الله تعالى وانتهى بالنور الإيمانى المستقر فى حـــنايا قلوب المؤمنين والذى يفضى إلى غاية التسليم والطاعة والخشية والتقوى كأثر مباشر لتنوير القلب فكانت العاقبة الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن اختصهم بالعلم به والقرب منه وحسن لقائه سبحانه وتعالى. والآن نشرع فى المقصود سائلين الله تعالى أن يعلمنا ما جهلنا وينفعنا بما علمنا إنه ولى ذلك والقادر عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

(اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَـٰرُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّـٰهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَـٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَـٰفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَـٰرِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لاوْلِي الأَبْصَـٰرِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ

إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ)

أولا: درة الربع وآيته الكبرى وجوهرته الثمينة فى واحدة من أروع آيات الكتاب نظما وبلاغة ومسا لواحدة من أعظم الصفات الإلهية أثرا على خلقه جميعا،وهى قوله تعالى: (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

ونحن فى مطلع هذا الربع تغمرنا المشاعر الباهرة فى تقرير الحقيقة الكبرى التى يتقلب فى فيوضها الأحياء فى السموات والأرض وهى سبحات النور الذى يتماوج بصفائه وجماله وجلاله فى جنبات الكون من الله تعالى، وانظر إلى الكوكب المظلم الموحش الآفل ثم تأمل النجم المضىء المبصر يخطر فى بهائه وجماله وجلاله، فكل ذى بصيرة وكل ذى مسحة من إدراك يرى عيانا الفرق بين النور والظلماء فرق الجمال والبهاء عن الوحشة والكآبة، والقرآن العظيم

عندما يقرر روعة الحقائق الكونية فهو إنما يعكس هذه الحقائق على قلـــوب البشر لتقرير الحقائق العقائدية الكبرى، كذلك يضرب المثل البلـــيغ لتقريب البعيد من الغايات وكشف غموض المشتبهات، فقدم ببيان إشراق السموات والأرض بنور الله تعالى ثم ضرب مثلا لنوره كمشـــكاة فيها مصباح، وهذا المصباح يتوهج فى جمال وبهاء داخل زجاجـــة تـــتلألأ لانعكـــاس الضوء وتكسر أشعته وتضاعفها على جنـــباتها الرائقة الشفافة الصافية فلا يزداد إلا بريقا وتوقدا ولمعانا، نور على نور وبركة فوق بركة، نور ربانى باهر مبارك متضاعف متراكب. نور حسى تبصره الأعين وتشهد تجلياته وآثار فيوضه بين السموات والأرض، لايلبث أن يرسو بنا على ضفاف النور الربانى الروحى الذى أرسله الله تعالى للبشر حيث تنعم به الأرواح والقلوب بهدايـــة من فضل الله تعالى، فكما جعل الله تعالى النور الكونى زينة للسموات والأرض فهو سبحانه كذلك جعل الهداية لنوره زينة القلب والروح لمن يشاء من السعداء ، فإذا القلوب التى أراد الله تعالى لها الهدايـــة تسبح فى عطايا وفيوض البهاء والجمال والكمال والبصيرة والمعـــرفة التـــى هـــى الحياة للموتى والشمس لسائر الظلمات، أين القلـــوب المظلمـــة الباردة التى لم تهنأ بنور الله تعالى ولم تركن إلى ركن ركين.

ثانـــيا: فـــى إلـــتفات بديع ومناسبة آسرة فى روعتها من الفيض النورانى الهائـــل الـــذى يمد الكون بأسره بالنور حيثما تقلبت الأبصار، إلى المنارات المضيئة البارقة بين ظلمات الكفر فى الأرض وهى بيوت الله تعالى، وكيف مس الله بجلاله هذه البيوت الطيبة المباركة بلمسة

النور الإيمانى القرآنى الذى يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فأضاءت بين ظلمات حالكة من الجاهلية الجهلاء، كيف رفع النور هذه البيوت بما فيها من نور التلاوة لأعظم كتاب ونور الطهارة يتلألأ على محيا المصلين ونور الصلاة للرب العظيم، إنها بيوت النور فى عالم من الظلام، بيوت الضياء المبصر التى أذن الله تعالى أن ترفع، ترفع قدرا ومقاما وترفع ذكرا وطهرا وترفع عزة ومنعة على سائر الحفر المظلمة والوهدات الحالكة مما شاده الجاهلون من بيوت للخنا والرذيلة وبيوت للصد عن سبيل الله تعالى وبيوت تتلطخ فى أرجاس الدنيا الآسنة ، ثم النور الذى يفيض بجلاله على الرجال الذى وقفوا أنفسهم لله تعالى فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن الصلوات التى هى مرايا النور فى وجوه المصلين (فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

إنها البيوت الربانية تتلألأ بنور الله تعالى الذى أذن لها فقامت من عدم تتوقد ضياء سابحا يعم العالمين، إلى النور الذى لا يخبو فى قلوب الفئة الطاهرة الطيبة بما أفاض الله عليها من هدايته فعكست مرايا قلوبها النور النازل وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم، وما المؤمن إلا مصباح نورانى يتوهج فى مسجده الذى من نوره كأنه

زجاجـــة تصفى نور القلب وتقويه وتزيده بهاء على بهاء، والمساجد المرفوعة بذكر الله تعالى ونوره كأنها كوة تضىء وتتلألأ فى حائط معـــتم وجدار مظلم هو العالم الأعمى الذى لا يعرف عن الله شيئا، فبـــيوت الله تعالى هى مصابيح الهدى وهى الأثر الناطق لنور الله ، وهى ملاذ صفوة خلقه وأوليائه الذين اتبعوا الشريعة الخاتمة شريعة خير المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وتأمـــل وجـــه المشـــابهة الـــبديعة بين نور القلوب وبريق المساجد كزجاجات تعكس النور، وتأمل الأثر المتبادل بين المصباح المتوهج وبـــين الزجاجة الصافية فهى تستمد ضياءها منه وهو يستمد روعته وبهاءه وقوة ضيائه وتوقده منها. نور الرجال الذين وهبوا أرواحهم لله تعالـــى فلا تلهيهم عن الله تعالى تجارة هى الدنيا بحذافيرها، فما الإنســـان إلا تاجر، وما سعيه إلا تجارة، فهو مستأجر نفسه لغيره وقفـــا لقـــاء أجر معلوم وهم الموظفون فى سائر الوظائف جلت أم حقـــرت، ثم عطف على هذا المعنى العام المعنى الخاص ألا وهو أخص أنواع السعى وهو البيع، فالبائعون هم التجار على الحقيقة وهم أشـــد الـــناس شـــعورا بالربح كون السلعة بين أيديهم والربح حال حصـــوله مضمون لهم، فهم أشد ارتباطا بالبيع من ارتباط الموظف بالوظيفة أو سائر الساعين للرزق بأرزاقهم ، وتأمل المناسبة اللطيفة للســـبب المباشر لتركهم ما تكالب عليه الناس من حطام الدنيا، وهو خـــوفهم العمـــيق من المثول بين يدى الله تعالى يوم القيامة بأهوالها التـــى لا يقـــف الحصر عليها، غير أن اللافت هنا هو اختيار الهول

الأنسب لمقام النور والظلمة ألا وهو تقلب القلوب والأبصار، ولا يخفاك مدى مناسبة هذا المشهد بالذات من بين أهوال القيامة لمسألة النور عند وجوده وافتقاده حال الحادث الجلل ، فالقلوب التى لا يقين فيها ولا نور سرعان ما تتخبط فى بيداء الظلمات الكثيرة فى هذا اليوم العصيب، والأبصار التى اعتادت الإهتداء بالنور فى الدنيا سرعان ما تفقد قدرتها فتتقلب ذاهلة حائرة بين مناظر الأهوال ومشاهد التنكيل والوبال، ومن هنا جاءت الفاصلة المناسبة أشد المناسبة لخوف أهل النور فى الدنيا من فقد نور القلوب بل ونور الأبصار فى الآخرة، وتدبر هذه الخاتمة البليغة فى قوله تعالى(ليجزيهم الله تعالى أحسن ما عملوا) بالقيام فى المساجد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، (ويزيدهم من فضله) وهو لقاء الله تعالى يوم القيامة ورؤيته بأبصارهم معاينة على ما عليه معتقد أهل السنة، من فيوضات الجمال و النور الإلهى فلا يرون إلا نور الله تعالى مصدر كل نور فى السموات والأرض، والذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم أمين

ثالثا: عقب آيات النور فى مطلع الربع والسياحة فى نور السموات والأرض ومنها السياحة فى نور القلوب المستضيئة بنور الله تعالى تأتى المقابلة المعقولة بين الفئة المضيئة فى بيوت الله المنيرة وبين الفئة المظلمة فى شعاب الكفر الحالكة، فى قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ)

هؤلاء طائفة من أهل الكفر الذين تتميز خصائص سعيهم بأمور:

أولها: الغاية الخادعة المهلكة وإن كانت فى ظاهرها لهم نجاة وحياة، وهى عبارة عن كل ما عرفه الناس من عقائد ومناهج وضعية بشرية قاصـــرة غير منهج الله تعالى، فكلها بوارق خلابة الظاهر مسمومة مهلكـــة، وأكاذيـــب ومراوغات يزينها الشيطان لهم فيتساقطون فى أتـــونها زرافات ووحدانا، فهم ساعون كالفراش إلى نور زائف من ورائه هلاك أكيد.

الثاني: أنهم يسعون سعيا جبارا بكل ما أوتوا من قوة سعى الظامىء اللاهـــث فـــى صـــحراء شاسعة يرى الماء معاينة فيندفع فى سعار محموم لبلوغه مبددا وقته وطاقته لما يراه عيانا من لمعان الأمل بعد الـــيأس ومخايل الراحة بعد العناء والتى هى فى حقيقتها وهم شاسع وســـراب خـــادع ، فلا أبصارهم سليمة ولا قلوبهم راشدة ولا وهج الـــنور الذى يعاينونه منعكسا على الرمال ماء، وفيها أنهم حضارات شديدة النشاط والعمل الحثيث الذى لا يهدأ والسعى الظامىء الذى لا يرتوى. وإننى حين أقرأ هذه الآية الكريمة كأنى أتمثل هذا النفر من العلماء المعاصرين فى فنون العلوم التجريبية المختلفة والذين قامت علـــى جهودهم العلمية الجبارة الحضارة المعاصرة بكافة خصائصها ووثـــباتها الأسطورية فى مجال العلوم، فإن المرء ليؤخذ لشدة دأبهم واســـتبحارهم واجـــتهادهم وحرصـــهم المتفانى لبلوغ أغوار العلم واســـتقتالهم فى بحوثهم المضنية التى يصلون فيها الليل بالنهار دون هـــوادة، فهـــم يعزفون عن المطعم والمشرب والنوم فى بحث هائل

جـبار ظامـىء للمعرفة والعلم لا يهجع، بل ويقفون على الأسرار والحقائق العلمية التى تأخذ بمجامع القلوب والأبصار سواء فى علوم الأرض أو فـى علوم الفضاء، إنهم السبب الأول وراء هذه النهضة الخيالية فى العلوم من مراكب للفضاء ومن غواصات فى قاع البحار ومـن سـيارات ومـراكب على الأرض وغيرها من الإختراعات والكشوف العلمية المذهلة، ولكن المرء يقف مصدوما منزعجا متألما لحالة الإنكار التام لله تعالى والكفر الكامل به مع ماهم عليه من سعى لا يتعب ولا يكل، ووقوف مذهل علي عجائب خلقه سبحانه، والخفايا المديـرة للرؤوس فى صنعة الله تعالى فى السموات والأرض، فلا ترى فى أحدث الدوريات العلمية إلا تعليقات فى غاية السفه والغباء والبـرود عـن هذه العجائب الصاعقة فى خلق السموات والأرض، وبـدلا مـن السجود التام للإله الأعظم الذى خلق فسوى والذى قدر فهـدى، تصدمك العبارات التى تقض من بلادتها مضجع كل أواب حفـيظ، ويـئن من برحائها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شـهيد، مـن المادية المطبقة على الكتابات العلمية، فهذا الثعبان قد (طور) جلده من نفسه (ليتواءم) مع البيئة، وهذه الجماعة من القرود هـى أول أسلافنا، وهذه الدورة الفلكية المذهلة نظمت نفسها بنفسها لـتكون علـى هذا القدر من الدقة والإحكام المذهل، بل وهذا الكون المسـتحيل فى أبعاده بكل هذا الإقتدار والجبروت والعظمة التى لا توصـف بين جنباته كله كالكتاب المندرس الذى لا أول له ولا آخر ولا خالـق ولا غايـة إنه جاء بمحض الصدفة العمياء فنجوم تظهر

وأكوان تتآكل، ذلك قولهم وزعمهم البليد الذى يزعمون وغيرها كثير جـدا من صنوف التعليلات والتفسيرات الضالة المهلكة ، وكلها مع غايـة المـرارة تتسم بالإنكار التام لله والكفر الكامل به سبحانه، بل إننـى لاحظت من هؤلاء تحرى حجود الله تعالى فى كتاباتهم عمدا إلـى درجـة بـذل الجهود المضحكة الشاذة للهروب والتعامى عن البراهين الربانية المتحدية الناطقة فى كل ذرة وفى كل زاوية مضيئة أو مظلمة فى تراميات هذا الكون الصادم بمعجزة خلقه لأشد العقول تصـلبا وعـنادا، فشـعارهم بلوغ العلم للعلم والسعى الذى لا يهدأ للمعـرفة مجرد المعرفة، وليت شعرى إن لم يدل العلم بالشىء على صـانعه لتوضـع الأمور فى نصابها ويعط كل ذى حق حقه ويقف المخلوق على العلم بخالقه ويستمد منه العون ويهتدى بوصاياه وينهج علـى منهاجه ويعبده حق عبادته، فما فائدة العلم لمجرد العلم إلا أن يكون إشباعا جامحا لظمأ المعرفة الذى لا يهدأ والبحث فى المجهول الـذى فـى طياته الهلاك المدمر حيث تصرف الأعمار كاملة غير منقوصـة ضـائعة فى صحارى ملح لا سواحل لها بونا بعيدا عن المراد من مانحها والمقصود من خالقها، حتى إذا جاء الموت تخوفا أو بغتة تبدى له فجأة العلم الهائل الذى لم يذر عنه شيئا، ووجد الله تعالـى عـنده، وإذا بكل ما علم وقد بدا وبالا لا ينفع ونقمة لا تدفع وحجة مزلزلة يوم يقوم الناس لرب العالمين، وبالتأمل نجد المناسبة فـى ربـع النور بين النور الصافى الحقيقى الذى مصدره الله تعالى وبـين مصادر النور الخادع الزائف الذى تزين به الشياطين طريق

مـــن تبعها مما يورث حذرا عند العاقل، ذلك أن كل نور يراه ليس بالضرورة مثلا للنجاة والحياة الحقة، فهناك مخادعات الضوء ونور الســـراب بقـــيعات البوادى يمثل ظاهرا مبهرا منجيا بينما هو خداع وبـــيل وزيـــغ مدمر فى القلوب والأبصار يستحث طالبه إلى السعى القاتـــل والإنـــدفاع الأعمى من غير ادخار جهد أو طلب راحة إلى ســـراب كأنـــه ماء وما هو بالماء، ومنه إلى غاية الهلاك هكذا بغتة وفجـــأة وبعـــد ســـنوات التعب المرير والجهد الجهيد فى طلب وهم وســـراب لا حقـــيقة له حيث يجد الله تعالى عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب.

رابعـــا: (أَوْ كَظُلُمَـــٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَـــٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَـــٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُوراً فَمَا لَهُۥ مِن نُورٍ)

ضـــرب آخر من أهل الهلاك والظلام الدامس البهيم، وصورة قاتمة لمن لم يجعل الله تعالى لهم نورا، فهم يخبون فى غيابات ظلمة كالحة سوداء لا يكادون فى وهادها يعرفون طريقا ولا يهتدون سبيلا، فهم فـــى حالـــة مزرية من التخبط الأعمي فى جو خانق من العمى التام والظـــلام المطبق، ولكنهم يصرون مع ذلك على التردى من عماية إلـــى عماية والإنحدار من ظلمة إلى ظلمة، طراز آخر ممن عموا وصموا عن منهاج الله تعالى ونوره ممن شغلتهم أنفسهم فهم فى همّ مـــرهق معنت مستمر حول البدهيات بفلسفات مصطنعة وبحث مؤلم وفكـــر لا نهايـــة له ومطالب تنقطع فيها أعناق الإبل وتذوب أعمار

وأجســاد من ولغ إلى بحرها الخضم المظلم فهم فى عذاب أليم حتى. قــال قــائلهم: أنا أشك إذن أنا موجود، فهو من حماقته يستدل على ظلمــة إنكار وجوده بظلمة الشك فى وجوده، فحسبك بها ظلمة فوق ظلمة إذ يشك أنه موجود إذن فهو موجود، وحسبك به خبالا وتخبطا وضــياعا، وغيــرهم ممن قضوا أعمارهم فى البحث عن البدهيات والمحسوســات فى سياحات عقلية جامحة حتى خرج أمثلهم طريقة بالمصــباح فى ضوء النهار يقول إنما أبحث عن الحقيقة، وأين هو وأين الحقيقة؟!، وأمثالهم وأضرابهم ممن أعرض عن هدى الله تعالى ومــنهج المرســلين ليقف بمحاولاته الكسيحة وسعيه البائر على ما عجــز البشر كافة عنه من لدن آدم عليه السلام، ولو علم الله تعالى أنهــم يــبلغونه بجهودهم وسعيهم ما أرسل لهم رسلا ولا أنزل لهم كتــبا، ولكنه جلت حكمته علم أن أمور العالم وتدبيره وتقرير ما فيه ومــا وراءه والوقــوف علــيها هو أمر خارج طوق البشر ووراء هممهــم وفوق طموحهم وأوهامهم، فأرسل الرسل رحمة بهم وعلى رأسهم سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم، فمن أراد بلوغ الحكمة الكبرى والوقوف على الأسرار العظمى لما بعد الموت بــل ومــا قــبل الموت فى هذا العالم فعليه بسرج الهداية ومنارات المعرفة من أنبياء الله تعالى ورسله، عليه بالقول الفصل الذى ما هو بالهــزل من هذا الكتاب الكريم الذى لا يغسله الماء ولا تأكله النار، ومــن رام غير ذلك فقد رام اجتياز البحر اللجى بلاسفين وطار فى غيــر مطــاره وطلب مالا مطمع فيه ولا مطمح إليه، وسواء سعى

بجسده فى درب الظلمات أو بفكره فى سياحات العقول التى لا تروى غليلا ولا تشفى عليلا، وكان على هذه الهيئة الفاضحة التى وصفها الله تعالـــى فى هذه الآية الفاصلة القاطعة كأنه سابح فى ظلمات بحر لجـــى لا ســـاحل لـــه، والحاصل أن نور التعرف على هذه الأمور العضـــال إنما تأتى من الله تعالى فقط، فإذا لم يركن المرء لهداية الله تعالى فهو فى ظلمات بعضها فوق بعض، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور من ذاته ولا نور من فكره ولا نور من سعيه، وأنى لـــه النور وهو طين فانٍ آسن ديدنه الظلمة والموات المطبق والجهل اللازم

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى بيدائه يتغمغم

ما للتراب وللعلوم فإنما يسعى ليعـــلم أنه لا يعلم

وفـــى كل ما تقدم صورة أخرى لها غاية المناسبة مع ربع النور، إذ بضـــدها تتميز الأشياء، فمن رأى حال هؤلاء الذين لم يجعل الله لهم نورا علم المنة الكبرى والنعمة السابغة فى نور الله تعالى الذى امتن به على عباده فى مطلع هذا الربع النورانى البهيج.

خامســـا: قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ* وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ)

بعـــد الإلتفات القرآنى الكريم من استعراض النور الربانى الذى يعم جنـــبات الكون إلى النور الربانى الذى يغشى قلوب المؤمنين، ومنه

إلى بيان حال أولئك الذى غرتهم الأمانى والأنوار الموهمة الخادعة التى لا حقيقة لها، ثم إلى وصف حال أولئك الذين لا نور لهم رأسا، وفى التفاتة بديعة عاد ملقيا الضوء على عالم الأحياء من غير البشر أولئك الذين نالهم القسط الأوفى من نور الله تعالى وهدايته الفطرية، إذ خلقهم وعلمهم جميعا فإذا هم عارفون الله تعالى ومسبحونه، عالمون صلواتهم و تسبيحاتهم، لئلا يظن الظان أن نور الله تعالى الواسع وهداه السابغ مقصور على هذه الشريحة الضيقة من البشر، بل هو باتساع خلق الله تعالى فى السموات والأرض من العقلاء كالملائكة والجن وغيرهم مما لا يعلمهم إلا الذى خلقهم، أو مما يظن الناس أنهم غير عقلاء كالطيور السابحة فوقهم فى جو السماء وأمثالها، فالكل مغمور بنور الهداية الربانية والكل مستجيب لها استجابة العاقل العالم المنصت السامع، الكل قد (علم) صلاته وتسبيحه. إنه النور على هيئاته وتنوعاته، النور الربانى المترامى فى السموات والأرض ثم نور القلوب المخبتة المؤمنة، وبين هذا وذاك نور الكائنات والمخلوقات على ضروبها وهيئاتها التى لاتحصى كلها مستضيئة بنور الله تعالى تسبح وتصلى، ليعلم الذى لا دراية له مدى حقارة الفئة الهالكة المظلمة أو المتشحة بخداعات ضوئية مزينة ملونة لا حقيقة لها، ولكى لا يستهولن المؤمن الصادق قلة عدد المؤمنين المستنيرين بنور الله فى عالم الظلمات والمظلمين، فالكون كله ساع يرفل فى نور الله تعالى، لم تبق إلا هذه الفئة الشاذة الهالكة، نفاية لا ذكر لها ولا خطر لا ينظر الله إليها ولا يباليها، تهرج هرج الظلام وتخبط خبط الصم والعميان.

سادسا: قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ * يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ)

صورة أخرى من صور الضوء وهى أولا آية كونية كبرى فى كتاب الله تعالى حيث يصف السحاب تركيبا وتكونا ونوعية وصفا كان من المستحيل الوقوف عليه إلا بعد ركوب الطائرات للإطلاع على الطرق الخفية المعجزة لتكوينه وعلى الهيئة التراكمية له والتى تؤدى به إلى صورة أقرب ما تكون إلى الجبال الشامخة مما يعرف اليوم فى علوم طبقات الجو بالسحب الركامية، غير أن مناسبتها الفائقة لربع النور هاهنا هى وصف حالة من حالات النور الوامض النافذ ذو الطبيعة الصاعقة فهاهنا الودق وهو البرق على أحد القولين الذى يكاد سناه يذهب بالإبصار، وهو قدر من الله تعالى يصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء، وهى آية تصف حالة أولئك الذين يؤمنون على ريب وشبهة ونفاق فى قلوبهم فلهم مثل قريب منه فى سورة البقرة فى قوله تعالى (فيه ظلمات وبرق ورعد) (يكاد البرق يخطف أبصارهم) . هو المنافق الذى يرى من الآيات الباهرات ما يدعوه للإيمان ثم لا يلبث أن يعود مرتكسا منكوسا وينقلب على عقبيه فى عاصفة هوجاء من القلق والتردد والاضطراب بين النور البارق الذى يوشك أن يذهب بالبصر لفرط شدته ونفاذه وبين ظلمات جبال الشكوك والريب الجاثمة على صدره بينما يزلزله وميض

صـــاعق يبـــرق بقوة ثم لا يلبث أن يختفى مخلفا من ورائه ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض فى عاصفة لا قرار لها، وهى نفوس معذبة بـــين الحـــق والباطل لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء كما ورد ذكرهم كثيـــرا فى القرآن العظيم. والحاصل أن هذه حالة أخرى من حالات تصـــاريف الـــنور فـــى هذا الربع، فليس النور هاهنا مفقودا بالكلية كســـابقيهم ولا هو خداع للبصر كالآخرين، ولكنه نور ساطع شديد القوة يظهر فجأة ويختفى فى سرعة مسببا من ورائه آلاما تكاد تذهب بالأبصـــار وركاما من الشكوك والحيرة والضياع.وتأمل الآية التالية الوثيقة الصلة بما ذكر حيث الهداية عطية من الله تعالى ومنّة كبرى لا يقـــدرها حق قدرها إلا من أبصر نور الله تعالى ببصيرة القلوب فإنه تعالى يقول: (يقلب الله الليل والنهار) ولا يخفاك أن صفة الليل الظـــلام فى مقابل صفة النهار وهى النور فمن جعل فى قلبه النهار أبصر ومن أظلم ليله فهو فى ليل من الشك مظلم، (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) التى تبصر عبر الضياء النورانى الربانى الذى ما أن يمس القلوب إلا وهى مبصرة عالمة عارفة لا ريب لديها ولا شك منه مريب.

سابعا: (وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

هـــنا عجيبة أخرى من عجائب خلق الله تعالى وقد اختلف المفسرون كثيـــرا فـــى أمرين بخصوص هذه الآية الكريمة، فأما الأول: لماذا

اقتصر على هذه الأصناف التى تمشى على بطنها أو رجلين أو أربع فقط مع العلم بوجود دواب كثيرة لها أكثر من أربع كالعناكب والذباب والبعوض بل أنها ذكرت فى القرآن الكريم فلماذا لم يذكر إلا الأصناف المتقدمة دون غيرها من الأجناس الكثيرة الأخرى، أما الثانى: لماذا كان خبر الله تعالى عن هذه الكائنات كالعقلاء باستخدام (فمنهم) مع القطع بأنها كلها غير عاقلة إلا الإنسان وهو يمشى على رجلين من بين فصائل كثيرة أخرى من الرئيسيات والقرود تمشى كذلك على رجلين؟!. وعندى انه لا إشكال من ناحية اللغة ولا من ناحية المعنى فى الآية الكريمة، فأما جواب السؤال الأول فلم يأت حصر لهذه الأجناس بحيث ينفى غيرها، بل غيرها مذكور فى الكتاب فى مواطن أخرى فلا يفهم منها قصر الكائنات على ما ورد فى الآية الكريمة، ويكون ماذكر كالأمثلة لتوضيح الأمر لا للحصر، وقوله تعالى بعدها(يخلق ما يشاء) يحمل تحت عمومه كل ما شاء الله تعالى من الخلق أى مما جاء هنا أو غيره مما هو معلوم معروف أو حتى ما لا يعلمه الناس. والتحقيق أن هذه الآية مؤخرة فى السياق لأسباب سنأتى على ذكرها قريبا لأن معناها مرتبط بقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ)

فبإضافة هذه الأجناس المخلوقة من الماء إلى تسبيح الكائنات يفيد معنى عام وهو أن الكائنات جميعها ومنها ما خلق الله تعالى من

دواب مـن مـاء تمشى على بطنها أو رجلين أو أربع كلها مسبحة كـذلك عالمة بصلاتها وتسبيحها فتكون الآية مركبة من معجزتين: معجـزة الخلـق مـن مـاء إلـى معجزة تعليمها الصلاة والتسبيح وخضوعها جميعا لنور الهداية الإلهية، فيناسب الأمر على هذا ربع النور مع ملاحظة أن الحشرات وغيرها من الدواب التى تمشى على أكثر من أربع غالبها تعيش فى الظلام وهى مؤهلة بجبلتها للعيش فى ظلمـات كثـيفة، ولا تظهـر فى النور إلا لماما، فلإضمارها هنا وإغفال ذكرها صراحة مناسبة بالنور وتشريفه، بخلاف ما ذكر من سائر الدواب الماشية على بطنها أو رجلين أو أربع فكلها تكاد تبصر الضـوء بعـيون قريبة التركيب والرظيفة ولا تستغنى عنه إلا قليلا والله تعالـى أعلم، فإذا عرفت ما تقدم استقر فى قلبك وجه المناسبة فى ربع يذكر النور وضروبه وتداعياته.

الأمر الثانى: وهو استخدام (من) التى تستخدمها العرب للعاقل لغير العاقـل هـنا تغليبا وذلك لوجود البشر العقلاء بينهم كما ذهب إليه كثيـر من المفسرين، فلا نسلم به، وله وجوه لطيفة منها أنه سبحانه عـادة مـا يخبر عن خلقه المعتبرين فى نظر الناس من العجماوات والجمادات إخبار العقلاء كما فى قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تـدرك القمـر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)، فقوله تعالـى: (يسبحون) كأنهم عقلاء وذلك لتمام هدايتهم وانقيادهم لأمر بـاريهم فهـم أشـد عقـلا من كثير من الناس، فالآية هنا من هذا الضرب، أى أن الأجناس التى تمشى على بطنها وعلى رجلين وعلى

أربع لا فرق بينهم حين انقياهم وخضوعهم لهداية الله تعالى الفطرية لهـم، فجميعهم يسلكون سلوك العقلاء، أو أن العاقل لا يسعه إلا أن يسلك كما سلكوا من الطاعة والإنقياد والتسليم لخالقهم، ثانيا: لا يبعد أن يكـون الله تعالـى قد خلق ما يشاء حيث يشاء فى جنبات الكون الفسـيح والـذى تبدت أبعاده المذهلة فى عصر الفضاء والمراصد الكونية والأقمار الصناعية التى أثبتت أن أمر الكون وأهوال العظمة فـى خلقـته أبعد كثيرا جدا عن أشد التصورات جموحا وخيالا قبل سنوات قلائل، وما كشف فيه من المجرات والنجوم والكواكب بأعداد وأرقـام وراء قدرة العقول على التصور، نقول لا يبعد فى ذهن كل مـؤمن خلق الله تعالى لحضارات بكاملها فى هذا الخضم الجبار من المجـرات والكـواكب والنجوم والسحب الكونية من كائنات عاقلة تمشـى علـى أربـع وعاقلة كالبشر تمشى على بطنها وعاقلة هى الإنسـان ومـا يمكن أن يخلق شبيها به يمشى على رجلين، وتأمل قـول تعالـى: (يخلق ما يشاء) أى ما يشاء من عقلاء فى نواحى المجـرات والكواكب والكون الفسيح، فهو سبحانه ذكر صريحا خلق سـبع أراضـين وقد قال العلماء فى تفسير الآية المذكورة أنها بها كائـنات وعقـلاء وأنبياء مثل الأرض التى نحن بها على قول ابن عـباس وغيره فليراجع فى موضعه فهو نفيس جدا، فالتحكم بالقول بـان استخدام خطاب العاقل هنا في الجميع تغليبا للبشر لا وجه له، لأنـه كان يمكن استخدام الصحيح على القياس لكل منها إذ لا حاجة بلاغـية ولا لغـوية ولا حتى فى النظم وجمال الفاصلة تدعو لقلب خطاب غير العقلاء إلى خطاب العقلاء، مع إعمال قاعدة التفسير وما

هو مقرر فى أصول تفسير القرآن باعتماد اللفظ القرآنى على ظاهره وعدم صرف اللفظ القرآنى عن الظاهر إلى المجاز إلا لقرينة تدعو إلـيه، خاصـة بعد أن جابت سفن الفضاء الفضاء وجالت وظهرت بـوادر ظهـور حـياة فـى الكواكب القريبة كالمريخ وغيره كقمر المشـترى يـوروبا الملىء بالثلوج المائية، وسواء كانت حياة راقية متحضـرة أو حـياة ساذجة بدائية، وسواء هى قائمة الآن أو كانت قائمة فى عصور سحيقة من تاريخ هذه الكواكب ثم قدر عليها الفناء كسنة كونية ماضية فى الأرض وفى غيرها من مخلوقات الله تعالى حتى جبابرة النجوم والأجرام الكونية، أو غير ذلك مما تقعد لاستراق السـمع بـه محطات الفضاء الدائمة للتصنت لأول مرة فى التاريخ الإنسـانى بما هو معلوم اليوم ومعروف، فلا شك أن الأمر بدا أكبر كثيرا وأعظم مما كان معروفا أو حتى متخيلا من قبل، ومنه تتبين المناسـبة بين ذكر هذه الآية البينة فى هذا الربع المعنى بالنور ومنه تتبين كذلك المناسبة الباهرة لذكر الخاتمة هنا بقوله تعالى (لقد أنزلنا آيات مبينات) وفوق كل ذى علم عليم والله تعالى أعلى وأعلم.

ثامـنا: (وَيَقُولُونَ امَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُوْلَـٰئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ)

معنـى هذه الآية شديد الصلة بمعنى الآية المذكورة فى حق السحاب

والبـرق الخاطـف للأبصار، وإنما تأخرت عنها لتأتى بينهما الآية الباهـرة فى أعاجيب القدرة الربانية على الخلق كشاهد ساطع مؤيد لـدفقات الـنور الربانـى الفائضة فى القرآن جملة وفى هذا الربع خاصة، تلك التى ظهر لك أنها مرتبطة بآية الكائنات المسبحة قريبا مـنها، وإنمـا تـم تخليل آيات عظمة خلق الكائنات ونور هدايتها وتسـبيحها بيـنهما لحصـار الشـكوك العميقة التى تعصف بأفئدة المنافقـين، فمـن دواعـى البـيان والبلاغة أن تأتى الأدلة الدامغة والبـراهين المسـكتة والحجـج القاطعـة متخللة بين مشاهد التردد والإرتباك والحيرة كجواب ناطق بالحال، فضلا عن الجواب الفصيح بالمقـال، لكشف أحوال هذه الطائفة الخبيثة من المنافقين التى حذر القـرآن من شرورها مرارا، بل عدها أشد خطرا على الإسلام من الكافـرين، فطبيعتها المراوغة المتلونة والمخادعة تجعل مواجهتها، سواء بالفكر والبيان أو بالحرب والسنان ، مهمة غاية فى المشقة، إذ يقولـون بألسنتهم آمنا، ولكن غرابة أطوارهم تبدو جلية دون خفاء عـند رفضـهم الإذعان والخضوع إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بيـنهم حـيث المحك الفاصل للإيمان والطاعة، ذلك أن الإقرار لله تعالى بالألوهية وللنبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة ما هو إلا إقرار بقـبول التحاكم والإنقياد للأمر، كما أنه من المقرر أنه من آمن بالله تعالـى جملـة أذعن لحكمه وحكم نبيه صلى الله عليه وسلم جملة ، ومنه كانت هذه الفاضحة لمرض قلوبهم وأضغان نفوسهم تلك التى حصـر القرآن دوافعها فى واحدة من ثلاث: مرض فى قلوبهم، أو

ريبة فى أصل الدين والرسالة، أو افتقاد الحس الإيمانى القاطع بعدل الله تعالـــى وعدل رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم لم يلبث أن أطلق الحكـــم العـــام فى هذه النفوس المتقلبة المراوغة.إنهم هم الظالمون، فأمـــورهم فـــى تقلب واضطراب وصواعق تأتيهم تباعا فى خضم ظلمات ركامية كثيفة خبيثة كمثال السحاب المذكور قريبا، ومثله فى سورة البقرة والله تعالى أعلم، فالمناسبة بين هذه الآية وآية السحاب لصـــيقة بل هى تطبيق عملى لها، والمناسبة بين سابقتها وسابقة آية الســـحاب أيضـــا وثيقة فى براهين خلق الكائنات وهدايتها بنور الله تعالـــى فهـــى مـــتممة لها، وإنما جاءت الآيات متداخلة متخللة بين البرهان الكونى وبين تقرير الواقع البشرى للمسارعة بالأدلة الكونية المشاهدة على النور الإلهى فى مواجهة العواصف الهوجاء والشكوك الشنعاء التى تعصف بضمائر المنافقين والكافرين والله تعالى أعلم.

عاشرا: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُـــواْ سَـــمِعْنَا وَأَطَعْـــنَا وَأُوْلَـــئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـــئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ)

خـــتم هذا الربع النورانى المهيب بالغاية المقصودة منه، حيث بدأ بنور الله تعالـــى فى الكون، ونور الله تعالى فى بيوته العتيدة ورجاله الأصفياء، وهاهو يخـــتم بالغاية المقصودة من التربية الإيمانية والتى وجدت نتائجها الحتمية فى رجـــال علـــى غاية السمع والطاعة له سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وسلم لا يتـــرددون ولا يـــتململون ولا يـــرتابون شأن الحيارى المنافقين الخائضين فى مســـتنقعات الهـــلاك من الظنون والأوهام. وفيه أن مسألة النور الإيمانى ليست

مجـرد طاعـة شـكلية ظاهرة وانقياد متبرم متسخط، بل هى الطاعة المخبتة الراسـخة تعززها نورانيات متوهجة بين طيات القلوب من الخشية النابعة من الـنور الربانـى المـتوقد فـى القلوب والتقوى التى تعصم النفوس من الهنات والسـقطات والمـرتع الوخيم ، فالخشية هى الإحساس الآسر بالخوف مقرونا بالهيبة والإجلال، والتقوى هى السير الوجل الحذر من مغبة الشرود والعصيان، فتـتم الطاعة بهما باطنا وظاهرا، كما أن قضية التحاكم لله ورسوله هى المحك الإيمانى الفاصل وهى البرهان العملى الساطع للنور فى القلوب، فمن استقر فى قلـبه الـنور الربانى قال: سمعنا وأطعنا فى انقياد تام وإذعان مطلق كلما دعى لحكم الله تعالى ورسوله، لا لحكم الهوى والشيطان والنفس الامارة بالسوء، فمن سـمع وأطـاع فأولئك هم المفلحون، أما الفوز النهائى والربح الأعظم فشرطه الطاعـة الظاهـرة والخشـية الباطنة مع تحرى مواطن الرضا مما لا بأس به وتجـنب مواطن السخط مما به بأس، وهى تقوى الله تعالى، وهنا الفئة السعيدة المخـتارة من الرجال الذين أضاءوا بنور الله تعالى فى عالم من الظلمات، هنا القلـوب المفعمـة بالنور المذكور تشريفا وتعظيما ومهابة فى أول ربع النور. نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن أنار قلوبهم بمعرفته وأنار دروبهم بمنهجه وأنار قـبورهم برضاه وأنار آخرتهم إلى جناته ولذة النظر لوجهه الكريم مع خاصته وأوليائه الفائزين آمين

النوع الخامس

التفسير الموضوعى للسورة من القرآن

زهور يانعة فى روضة القرآن

لكل سورة فى القرآن عبيرها الفواح وثوبها البهيج

دليل التفسير الموضوعي

بالنظر في سورة من سور القرآن

أولا: النبى صلى الله عليه وسلم

والتفسير الموضوعى للسورة من القرآن شيبتنى هود وأخواتها

هـذا الـنوع من التفسير الموضوعي دليله الشرعي ظاهر من كتاب الله تعالـى حـيث جـاءت بعض سور القرآن مقدمة بآيات دالة على موضوعها، ومشـيرة إلى أنها تحمل صيغة خاصة، أو أن بها خصائص بذاتها، وبالنظر في سياق السور نجد أنها منسجمة مع المقدمة التي ذكرها الله تعالى لها و مؤيدة إلى النتائج المتوقعة منها، أما الدليل على مشروعية التفسير الموضوعى للسورة من السنة فبيانه:

قال فى كشف الخفاء:

وفـي التـرمذي والحلية عن ابن عباس قال قال أبو بكر يا رسول الله قد شـبت قال شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت وصـحه الحاكم وقال الترمذي حسن غريب وأخرجه ابن أبي شيبة في مسنده عن الأحوص

ورواه الطبراني بسند رجاله رجال الصحيح عن عقبة بن عامر أن رجلا قال يا رسول الله قد شبت قال شيبتني هود وأخواتها) [1]

---

(١) كشف الخفاء ٢/٢٠

وقـــال الهيثمى فى مجمع الزوائد عن أبي بكر قال قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب قال (شيبتني الواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت) رواه الطبرني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح

وعن عقبة بن عامر أن رجلا قال يا رسول الله قد شبت قال (شيبتني هود وأخواتها) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح

وقـــال القرطبى فى تفسيره: (روى الترمذي عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضـــي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، قال: (شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت) قال هذا حديث حسن غريب.....

قال أبو عبد الله: فالفزع يورث الشيب وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطـــوبة الجسد، وتحت كل شعرة منبع ومنه يعرق، فإذا انتشف الفزع رطوبته يبســـت المنابع فيبس الشعر وابيض، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه فإذا ذهب ســـقاؤه يـــبس فابـــيض، وإنما يبيض شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويبس جلده. فالـــنفس تذهل بوعيد الله وأهوال ما جاء به الخبر عن الله فتذبل وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به فمنه تشيب، وقال الله تعالى (يوما يجعل الولدان شيبا) فإنما شابوا من الفزع.

وأما سورة هود فلما ذكر الأمم وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه، فلـــو ماتـــوا مـــن الفزع لحق لهم، ولكن الله تبارك وتعالى يلطف بهم في تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه.

وأما أخواتها فما أشبهها من السور مثل: الحاقة، وسأل سائل، وإذا الشمس

كـورت، و القارعـة. ففـي تلاوة هذه السور مايكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس وتشيب منه الرءوس.

قلـت: وقـد قيل إن الذي شيب النبي صلى الله عليه وسلم من سورة هود قوله فاستقم كما أمرت على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى

وقال يزيد بن أبان رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامي فقرأت عليه سورة هود فلما ختمتها قال: يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء) [1]

وقـال صاحب فيض القدير: (شيبتني هود أي سورة هود وأخواتها) أي: وأشباهها من السور التي فيها ذكر أهوال القيامة والعذاب والهموم والأحزان إذا تقاحمت على الإنسان أسرع إليه الشيب

قال المتنبي

والهم يخترم الجسيم مخافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

قال الزمخشري مر بي في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحنك الغـراب، وأصـبح أبيض الرأس واللحية كالثغامة فقال: أريت القيامة والناس يقتادون بسلاسل إلى النار فمن هول ذلك أصبحت كما ترون طب عن عقبة بن عامـر وأبي جحيفة بالتصغير وهب بن عبد الله شيبتني هود وأخواتها الواقعة والحاقـة وإذا الشـمس كـورت يعني: أن اهتمامي بما فيها من أحوال القيامة والحـوادث النازلة بالأمم الماضية أخذ مني مأخذه حتى شبت قبل أوان الشيب خـوفا على أمتي شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كـورت لما فيها من ذكر الأمم وما حل بهم من عاجل بأس الله فأهل اليقين إذا

(١) القرطبى ٣/٩

تلوها انكشف لهم من ملكه وسلطانه وبطشه وقهره ما تذهل منه النفوس وتشيب منه الرؤوس فلو ماتوا فزعا لحق لهم لكن الله لطف بهم لإقامة الدين

في الشمائل في التفسير عن ابن عباس في التفسير عن أبي بكر الصديق قال : قلت يا رسول الله أراك قد شبت فذكره قال في الاقتراح إسناده على شرط البخاري.....

وعن ابن مردويه في تفسيره عن أبي بكر الصديق شيبتني هود وأخواتها من المفصل أي وما أشبهها منه مما اشتمل على الوعيد الهائل والهول الطائل الذي يفطر الأكباد ويذيب الأجساد قال تعالى (يوما يجعل الولدان شيبا) المزمل وإنما شابوا من الفزع

عن أنس بن مالك ابن مردويه في تفسيره عن عمران بن الحصين شيبتني سورة هود وأخواتها الواقعة والقارعة والحاقة وإذا الشمس كورت وسأل سائل.

قال العلماء: لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع والوعيد الشديد لاشتمالهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة وعجائبها وفظائعها وأحوال الهالكين والمعذبين، مع ما في بعضهن من الأمر بالاستقامة كما مر، وهو من أصعب المقامات، وهو كمقام الشكر إذ هو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه من حواسه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه بما يليق بكل جارحة من جوارحه على الوجه الأكمل، ولهذا لما قيل للمصطفى وقد أجهد نفسه بكثرة البكاء والخوف والضراعة أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال (أفلا أكون عبدا شكورا).....

وعن ابن مردويه في تفسيره عن أنس بن مالك شيبتني هود وأخواتها.....، ذكر يوم القيامة وقصص الأمم أي ما فيها من ذكر أهوال القيامة وقصص الأمم السابقة وإهلاكهم بالمسخ والقذف والقلب وغير ذلك.

فائدة: الدليل من السنة

على مشروعية التفسير الموضوعى للسورة من القرآن

أولا: فهـذا حـديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نص فى تفسير السورة موضوعيا حيث لأن اختيار النبى صلى الله عليه وسلم لعدد المعـدود من السور المذكورة إنما كان لبيان أن موضوع السورة قد ارتكـز على ما من شأنه أن يؤدى للمشيب لمن أبصر ووعى، وقد أطبق العلماء إجماعا على ما ذكرناه كمما تقدم مما أوردناه فهو دليل بالنص فى مسألة التفسير الموضوعى للسورة من القرآن، وتأمل قول القرطبـى: (وأما سورة هود فلما ذكر الأمم وما حل بهم من عاجل بـأس الله تعالـى فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسـلطانه ولحظاتـه البطش بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لحق لهم، ولكـن الله تـبارك وتعالى يلطف بهم في تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه.

وأما أخواتها فما أشبهها من السور مثل: الحاقة، وسأل سائل، وإذا الشـمس كورت، و القارعة. ففي تلاوة هذه السور مايكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس وتشيب منه الرءوس)

قلت: وهو نظر موضوعى للسورة الى فى هود، وللسور الأخرى التـى ذكرهتها حيث تعرف على ما يسمى اليوم (بشخصية السورة) أى سماتها الرئيسية والروح السارية فيها، ومما تقدم يتبين أن الروح

هى روح الوعيد وسواء بالصورة المباشرة للوعيد أو حكاية عما حل بالأمم لما لم يأبهوا به أو أعرضوا عنه، وهذا جميعه إنما كان بسبب توجيه النبى صلى الله عليه وسلم الأنظار إلى موضوعات هذه السور وأنها بها ما تشيب له النواصى من الأهوال فى الدنيا والآخرة، وهو نص فى مشروعية النظر الموضوعى للسورة من القرآن

ثانيا: قوله فى مجمع الزوائد: (ابن مردويه في تفسيره عن أبي بكر الصديق شيبتني هود وأخواتها من المفصل أي وما أشبهها منه مما اشتمل على الوعيد الهائل والهول الطائل الذي يفطر الأكباد ويذيب الأجساد قال تعالى (يوما يجعل الولدان شيبا) المزمل وإنما شابوا من الفزع)

دليل على أخذ التفسير الموضوعى كذلك من عدد من السور بها من الوعيد ما يجعلها وحدة واحدة إذا ما قرأها المرء شاب قبل المشيب، والشاهد هاهنا أن النظرة الموضوعية للسورة الواحدة من القرآن تؤدى بالمفسر للفهم العام لما فيها، وكذلك النظرة الموضوعية لعدد من السور لها نفس المعنى وبها نفس المقصود هو مشروع كذلك بل هو واجب لمن فتح الله تعالى بصيرته على ىلمعاحق ومنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله من عزو السر فى مشيبه قبل الأوان مما وجده فى السور المذكورة من الأهاويل

ثالثا: قوله: (قال العلماء: لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع والوعيد الشديد لاشتمالهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة وعجائبها

وفظائعهـــا وأحوال الهالكين والمعذبين، مع ما في بعضهن من الأمر بالاستقامة كما مر، وهو من أصعب المقامات)

هـــو إجمـــاع من أهل العلم بالنظر الموضوعى فى السور المذكورة ومعـــرفة ما بهن على قصرهن من الأهوال والموضوعات المفظعة المخوفة التى تشيب من هولها الرؤوس، هو دليل من الإجماع على النظـــر الموضـــوعى فى السورة أو بعض سور القرآن إذا ما تشابه الموضوع وانسجمت المعانى

رابعـــا فى الرواية التى لفظها وأخواتها من المفصل دليل من السنة على النظر الموضوعى فى عدد من أجزاء القرآن، حيث أن المفصل هو الـــربع الأخير من القرآن والذى يبدأ من أ ول سورة ق وإلى نهاية المصحف على الراجح من أقوال العلماء، فذكر النبى صلى الله عليه وســـلم للمفصـــل ددون غيـــره من سائر القرآن منبه لهذه الخاصية والســـمة التـــى يتميز بها المفصل وهى شدة الترهيب والوعيد، فإن صـــحت هذه الرواية فهى ممستند لمن نظر موضوعيا فى عدد من ســـور القرآن كصنف برأسه على ما سنبينه فى موضعه والله تعالى المستعان.

ثانيا: الأدلة من أقوال الصحابة

نظر الصحابة فى موضوع سورتى الأنفال وبراءة

قال الزركشى فى البرهان: فائدة سبب سقوط البسملة أول براءة

اختلف في السبب في سقوط البسملة أول براءة

فقيل كان من شأن العرب في الجاهلية إذا كان بينهم وبين قوم عهد وأرادوا نقضه كتبوا لهم كتابا ولم يكتبوا فيه البسملة فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان للكفار قرأها عليهم على ولم يبسمل على ما جرت به عادتهم، ولكن في صحيح الحاكم أن عثمان رضي الله عنه قال: (كانت الأنفال من أوائل ما نزل وبراءة من آخره وكانت قصتها شبيهة بقصتها وقضى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها وظننا أنها منها ثم فرقت بينهما ولم أ كتب بينهما البسملة)

.... وقيل لأنه لما كتبوا المصاحف فى زمن عثمان اختلفوا هل هما سورتان أو الأنفال سورة وبراءة سورة تركت البسملة بينهما

وفى مستدرك الحاكم أيضا عن ابن عباس سألت عليا عن ذلك فقال: (لأن البسملة أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان)

قال القشيرى والصحيح أن البسملة لم تكن فيها لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها فيها) [1] انتهى

---

(١) البرهان ٢٦٣/١

قلت: فمما تقدم يتبين فى جلاء النظرة الموضوعية من الصحابة رضوان الله علـيهم فى السورة من القرآن وتنبه إلى قول عثمان رضى الله عنه (كانت الأنفال من أوائل ما نزل وبراءة من آخره وكانت قصتها شـبيهة بقصتها وقضى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها وظننا أنها منها ثم فرقت بينهما ولم أ كتب بينهما البسملة) فإنه جـازم بالنظر الموضوعى وإلا فكيف يمكن التعرف على أن القصة الى فى الأنفال هى عين القصة التى فى براءة أو هى أشبه ما تكون بهـا، ومعنى قوله: (قصتها) هو الترجمة الحرفية للفظ (موضوعها) فكأن عثمان رضى الله عنه قال: وجدنا موضوع سورة الأنفال شبيه جدا بموضوع سورة براءة فظننا أنها منها، ومن هنا صح فى أذهان الصـحابة أن يكـون ترتيب سورة براءة عقب سورة الأنفال لتشابه الموضـوع والشاهد مما أوردنا هاهنا هو تأمل الصحابة فى السورة موضـوعيا والخـروج مـن ذلك بنتيجة بعد مقارنة الموضوع فى السورة بموضوعات السور الأخرى ن والتنتيجة التى توصل عثمان رضى الله عنه هى وضع هذه بجوار تلك وعدم كتابة البسملة بينهما، وأمـا المفسـر الموضـوعى المعاصر فلسوف يتبع نفس منهج هذا الصحابى الجلسيل فى النظر فى موضوع السورة والخروج من ذلك بنتائج وإرشادات وفوائد بليغة فتعم بها النفع.وتتم بها النعمة.

ثانـيا: أما ما روى عن على بن أبى طالب من تفسير عدم وجود البسملة فـى أول سـورة بـراءة أسوة بغيرها من السور جميعا فقال (لأن البسـملة أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان) وهو نظر فى

الموضـــوع الـــذى جـــاءت به السورة كما ترى والخلوص من ذلك بنتـــيجة أيضـــا ألا وهى أنه لا يستقيم ذكر البسملة فى أولها مع هذا القدر من التوعد والتهديد والدعوة إلى السيف وقتال الكافرين أى لا مناســـبة بين ورود البسملة والموضوع الذى تنزلت به السورة، وهو مســـتند نصى فى نظرة الصحابة رضوان الله عليهم موضوعيا فى السورة والواحدة من كتاب الله تعالى

ثالـــثا: كذلك على قول من قال أنها نزلت بحسب عوائد العرب عند إرادة كتابة نقض للعهد فإنهم يكتبون النقض دون بسملة فلهذا جاءت سورة بـــراءة من غير بسملة لأنها أتت بنقض عهود الأمان للكافرين، فهو مفيد أيضا فى التنبيه إلى الموضوع الذى جاءت به سورة براءة وأنه نقـــض للأمن ودعوة للجهاد وإعمال السيف وهو النظر الموضوعى فـــى الســـورة، وهـــو المســـتند الشرعى لهذا الصنف من التفسير الموضوعى والله تعالى المستعان.

رابعا: الصحيح أن عدم نزول البسملة إنما كان توقيفيا أى أنها لم تكتب فى أول سورة براءة بسبب أن جبريل عليه السلام لم ينزل بها إلا على هـــذه الحالـــة، وربما شرح الله تعالى صدور الصحابة الكرام للنظر الموضوعى الذى ورد عن عثمان وعن على وغيرهما من الصحابة رضـــوا الله عليهم أجمعين لكى ينفذ قضاءه وحكمه السابق من أنها يجـــب أن تكـــتب بغير البسملة لما كانوا هم المنوطون بحفظ الكتاب وجمـــع المصـــحف، فـــلا تعـــارض بين كونها توقيفية وبين نظرة الصـــحابة لموضـــوعها والإنتهاء على إقرار التوقيف الربانى، وهو ظاهر، والله تعالى أعلم.

ثالثا: الأدلة من أقوال أهل العلم

الدليل الأول: سورة هود

مـــا أورده الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب... الآية" آل عمران.

ونصه:

"وقال آخرون: معنى (المحكم): ما أحكم الله فيه من آي القرآن، وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم، ففصله ببيان ذلك لمحمد وأمته، "والمتشابه" هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور، بقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وبقصه باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني.

ذكر من قال ذلك:

حدثنـــي يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد وقرأ: (ألر كتاب أحكمـــت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هود:١ قال: وذكر حديث رسول الله صـــلى الله علـــيه وسلم في أربع وعشرين آية منها، وحديث نوح في أربع وعشرين آية منها، ثم قال: (تلك من أنباء الغيب) هود٤٩.

ثـــم ذكر (وإلى عاد)، فقرأ حتى بلغ (واستغفروا ربكم) ثم مضى. ثم ذكر صالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً وفرغ من ذلك. وهذا تبيين ذلك، تبيين (أحكمت آياته ثم فصلت).

ومتشـــابه: (اسلك فيها) المؤمنون٢٧، (أحمل فيها) هود٤٠. (اسلك يدك) القصـــص٣٢ (وأدخـــل يـــدك) الـــنمل١٢. (حية تسعى) طه٢٠، (ثعبان مبين) الأعراف١٠٧ – الشعراء ٣٢.

قـــال: ثـــم ذكر هوداً في عشر آيات منها، وصالحاً في ثماني آيات منها، وإبـــراهيم في ثماني آيات أخرى، ولوطاً في ثماني آيات منها، وشعيباً في ثلاث عشرة آية، وموسى في أربع آيات، كل هذا يقضي بين الأنبياء وبين قومهم في هـــذه الســـورة، فانتهى ذلك إلى مائة آية من سورة هود ثم قال: (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) هود١٠٠" انتهى كلام الطبري.

قلت: فهذه النظرة الموضوعية لسورة من القرآن الكريم وهي سورة هود، هو تطبيق تام للتفسير الموضوعي بشأن السورة الواحدة، بل إنه مثال يحتذى من أهـــل التفســـير الموضـــوعي المعاصـــر يتعلمون منه كيفية النظر الموضوعي الشـــامل، ذلـــك أن ما أوردناه هاهنا إنما يمثل نوعين من أظهر أنواع التفسير الموضوعي المعاصر وهما:

١. التفسير الموضوعي للسورة الواحدة من القرآن.

٢. التفسير الموضوعي المبني على الألفاظ القرآنية.

ثم قسمه الطبري إلى قسمين:

أ) الموضوع المبني على الألفاظ المتشابهة ذوات المعاني المختلفة في كتاب الله.

ب) الموضـــوع المبني على الألفاظ المختلفة ذوات المعاني المتشابهة في كتاب الله. وهو بديع جداً ومفيد للغاية للباحثين الموضوعيين في زماننا.

ويظهـــر مـــن هـــذا عمق الأصل الشرعي للتفسير الموضوعي بضروبه المخـــتلفة في إيجاز راسخ، ووفاء بالمطلوب لا تبلغه همم المعاصرين سواء من جهة المبنى أو المعنى.

أمـــا المقصود من إيراد هذا الدليل فهو إبراز التوجيه القرآني ذاته للنظر الموضوعي في السورة، وقد بينه الطبري على ما يلي:

أولاً: ذكـــر موضـــوع الســـورة والذي تدور حوله ألا وهو: إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها، وهو قوله تعالى في أولها: "..... كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" فقد ذكر الله ذلك في أول السورة توضيحا لموضوعها.

ثانياً: تقسيم السورة إلى مقاطع مؤدية إلى بيان هذا المقصود الأعظم منها.

ثالثاً: إنهاء المقطع الأول منها بوصف السمة الغالبة فيه، وتصريح القرآن بـــذلك فـــي قـــوله تعالى: "تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا"

رابعـــاً: استئناف شرح الهدف الأكبر وهو الإحكام ثم التفصيل حتى ينتهي المقطـــع الثانـــي منها بآية فاصلة: "ذلك من أنباء القرى نقصه عيك منها قائم وحصيد".

خامساً: زاد الطبري بذكر عدد الآيات التي تناولت قصة كل نبي في نظرة ثاقبة جديدة للموضوع عن طريق عدد الآيات التي تناولته وهو منهج هـــام يجب أن يضاف إلى مناهج البحث الموضوعي الحديث، إذ قل من اهتم به فتنبه.

سادساً: ذكر أن الموضوع تم استيفاؤه عند تمام الآية المائة، فكأن السورة قد قسمت إلى مقطعين كل واحد منهما خمسين آية بالتمام.

فثبت بذلك التفسير الموضوعي للسورة بتفاصيل منهج موضوعي عددي، واثبات المحور الذي تدور حوله السورة مصرحاً به في أولها.

إضافة مفيدة:

قلت : ونحن نتمم هذا البحث النفيس للطبري والذي نقله عن السلف بما يلي:

أولاً: بعد الآية المائة توجه النص القرآني إلى تقرير الفوائد الشرعية والعظات البليغة المستخلصة من هذا الرد التاريخي لقصص الأنبياء وفصل القضاء بينهم وبين أقوامهم.

ثانياً: ذكر الآخرة وهو من أهم المقاصد القرآنية على الجملة للإخبار بأن هذا القصص التاريخي ليس متعلقاً بالحياة الدنيا شأن الأقاصيص البشرية بل هو ممتد بأصوله إلى الدار الآخرة فما لم يستوف في الدنيا يستوفى على تمامه في الآخرة.

ثالثاً: الإرشاد إلى ما يجب عمله لتجنب تلك العواقب الوخيمة التي نزلت بالكافرين الأولين. وهي الفائدة وخلاصة العبرة من هذا الرد الموضوعي.

رابعاً: إنهاء السورة بالتصريح بالموضوع مفصلاً مرة أخرى للتنبيه له عند قراءتها وهي قوله تعالى: "وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين" والمقصود بلفظ "هذه" هذه السورة فموضوعها في غاية البيان وينقسم إلى ثلاثة أركان:

١. قول الحق المحض في مسائل النزاع حين ينكر أهل الكفر أو ينحرفوا.

٢. الموعظة وهي التي ختمت بها السورة.

٣. وذكـــرى للمؤمنـــين أي توجـــيه إلى الصراط القويم بناء على وصف الدروب المعوجة الخاسرة.

فاختصر الكتاب فى هذه السورة وفصل في آن واحد على هذه المرتكزات الأربعة:

١. "الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير"

٢. "تلـــك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا"

٣. "ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد"

٤. "وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين"

وبـــدون كثيـــر تعليق فلو لم يكن إلا هذه المعطيات في هذه السورة دليلاً فاصلاً على مشروعية التفسير الموضوعي للقرآن لكانت كافية، ولما كانت هناك حاجـــة لزيادة الأدلة، غير أن تظاهر الأدلة وتعاضد البراهين زيادة في رسوخ اليقين واستقرار الأمر وتمام البيان والله تعالى المستعان.

* * * * *

الدليل الثاني

سورة يوسف

إن سورة يوسف فضلاً عن أنها من أروع آيات البيان والبلاغة، فإنها تنادي بحجية التفسير الموضوعي المتعلق بسورة واحدة من القرآن، إذ لا يمكن للمفسر إلا أن يربطها كما هي في كتاب الله موضوعاً واحداً من أولها إلى آخرها.

وكمنهج القرآن العظيم الذي لا يتخلف، فإن الربط الوثيق بين متعلقات الدنيا وأحوالها وبين ما هو محتم من ارتباط العظة بما هو آت حتماً "الدار الآخرة"، هي قاعدة لم تتخلف بل تجلت في سورة يوسف على أنصح صورة مع تلاحق الأحداث وإثارتها وتتابعها على ما هو ظاهر لا يحتاج إلى بيان

كذلك أدرك المفسرون من قديم أن لها وحدة موضوعية بينة دعت إلى كثير من المسائل فمنها ما أورده السيوطى فى الإتقان عنها فقال:

(وقد سئل ما الحكمة في عدم تكرير قصة يوسف وسوقها مساقا واحدا في موضع واحد دون غيرها من القصص وأجيب بوجوه:

أحدها: أن فيها تشبيب النسوة به وحال إمرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالا فناسب عدم تكرارها لما فيه من الإغضاء والستر وقد صحح الحاكم في مستدركه حديث النهي عن تعليم النساء سورة يوسف.

ثانيها: أنها إختصت بحصول الفرج بعد الشدة بخلاف غيرها من القصص

فإن مآلها إلى الوبال كقصة إبليس وقوم نوح وهود وصالح وغيرهم فلما اختصت بذلك اتفقت الدواعي على عدم نقلها لخروجها عن سمت القصص

ثالثها: قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني إنما كرر الله قصص الأنبياء وساق قصة يوسف مساقا واحدا إشارة إلى عجز العرب كأن النبي قال لهم إن كان من تلقاء نفسي فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في سائر القصص

قلت: وظهر لي جواب رابع وهو أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه فنزلت مبسوطة تامة ليحصل لهم مقصود القصص من إستيعاب القصة وترويح النفس بها والإحاطة بطرفيها

وجواب خامس: وهو أقوى ما يجاب به أن قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله فكلما كذبوا أنزلت قصة منذرة بحلول العذاب كما حل على المكذبين ولهذا قال تعالى في آيات فقد مضت سنة الأولين ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك[1]

وبين القرطبي أن السبب فى نزولها دفعة واحدة أن موضوعها واحد ولغرض الإجابة عن سؤال للنبى صلى الله عليه وسلم فقال:

(.. سألوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمي ولم يكن بمكة

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى)٢/١٨٥

أحـد مـن أهـل الكتاب ولامن يعرف خبر الأنبياء وإنما وجه اليهود إليهم من المديـنة يسألونه عن هذا فأنزل الله عز وجل سورة يوسف جملة واحدة فيها كل مافي التوراة من خبر وزيادة فكان ذلك آية للنبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت) [١]

وقال الطبرى[٢]: (عن ابن عباس قال قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا قال فنزلت نحن نقص عليك أحسن القصص .... عن عون بن عبد الله قال مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة فقالوا يا رسول الله حدثنا فأنزل الله عـز وجل أله نزل أحسن الحديث ثم ملوا ملة أخرى فقالوا يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص فأنزل الله الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إلـيك هـذا القـرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص)

وقال الثعالبى: (هذه السورة مكية والسبب في نزولها أن اليهود أمروا كفار مكـة أن يسـألوا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم عن السبب الذي أحل بني إسـرائيل بمصـر فنزلت السورة وقيل سبب نزولها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما يفعله به قومه بما فعل أخوة يوسف بيوسف وسورة يوسف لم يتكرر مـن معانـيها في القرآن شيء كما تكررت قصص الأنبياء ففيها حجة على من اعترض بأن الفصاحة تمكنت بترداد القول وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه لو كرر لفترت فصاحتها) [٣]

---

(١) القرطبى ١٣٠/٩

(٢) الطبرى ١٤٨/١٢

(٣) الثعالبى ٢٢٤/٢

وفـــي تفســـير البغوى: (سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والـــنكت والفـــوائد التي تصلح للدنيا والدنيا من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك من الفوائد قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم عليهم السلام ينفكه بهما أهل الجنة في الجنة وقال بن عطاء لا يسمع سورة يوسف عليه السلام محزون الا استراح إليها) [1]

وأجمل ابن الجوزى مشاهد السورة وموضوعاتها فقال:

(قـــال العلماء وإنما سميت قصة يوسف أحسن القصص لأنها جمعت ذكر الأنبـــياء والصـــالحين والملائكـــة والشياطين والأنعام وسير الملوك والمماليك والـــتجار والعلماء والرجال والنساء وحيلهن وذكر التوحيد والفقه والسر وتعبير الـــرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش والصبر على الأذى والحلم والعز والحكم إلى غير ذلك من العجائب) [2]

أمـــا مـــن جهـــة التقسيم المعتمد للتفسير الموضوعي للسورة الواحدة من القـــرآن، فإن المتأمل لهذا النهر الدافق من البيان يلاحظ أنها عبارة عن موجات تسلم إحداها للأخرى على هيئة مقاطع تتماسك في روعة لبلوغ الهدف المنشود.

أما الأهداف العامة التي دلت عليها السورة موضوعياً فهي بينة وتختصر فيما يلي:

١. إثـــبات إعجـــاز القـــرآن الكريم وإنه من لدن حكيم خبير في مضمار مقارعة للكافرين وخاصة أولئك العرب الذي كانت البلاغة والفصاحة

---

(١) البغوى ٢/٤٠٨

(٢) زاد المسير ٤/١٧٦

ميدانهم الذي يتبارون فيه وبه يفتخرون وذلك في مفتتح السورة حيث قال تعالى: "تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون".

٢. تحدى أدباء العالم بأجمعه ومن كافة الجنسيات واللغات وإلى قيام الساعة في واحدة من أعظم الركائز التي ضل بها أقوام وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، ألا وهي القصة والرواية الأدبية والتي تحولت بعد إلى مصورات وأفلام وغيرها مما ذاع فساده وشاع وهو ظاهر. وذلك في قوله تعالى: "نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين"، فالقرآن العظيم هنا يقذف بواحدة من أمضى قذائف الحق في ميدان القصة على شروط الربانية.

٣. إظهار عناية الله تعالى ورعايته لأوليائه الصالحين في أحلك الظروف وأشد المواقف وذلك في قوله: "فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن" وقوله "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين"

٤. إثبات وقوع العثرات من الصالحين وبيان بليغ للوسائل المؤدية لعلاجها والتغلب عليها وذلك عن طريق صفح يوسف عليه السالم عن إخوته ولين تذكرته لهم حين قال (هل علمتم ما فعلتم بيوسف إذ أنتم جاهلون)، وكذلك قبول التوبة منهم واستغفار أبيهم لهم، إنه كله من أنجع الوسائل لإقالة عثرات الصالحين فاعرفه

الدليل الثالث: سورة النور بدأت بقوله تعالى

" سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون "

فهذه البداية للسورة مفيدة إلى أنها سورة عمدتها ومحتوياتها الفرائض التى فرضها الله تعالى، وفي قراءة أخرى للآية قوله تعالى: " وفَرَّضْنَاها " بتشديد الراء أي ملئت بالفرائض، فهذا تنبيه بليغ إلى موضوع السورة ومحتواها، وأنها سورة خاصة بالأحكام المختلفة المفروضة على الناس. قال القرطبى: ١٢/١٥٨: (سورة النور مدنية بالإجماع بسم الله الرحمن الرحيم ١ ٢٤ مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر وكتب عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة علموا نساءكم سورة النور، وقالت عائشة رضي الله عنها لاتنزلوا النساء الغرف ولاتعلموهن الكتابة وعلموهن سورة النور والغزل . وفرضناها: قرىء بتخفيف الراء، أي فرضناها عليكم وعلى من بعدكم ما فيها من الأحكام وبالتشديد، أي أنزلنا فيها فرائض مختلفة، وقرأ أبو عمرو : وفرضناها بالتشديد أي قطعناها في الإنزال نجما نجما، والفرض القطع ومنه فرضة القوس وفرائض الميراث وفرض النفقة. وعنه أيضا فرضناها: فصلناها وبيناها وقيل هو على التكثير لكثرة ما فيها من الفرائض)

وفى روح المعانى للألوسى ١٨ /٧٤: (سورة النور مدنية كما أخرج ابن مردوية عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم وحكى أبو حيان الإجماع على مدنيتها ولم يستثن الكثير من آيها شيئا، وعن القرطبي أن آية: (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الخ) مكية وهي اثنتان وستون آية، وقيل أربع وستون آية.

ووجه اتصالها بسورة المؤمنين أنه سبحانه لما قال فيها: (والذين هم

لفــروجهم حافظون) ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني، ومــا اتصــل بذلك من شأن القذف وقصة الأفك والأمر بغض البصر الذي هو داعية الزنا، والإستئذان الذي إنما جعل من أجل النظر، وأمر فيها بالإنكاح حفظا للفــرج وأمر من لم يقدر على النكاح بالإستعفاف، ونهى عن إكراه الفتيات على الــزنا، وقال الطبرسي في ذلك إنه تعالى لما ذكر فيما تقدم أنه لم يخلق الخلق للعــبث بل للأمر والنهي ذكر جل وعلا ههنا جملة من الأوامر والنواهي، ولعل الأول أولــى، وجــاء عــن مجاهد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (علمــوا رجــالكم ســورة المائدة وعلموا نسائكم سورة النور) وعن حارثة بن مضرب رضي الله تعالى عنه قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن تعلموا سورة المائدة النساء والأحزاب والنور

سورة خبر مبتدأ محذوف أي هذه سورة وأشير إليها بهذه تنزيلا لها منزلة الحاضر المشاهد وقوله تعالى أنزلناها مع ما عطف عليه صفات لها مؤكدة لما أفــاده التنكيــر من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات على ما ذكــره شــيخ الإسلام، وذكر بعضهم أنه قصد من هذه الجملة الإمتنان والمدح والتــرغيب لا فائدة الخبر ولا لازمها وهو كون المخبر عالما بالحكم للعلم بكل ذلــك، وقوله تعالى: (وفرضناها) وقرأ عبد الله وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وقــتادة وأبــو عمــرو وابــن كثير (وفرضناها) بتشديد الراء لتأكيد الإيجاب، والإشــارة إلــى زيادة لزومه، أو لتعدد الفرائض وكثرتها، أو لكثرة المفروض علــيهم من السلف والخلف. وفي الحوافي الشهابية قد فسر فرضناها بفصلناها، وأنــزلنا فــيها أي في هذه السورة آيات بينات يحتمل أن يراد بها الآيات التي نبطت بها الأحكام المفروضة، ومعنى كونها بينات وضوح دلالتها على أحكامها

لأنها أسوة لأكثر الآيات في ذلك، ومعنى كونها بينات أنها لا إشكال فيها يحوج إلـــى تأويل كبعض الآيات وتكرير أنزلنا مع ظهور أن إنزال جميع الآيات عين إنـــزال الســـورة لاستقلالها بعنوان رائق داع إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانة لخطرها ورفعا لمحلها.

وقال الإمام إنه تعالى ذكر في أول السورة أنواعا من الأحكام والحدود، وفي آخرها دلائل التوحيد فقوله تعالى: فرضناها، إشارة إلى الأحكام المبنية أولا وقـــوله ســـبحانه وأنـــزلنا فيها آيات بينات إشارة إلى ما بين من دلائل التوحيد ويـــؤيده قـــوله عـــز وجل لعلكم تذكرون ، فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى يتذكرونها انتهى) انتهى

وبالدخول في السورة نجد أنها فعلاً بها وحدة كاملة موضوعية حول أحكام النساء وغيرها من الحدود الشرعية والفرائض بما ينسجم مع هذه المقدمة البينة، ثم بدأت الآيات مباشرة في الموضوع المقصود ودون فاصل حيث قال تعالى:

" الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة.. الآية "

فهذه هي البداية الشرعية لأول حلقات الموضوع الحافل بالشرائع والأحكام فيها.

ثم ختمت بتقرير نهائي فاصل حول هذه الأحكام ألا وهو:

أولاً: قـــوله تعالـــى: " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم "

ثانياً: قوله تعالى " ألا إن لله مافي السموات ومافي الأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شئ عليم "

وهـــي خاتمـــة في غاية المناسبة لموضوع السورة، وهو التحذير بعد سن الفرائض وتشريع الأحكام المتتالية من مغبة المخالفة للرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو المنفذ لهذه الأحكام في المسلمين، واظهار أن عاقبة ذلك الفتنة التي لا تتكشف. أو العذاب الأليم الذي لا ينقطع.

ثم الختام النهائي بأن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض جميعاً لن يستعصي عليه – سبحانه – فهم ما يصلح المجتمع الاسلامي والمسلمون في عاجلتهم وأخراهم، وأن ما يشرعه لهم مبني على علمه التام بما هم عليه وماهم فـــيه، فهو في صالحهم لا محالة، كذلك علم بما هم عليه من الالتزام بما فرض علـــيهم أو تفـــريطهم في ذلك، فإنهم راجعون إليه ليحاسبهم الحساب الذي يليق بعلمه عز وجل وعملهم.

فأنت ترى أن السورة بآياتها الأولى قررت الموضوع، ثم في جملة آياتها عـــددت جوانبه ثم ختمت بالنتيجة النهائية والعظة الفاصلة بما يناسبه، فهو سرد موضوعي لسورة من القرآن نفسه..فاعلمه.

وقوف أهل العلم على خصائص الموضوع للسورة

أقوال العلماء سلفا وخلفا حول وحدة الموضوع فى السورة من القرآن

روعة التناسق الموضوعى

لسور القرآن الكريم

إن الروعة الآخذة بالنفوس قد أثارت ذهول العامة والخاصة منذ نزول هذا الكتاب الذى تحدى أساطين البلاغة وأرباب البيان من العرب ما دعاهم إلى القتال والحرب عجزا عن المنازلة بالبيان، وقد لاحظ العلماء قديما وحديثا هذه الروعة الآخذة بمجامع القلوب التى تمثلها السورة من القرآن الكريم وأعربوا عن غاية الإنبهار والتأثر البليغ فى مصنفاتهم على طول التاريخ الإسلامى، نعم لم يكن أحد يحيط بهذه الميزة لامعجزة من كتاب الله تعالى عدا القلة النادرة منهم، وانها سارية فى جنبات كل سورة جامعة أطرافها كالنسيج البديع الموشى فى جلال وجمال لا تختل منه شاردة ولا تضطرب فيه زينة ولا لون، إنه انتظام المعنى فى جميع سور القرآن الكريم ، ثم فى كل سورة على حدتها، ولكل سورة عبقها وأريجها الآسر وشخصيتها البارزة المميزة، بل نقول انه هو السر فى إعجاز هذا الكتاب العظيم فإنك كلما تصفحت سورة من سور الكتاب قصرت أو طالت وجدت لها مسحة تميزها عن سواها، وأن هذه الصفة الغالبة البارزة والتى تسرى منها مسرى الدماء فى العروق اوالماء فى العود الأخضر إنما تبرز بغاية العظمة والجلال والجمال المقصود من الموضوع الذى تتناوله هذه السورة ولقد برع الشيخ سيد قطب وأبدع أيما إبداع فى بيان هذا

المعنـــى في اوائل كل سورة فى كتابه الفذ (فى ظلال القرآن) حيث عبر عنه مرارا فقال.فى مقدمة سورة الأنعام: (وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومـــنهجه، فـــي موضوعها الأساسي، وفي منهج التناول، وفي طريقة العرض سواء.. ذلك مع احتفاظها "بشخصيتها" الخاصة؛ وفق الظاهرة الملحوظة في كل ســـور القرآن؛ والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة.. فلكل سورة شخصـــيتها، وملامحهـــا، ومحـــورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي؛ والمؤثـــرات الموحية المصاحبة للعرض؛ والصور والظلال والجو الذي يظللها؛ والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها؛ وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها... حتى وهي تتناول موضوعا واحدا أو موضوعات متقاربة.) !

وانظـــر مثلا إلى سورة الرحمن فى اللمسات الحانية والإستعراض الجليل للـــنعم الربانية فى جو كونى آسر وفى شفافية، ثم انظر بعدها إلى سورة القمر بفواصلها الصارمة الجازمة القاطعة التى تترك النفس بعدها فى ذهول مخوف ورهـــبة واجمـــة وإشـــفاق راجف من تتابع الوعيد والإنتقام كقوارع متلاحقة مزلـــزلة محركة لاشد القلوب قسوة وتحجرا وجمودا، انظر إلى سور مريم وما فيها من الجو الرقيق الحانى بالفاصلة المفتوحة الممدودة التى تعبر عن مشاعر النفس الأواهة العابدة المخبتة الفياضة الرقيقة الهامسة وكأنك تصغى فى طهر شـــفاف إلى ترانيم الأنبياء فى المحاريب و إلى عبق العبادة و المناجاة ووجيب القلـــوب بين تباريح الشوق وآمال اللقاء ، وإلى خرير الماء الطهور النازل فى صفاء وفى طهارة ونقاء يمسح وجوه الأنبياء ويضىء بالطهارة جوانبهم. وهكذا أنـــت فى بحر متماوج من الجمال البديع الذى تسرى بك فيه الأمواج المتلاحمة من موجة إلى أخرى نحو الافق البعيد فى رحلة تسمو بها الروح وتلذ بها العين

وتطرب فيها النفس الشائقة الملتاعة، يقول الشيخ عبد الله دراز فى كتابه النفيس (النبأ العظيم)[1] ١٩٥-٢٠٣

(إنـــك لتقـــرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشـــيت حشـــواً، وأوزاعـــاً من المباني جُمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنية متماســـكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شُعبٌ وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال

---

(١) الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز – ولد في قرية محلة دياي، بمحافظة كفر الشيخ سنة ١٣١٢ هـــ-١٨٩٤م.نشـــأ في بيت علمٍ وصلاحٍ، فوالده الشيخ عبد الله دراز –شيخ علماء دمياط– هو صـــاحب الشـــرح علـــى المـــوافقات للشاطبي. حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة..انتقل إلى الإســـكندرية في أوائل سنة ١٩٠٥م، وحاز الشهادة الثانوية فيها سنة ١٩١٢م.حصل على شهادة العالمـــية النظامية سنة ١٩١٦م.اختير للتدريس بالكليات الأزهرية سنة ١٩٣٠م،.اختير مبعوثاً من الجامعة الأزهرية إلى فرنسا للالتحاق بجامعة السوربون بباريس، من مارس ١٩٣٧م –إلى مارس ١٩٤٨م.حصـــل علـــى شهادة الليسانس من السوربون سنة ١٩٤٠م.استغرق المؤلف (١٩٤١م-١٩٤٧م) فـــي الدكـــتوراه باللغـــة الفرنسية (المدخل إلى القرآن) و (دستور الأخلاق في القرآن). ونوقشـــت هـــذه الرســـالة أمـــام لجـــنة من كبار المستشرقين ومنهم: ماسينيون –ليفي بروفنسال وغيـــرهما. ومُنح المؤلف شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف العليا في ١٩٤٧/١٢/١٥م.حصل على عضـــوية جماعة كبار العلماء في مصر سنة ١٩٤٩م.. ، ،.كان جريئاً صُلباً قائماً بالحق، فعندما عُـــرض علـــيه منصـــب شـــيخ الأزهر الشريف سنة ١٩٥٣م، رفض بسبب القيود التي تضمنها العرض، اعتزازاً بدين الله وإخلاصاً لعقيدته. كان رحمه الله يقرأ سُدس القرآن يومياً، مواظباً على ذلـــك حتـــى أثناء وجوده بفرنسا أثناء الحرب.تُوفي رحمه الله في باكستان أثناء حضوره المؤتمر الإسلامي في يناير سنة ١٩٥٨م. ومن أعماله: المختار.مدخل إلى القرآن (بالفرنسية– مترجم إلى العـــربية).دستور الأخلاق في القرآن (بالفرنسية –مترجم إلى العربية).الدين.النبأ العظيم. دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية.نظرات في الإسلام..رأي الإسلام في القتال.بين المثالية والواقعية.الأزهر الجامعة القديمة الحديثة. وغيرها..

تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمـام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والإلتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطـف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً.

ولمـاذا نقول إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحُجُرات في البنـيان؟ لا. بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعـة وجارتهـا رباطٌ موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل ومـن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشـرايين والعروق والأعصاب. ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجـاه معـين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية.)

بـل أن المصـنف يدلج من هذه المقدمة اللازمة والخاصية المعجزة لكل سورة من سور الكتاب الكريم إلى اعتبار هذه الخاصية وتلك الميزة ما هى إلا دلـيل لا يمارى ولا يدافع على الإعجاز المحير والمدير للرؤوس فى كتاب الله تعالى والذى لا نظير له حتى فى معجزات الأنبياء الأوائل ، إنها معجزة تسخير الكـون بكامـل حـوادثه وتتابع تدافعه وتحولاته لخدمة الغرض الذى من أجله أنزلت السورة الواحدة فى هذا الكتاب العجيب، الأمر المذهل الذى لا يفعله إلا مهـيمن قدير على مقدرات الأمور محيط عليم بصروف الحاضر والماضى

والمستقبل ومطلع فى اقتدار على مآل الأحداث وتبدل الأحوال وتغير الظروف، إنهـا المعجـزة المبصـرة الـناطقة المتحكمة دون هوادة فى حوادث الكون المترامى لتناسب النسيج البديع لكل سورة من سور الكتاب الكريم :

فـيا ليت شعري! إذا كانت كافة الأجزاء والعناصر التي تتألف منها وحدة السـورة مـنوطةً بأسباب لم تكن كلها واقعة ولا متوقعة، وكان لا بد لتمام هذه الوحدة من وقوع تلك الأسباب كلها في عصر نزول القرآن ليتناولها ببيانه، فما الـذي أخضع دورة الفلك لنظام هذه الوحدات وجعل هذه النوازل تتوارد بأسرها في إبان التنزيل؟ لماذا لم يتفق في حادثة واحدة منها أن تخلفت عن عالم الوجود يومئذ لينخرم هذا النظام فتجيء سورة من السور مبتورة في مُفتتحها أو مُختتمها أو فيما بين ذلك؟

أليسـت مطاوعـة تلك الأحداث الكونية، ومعاونتها بدقةٍ دائماً لنظام هذه الوحدات البيانية، شاهداً واضحاً على أن هذا القول وذاك الفعل كانا يجيئان من طريق واحدة، وأن الذي صدرت هذه الكلمات عن علمه، هو نفسه الذي صدرت تلك الكائنات عن مشيئته[1]؟

بـل لـيت شعري لو أن هذا الإنسان العجيب الذي جاء القرآن على لسانه كـان قـد أحصى ما سوف يلده الزمان من مفاجآت الحوادث المستقبلة صغيرة وكبيرة في مدى دهره، ثم قدر ما سوف تتطلبه تلك النوازل من تعاليم الفرقان، فما علمه بالنظام البياني الذي ستوضع عليه صيغة تلك التعاليم؟ ثم ما علمه أي هـذه التعاليم سيكون قرينة لهذا الجزء أو ذاك؟ ليتأهب لتلك القرائن قبل ورودها فـيودع فـي كـل جزء ساعة نزولة عروةً لائقة بقرينته المعينة، حتى إذا قدمت

(١) قل: كل من عند الله سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا مبدل لكلمته [دراز].

استمسكت بعروتها فازدوجت بقرينها ذلك الازدواج المحكم. ولماذا حين وردت كل قرينة وجدت من قرينها جاراً لا يجوز ولا يُجار عليه، ووجدت بجانبه المكان الذي ينتظرها، لا ضيقاً فيزاحمها ويتبرم بها، ولا واسعاً فتنقطع الصلة بينهما، بل وجدته مقدراً بمقدارها، حتى لا حاجة إلى الاستدراك على الماضي بمحو حرف، ولا بزيادة حرف، ولا بتبديل وضع، وحتى لا مجال هناك لقول (ليت...) ولا (لو أن...) بل كيف عرف كل جزء من هذه الأجزاء أين مجموعته، وأين مستقره بينها في رأسٍ أو صدرٍ أو طرفٍ، من قبل أن تتبين سائر الآحاد والفصائل. حتى إذا تم توزيع تلك الأجزاء المتفرقة، والأشلاء الممزقة، إذا الستار يرتفع في كل سورةٍ عن دُمية حسناء كاملة الأعضاء متناسقة الحلَى!

أي تدبير محكم، وأي تقدير مبرم، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى، ولا يتردد ولا يتمكث، كان قد أعد لهذه المواد المبعثرة نظامها، وهداها في إبان تشتيتها إلى ما قدره لها، حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم، وسرى بينها هذا المزاج العجيب؟

سبحان الله! هل يمتري عاقل في أن هذا العلم البشري، وأن هذا الرأي الأنف[1] البدائي الذي يقول في الشيء: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لقلت أو فعلت، ولقدمت أو أخرت) لم يكُ أهلاً لأن يتقدم الزمان ويسبق الحوادث بعجيب هذا التدبير؟ أليس ذلك وحده آيةً بينةً على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو صنع العليم الخبير؟ بلى، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) [سورة النساء الآية:٨٢].

(١) الأنف: الأول غير المسبوق بمثله.

المنهج البليغ في التفسير الموضوعي للسورة من سور القرآن

يقول الشيخ دراز: (واعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير. ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسباباً ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تَمُتّ بها إلى الجار ذي القربى والجار الجُنُب، في شبكة من العلائق يحار الناظر إلى خيوطها. مع أيها يتجه؟ ولا يدري أيها هو الذي قُصِدَ بالقصد الأول.

وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى.

بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول (كلمة) ساق الحديث إليها: وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء جزء منه -وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات، مطالعها ومقاطعها- إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معواناً له على السير في تلك التفاصيل عن بيِّنة، فقديماً قال الأئمة[1]: (إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي

(١) كأبي بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وأبي بكر بن العربي، وبرهان الدين البقاعي، وأبي إسحاق الشاطبي وغيرهم. أما النص المذكور هنا فمستنبط من كلمات للشاطبي في الموافقات، في المسألة الثالثة عشرة من الكلام على الأدلة تفصيلاً. وقد عرض فيها سورة المؤمنون عرضاً إجمالياً [دراز].

كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية).

وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها. فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم، وهل يكون مثله في ذلك إلا كمثل امريء عرضت عليه حلة موشية دقيقة الوشي ليتأمل نقوشها فجعل ينظر فيها خيطاً خيطاً ورقعة رقعة، لا يجاوز ببصره موضع كفه. فلما رآها يجاوز فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوط آخر مختلف ألوانها اختلافاً قريباً أو بعيداً، لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويونقه[1]. ولكنه لو مد بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة، ما لم يره بين الواحد والواحد، ولتبين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى، ما لم يتبين له من قبل. حتى إذا ألقى على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهر. فكذلك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من سور القرآن.

(كلمة أخرى) تمس إليها حاجة الباحث في النسق إذا أقبل على تلك المناسبات الموضعية بين أجزاء السورة: وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء

(١) يُونِقُه: يسره ويعجبه.

والجـزء لا تعنـي اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلاة الجنسية فحسب، كما ظنه بعض الباحثين في المناسبات فجعل فريق منهم يذهب فـي محاولة هذا النوع من الاتصال مذاهب من التكلف والتعسف. وفريق آخر متـى لـم يجد هذه الصلة من وجه قريب، أسرع إلى القول بأن في الموضع[1] اقتضاباً محضاً، جرياً على عادة العرب في الاقتضاب.

إلا أن هـذا الـرأي بشعبيته لأوغَلُ في الخطأ من سابقه[2]، وإن الأخذ به على علاته في القرآن لغفلة شديدة عن مستوى البلاغة التي تميز بها القرآن عن سائر الكلام.

فلـو أن ذاهباً ذهب يمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينـتظمها القـرآن فـي سورة منه، إذاً لجرده من أولى خصائصه وهي أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يرده إلى الإطالة المملة. كيف وهو الحديث الذي لا يمل؟

---

(١) بـل زعم بعضهم أن الاقتضاب هو الأصل في القرآن كله. نقل السيوطي -في الإتقان في بحث المناسـبة بين الآيات والسور- عن أبي العلاء محمد بن غانم أن القرآن إنما وقع على الاقتضاب الـذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم. وكذلك نقل عن عز الدين ابن عبد السلام أن النظـر فـي مناسـبة الآي لا يحسن إلا في القضية التي نزلت على سبب واحد، أما إذا اختلفت الأسـباب فالـربط بيـنهما ضرب من التكلف، لأن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مخـتلفة لأسـباب مخـتلفة مـا كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض أهـ. وقد خالفهما الأئمة ووهموهما [دراز].

(٢) وهو تضييق دائرة البحث في المناسبات بالتماسها بين المعاني المتجاورة خاصة. فإذا أضيف إلى ذلـك التـزام طريق معين في المناسبة، وهو أن يكون من قبيل التجانس المعنوي زادت المسألة ضيقاً وحرجاً.ولذلك أفضى هذا الرأي بأصحابه إلى أحد الطرفين المذمومين: التكلف أو الخروج [دراز].

ولو أنه – من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني- ذهب يفرقها، ويقطع أرحامهـا، ويـزيل التداعـي المعـنوي والنظمي من بينها، إذاً لجرده من خاصته الأخـرى، وهـي أنـه لا ينـتقل في حديثه انتقالاً طفرياً يخرجه إلى حد المفارقات الصـبيانية التـي تجمـع شتى الأحاديث على غير نظام. والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام. كيف وهو القول الرصين المحكم؟

كـلا، بـل الحديث فيه كما علمت ذو شجون. ولكنه حين يجمع الأجناس المخـتلفة لا يـدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواماً لائتلافها. وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو (العقدة) التي يطلب حلهـا فـي كـل فنٍ وصنعةٍ جميلةٍ، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات، فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بـين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراساً وأشد عناءً منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد.

وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها فيخرج بـذلك محاسـنها ومساويها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعـض مسـاق التنظيـر أو التفريع، أو الاستشهاد أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتـراس، إلى غير ذلك، وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي، أو تجـاور شيئين في الوضع المكاني، دعامة لاقترانهما في النظم، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجاً وما هو بخروج، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني. فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها، رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر

إمـــا بحسن التخلص والتمهيد. وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع[1] يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح به المتناكران.

وهذه كلها وجوه حسنة لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق.

علـــى أن روعة النظم القرآني كما علمت لا تقوم دائماً على حسن التجاور بين الآحـــاد، بـــل ربمـــا تراه قد أتم طائفة من المعاني ثم عاد إلى طائفة أخرى تقابلها،

---

(١) ولقد يعرض في هذا الوجه اللغوي أسرار دقيقة لو سئل المرء البيان عن وجه الحسن فيها لعجز عـــن وصفه، بل لو سئل أين موضع الوصل منها لصعب عليه تحديده بقاعدة علمية. على أنه لو تناسى تلك الألقاب الاصطلاحية والأسئلة الفضولية وخلى نفسه ووجدانه ثم اتصل بهذه المواضع تلاوة أو استماعاً لما شعر بينها بشيء من الخروج أو الانتقال ينبو عنه الذوق أو يتعثر فيه السمع. بل يحس بينها بروح الاتصال وحلاوة الانتقال من قبل أن يهتدي لناحية محدودة أو علة معينة.
ومـــن طالت مزاولته لأساليب الكلام وتذوقه لطعومه حتى رسخت فيه ملكة التمييز بين الجيد منه الرديء وجد من نفسه أهلية هذا الحكم، إن لم يكن على نحو من الاستدلال المنطقي فعلى ضرب مـــن الاستحســـان الفقهي، ولا سيما إن كان ممن بقيت في عروقهم قطرات من الدم العربي وفي نفوســـهم أثـــارة مـــن الحاسة العربي. فمن أخطأه وجدان هذا الحسن الإجمالي في موضع ما من القرآن فلا يلومن إلا نفسه ولا يعجلن بالحكم قبل أن يأخذ أهبته. وليذكر دائماً أنه بمقياس ما يجده نحو أسلوب القرآن من استحسان أو توقف، إنما يختبر ما في مزاجه اللغوي من صحة أ، اعتلال، وما في دراسته اللغوية من نقص أو كمال. وأنه ليس بأذواق القاصرين من الموالدين أمثاله تختبر لغـــة القـــرآن، كيف وقد درج أهلها الذين سجدوا لبلاغته وكان فيهم الحكم الذي ترضى حكومته. هـــذا، ولكـــن وقف علم التشريح عن إدراك سر الخلق في بعض الأعضاء الباطنة لعدم الاهتداء لوظيفـــتها فهـــل وسع أحداً من علماء التشريح إلهيين أو طبيعيين أن يحكموا بخلوها عن الحكمة والفائـــدة؟ كـــلا، فإنهم لما بهرتهم عجائب الصنعة في سائر أجزاء البدن لم يسعهم في القليل الذي جهلـــوه إلا أن يعترفوا على الجملة بأن له البتة حكمة لم يكشفها العلم، ثم لا يلبث أن يكشفها لمن أعانته همة البحث وأيده التوفيق [دراز].

فيكون حسن الموقع التجاور بين الطائفتين موجباً لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما، أو بين الأواخر كذلك، لا بين الأول من هذه والآخر من تلك.

ومـــلاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه الســـورة كلها كما وصيناك به من قبل. ونحن ذاكرون لك الآن نموذجاً منه لو وضـــعته نصـــب عينـــيك واحتذيـــته في سائر السور لكان ذلك نعم الدليل في دراستك. وبالله التوفيق).

سورة البقرة

وإعجاز التناسق الموضوعي

قال الشيخ دراز: وأما إن أحببت أن نُريك نموذجاً من السور المنجمعة كيف التأمت منها سلسلةٌ واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسقٌ واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات، فأي شيء أكبر شاهدةً وأصدق مثالاً من سورة نعرضها عليك هي أطول سور القرآن كافة، وهي أكثرها جمعاً للمعاني المختلفة، وهي أكثرها في التنزيل نجوماً، وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخياً. تلك هي سورة البقرة التي جمعت بضعاً وثمانين ومائتي آية، وحَوَت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفاً وثمانين نجماً، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً[1].

(١) ففيها ذكر تحويل القبلة، وذكر صيام رمضان، وذكر أول قتال وقع في الإسلام فنزل بسببه قوله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام....) [سورة البقرة الآية:٢١٧] وكل أولئك كان نزولهن في أوائل السنة الثانية من الهجرة. وفيها تلك الآية الخاتمة التي نزلت في آخر السنة العاشرة من الهجرة وهي آخر آية نزلت من القرآن بإطلاق (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) [سورة البقرة الآية: ٢٨١] وفيها ما بين ذلك [دراز].-قلت: روى الطبري من حديث ابن عباس قال: "آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) ٦/٤٠ [ط شاكر] وصححه العلامة أحمد شاكر. أما تحويل القبلة وصيام رمضان وسرية نخلة فهذه كلها من المشهور المعلوم أنها في السنة الثانية.

نظام عقد المعاني في سورة البقرة[1]

(اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من: مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة. على هذا الترتيب:

(المقدمة): في التعريف بشأن هذا القرآن[2]، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم. وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض.

(المقصد الأول): في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

(المقصد الثاني): في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

(المقصد الثالث): في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً.

(المقصد الرابع): ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصمهم عن مخالفتها.

(الخاتمة): في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم.

* * *

رغبتنا إليك أيها القارئ الكريم حين تدرس معنا تفاصيل هذا النسق أن تستظهر بالمصحف بين يديك لتكون من الموقنين بصحة ما نشير إليه في كل خطوة.

---

(١) كتاب النبأ العظيم د. عبد الله دراز ـ من ٢٠٤-٢٠٥

(٢) عرفت في رأس البحث الأول أن لفظ القرآن يطلق على كله وعلى بعضه ، فالإشارة هنا يصح أن تتوجه إلى القرآن جملة، وأن تتوجه إلى سورة البقرة خاصة. وقد أردنا بقاءها على هذا الاحتمال افتداء بالنص الكريم: (ذلك الكتاب)، لأن الإشارة فيه على الاحتمال أيضاً [دراز].

المقصد الأول من مقاصد السورة[1]

[في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام]

في خمس آيات [٢١-٢٥]

في هذه الآيات الخمس تسمع نداءً قوياً موجهاً إلى العالم كله بثلاثة مطالب:

(١) أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً.

(٢) أن آمنوا بكتابه الذي نزله على عبده.

(٣) أن اتقوا أليم عذابه، وابتغوا جزيل ثوابه.

هذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعي. من المبدأ إلى الواسطة إلى الغاية. وترى كل واحد من الركنين الأولين قد أقيم على أساس من البرهان العقلي القاطع لكل شبهة.

أما الركن الثالث فقد جيء به مجرداً عن هذا النوع من البرهان، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب وتحريك الوجدان بالتحذير والتبشير ما يسد في موضعه مسد البرهان.

على أنك إذا أنعمت النظر في هذا الركن وجدته في غنى عن برهان جديد بعد تقرر سابقيه، إذ هو منهما بمنزلة النتيجة المنطقية من مقدماتها.

أرأيت لو أن مَلِكاً عظيم السلطان نافذ الحكم وجه إليك سفيراً يحمل رسالة

(١) كتاب النبأ العظيم د. عبد الله دراز من ٢١٦-٢١٧

مـــنه، وأيقنت أن الذي بيد السفير هو كتاب الملك المختوم بخاتمه، أكان يعوزك بـــرهان جديد لتحقيق ما يحويه الكتاب من عجيب الأنباء والنُذُر، بعدما وقر في نفسك من العلم بأنه كلام من إذا قال صدق وإذا وعد أنجز؟

فكـــذلك ترى الحديث هنا عن السمعيات جيء به مُفرعاً على ما تقرر في أمـــر النـــبوات، وبضـــربٍ من التخلص هو غاية في الحسن والبراعة: (فإن لم تفعلوا... فاتقوا النار)[٢٤].

•••••

المقصد الثاني من مقاصد السورة[1]

[في دعوة أهل الكتاب دعوةً خاصةً إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق]

في ثلاث وعشرين ومائة آية [٤٠-١٦٢]

بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هي غرة السور المدنية، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوةً للذين آمنوا، وأكثرهم جدالاً في دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم. بحسبك أن تعلم هذا وذاك لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة، نعني دعوة بني إسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة ولتعلم حكمة ذلك التبسط فى الحديث معهم تارة، والحديث عنهم تارة أخرى، بألوان تختلف هجوماً، ودفاعاً، واستمالةً، واستطالةً، إلى ما بعد نصف السورة.

وسترى حين تنتقل في هذه الأحاديث مرحلة مرحلة ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها.

(بدأ) الكلام معهم بآية فذة [٤٠] هي على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله، ففيها يناديهم بأحب أسمائهم وأشرف أنسابهم ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً، ويبني على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم، ويرغبهم ويرهبهم.

---

(1) كتاب النبأ العظيم من ٢١٩-٢٢٠

(ثـم) رجـع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج وبقدر معلوم فشرح العهد الـذي طلب منهم الوفاء به، في ست آيات [٤١-٤٦]. وبين مقدار النعمة التي امتن بها عليهم في آية [٤٧] ومقدار المخافة التي خوفهم منها في آية أخرى [٤٨].

(ثم) قسم الحديث إلى أربعة أقسام:

- (القسم الأول): يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى عليه السلام.
- (القسم الثاني): يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية.
- (القسم الثالث): يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام.
- (القسم الرابع): يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة.

****

المقصد الثالث من مقاصد السورة

(فى عرض شرائع هذا الدين تفصيلا)

فى ست ومائة آية (١٧٨ ــ ٢٨٣)

بعد إرساء الأساس تكون إقامة البنيان وبعد الإطمئنان على سلامة الخازج يجىء دور البناء والإنشاء فى الداخل.

نعم لقد تم (إصلاح العقيدة) التى هى روح الدين وجوهره، فليبدأ (تفصيل الشريعة) التى هى مظهر الدين وهيكله، لقد أزيلت شبه المعاندين وأقيمت الحجة علـيهم، فلـم يبق إلا إنارة السبيل لسالكين، وإيضاح المحجة بين أيديهم، كانت العناية من قبل موجهة إلى بيان (حقائق الإيمان) فلتتوجه الآن إلى بسط (شرائع الإسلام)

وأنـت فقـد رأيت كيف مهدت السورة لهذا التحول، إذ وضعت برزخا يـربط أطراف الحديث، ويلتقى فيه سباقها وسياقها، ولو أننك تفلت الآن التفاتة يسـيرة إلى جانبك، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك، تلك الآية الجامعة (آية البر) التـى انـتظمت أصول الدعوة بشطريها النظرى والعملى، ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك، هو هذا الشطر العملى.

فاعلم الآن، أن هذا الشطر العملى الذى لمحناه من قبل مطويا فى فرهرس موجـز سنراه فيما يلى مبسوطا فى بيان مفصل، ففى نيف ومائة آية سنرى فنا جديـدا مـن هـذه المعانى مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين، وتفصيل الواجب

والحـــلال والحرام لهم فى شتى مناحى الحياة، فى شأن الفرد وفى شأن الأسرة، وفـــى شأن الأمة بينانا مؤتنفا تارة وجوابا عن سؤال تارة أخرى، متناولا فى جملـــته عشـــرات من شعب الأحكام. هذه الحكمة العامة: فى تأخير إقامة البيان ريـــثما أرســـيت قواعده، وفى تأجيل الفروع حتى أحكمت أصولها، ستبدو من ورائها حكم جزئية، وأسرار دقيقة، لمن أقبل على هذه الفروع ينظر إلى تلاصق لبناتها فى بنيتها، وتناسق حباتها فى قلادتها، ثم رجع ينظر فى وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق وهذا التفصيل اللاحق

فلنأخذ فى استعراض الحلقات الرئيسية لهذه السلسلة الجديدة: لقد ختمت آية البـــر كما رأيت بخصلة من خصال البر ميزت فى إعرابها تمييزا[1]، فكان ذلك تـــنويها بشـــأنها أى تنويه، تلك هى خلة الصبر التى شعبتها الآية المذكورة إلى ثلاث شعب: الصبر فى البأساء والصبر فى الضراء والصبر حين البأس

الحقلـــة الثانية فى تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية التى أجملت فـــى آيـــة البر، هى الوفاء بالعهود والعقود، وستختار من من هذه العقود أحقها بالعـــناية والرعاية مقود الزواج وما يدور حول محورها من شئون الأسرة ... إلى تمام هذه الحلقة الثانية (٢٣٧)

---

(١) هى جملة و(والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) وقد نصبت رغم أنها معطوفة على الجملة السابقة (والموفون بعهدهم) قال القاسمى فى محاسن التأويل: (والصابرين) نصب على الإختصـــاص، غيّـــر سبكه عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر وميزته. وهو فى الحقيقة معطوف علـــى مـــا قبله. قال أبو على: إذا ذكرت صفات للمدح أو للذم فخولف فى بعضها الإعراب ، فقد خولـــف للإفتـــتان ويســـمى ذلـــك (قطعا) لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب فى استماع المذكـــور ومـــزيد اهتمام بشأنه... قال الراغب: لما كان الصبر من وجه مبدأ للفضائل ومن وجه جامعا للفضائل ، إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ ، غير إعرابه تنبيها على هذا المقصد.

الحلقـــة الثالثة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى..) ٢٣٨ ــ٢٧٤ ..... إن الحديث يعود الآن إلى شأن الجهاد وإن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يـــتوجه للمجاهـــدين من حيث هم مجاهدون، ليحل المشاكل التى يثيرها موقف الجهـــاد نفســـه قـــبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال، فأول هذه المشاكل مشـــكلة الصلاة فى الحرب:ألا يكون الجهاد رخصة فى إسقاط هذا الواجب أو فى تأجيله؟ يجيبنا الكتاب العزيز: لا رخصة فى ترك الصلاة ولا فى تأجيلها لا فى سلم ولا فى حرب، لا فى أمن ولا فى خوف؟؟

... ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة فى آية قصيرة ٢٤٤، ثم فى آيات كثيرة ٢٤٦ ــ ٢٥٣. وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه فى آية قصيرة ٢٥٥ فمـــن العـــدل أن يأخذ تمام حظه فى آيات كثيرة كذلك، وهكذا نرى الدعوة إليه تأخـــذ الآن قسطها مطبوعا بطابع الشدة تارة ٢٥٤ ــ ٢٦٠، وطابع اللين تارة ٢٦١، وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى ٢٦٢ ــ ٢٧٤

*****

المقصد الرابع من مقاصد السورة

[ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن[1] مخالفتها].

في آية واحدة [٢٨٤]

في الآية السابقة، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية، عند الحد الذي أراد الله بيانه في هذه السورة، وبها ختم الشطر الثاني من الحقيقة الدينية، وهو شطرها العملي، بعد أن أرسى شطرها الاعتقادي في الآي [١٢٢ وما بعدها].

وهكذا تناول البيان حتى الآن:

١- حقائق الإيمان.

٢- شرائع الإسلام.

هل بقي في بنيان الدين شيء فوق هذه الأركان؟

- نعم، لقد بقيت ذروته العليا، وحليته الكبرى..

بعد الإيمان.. والإسلام.. بقي الإحسان، وهو كما فسره صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه، أن تراقب الله في كل شأنك[2]، وأن تستشعر مشاهدته

(١) كتاب النبأ العظيم من ٢٦١-٢٦٤

(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر. لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن

لـك فـي سـرك وإعلانك، وأن تستعد لمحاسبته لك، حتى على ذات صدرك، ودخيلة نفسك.. مطلب عزيز لا يطيق الوفاء به كل مؤمن، ولا كل مسلم، وإنما يحـوم حول حماه صفوة الصفوة من المتقين.. وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صـان الله درته اليتيمة في هذه الآية الواحدة، التي توج بها هامة السورة (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) [٢٨٤].

تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصـوم رمضان، = = وتحـج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت... قال فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت.. فأخبرني عن الإحسـان. قـال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك...". وفي نهاية الحديث قال رسـول الله صـلى الله علـيه وسلم: "إنه جبريل. أتاكم يعلمكم دينكم". رواه مسلم في الإيمان ١، ورواه البخاري عن أبي هريرة في الإيمان ٥٠، وفي التفسير ٤٧٧٧.

الخاتمة

[في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم]

في آيتين اثنتين [٢٨٥-٢٨٦]

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها، وألم بعناصره جميعها: الإيمان، والإسلام، والإحسان، لم يبق بعد تمام الحديث إلا طي صحيفته، وإعلان ختامه؟.

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة، وكيف أعلن ختامها؟

لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة البقرة، لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة مع هذه الخاتمة، ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ليلتحم من قوسيهما سور محكم يحيط بهذه السورة، فإذا هي سورة حقاً، أي بنية محبوكة مسورة..

ألم يكن مطلع السورة وعداً كريماً لمن سيؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح؟

ألسنا نترقب الآن صدى هذا الوعد؟ بلى، إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة: هل آمن بها أحد، وهل اتبع هداها أحد، ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتبع..

وهكذا سيكون مقطع السورة:

(١) بلاغاً عن نجاح دعوتها: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون.. وقالوا سمعنا وأطعنا) [٢٨٥].

(٢) وفـاءً بـوعدها لكل نفسٍ بذلت وسعها في اتباعها: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)[٢٨٦].

(٣) فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين. فليبسطوا إذن أكُفهم مبتهلين: (ربنا.. ربنا.. ربنا.. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)[٢٨٦].

• • •

تلك هي سورة البقرة.. أرأيت وحدتها في كثرتها: أعرفت اتجاه خطوطها فـي لوحـتها؟ أرأيـت كيف التحمت لبناتها من غير ملاطٍ يمسكها، وارتفعت سـماؤها بغيـر عمدٍ تسندها؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها، لا أقل أحسن دُمْية... بل أجمل صورة حية. كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخـذ مكانـه المقسوم، وفقاً لخطٍ جامع مرسوم، رسمه مُرَبِّي النفوس ومزكيها، ومُـنَوِّر العقـول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها.. فتالله لو أن هذه السورة رُتِّبت بعد تمام نزولها، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة، فكيف وكل نجـم مـنها -كسـائر النجوم في سائر السور- كان يوضع في رتبته من فور نـزوله، وكـان يحفظ لغيره مكانه انتظاراً لحلوله، وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل؟. ثم كيف وقد اختُصت من بين السور المنجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام، بل بتسعة أعوام؟

لعمـــري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيِّه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات!.

* * *

الوحدة الموضوعية لقصار السور

روعة الكون دليل الإيمان

من جانب النظرة للآيات الكونية في كتاب الله لوحظ أن هناك منهاجا كاملا إستنادا إلى الأدلة الكونية شواهد حق على الإيمان بالغيب الذي أخبر به القرآن، والأمثلة على هذا المنهاج في القرآن ظاهرة بينة، غير أنها لم تظهر واقعا معبرا وتفهم فهما إلا بعد الكشوف العلمية المتتابعة، والتي كان صداها يتردد في الآيات الكونية في كتاب الله فلما استقر العلم بمدى إعجاز إخبار القرآن بالمغيبات العلمية مع عرض ذلك دليلا لا شك فيه على صدق الخبر والمخبر به وصدق منزله وتفاصيل ذلك، تبدى هذا المنهاج كأثبت وأكمل وأجل ما عرف المسلمون عن كتاب الله.

والمنهاج بإعتبار أهمية القضية التي يطرحها لا يمكن فهمه متكاملا إلا بالدراسة الموضوعية المتأنية المدققة للقرآن من أوله إلى آخره، حيث تسرى قضايا الإيمان بالله منه مسرى الدماء في العروق وتحل محل الروح من الجسد. غير أنه يظهر لامعا وامضا في بعض السور بحيث لا يخفى أو يشتبه بل يشير في قوة إلى إتجاه القرآن بخصوص عرض حقائق الإيمان. ولما كان الأمر على ذلك القدر من التشعب والإتساع بما لا يمكن إستيفاؤه في هذه العجالة، فنكتفي بمثالين واضحين على هذه الثمرة من ثمار التفسير الموضوعى المتعلق بالسورة الواحدة فى القرآن الكريم .

المثال الأول

الوحدة الموضوعية فى سورة الطارق

القضية الكونية تسلم للحقيقة الإيمانية

بملاحظة هذه السورة نجد أنها مركبة من ثلاثة مقاطع متتابعة في إحكام، وكل مقطع يتكون من شقين: شق كوني، وشق عقائدي.

فالشق الكوني أتى كأنه مقدمة مسلمة إلى نتيجتها الحتمية، أو كأنه ملزوم أتى بلازمه المنطقي الذي لا يتخلف. ألا وهو الشق العقائدي وهو المطلوب الأعظم من مقاصد القرآن الكريم.

المقطع الأول

فأما المقطع الأول فهو قوله تعالى:

{والسماء والطارق .وما أدراك ما الطارق.النجم الثاقب. إن كل نفس لما عليها حافظ }

فالشق الأول: القسم بالسماء والقسم بالطارق الذي فسرته الآيات بأنه النجم الثاقب. وهو نوع من النجوم أو هو الشهاب الذي يمرق في الليل على خلاف المفسرين.

والحاصل أنه قسم بظاهرة كونية فلكية متعلقة بالسماء وعلاقتها بهذا الطارق الثاقب. فإذا تم للإنسان إكتشاف أنواع النجوم وتطورات أعمارها وخصائصها، وعرف ما هو النجم الثاقب تحديدا، أدرك أن هذا كلام لا يمكن أن يأتي به رجل أمي من بيئة أمية لا علاقة لها بعلم الفلك والنجوم، كذلك أيقن أنه

ليس من قول البشر بناء على هذه الآية الكونية فسلم بأنه كتاب من عند الله.

حينئذ يأتيه الشق الثاني سريعا، وهو المقصود من عرض هذه الآية الكونية، ألا وهو الخبر الغيبي العقائدي المطلوب التسليم به وهو قوله تعالى: " إن كل نفس لما عليها حافظ ".

أي أن كل نفس عليها من الله حافظ من الملائكة أو غير ذلك مما ذهب إليه المفسرون.

فالحقيقة العقائدية التي طلب القرآن ترسيخها هي إثبات الحافظ لكل نفس، ومنه لزوما إثبات رقابة الله تعالى التي لا تغفل على كل نفس ومهما كان مكانهاأو زمانها وهو عسير على فهم الكافر،

ولكن الآية الكونية السابقة والمثبتة أنه كلام الله حتما، تضعه أمام إلزام بالإيمان عبر أية من آيات الأكوان.

المقطع الثاني

قوله تعالى:

{ فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر }.

بعد عرض الآية الأولى " في الآفاق " إذا بهذا الشق الأول في " الأنفس " وهو سؤال تقريري ودعوة للنظر في أصل الإنسان، والإتيان بحقائق علمية بالغة التعقيد، وهي مخالفة للمحسوس حيث أن الماء الدافق إنما يخرج من عضو الذكر، ولكنه أتى بما حير فيه المفسرون، حتى كشفت أحدث الكشوفات العلمية

علـــى قدر مذهل من الإعجاز العلمى فى مسألة الصلب والترائب (انظر كتابنا: معجـــزة خلـــق الإنسان ــ دراسة تطبيقية فى التفسير الموضوعى) والمقصود الإتيان بآية كبرى تتبين تفاصيلها بعد جهد جهيد، ويظهر أنها حق مبين وإعجاز علمي تذعن إليه أشد القلوب عنادا ومكابرة.

إذ ذاك يأتـــي المطلـــوب الشرعي الهام الذي بسببه أتت هذه الآية الكونية العلمية، والتي ما جاءت إلا لإثبات صدق.مبلغ الرسالة فتتلقاها النفوس بالتسليم والخضوع وهي الحقيقة الكبرى التي كان ينكرها الكافرون وهي قدرة الله على بعث الناس وإحياء العظام الرميمة فيقول الله " إنه على رجعه لقادر ".

أي مـــا دمـــتم قد تبينتم من أن التفاصيل العلمية السابقة فوق طاقة محمد وعصره، فيلزم أنها من قول الله وحده، فعليكم أن تسلموا بما نخبركم به ونقرره لكم ألا وهو قدرة الله على بعثكم بعد موتكم.

فإن الكافر بعد تسليمه بالمقدمة الأولى يصعب عليه أن يجحد الثانية فهما متلازمـــتان تـــلازم الدلـــيل على مدلوله، والشاهد على ما يشهد له، والملزوم بلازمه.

وهـــذا المـــنهج مـــن القرآن ثمرة من ثمار الإعجاز العلمي، أي عرض المعجزة العلمية دليلا على المطلوب الشرعي وهو ظاهر جدا فاعرفه.

المقطع الثالث

قـــول الله تعالى: { والسماء ذات الرجع. والأرض ذات الصدع. إنه لقول فصل وما هو بالهزل }.

فالشـــق الأول: آيـــات كونـــية في وصف دقيق لخاصية بالغة التعقيد من

خصائص السماء نفسها لا النجوم ولا الكواكب، فإن هذه النجوم والأجرام الفلكية إنما هي زينة للسماء وليست هي نفس السماء، وقد أشير إليها في القسم الأول " النجم الثاقب ".

أما هنا فالكلام عن نفس السماء التي تسبح فيها الأجرام، وأنها أيضا ذات رجـــع أي تـــدور بصورة منتظمة ولها حركة، وهو عجيب جدا في نظر من لم يطلـــع على أحدث المكتشفات العلمية، وكذلك الأرض ذات الصدع أي الشقوق الكـــبار والشروخ العميقة وقد تم تصويره صورا غاية في الوضوح عن طريق الأقمار الصناعية.

فمن أين لمحمد هذه الآيات العلمية الباهرة.

فـــإذا أذعـــن الكافـــر بعد غاية التدقيق والبحث بأنه يستحيل أن تأتي هذه المعلـــومات في هذا الماضي الموغل من عند بشر، أيقن أنها من عند الله تعالى وسلم بذلك تسليما.

هنا يأتيه الشق الثاني: وهو الرسالة المطلوب التصديق بها والالتزام على أساسها وهي قوله تعالى:

{ إنه لقول فصل وما هو بالهزل }.

أي أن هـــذا القـــرآن حق محض مبين لا عبث فيه ولا لهو ولا لعب،أي فالتـــزم واســـلك على ما فيه من أوامر وانته عن نواهيه، فإن هذه هي الرسالة الآتية من الله رب العالمين.

ملاحظات حول هذا المنهج

أولاً:

وجه المناسبة البديعة بين اختيار الآية الكونية والمطلوب العقائدي:

ففي المقطع الأول كان الإختيار غاية في الإحكام بين القسم بالسماء وحفظها ورفعها وسمكها، وبين المطلوب الشرعي من إثبات الحفظ لكل نفس، أي أن الذي حفظ السماء عن طريق الشهب الثاقبة من أي عبث أو اقتحام، قادر بداهة على أن يجعل لكل نفس حافظا أمينا لا يفتر ولا ينام.

ثانيا:

في المقطع الثاني روعة اختيار آية كونية بذاتها مناسبة لمطلوب عقائدي بذاته:

فدعوة الإنسان إلى تأمل أصل خلقه وهو المني، ومعلوم أنه إنما ينتج من طعام الإنسان المتحول في جسده علما بأن الطعام قد خرج ثمرا من التراب، فإن الذي أوجد هذا المني من أصل التراب على هذه الهيئة بالغة التعقيد، قادر بداهة على أن يرجع الإنسان إذا ما صار ترابا، فأصل خلق الإنسان من المني دال بغير إشكال على القدرة على إعادته من التراب وهو مناسب جدا من حيث الآية العلمية للآية الشرعية.

ثالثا:

في المقطع الثالث مناسبة مبهرة بين الإختيار الكوني والإختيار الشرعي.

فإن ذكر صفة " الرجع " في السماء و" الصدع " في الأرض هي

خصـــائص دالةعلـــى غايـــة الدقـــة في الصفة من جانب، وموائمة المخلوقات لـــوظائفها، فـــلا يمكن أن تقوم السماء من غير رجع ولا أن تبقى الأرض بغير صـــدع، ولكل من هذه الأوصاف أسبابها البليغة وفوائدها العميمة، بحيث يصير ذكـــرها هـــا هنا مفيدا لصفات الجدية والأحكام والدقة الكاملة فكان هذا جميعه مناسبا لأوصاف الكلام الآتي من عند الله وأنه " فصل " و" ليس بالهزل ".

فالذي أحكم السماء هكذا والأرض هكذا، يكون كلامه بداهة " فصلا "، ولا يمكن أن يكون "هزلا " فهي مناسبة دقيقة فتدبرها عند ذكر الآيات الكونية دلائل حق وشواهد صدق على المطلوبات الشرعية.

* * * * * *

المثال الثاني

الوحدة الموضوعية فى سورة التكوير

شهادة الغيب وغيب الشهادة

وهي معبرة غاية التعبير على منهج القرآن في عرض الشهادة دليلا على الغـيب وهو منهج فذ حيث أتى من الشهادة بعلم غيبها الآتي وهو نهاية الكون مـندمجا دون فاصـل مع أوائل الغيب الموعود وهو الحساب أول مراحل يوم القيامة.

ويمكن تفصيل منهج السورة فيما يلي:

إنها تتكون من مقطعين كل مقطع يعالج قضية كبرى من قضايا العقيدة.

المقطع الأول

دمار العالم ويوم الحشر

أولا:

إفتتاح السورة بآيات كونية ضمن عالم المشاهدة ولكنها في مراحله الأخيرة أي إنقـلاب النظام إلى فوضى، والإحكام إلى تدمير، والجمال إلى نيران تلظى، فالكون بأجمعه في حالة من الإضطراب المزلزل العظيم.

(إذا الشمس كورت. وإذا النجوم انكدرت. وإذا الجبال سيرت. وإذا العشار عطلت. وإذا الوحوش حشرت. وإذا البحار سجرت).

فهـو ذكر لبعض الآيات الكونية التي تبين بوسائل العلم الحديث أنها حق محـض، وأن نهاية العالم تكون على نفس هذه الصورة التي صورها كتاب الله. وقد جاء ذلك مستفيضا في النيوزويك الأمريكية حيث صور على غلافها صورة كونية تحت عنوان كبير نصه:

(Dooms day Sceince) (يوم القيامة علميا) [١]

(وقـد استعرضت البحوث داخل العدد النهايات المحتملة للعالم علميا فإذا هـي مطابقـة تمام الإنطباق لكل ما قرره القرآن نهاية للعالم وخاصة في هذه السورة الكريمة) [٢].

وحسـب المنهج القرآني في إيراد المعجزة العلمية مقدمة للأخبار الشرعية وخاصة الغيبية منها فقد بدأت السورة بهذا الإعجاز العلمي للإخبار بعده مباشرة عن أهوال يوم القيامة المطل مباشرة من عالم الغيب.

فالمـنهج:الإخـبار اليقيني بغيب الحاضر (نهاية العالم) دليلا على القطع بورود الغيب حاضرا وكأنه مشاهد.

ثانياً:

يعقـب ذلك الحدث المزلزل الهائل قوله تعالى:(وإذا النفوس زوجت. وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت).

فإن العطف المسترسل بنفس أداة العطف"وإذا " شاملا للشهادة والغيب معا،

---

(١) (Newsweek-November 23, 1992)

(٢) راجع شريطنا الفيديو من أربعة أجزاء حول التفاصيل المذهلة لهذا الحدث معززة بأحدث اللقطات العلمية الحية

فـــي إتصال حميم محتوم بين نهاية الكون (وهو مشاهد معاين سواء عن طريق القـــياس العقلـــي بأن لكل شئ نهاية إذن فلا بد للكون من نهاية، أو عن طريق الكشف العلمي التجريبي الموجب للعلم اليقيني بحتمية هذه النهاية بهذه الصفات) وبداية القضية الإيمانية الغيبية الكبرى وهي أهوال الحساب وما بعد البعث.

ويلاحـــظ الســـرد المتـــتابع بنفس الوتيرة والصياغة وبغير إنقطاع أو أي فاصـــل لغوي أو معنوي بين سلسلة التداعيات لنهاية الكون المحسوس المشاهد وسلســـلة التداعيات الغيبية المصاحبة للبعث والحساب، وتأمل قوله تعالى:" وإذا الـــبحار سـجرت. وإذا النفوس زوجت ". " وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت ".

فتســـجير البحار هي من عالم المشاهدة، ونشر الصحف من عالم الغيب، وكشط السماء من عالم المشاهدة، وتسعير الجحيم من عالم الغيب، فالأمر وكأنه كـــتلة واحدة من الأخبار المزلزلة الرهيبة والأحداث المتصلة، لا يقطعها قاطع ولا يفصلها فاصل.

فـــإذا بنفس الكافر وقد استقر في أعماقها الحدث الجلل حيث صار الغيب جـــزءا لا ينفصم عن الشهادة المحسوسة متداخلا فيه ومتصلا به، فغدا محسوسا مشاهدا ملموسا.

ثالثا:

المناسبة البالغة بين هذا التصوير الرهيب لنهاية الكون مما يورث شعورا مخيفا، بمدى سطوة الرب وشدة غضبه وقدرته، والجبروت الظاهر جليا في هذا التدميـــر الشـــامل للكون بأسره، وبين الحالة المخيفة التي يقف عليها الناس يوم القيامة حيث الصحف المنشرة والنار المسعرة، والجنة المزلفة.

فالأنفـــاس المكتومة رهبة وخوفا بينما الكواكب والنجوم والسماء والأرض تتطاير وتنهار، هي الأنفاس المكتومة والصحف تتطاير. وألسنة النيران تتقاذف، والسؤال والجواب يتتابع.

فآيـــات عـــرض تفاصـــيل الخاتمة المشاهدة مناسبة أيما مناسبة لما هو مطلوب من تفاصيل اليوم الموعود.

* * * * * *

المقطع الثاني

إحكام السماء وإحكام القرآن

يبدأ هذا المقطع من قوله تعالى:

{ فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس.والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس.إنه لقول رسول كريم }

وفـــيه مـــن خصـــائص المنهج القرآني الموضوعى للسورة في عرض المشاهد الإعجازية الكونية دلائل إيمانية

أولاً:

إعتـــبار الظواهـــر الكونية كالنجوم والليل والنهار كأدلة ومقدمات لا زمة للتصـــديق بالحقيقة الإيمانية المطلوب إلتزامها، وهذه الأقسام " بالخنس" "الجوار الكـــنس" "والليـــل إذا عسعس" "والصبح إذا تنفس " كلها مجالات رحيبة للبحث العلمـــي والاعجـــاز العلمي حيث لم يأت القرآن بأعيانها فقط، بل جاء بصفات

لازمـــة لهـــا "فالخنس" صفة لما يخنس ولا ينفك عن ذلك، و"الجريان" صفة لما يجـــري جيئة وذهاباً من غير فتور، و"عسعسة" الليل هي أمر وراء نفس الليل، و"تنفس" النهار هي صفة عجيبة لم يسبق القرآن إليها حول النهار.

فإذا ثبتت هذه الحقائق جميعها بالكشف والبحث والجهد والمراقبة. استقر في ذهن المخاطب صدق هذا الكلام، وعلو مصدره، وبعده عن ضعف البشرية، فيسلم تسليماً.

وحينئذ يأتيه الخبر المطلوب وقد مهد لتصديقه تمهيداً ألا وهو:

{ إنه لقول رسول كريم }... { وما صاحبكم بمجنون }.

فـــتأمل كيف تتلقاه النفس المعاندة في هذا الموطن بغاية التسليم والخضوع بعد الإعجاز السابق عليه والإلزام النفسي والمنطقي والعلمي. وهو منهج علمي نفسي إيماني تفرد به كتاب الله عز وجل وعبرت عنه هذه السورة أعظم تعبير.

ثانياً:

المناســـبة المعتادة في الاختيار الحكيم لواحدة كونية من بين آلاف، لتقابل واحدة إيمانية من مئات. "فالخنس الجوار الكنس" كما قال سيد قطب رحمه الله:

" التعبيـــر يخلـــع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء وهي تجري وتختبئ في كناسها وترجع من ناحية أخرى ".

فهو شعور يجمع بين الإحكام والتدبير والجمال في آن واحد.

فكيف يصدر بعدها هذا القرآن عن مجنون.

فلا بد عند ذلك أن ينطق كل سامع دفعة واحدة "وما صاحبكم بمجنون "

أيمكـــن لمن أبدع هذه الجوار الخنس في حركتها ورشاقتها، ومن أنشأ هذا الليل في عسعسته وخفته، وهذا النهار وتنفسه وحياته.

هل يمكن لقوله إلا أن يكون عند غاية الإحكام والجمال والبلاغة والتمكن.

أنها المناسبة بين ذكر الآية الكونية والآية الإيمانية، الخصلة التي لم ينفك عنها كتاب الله طالما عرض الكون دليلا على الإيمان

ثالثاً:

مناسبة أخرى وهي الايقاع الهادئ الناعس الشاعري لهذا المقطع بالمقارنة بالايقاع الهادر الصاخب الرهيب للمقطع السابق، وغني عن البيان توضيح العلة، فـــالأول يعـــرض مـــروعات يوم الحساب فناسبها مروعات نهاية العالم. وهنا يعرض إحكام وجمال كتاب الله وعلوه فوق مستوى البشر، فناسبها عرض إحكام وجمال النجوم الجواري والليل والنهار.

ملاحظة هامة

فإن قيل:

فإن تناقض ايقاع المقطعين من كل وجه مؤد إلى الاضطراب والازعاج.

قيل:

بل إن التناقض في الألوان هو علامة للجمال وتأمل حسناء باهرة البياض وقد توشحت بثوب من سواد، بل تأمل الثوب الأسود وقد طرز بلآلئ بيضاء.

لقد اتفق أهل الفنون على أن خطوط الألوان تبرز كأجمل ما يكون عند اضدادها.

أمـــا مـــن جهة النفس الإنسانية إذا أريد لها النجاة، فلا بد لها من الخوف والرجاء خاصة إذا كانت معاندة أو غافلة لاهية.

فـــإن الـــبداية المزلزلة المدمدمة إنما تناسب حالة النائم الغافل عن الخطر الهائـــل المحدق به من كل ناحية، فلزم أخذ النفس من تلابيبها وهزها بقوة كي تخـــرج مـــن ســـباتها وتنتبه من غفلتها لتتفتح العينان على الحقائق الكبرى من الايمانـــيات والمغيبات فإذا ما أخذت بها الرهبة مبلغها واجتاحها الخوف من كل طـــريق، غـــدت علـــى أشد حالاتها انتباها واستعدادا. فجاءتها إذ ذاك الأخبار المطمئـــنة الهادئـــة وأطـــواق النجاة الهادية وسرج الليل البادية، وكلها مجتمعة جاهزة متألفة في لفظ واحد:

" إن هـــو إلا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين".

فنعـــرف العـــين طريق خلاصها وترتاح النفس إلى مرسي نجاتها، ويقر القلب عند منتهى مراده.

وهـــو مـــنهاج رشيد بالغ الحكمة من إله خبير بالنفس التي خلقها فسواها فألهمها فجورها وتقواها فهو عليم بمبتداها ومنتهاها.

أما ثانياً:

فهـــي خاصية ثانية من عرض المنهج الإيماني فى القرآن كله وتجليه فى هذه السورة فى سبك موضوعى محكم ألا وهي الشمولية بحيث لا يطغى جانب الخـــوف علـــى جانـــب الرجاء، ولا جانب الرجاء على جانب الخوف، بل هو

الاتــزان الدقــيق، والتوجيه الحكيم. وكذلك بخصوص القضايا الايمانية يلاحظ أيضا شمولية عرضها بما يناسب كل حقيقة ايمانية على حدتها:

ففي المقطع الأول:

عرضت الساعة والبعث والحساب والجزاء والجنة والنار.

وفي المقطع الثاني:

عرض الملائكة (جبريل) ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وشأن القرآن وسبب نزوله.

حقائــق ايمانية كبيرة وكثيرة جمعت جمعاً في حيز محدود وبكلام معدود ســردا واكــتمالا – لم تؤجل واحدة – فتربت بها النفس خلقاً جديداً كالجنين في تكامــل نموأعضــائه معا ومن غير اختلال ولا اضطراب ولتتفاعل من جميع وجــوهها وكل جوانبها وتتحول بكليتها من وهدات الظلمات إلى سنايا النور نبتا باهرا وخلقاً جليلا.

"فتبارك الله أحسن الخالقين "

محاولات المتقدمين في هذا النوع

وبالنظـــر إلى هذا التوجه القرآني لاختصاص بعض السور بموضوعات تميزها، وجدنا أن هذا النوع من التفسير الموضوعي كانت له أيضاً بدايات عند المفسرين القدامى، وهي الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة في القرآن الكريم، وإن كان لم يبلغ الطريقة الحديثة من جهة التفاصيل ومناهج البحث وغيرها من أشكال تناوله. وممن تنبهوا لذلك وعرفوه قديماً:

الفخر الرازي، الزمخشري، القُمّي النيسابوري. ولكن برهان الدين البقاعي فـــي كـــتابه نظـــم الدرر كان أكثرهم اهتماماً وتناولاً لهذا الصنف من التفسير الموضـــوعي.إن مذهـــبه كـــان ظاهراً في أن القرآن بجملته يمثل جسداً واحداً ووحدة تامة، وأن السور ماهي إلا وحدات ولبنات في هذا البناء الشامخ، وكذلك الآيـــات فـــي كل سورة تتكامل تتناسب لتكون وحدة واحدة في السورة الواحدة، وهكـــذا التزم هذا المذهب في كتابه الذي اختصره فيما بعد إلى كتاب " مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور "

ولكـــن البقاعي برغم ما سبق لم يبلغ في تحليلاته ونظراته ومناسباته تلك النظـــرة الكلـــية الوافية الشاملة التي انتهى إليها المتأخرون نظراً لتقلب الأحوال ووجود الدواعي والوسائل التي مكنتهم من استيفاء أطراف هذا المنهاج.

محاولات المتأخرين في هذا النوع

ومـــن أبرز المحاولات لاظهار هذا الجانب من تفسير السور موضوعياً، وجـــدنا تفسير المنار لمحمد رشيد رضا وهو الذي نهج على منهاج الشيخ محمد

عـبده مفتـي الجامـع الأزهر.، والشيخ عبد الله دراز فى النبأ العظيم، وتفسير التحريـر والتنويـر لابن عاشور، وتفسير سعيد حوى في " الأساس" وتفسير الشـيخ شـلتوت شيخ الجامع الأزهر في الأجزاء العشرة الأولى للقرآن وكذلك محاولات الشيخ محمد الغزالى فى كتابه (محاولات التفسير الموضوعى) .وغير ذلـك مـن التفاسير التي اهتمت بموضوعية السورة الواحدة. وتفسير في ظلال القرآن لسيد قطب.

النوع السادس

النوع الأشهر من التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي المبني على جملة القرآن الكريم

أولاً: هذا النوع هو أشهر أنواع التفسير الموضوعي، بحيث إذا أطلق فإنه هو المتبادر إلى الذهن وذلك هو التفسير الذي يتأسس على اختيار موضوع بذاته ثم يتم البحث عنه في كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره على أن يشمل البحث المصطلحات القرآنية التي يرتكز عليها هذا الموضوع، وغيرها من المصطلحات الأخرى القريبة والبعيدة منها، وكذلك السور المختلفة التي يتوجه مسارها حول الموضوع المختار، بحيث ينتهي الباحث إلى الحصول على صورة شاملة لموضوعه نابعة من جملة كتاب الله تعالىٰ، وقد اشتهر هذا النوع جداً وكثرت فيه التصنيفات المعاصرة، وذلك مثل:

- المرأة في القرآن — عباس محمود العقاد.
- دستور الأخلاق في القرآن — عبد الله دراز.
- الوحي المحمدي (حول مقاصد القرآن) — محمد رشيد رضا.
- الانسان في القرآن — عباس محمود العقاد.
- التصوير الفني في القرآن — سيد قطب.

- سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن محمد عزت دروزة.
- القرآن والقتال الشيخ محمد شلتوت.
- التربية في القرآن الكريم محمد شديد.
- الصبر في القرآن د. يوسف القرضاوي.

وغيـــر ذلـــك كثيـــر جداً، وإنما أدى إلى ذلك الحاجة الشديدة إلى عرض موضـــوعات القرآن عرضاً مركزاً وموجهاً لرد الشبهات الكثيرة التي يروجها أعداء الاسلام، أو إبراز جوانب إعجاز القرآن، أو تجلية مظاهرالهداية القرآنية المتشعبة في كل مجالات الحياة.

ثانـــياً: هذا النوع من أقدم أنواع التفسير الموضوعي من جهة البحث عن بداياتـــه الأولى، وكما رأينا في غيره من أصناف التفسير الموضوعي، فإنها لا تخلـــو مـــن بدايات عند سلف الأمة، وإن كانت غير ناضجة ولا متكاملة على ماهي عليه اليوم.

وقد عد الباحثون في مسائل التفسير الموضوعي كل ما صنفه الأولون من مصنفاتهم المتعلقة بأي ارتباط بين الآيات القرآنية في أنحاء الكتاب، وتحت أي مســـمى أنها محاولات بسيطة من محاولات التفسير الموضوعي المتعلق بجملة الكـــتاب، نظراً لاندراجها تحت المسمى العام له، ألا وهو عدم الالتزام بترتيب الآيات بحسب رسمها في المصحف الشريف.

ولســوف نأتــي – إن شاء الله – على ذكر هذه المحاولات وأصنافها في موضعها.

ثالــثاً: عــندنا أن التفسير الموضوعي لجملة القرآن الكريم مصرح به في كــتاب الله تعالــى، وبــنفس الوضــوح الذي برز فيما عرضناه حول التفسير الموضوعي الخاص بسورة واحدة من سوره وبيان ذلك مايلي:

الأصول الشرعية للتفسير الموضوعي من جملة القرآن

اعلم أن التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بصورته وهيئته ومنهاجه الحالي في العصر الراهن، إنما هو ضرب حادث من التفسير ليس له نظير في كتابات الأولين إلا من بعض الوجوه والتي تستخلص بالنظر والقياس، على أن الأقدمين لم تتوجه أنظارهم إلى مثل هذا الصنف من التفسير أصلاً. وشأن كل حادث من العلوم الشرعية عند المحققين من العلماء هو التوقف حتى تتبين الحجة الشرعية، والمستند المعتبر على جوازه، ومهما بدا عند العقل نافعاً أو لازماً ذلك أن العقل ليس بشارع، وإنما تؤخذ الحجة من الشرع الواضح كالكتاب والسنة والإجماع، أو القياس الواضح المبني على أصوله الشرعية. ولا يهولنك قول قائل أن الحاجة صارت ملحة وحتمية لأمثال هذا التفسير أو أن العصر الذي نحياه لا يصلح إلا ذلك مستندين إلى الواقع والحالة الراهنة التي يجتازها الإسلام في زمن هذه الفتنة العمياء الصماء بعلو أعدائه وانكسار أوليائه. ألم تر أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أبر هذه الأمة أفئدة وأتقاها قلوباً، قد توقفوا عندما رأوا عزم أبي بكر الصديق على حرب المرتدين، مع علمهم بمنزلة أبي بكر من دين الإسلام، ومع ظهور الفتنة، ومع وجود الداعي الملزم، وما ذاك إلا لمنهاجهم القويم في رد أي محدث إلى الشرع فإن وجدوا مستندا منه مضوا بعزائم لا تكل، وإلا توقفوا، فكانوا على أبين طريق. فلما سرد أبو بكر الحجج تباعاً وانشرحت صدورهم إلى ما فيها من الحق، سلكوا دون تردد وهم على صراط مستقيم.

وأظهر منه توقف أبي بكر الصديق نفسه عندما أمره عمر بن الخطاب بجمع المصحف حفاظاً عليه، وهو رأي معقول جداً ونفعه لا يختلف فيه، والحاجة إليه ماسة بعد موت القراء في حروب الردة، والعزائم والقدرة على تنفيذه ما فيه إذ لم يكن أحد أعظم من الصحابة عزيمة في مواطن الحق. ومع ذلك وقف أبو بكر متعجباً وهو يقول: "كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم" ومثله زيد بن ثابت الذي كلف بهذه المهمة فإنه أول ما خوطب بذلك قال: "كيف تفعلان أمراً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم" وما زال الثلاثة في تدبر عميق ونظر طويل حتى انتهوا إلى الحجة الشرعية التي سوغت لأبي بكر القيام بهذا العمل الجليل الذي كان حدثاً حاسماً في تاريخ الإسلام بأجمعه.

يروي البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة أي عقب استشهاد القراء السبعين في واقعة اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضي الله عنه إن عمر أتاني فقال إن القتل قد أستحر أي اشتد يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله قال عمر هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن فأجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان

أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) ٩ التوبة ١٢٨ حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر. ا هـ

والمقصود أن ظهور النفع الشرعي وتوفر الدواعي لأي عمل إسلامي حادث ليست حججاً معتبرة شرعاً لتسويغه وإجازته، حتى يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله وهما المصدر الأصيل لكل تشريع إلى قيام الساعة، وهما المرتكز الأوحد للمنع والإباحة والتحليل والتحريم. ومن هنا لزم عرض التفسير الموضوعي على هيئته التي اختطها له العلماء المعاصرون على الكتاب والسنة وعلماء السلف قبل الخوض في تطبيقاته والاندفاع في مجالاته لمعرفة الأصول الشرعية التي استند إليها وانبنى عليها، امتثالاً لأمر الله تعالى إذ يقول: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر". وامتثالاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي"

واقتداء بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومنهجهم الرشيد الذي آتيناك

منه ذكراً. ودخولاً في زمرة علماء الإسلام الذين لا تجتمع قلوبهم على شرود أو ضلالة.

سائلين الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا، وينير بالحق قلوبنا ويهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه انه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم آمين.

* * * * *

أولاً: أدلة القرآن على مشروعية التفسير الموضوعي من جملة القرآن

بمراجعة النص القرآني الكريم تبين أن الله عز وجل قد أمر صريحاً بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم كمنهج حتمي لبلوغ كبار المقاصد القرآنية، وأصول الأغراض الربانية، ذلك أنه -عز وجل- قد علق الغايات التي قررها على عباده على إلزامهم بالنظر الموضوعي في كتابه ضرورة لبلوغ تلك الغايات العقائدية، كذلك ظهر باستجلاء النصوص القرآنية توجيهها بشكل صريح أو هو كالتصريح إلى الأنواع المختلفة من التفسير الموضوعي وخاصة الرئيسية منها على ما نبينه إن شاء الله تعالى.

أولاً: دليل التفسير الموضوعي بالنظر في القرآن كاملاً.

الدليل الأول:

يقول الله تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"محمد

"أفلا يتدبرون القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً"النساء٨٢.

والدليل من الآيات هو أنها بدأت باستفهام استنكاري يفيد وجوب التدبر في القرآن وذم من لم يفعله. ثم ذكر "القرآن" بما يفيد أن المقصود هو الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من أوله إلى آخره، فالمقصود الشرعي ها هنا هو إيجاب استقراء القرآن من أوله إلى آخره وتدبره للوصول إلى غاية شرعية حددها الله سبحانه وتعالى: ألا وهي استقرار اليقين الراسخ في القلب بأنه كتاب حق محض لا ريب فيه منزل من الله عز. وأما الوسيلة التي يتم بها هذا اليقين فهي التحقق من انعدام الاختلاف والتضارب والاضطراب لفظاً أو معنى في أي جزء من هذا الكتاب أو فيه كله مما يقطع بالمطلوب الشرعي ألا وهو أنه من عند الله. كذلك في الآية وصف لمناهج وعلوم البشر بأنها لا تخلو من التناقض والاختلاف وخاصة إذا طالت وتشعبت وتوسعت، فتبين مما سبق أمور:

١. وجوب تدبر القرآن من أوله إلى آخره واستقرائه للوصول إلى بعض الغايات الشرعية.

٢. الأقتصـــار على "موضوع" واحد في هذا الاستقراء للآيات كاملة ألا وهو إثبات تماسك الآيات وانسجامها وانعدام الاختلاف والاضطراب عنها.

٣. الوصول إلى الهدف من هذه الدراسة والنظر العميق ألا وهو ثبوت أن القرآن من عند الله دون شك أو تردد.

٤. المقارنة إن أمكن بكتب البشر لزيادة اليقين عند اكتشاف كثرة الخلاف والتضارب فيها.

فتحددت سمات نوعين من أشهر أنواع التفاسير المعاصرة ألا وهما:

أ. التفســير الموضوعي من القرآن بكامله: وهو عبارة عن النظر العميق في كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره بشأن موضوع واحد محدد سلفاً للوصول إلى الأهداف والغايات القرآنية فيه على هيئتها في كتاب الله عز وجل.

ب. التفســير المقارن: وهو التفسير القائم على المقارنة بين مذهب القرآن الكريم في مسألة بعينها تناولها القرآن وتناولها غيره وعقد المقارنة لإثبات كمال المذهب الإلهي وجماله وتمامه بالمقارنة بغيره من المذاهب الوضعية (أحد أنواع التفسير المقارن).

فهــذا الدليل هو أمر صريح بالنظر الموضوعي في كتاب الله على منهاج محدد لبلوغ غاية محددة وما ذاك إلا التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

يؤيد ما ذكرنا أقوال المفسرين في الآية المذكورة:

- قــال الطبري: "أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول يا محمد كتاب الله،

فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، أن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم، لا تساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضـــاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض"[1]

- وقـــال القرطبي: "دلت هذه الآية على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه. فكان في هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا مـــا ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنع أن يتأول على ما يسوغه لســـان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد وفيه دليل على إثبات القياس"[2]

- وقال الشوكاني: "إنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفا غير مختلف، صحيح المعاني، قوي المباني، بالغاً في البلاغة أعلى درجاتها"[3]

- وقال الزمخشري: "تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه (لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً قد تفاوت نظمه وبلاغته

---

(١) جامـــع البـــيان في تأويل القرآن- مجلد٤- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٢- ١٩٩٢- صـــ١٨٢ (ابن جرير الطبري)

(٢) الجامع لأحكام القرآن – لأبي عبد الله القرطبي- مجلد٣ – دار الحديث- القاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٤-١٩٩٤- صـــ٢٩٠.

(٣) فـــتح القديـــر – محمد بن علي الشوكاني- المجلد الأول- دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت- ١٤٠٣-١٩٨٣-صـــ٤٩١.

ومعانـــيه، فكـــان بعضه بالغاً حد الإعجاز، وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته، وبعضه إخباراً بالغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفاً للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء وتناصر صحة معان وصدق أخبار، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره، عالم بما لا يعلمه أحد سواه"[1]

قلت: وعامة المفسرين يدورون حول المعاني المذكورة، وهو تصريح من العلمـــاء بوجـــوب البحث الموضوعي في كتاب الله تعالى بكامله عن قضية أو مســـألة بعيـــنها، وهي ها هنا إثبات سلامة الكتاب من التناقض والاختلاف وبه إثـــبات أنـــه مـــن عـــند الله. ولا يخفاك أن معرفة "شهادة بعض الكتاب لبعض بالتحقـــيق وتأيـــيده بالتصديق" على ما قاله الطبري لا يتم إلا بمطالعة الأبعاض ومقارنتها ورد بعضها لبعض للتحقق من ذلك وهذا هو البحث الموضوعي. وأن معرفة أن أبعاضه جميعها "موافقة للمخبر عنه، وكلها صحيحة المعاني"على ما قاله الزمخشري، لا يتيسر معرفة ذلك إلى باستقراء القرآن كاملاً لمعرفته. ومن ثم اليقين بأنه من عند الله، وهذا هو منهج التفسير الموضوعي.

وأن وجـــوب التدبـــر فريضة من الله لمعرفة المطلوب من كتاب الله، وإبطال التقلـــيد وإثبات القياس، وإثبات التأويل على ما يسوغه لسان العرب، والأمر بالنظر والاستدلال كلها خصائص وشروط التفسير الموضوعي (على ما قاله القرطبي).

---

(١) الكشاف – الزمخشري- دار الكتاب العربي- الجزء الأول – صـــ٥٤٠.

فثبت بما أوردناه ما أردناه من أن الآية كالنص في وجوب التفسير الموضوعي بوسائله ومنهجه وأهدافه، لا سيما إذا دعت الضرورة إلى ذلك كذيوع دعاوي المشككين في حجية كتاب الله وقوامة طريقته وغيرها من أسباب إيجاب هذا النوع من التفسير إذ به تتحقق المقاصد القرآنية وتستقر العقائد الإسلامية وتكون الحجة البالغة لله على الناس "لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً".

****

الدليل الثاني

يقول الله سبحانه وتعالى: "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هـن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابـتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب" آل عمران.

وشهادة الآية على مشروعية التفسير الموضوعي للقرآن الكريم تتبين من أمور:

أولاً: أن الله عـز وجل قرر أن القرآن يشتمل على آيات محكمات وآيات أخر متشابهات.

ثانـياً: أن الـذين فـي قلوبهم مرض يستقرئون القرآن بحثاً وراء الآيات المتشـابهات ابـتغاء الفتـنة أو تأويلها بينما لا يعلم ذلك إلا الله عز وجل.

ثالـثاً: أن الراسخين في العلم يستقرأون القرآن فإذا وقعوا على المحكمات صدقوا بها وإذا وجدوا المتشابهات ردوها إلى المحكمات وقالوا (آمنا به كل من عند ربنا).

فتبين مما سبق مسائل.:

أولهـا: أنه لا يمكن معرفة الآيات بأصنافها المذكورة إلا بمطالعة الكتاب كاملاً وخاصة فيما يتعلق بالمسائل المشكلة.

ثانـــيها: أن الله تعالـــى ما ذم هذه المطالعة للكتاب إذ قرر أنه سيقوم بها الراسخون في العلم وكذلك الذين في قلوبهم زيغ، فدل عدم الذم على جوازها.

ثالـــثها: أن وصـــف المطالعـــين للآيات كلها ثم الانتهاء إلى التصديق بها جميعها على رغم وجود المتشابهات بأنهم الراسخون في العلم، دال على أن منهاج البحث في القرآن حول هذه الموضوعات، هو منهاج ممـــدوح من الله تعالى وأدنى درجات المدح هي الاستحباب إرتفاعاً إلى الوجوب.

رابعهـــا: أن المسألة ها هنا تتعلق بموضوع بذاته لا يتعدى إلى غيره ألا وهو (المحكمات والمتشابهات من الآيات) فهو بحث في جميع القرآن يتعلق "بموضوع معين" وهذا هو البحث الموضوعي.

خامســـها: أن الآيات أثبتت نتائج نهائية لهذا الاستقراء الطويل في القرآن بالنسبة للذين في قلوبهم زيغ وللراسخين في العلم، فالأولون مفتونون ضالون، والآخرون على صراط مستقيم.

سادســـها: أن هذه النتائج منبنية على أسلوب كل طائفة في تناول البحث، فالـــذين فـــي قلـــوبهم زيغ يتبعون أهواءهم ثم يدخلون إلى الكتاب بالرأي الشخصي فيضلون، والراسخون في العلم يبحثون استناداً إلى المقاصـــد القرآنية والطريقة الربانية فينتهون إلى السلامة في الدنيا والآخرة.

سابعها: أن ما سبق هو ذم للتفسير الموضوعي المنحرف النابع من الهوى

والمـــؤدي إلـــى ليّ أعناق الآيات لخدمة الأهواء والمذاهب الهدامة، وهو مدح للتفسير الموضوعي النابع من الأصول الشرعية والأسس القـــرآنية والمـــؤدي إلى الكشف عن جواهر القرآن ومقاصد الشرع القويم.

ثامـــنها: خلاصـــة ما سبق أن الآية هي كالنص في استحباب أو وجوب التفســـير الموضـــوعي والبحث الموضوعي في كتاب الله كله (وهذا واحـــد من أظهر أصناف التفسير الموضوعي) وأنها مفرقة بدقة بين أســـاليب المفسرين الموضوعيين بين طائفة منحرفة وطائفة مهتدية، وهـــو ما توصل إليه العلماء سلفاً وخلفاً حيث صنفوا المفسرين إلى هذين الصنفين قديماً وحديثاً. والحمد لله رب العالمين.

وأقوال السادة العلماء دالة على ما بيناه

- قال أبو السعود: "قيل إن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألست تزعم يا محمد أن عيسى كلمة الله وروحه قال عليه السلام: بلى، قالوا: فحسبنا ذلك. فنعى عليهم زيغهم وفتنتهم، وبين أن الكتاب مؤسس على أصول رصينة وفروع مبنية عليها ناطقة بالحق قاضية ببطلان ما هم عليه من الضلال"
- قال: "ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق"
- "وإنما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبرها وتحصيل العلوم التي نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج مقاصدها الرائقة ومعانيها اللائقة المدارج العالية، ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان إلى المعارج القاصية"(١)
- قال الشوكاني: "وقيل: المحكم ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره،.والمتشابه: ما يرجع فيه إلى غيره. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات"(٢)
- وقال ابن كثير: "فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابه فقد اهتدى، ومن عكس انعكس"

---

(١) تفسير العلامة أبي السعود – المجلد الأول– إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية – صـ٤٤٠.

(٢) فتح القدير –الشوكاني– المجلد الأول– صـ٣١٤ (مرجع سابق)

- قال في أهل الزيغ: "كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) وبقوله: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله عبد ورسول من رسل الله"(١)

- قال القرطبي: "فإن تسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب. وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع. لكن المتشابه يتنوع" "وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة ومناح في كلام العرب، فيتأول ويعلم تأويله المستقيم، ويزال ما فيه مما عسى أن يتعلق من تأويل غير مستقيم كقوله تعالى في عيسى (وروح منه) إلى غير ذلك"، "وأما من يقول إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الراسخين في علم التأويل، لكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح"(٢)

فمما تقدم ترى أن "أبا السعود" قد استشهد بسبب نزول الآية وهو جدال النصارى للنبي في شأن عيسى عليه السلام، على ضرورة جمع الآيات الدالة على الموضوع لزاماً للخروج بالفهم الصحيح وأن الاجتزاء والاقتصار على

---

(١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير– المجلد الأول– دار السلام – الرياض ١٤١٣-١٩٩٢م– ص ٣٧٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي– المجلد ٤٨– دار الحديث – القاهرة ١٤١٤-١٩٩٤– صـ٢٢

بعضـــها مـــؤد لأوخم العواقب وأضل الأفكار، وقد فصل ابن كثير هذا المنهج بالاستشـــهاد بالآيات التي أشار إليها ابن مسعود. وهو منهج موضوعي صرف يـــتعلق بمسألة بعينها وجمع الآيات الدالة عليها في أطراف المصحف والانتهاء إلى غاية ومقصد قرآني.

وزاد القرطبـــي بـــأن هذه الخطة الرشيدة في بحث القرآن موضوعياً إنما صفة لازمة من صفات الراسخين في العلم من العلماء. ثم أجمعوا أن ذلك يكون بـــرد المختلف فيه والمتشابه إلى المحكم الذي هو عمدة الكتاب، وأن من الآيات ما لا يمكن فهمها إلا بإرجاعها إلى غيرها من نفس موضوعها في الكتاب، وهو مـــا رجحه النحاس، وتواتر عليه العلماء الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم، وإن العلمـــاء يتفاضلون بأعمال قرائحهم في هذا المضمار من التوفيق بين متفرقات الآيـــات في ذات الموضوعات، وهو التفسير الموضوعي بحذافيره دون مراء، فاعلمه.

****

الدليل الثالث

قــول الله تعالى: "ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً" النساء ١٦٤.

وقــوله تعالـــى: "وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"النحل١١٨.

وقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد" المائدة١.

فالآيات المذكورة وأمثالها دليل صريح على أمور:

الأول: أن الموضـــوع الواحد لا يأتي في موضع واحد من القرآن، بل في مواضـــع متفـــرقة وهذا معلوم ومقرر وفي غاية الظهور باستقراء القـــرآن، غيـــر أن الآيات ها هنا مصرحة به حيث يقول الله تعالى "قصصناهم عليك من قبل" "حرمنا ما قصصنا عليك من قبل" أي في موضع آخر من هذا الكتاب، وهو ظاهر.

الثاني: ينبني على ذلك أن من أراد أن يفهم موضوعاً بكامله فعليه الرجوع إلـــى المواضـــع التي يكون فيها في أنحاء الكتاب لمعرفة الجوانب المختلفة منه وليخرج بالأحكام الصحيحة، خاصة بعد تصريح القرآن نفسه له بأنه كذلك.

الـــثالث: مـــا التفســـير الموضوعي إلا الاستجابة لهذا التوجيه من القرآن

بالـــبحث على بقية المسألة في مواضع أخرى لتجتمع الفكرة ويستقيم الحكم وتستقر المعاني.

الـــرابع: مـــن غير هذا المنهج البحثى في جنبات كتاب الله تعالى كله عن المســـائل المذكـــورة سيســـتحيل فهم الكتاب ولا الموضوع المعين المذكور في كل آية من المثال السابق.

الخامس: لما كان فهم القرآن ضرورة شرعية، كان المنهج الذي يمكن من ذلك ضرورة شرعية فثبت به وجوب التفسير الموضوعي حيث أنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وكلام العلماء معضد لما ذهبنا إليه وبيانه:

أولاً: الآية الأولى:

* قـــال الطبري: "وقد يحتمل أن يكون نصب الرسل لتعلق الواو بالفعل، بمعنـــى وقصصـــنا رسلاً عليك من قبل، كما قال جل ثناؤه (يدخل من يشاء في رحمـــته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً)الإنسان٣١. وقد ذكر أن ذلك في قراءة أبي (ورسلٌ قد قصصناهم عليك من قبل ورسل لم نقصصهم عليك" فرفع ذلك إذ قرئ كذلك بعائد الذكر في قوله (قصصناهم عليك) أ.هـــ[1].

* وقـــال الشـــوكاني: "وقـــيل هو منصوب بفعل دل عليه قصصناهم أي وقصصنا رسلاً. وقرأ أبي (رسلٌ) بالرفع على تقدير، ومنهم رسل. ومعنى (من

(١) جامع البيان ــ ابن جرير الطبرى ــ سورة النساء ــ مرجع سابق

قبل) أنه قصهم عليه من قبل هذه السورة أو من قبل هذا اليوم"انتهى[1]

* وقال ابن كثير: "أي من قبل هذه الآية يعني في السور المكية وغيرها، وهـذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسـى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم" انتهى[2]

قلـت: وقد دارت أقوال المفسرين حول ما ذكرنا، وبيان المقصود منه في غايـة الظهـور، ألا وهـو أن الله تعالى يبين أنه قد قص الأنبياء من قبل هذه السـورة في سور أخرى سابقة مكية أو بالوحي القرآني السابق لهذا الوحي في سـور سابقة، ومعناه أن موضوع أسماء الرسل وعدتهم يتقرر بالرجوع إلى ما سبق من القرآن المكي وغيره، وهو تفسير موضوعي.

وتأمـل كـيف بحث إبن كثير المسألة موضوعياً وجمع أسماء الرسل من سائل سور القرآن في مكان واحد تنفيذاً للتوجيه الرباني في هذه الآية، وما فعله إن كثيـر هو بحث موضوعي تفسيري حول موضوع بذاته خاص بعدة الرسل وأسمائهم في كتاب الله وأن سيدهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وهو دليل على أن العلماء قد حققوا المسألة بذاتها عندما دعت الحاجة لتفسيرها موضوعياً. نعم

(١) فتح القدير ــ الشوكاني ــ مرجع سابق

(٢) تفسير القرآن العظيم ــ ابن كثير ــ مرجع سابق

لـم يسمه ابن كثير تفسيراً موضوعياً ولكنه سلك المنهج الموضوعي دون أدنى حرج كما قد رأيت فتأمله.

ثانياً: الآية الثانية:

* قـال ابن جرير الطبري: "يقول تعالى ذكره: وحرمنا من قبلك يا محمد علـى الـيهود ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام وذاك كل ذي ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم (وما ظلمناهم) بتحريمنا ذلك عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فجزيناهم ذلك ببغيهم على ربهم، وظلمهم أنفسهم بمعصية الله، فأوردهم ذلك عقوبة الله"[1] قال به الحسن وعكرمة وقتادة.

* قال ابن كثير: "وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل" أي فـي سورة الأنعام في قوله: "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغـنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها.. إلى قوله وإنا لصادقون" ولهـذا قـال هـا هـنا (ما ظلمناهم) أي فيما ضيقنا عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمـون) أي فاستحقوا ذلك كقوله: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً)انتهى.

وكل المفسرين على ما ذكرنا.

وبـيانه أن القـرآن في شأن موضوع المحرمات من المأكولات على بني

(١) جامع البيان ــ للبطبرى ــ مرجع سابق

إســرائيل أحال إلى سورة أخرى وهي سورة الأنعام بما يستوجب جمع ما ورد فيها من أحكام خاصة بالمسألة وضمها إلى ما ورد هاهنا

فتمت القضية على أمرين:

أولاً: تحريم ما ذكر الله على بني إسرائيل في سورة الأنعام وفيها تفاصيل ذلك، ثم ختمت الآية هنالك بقوله (وإنا لصادقون) لإثبات كذب بني إسرائيل إذا أنكروا ذلك.

الثانــي: إعــادة ذكــر الموضوع في سورة النحل وختم الآية بقوله (وما ظلمــناهم) لتأكيد أنهم هم السبب في ذلك التحريم بكثرة عصيانهم، وهو ما ذكر في سورة النساء في قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا..) الآية.

إذن الموضــوع قد تكامل عن طريق البحث في ثلاث سور هي الأنعام – النحل– النساء للوصول إلى النتيجة التامة البينة. وذلك بالتوجيه الصريح للقرآن لاتباع هذا المنهج الموضوعي عبر القرآن للوصول إلى الغايات القرآنية.

والمفسرون الذين ذكرناهم كلهم وغيرهم قد فهموا منهج القرآن فقاموا دون اســتثناء باستحضار الآيات من أماكنها إلى هنا لتجلية المطلوب القرآني، وهو التفسير الموضوعي فاعلمه.

ثالثاً: الآية الثالثة:

* قــال ابــن كثير: "(إلا ما يتلى عليكم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير، وقال قتادة: يعني بذلك الميتة وما

لـم يذكـر اسم الله عليه، الظاهر والله أعلم أن المراد بذلك قوله (حرمت عليكم الميـتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطـيحة ومـا أكل السبع) فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا قال تعالى: (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أي إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال"انتهى.

* وقـال أبـو السـعود: "أي أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانـية المعـدودة في سورة الأنعام وألحق بها الظباء وبقر الوحش ونحوهم، وقيل هـي المـرادة بالبهيمة هنا لتقدم بيان حل الأنعام، والإضافة لما بينهما من المشابهة" "كأنه قيل أحلت لكم البهيمة الشبيهة بالأنعام التي بين إحلالها فيما سبق"

"إلا ما يتلى عليكم" استثناء من بهيمة، أي إلا محرم ما يتلى عليكم من قوله تعالى: "حرمت عليكم الميتة" ونحو" انتهى.

* قـال الشوكاني: "والمتلو هو ما نص الله على تحريمه، نحو قوله تعالى (حـرمت علـيكم الميتة)، ويلحق به ما صرحت السنة بتحريمه، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون المراد به إلا ما يتلى عليكم الآن ويحتمل أن يكون المراد به في مستقبل الزمان"انتهى.

قلت: وحول هذه المعاني دارت أقوال المفسرين.

ودلالـتها على جواز التفسير الموضوعي ووجوبه إذا دعت الضرورة لذلك، ظاهـرة، ففي هذه الآيات تقرير قرآني آخر بأن الموضوع إنما يستوفي تباعاً في

كـتاب الله، وها هنا في قوله (إلا ما يتلى عليكم) أي سيتلى عليكم، وأن الموضوع لا يسـتوفي إلا بـتمام الكلام في ذات الموضوع وهو آت فارتقبوه. وتأمل رجوع المفسـرين إلى سورة الأنعام طلباً لمعرفة الأنعام التي أحلت، ثم بحثهم وراء الآية لمعـرفة تفاصيل الأنعام المستثناة من التحليل واختلفوا حول ما إذا كانت في سورة المائـدة أو في سورة الأنعام أيضاً. وكلها بحوث في جملة الكتاب لاستيفاء أطراف المسـألة. والمهم ها هنا هو تصريح القرآن عن طريق تجزئة الحكم وتأجيل البقية والإشارة إلى ما تقدم في سورة أخرى فهو توجيه بيّن إلى البحث الموضوعي حول هـذه المسألة الهامة من الحلال والحرام، ودليل بيّن لمشروعية البحث الموضوعي والتفسـير الموضوعي أظهرت ملامحه تفاسير العلماء حول حقيقة شرعية بذاتها. وهو النوع الأشهر للتفسير الموضوعي أي في الكتاب بكامله.

* * * * *

الدليل الرابع

قول الله تعالى: "ما فرطنا في الكتاب من شيء" الأنعام

وقوله تعالى: "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً" الفرقان

وقوله تعالى: "ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فإني أكثر الناس إلا كفوراً" الإسراء.

وقوله تعالى: "ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء"النحل

ويدور معنى الآيات المذكورة ها هنا على أن هذا الكتاب حوى كل علم دنيوي وأخروي فيه مصلحة ومنفعة للمسلمين، وبعض المفسرين قالوا أن "تبيان كل شيء" إنما يعني العلوم الشرعية فقط، وبتسليم ذلك فإن العلوم الشرعية تتوسع لتحيط بحياة المسلم بأسرها وسواء كان فرداً أو جماعة أو قبيلة أو أمة، بما في ذلك الأهداف والعقائد والوسائل وأدوات المدافعة وغيرها مما لا غنى لفرد أو أسرة أو مجتمع أو أمة، وإن إشارة القرآن إلى الكائنات لفتت أنظار المفسرين من قديم، وأيضاً المواعظ النفسية والاجتماعية، وكلها "موضوعات" يتناولها الكتاب العزيز بطريقته الفذة والتي قررها مراراً وأوردنا الأدلة القرآنية عليها، ألا وهي تفريق عناصر الموضوع في جنبات القرآن، فإذا أردنا الوقوف على كل مسألة من "كل شيء" ورد في كتاب الله فلا غنى عن استجماع أطراف الأدلة من الآيات في الكتاب من أوله إلى آخره، ومن غير ذلك يكون من المستحيل التحقق من معنى الآيات في هذا الدليل، ورسوخ اليقين به إلا بلزوم المنهج الذي وجه إليه القرآن مراراً ألا وهو البحث الموضوعي. ولسوف نورد أقوال العلماء في ذلك إن شاء الله في موضعه، فلا نطيل أذيال الكلام ها هنا.

وحسبنا إظهار هذه القضية في كتاب الله تعالى وبنص الكتاب أنه يشتمل على ما لا يحصى من العلوم والأمثال والموضوعات التي تستلزم ضرورة جهداً متواصلاً عبر الأجيال الكثيرة للكشف عن جواهرها، وتجلية مكنوناتها بكل أشكال التفسير سواء بالتحليل أو بجمع أطراف الموضوع وهو التفسير الموضوعي، وهو هنا واجب باللزوم والاقتضاء، فتصريح القرآن باشتماله على العلوم ملزوم تدبرها وبحثها وهو منصوص عليه في الكتاب، فإذا استقر الحق في الملزوم فاللازم مثله على ما قرره أهل الأصول فتدبر.

• • • • •

النبي صلى الله عليه وسلم يفسر موضوعياً

وكـــذلك فسر النبي صلى الله عليه وسلم القرآن بضم الآيات المتفرقة في ذات الموضوع وذلك فيما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم..) الأنعام ٨٢، شق ذلك على الناس، فقالوا: يارسول الله وأينا لم يظلم نفسه، قال " إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) لقمان ١٣، إنما هو الشرك "

روى الـــبخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر مفاتح الغيب في قـــوله تعالـــى: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الأنعام ٥٩ فقال (مفاتح الغيب خمس: " إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام، وما تـــدري نفس ما ذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت. إن الله عليم خبير " لقمان ٣٤.

فالنبـــي صلى الله عليه وسلم في هذين الموضعين وغيرهما ضم آيات من جـــوانب الكتاب لتتمم صورة كاملة وحكم نهائي دون التقيد بترتيب المصحف، وهـــي سنة في مشروعية التفسير بالموضوع حيث أن كل مسألة من المسألتين المذكورتـــين تعـــد موضوعاً طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم تشريع فاصل فيه، ففصل النبي صلى الله عليه وسلم عند التفسير ما قد علمت.

تفسير موضوعي لإبن عباس

وعلى هذا النهج أيضاً سلك الصحابة وعلى رأسهم ابن عباس حيث انتهت إليه رئاسة التفسير في الصحابة رضوان الله عليهم، ومثال ذلك مارواه البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ:

فقد قال الله: (فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون) المؤمنون ١٠١، وقال الله: (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) الصافات ٥٠، وقال تعالى (ولا يكتمون حديثاً) النساء ٤٢، وقال الله: (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) الأنعام ٢٣ فقد كتموا في هذه الآية.

وقال الله: (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها) النازعات ٢٧-٣٠ فذكر خلق السماء قبل الأرض، وقال الله (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين.ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا أتينا طائعين) فصلت ٩-١١

فذكر هنا خلق الأرض قبل خلق السماء.

وقال الله: (وكان الله غفوراً رحيماً) النساء ١٣٤. وقال الله: (وكان الله عزيزاً حكيماً) النساء ١٥٨ وقال الله:٠(وكان الله سميعاً بصيراً) النساء ١٣٤. فكأنه كان هكذا ثم مضى.

جواب ابن عباس

فقال ابن عباس:

قوله: (فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون) في النفخة الأولى. وقوله (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) في النفخة الثانية.

وفي الثانية:فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، عند ذلك يقول المشركون: تعالوا نقول: (والله ربنا ما كنا مشركين) فيختم الله على أفواههم، وتنطق أيديهم. عند ذلك يعرفون أن الله لا يكتم حديثاً، وهذا قوله (ولا يكتمون الله حديثاً).

وخلق الله الأرض في يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع في يومين آخرين ثم دحا الأرض، ودحوها بأن أخرج منها الماء والمرعى،وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين. فذلك قوله: (والأرض بعد ذلك دحاها) وقوله: (خلق الأرض في يومين) فجعلت الأرض وما فيها في أربعة أيام، وخلقت السماوات في يومين وقوله: (وكان الله غفوراً رحيماً) إن الله سمى نفسه بذلك، وذلك قوله، وهو لم يزل كذلك. فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد.

فلا يختلف عليك القرآن فإنه كل من عند الله. "

فهذ ابن عباس يصل إلى حل للمعضلات التي اعترضت بعض العقول عند تفسير بعض الآيات، فردها إلى أشباهها في كتاب الله وفسر بالموضوع كله بما أدى إلى انكشاف الغمة، وظهور الحق. وهذه بلا شك بدايات قوية للتفسير الموضوعي، تدل على أنه برغم اكتماله وتشعبه وتفصيلاته المعاصرة، إلا أنه له من واقع السلف الصالح ما قد تبين لك فتأمله.

العلماء الأولون يصنفون موضوعياً

لقد أحس العلماء قديماً بهذا الترابط بين الآيات في الموضوعات المختلفات فلم يألوا جهدا فى إبراز ذلك في المصنفات بحسب الموضوعات، وهي إن كانت بسيطة لا تفصيل فيها إلا أنها برهان آخر على مشروعية هذا النوع من التفسير وعلى قبوله عند سلفنا الصالح رضوان الله عليهم.

ومن ذلك مثلاً:

ما كتبه قتادة بن دعامة السدومي حول " الناسخ والمنسوخ في القرآن " وذلك في وقت مبكر جداً أي حوالى عام (١١٨ هـ) ومثله ألف أبو عبيد القاسم بن سلام في الناسخ والمنسوخ كذلك. أما أبوعبيدة معمر بن المثنى (٢٠٩هـ) فقد ألف مصنفاً في (مجاز القرآن). والسجستاني (٣٣٠هـ) في غريب القرآن). والجصاص الحنفي (٣٧٠هـ) في (أحكام القرآن). والكيا الهراسى (٥٠٤هـ) في أحكام القرآن كذلك. وابن الولي المالكي (٥٤٣هـ) في (أحكام القرآن)، والعز بن عبد السلام (٦٦٠هـ) في مجاز القرآن) وابن القيم (٧٥١هـ) في أقسام القرآن) وغير ذلك كثير. وتأمل كيف أفرد كل منهم موضوعاً بذاته بحثه عبر كتاب الله تعالى وجمع أطراف أدلته من الآيات المتفرقات دون التزام بترتيب المصحف، بل الالتزام بموضوع البحث، الموضوعات الكثيرة التي أوردناها. وما ذاك إلا التفسير الموضوعي. وإن كانت تفاصيله وتأصيلاته وتوزيعاته بعد لم تكتمل، وهو نافع فافهمه.

****

الباب الثالث

جنود فى نفير العلم

التفسير الموضوعى بحسب منهج المفسر وعمله فى التفسير

الفصل الأول

التفسير الموضوعى البيانى
ربيع المعانى وروعة المبانى

التفسير الموضوعى البيانى

"لا يتعظ الإنسان بالقرآن فتطمئن نفسه بوعده وتخشع لوعيده إلا إذا عرف معانيه وذاق حلاوة أساليبه. ولا يأتي هذا إلا بمزاولة الكلام العربي البليغ مع النظر في بعض النحو، كنحو ابن هشام وبعض فنون البلاغة كبلاغة عبد القاهر وبعد ذلك يكون له ذوق في فهم اللغة يؤهله لفهم القرآن"[1].

بهذه العبارات البليغة الرنانة التى نقلها السيد رشيد رضا عن أستاذه محمد عبده كانت البدايات الأولى والمخاض المبكر لما عرف فيما بعد بالتفسير الموضوعى البيانى الكريم بالصورة المعاصرة[2]، إنها الشرارة الأولى التى مس حرارتها وأضرم جمرها الإمام محمد عبده فى إشارات بارقة وامضة متفرقة بين ثنايا تفسيره الجديد الذى أطلق دفقاته فى تتابع ودأب ومثابرة حتى أن تلميذه رشيد رضا سأله: "أي التفاسير أنفع لطلبة العلم؟ قال الكشاف. قلت: ولكن فيه كثيراً من نزعات الاعتزال. قال: تلك مسائل معروفة لا تخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها. وإنما فضله لدقته في تحديد المعاني ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة"[3].

---

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا ج١ ص١٨٢.

(٢) المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم: د/ كامل علي سعفان، ص٤٣.

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام: محمد رشيد رضا ج١ ص٣٩٠.

غيـــر أن هـــذا الـــنهج لم يمثل منحى كاملا أو اتجاها متكاملا ذا ملامح وأركـــان، بل بقى شذرات منثورة وومضات متفرقة فى ثنايا تفسيره الذى كان يعج بالمسائل التربوية والإجتماعية والسياسية والعقائدية كما تبين لك مستفيضا فـــى موضعه وعلى الجملة فإن تلك المحاولات (لم تَعْدُ اللمحات العابرة التي تكشـــف عـــن نكـــتة بلاغية خفية، أو لمحة بيانية ذكية، فهي لم تكن تؤلف في جملـــتها مـــنهجاً أدبـــياً واضحاً يمكن أن ينسب إليها"[١]. [٢].ومنه يتبين لك أن تفسير المنار كان هو بذرة هذا الاتجاه في العصر الحديث وفجر نشأته الأولى والأمثلة على ما ذهبنا إليه كثيرة نذكر منها تفسيره لقوله تعالى: (فإن مع العسر يســـراً إن مع العسر يسراً)[٣] يقول: "ال" في العسر للاستغراق ولكنه استغراق المعهود عند المخاطبين من أفراده أو أنواعه. فهو العسر الذي يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدو وقلة الوسائل إلى المطلوب ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت وكانت النفس حريصة علـــى الخـــروج منها طالبة لكشف شدتها، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل ما من شأنه أن يعد لذلك في معروف العقل، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل علـــى الله حتـــى لا تضعفها الخيبة لأول مرة ولا يفسخ عزيمتها من تلاقيه عند الصدمة الأولى -فلا ريب أن النفس تخرج منها ظافره.. إلى أن قال... "وتنكير اليســـر لأن الـــذي يأتي بعد العسر أي نوع من أنواعه لا يختص بيسر معين – والتعبير بالمعية لتوثيق الأمل بأنه لا بد منه كأنه معه"[٤].

---

(١) الفكر الديني في مواجهة العصر: د/ عفت محمد الشرقاوي، ص٣٠٢.

(٢) تفسير جزء عم: الشيخ محمد عبده، ص٧٦-٧٧.

(٣) سورة الشرح: الآيتين ٥-٦.

(٤) تفسير جزء عم: الشيخ محمد عبده، ص١١٤-١١٦.

كـذلك قـول محمد رشيد رضا في تفسير كلمة "وما يشعرون" من قوله تعالـى في وصف المنافقين (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)[1] قال: "أقول: قال الراغب بعد الذكر الشعر -بفتح الشين وسكون العـين وفتحها- من مفرداته. وشعرت أصبت الشعر، ومنه أستعير شعرت كذا أي علمت علماً هو في الدقة كإصابة الشعر، ومنه يسمى الشاعر شاعراً لفطنته ودقـة معـرفته، فالشـعر في الأصل اسم للعلم الدقيق في قولهم: ليت شعري. وصـار فـي الـتعارف وصـار فـي الـتعارف اسـماً للموزون المقفى من الكلام.....أقول ويناسب هذا الشعار -بالكسر- للكساء الباطن الذي يمس شعر الإنسـان، والمعروف في كتب اللغة أن شعر به -كنصر وكرم- يشعر شعراً -بالكسر والفتح- وشعوراً معناه علم به وفطن له وأدركه، والفطنة تتعلق بالأمور الدقيقة وأطلق بعض المفسرين أن الشعور إدراك المشاعر أي الحواس الخمس، والتحقـيق أنه إدراك ما دق من حسي وعقلي، فلا تقول: شعرت بحلاوة العسل وبصـوت الصـاعقة وبـألم كية النار، وإنما تقول أشعر بحرارة ما في بدني، وبملـوحة أو مرارة في هذا الماء، إذا كانت قليلة وبهينة وراء الجدار، وما ورد فـي القرآن من هذا الحرف يدل على هذا المعنى، أي إدراك ما فيه دقة وخفاء. فمعنى نفي الشعور عن المنافقين في مخادعتهم الله تعالى أنهم يجرون في كذبهم وتلبيسهم ورياءهم على ما ألفوا وتعودوا، فلا يحاسبون أنفسهم عليه ولا يراقبون الله فيه، وما كلهم يؤمنون بوجود الله وإحاطة علمه، ومن يؤمن بوجوده لم يترب (كـذا) علـى خشيته ومراقبته، ولا يفكر فيما يرضيه وفيما يغضبه، فهو يعمل عمـل المخـادع لـه ومـا يشعر بذلك وأما مخادعتهم للمؤمنين فظاهرة لأنهم

(١) سورة البقر: الآية٩.

اتخـذوهم أعداء وهم عاجزون عن إظهار عداوتهم فأعمالهم التي يقصدون بها إرضاء المؤمنين كلها خداع ورياء"[1].

قلت: تلك إشارات تكشف عن النكات البلاغية اللامعة أو اللمحات البيانية الـبارقة والتى لم تكن تؤلف في جملتها منهجاً بيانيا متكاملاً يمكن نسبته إليها وتميـزه بها حيث غلب على التفسير ما فرضته الظروف الصارمة التى حكمت التدافع المرير فى تلك الآونة بين الكفر والإسلام حيث دفعت مطارق الإستعمار هـذه المدرسـة إلـى المواجهة المباشرة لكف الجائحة الإستعمارية والتصدى لشررها، إذ يقول محمد عبده: "والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا، وحياتهم الآخرة فإن هذا هـو المقصـد الأعلـى مـنه ومـا وراء هـذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله"[2].

لكـن ذلـك لم يمنع أنصار المدرسة البيانية الذين استغرقهم هذه المنهج واسـتحوذ على جماع أحاسيسهم وجوارحهم عن الإندفاع فيه إلى نهاية الشوط حتـى قال قائلهم: "المقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف، غير متأثر بـأي اعتبار وراء ذلك.. وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه.. هذه هـي نظرتنا إلى التفسير اليوم وهذا غرضنا منه وعلى هذا الأساس نتقدم لبيان طريقة تناوله ومنهج درسه"[3].

---

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا ج١ ص١٥١-١٥٢.

(٢) تفسير فاتحة الكتاب: الشيخ محمد عبده، ص٥، وتفسير المنار: محمد رشيد رضا، ص١٧.

(٣) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي، ص٣٥.

تأصيل المنهج الموضوعى البيانى

كانــت الغاية النبيلة من عشرات المصنفات النفيسة فى تصاريف البيان فى كتاب الله تعالى عبر مسيرة علماء السلف الصالح تلك التى مست هذا الجانب المعجــز من القرآن الكريم الذى أشار القرآن إليه بقوة وتحد فى غير ما موضع فى غمارالدعوة المستمرة للنظر فى إعجاز نظمة وتراكيبه التى حار فيها أساطين البــيان من العرب العاربة التى وجموا وبهتوا لروعة التنزيل مع التحدى الذى لا يفتر والإستفزاز المتتابع للإتيان بسورة من مثله، غير أن جهود السلف مع ما لا بســها من إبداع وتفنن فى إبراز هذا الجانب المعجز لم تجمعه مستفيضا شاملا موضوعيا من جملة القرآن كما هو الحال فى القرن الرابع عشر الهجرى، الأمر الــذى ســجله أربــاب المدرسة البيانية المعاصرة وحازوا به على هذا الشرف الأســمى، يقول الدكتور حفني محمد شرف: "والذي لاحظته أثناء هذا التطواف، وتلــك المقــابلات أن أكثــر علماء الإعجاز درسوا البلاغة العربية وأرخوا لها وطــوروا دراســتها لأنهم كانوا مؤمنين بأن دراسة البلاغة وسيلة لغاية أسمى، وهي إعجاز القرآن البياني، ويمكن التأكد من هذا بالرجوع إلى مقدمات مؤلفاتهم في البلاغة التي كثيراً ما يصرحون فيها بهذه الملاحظة التي أشرت إليها"[1].

قلت: بل كلهم إذا ما عرضوا البلاغة فى سياق قرآنى فلم يكن لهم هم إلا الوقــوف البلــيغ على غرائب المعجزات المتلاطمة كالبحر اللجى فى كتاب الله تعالــى ومــن شاء فليراجع كل ماورد فى هذا الباب فإنه لا شك واقف على ما وقفــنا علــيه، أما المدرسة البيانية المعاصرة فقد أصلت الدراسة البيانية للقرآن الكــريم كما قالت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) التلميذة النجيبة والحاملة المخلصة لأفكار وأسس هذا المنهاج والسائرة فى تجرد وراء ما خطه

(١) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق: د/ حفني محمد شرف ص٣٧٥.

شـيخها الأستاذ أمين الخولي ـ مؤسس المنهج ومرسى أركانه ـ حيث تقرر ذلـك فـي صراحة وحماسة قائلة: "لكل لغة روائع من آدابها، تعتبرها النماذج العالية لذوقها الأصيل، والمثل الرفيعة لفنّها القولي وقد غَبَرت الأجيال منّا تتجه إلى نصوص مختارة من شعر العربية ونثرها تضعها بين أيدي القراء أو تقدمها إلـى التلاميذ والطلاب وشغلنا نحن أصحاب الدرس الأدبي، أو شغلت الجمهرة منا بالمعلقات والنقائض والمُفَضّليّات، ومشهور الخمريات والحماسيات والمراثي والمدائح والغزليات ومأثور الرسائل والأمالي والمقامات، شُغلنا بهذا ومثله عن الاتجـاه إلى القرآن الكريم الذي لا جدال في أنه كتاب العربية الأكبر ومعجزتها البيانـية الخالدة، ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل ذي عروبة أراد أن يكسـب ذوقهـا ويدرك حسها ومزاجها ويستشف أسرارها في التعبير والأداء، مسـلماً كـان أو غيـر مسلم. ونحن في الجامعة نترك هذا الكنز الغالي لدرس التفسـير، وقل فينا من حاول أن ينقله إلى مجال الدراسة الأدبية الخالصة التي قصـرناها على دواوين الشعر ونثر مشهوري الكتاب، وكان المنهج المتبع في درس التفسـير -إلى نحو ربع قرن من الزمان-[1] تقليدياً أثرياً، لا يتجاوز فهم النص القرآني على نحو ما كان يفعل المفسرون من قديم حتى جاء شيخنا الإمام (الأستاذ أمين الخولي" فخرج به عن ذلك النمط التقليدي وتناوله نصاً أدبياً على منهج أصّلَه، وتَلَقّاه عنه تلامذته وأنا منهم"[2].

وممـا تقـدم يظهر دون خفاء تلك النزعة التجديدية المتبرمة بما آل عليه حـال الـركود والتقلـيد فى نهر الحركة العلمية، والرغبة الجامحة فى التجديد والإبـداع والإبتكار والخروج عن القوالب الجامدة والآصار المتوارثة بعيدا عن الـنداءات المـتلاحقة والمليئة بالحيوية والحرارة فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه

(١) من تاريخ كتابة هذه السطور وهو شعبان سنة ١٣٨١هـ.

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم: د/ عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" ص١٣ج١.

صلى الله عليه وسلم، تلك المحاولات الجريئة التى شابتها كثير من التجاوز بطبيعة الحال غير أن هذه التجاوزات التى بينا ما فيها من الخروج المستنكر في بعض الأحيان ـ عما هو مقرر بين أهل العلم، لم تخف الفوائد العظيمة لهذا التوجه والتجديدات النفيسة جدا والتى تلقاها الأثبات من علماء الأمة بالقبول والمباركة بل بالتبنى والتصحيح والتقويم ليبدو ناصعا فى أبهى حلله وأتم صوره.

الأستاذ أمين الخولي [3]

رائد مدرسة التفسير الموضوعى البيانى

(3) ولد الأستاذ أمين الخولى سنة ١٨٩٥م بشوشاي مركز أشمون بمحافظة المنوفية بمصر وتخرج في القسم العالي بمدرسة القضاء الشرعي سنة ١٩٢٠م واختير مدرساً بها. وترأس تحرير مجلتها في سنتيها الأولى والثانية. وفي سنة ١٩٢٣م عين إماماً للمفوضية المصرية بروما ثم في برلين وهناك ألم باللغتين الإيطالية والألمانية وأطلع على بحوث المستشرقين في الإسلاميات بهاتين اللغتين. وعاد إلى مصر سنة ١٩٢٧م ليدرس بقسم التخصص في مدرسة القضاء الشرعي وفي العام التالي نقل إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) مدرساً فأستاذاً مساعداً فأستاذاً فرئيساً لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية ثم أستاذاً للأدب المصري ثم وكيلاً لكلية الآداب وظل فيها حتى سنة ١٩٥٣م حيث نقل مستشاراً فنياً لدار الكتب المصرية ثم عين مديراً لإدارة الثقافة في وزارة التربية والتعليم حتى بلغ سن التقاعد سنة ١٩٥٦م. وأنشأ الأستاذ أمين هو وتلاميذه سنة ١٩٤٣م مدرسة أدبية هي "الأمناء" نسبة إليه، رسالتها الفن والحياة، وهدفها تحقيق أهداف فنية نظرية وعملية، وأصدرت في سبيل تحقيق ذلك "مجلة الآداب" سنة ١٩٥٦م حيث رأس الأستاذ أمين تحريرها. وعين سنة ١٩٦١م عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.وكلف بعد تقاعده بأعمال عديدة فانتدب لتدريس الأخلاق والفلسفة وتاريخ الملل والنحل في الأزهر في قسم التخصص شعبة الأخلاق والتاريخ. وشعبة الوعظ وكذلك في كلية أصول الدين ورأس قسم اللغة العربية في معهد الدراسات العليا للمدرسين، وحاضر في معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٧-١٩٥٨م وفي معهد الدراسات الإسلامية، وحضر عدداً من المؤتمرات وتوفي سنة ١٩٦٦م. المرجع: كتاب (التفسير نشأته تدرجه وتطوره) لطفى الخولى ـ المقدمة: إبراهيم خورشيد رئيس تحرير النسخة العربية من دائرة المعارف الإسلامية.

وبـــه يتبـــين أن هذا المنهج من أهم من المحاولات المرتكزة على البيان والأدب فى صورة موضوعية تفسيرية جديدة، وكما سبق فإن أستاذ هذه المدرسة وعمـــيدها هـــو الأســـتاذ أمـــين الخولى يتبعه فيها إثنان من أنجب تلاميذه هما الدكتورة عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" "والدكتور محمد أحمد خلف الله"

والأســـتاذ أمين الخولى ذو سيرة أدبية رفيعة وجهود تجديدية مضنية عبر حياة طويلة حافلة قاربت السبعين عاما من المقالات والبحوث في اللغة والأدب والـــبلاغة والنحو والتفسير نشرت في مجلات علمية وأدبية، وله تعليقات على كثير من مواد دائرة المعارف الإسلامية في الأدب والفقه ومن أهمها ما كتبه في مـــواد التفسير وأصول الفقه والبلاغة، وجمع أكثرها في كتابه"مناهج تجديد في الـــنحو والـــبلاغة والأدب التفسير" وطبع تعليقه على مادة "تفسير" مستقلاً مرة بعـــنوان "التفســـير معالم حياته منهجه اليوم" طبعته جماعة الكتاب سنة ١٩٤٤م ومرة بعنوان "التفسير نشأته تدرجه وتطوره" تحت سلسلة "كتب دائرة المعارف الإسلامية" وصدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٢م في بيروت.وله كتاب "من هدي القـــرآن" ويحتوي على ثلاثة من مؤلفاته "القادة.. والرسل" و"في رمضان" و"في أموالهم" وله أيضاً كتاب عن مالك بن أنس –رحمه الله تعالى– وهو العدد (١١) من سلسلة أعلام العرب.

أمـــا أميز مؤلفاته فكانت ما كتبه من الدراسات القرآنية تحت عنوان "من هدي القرآن".

وهى أبحاث تتسم بالمنهج الموضوعى الأدبى الذى ميز الطريق الذى شقه وفـــتح آفاقه : كالسلام والإسلام، والطغيان في العلم والمال والحكم، وحكومة القرآن، والحكم بما أنزل الله، والفن والبيان في القرآن، والقرآن والحياة، والقسم

القرآني، والجندية والسلم، والقادة.. الرسل، وفي أموالهم، وشخصية محمد، وفي رمضان وغير ذلك من الدراسات.

وفيها رواسخ وأركان المنهج الذى اختطه لنفسه وله الأسس التالية:

أولا: المنهج التفسيرى الموضوعى ويتميز كما أسلفنا بدراسة القرآن الكريم حسب الموضوعات وليس حسب تسلسل السور والآيات .

ثانيا: الوقوف الصارم على معاني الآيات التي تؤديها ألفاظ العربية كما كان يفهمها العرب عند نزول القرآن، مع الإفادة المعاصرة بما للفظ والنظم الكريم من إيحاءات أدبية وفنية[1].

ثالثا: الوقوف مليا عند طريقة القرآن الكريم التربوية و النفسية والاجتماعية فى توجيه البشر، وأنها طريقة فذة بديعة تفرد بها القرآن الكريم لقيادة الحياة البشرية.

إنها الأسس التى نذر لها عمله ووقف عليها حياته العلمية، الأمر الذى سنشرع فى بيانه مستفيضا بعد هذا التعريف المختصر ــ على طريقتنا فى هذا المصنف ــ قبل الولوج إلى الدراسة المستفيضة والله تعالى المستعان

****

(١) من هدى القرآن: أمين الخولي، ص١٠-١١.

منهج المدرسة الموضوعية البيانية

فتح علمي وسقطات على الطريق

أمـــا النهج الذى أشرنا إليه ــ كما قرره مؤسسه أمين الخولى ــ فقد شابته كثيـــر مـــن المآخـــذ الجسيمة والسقطات الفادحة ــ مع ماله من فضل الريادة بتأســـيس هذا المذهب النفيس ــ حيث عد القرآن الكريم ولأول مرة فى تاريخه الحافل الطويل كتابا لدرس اللغة العربية دون أى إعتبار دينى أو عقائدى، هكذا حســـب ما ورد عنه دون خفاء ، فيلله العجب من هذه النظرة التى عميت عما هو أظهر من شمس النهار وتجاهلت ما هو أرسى من شوامخ الجبال، إذ قد علم القاصـــى والدانـــى أن هذه الكتاب الأعظم ومنذ الساعة الأولى لنزوله إنما اثار عاصـــفة لا تهدأ حول الدين تعريفا وبيانا ودعوة وتحريضا ونذيرا فافتر الأمر عن فريقين قد التحما فى صراع مضن وتدافع مرير، فريق فى الجنة وفريق فى السعير، فقدم أقواما وأخر آخرين ورفع أمما وحط أخرى فهو قطب الرحى من الدين وهو أعظم حدث دينى فى تاريخ العالم قاطبة من أوله إلى آخره ولم يزل إلـــى يومنا هذا هو السر الأعظم لأعظم المعارك الفاصلة الضارية بين أنصاره وبـــين خصـــومه حـــيث تقطعت الأعناق وتقلبت القلوب ونزفت انهار الدماء وذرفـــت شـــلالات الدموع، إنها الملحمة الأزلية الأبدية الباقية إلى قيام الساعة، ومع ظهور هذا الأمر جدا بما لا يجحده إلا أعمى ولا يتجاهله إلا غافل تقرأ فى ذهـــول هذه العبارات المثيرة لأشد حالات العجب. قال أمين الخولى: (فالمقصد الحقيقي....هو النظر في القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر وأثره الأدبي

الأعظـــم، فهو الكتاب الذي أخلد العربية وحمى كيانها وخلد معها فصار فخرها وزينة تراثها، وتلك صفة للقرآن يعرفها العربي مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى ما دام شاعراً بعربيته مدركاً أن العروبة أصله في الناس وجنسه بين الأجناس وسواء بعد ذلك أكان العربي مسيحياً أو وثنياً أم كان طبيعياً دهرياً، لا دينياً، أم كان المسلم المُتَحَنِّف،....، فألزمها على أولئك تناول هذا الكتاب بدراسة أدبـــية، تتفهم بها أصول ما ورثت من تلك العروبة إن كانت عربية النجار، أو كانت قد اتصلت بتلك العروبة اتصالاً حيوياً قوياً دفع شخصيتها وسير وجودها ووجه حياتها فالعربي القح، أو من ربطته بالعربية تلك الروابط يقرأ هذا الكتاب الجلـيل ويدرســه درســاً أدبــياً كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة، وتلك الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً وفاءاً بحق هذا الكتاب ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو الانتفاع بما حوى وشمل بل هي ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً ولو لم تنطو صدورهم علـــى عقـيدةٍ ما فيه، أو انطوت على نقيض ما يردده المسلمون الذين يعدونه كتابهم المقدس، فالقرآن كتاب الفن العربي الأقدس سواء أنظر إليه الناظر على أنـــه كذلك في الدين أم لا...وهذا الدرس الأدبي للقرآن في ذلك المستوى الفني، دون نظـــر إلـــى أي اعتـــبار ديني هو ما نعتده وتعتده عنا الأمم العربية أصلاً والعـــربية اختلاطاً، مقصداً أول وغرضاً أبعد يجب أن يسبق كل غرض ويتقدم كل مقصد.. ثم لكل ذي غرض أو صاحب مقصد بعد الوفاء بهذا الدرس الأدبي أن يعمد إلى ذلك الكتاب فيأخذ منه ما يشاء ويقتبس منه ما يريد ويرجع إليه فيما أحـــب من تشريع أو اعتقاد أو أخلاق أو إصلاح اجتماعي أو غير ذلك. وليس شـــيء مـــن هذه الأغراض الثانية يتحقق على وجهه إلى حين يعتمد على تلك

الدراســة الأدبــية لكتاب العربية الأوحد دراسة صحيحة كاملة مفهمة له، وهذه الدراســة هي ما نسميه اليوم تفسيراً، لأنه لا يمكن بيان غرض القرآن ولا فهم معناه إلا بها.

فجملــة القــول: أن التفســير -فيما أفهمه- هو الدراسة الأدبية الصحيحة المــنهج، الكاملة المناجي، المتسقة التوزيع، والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محــض صــرف، غير متأثر بأي اعتبار وراء ذلك.. وعليه يتوقف تحقق كل غــرض آخر يقصد إليه.. هذه هي نظرتنا إلى التفسير اليوم وهذا غرضنا منه" إنتهى [1].

قلت: أما هذه النظرة الأدبية المحضة الصرفة إلى التفسير فهى من أعجب العجــب حــيث تقرر دون مداراة أن التفسير هو عين الدراسة الأدبية اللغوية للقــرآن فحسب ودون فرق ولا شيء غير ذلك، الدراسة الأدبية للقرآن (كأثر) (وكــتاب فن عربى) فحسب، إنها الطفرة الفكرية المباغتة العجيبة والتى توشك أن تكون فكرة شبت فجأة فى ذهن قائلها دون روية أو تدبر أودليل أو أثارة من علــم مــن التاريخ قديمه وحديثه، فلم نعلم كافرا بالقرآن الكريم وثنيا كان أو كتابــيا قــد توفر على دراسته تجردا وانقطاعا لأغراض اللغة العربية وآدابها وحــدها فقــط دون أدنى علاقة بالدين أو العقائد أو الشرائع العظام أو المعانى الهــادرة المتلاطمة كالبحر وهى تشنع أشد التشنيع وتنكر أبلغ النكير على عقائد الكافرين فى موجات عاتية متتابعة تعج بها الآيات الكريمات، وأعجب منه ذلك التعامــى المعيب عن كل ما فى القرآن من عقائد ومناظرات وبراهين تنبهر لها

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ص٣٣-٣٥.

الأبصـــار وتـــتقلب عندها الأفئدة وترتج النفوس، واعتبار البحث البيانى فحسب ودون غيره هو التفسير بالمعنى الحرفى للتفسير، وياليت شعرى كيف يمكن أن يكـــون البيان هو عين التفسير بينما لم تأت معجزة البيان إلا آية ربانية فاصلة مكـــان معجـــزات الأنبـــياء لتبليغ البشر عن رب البشر، ولم نسمع عن مفسر للقـــرآن فى العالم قديمه وحديثه عد التفسير هو عين الدراسة المتعمقة المتجردة للبيان دون فهم أو محاولة فهم المعانى الصاعقة المزلزلة التى تموج بها الآيات موج البحار، وهو من أعجب ما تسمع وترى ولله فى خلقه شؤوون

أولا: تفجر البحث الموضوعى البيانى

ولكـــن مـــا يعنينا على أية حال فى هذا المقام ــ على منهاجنا فى التقاط النافع الثمين وعدم الوقوف طويلا أمام العثرات التى لم يخل منها جهد بشرى ــ هـــو الفائـــدة الجليلة التى وضع أمين الخولى ومن تبعه يديه عليها والتى أثرت مجـــال التفسير بهذا الضرب الجديد والذى أجمعت الأمة على قبوله ولله الحمد والمـــنة، هـــذا الـــذى وقف عليه أرباب هذه المدرسة من التفسير الموضوعى البيانى للقرآن حيث قال أمين الخولى:

"والقـــرآن كما هو المعروف لم يرتب على الموضوعات والمسائل فيفرد كـــل شـــيء منها بباب أو فصل، يجمع ما ورد فيه عن هذا الموضوع أو تلك المســـألة فليس على ترتيب كتب العقائد مع ما فيه من أصول العقيدة وليس على تـــرتيب كـــتب التشريع مع ما فيه من أصول التشريع. ولا هو كذلك على نسق كتب الأخلاق أو التاريخ ولا القصص ولا غير ذلك، بل ليس على ترتيب بعض كـــتب الدين حين أفردت أحداث الحياة بأسفار عنونت كل سفر منها بحادث، أو

حين جرت على تسلسل حياة فرد خصت كل حين منها بقسم. كما لم يرتب على شيء من تاريخ ظهور آياته إنما جرى القرآن على غير هذا كله. فعرض لكثير من الموضوعات ولم يجمع منها واحداً بعينه فيلتقي أوله بآخره ويعثر به في مكان معين.. وإنما نثر ذلك كله نثراً وفرقه تفريقاً فالحكم التشريعي في أكثر من موضع والأصل الاعتقادي قد عرض له غير مرة والقصة قد وزعت مناظرها ومشاهدها في جملة أماكن، وهكذا تقرأ في السورة الواحدة فنوناً من القول وتمر بألوان من الأغراض المختلفة تعرض لها سورة أخرى فيتكامل العرضان، وتتم الفكرة بتتبعها في مواطن متعددة وذلك لحكمة ومرمى"[1].

قال: "فالناظر في سورة البقرة مثلاً يجد من الحديث عن المؤمنين وحالهم ما أحسب أنه يفهم الفهم الصحيح إذا ما قورن بما في سورة "المؤمنون" من الجزء الثامن عشر ثم هو واجد في سورة البقرة عن المنافقين وحالهم ما لا يفهم وجهه إلا مع سورة "المنافقون" في الجزء الثامن والعشرين.. وقصة آدم في البقرة إنما تفسر مع ما ورد عنها في سورة الأعراف والحجر والكهف وغيرها"[2].

قلت: إذن فالنظرة الموضوعية للقرآن الكريم هى المرتكز الأول الذى يرتكز عليه أصحاب المدرسة البيانية كما تبين لك قريبا، ولئن كان قد عرف فى الأولين فى شكل ومضات متفرقة كما بيناه لك فى موضعه، فإنه بهذا التأصيل فتح علمى خصوا به ووقفوا عليه وتلقفتهم عنهم بعد ذلك الأيدى والقلوب

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ص٣٥-٣٦.

(٢) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ص٣٦.

ليستوى هذا العلم الفريد الجديد على سوقه ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه سلاحا ماضيا للقرآن الكريم فى وجه الحملة المسعورة المفروضة عليه من كل جانب.

ثانيا: الترتيب الزمنى للآيات بين الممكن والمستحيل

يضاف إلى ما سبق من الأصول والأركان لهذا المذهب التفسيرى البيانى الجديد، ماقرروه من ضرورة مراعاة الترتيب الزمنى للآيات ذات الموضوع الواحد كى تكتمل الفكرة وتتبدى ملامحها، الأمر الذى أشار إليه الأستاذ أمين الخولي حين قال: "وترتيب القرآن لم يرع شيئاً من تقدم الزمن وتأخره فمكيه يتخلل مدنيه ويحيط به ومدنيه يتخلل مكيه ويحيط به. وهكذا ترى من النظر في ترتيب القرآن على سوره –أي ترتيب كان في المصاحف المختلفة– ما لا يساير حاجات مفسره المتفهم له، بل يقضي ما كان من أمر الترتيب: بالنظر الجديد والترتيب الخاص لأي الموضوع بحيث يكشف هذا الترتيب لنا عن تلك النواحي التي عرفت أن المفسر المتفهم مضطر إلى مراعاتها وتقديرها توصلاً إلى الفهم الصحيح والمعنى الدقيق"(١).

"فجملة القول أن ترتيب القرآن في المصحف قد ترك وحدة الموضوع لم يلتزمها مطلقاً، وقد ترك الترتيب الزمني لظهور الآيات لم يحتفظ به أبداً، وقد فرق الحديث عن الشيء الواحد والموضوع الواحد في سياقات متعددة، ومقامات مختلفة ظهرت في ظروف مختلفة وذلك كله يقضي في وضوح بأن يفسر القرآن موضوعاً موضوعاً وأن تُجْمَع آيه الخاصة بالموضوع الواحد جمعاً إحصائياً مستقصي.

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ص٣٦-٣٧.

ويعرف ترتيبها الزمني ومناسباتها وملابساتها الحافة بها ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده"[1].

قلـت: ولا يخفاك أن هذه الدعوة من الأستاذ أمين إلى الترتيب التاريخي لآيـات الموضـوع الواحد بالنظر للبحث فى سائر الموضوعات القرآنية بيانية كانـت أو غيـرها إنما هى أقرب إلى السياحة الفكرية منها إلى النظر الواقعى والتطبيق العملى حيث لا يخفى بعد الوصول إليه ومؤنة الوقوف عليه و أنه من أمحل المحال ولو كان ممكنا لتوفرله الأولون وكانوا أعظم عزما وأقرب سبيلا، وممـا يؤكد ماذهبنا إليه أن الأستاذ أمين نفسه وتلاميذه من بعده لم يضع أحد منهم خطة لهذا الترتيب ولم يُحلْ أحد منهم إلى ترتيب بعينه يراه الأفضل بالرغم من أنهم يعتبرون هذه الخطوة لا بد منها قبل القيام بالتفسير[2]. نعم يمكن تطبيقها فى حدود القسم اليسير الذى يتيسر الوقوف فيه على أسرار ترتيب السور زمنيا وبحسب ماتفقت عليه الأمة وقرره علماء السلف، حيث اختلفوا اختلافا عظيما لـيس فى الترتيب التام لسائر الآيات القرآنية من حيث زمن وتتابع نزولها بل حتى فيما هو مكى أو مدنى، الأمر الذى يطالعه كل من وقف على علوم القرآن، ومـن عجب أنه لم يتنبه إليه مع دعوته الجازمة إلى التسلح بعلوم القرآن لزاما لمـن وقـف نفسه على هذا المنهاج للتفسير البيانى الموضوعى وقد أسلفناه لك قـريبا فـراجعه، فثبت بما قدمنا أن إطلاقه بحيث يكون مرتكزا لا يتخلف لهذه الفكـرة هـو كالممتنع وغير الممكن، ومن آثار السلف ما يدل عليه استحالته إذ طلب بعضهم إعادة تدوين القرآن بحسب ترتيب النزول فكان الجواب أن الإنس والجـن لو اجتمعوا لفعله ما استطاعوا، وهو الحق، فإن القرآن قد اكتمل بالهيئة

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ص٣٧.

(٢) إتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر دكتور محمد إبراهيم شريف ص٥٠٣.

التـــى دونـــت بها المصاحف وأجمعت الأمة عليها، نعم يمكن لدواعى الدراسة المحدودة الخاصة الوقوف على بعض الأسرار عن طريق دراسة زمنية لنزول عـــدد مـــن الســـور بما أمكن وتيسر مما يستلزمه المقام لكن كما بينا لا يمكن اعتماده كأساس لا يتخلف لهذا المنهج بحيث يتوجب على الباحث أن يقف لزاما على الترتيب الزمنى لنزول الآيات ليتم له المراد من بحثه خاصة أن من دعوا إليه لم يضعوا خطة أو آثارة من علم لتطبيقه، مع قطع العلماء بعدم إمكان ذلك .

ثالثا: البحث العلمى الموضوعى البيانى

وهـــذه الخطـــوة هي عصب التفسير البياني وصلبه وأساسه وقد أسماها الأســـتاذ أمين الخولى: (مرحلة الدراسة) وتنقسم إلى قسمين : أولهما: دراسة حول القرآن. ثانيهما : دراسة في القرآن.

دراسة ما حول القرآن

دراسة خاصة ودراسة عامة

أولا: الدراسة الخاصة حول القرآن:

وهى التى بينها كما يلى:

"والدراسة الخاصة هي ما لا بد لمعرفته، مما حول كتاب جليل كهذا الكتاب: ظهر في نحو عشرين عاماً أو كذا وعشرين عاماً ثم ظل مفرقاً سنين حتى جمع في أدوار مختلفة وأحوال مختلفة وكان جمعه وكتابته عملاً ساير الزمن طويلاً، وناله من ذلك ما ناله. ثم هناك قراءته ومسايرة هذه القراءة للتطور اللغوي الذي تعرضت له اللغة العربية بفعل النهضة الجادة التي أثارتها الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية. فقد كانت هذه القرآءات عملاً ذا أثر واضح في حياة الكتاب وفهمه. وتلك الأبحاث من نزول، وجمع، وقراءة، وما إليها – هي التي عرفت اصطلاحياً- منذ حوالي القرن السادس الهجري باسم علوم القرآن[1] بعد ما تناولها المفسرون المختلفون قبل ذلك بالبحث المجمل، والبيان المتفاوت في الاستيفاء حسب عناية المفسر واهتمامه، ومثل تلك الأبحاث جد لازمة في نظر دارسي الآثار الأدبية ولا بد منها لفهم النصوص المدروسة

(١) صنف محمد بن خلف بن المرزبان (ت٣٠٩) كتابه "الحاوي في علوم القرآن" و محمد بن القاسم الأنباري (ت٣٢٨) كتاب "عجائب علوم القرآن"، و محمد بن علي الأدفوي (ت٣٨٨) كتاب "الاستغناء في علوم القرآن". وبه يتبين أن التصنيف فى هذا العلم قد بدأ فى القرن الرابع الهجرى لا كما ذهب إليه المصنف والله تعالى أعلم.

والاتصـــال بها اتصالاً مجدياً"[1]، إلى أن قال: "وهي دراسات ضرورية لتناول التفسير.. حتى ما ينبغي مطلقاً أن يتقدم لدرس التفسير من لم ينل حظه من تلك الدراسة القريبة الخاصة حول القرآن، ليستطيع فهمه فهماً أدبياً صحيحاً مسترشداً بتلك الملابسات الهامة في فهم القرآن"[2].

قلـــت: ومنه يتبين أنه يشترط هذا النوع من الدراسة شرطا لا زما متعينا لكـــل من يتوفر للتفسير الأدبى الموضوعى فهذه الدراسة الخاصة حول القرآن الكريم نحو دراسة تاريخه ونزوله وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه والمعروفة بعلـــوم القـــرآن، وهو بحمد الله معلوم بالإضطرار بين أهل التفسير مقرر بينهم قديما وحديثا وقد التزمه السيوطي كغيره من علماء القرآن مشترطا على المفسر العلم بالقراءات والعلم بأصول الدين بما في القرآن من الآية الدالة بظاهرها على مـــا لا يجـــوز على الله تعالى و العلم بالناسخ والمنسوخ والعلم بأسباب النزول والقصص[3]. وحسنا فعل لطفى الخولى حين اعتبره مرتكزا للمنهج الموضوعى البيانى فلا شك أن الناظر فى كتاب الله تعالى دون الإستعانة بهذا الركن الركين واقع بمن يفعله فى أفدح السقطات وأوخم العواقب وأشنع الزلات.

ثانيا:الدراسة العامة حول القرآن

وأما الدراسة العامة لما حول القرآن الكريم فقد وصفها كما يلى:

---

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ص٣٨-٣٩.

(٢) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ص٣٨-٣٩.

(٣) انظر الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي ج٢ ص١٨١.

"وأما ما حول القرآن من دراسة عامة فهو ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيها القرآن وعاش، وفيها جمع وكتب وقرئ وحفظ وخاطب أهلها أول من خاطب وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بأدائه، وإبلاغها شعوب الدنيا. فروح القرآن عربية، ومزاجه عربي (هكذا)، وأسلوبه عربي (قرآناً عربياً غير ذي عوج)[1]، والنفاذ إلى مقاصده إنما يقوم على التمثل الكامل والإستشفاف التام لهذه الروح العربية وذلك المزاج العربي، والذوق العربي ومن هنا لزمن المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية أرضها بجبالها وحرارها وصحاريها وقيعانها وسمائها بسحبها ونجومها وأنوائها وجوها بحره وبرده وعواصفه وأنسامه وطبيعتها بجدبها وخصبها وقحولها أو نمائها ونباتها وشجرها... إلخ فكل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين...

مع هذا ما يتصل بالبيئة المعنوية بكل ما تتسع له هذه الكلمة من ماض سحيق، وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة، وحكومة في أي درجة كانت وعقيدة بأي لون تلونت، وفنون مهما تتنوع، وأعمال مهما تختلف وتتشعب، فكل ما تقوم به الحياة الإنسانية لهذه العروبة. وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربية المبين...

وإذا جهدت الدراسة الأدبية في أن عرف عن تلك العربية والعروبة أكثر وأعمق وأدق ما يعرف تبتغي بذلك درس أدبها درساً صحيحاً، فإن هذا القرآن رأس هذا الأدب وقلبه الخافق ولن يدرس درساً أدبياً صادقاً يفي بحاجة

(١) سورة الزمر: من الآية ٢٨.

المتعـــرض لتفســـيره إلا بعد أن تستكمل كل وسائط تلك المعرفة للبيئة العربية مادية ومعنوية.

أمـــا ما دمنا نقرأ التشبيه العربية القرآني، أو التمثيل العربي القرآني فإذا مادته الأضواء العربية، والظواهر الجوية العربية والحي أو الجماد المشهود في بلاد العرب لا نعرف عنه شيئاً وليس عندنا عنه صورة خاصة. فما يحق لنا – مع هذا– أن نقول إننا نفسر هذا القرآن أو نمهد لفهمه فهماً أدبياً، يُهيء للانتفاع به في نواحٍ أخرى.

وما دمنا نذكر الحجر، والأحقاف، والأيكة، ومدين، ومواطن ثمود ومنازل عاد، ونحن لا نعرف عن هذه الأماكن إلا تلك الإشارات الشاردة، فما ينبغي أن نقول إننا فهمنا وصف القرآن لها ولأهلها أو أننا أدركنا مراد القرآن من الحديث عـــنها وعـــنهم، ثـــم لن تكون العبرة بهذا الحديث جلية ولا الحكمة ولا الهداية المرجوة مفيدة مؤثرة"[1].

قلت: وهذا النوع من الدراسة التى أسماها (دراسة عامة حول القرآن) قد ذهب إليها الكثيرون كذلك قديما وحديثا ومن ذلك ما أوردناه عن الأستاذ الإمام محمـــد عبده حيث اشترط على المفسر علم أحوال البشر في أطوارهم واشترط العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها وقد بسطناه فى موضعه [2].

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ٣٩-٤١.

(٢) تفسير المنار: محمد رشيد رضا ج١ ص٢٢-٢٤.

ولكن الأستاذ أمين الخولى يبقى مع ذلك هو السابق إلى جمع هذه الأشتات المتفـرقة والأوصال المتباعدة فى منهاج واحد ونسق متسق لبلوغ غاية واحدة وهى التفسير البيانى الموضوعى للقرآن الكريم الأمر الذى يوشك أن يكون فريدا ورائـدا فى الوقوف عليه مع ما أشرنا إليه من المآخذ والملاحظات تلك التى لا يخلو منها عمل بشرى إذ أبى الله تعالى أن تكون العصمة إلا لكتابه(٢).

ثانيا: دراسة النص القرآنى

١- دراسة المفردات القرآنية (معناها اللغوي.ومعناها القرآني).

إن مـن يتتـبع المـنهج الـذى اختطه أمين الخولى في توجهه لدراسة المفردات القرآنية ليتبين له بوضوح الروح المتوقدة المقتحمة التى عالج بها هذا الموضـوع والشعور العميق بالعجز والتقصير عبر أجيال طويلة من حملة العلم الشرعى عن القيام بما ينبغى القيام به لخدمة تلك الغاية المهيبة والغرض السامى مـن أغـراض خدمة القرآن الكريم حيث شابت عباراته الحرارة والحماسة مع النقد المرير للذات والرغبة المحمومة فى إيجاد البدائل اللازمة للقيام بهذا العمل الجبار حتى قال عن نظريته:

---

(2)لا يحسن فى هذا المقام لطالب العلم أن يستفرغ جهده ويهدر وقته فى نقد ما عسى أن يكون من تجـاوز أصـحاب هذا المنهج وخروج عن المألوف بين العلماء ـ فى بعض الأحيان ـ وإطلاق المعاول وهدم ماتحقق من التجديد والإبداع وهو كثير وظاهر بحمد الله تعالى ـ إلا بما تستلزمه ضـرورة الأمانـة العلمية والبحث الموضوعى وماعسى أن يكون من المخالفات الشرعية، التى يتوجب لفت الأنظار إليها وتصويب ما عساه أن يصوب منها ـ، مع التركيز على الإنتفاع بما فتح الله بـه لدينه وكتابه عبر تلك الجهود المضنية التى بذلها أصحابها وتلك الحماسة والجرأة والغيرة علـى الإسـلام التى دفعتهم للذب عن حياضه بما أوتوه من علم لم يسبقوا إليه وكانوا علما عليه وجزى الله جميع العاملين فى خدمة القرآن العظيم خير الجزاء

"هـي تـبدأ بالنظر في المفردات. والمتأدب يجب أن يقدر عند ذلك تدرج دلالـة الألفاظ، وتأثرها في هذا التدرج يتفاوت ما بين الأجيال وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية، وعوامل حضارة الأمة وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العـربية فـي تلـك الحـركة الجياشة المتوثبة التي نمت بها الدولة الإسلامية، والنهضـة الدينـية والسياسـية والثقافـية التـي خلفت هذا الميراث الكبير من الحضـارة... وقد تداولت هذه اللغة العربية في تلك النهضات أفواه أمم مختلفة الألوان والدماء الماضي والحاضر فتهيأت من كل ذلك خطوات تدريجية فسيحة متباعدة في حياة ألفاظ اللغة العربية حتى أصبح من الخطأ البين أن يَعْمَد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآني الأدبي الجليل فهماً لا يقوم على تقدير تام لهذا الـتدرج والتغيير الذي مَسَّ حياة الألفاظ ودلالتها، وعلى التنبه إلى أنه إنما يريد ليفهم هذه الألفاظ في الوقت الذي ظهرت فيه وتليت أول ما تليت على من حول تاليها الأول –عليه السلام:"

إلـى أن قال فى تحسر وألم: "إذا كان هذا هو الأصل الأول في فهم دلالة ألفاظ القرآن فمن لنا به مع أن معاجمنا لا تسعف عليه ولا تعين؟"[1].

ثـم لم يلبث أن صب جام غضبه ــ مع تحفظنا على ما ذهب إليه ــ على معـاجم اللغة التى تحويها المكتبة الإسلامية اليوم وبيان أنها لاتسعف ولا تعين على دراسة نافعة لمفردات القرآن الكريم فى زمننا : فلسان العرب تجاورت فيه نصـوص تـباعدت عصـور أصحابها وتمازجت فيه اللغويات بالدينيات. أما القاموس المحيط فهو عصارات غير ممتزجة لثقافات متغايرة متباينة من فلسفية عقلية إلى طبية عملية فأدبية لغوية. فدينية اعتقادية أو غيرها.

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي، ص٤١-٤٢.

ثم أصدر حكما صارما لا يستثنى:

"معاجمـــنا لا تســـعف على شيء من تحقيق هذا الأصل الثابت في تدرج الألفاظ.."

ثـــم توجه بروح التحدى والرغبة فى تحمل هذه المسؤلية الجسيمة واجبا حتميا على عاتق أولئك الذين نذروا أنفسهم لخدمة هذا الهدف المصيرى: (ليس أمـــام مفسر القرآن حين يبتغي المعنى الأول لألفاظه إلا أن يقوم بعمل في ذلك مهمـــا يكـــن مؤقـــتاً وقاصراً فإنه هو كل ما يمكن اليوم وإلى أن نملك قاموساً اشتقاقياً تتدرج فيه دلالات الألفاظ وتتمايز فيه المعاني اللغوية على ترتيبها عن المعني الاصطلاحية على ظهورها"[1].

قلت: إذاً فالأستاذ الخولي يرى:

أولا: النظر في المفردات وذلك بوضع ترتيب زمني لتدرج دلالات الألفاظ ليعـــرف معنـــى اللفظـــة العربية وقت نزول القرآن الكريم مقارنة بمعانـــيها المـــتولدة بعد أن لاكتها ألسنة مختلفة الألوان والدماء ليتم التمييز بين المعنى اللغوي القرآنى والمعنى اللغوى المتولد من إعمال الألسنة باللفظ عبر القرون الطويلة .

ثانـــيا: لا يـــوجد معجم معاصر فى الوقت الحاضر يفي بهذا الغرض ولا بالحد الأدنى منه.

ثالـــثا: يوجب ذلك أن يقوم المفسر الأدبي بتحمل العبء كاملا والمتابعة للقيام بهذا الواجب الشرعى الذى تأخر القيام به ألف عام.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢-٤٣.

رابعا: يجب أن ينظر المفسر الأدبي في الألفاظ القرآنية من ناحيتين:

الأولى: النظر في المادة اللغوية للفظ الذي يريد تفسيره، لينحي فيها المعاني اللغوية عن غيرها ثم ينظر في تدرج المعاني اللغوية للمادة نظرةً ترتبها على الظن الغالب فتقدم الأسبق الأقدم منها على السابق حتى يطمئن -ما استطاع- إلى شيء في ذلك ينتهي منه إلى ترجيح معنى لغوي للكلمة كان هو المعروف حين سمعتها العرب في آي الكتاب...

الثانية: النظر الموضوعي الإستقرائي بعده في القرآن يتتبع ورودها فيه كله، ليتحصل له رؤية نهائية عن معناها القرآني، وبالخطوة السابقة مع هذه يتوصل بمعناها أو معانيها اللغوية إلى معناها أو معانيها الاستعمالية في القرآن، وهو بما ينتهي إليه من كل أولئك يفسرها مطمئناً في موضعها من الآية التي جاءت فيها"[1].

خامسا: عدم وجود معجم يعني بمفردات القرآن ويتتبع الألفاظ فيه إلا ما وصفه بمحاولة الراغب الأصفهاني منذ قرابة ألف عام أن يعطينا مفردات القرآن في قاموس خاص بها ووصفه بأنه "عانى فيها شبيهاً بما وصفنا أو بشيء من أصل فكرته ولكنه لم يتم التعقب اللغوي ولم يستوف التتبع القرآني وفاته مع ذلك كله فرق ما بين عصره وعصرنا في دراسة اللغات وصلاتها إلا أنه في كل حال نواة تخجل من بعده وبخاصة أهل هذا العصر الطموح فيؤلمهم ألا يملكوا إلا هذا

(١) المرجع السابق، ص٤٣-٤٤.

القامـــوس القرآنـــي الناقص بل البدائي. وبالتزام هذا المنهج الأدبي يرجى كمال هذا القاموس وقواميس أخرى تتطلبها حياة القرآن كتاب العربية الأعظم"[1].

سادســـا: هـــذا واجـــب ثقيل آخر على كاهل المفسر الأدبي للقرآن الكريم يـــتطلب مـــنه جهداً إلى جهده السابق، وقد خاض الأستاذ أمين فى المحاولـــة الشاقة فى معالجة تطبيقية لبعض الأحرف الهجائية على الطـــريقة التي أشار إليها في معجم ألفاظ القرآن الكريم وهو وإن لم يـــتمه إلا أنه مثلٌ عملي لما يمكن أن يقوم به المفسر الأدبي بجهده الذاتـــي فـــي غيبة المعجم المطلوب ولا شك أيضاً أنه مهد الطريق الوعـــر فـــي هـــذا المقام لمن أراد أن يسلك سبيل المعجم التاريخي لألفاظ القرآن الكريم[2].

مـــن هاتـــين الناحيتـــين الناحية اللغوية وناحية الاستعمال القرآني أوجب الأســـتاذ الخولي النظر في مفردات القرآن لينتقل المفسر الأدبي بعد هذه النظرة إلى النظر في المركبات.

٢- دراسة في المركبات:

وقد وضح الأستاذ الخولي أصول هذه الخطوة وما تحتاج إليه بقوله:

"ثم بعد المفردات يكون نظر المفسر الأدبي في المركبات وهو في ذلك – ولا مـــرْيَةَ- مســـتعين بالعلـــوم الأدبية من نحو وبلاغة.. الخ ولكن لا على أن

(١) المرجع السابق، ص٤٣-٤٤.

(٢) إتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر: د/ محمد إبراهيم شريف، ص٥٠٦-٥٠٧.

الصنعة النحوية عمل مقصود لذاته، ولا لون يُلوِّن التفسير كما كان الحال قديماً.. بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، والنظر في اتفاق معاني القراءات المختلفة للآيات الواحدة والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله.. ثم على أن النظرة البلاغية في هذه المركبات ليست هي تلك النظرة الوصفية التي تعني بتطبيق اصطلاح بلاغي بعينه، وترجيح أن ما في الآية منه هو كذا لا كذا، أو إدراج الآية في قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر!! كلا بل على أن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني وتستبين معارف -هذا الجمال وتستجلي قسماته في ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية مُنْضماً إلى ذلك التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته فناً فناً، وموضوعاً موضوعاً، معرفة تبين خصائص القرآن في كل فن ومزاياه التي تجلو جماله"[1].

ولا شك أن هذا المنهج في التفسير -بأصوله التي وضعها- منهج شاق جهيد مرهق ولم تخف هذه العقبة الكأداء على الأستاذ أمين الخولى ولكنه لم يخل من تفاعل وأمل ورغبة حميمة فى تجاوزها حين قال:

" ولئن كان مثل هذا مما يطلب أو يوصف في قليل من الجمل أو الأسطر فإن تحقيقه ليس بهذه السهولة والقرب، وإنما يقوم على إصلاح أدبي بلاغي أحسب أن الحياة الأدبية اليوم تحاوله وهي بالغة منه إن شاء الله مبلغاً حسناً،

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي، ص٤٤.

ومستفيدة به في التفسير الأدبي للقرآن كما تستفيد هذه المحاولة الإصلاحية نفسها بمزاولتها للتفسير القرآني"[1]

٣ـ الإعجاز النفسي روح الإعجاز البياني في القرآن

قال: "لأن ما استقر من تقدير صلة البلاغة بعلم النفس قد مهد السبيل إلى القول بالإعجاز النفسي للقرآن، كما كشف عن وجه الحاجة إلى تفسير نفساني للقرآن يقوم على الإحاطة المستطاعة بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية في الميادين التي تناولتها دَعَاوَة القرآن الدينية، وَجَدَله الاعتقادي، ورياضته للوجدانات والقلوب واستلاله لقديم ما اطمأنت إليه، وتوارثته عن الأسلاف والأجيال وتزيينها بما دعا إليه من إيمان، ينقض مبرم هذا القديم ويهدم أصوله.. وكيف تلطف، القرآن لذلك كله، وماذا استخدم من حقائق نفسية في هذه المطالب الوجدانية والمرمي القلبية، وماذا أجدت رعاية ذلك كله في إنجاح الدعوة وإعلاء الكلمة. فالتفسير النفسي يقوم على أساس وطيد من صلة الفن القولي بالنفس الإنسانية وأن الفنون على اختلافها -ومن بينها الأدب- ليست إلا ترجمة لما تجده النفس"[2].

إلى أن قال: "فالملاحظة النفسية حين تعلل نسج الآية وصياغتها وتعرف بجو الآية وعالمها، ترفع المعنى الذي يفهم منها إلى أفق باهر السناء، وبدون

---

(١) المرجع السابق: ص٤٤.

(٢) التفسير معالم حياته منهجه اليوم أمين الخولي، ص٤٥.

هـذه الملاحظـة يرتد المعنى ضئيلاً ساذجاً لا تكاد النفس تطمئن إليه، ولا هو خليق بأن يكون من مقاصد القرآن"[1].

فائدة

كن بانيا نافعا ولا تكونن من الهادمين

ورغم أن هذا المنهج كما بيناه لك بقى مصحوبا بالأمل الوردى والرغبة العارمة فى تخطى العقبات الكثيرة المقعدة والمحبطة مع أنه: " لم يَرَ النور في محاولة ما، من محاولات أتباعه، وإنما وقعت محاولاتهم موقعاً بعيداً عن الأمل الطموح بصورة أو بأخرى...".[2]

فيكفى أنهم وقفوا حياتهم على تقرير أصوله وترسيخ أركانه حتى غدا علما مقررا وكوة من ضياء وإضافة تفسيرية واقعة بين الثمار البهية البهيجة للمدرسة العالـية المهيـبة لتفسـير القـرآن الكريم، ولا شك أن أى من العلوم وخاصة الطموحة منها والمتوثبة الجريئة إنما تستوى على سوقها وتؤتى أكلها بتضافر جهـود معتنقيها وأنصارها وتراكم خبرات المؤمنين بها جيلا بعد جيل وتتابع الجهـود قطـرة قطـرة وتكاتف الأيدى والقلوب والعزائم والأبصار، فإذا بنهر رقراق متدفق متجدد من العطاء والخير العميم على أزمنة مديدة مباركة، ويبقى بعـدها للـرواد الأوائـل والصفوة المبدعة الخلاقة أولئك الذين فجروا جذوتها وبـذروا نبتـتها المباركة فضل السبق والريادة مهما تواضعت جهودهم بالنسبة للآتـين مـن بعـدهم وكثرت زلاتهم إلى زلات من سلكوا على دربهم وخلف

(١) التفسير معالم حياته منهجه اليوم أمين الخولي، ص٤٥.

(٢) إتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر: د/ محمد إبراهيم شريف، ص٥٠٨.

سـراجهم الذى أوقدوه وكفى لهم شرف المحاولة المستميتة وإن لم يتم البناء أو تكـتمل اللبـنات مع الإقرار التام بأنهم ربما كانوا أعظم طموحا من قدراتهم أو أوقد أذهانا من حصاد أيديهم، وهو معلوم مقرر بين أهل العلوم الدنيوية والدينية جميعا دون خلاف بينهم وإلا فراجع سير المخترعين والمبدعين والرواد الأوائل فـى كافة العلوم، وعليه فلسنا نرى ما يراه البعض من النظرة النقدية الصارمة التـى لا تـرحم، المتتـبعة لـنقاط الضعف والقصور والتقصير والمفتشة عن الإخفاقات والعثرات والعورات، يطلبون علما جديدا كاملا مكتملا لا يحتاج إلى إضـافة أو تتمة، شجرة تامة كاملة مثمرة وارفة الظلال عظيمة الفروع كله فى جـيل واحد بل على يدى فرد واحد، النظرة القاتمة المقعدة عن التقدم والتجديد وهـى نظرة هادمة لا محل لها فى الواقع، ولو اتبعها أكثر الناس ما بقى حجر علـى حجـر إلا نقـض ولا محاولة إلا هدمت ولا همة إلا كسرت ولا عزيمة ماضـية إلا فلت، وكان حريا بهؤلاء تشجيع الفتوح الكبرى التى تمت فى عالم التفسـير تلـك التـى حظيت بالقبول من الجم الغفير الطيب الطاهر من علماء الإسـلام، فإن الأفكار الفاتحة الطموحة المتجردة والمخلصة والعمل لها بحسب الطاقـة البشـرية ما أمكن هى السرج التى تضىء فى غيابات الظلمات، وإن الكشف عن البذرة الطيبة وغرسها كاف لتصير شجرة طيبة مع تعهدها بالعناية والـرعاية والزمن الطويل فإذا بحديقة وارفة الظلال بهيجة الثمار، وما بيناه لك فـى جـلاء هوشـروط لا تتخلف فى مسيرة العلم وأهله فاعلمها، لا التأنيب والتحقير لمجرد أن أحدهم غرس الغرسة ولم يقدر له من الأجل لتصير شجرة أو لأن أحدهم حرث حرثا ولم تنهض به الهمة ليصير جنة غناء، وقد جاء عن النبـى صلى الله عليه وسلم (لا تحقرن من المعروف شيئا) فكيف إذا كان كشفا

علمـيا متميـزا وخدمـة بالغة للقرآن الكريم وترسيخا للمعانى الكبار فى حفظ الكـتاب. وإنمـا أردت مـن طالـب العلم أن يكون جنديا نافعا فى هذه الكتيبة الناصـعة على طريق خدمة كتاب الله تعالى يمدها ويقوى من عزمها ويضيف إلـيها مهمـا ضعفت الإضافة ويقوم من العوج كلما وجده دون هدم أو تشغيب، ومن يدرى ربما فتح الله تعالى بنعمة الإخلاص وجعله محلا للكشف عن الآيات المخـبوءة والكـنوز الغالية المكنونة بين طيات هذا الكتاب العجيب الذى حاز المساعى جميعها، وكان له الشرف الأبدى فى اكتشاف النبتة وغرسها فكانت به سـنة علمـية حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، أما المتابعة والتكميل والتقويم والتعديل فكلها بإذن الله تعالى أمور متاحة وممكنة وفى متناول الأيـدى متـى ما صدقت النوايا وصحت القلوب ووعت العقول وتجردت الهمم وقـبل ذلك جميعه إذا وفق الله تعالى العاملين له إلى ما يحبه ويرضاه نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن اختارهم لخدمة كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يختم لنا على كتابه الكريم ويجعلنا من أهله آمين.

أركان منهج التفسير البيانى الموضوعى

مـن كـل مـا تقدم تتحصل بين أيدينا الحلقات المتماسكة لمنهج التفسير الموضـوعى البيانـى وهـي أبرز الأركان التي رسمها الأستاذ أمين الخولي لمنهجه في التفسير ألا وهى:

أولاً: جمع الآيات ذات الموضوع الواحد بعضها إلى بعض وتدبرها جميعاً وتفسيرها بحسب هذا المنهاج.

ثانـــياً: تـــرتيب آيات الموضوع الواحد ترتيباً زمنياً ــ ما أمكن ــ حسب تاريخ نزولها.

ثالثاً: دراسة خاصة حول النص تقوم على تاريخه ونزوله وجمعه وكتابته وقراءته من علوم القرآن.

رابعـــاً: دراســـة عامـــة للبيئة التي نزل بها هذا النص، البيئة المادية في الأرض والسماء والجبال والسهول والأودية والمعنوية في تاريخ هذه الأمة ونظمها وأعرافها وعاداتها وتقاليدها.

خامساً: دراسة النص القرآني في مفرداته بدراسة: استعمالات هذه المفردة لغـــوياً. ودراســـة اســـتعمالها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة ومدلولها في كل موضع.

سادســـاً: دراسة النص القرآني في معانيه المركبة وذلك بالاستعانة بالعلوم الأدبـــية من نحو وبلاغة على أن النحو أداة من أدوات بيان المعنى وتحديـــده، وعلـــى أن الـــبلاغة هي النظرة الأدبية الفنية التي تتمثل الجمـــال القولـــي فـــي الأســـلوب القرآني، مع التأملات العميقة في التـــراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة مزايا كل منها ولمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته.

ســـابعا: دراسة نفسية تربوية مصاحبة وبها تتجلى عظمة البيان القرآنى، ويتفرد التناول القرآنى فى قيادة الأمم وتربية الأفراد.

علـــى أنـــا يجب أن نذكر هاهنا فى خاتمة هذا المبحث أن الأستاذ الخولي الـــذى تجـــرد لمـــنهجه منطلقاً لقيامه بخدمة علم البيان وعلم التفسير في كلية

الآداب بجامعة فؤاد الأول[1] فى غمار محاولاته المستميتة لترسيخ أسس هذا المذهب التفسيرى البيانى قد قرر في خاتمة بيانه لمنهجه أنه عازم أشد العزم على المواصلة فى دأب ودون خور أو تردد ومهما كانت العواقب والتبعات فى ظروف وقدرات ومعطيات غير مواتية فى أمل عنيد بشأن هذا العلم الناشىء فى أن ينمو وينضج إذا ما سلك المؤمنون به على ذلك الدرب الشاق[2] الذي شقه وفجر شرارته الأولى.فإنه لن يكون من العاجزين حيث يقول:

"مهما يكن لهذه المطلب من أثر يثقل خطانا ويؤخر أثمار دراستنا ويشعرنا بالنقص ويعود علينا باللائمة فإن هذه هي الحقيقة، وهذا هو الواجب، وأولى لنا أن نؤثر تقرير هذه الحقيقة على أن نكذب على أنفسنا وعلى الأجيال فنزعم الكفاية الكاملة والقدرة الموفورة، ولئن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف.. وليس الذي نبغيه من هذا المنهج مستحيلاً ولا بعيد التحقق، فقد شعر أسلافنا بجملته، وقاموا ببعضه للقرآن، ثم قام المحدثون به كله لكتبهم الأدبية والدينية، ولن نكون نحن بين هؤلاء وأولئك الضائعين العاجزين!!"[3].

****

(١) المرجع السابق، ص٣٣.

(٢) إتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر د/ محمد إبراهيم شريف، ص٥١٠.

(٣) التفسير معالم حياته منهجه اليوم، ص٤٦-٤٧.

نماذج من التفسير الموضوعي البياني

للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)[1]

(1)عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ": تلقت علوم الإسلام والعربية على مناهج الأزهر الشريف على والدها وزملائه الشيوخ بالمعهد الديني الأزهري بدمياط وتقدمت من المنزل لامتحان كفاءة المعلمات سنة ١٩٢٩م ثم الشهادة العامة الابتدائية سنة ١٩٣١م والكفاءة والثانوية سنة ١٩٣٢م والبكالوريا أدبي سنة ١٩٣٤م دون أن تلتحق بأية مدرسة لهذه المراحل. ثم تابعت الدراسة الجامعية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة حتى نالت: الليسانس الممتازة في اللغة العربية سنة ١٩٣٩م. الماجستير في الآداب سنة ١٩٤١م. الدكتوراه في الآداب، تخصص نصوص سنة١٩٥٠م.

وتدرجت في المناصب الجامعية من معيدة بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة سنة ١٩٣٩م ومدرس مساعد بالقسم سنة ١٩٤٢-١٩٤٤م إلى مدرس بجامعة عين شمس سنة ١٩٥٢م وأستاذ مساعد سنة ١٩٥٧م ثم أستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها سنة ١٩٦٢م حتى استقرت أستاذاً للتفسير والدراسات العليا بكلية الشريعة جامعة القرويين سنة ١٩٧٠ إلى اليوم.

مؤلفاتها:قدمت المؤلفة إلى المكتبة العربية نحو أربعين كتاباً، منها: في الدراسات القرآنية والإسلامية: التفسير البياني للقرآن الكريم: في جزءين (طبع خمس طبعات).الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (طبعتان). مقال في الإنسان (دراسة قرآنية). القرآن والتفسير العصري، سلسلة إقرأ (٣٣٥). القرآن وقضايا الإنسان: (ست طبعات). الشخصية الإسلامية (دراسة قرآنية) (خمس طبعات). مع المصطفى عليه الصلاة والسلام (أربع طبعات). تراجم سيدات بيت النبوة في (خمسة أجزاء) (خمس عشرة طبعة). الإسرائيليات في الغزو الفكري. مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث (نص محقق). محاسن الاصطلاح للسراج البلقيني (نص محقق). في الدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية لها عدد من المؤلفات أذكر منها: لغتنا والحياة. تراثنا بين ماضٍ وحاضر.الخنساء.أبو العلاء المعري. الحياة الإنسانية عند أبي العلاء. مع أبي العلاء في رحلة حياته. قرآءة جديدة في رسالة الغفران. الغفران دراسة نقدية. رسالة الغفران لأبي العلاء (تحقيق). أرض المعجزات. وغير ذلك من المؤلفات والبحوث وأشرفت على عدد كبير من

تقرر بنت الشاطئ التزامها الحرفي واتباعها التام وإخلاصها المطلق للمنهج الموضوعي البياني الذي تلقته عن أستاذها أمين الخولي:

"والأصل في منهج التفسير الأدبي -كما تلقيته عن أستاذي- هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه، فيجمع كل ما في القرآن عنه ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك.. وهو منهج يختلف تماماً عن الطريقة المعروفة، في تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية به مقتطعاً من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه أو استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية"(١).

غير أنها مع التزامها التام بخطى أستاذها حذو القذة بالقذة قد أنصفت واعتدلت في بعض المسائل الشاذة التي أثارت العجب في ما قرره الخولي والتي أشرنا لها آنفا فبينما كان الخولي يؤكد أن "المقصد الأول للتفسير أدبياً محضاً صرفاً" كما تقدم فقد عدلت تلميذته هذا إلى قريب مما كان عليه عامة أهل العلم من أن الدراسة اللغوية للقرآن الكريم أصل لا غنى عنه للمفسر بمعنى أن الوقوف على اللغة بكافة فروعها وأسرارها شرط لا يتخلف للمفسر عند النظر في كتاب الله تعالى، وهو أصل مقرر بين العلماء سلفا وخلفا مبسوط في كافة المصنفات قديمها وحديثها كلما جاء ذكر شروط التفسير وما يتوجب على

الرسائل العلمية في مختلف البلدان العربية وشاركت في عدد من المؤتمرات. (بيان وتقرير عن الأستاذ الدكتورة عائشة عبد الرحمن المرشحة من جامعة عين شمس لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة ١٤٠٣) ولم تحصل عليها.

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم: د/ عائشة عبد الرحمن، ج١ ص١٨.

المفسر لزاما أن يقف عليه، وفرق شاسع بين هذا المذهب الرشيد الذى لزمه عامة الأعلام من علماء الإسلام وأهل التفسير وبين ما سبق أن أوردناه عن أمين الخولى من أن الدراسة الأدبية هى عين التفسير ولا فرق، بل يجب أن تكون أدبية محضة صرفة دون مراعاة لأى معنى أو اعتبار دينى أو عقدى قالت مصححة لهذا الخلل: (إن الذي يُعنَون بدراسة نواحٍ أخرى فيه –أي في القرآن– والتماس مقاصد بعينها منه لا يستطيعون أن يبلغوا من تلك المقاصد شيئاً دون أن يفقهوا أسلوبه الفذ ويهتدوا إلى أسراره البيانية كي لا يغيب عنهم شيء من دلالاته فسواء أكان الدارس يريد أن يستخرج من القرآن أحكامه الفقهية أو يستبين موقفه من القضايا الاجتماعية أو اللغوية أو البلاغية أم كان يريد أن يفسر آيات الذكر الحكيم تفسيراً عاماً على النحو الذي ألفناه في كتب التفسير فهو مطالب بأن يتهيأ أولاً لما يريد ويُعد لمقصده عدته من فهم مفردات القرآن وأساليبه فهماً يقوم على الدرس المنهجي الاستقرائي ولمح أسراره في التعبير»[1].

قلت: وحاصله أن المفسر لن يبلغ مراده من الفهم العقدى والفقهى والإجتماعى وغيرها من وجوه التفسير إلا بالوقوف الراسخ على أسرار العربية والولوغ العميق إلى أغوارها وكنوزها حتما لفتح مغاليق المعانى والفهم الراشد والتفسير الحميد وهو الحق الذى كان عليه سلف الأمة وخلفها فاعلمه.

(١) المرجع السابق، ج١ ص١٥.

إضافات إلى منهج التفسير البياني الموضوعي

وقد أضافت إلى ما أثبته شيخها مزيدا من الضوابط الأصولية لاستكمال الحلقات المفقودة عند الممارسة الفعلية لتطبيق المنهج [1]:

أولاً: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

قالت: "إن المرويات في أسباب النزول موضع اعتبار في فهم الظروف التي لابست نزول الآية مع تقدير أن الصحابة الذين عاصروا نزولها ورُويَتْ عنهم أقوال فيها ربطها كل منهم بما وهم أو فهم أنه السبب في نزولها وهذا هو معنى قول علماء القرآن: أن المرويات في أسباب النزول يكثر فيها الوهم، ونقدر معه أن السببية فيها ليست فمعنى العلية التي لولاها لما نزلت الآية وأن العبرة في كل حال بعموم اللفظ المفهوم من صريح نصها لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه"[2].[3]

كذلك ماأوردته من سبب نزول قوله تعالى: (أرأيت الذي يكذب بالدين)[4]، قالت: "وقالوا في أسباب النزول أنها نزلت في: أبي سفيان أو العاص بن وائل

---

(١) جمع هذه القواعد الدكتور كامل سعفان في كتاب "المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم"، ص ١١٥-١١٩.

(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم: د/ عائشة عبد الرحمن، ج٢ ص٩.

(٣) ذهب جمهور الأصوليين إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما ذهبت إليه المصنفة غير أنهم أوجبوا العلم بأسباب النزول ضرورة لفهم الآيات والوقوف على ملابساتها وهو معلوم فى قواعد تفسير القرآن الكريم فليراجع فى مواضعه.

(٤) سورة الماعون: الآية الأولى.

السهمي أو الوليد بن المغيرة، أو أبي جهل وقال ابن عباس: "نزلت في منافق جمع بين البخل والمراءاة" والعبرة على كل حال بعموم اللفظ"[1].

تطبيق عملي على قاعدة:

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

في تفسير قوله تعالى: (إن الإنسان في خسر إلا الذين آمنوا)[2]، قالت: "وللمفسرين في الإنسان قولان: إنه لعموم الجنس أو أن (أل) للعهد مراداً بالإنسان جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب.. ولا نقف عندما اختلفوا فيه فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية والسياق ظاهره لا يخص الإنسان بفلان أو بآخر والتعميم فيه مستفاد صراحة من الإطلاق ثم استثناء (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهذا الاستثناء ينقطع إذا ما كان الإنسان خاصاً بالمعهودين الذين ذكروهم وليس فيهم من يخرج بالاستثناء مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات"[3].

ثانياً: الاستقراء الموضوعي التام للفظ القرآني في القرآن الكريم:

وقد اعتنت الدكتورة عائشة عبد الرحمن بهذا الأصل عناية كبيرة فجاء تفسيرها محتوياً على معجم لألفاظ السور التي تناولتها بالتفسير،.وكما ستبين لك من الأمثلة القليلة التي نوردها هاهنا بما يناسب هذا المختصر أنها تستفرغ الجهد

---

(١) التفسير البياني: د/ عائشة عبد الرحمن، ج٢ ص١٨٥.

(٢) سورة العصر: الآية٢.

(٣) التفسير البياني: د/ عائشة عبد الرحمن، ج٢ ص٨١.

في استقراء معاني اللفظة المقصودة بالدراسة في القرآن ومدلولاتها حتى تصل إلـــى مـــا ترى أنه الصواب مستبعدة معان يحتملها اللفظ العربى إذا كان السياق القرآنى لا يدل عليه بحال قالت " أن القول بدلالة خاصة للكلمة القرآنية لا يعني تخطئة سائر الدلالات المعجمية وإنما يعني أن لهذا القرآن معجمه الخاص وبيانه المعجز فلا يعترض معترض بأن العربية تعرف صيغاً ودلالات أخرى للكلمة".

ولا شك أنها تصيب كثيرا وتقف على نكات بديعة من جراء هذه المحاولة الطموحة غير أنه لا يمنع من الخطأ البشرى الحتمى المكتوب على بنى آدم من الله تعالـــى قـــدرا مقـــدورا .وفي مقدمة تفسيرها قالت مبينة هذا الأصل ومدى عنايتها به:

" والمنهج المُتبع هنا هو الذي خضعت له فيما قدمت من قبل، بضوابطه الصـــارمة التي تأخذنا باستقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده للوصول إلـــى دلالته.. وإذ نضع معاجم العربية وكتب التفسير في خدمة هذا المنهج فإننا نحاول أن ندرك حس العربية للألفاظ التي نتدبرها من النص القرآني عن طريق لمـــح الدلالة المشتركة في شتى وجوه استعمالها لكل لفظ، وواضح أنه لا سبيل إلـــى دراسة أي نص في لغة ما دون فقه لألفاظه في لغته، ثم يكون للنص بعد ذلـــك أن يحـــدد لكل لفظ دلالته الخاصة من شتى الدلالات المعجمية أو يضيف إليها ملحظاً ينفرد به"[1].

(١) التفسير البياني: د/ عائشة عبد الرحمن، ج٢ ص٧-٨.

تطبيق عملي

لقاعدة استقراء اللفظ القرآني في المصحف

تقول الدكتورة عائشة في معنى الساعة من قوله تعالى: (يسألونك عن الساعة أيان مرساها)[1]: "ولفظ ساعة في العربية يعني الجزء من الوقت، وأضيف إليه حديثاً استعمالها في جزء محدد منه بستين دقيقة.

ويستعمل مُعرفاً بـ(أل) للعهد في الوقت الحاضر فيقال أزورك الساعة أي الآن، ثم غلب على الساعة استعمالها في الآلة الضابطة للوقت، بعد اختراعها.

لكن للقرآن استعماله الخاص للساعة، فهو لا يستعملها نكرة إلا في برهة من الوقت قصيرة دون تحديد لها بالدقائق والثواني:

[الروم:٥٥]: (يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة).

[النحل:٦١] (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)، ومعها الأعراف:٣٤، وسبأ: ٣٠ ويونس:٤٩.

[يونس:٤٥]: (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار).

[الأحقاف:٣٥]: (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار).

أما حين يستعمل القرآن (الساعة) مُعرفة بأل، فتلك -دائماً- هي ساعة الآخرة، ولم يتخلف هذا في أي موضع من المواضع الأربعين التي: جاءت (الساعة) فيها في القرآن الكريم.

---

(١) سورة النازعات: الآية٤٢.

والملحـــظ البياني في هذا الاستعمال المضطرد أن هذه الساعة تتفرد دون ســاعات الــزمان كله بأنها الحاسمة الفاصلة التي يتغير فيها نظام الزمن وسير الكــون، لما يحدث فيها من حدث هائل خطير وهو معنى يقوي ويتضح بإسناد القــيام والإتيان والمجيء إلى هذه الساعة المتميزة الحاسمة دلالة على بروزها وشخوصها وفاعليتها.

[الأنعام:٣١]: (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة).

[الأنعام:٤٠]: (أو أتتكم الساعة).

[يوسف:١٠٧]: (أو تأتيهم الساعة بغتة)، ومعها الحج:٥٥، والزخرف:٦٦، ومحمد:١٨.

(ويوم تقوم الساعة) [الروم: ٥٥،١٤،١٢]، ومعه المؤمنون:٤٦، والجاثية:٢٧.

[سبأ:٣]: (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بل وربي لتأتينكم).

[القمر:١]: (اقتربت الساعة وانشق القمر).

[الكهــف:٣٦]: (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة).

[فصــلت:٥٠]: (ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة)"[1].

(١) التفسير البياني: د/ عائشة عبد الرحمن، ج١ ص١٤٤-١٤٥.

مثال ثان

للإستقراء الموضوعي للفظ القرآني

لفظ: "يتيماً" في قوله تعالى: (ألم يجدك يتيماً فآوى)[1]

مع الإستعانة بأقوال أهل التفسير في المراد باليتيم قالت: "ففي اليتم والإيواء قال "الرازي" إنه من قولهم درة يتيمة، والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير، فآواك أي جعل لك من تأوي إليه وهو أبو طالب، وقرئ: فأوى -بالتخفيف- أي رحم.

ويقول الزمخشري، مُحقاً: "إن تفسير يتيم هنا بالدرة اليتيمة من بدع التفاسير" وإنما اليتم عنده فقدان الأب، ومثله أبو حيان في البحر، والشيخ محمد عبده.

وقال "الراغب" في المفردات: اليتم -في آية الضحى- انقطاع الصبي من أبيه قبل بلوغه.

وهذا هو الأصل في اليتم لغةً، ثم قيل لكل منفرد: "يتيم ومنه الدرة اليتيمة أي المنفردة".

ثم بعد أن ساقت هذه الأقوال للمفسرين قالت: "ونحتكم إلى القرآن، فتراه استعمل اليتيم، مفرداً ومثنى وجمعاً ثلاثاً وعشرين مرة كلها بمعنى اليتم الذي هو فقدان الأب ويلحظ فيه اقتران اليتم بالمسكنة في عشرة مواضع:

(١) سورة الضحى: الآية٦.

البقرة: ٨٣، ١٧٦، ٢١٥، والنساء: ٧، ٣٥، والأنفال: ٤١، والحشر: ٧، والدهر: ٨، والفجر: ١٧، والبلد: ١٥.

كما ذكر فيه من آثار اليتيم: الجور، وأكل المال: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) [النساء:١٠] ومعها الأنعام: ١٥٢، والإسراء: ٣٤، والنساء: ٢، ٦. وعدم الإكرام: (كلا بل لا تكرمون اليتيم* ولا تحاضون على طعام المسكين) [الفجر: ١٨،١٧].

والدع: الذي هو الدفع العنيف مع جفوة: (أرأيت الذي يكذب بالدين* فذلك الذي يدع اليتيم* ولا يحض على طعام المسكين) [الماعون: ١-٣].

والقهر، في آية الضحى:٩.

وبهذا البحث الإستقصائى توصلت إلى النتيجة التى قررتها دون تردد باستبعاد تفسير البعض لليتيم بأنه الفريد الوحيد، جازمة بأنه فقط فاقد الأب حسبما قرره السياق القرآنى فى كافة مواضعه ثم جزمت بالتفسير المتعين بحسب ما توصلت إليه قائلة: "وأمام هذا التتبع لا نملك إلا أن نستبعد تفسير اليتم بغير ذاك الذي في القرآن وقد ولد محمد يتيماً، ثم تضاعف يتمه بموت أمه وجده، لكنه تعالى نجاه من آثار اليتم التي هي: بشواهد من آيات الكتاب الكريم: الدع، والقهر، والانكسار، الجور، مما كان مظنة أن يكسر نفسه، فلا يتطلع إلى بعيد الآفاق فذلك هو قوله تعالى: (ألم يجدك يتيماً فآوى)، ترشيحاً بهذا الإيواء الإلهي -غير المقيد بمتعلق- إلى ما بعده من نعمة الهداية بعد حيرة، وتهيئة لحمل الرسالة الكبرى"[1].

(١) التفسير البياني: د/ عائشة عبد الرحمن ج١ ص٤٣-٤٤.

ثالثا: التفسير الموضوعي البيانى للسورة

البحث الموضوعى هو الأصل الأصيل الذى ارتكنت إليه الدكتورة بنت الشاطىء المنهج في التفسير قالت:

"والأصل في منهج التفسير الأدبي – كما تلقيته عن أستاذي- هو التناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه فيجمع كل ما في القرآن عنه ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك... وأتجه بمحاولتي اليوم إلى تطبيق المنهج في تفسير بعض سور قصار ملحوظ فيها وحدة الموضوع فضلاً عن كونها من السور المكية حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية"(١).

وقد التزمت الدكتور عائشة هذا الأصل الذي دعت إليه ولكن جله فى قصار السور نظرا لوضوح الوحدة الموضوعية فيها: " فإن المؤلفة فسرت هذه السور القصار، فلم تبعد كثيراً –عن التفسير الموضوعي لأن الوحدة الموضوعية ملحوظة في كل سورة على حدة إلى حد ما، وفوق ذلك فإن تفسير السور يفتح مجالات أخرى أمام المفسر، قد تختلف عن الدراسة الموضوعية ومن ذلك مثلاً مسألة المناسبة بين الآيات وملاحظة السياق في السورة الواحدة"(٢).

---

(١) التفسير البياني: د/ عائشة عبد الرحمن ج١ ص١٨.

(٢) إتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث: د/ عفت محمد الشرقاوي، ص٣١٧ "وإتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر": د/ محمد إبراهيم شريف، ص٥٩٧.

تطبيق عملي

التفسير الموضوعي البياني لقصار السور

قالت الدكتورة عائشة في تفسير سورة العاديات:

" وتبدأ بعرض صورة مثيرة لغازة عنيفة مفاجئة، تباغت القوم صبحاً فلا ينتبهون غليها إلا وقد توسطت جمعهم فبعثرتهم وسط عاصفة من النقع المثار. وتقع هذه الصورة العنيفة بعد واو القسم لافتة إلى ما عهد القوم من مثل تلك الغارات المفاجئة المصبحة، وما تحدث من بعثرة وحيرة وارتباك ثم تأتي بعدها صورة أخرى لغيب غير مشهود، ولكنه واقع حتماً.. ذلك هو البعث يفجأ على غير موعد فإذا هم في حيرة وبعثرة وارتباك، وقد لفظتهم القبور لليوم الآخر كالفراش المبثوث، وإذا كل ما في صدورهم قد حصل لم تفلت منه خافية مضمرة، مطوية في أعماق الصدور ومستكن الضمير.

وفي كل لفظ من السورة بل في كل حرف منها سره البياني الرائع فيما قصد إليه القرآن من إحضار مشهد ليوم البعث شاخصاً مجسماً، وتأكيد وقوعه، والإنذار بما ينتظر الإنسان فيه من حساب دقيق عسير"[1].

هذا مثل تطبيقي للبحث الموضوعي في التفسير عند الدكتورة عائشة.

---

(١) التفسير البياني: د/ عائشة عبد الرحمن ج١ ص١٥١.

الفصل الثانى

التفسير التحليلى الموضوعى

ضرب فريد من التفسير الموضوعى مثاله الظاهر هو تفسير المنار

التفسير التحليلي الموضوعي

التفسير التقليدي (التحليلي) – واستطرادات موضوعية

ومـــن أقدم امثلة هذا النوع من التفسير الذي يتقيد بصورة صارمة بالمنهج التحليلـــي بحذافيره، ولكنه يستطرد في الموضوعات بحسب المنهج الموضوعي إثـــناء مســـيرته الطـــويلة تحليلاً كاملاً من أول القرآن إلى آخره، من أقدم هذه الأمثلة هو تفسير ابن كثير رحمه الله.

فهـــو تفسير تحليلي بالمأثور بشكل كامل ولكنه مع ذلك كلما دعت الحاجة جمع آيات الموضوع في مكان واحد وخرج منها حكماً مجملاً ومثال ذلك:

عند تفسيره لقول الله تعالى في سورة البقرة:

" فأخبـــر أنـــه لا يستصـــغر شيئاً يضرب به مثلاً، ولو كان في الحقارة والصـــغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف من ضرب المـــثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله تعالى: (يا أيها الناس ضـــرب مـــثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباب ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب) الحج ٧٣

وقال تعالى:

" مـــثل الـــذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبون اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون " **العنكبوت ٤١**

وقال تعالي:" ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء* تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * و مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار " إبراهيم ٢٤، ٢٥، ٢٦ .

و قال تعالي:" ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء " ثم قال:"وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجه لا يأتي بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل " الآية النحل ٧٥-٧٦ .

كما قال: " ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم " الآية الروم ٢٨ .

وقال " ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون " للآية الزمر ٢٩

قال: " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " العنكبوت ٤٣

وفي القرآن أمثال كثيرة " انتهى[١]

فهذه كما ترى عملية سرد موضوعي استطرادي داخل تفسير تحليلي بالدرجة الأولى، وكثيراً ما لجأ ابن كثير إلى هذا المنهج، وإن كان غير مقصود لذاته، وكذلك غير ظاهر في تفسيره لغلبة التحليل والأثر عليه.

(١) تفسير ابن كثير – جـ١ صـ ٦٤-٦٥

مثال معاصر

ولكـــن أظهر مثال لهذا الصنف هو تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وهو الـــذي صـــاحب الشيخ محمد عبده في دروسه وحياته ,والشيخ محمد عبده في دروســـه وحـــياته، والشـــيخ محمد عبده كما ذكرنا سابقاً، هو الذي بدأ التفسير الموضوعي في صورته المعاصرة.

غيـــر أن محمـــد رشيد رضا نحا طريقاً أكثر سلفية، وبعداً عن الغرائب التفسيرية التي أخذت على تفسير محمد عبده. كذلك نهج نهجاً تحلياً ظاهراً أول القرآن حتى توفاه الله ولم يكمله، بل وصل إلى سورة يوسف. ولكن تفسيره امتلأ بالموضـــوعات المتكاملة الاستطرادية داخل تفسيره التحليلي وعندنا هو نموذج بـــارز لهـــذا النوع المختلط من التفسير التحليلي فى الأساس مع دخول التفسير الموضوعي عليه وبين ثناياه.

" إن اســـلوب الامـــام محمـــد عبده – وتلاميذه، في تلمس وجوه العظة، والتعـــرف على جوانب الهداية في النص القرآني، كان سلوكاً تقليدياً لا يختلف عـــن غيرهم من المفسرين السابقين، بمعنى أنهم لم يتخلوا بتاتاً عن تتبعهم نص القرآن بشكله الوارد عليه في المصحف الإمام "[1]

وهكذا كان تفسيراً تحليلياً شأنه شأن غيره ممن سبق من المفسرين الذين:

" نهجـــوا من تاريخهم سبيلاً واحدة لم يدعوها، وهي تفسير القرآن حسب الســـور وبترتيب الآيات في المصحف، حتى الذين اتجهوا منهم لآيات الأحكام

(١) اتجاهات التجديد – مرجع سابق صـــ ٢٥٠

كالجصاص وابن العربي والقرطبي وغيرهم، وهم مدركون تماماً أن هذه الآيات لا تفسر إلا مجتمعة لتقييد بعضها أو اجماله أو نسخه ببعضها الآخر "[1].

فالمسحة التحليلية التقليدية هي السمة الظاهرة على تفسير المنار. ولكنه امتلأ بالمباحث الموضوعية وهكذا سماه مؤلفه:

" تفسير سلفي أثري مدني عصري ارشادي اجتماعي سياسي ". بل حدد هدفه من تأليفه:

التفسير الموضوعي. وما نعنيه بقولنا هذا أن تفسير محمد عبده، والمنار قد افترق العلماء في تقييمها بين معارض محض ومؤيد محض وبينهما طائفة توسطت. ونحن نسجل ها هنا مآخذ على تفسير محمد عبده كما أوردنا سابقاً من بعض الغرائب والشطط في تفسيره لبعض الآيات لا مجال لذكرها هاهنا. ولكن هذا لا يخرجه عن كونه أول من بدأ التفسير الموضوعي والفرق ظاهر بين المسألتين فتنبه.

محمد رشيد رضا[2]

هو محمد رشيد، بن علي رضا، بن محمد شمس الدين، بن محمد بهاء الدين، بن منلا علي خليفة، القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، واحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد ونشأ في القلمون، وهي بلدة من أعمال طرابلس الشام، سنة ١٢٨٢هـ، الموافق سنة ١٨٦٥م، وتوفي في مصر سنة ١٣٥٤هـ

(١) الوحي المحمدي – رشيد رضا (ك) من تصدير الطبعة الثانية

(٢)اتجاهات التجديد – صـ ٢٨٨

الموافق سنة ١٩٣٥م.، وقد نظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف. ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ، فاتصل بالشيخ محمد عبده وتتلمذ عليه، وتعاونا في اصدار تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار.

وأصدر الشيخ رشيد رضا مجلة المنار، لبث آرائه في الإصلاح الديني الاجتماعي، وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، ولما أعلن الدستور العثماني (سنة ١٣٢٦هـ) زار بلاد الشام، واعترضه في دمشق، وهو يخطب على منبر الجامع الأموي. أحد العلماء الرافضين لمنهجه، فكانت فتنة، عاد على أثرها إلى مصر وانشأ مدرسة (الدعوة والإرشاد) ثم قصد سورية في أيام الملك فيصل بن الحسين، وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري فيها، وغادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها (سنة ١٩٢٠) فأقام في وطنه الثاني (مصر) مدة من الزمن، ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا، وعاد فاستقر في مصر إلى أن توفى فجأة في (سيارة) كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة ودفن بالقاهرة سنة ١٩٣٥م.

اشهر مؤلفاته:

نداء الجنس اللطيف.، الوحي المحمدي،.يسر الإسلام وأصول التشريع العام، الخلافة، الوهابيون والحجاز.، محاورات المصلح والمقلد،.ذكرى المولد النبوي،.شبهات النصارى وحجج الإسلام.، تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده (ثلاث مجلدات).، تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار)، طبع منه ١٢ مجلداً، ولم يكمل تفسير القرآن بل وصل إلى الجزء الثاني عشر منه.

ومات عند تفسير قوله تعالى: "رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين" سورة يوسف:١٠١.

منهج الربط بين التفسير التحليلي والموضوعي

قال السيد رشيد رضا في مقدمة تفسير المنار يصف منهجه في التفسير: ("هذا وإنني لما استقللت بالعمل بعد وفاته ــ يعني الشيخ محمد عبده ــ، خالفت منهجه رحمه الله بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة وفي بعض الاستطرادات، لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس، واستحسن للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطرادية وحدها، في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به في نفسه، وفي النهوض بإصلاح أمته وتجديد شباب ملته"[1].

ويلاحظ أن ماذكره رشيد رضا هاهنا إنما يمثل المنهجين المعروفين اليوم بجلاء عند أهل التفسير ألا وهما المنهج التحليلي وتمثله العبارات الأولى، والمنهج الموضوعي وتمثله العبارات الأخيرة أي الإستطرادات الموضوعية التي ذكرها بما يعد خاصية خالصة لهذا التفسير من دون غيره من التفاسير وقد

(١) تفسير المنار ١٦/١.

أتمـــه من أول سورة البقرة إلى منتصف سورة يوسف، حيث ينتهي إلى الجزء الثانـــي عشر من القرآن الكريم، وكتب في نهايته: "تم تفسير الجزء الثاني عشر في المحرم ١٣٥٤هـــ والله نسأل توفيقنا لإتمام سائر هذا التفسير بما يرضاه وله الحمد والمنة".ولكن المنية عاجلته فلقي ربه قبل إتمامه.

وعلى الصفحة الأولى من تفسير المنار نجد العنوان التالي:

تفسير القرآن الحكيم

"تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي إجتماعي سياسي".

(هـــذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور، وصريح المعقول، وتحقيق الفروع والأصول وحل جميع مشكلات الدين، ودحض شبهات الماديين والجاحـــدين وإقامـــة حجج الإسلام، وبيان سياسته المثلى في إصلاح الأنام، مع حكـــم التشريع وسنن الله في الاجتماع. وكون القرآن هداية عامة للبشر في كل زمان ومكان، وحجة الله البالغة، وآيته المعجزة الخالدة، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر من الضعف والعجز، وقد أعرض أكثرهم عنها، وما كان عله سلفهم من السيادة والعزة إذ كانوا معتصمين بحبلها، بما يثبت أنها هـــي الســـبيل لسعادة الدنيا والدين مراعي فيه السهولة في التعبير، مجتنباً كثرة مـــزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث تهتدى به العامة وهو منتهى طلـــبة الخاصـــة وهـــذه هي الطريقة التي توخاها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.(الأجزاء من ١-١٢) تأليف السيد محمد رشيد رضا،منشىء مجلة المنار.)

وهـــذا العنوان المتشعب يبرز تصويرا ظاهرا لهذا المنهج الجديد فى تفســير المــنار، وأنه وإن كان قد سلك كما أخبر منهج المفسرين التحليليين من علمــاء السلف من جهة التقيد بترتيب الآيات كما هى فى المصحف والغوص المســتفيض إلــى أعماقها تحليلا وتفصيلا ودرسا، أى سلوك منهج التفسير التحليلــى بحذافيــره ، إلا أنه كما يبدو لك ظاهرا من العنوان المذكور قريبا موســوعة موضــوعية قــرآنية، إذ كل لفظة فى هذا العنوان المترامى تمثل موضــوعا جامعــا من موضوعات الكتاب الكريم تتولد عنه عشرات بل مئات الموضــوعات الفــرعية دون التقــيد بترتيب الآيات فى المصحف ولا التوغل العميق فى مفردات وتفاصيل كل آية على حدتها الوصف البارز الذى يتميز به التفســير الموضوعى، فإذا نحن أمام ضرب جديد من ضروب التفسير المختلط بــين منهجــين عظيمين من مناهج تفسير القرآن: المنهج التحليلى بحذافيره مع اســتطرادات موضوعية تمثل المنهج الموضوعى بحذافيره، كما تميز تفسير المــنار -أيضــاً- بفهرس أبجدي ييسر للباحث الوصول إلى هدفه ويرشد إلى عقلــية مــرتبة في التأليف والتفسير جعلت من تفسير المنار موسوعة تفسيرية موضوعية إسلامية في الفقه والأصول والتشريع والسياسة الشرعية، والتاريخ، وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

****

مقدمة المنار ترسخ المنهج الموضوعي في التفسير

قال السيد رشيد رضا في مقدمة تفسير المنار:

(كان من سوء حظ المسلمين ان أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو، ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرف عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباط الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب، بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات.

فكانت الحاجة شديدة، إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن، على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة في وصفه، وما انزل لأجله من الانذار والتبشير، والهداية والإصلاح، وهو ما ترى تفصيل الكلام عليه في المقدمة، المقتبسة من دروس شيخنا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، رحمه الله تعالى واحسن جزاءه.

ثم إلى العناية إلى مقتضى حال هذا العصر في سهولة التعبير، ومراعاة أفهام صنوف القارئين، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها...).

السمات التحليلية الموضوعية

لتفسير المنار للسيد رشيد رضا

السمة الأولى: التعمق والتدقيق فى صنوف عناصر تحليل النظم الكريم

فى كتابه عن محمد رشيد رضا (رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة) كتب شكيب أرسلان:.

(وكان الذي يدهش في الشيخ رشيد رضا رسوخ قدمه في مختلف العلوم، حتى إذا نظرت إليه في علم منها وعلمت مبلغ إحاطته فيه، ظننته متخصصاً في ذلك العلم وحده، كأنه انفرد به.والحال أن له في سائر العلوم الملكة نفسها، فكان إذا أمسك القلم تدفق نحوا وصرفاً ولغة وبياناً وبديعاً، وفقهاً وحديثاً وتفسيراً وتوحيداً وأصولاً، وكل ذلك في نسق واحد.

وانصرف بكليته إلى أعمال القلم، وصار يكتب في الساعات ما لا يقدر أن يسوده غيره في الأسابيع، حتى لو قيل أن محصول قلمه قد يتوزع على عشرة كتاب كبار، ويصيب كلا منهم نصيب وافر، لم يكن في ذلك أدنى غلو، لأن سهولة الكتابة التي كانت عند صاحب المنار، بما أوتي من اجتماع القوتين الحافظة والحاكمة، وانتظام الملتين المطبوع والمسموع، كانت آية باهرة لا يتمارى فيها إلا حاسد أو معاند، وتفسير السيد رشيد رضا للقرآن الكريم هو وحدة كاف ليخلده بين علماء هذه الأمة.) إنتهى

وقد كان رشيد رضا عالماً مستبحرا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواية ودراية، وكان متأثراً تأثرا ظاهرا بابن كثير في إيراد الأحاديث

المـــتعلقة بالآية، والآيات المتصلة بها. ولا يخفاك أن ما تقدم جميعه من أخص سمات التفسير التحليلى

السمة الثانية: التأثر الكامل بمدرسة ابن تيمية وابن القيم:

كان صاحب المنار من مدرسة ابن تيمية وهى المدرسة السلفية التي دعت إلـــى الاجتهاد، وحاربت التقليد والتعصب للمذاهب، ونقل السيد رشيد رضا في تفسير المنار فصولاً كاملة وبحوثاً منقولة من كتب ابن تيمية، وقال ان كتب ابن تيمـــية وابـــن القـــيم أنفع الكتب، وان هذين الشيخين هما الجديران بلقب شيخ الإســـلام، ولما كان ابن كثير تلميذا لابن تيمية، كان صاحب المنار ينقل آراءه في سياق الإكبار والإعجاب، خصوصاً في المتشابه من القرآن، وما تعددت فيه آراء المفسرين وهى كما قد علمت مواصفات وسمات المنهج التفسيرى التحليلى .

السمة الثالثة: الإستطرادات الموضوعية

أورد صـــاحب كتاب: (محمد عبده ومنهجه في التفسير) في تعليقه على تفسير المنار مبينا منهجه قائلا:

(" كـــان يقـــرأ الآية فإذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحا وافيا مبينا مادخل علـــى المسلمين من هذه العقيده من فساد وإنحراف، وإذا اتصلت الآية بالأخلاق أفـــاض فـــي بـــيانها وأثـــر ذلك في صلاح الأمم وتقدمها، وإذا اتصلت بحالته الإجتماعية أوضح أثرها في حياة المجتمعات والقضاء على مشكلاتها على ضوء القرآن ". "وهو في تفسيره يحاول التوفيق بين الإسلام ونظريات العلم)" [1]

---

(١) محمد عبده ومنهجه في التفسير – د. عبدالغفار عبدالرحيم – صـــ ٣٢١، وأيضا "محمد عبده" – د.عثمان أمين صـــ٢١٩

و وقد برز هذا التوجه مستفيضا وخاصة فيما يتعلق بالمعضلات الناجمة عن التدافع الحضارى المرير والذى بداأن المسلمين هم الخاسرون فيه فبين وأعاد فى موضوعات سنن التمكين والتدافع بين الأمم وبيان السنن الاجتماعية، وأسباب التطورات التاريخية واستنباط المقدمات والنتائج والعبر من القرآن الكريم، مؤكدا فى إلحاح أن قيام الأمم ونصرها أو هزيمتها مرتهن بأعمالها وسلوكها ومدى التزامها أو تفريطها، حتى غدت هذه السمة الفاصلة هى أهم وأظهر السمات التي تميز تفسير المنار عن سائر التفاسير، وقد وضع أساس ذلك الشيخ محمد عبده كما سبق أن بيناه، وتوسع السيد رشيد رضا فى هذا المقام توسعاً يكاد يطغى على جميع الخصائص الأخرى مدفوعاً بحرارة الصراع الضارى القائم بين أمة الإسلام المهددة فى أمجد وأعظم معتقداتها ومرتكزات وجودها وبين الهجمة الصليبية الإستعمارية الشرسة، مضافا إلى ذلك الحالة المزرية للمسلمين وسواء فى علاقتهم بالإسلام والقرآن أو فى طريقتهم فى الحياة وخوض غمرات الحرب المعلنة عليهم تلك الحالة البائسة التى جعلتهم يحولون القرآن الكريم إلى تمائم وتعاويذ يعلقون عليهم أمانى استجلاب النصر ودفع الضر. وقد نهض السيد رشيد رضا فى وجه هذه الفتنة، ليذكر المسلمين أن للنصر أسباباً هي الإيمان بالله، وإعداد العدة، وإصلاح القلوب، وتفوق المجتمع، وإقامة أحكام الله، و وخوض سباق التفوق العلمي والحضاري ليكون المسلم عزيزاً لا يذل، قوياً لا يضعف ولا يهان، لأنه صاحب رسالة وعقيدة ودعوة وفكرة ولأنه صاحب أمة مختارة وتاريخ مجيد، ولأن القرآن يفيدنا (ان هلاك الأمم يكون بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق أو الفجور الذي

يفسد الأخلاق ويقطع روابط الاجتماع ويجعل بأس الأمة بينها شديداً فيكون ذلك سبباً اجتماعياً لسلب استقلالها وذهاب ملكها بحسب سنن الاجتماع وقد أنذرنا الله هذا في كتابه وعلى لسان رسوله) [1].

حيث يقول سبحانه: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" سورة الأنبياء: ١٠٥ ويقول عن شأنه: "(والعاقبة للمتقين")سورة الأعراف: ١٢٨ ويقول سبحانه وتعالى: "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً" سورة الكهف: ٣٠.

****

(١) تفسير المنار ٨/١١٠.

الفصل الثالث

التفسير الموضوعى التحليلى

زهور العلم تتفتح بين الدماء ولهيب الجراح

مدرسة تجديدية فى التفسير الموضوعى مثالها الفريد تفسير الظلال لسيد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

إن مدرسة التفسير الموضوعى فى رحلتها الصاخبة وارتقائها الحثيث الواثق نحو بلوغ أوجها والإستواء على سوقها قد قذفت بواحد من أنجب تلاميذها وخيرة أبنائها الذين أحدثوا طفرة نوعية وغير مسبوقة فى تصاريف هذه المدرسة التفسيرية التجديدية، إنه الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى، والذى وضعه القدر عند بؤرة التجديد التفسيرى الذى كان غفلا عنه تماما ولم يعلم له سابقة محاولة أو دربة فى مفارقة عجيبة ـ وشأن أعظم أحداث التاريخ أنها تتبدى بصورة شبه دائمة فى طفرات قدرية لا يد للبشر فيها فى ومضات بارقة، ولو وقفت على أشهر الثورات العلمية التى غيرت وجه العالم أدركت دون عناء هذه الحقيقة، وإن هذه المحاولة التجديدية الفريدة التى وقف عليها سيد قطب حياته لتشى بقوة بهذاالمعنى، غير أن ذلك استلزم قدرا من الإعداد لا يتأتى إلا بتدبير حكيم وتفصيل عليم، حيث كان لا بد أن يقضى فى السجن عشر سنوات كاملة تحت أشد أنواع مطارق التعذيب همجية وتوحشا وفى ظروف عاصفة ومناخ راعد رهيب، كى يسفر هذا الجو العدائى الملبد بالغيوم وتسفر هذه الملحمة عن مولود تفسيرى لم يكن له أن يبرز إلا بهذا التدبير الجامع بين غاية الإبتلاء وغاية الحكمة والقدرة، فى تمهيد وتقريب المناسبات المتباعدة ليبلغ الله تعالى مراده ولتتم إرادته فى هذه النقلة التفسيرية الجذرية رحمة بأمته وبيانا للصوى والمنارات فى حقبتها القادمة المليئة بالعثرات والمحتشدة بالعراقيل والمحاطة بالأعداء فى ساعاتها الفاصلة ومعاركها الضارية من أجل البقاء، وليكون كتابه العزيز كما كان على طول تاريخ الإسلام حربة منتصبة فى وجه

من اراد به شرا وقبسا متلألا من النور فى غيابات الظلمات، لقد شق سيد قطب طريقا فريدا فى التعاطى مع القرآن الكريم لم يكن له أو غيره أن يحسه ويفهمه إلا عبـــر المعاناة ذاتها وتجرع مرارتها، إنه الإستلهام الموضوعى من القرآن لظامىء فى مسيس الحاجة، أو عاشق فى حميا تباريح الغرام، أو مقاتل أعوزته الحـــيلة وسط حصار أعدائه وقد أثخنته الجراح، حتى يمكن ان يقال انه منهج قـــائم برأســـه دون مرية، بل نرى انه قد وضع يديه ــ ربما دون أن يدرى ــ على باقة باهرة من ضروب التفسير الموضوعى للسورة الواحدة من القرآن كلها لم يسبق إليها جديدة فى مأخذها، جديدة فى مقدماتها وفى ثمراتها التى تمخضت عنها، "...وعند النظر فى تحليلات سيد قطب للسور القرآنية وبيانه لموضوعاتها الفـــرعية، تقف على الروعة والنفاسة، وعندما تقرأ تعريفه الموضوعي للسور القرآنية ، تجد عنده آراء ونظريات وتحليلات وتطبيقات لا تجدها عند غيره من المفسرين السابقين والمعاصرين.. "

"....يتكلم عن موضوع السورة الأساسي وعلى خطوطها الأساسية، وعلى موضوعاتها الفرعية، وعلى جو نزولها وحالة المجتمع الاسلامي وقت نزولها، وعلـــى أهداف السورة ومقاصدها، وعلى شخصيتها المستقلة وعلى طريقتها في تقريـــر حقائقهـــا وعرض موضوعاتها. فما ينتهي القارئ من تقديم سيد قطب للسورة حتى يكون قد تعرف على السورة وأدرك وحدتها الموضوعية "

وكمـــا تـــرى فإن هذه التقديمات للسور هي من قبيل التفاسير الموضوعية لهـــا، وهكـــذا اشـــتهرت، ولكن مع ذلك فإن سيد قطب قد سلك النهج التقليدي التحليلـــي عند تناول التفسير، حيث بدأ محاولته بالقرآن من أوله بترتيب الآيات

حسب رسمها في المصحف الشريف وهذا فرق واضح كما ذكرنا بين التفسير التحليلي والموضوعي، كذلك فإنه لا يوجد تفسير موضوعي للقرآن من أوله إلى آخره، بل إنه من المتعذر حدوث ذلك نظراً لتنوع موضوعات القرآن الكريم بصورة لا قدرة لبشر على الاحاطه بها فضلاً عن معرفة تفاصيلها حيث تستغرق الانسان والكون وكل ما أنت راءٍ أمامك مما حشده القرآن من أدلة وبراهين لاثبات وإلزام الناس بمقاصده. والمقصود أن تفسير الظلال لسيد قطب لا يمكن اعتباره تفسيراً موضوعياً كاملاً للقرآن.

بل الحق في ذلك أنه تفسير تقليدي مختلط مع الموضوعي في مقدمات السور منه، ومقدمات المقاطع منها.

كذلك هو يسلك المنهج التحليلي المتعمق في كثير من تناوله للآيات فهو:

" ينقل عن الصحابة الروايات الكثيرة حول قوله تعالى (والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفاً..) ١-٢ المرسلات ، والتي تدور على أن المراد بها الملائكة أو الرياح..) وينقل – شبه مستقصي– أقوال العلماء والمفسرين في المراد بقوله تعالى: (والنازعت غرقاً والناشطات نشطاً) ١-٢ النازعات "[١]

وهذا منهاج تحليلي أيضاً،ومثله في تفسيره كثير، وعلى الجملة فهو نموذج للتفسير الموضوعي التحليلي معاً، وكما سبق أن ذكرنا، فإنه لا يمكن الفصل الصارم بين مناهج التفسير المختلفة إذ بينهما مساحات تداخل حتمية نظراً لوحدة الكتاب، ومنهج القرآن نفسه في تناول المسائل بصورة متداخلة غاية في الترابط بما يجعل من المتعذر تناولها بالكشف والتفسير على طريقة واحدة ومنهج واحد وهو بيّن جداً. فافهمه.

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق – مرجع سابق – صـ ٥٧-٥٨

وكمـــا سنرى فى هذه العجالة كيف مس فى روح مبدعة تجديدية لا تخفى عـــدد من المناهج منها: (التفسير الموضوعى التحليلى) للسورة وهو الذى يمهد مـــن المـــنهج الموضـــوعى للمنهج التحليلى برابطة وثيقة بينهما بعدما كان من المعلـــوم أن هـــذين المنهجين بينهما فارق فى الخصائص والسمات يصعب أن يـــتحدا أو يجـــتمعا فـــإذا بهما فى هذه الظلال صنوان يسلم بعضهما لبعض فى سهولة ويسر حيث يبدأ بالمقدمة الموضوعية منسابا إلى التفاصيل التحليلية جامعا واحـــدا مـــن صنوف التفسير الذى لا يجارى بالشروط التى أسلفنا بيانها، وكذا نـــوع (التفســـير الموضوعى الجامع) المعتاد للسورة الواحدة من القرآن وهو القـــائم علـــى تسلسل آيات السورة الواحدة آخذ بعضها بعناق بعض إلى الغاية الكبـــرى والمقصـــد الأسمى الذى من أجله توجهت الخيوط البديعة الموشاة فى النســـيج الذهبى للسورة، وأيضا إذا به يلحظ نوعا آخر من موضوعية السورة فـــيما أطلقـــنا علـــيه: (التفسير الموضوعى التكاملى) ويمكن الوقوف على سره الباهـــر لا بالبحث المتسلسل المتتابع لآيات السورة، بل بالإنتقاء البليغ التكاملى والـــذى به يجمع الاشتات المتباعدة والتى يحسبها الجاهل أشتاتا لا رابطة بينها فـــإذا هى بناء رصين متماسك اللبنات وإن تباعدت مواضعها فى السورة نفسها فـــى وجـــه مـــن الإعجاز الموضوعى الذى لا نظير له، أنه الإعجاز القرآنى والتفسير الموضوعى فى مشكاة واحدة. ثم وضع يديه على ضرب موضوعى رابـــع : (التفسير الموضوعى التعبيرى) وهو ذو بعد بيانى رفيع الشأن ألا وهو الإرشـــاد بتعبيـــرات مختارة دلالة على معنى بعينه باستخدام نفس التعبيرات كلما جاءت بين ثنايا السورة ـــ وخامس أيضا استخدام الجملة أو اللفظ الواحد فـــى سياقات متعددة بمعان مقصودة لإيجاد العلاقة بين الأطراف وإبراز المعنى

العقــدى المقصـــود، وهو نوع قديم: (التفسير الموصضوعى القائم على اللفظ) وقد سبقت تفاصيله فى هذا المصنف، ولكنه ــ كما قدمنا ــ كان على مستوى القرآن بجملته فاكتشفه على مستوى السورة الواحدة كذلك. والحاصل إنها شجرة يانعـــة الـــثمار متـــنوعة الجنى بهيجة الثمر تصلح كل ثمرة منها ان تقوم علما برأسه تصنف فيه المصنفات ولولا ما اعتمدناه من الإختصار لأطلنا واسهبنا فى ظلال هذه الشجرة الوريفة التى لا يكل ولا يسأم واردها رحم الله تعالى الشيخ

******

خصائص هذا النوع من التفسير الموضوعي

(التفسير التحليلي الموضوعي)

هـذا النوع من التفسير الموضوعي كما قدمنا إنما هو تكاملي بين نوعي التفسـير الرئيسـيين ألا وهمـا: التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي. وهذا التفسير المعاصر الذي يبدأ بالتعريف بالسورة القرآنية وملامحها وموضوعاتها وأسـباب نـزولها وصـبغتها، حتى تبدو وكأنها وحدة واحدة لا تنفصم عراها، ونسيجاً باهراً متماسك الأطراف والأركان، وذلك بربط أولها بأوسطها بآخرها، وما أن ينتهي المفسر من هذه التقدمة، حتى يبدأفي تفسير آيات السورة آية آية، وجملة جملة حسب ترتيب المصحف بادئاً من أولها حتى يصل إلى آخرها على المـنهاج التحليلي المقرر في التفاسير التحليلية. فها هنا تفسير موضوعي تقدمة لتفسير تحليلي في تكامل وتجانس.

منهج فريد وفتح علمى مبين

(جـرى سيد قطب –رحمه الله تعالى– على أن يقسم السورة الواحدة إلى مجموعات من الآيات يتناول كل مجموعة منها بدرس مستقل ولم ينقص هذا من منـزلة الـوحدة الموضوعية في القرآن الكريم بل اهتم بها اهتماماً واضحاً في شـتى جوانبها وأشكالها حتى عده الدكتور عدنان زرزور "أول مفسر في تاريخ القـرآن الكـريم أبرز الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية المفردة طالت أم قصـرت! أبـرزه بشكل عملي مكتوب أو طبقه أروع تطبيق وأعمقه في كتابه العظـيم –رحمه الله– والذين سبقوا سيداً من المفسرين منهم من لم يلاحظها ولم

يسلم بوجودها ومنهم من ذهب إلى القول بها ولكنه عجز من ملاحظتها وتقديمها فـيما كتبه للناس من تفسير لكتاب الله تعالى ثم جاء سيد ليؤكد على هذه الوحدة المحـورية في السورة الواحدة وليضع أيدينا بعد ذلك برفق وسهولة ولين على وجه الانتقال من موضوع إلى موضوع"[1].

ونستطيع أن نستخلص الأقسام التالية للوحدة الموضوعية كما عرضها سيد قطب، رحمه الله تعالى:[2]

١. التناسب بين السورة والسورة التالية لها.

٢. التناسب بين دروس السورة الواحدة حسب تقسيماته، رحمه الله تعالى.

٣. التناسب بين مقاطع الدرس الواحد من السورة.

٤. التناسب بين آيات المقطع الواحد.

٥. التناسب بين كلمات الآية الواحدة والجمل فيها.

تلـك الأقسـام ما هي إلا معالم لوجود الوحدة الموضوعية في تفسير سيد قطب، رحمه الله تعالى.

ويظهر هذا في الطريقة التي سلكها -رحمه الله تعالى- في التفسير فقد قدم لكل سورة بمقدمة يدرس فيها آيات السورة كلها دراسة عامة يظهر فيها المحور الموضوعي الذي دور عليه الآيات والهدف الذي تسعى لتقريره وملامح السورة وصـورها وظلالهـا ومـنهجها، حتى يوقفك على سورة ذات شخصية متميزة

(١) علوم القرآن الدكتور عدنان زرزور، ص٤٣١.

(٢) انظر في ظلال القرآن دراسة وتقويم صلاح عبد الفتاح، ص٣٩٦.

ووحـــدة موضـــوعية متناســقة فكل سورة -كما يقول- من سور القرآن ذات شخصـــية متفـــردة وذات ملامح متميزة وذات منهج خاص وذات أسلوب معين وذات مجـــال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة إنهـــا كلهـــا تـــتجمع على الموضوع والغاية ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطـــرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع وتحقيق هذه الغايـــة. إن الشـــأن في سورة القرآن -من هذه الوجهة كالشأن في نماذج البشر التـــي جعلها الله متميزة... كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية وكلهم له الـــتكوين العضـــوي والوظيفي الإنساني... ولكنهم بعد ذلك نماذج متنوعة أشد التـــنويع نمـــاذج فيها الأشباه القريبة الملامح، وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة!"[1].

خـــذ مـــثلاً للـــوحدة الموضوعية في السورة القرآنية... الوحدة في سورة البقـــرة... فهذه السورة تضم عدة موضوعات ولكن المحور الذي يجمعها كلها محـــور واحـــد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً... فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة،... وهي مـــن الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها.."[2] ثم بـــين -رحمـــه الله تعالى- مدى الارتباط بين محور السورة وموضوعاتها من جهـــة، وبـــين خـــط ســـير الدعوة أول العهد بالمدينة، وحياة الجماعة المسلمة وملابساتها من جهة أخرى بإلقاء الضوء على مجمل هذه الملابسات التي ظلت الدعـــوة الإسلامية وأصحابها يواجهونها -مع اختلاف يسير- على مر العصور

(١) في ظلال القرآن: ج٣ ص١٢٤٣.

(٢) في ظلال القرآن: ج١ ص٢٨.

وكر الدهور- من أعدائها وأوليائها على السواء... وقال في ختام هذا البيان... ومن ثم يتناسق البدء والختام. وتتجمع موضوعات السورة بين صفتين من صفات المؤمنين وخصائص الإيمان"(١).

وأحياناً يوضح -رحمه الله تعالى- الوحدة الموضوعية في جزء كامل من القرآن، فيقول مثلاً عن جزء عم "هذا الجزء كله... ذو طابع غالب... سوره مكيه فيما عدا سورتي "البينة" و "النصر" وكلها من قصار السور على تفاوت في القصر، والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحدة- على وجه التقريب - في موضوعها واتجاهها، وإيقاعها، وصورها وظلالها وأسلوبها العام.

إلى أن قال: "وفي الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من نبات وحيوان. وعلى مشاهدة هذا الكون وآياته في كتابه المفتوح وعلى مشاهدة القيامة العنيفة الطامة الصاخة القارعة الغاشية ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في صور تقرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في ضخامتها وهولها واتخاذها جميعاً دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة. مع التقريع بها والتخويف والتحذير... وأحياناً تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين والأمثلة على هذا هي الجزء كله"(٢).

وأحياناً يوضح -رحمه الله تعالى- الوحدة الموضوعية بين دروس من السورة مرة وبينها وبين السورة كلها مرة أخرى. فقد تحدث عن ثلاثة دروس في سورة البقرة يحوي أولها الآيات من ٢٥٣ إلى ٢٥٧ والثاني من ٢٥٨ إلى

(١) انظر في ظلال القرآن: ج١ ص٢٨-٣٥.

(٢) في ظلال القرآن: ج٦ ص٣٨٠٠ -٣٨٠١.

٢٦٠ والثالث من ٢٦١ إلى ٢٧٤ ثم قال عن هذه الدروس الثلاثة: "كانت الدروس الثلاثة الماضية في هذا الجزء تدور -في جملتها- حول إنشاء بعض قواعد التصور الإيماني وإيضاح هذا التصور، وتعميق جذوره في نواح شتى. وكان هذا محطاً في خط السورة الطويلة، التي تعالج -كما أسلفنا- أعداد الجماعة المسلمة للنهوض بتكاليف دورها في قيادة البشرية.

وربط الآيات من ٦٥ إلى ٩٢ بسورتها آل عمران فقال هذا الشوط من السورة ما يزال يجري مع الخط الأول الأساسي العريض فيها خط المعركة بين أهل الكتاب والجماعة المسلمة... معركة العقيدة"(١).

وقسم سورة الرعد إلى شطرين ينتهي الأول منهما بالآية ١٨ ثم ربط بين الشطرين بقوله: "بعد المشاهد الهائلة في آفاق الكون وفي أعماق الغيب وفي أغوار النفس التي استعرضها شطر السورة الأول، يأخذ الشطر الثاني في لمسات وجدانية وعقلية وتصويرية دقيقة رفيقة حول قضية الوحي والرسالة وقضية التوحيد والشركاء ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد.. وهي جولة جديدة حول تلك القضايا في السورة"(٢).

وسيد قطب -رحمه الله تعالى- حريص على بيان الوحدة الموضوعية والربط بين الآيات والسور في كل موضع ولهذا ترى هذا اللون في تفسيره كثيراً كثيراً، حتى تلك المواقف التي لا يتضح لذهنه موضع وحدتها ومصدر ربطها لا يتغافل عنه أو يدعي علماً به فينمق العبارات التي يحاول أن يستر بها عجزه بل يعترف -رحمه الله تعالى- بعجزه عن إدراكه ويطلبمن القراء أن

(١) في ظلال القرآن: ج١ ص٣٠٤.

(٢) في ظلال القرآن: ج٤ ص٢٠٥٦.

يرشدوه إلى ما عجز عنه وأن يعلموه ما جهل.

فقد وقف -رحمه الله تعالى- طويلاً عند بيان مناسبة قوله تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين)[1] لما قبلها من الآيات التي تحدثت عن بعض أحكام الأسرة في الإسلام كالزواج والمعاشرة والإيلاء والطلاق والخلع والعدة والنفقة والمتعة والرضاعة والحضانة.. لم يدرك المناسبة حين كتب التفسير لأول مرة وفي الطبعة الأولى ولما وفقه الله إلى ذلك في الطبعات التالية كان يذكر عجزه ذاك ويحمد الله أن هداه لهذا فيقول معلقاً:

"كنت قد عييت فترة عن إدراك سر هذا السياق القرآني العجيب وقلت في الطبعة الأولى لهذا الجزء وفي الطبعة المكملة للأولى: أشهد أنني وقفت أمام هذه النقلة طويلاً لا يفتح علي في سرها ولا أريد أن أتمحل لها، ولا أقنع كل القناعة بما جاء في بعض التفاسير عنها... وقلت: "ولكنني -كما قلت مخلصاً- لا أستريح الراحة الكافية لما اهتديت إليه. فإذا هديت إلى شيء آخر فسأبينه في الطبعة التالية وإذا هدى الله أحداً من القراء فليتفضل مشكوراً بما هداه الله فالآن أطمئن إلى هذا الفتح وأجد فيه الطريق... والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله"[2].

إنه بهذا مثال العالم المسلم الذي لا يقول فيما لا يعلم ويسأل إذا جهل ويحمد الله إذا علم.

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٢) في ظلال القرآن: ج١ ص٢٣٨.

وإذا عجز عن بيان ذلك في موضع حتى ولو لم يكن في الظلال غيره فإنه يصرح بقوله: "وأنا اللحظة لا أجد في هذا القول ما يريح أيضاً... ولكنه لم يفتح علـــي بشـــيء آخر" ولا ينسى وهو المؤمن الاستعانة بالله في مثل هذا الموضع فيقول: "والله المستعان"[1].

نعم يصرح بلم يفتح علي بشيء وقد صرح بها من قبله مالك -رحمه الله تعالـــى- فقال: لا أدري فما زادته إلا سمواً في القلوب وما نقصته إلا علواً في العلـــم!! وذهبت تلك الكلمة مشعل نور في دياجير الزمن تحكي الورع الصادق عند علماء المسلمين.

وإذا كانـــت تلكم هي المرة الوحيدة التي لم يستطع فيها سيد قطب -رحمه الله تعالـــى- بيان المناسبة بينها وبين الآيات التي قبلها فإن هذا يدل على توفيق الله تعالـــى له بيان المناسبة في كل المواضع الأخرى ويدل أيضاً على عنايته- رحمه الله تعالى- بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.)

****

(١) في ظلال القرآن: ج٢ ص٩٧٩.

التفسير الموضوعي التحليلي

موضوع سورة الأنعام وطريقتها في عرض هذه السورة

جاء في ظلال القرآن: (هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية.. قضية الألوهية والعبودية.. تعالجها بتعريف العباد برب العباد.. من هو؟ ما مصدر هذا الوجـود؟ مـاذا وراءه من أسرار؟ من هم العباد؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود؟ من أنشاهم؟ من يطعمهم؟ من يكفلهم؟ من يدبر أمرهم؟ من يقلب أفئدتهم وأبصـارهم؟ من يقلب ليلهم ونهارهم؟ من يبدئهم ثم يعيدهم؟ لأي شيء خلقهم؟ ولأي أجـل أجلهم؟ ولأي مصير يسلمهم؟.. هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك.. من بـثها فـي هـذا المـوات؟.. هـذا الماء الهاطل. هذا البرعم النابغ. هذا الحب المتـراكب. هـذا النجم الثاقب. هذا الصبح البازغ. هذا الليل السادل. هذا الفلك الدوار.. هذا كله من وراءه؟ وماذا وراءه من أسرار، ومن أخبار؟.. هذه الأمم، وهذه القرون، التي تذهب وتجيء، وتهلك وتستخلف.. من ذا يستخلفها؟ ومن ذا يهلكهـا؟ لماذا تستخلف؟ ولماذا يدركها البوار؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء؟؟؟

(.. إنهـا لا تهـدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار.. إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ؛ لتصل من هـذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق. تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سـعيهم وحركتهم، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد.. سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء..

ويكـــاد اتجـــاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد.. من أولها إلى آخـــرها.. فالله هو الخالق. والله هو الرازق. والله هو المالك. والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان. والله هو العليم بالغيوب والأسرار. والله هو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار.. وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ؛ وألا يكون لغيره نهى ولا أمر، ولا شرع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحريم. فهذا كله من خصائص الألوهية، ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله، لا يخلق، ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع، ولا يمـــنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا في الدنيا ولا في الآخرة.. وســـياق الســـورة يســـوق علـــى هذه القضية أدلته في تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة ؛ والتي تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية، من كل درب ومن كل باب !....)

نموذج (للتفسير الموضوعى الجامع) للسورة

قال الشيخ سيد قطب فى مقدمة الظلال:

(عـــرض سورة الأنعام لموضوعاتها في موجات متدافقة وأمثلة على ذلك أمـــا موضوع السورة الأساسي وشخصيتها العامة فقد أجملنا الإشارة إليهما في مطلع الحديث عنها. ولكن لا بد من شيء من التفصيل في هذا التعريف..

روى أبو بكر بن مردويه – بإسناده – عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله [ص] "نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرض بهم ترتج". ورسول الله يقول: سبحان الله العظيم. سبحان الله العظيم.. ..

هذا الموكب، وهذا الارتجاج، واضح ظلهما في السورة !.. إنها هي ذاتها مـوكب. مـوكب ترتج له النفس، ويرتج له الكون !.. إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات !.. وهي - كما قلنا من قبل - تشبه في سياقها المـتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمـواج المتلاحقة. ما تكاد الموجه تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها، ومتشابكة معها، في المجرى المتصل المتدفق !

والموضـوع الرئيسي الذي تعالجه متصل ؛ فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطـع، كـل مقطع منها يعالج جانبا من الموضوع.. إنما هي موجات.. وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها.

ومـن ثـم فلن نحاول عرض الموضوعات التي تحتويها السورة في هذا التعريف ؛ وإنما سنحاول فقط عرض نماذج من هذه الموجات المتلاحقة فيها:

تبدأ السورة بمواجهة المشركين، الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى، بينما دلائـل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم.. تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الوجود كله ؛ وتشـمل وجودهم كله.. تبدأ في لمسات ثلاث ترسم مجالي الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع:

الحمـد لله الـذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الـذين كفـروا بـربهم يعدلون. هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا، وأجل مسـمى عنده، ثم أنتم تمترون. وهو الله في السماوات وفي الأرض، يعلم سركم وجهركم، ويعلم ما تكسبون ..

ثـلاث آيـات تذرع الوجود الكوني كله في الآية الأولى، وتذرع الوجود الإنسـاني كلـه في الآية الثانية.. ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة !

أي إعجاز ! وأية روعة ! وأي شمول ! وأية إحاطة !

وأمـام هـذا الوجـود الكونـي الشاهد بوحدة الخالق. وأمام هذا الوجود الإنساني الشاهد بتدبيره. وأمام هذه الألوهية الحاكمة في السماوات وفي الأرض ؛ العالمـة بالسـر والجهر والكسب.. يبدو شرك المشركين، وامتراء الممترين، عجبا منكرا لا مكان له في نظام الكون، ولا مكان له في فطرة النفس، ولا سند له في القلب والعقل !

وفي هذه اللحظة تبدأ الموجة التالية تعرض موقف المكذبين بآيات الله هذه المبثوثة في الكون والحياة ؛ ومع عرض الموقف المنكر الغريب، يجيء التهديد، وتعـرض مصـارع الغابـرين، ويتجلـى السلطان القاهر الذي تدل عليه هذه المصـارع، وهـذه القوارع. فيبدو عجيبا منكرا تعنت المنكرين أمام هذا الحق المبـين ؛ ويـبدو أن المنكرين ليس الذي ينقصهم هو الدليل ولكنه صدق النية، وتفتح القلب للدليل:

(ومـا تأتـيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين. فقد كذبوا بالحـق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، ألم يروا كم أهلكنا مـن قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مـدرارا، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قـرنا آخـرين. ولـو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم، لقال الذين

كفـروا:إن هـذا إلا سـحر مبين. وقالوا:لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضـي الأمـر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلًا، وللبسنا عليهم ما يلبسـون. ولقد استهزئ برسل من قبلك ؛ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون. قل:سيروا في الأرض، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين..)

ومن هنا تبدأ موجة ثالثة في التعريف بحقيقة الألوهية، متجلية في ملكية الله سبحانه لما في السماوات وما في الأرض، ولما سكن بالليل والنهار. ومتجلية فـي كونه الرازق الذي يطعم ولا يطعم. فهو من ثم الولي الذي لا ولي غيره. الـذي يجـب أن يسـلم العبيد أنفسهم إليه وحده. وهو الذي يعذب العصاة في الآخـرة. وهو الذي يملك الضر والخير. وهو على كل شيء قدير. وهو القاهر فوق عباده. وهو الحكيم الخبير..

وتـبلغ المـوجة قمـتها بعد هذا التمهيد كله، في الإشهاد والمفاصلة بين الرسـول [ص] وبين القوم، وإنذارهم والتبرؤ من شركهم، وإعلان التوحيد في مواجهتهم، في رنة عالية فاصلة جازمة:

(قـل لمـن مـا في السماوات والأرض؟ قل:لله. كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. وله مـا سـكن فـي الليل والنهار وهو السميع العليم، قل:أغير الله أتخذ وليا فاطر السـماوات والأرض، وهـو يطعم ولا يطعم؟ قل:إني أمرت أن أكون أول من أسـلم، ولا تكـونن مـن المشركين. قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظـيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين. وإن يمسسك الله بضـر فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير. وهو

القاهـــر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير. قل:أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد بينـــي وبينكم، وأوحيإلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ. أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل:لا أشهد. قل إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون..)

ثـــم تـــبدأ موجة رابعة تتحدث عن معرفة أهل الكتاب لهذا الكتاب الجديد الـــذي يكـــذب بـــه المشـــركون ؛ وتصف هذا الشرك بأنه أظلم الظلم ؛ وتقف المشـــركين أمام مشهدهم يوم الحشر وهم يسألون عن شركائهم فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء ؛ وتصور حالهم وأجهزة الاستقبال الفطرية فيهم معطلة، لا تلتقط موحيات الإيمان ولا تستجيب، وقلوبهم محجوبة لا تدرك دلائل الإيمان، وهم يدعون أن هذا القرآن أساطير الأولين ؛ وتقول لهم:إنهم يهلكون أنفسهم وهم يـــنهون غيـــرهم عن الهدى، وينأون عنه. ثم تصور حالهم وهم موقوفون على الـــنار يقولون:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! ثم تعود بهـــم إلـــى الدنيا وهم ينكرون البعث والمعاد. ثم تعقب على هذا بتصوير حالهم وهم موقوفون على ربهم، وهم يسألون عن هذا الإنكار ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم. وتنتهي الموجة بتقرير خسارة المكذبين بلقاء الله، وتفاهة الحياة الدنيا إلى جانب الدار الآخرة المدخرة للذين يتقون:

الـــذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؛ إنه لا يفلح الظالمون. ويوم نحشرهم جميعا. ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تـــزعمون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين. انظر كيف كذبوا على أنفسهم، وضل عنهم ما كانوا يفترون. ومنهم من يستمع إليك وجعلنا

علـــى قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، حتـــى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا:إن هذا إلا أساطير الأولين. وهم يـــنهون عـــنه وينأون عنه، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون. ولو ترى إذ وقفـــوا على النار، فقالوا:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بـــل بـــدا لهـــم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبـــون. وقالوا:إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين. ولو ترى إذ وقفوا علـــى ربهم قال:أليس هذا بالحق؟ قالوا:بلى وربنا ! قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفـــرون. قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا:يا حســـرتنا على ما فرطنا فيها، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، ألا ساء ما يـــزرون ! وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون..

ثم تبدأ موجة خامسة، يلتفت فيها السياق إلى رسول الله ﷺ يسليه ويسري عـــنه ما يحزنه من تكذيبهم له ولما جاءهم من عند الله به. ويجعل له أسوة في الرســـل قبله ممن صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله. ويقرر أن ســـنة الله لا تتـــبدل، ولكـــنها كـــذلك لا تستعجل ! فإن كان ﷺ لا يصبر على إعراضهم، فليبذل جهده البشري في إتيانهم بخارقة ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. إنما اقتضت مشيئته في خلقه – وهو وحده صاحب الأمر المتصرف – أن يســـتجيب الذين لا تتعطل أجهزتم الفطرية عن التلقي. والموتى لا حياة فيهم فهم لا يستقبلون موحيات الهدى ولا يستجيبون. والله يبعثهم، وهم إليه يرجعون..

قـــد نعلـــم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين

بآيـــات الله يجحدون. ولقد كذبت رسل من قبلك، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين. وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهمـــبآية. ولـــو شـــاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين. إنما يستجيب الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله، ثم إليه يرجعون ..

وهكـــذا يمضي سياق السورة موجة في إثر موجة على هذا النسق الذي عرضنا منه نماذج، لعلها تصور طبيعة السورة، كما تصور موضوعها.. وهي تـــبلغ في بعض موجاتها ذروة أعلى من ذرى هذه الموجات التي استعرضناها؛ كمـــا أن تدفقها في بعض المسالك أشد جيشانا وأعلى إيقاعًا.. ولكننا لا نملك أن نســـتعرض الســـورة كلها في هذا التعريف المجمل، وسيأتي شيء من ذلك في الفقرة التالية..)

تعليق

خصائص (المنهج الموضوعي الجامع) للسورة

فتبين مما تقدم من هذا العرض الباهر المنهج المتبع وهو يتلخص فى نقاط

أو لا: النظـــر فـــى جملة السورة من اولها لآخرها والإمعان فى الدراسة قبل الدخول التفسير

ثانـــيا: الوقوف على الشخصية المتفردة السورة والروح المميزة الغالبة عليها

ثلثا: اكتشاف الهدف النهائى والغاية من السورة والتى تتجمع لها خيوط نسيجها وتتلاقى

رابعـــا: تتـــبع الطـــرائق المتسلسة للتوصل لهذه الغاية النهائية وكشف الوشائج التى تربطها وترتب لبناتها وتحكم بناءها

خامســـا: تـــناول النظم الكريم من أول السورة بانتظام إلى آخرها فى ضـــوء الموضـــوع الرئيســـى لها والمسارات البليغة التى تبرزه وتصب فيه .

سادســـا: إبـــراز الروابط المتينة التى تربط النظم الكريم من أول السورة مرورا بأوسطها وانتهاء بآخرها

ســـابعا: تقريـــر واضـــح عن الهدف العقدى الذى تمثله وترمى إليه السورة المقصودة بالبحث.

نموذج من (التفسير الموضوعى التكاملى) للسورة

يقــول الشــيخ ســيد قطب رحمه الله تعالى: (إن تقرير حقيقة الألوهية، وتعريف الناس بربهم الحق، وتعبيدهم له وحده، هو الموضوع الأساسي للسورة. فلنسمع إذن تقرير السياق القرآني لهده الحقيقة في مواقف منه شتى:

في موقف الإشهاد والمفاصلة، حيث تتجلى تلك الحقيقة في القلب المؤمن بهــا ؛ وحيث يواجه بها المخالفين، ويصدع بها في قوة وفي يقين: قل:أغير الله أتخــذ وليا فاطر السماوات والأرض، وهو يطعم ولا يطعم ! قل:إني أمرت أن أكــون أول مــن أسلم، ولا تكونن من المشركين. قل:إني أخاف إن عصيت ربــي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين، وإن يمسســك الله بضــر فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شــيء قديــر. وهــو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير. قل:أي شيء أكبر شــهادة؟ قل:الله شهيد بيني وبينكم، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ. أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل:لا أشهد. قل:إنما هو إله واحد، وإنني بــريء ممــا تشركون .. وفي موقف التهديد، حيث يتجلى سلطان الله محيطا بالعباد ؛ وتتعرى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام، وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة، أمام الهول، وأمام مصارع المكذبين: قل:أرأيتكم إن أتاكم عــذاب الله أو أتــتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين؟ بل إياه تدعون فيكشــف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون. ولقد أرسلنا إلى أمم مــن قــبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضــرعوا ! ولكن قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلما نسوا مــا ذكــروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم

بغـتة، فـإذا هـم مبلسـون. فقطـع دابـر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين:قل:أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم، من إله غير الله يأتيكم به؟ انظر كيف نصرف الآيات، ثم هم يصدفون. قل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة؟ هل يهلك إلا القوم الظالمون؟..

وفي موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار، والأنفاس والأعمار، مـع القدرة والقهر والسيطرة في البر والبحر، والنهار والليل، والدنيا والأخرة، والحـياة والممـات: وعـنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثـم يبعثكم فيه لتقضى أجل مسمى، ثم إليه مرجعكم، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون. وهـو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون. ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق. ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ..

وفي موقف شهادة الفطرة، واهتدائها الذاتي إلى ربها الحق، بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته في صفحات الكون، التي تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع في أعماقها المكنونة:

وإذ قـال إبـراهيم لأبـيه آزر:أتتخذ أصناما آلهة؟ إني أراك وقومك في ضـلال مبـين. وكـذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنـين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا، قال:هذا ربي ؛ فلما أفل قال:لا أحب الآفلـين. فلمـا رأى القمر بازغا قال:هذا ربي، فلما أفل قال:لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال:هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلـت قـال:يـا قـوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر

السماوات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين. وحاجه قومه، قال:أتحاجوني في الله وقد هدان؟ ولا أخاف ما تشركون به - إلا أن يشاء ربي شيئا - وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون..

وفي مشهد الحياة النابضة في الفصائل والأنواع، ومشهد الإصباح والإمساء، ومشهد النجوم والظلمات في البر والبحر، ومشهد الماء الهاطل، والزرع النامي، والثمر اليانع.. حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك، المبدع بلا شبيه، وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفا تنكره العقول والقلوب:

إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح، وجعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه. انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون. وجعلوا لله شركاء الجن - وخلقهم - وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السماوات والأرض، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير..

وأخيرا في موقف الابتهال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك، والتجرد له صلاة ونسكا، ومحيا ومماتا، واستنكار ابتغاء غيره ربا وهو رب كل شيء، ورد الأمـــر إلـــيه كله في الدنيا في أمر الاستخلاف والابتلاء، وفي الآخرة في أمر الحساب والجزاء، حيث تختم السورة بهذا الابتهال الخاشع المنيب:

قـــل:إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم:دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. قل:إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين. قل: أغير الله أبغي ربا، وهو رب كـــل شيء، ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. وهو الذي جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ..

وليســـت هذه النماذج الستة التي اخترناها إلا نماذج تصور حد "الروعة الباهـــرة " الـــذي يبلغه سياق السورة، في كل موقف، وفي كل مشهد، وفي كل إيقاع، وفي كل إيحاء..)

تعليق

على خصائص المنهج الموضوعى التكاملى للسورة

فهـذه النماذج المختارة والمنتقاة بعناية من أطراف السورة قد تكاملت معا لغبـراز الهـدف النهائـى الذى ترمى إليه السورة المعنية بالاستقصاء والبحث الموضوعى

وإنما يتمكن الباحث من الوقوف على المطلوب عن طريق:

- القـراءة المتأنـية المستفيضة الواعية للسورة من أولها إلى آخرها قبل الشـروع فى تحديد المختارات المتكاملة والتى تؤدى إلى تقرير ما هو مطلوب
- تحديد الهدف الأسمى والغاية المنشودة للسورة محل البحث والدراسة
- الـربط بـين المتفرقات فى السورة والتى تتجلى فيها الصفات البارزة والتى يتجسد فيها الهدف السامى من السورة
- جمـع الأدلـة من مواضعها المترامية فى انحاء السورة والتى تتكامل لبـيان الهـدف مـنها وإبراز الوشيجة القوية التى تربطها عند ضمها لبعضـها والخـروج بالنسيج المتجانس المؤدى للصورة الموضوعية التامة فى الضخ المتنوع فى بؤرة الغاية السامية منها.
- إبـراز التـنوع القرآنـى الباهر فى عرض الجوانب المختلفة للقضية المعنـية بحـيث تـبدو بينة بارقة ظاهرة كما تبين من المثال المتقدم

الطـــريقة القرآنية فى مس الغايات الكبار من أكثر من جانب وصولا لترسيخ العقائد وتثبيت القلوب وتعميق الإيمان

نموذج (التفسير الموضوعى التعبيرى) فى السورة

(إن سياق السورة قال المصنف رحمه الله تعالى:

يـــبلغ حـــد الروعة الباهرة في كل مشهد وفي كل موقف ؛ مع تناسق في منهج العرض للمشاهد والمواقف ؛ ووعدنا أن نبين ما نعنيه بهذا التناسق.

ولـــن نعـــرض هـــنا إلا بعـــض الـــنماذج في انتظار العرض التفصيلي للنصوص بعد التعريف المجمل. ونكتفي من هذا التناسق بثلاثة ألوان منه بارزة في سياق السورة:

إن الســـياق يعرض المشاهد والمواقف منوعة ؛ ولكنها تلتقي في ظاهرة واحـــدة.. إنـــه فـــي كل مشهد أو موقف، كأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه، وأمام المواقف يتدبره.. يقفه أمامه بحركة تكاد الألفاظ تجسمها ! كما أن المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون، يراهم السامع في وقفتهم، والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم !

ففي مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار ترد هذه الوقفات:

- (ولـــو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا:يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ..)
- (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم. قال:أليس هذا بالحق؟ قالوا:بلى وربنا ! قال:فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)
- (ولـــو تـــرى إذ الظالمـــون فـــي غمرات الموت، والملائكة باسطوا

أيديهم:أخرجوا أنفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غيـر الحـق وكنتم عن آياته تستكبرون. ولقد جئتمونا فرادى كما خلقـناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء. لقد تقطع بينكم، وضل عنكم ما كنتم تزعمون .).

- (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا:أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا:والله ربنا ما كنا مشركين. انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ..)

***

وفي مواقف التهديد ببطش الله وأخذ المكذبين بسلطانه الذي لا يرد، يقفهم أمام هذا البطش كأنهم يعاينونه:

- (قـل:أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ؛ أغير الله تدعون إن كنـتم صـادقين؟ بل إياه تدعون، فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون ..)
- (قـل:أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم، من إله غيـر الله يأتـيكم بـه؟ انظر كيف نصرف الآيات، ثم هم يصدفون.. قـل:أرأيـتكم إن أتـاكم عـذاب الله بغتة أو جهرة، هل يهلك إلا القوم الظالمون؟ .)

***

وفـي تمثـيل حالة الضلال بعد الهدى، والرجوع عن الحق بعد الاهتداء إلـيه، يرسم مشهدا شاخصا يقف السامع أمامه يتملاه، ولو لم يكن في اللفظ أمر

بالنظر أو إشارة إلى الوقوف:

(قل:أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، كالذي استهوتهالشياطين في الأرض حيران، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ؛ ائتنا.. ..)

***

كذلك يقف السياق السامع أمام مشهد الثمار اليانعة في الجنات التي تتمثل فيها الحياة، والتي تتجلى فيها يد الله المبدعة للألوان والثمار:

(... وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضرا، نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه.. انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه. إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ..)

***

وهكذا كل مشاهد السورة ومواقفها يتجلى فيها هذا التناسق ويكون طابعها العام.

لون آخر من ألوان التناسق، يمت إلى هذا اللون بصلة كذلك.. مواقف الإشهاد..

إن مشاهد القيامة في السورة تعرض كأنما هي مواقف إشهاد على ما كان من المشركين والمكذبين ؛ ومواقف تشهير بهم ؛ وتوجيه للأنظار إلى هذه المواقف.. وقد سبق عرض نماذج منها.. وفي كل منها: ولو ترى...

وتلتقي بها مواقف الإشهاد على العقيدة، ومواقف الإشهاد على الشريعة.. كلتاهما سواء.

في أول السورة عند الحديث عن العقيدة في محيطها الشامل يجيء هذا الموقف:

قــل:أي شـــيء أكبـــر شهادة؟ قل:الله شهيد بيني وبينكم، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ. أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل:لا أشهد. قل:إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون .

حتـــى إذا جـــاء الســـياق إلى المناسبة الخاصة في السورة [1]، المتعلقة بالعقـــيدة في قضية التحريم والتحليل أقام مشهدا آخر، ودعا إلى إشهاد على هذه القضية الخاصة، كالإشهاد على تلك القضية العامة، للدلالة على أنها هي هي من ناحية الموضوع؛ ولضمان التناسق الذي هو طابع التعبير القرآني العام:

(قل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا. فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدلون ..)

***

(لون ثالث من ألوان التناسق ؛ هو التناسق التعبيري الذي يقتضيه التقرير الموضـــوعي. والذي يتمثل في تكرار عبارات بعينها للدلالة على أنها تعبيرعن حقيقة واحدة في صور متعددة.

وهـــذا كالتعبير في أول السورة عن الذين كفروا حين يشركون بالله غيره بـــأنهم بربهم يعدلون. ثم التعبير كذلك في أواخرها عن الذين يشرعون لأنفسهم بأنهم كذلك بربهم يعدلون. على النحو التالي:

الحمـــد لله الـــذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ..

(1) كتاب إتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر د. فهد الرومى ــ الجزء الثالث من ١٠٣٩-١٠٤٤

قــل:هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا. فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا، والذين لا يؤمنون بالآخرة. وهم بربهم يعدلون .

ففـــي الآية الأولى هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به.. وفي الثانية هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به كذلك. ممثلا هذا الشرك في ادعاء حق الألوهية فـــي التشريع.. ولهذا دلالته الموضوعية، وجماله التعبيري أيضا... كذلك يكرر كلمة الصراط، وهو يعبر عن الإسلام جملة ؛ وهو يعبر عن قضية التشريع على هذا النحو:

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء. كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون. وهذا صراط ربك مستقيما. قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ..

وبعد أن يتحدث عن الأنعام والحرث، والحلال والحرام في نهاية السورة كما جاء في مقدمة التعريف بالسورة يقول:

وأن هـــذا صـــراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله:ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ..

فيدل على أن هذه القضية هي قضية العقيدة. وأن الالتزام فيها هو المضي علـــى صـــراط الله، وأن الانحراف فيها هو الخروج عن هذا الصراط.. وأنها قضية إيمان أو كفر، وجاهلية أو إسلام.)

تعليق

خصائص المنهج الموضوعى التعبيرى

فتبين من العرض البليغ المتقدم أن المنهج القائم على إبراز قيمة التعبير بجملة بذاتها للوصول إلى نتيجة عقدية هامة إنما يرتكز على ما يلى:

- حس بلاغى رهيف لالتقاط التعبيرات البلاغية المعنية من الأماكن المتباعدة فى السورة والتى جاءت فى النظم الكريم لتقرير المعنى المقصود فى أبلغ صورة
- إبراز جانب هام من إعجاز القرآن والحكمة الربانية البالغة من تكرار جملة بعينها فى الأماكن المتفرقة خلافا للجهلة القائلين بالتكرار فى القرآن لغير سبب أو ورود العبارت المتشابهة من دون مناسبة.
- جمع الآيات التى تتميز بالتعبيرات المتقاربة وبيان تقارب المعنى الذى تعبر عنه الآيات فى مشاهد متباينة مع اتحاد المقصود فى الجميع ألا وهو إبراز المعنى شاخصا حيا وكأنه واقع متماوج متحرك ماثل لا مجرد عبارات تقرأ أو روايات تحكى
- الخروج من كل ما سبق بالنتيجة البليغة ألا وهى الوحدة الموضوعية للعدد المذكور من الآيات مع اتحاد التعبيرات والوقوف على وجه آخر من الموضوعية القائمة على وحدة التعبير وصولا إلى وحدة الغاية والمعنى.

من المنهج الموضوعي إلى المنهج التحليلي

نموذج للمنهج التحليلي في ظلال القرآن

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(في روايات عن ابن عباس، وعن أسماء بنت يزيد، وعن جابر، وعن أنس بن مالك وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنهم جميعا - أن هذه السورة مكية، وأنها نزلت كلها جملة واحدة.

وليس في هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة ؛ وليس في موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي.. وهي حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجيء ترتيبها بعد سورة الحجر ؛ وتكون هي السورة الخامسة والخمسين.. ولكننا - كما بينا من قبل في التعريف بسورة البقرة - لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نجزم بشيء عن تاريخ محدد لنزول السور. فالمعول عليه عندهم - في الغالب - في ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها - لا جملتها - وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة. إذ المعول في الترتيب على أوائل السورة.. أما في سورة الأنعام فقد نزلت كلها جملة. ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها. غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة.. ربما الخامسة أو السادسة.. ولا نعتمد في هذا الترجيح على أكثر من رقم الترتيب ؛ ثم على سعة الموضوعات التي تناولتها، والتوسع في عرضها على هذا النحو، الذي يشي بأن الدعوة والجدل مع المشركين، وطول الإعراض منهم والتكذيب لرسول الله، أصبح يقتضي التوسع في عرض القضايا العقيدية على هذا النحو ؛ كما يقتضي تسلية رسول الله ﷺ عن طول الصد والإعراض والتكذيب..

وفـــي روايـــة عن ابن عباس وقتادة:أن السورة مكية كلها إلا آيتين منها نـــزلتا بالمديـــنة. قوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشـــر مـــن شيء. قل:من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس، تجعلـــونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، قـــل:الله، ثـــم ذرهم في خوضهم يلعبون .. وهي الآية:٩١. نزلت في مالك بن الصـــيف وكعـــب بن الأشرف اليهوديين. وقوله تعالى: وهو الذي أنشأ جنات معروشـــات وغيـــر معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله، والزيتون والرمان متشـــابها وغيـــر متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر، وآتوا حقه يوم حصاده، ولا تســـرفوا إنـــه لا يحب المسرفين .. وهي الآية ١٤١، نزلت في ثابت بن قيس شماس الأنصاري.. وقال ابن جريج والماوردي:نزلت في معاذ ابن جبل.

والرواية عن الآية الأولى محتملة ؛ بسبب أن فيها ذكرا للكتاب الذي جاء بـــه موســـى نـــورا وهـــدى للناس، ومواجهة لليهود في قوله تعالى: تجعلونه قراطيس تبدونها .. وإن كان هناك روايات أخرى عن مجاهد، وعن ابن عباس أن الذين قالوا:ما أنزل الله على بشر من شيء هم مشركو مكة وأن الآية مكية. وهـــناك قـــراءة: قـــل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها ويخفون كثيرًا.. فهي على هذه القراءة خبر عن اليهود وليســـت خطابا لهم. وسياق الآية كله عن المشركين. وقد رجح ابن جرير هذه الرواية واستحسن هذه القراءة.. وعلى هذا تكون الآية مكية..

وأمـــا الآية الثانية فالسياق لا يحتمل أن تكون مدنية. لأن السياق بدونها يـــنقطع مـــا قبلها فيه عما بعدها في المعنى وفي العبارة. والحديث متصل عن إنشـــاء الله للجنات المعروشات، وعن جعله حمولة وفرشا من الأنعام في الآية

التي تليها: ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله، ولا تتبعوا خطوات الشـيطان إنه لكم عدو مبين .. ثم يمضي السياق في تكملة الحديث عن الأنعام، الذي كان قد بدأه قبل آية الثمار.. يجمعها كلها موضوع واحد، هو الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة الخاصة بقضية التحريم والتحليل والنذور.

وإنمـا الذي جعل بعضهم يعتبرها مدنية هو ما جاء فيها من قوله تعالى: كلـوا مـن ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده .. واعتبارهم هذا الأمر يعني الزكاة. والزكاة لم تتقرر بأنصبتها المحددة في الزروع والثمار إلا في المدينة.. ولكـن هذا المعنى ليس متعينا في الآية. إذ أن هناك أقوالا مأثورة في تفسيرها بأنهـا تعني الصدقات، أو بأنها تعني الإطعام منها لمن يمر بهم يوم الحصاد أو جني الثمار ؛ أو لقرابتهم.. وأن الزكاة حددت فيما بعد بالعشر ونصف العشر.. وعلى هذا تكون الآية مكية.

وقال الثعلبي:سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة: وما قدروا الله حـق قدره .. إلى آخر ثلاث آيات. و قل:تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. إلى آخر ثلاث آيات..

والآيات الأولى بينا مكيتها، إذ ينطبق على الآيتين الثانية والثالثة من هذه المجموعة ما ينطبق على الآية الأولى منها..

أما المجموعة الثانية فليس هناك - فيما وصل إليه اطلاعي - رواية عن صحابي ولا تابعي عن كونها مدنية؛ وليس في موضوعها ما يدعو إلى اعتبارها مدنـية. وهـي تتحدث عن تصورات جاهلية ؛ وهي متصلة بموضوع التحريم والتحلـيل في الذبائح والنذور الذي سبق الحديث عنه، اتصالا وثيقا.. لذلك نميل إلى اعتبارها مكية كذلك..

وفي المصحف الأميري أن الآيات [١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ١٤١، ١١٤، ٩٢، ٩١، ٢٣، ٢٠] مدنية. وقد تحدثنا عن الآيات [٩٢ - ٩١] و [١٤١] و [١٥٣ - ١٥١] وليس في الآيات [١١٤، ٢٣، ٢٠] ما يدعو إلى الظن بأنها مدنية إلا ذكر أهل الكتاب فيها. وهذا ليس دليلا فقد ورد مثل هذه في الآيات المكية..

لهذا كله نحن نميل إلى اعتبار الروايات المطلقة، التي تنص على أن السورة نزلت بجملتها في مكة في ليلة واحدة. وقد وردت عن ابن عباس وعن أسماء بنت يزيد، وفي الرواية عن أسماء تحديد للرواية بحادث مصاحب على النحو التالي: "قال سفيان الثوري عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت:"نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبيﷺ إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة ".

أما الرواية عن ابن عباس فقد رواها الطبراني قال:

حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال:"نزلت الأنعام بمكة ليلة ؛ جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح"..

وهاتان الروايتان أوثق من الأقوال التي جاء فيها أن بعض الآيات مدنية. وذلك بالإضافة إلى التحليل الموضوعي الذي أسلفنا.

والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يوقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق، أو سيل يتدفع، بلا حواجز ولا فواصل؛ وإن بناءها ذاته ليصدق تماما هذه الروايات، أو على الأقل يرجحها ترجيحا قويا.)

تعليق

خصائص المنهج التحليلي الممهد للموضوعي في السورة

مما تقدم نجد خصائص النهج التحليلي العميق الإستقصائي وهو معلوم في كافة التفاسير التحليلية بعناصره المقررة والتي أوردناها في مواضعها بالصورة المستفيضة، وكذلك قريبا في تقرير الفروق بين التحليلي والموضوعي فلتراجع، والأمر الهام هنا أن هذا المنهج الإستقصائي التحليلي إنما ورد في السياق الموضوعي حيث أسلم إلى منهج متفرد جديد ألا وهو المنهج الموضوعي التحليلي والذي يكاد يتفرد به هذه المصنف بما يمكن اعتباره مدرسة قائمة برأسها والله تعالى أعلى وأسلم.

مثال آخر للتفسير الموضوعي التحليلي

التفسير البياني للقرآن الكريم " للدكتورة بنت الشاطئ

ومن أمثلة ما ذكرنا أيضاً: " التفسير البياني للقرآن الكريم " للدكتورة بنت الشاطئ [1]. وقد أتينا عليه مستفيضا في موضعه عند شرح التفسير

(1) سبق للمصنف رحمه الله تعالى أن كرر مرارا أن هذه السورة إنما تعالج موضوع العقيدة بكل تفاصيله علاجا مهيبا بليغا مبدعا، فكل قضية عقائدية من قضاياها إنما هي مقصودة بذاتها وذلك في جوانب مفحم وتشنيع مزلزل وتفنيد لا يهدأ لكل معتقدات الجاهلية وعلى كافة جوانب الحياة، ولعل عودته الآن إلى تقرير ما أسماه (بالمناسبة الخاصة لنزولها) ألا وهي قضية التحليل والتحريم،هو تخصيص بلا مخصص إذ لا دليل عليه من المأثور من سبب للنزول أو غيره بل هي لطمة هائلة شاملة لكل ما تعتقده الجاهلية الموغلة في شرودها وتخبطها وسواء كان ذلك في مسألة التحليل والتحريم أو غيرها من مرتكزات العقيدة، وقد أحسن المصنف رحمه الله تعالى وأجاد في تقرير هذا المعنى وبيانه، والحق أنه سبب هام ولكن لاترى أنه السبب المباشر بل لعله لا يكون السبب الرئيسي لنزولها، حال ما هو معلوم من أن مسألة التحليل والتحريم بل والتشريع وتقرير الأحكام عموما لم تكن قد طرحت بمكة ريثما يتم تقرير العقيدة على الأصول الراسخة المتينة التي أبدع الكاتب أيما إبداع في تقريرها وبيانها، ولعل القضية العظمى التي وقف المصنف حياته

الموضـــوعى البيانى وقد آثرنا إفراده بالتصنيف هناك نظرا للوشيجة القوية بين المؤلفة وبين رائد هذا النوع من التفسير وهو الأستاذ أمين الخولى فلتراجع تفاصـــيله فهو نافع، ولما كان لهذا التفسير البيانى من وجوه التنوع بين البيان والتحليل القائم على اللغة وروائعها جنبا إلى جنب مع المنهج الموضوعى كان حســنا أن يشـــار إليه فى هذا المبحث كونه يحمل نفس الخصال والسمات مع الفــرق النوعـــى بـــين الأداء المهيب المتفرد لسيد قطب الذى لوحته حرارة الـــبلاءات وأنضـــجه وهج المعاناة ، وبين أداء الدكتورة بنت الشاطىء الذى حـــركت أمواجه حماسة الرغبة فى التجديد والوقوف العلمى الراسخ على قواعد اللغـــة وأسرارها فكان إضافة نفيسة لمسيرة التفسير الموضوعى وقد بينا ذلك جلـــيا فـــى موضعه حيث وصفت منهاجها بأنه تفسير موضوعي، وأنها ملتزمة بضوابط صارمة:

" تحـــتم التناول الموضوعي لما يراد فهمه من كتاب الاسلام وجمع مافيه مـــن آيـــات الموضوع المدروس حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان والاســـتئناس بالمرويات حولها، ثم تلتمس الدلالة اللغوية الأصلية لألفاظ القرآن تلـــك التي تعطينا حس العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية لـــنخلص إلـــى لمح الدلالة القرآنية بجميع مافي القرآن كله حتى تنتهي إلى فهم

عليها ودفع الثمن الباهظ من السجن والتعذيب والتنكيل فى سبيل الله تعالى بل ودفع حياته راضيا ثمنا لها ألا وهى قضية الحاكمية ووجوب التحاكم إلى الله تعالى جعل هذه القضية العظمى هى الاساس فى بؤرة تفكيره، فســـورة الأنعام إنما أنزلت دفعة واحدة لا لتقرر قضية التحليل والتحريم من جانب الإعتقاد فقط، ـــ وهى = = قضية على غاية القدر من الخطر بل هى قضية مصير الإسلام ون يكون أو لا يكون فى عالمنا المعاصر ـــ، وأنمـــا لتقريرها جنبا إلى جنب مع طائفة خطيرة من العقائد الكثيرة والمترامية الواجبة العلم والإعتقاد والمنكـــورة كمـــا ذهب إليه المصنف على صورة أمواج فى إثرها أمواج كلها تقرر من العقائد ما ترتج له القلوب وتقشعر له الأبدان، رحم الله تعالى الشهيد سيد قطب وكتبنا وإياه فى الصالحين.

أســرار التعبير بالاحتكام إلى سياق النص ملتزمين ما يحتمله نصاً وروحاً "[1] ومع هذا الوضوح في التعبير عن المنهج الموضوعي فإن مؤلفة الكتاب كثيراً ما اســتغرقت فــي محاولات تحليلية لغوية، ملتفة عن الموضوع أو مستغنية عنه اصلاً، فهي لم ترتبط ارتباطاً منهجياً بالتفسير الموضوعي.

" انهــا لم تخرج عن التفسير التقليدي (التحليلى) بالتزامها للسورة اطاراً لتفســيرها، وبهــذا يمكــن القول بأن بنت الشاطئ قد جمعت في محاولتها بين الــتجديد الموضــوعي، وبــين التــناول الأدبي التقليدي (التحليلى) للسور التي فسرتها"،" انه تفسير تقليدي (تحليلى) يتجه إلى فهم اعجاز القرآن البياني وتذوق أسراره البلاغية على هدى التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه " " تفسير تقليدي (تحليلى) للسور ذات الموضوع الواحد"[1].

إذن هي محاولة انتهت إلى صنف تكاملي بين منهاج التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي في آن واحد وقد أدى إلى ذلك ما ذكرنا من الطبيعة المتميزة للقرآن نفسه في عرض القضايا وكذلك في استغناء بعض المفسرين عن الالتزام الــتام بمــا أرادوه مــن المناهج التي أرادوا. ومثل ذلك تفسير العشرة الأجزاء الأولــى من القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت، وكذلك نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم للشيخ محد الغزالي وغير ذلك مع شئ من التجوز.

****

(1) التفسير البياني – بنت الشاطئ – جـ ١(٧-١١) مقدمة في المنهج ١٢٩-١٣٨

(1) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن – مرجع سابق – صـ ٥٩٨-٥٩٩

الفصل الرابع

(المقال التفسيري الموضوعي)

(المقال التفسيري)

وقد وضعنا هذا النوع بين أنواع التفسير الموضوعي، رغم اقترابه من التفسير الاجمالي والمقارن أحياناً وذلك لنه موضوعي من جهة تناوله لموضوع بذاته من موضوعات القرآن الكريم واخراجه على طريقة مختصرة لا تزيد عن مستوى المقال المنشور لضرورة ملحة بما أتاح للمفسر المعاصر مجالاً واسعاً وحرية أكبر في التعبير عن مقاصد القرآن تجاه المستجدات المتتابعة في الأزمنة القصيرة، وكذلك تراكم المشكلات وعقدها والتي تتابعت على الأمة، وابراز الحل القرآني الحاسم والرأي النهائي بما تستوجبه المواجهه الضارية بين القرآن وأعدائه أراء هذه الحملة الصليبية اليهودية العلمانية المعاصرة على كل ماهو قرآني.

وأول محاولات هذا الصنف من التفسير المعاصر الموضوعي كان في سلسلة المقالات التي نشرها الأفغاني ومحمد عبده وذلك في " العروة الوثقى " و " الجهاد السياسي "، وكان من هذا المنهاج الجديد هو ايقاد الجذوة والنهضه في جسد الأمة إزاء الاستعمار، ثم تلبث المحاولات أن تلاحقت حتى صار هذا الصنف من أبرز أنواع الموضوعي تناولاً نظراً لكونه ومضات سريعة معبرة عن المقصود دون تطويل أو تفريع. وطبعاً نحن نقرر هنا نوع التفسير المقالي دون التعرض إلى نقده من جهة التناول، فمن هؤلاء الكتاب من أحسن عرض المقاصد القرآنية بالمقال ومنهم من أساء بصورة فجة، غير أنه لا خلاف حول المنهج المقالي التفسيري حيث سلكه العلماء الثقات الأثبات دفاعاً عن القرآن

ومعتقدات المسلمين، ومن هذه الأمثلة ماجمع من المقالات ونشر في هيئة كتب مثل:

١) حقائق الا سلام وأباطيل خصومه – العقاد.

٢) التفكير فريضة إسلامية – العقاد.

٣) الإسلام دين الهداية والإصلاح – فريد وجدي.

٤) الإسلام دين عقيدة وشريعة – محمد أبو زهرة.

٥) الإسلام دين الفطرة والحرية – عبد العزيز جاويش.

٦) المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء – محمد مدني.

وهناك مقالات تفسيرية أخرى نشرت في دوريات مثل:

١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه – محمد أبوز هرة.

٢) الدروس الدينية – مصطفى المراغي.

٣) الثروات الطبيعية والتصنيع من خلال آيات القرآن – محمد المدني.

ويجب أن يلاحظ أن كثير من كتاب هذا الصنف من التفسير من غير المتخصصين الشرعيين قد وقعوا في أخطاء علمية ومنهجية[1] وهذا مفهوم للإغراء الكامن من طريقة تناوله ببساطة ويسر ودون الدخول في أعماق التحليل حيث كشف ذلك عن قدرة المؤلف وأهلية وكفاءته العلمية والمنهجية،

(١) راجع كتاب " مع المفسرين والكتاب " أحمد محمد جمال صـ١٤ " الفلسفة القرآنية " العقاد صـ ٨٦

ومن الأمثلة الواضحة على هذا النوع نختار ما يلي.

أولاً: الدنيا في نظر القرآن

محمد فريد وجدي

والكاتب معروف بتفسير للقرآن الكريم (إجمالي مختصر)، وفي هذا المقال قرر حض الناس على اختلافهم على تحقير الدنيا والشكوى منها وذمها، فهم جميعاً متفقون على هوانها غير أنهم مع اتفاقهم على هذه الحقيقة قد تفرقوا كثيراً في استخلاص النتائج المستخلصة منها، فمنهم مع تقريرهم ما سبق انتهوا إلى ضرورة التكالب عليها والانخراط في ملذاتها مما أدى إلى الحروب الطاحنة التي زادت دنياهم عذاباً فوق العذاب، فهو تناقض منهم مع أنفسهم يثير العجب، وأما غيرهم فانتهوا إلى ضرورة الهروب منها ونبذها والانقطاع عنها، وهؤلاء مفرطون أيضا إذ أنهم وجدوا في الدنيا لحكمة بالغة لا يمكن تحققها بالانقطاع عنها، وقد جاء القرآن ليضع الأمور في نصابها وترسيخ مبدأين هامين:

١- ترك الدنيا لعشاقها.

٢- الاستحواذ منها على وسائل القوة التي لا تتركهم نهباً لأعدائهم (المسلمين).

هذا مختصر المقال الذي قرر فيه الكاتب منهج القرآن في تربية المسلمين من جهة الدنيا وما يلزم من التعامل معها دور الوقوع في حبائلها.

ثانياً: فلسفة الفرائض والعبادات

عباس محمود العقاد

وهـذا واحد من أقصر المقالات القرآنية التي ضمنها العقاد كتاب الفلسفة القرآنية.

وقـد بـين هذا المقال أن الفرائض الدينية القرآنية إنما هي أدب يراد به إصـلاح الفـرد المسـلم والجماعـة المسلمة. وأن أعظم خصائص الفرائض الإسـلامية أنهـا تحقق المقصدين الدنيوي والأخروي. فصلاةُ الجماعة في يوم الجمعة واجب مقدم على البيع والشراء والمعاش ليؤكد علو الجماعة المسلمة عن صغائر الجشع وهموم الدنيا. وتعرف لحياتها غاية أرفع من هذه الشواغل.

وأمـا الزكاة فمصلحتها للجماعة إقامة دعائم التعاون وعلاج مشكلة الفقر، وهـي إلـى هذا رياضة للنفس ينهل منها الواهب والموهوب لأنها تعودها نبل التضحية بالمال العزيز.

وكذلك الحج مؤتمر عالمي يعقده المسلمين كل عام، ونعم العمل المشترك ذاك الذي لا ينقطع عاماً من الأعوام أما الفرد فله من الحج رياضة على المشقة وهو علم يستفاد من السياحة ويحث عليه القرآن.

والصـيام يعطـي مظهر أسرة عظيمة تنتشر في جوانب الأرض، ملايين الـناس في جوانب الأرض يطعمون ويمسكون عن الطعام على نظام واحد. أما الفرد فيستفيد روحياً وخلقياً في ضبط النفس والفكاك من أسر الشهوات.

وكـذلك فكرة العيدين. تلك رؤوس الفرائض وغن كانت للجماعة البشرية عقيدة دينية، فلابد للعقيدة الدينية من شعائر، وليس بين هذه الشعائر ما هو خير للمعتقدين من شعائر الإسلام "[1]

فهذه المقالات التفسيرية كما قد رأيت يحمل كل واحد منها موضوعاً قرآنياً منفـرداً يمـس جوانـبه ويستخرج كنوزه في اختصار. وهو منهج قرآني في الأسـاس، إذ وجدنا إن القرآن الذي عرض القصص والعبرة مطولاً في السور الطـوال، إنما عرضها وامضة شديدة التركيز والاختصار في مواضع أخرى، وأبـين مـثال على ذلك، ذكر القرآن الكريم لقصة موسى وفرعون، إذ جاءت مطـولة ومفصـلة في سورة الأعراف بما يلزم من الموعظة والأحكام والعبر وخلافـه، وهـي نفسها جاءت بارقة وامضة نافذة في كلمات قلائل تشمل أولها وآخرها في قوله تعالى:

" فأراه الآية الكبرى ۰ فكذب وعصى ۰ ثم أدبر يسعى ۰ فحشر فنادى ۰ فقال أنا ربكم الأعلى ۰ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ۰ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى " النازعات ٢٠-٢٦ ۰

******

(١) الفلسفة القرآنية – عباس محمود العقاد – صـ ١٤٧-١٤٩ (بتصريف)

مثال للمقال التفسيري الدعوي (الهدائي)

قذائف الحق

في قضية المرأة بين دعاة الحق وأدعياء الباطل[1]

(بـل نقـذف بالحـق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون)

دأب المستشرقون وأذنابهم من المأخوذين بشبهاتهم من أبناء المسلمين على تـرويج الشبهات الباطلة حول موقف الإسلام من المرأة زاعمين أنهم هم رسل الحرية والخلاص القادمون لاستنقاذ المرأة المسلمة مما هي فيه من اضطهاد في الإسـلام، وذلـك بإخراجها حيث تتحرر بحسب المقررات الغربية القائمة على الحرية والمساواة، ولقد بينا رؤوس شبهاتهم وأسس ضلالاتهم، وهي دعاوى – برغم بريقها الزائف في نظر الذين لا يعلمون– لا تنهض لعقل أو حق أو شرع، وهـو بنـيان بني على الباطل من أول يوم، وأركانه كلها بين كذب محض، أو افتـراء بَـيّن، أو خداع متعمد، أو أحقاد دفينة، تجمعت لتبني أسساً كلها باطلة، وبيان ذلك ما يلي:

أولاً: إن دعـاوى مساواة المرأة بالرجل، هي دعوة للمساواة بين مختلفَيْن مـن حيث التكوين والوظائف والنفسيات، وهو أمر ظاهر بما يجعل تجاهلها عند مناقشة المسألة نوعاً من الانحراف الجسيم عن المنهاج العلمـي القويم في وزن الأمور بميزانها الصحيح. بل هو ضد العقل

(1) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن – د . محمد ابراهيم شريف – صـ ٥٩

المجـــرد، إذ قـــد اتفق العقلاء على أن المساواة بين أي مختلفين هو عين الظلم لكليهما، وهي قواعد مقرره ومستقره عن الفلاسفة وأهل المنطق.

ثانـــياً: إن هـــذه الدعاوى في جملتها تفتقر إلى الأمانة العلمية التي يباهي الغـــرب بهـــا، بـــل ويحرص غاية الحرص على تتبعها خاصة عند مناقشـــة البحوث التجريبية، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بقضية المرأة يـــتم طرح الأمانة جانباً والهجوم غير العلمي، فنجد مقولات هؤلاء مشحونة بمشاعر البغضاء ضد الإسلام والتي تدفع بهم إلى تحريف نصوص الإسلام دون أدنى إلتزام بأمانة النقل العلمية المعروفة جيداً فـــي محـــافلهم، بل أيضاً تضيع الأمانة مرة أخرى عند الجواب بما عـــندهم مـــن بـــدائل، فيغضـــون الطرف عما يندى له الجبين في مجـــتمعاتهم رغـــم ظهـــور الأمر جدا على ما سنبينه بتقصيها في موضعه إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: مخالفة المشاهد المحسوس من الحقائق العلمية المجردة والتي صنفت بشأنها عشرات الأسفار العلمية القاطعة دون أدنى شك بالبون الشاسع بـــين المـــرأة والـــرجل ســـواء علـــى مســـتوى وظائف الأعضاء (physiology) – أو الكيمياء الحيوية داخل الجسم الإنساني لكليهما (Biochemistry) أو التشـــريح (Anatomy) وغير ذلك مثل علم الغدد الصماء عند كل من الرجل والمرأة (Indocrine) وهو شاهر وجاهـــر ومعلوم من عناوين الكتب العلمية وليس فقط مضمونها إذ خصصـــت أســـفار للذكور منفصلة عن أسفار الإناث وذلك للفروق

الكبيـرة والتـي تظهر يوماً بعد يوم على مستوى العلم وسنبينه عند مناقشته والله المستعان.

رابعاً: أما القضية الكبرى وهي التفرقة بين عقل المرأة وعقل الرجل، فمن المهـم التركيز على أن الاختلاف في القدرات العقلية ها هنا لا ينتج عـنه فاضل ومفضول ولابد، بل هو توظيف لقدرات كلٍ بحسب ما أعد له من وظائف دون مقارنة بين الاثنين رأساً، والمقصود أن هذه الشـبهة يدحضـها العلـم الحديث سواء من جهة تشريح مخ المرأة والرجل، وكذا توجهات عقل المرأة والرجل، بما يفيد التفاوت الكبير والتـنوع الكامل في مجالات كل منهما، بما يجعل ذكر التساوي في هذا المقام هو نوع من الجهل المطبق، وسنأتي بأحدث المراجع التي تثبت نقضنا لهذا الركن حيث أنه من أهم مرتكزات دعاة ترويج هذا الباطل.

خامسـاً: إن بنـيانهم يرتكز على استدلالهم بآيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وبمراجعة سردهم للحجج يجتزءون النصوص بصـورة ظالمة، فيقتصرون على بعض الكتاب ويتجاهلون البعض، ويستشـهدون ببعض الأحاديث ويتناسون الأحاديث الأخرى، الأمر الـذي لا نبرؤهم فيه من تهمة تعمد التضليل والإفساد إذ من المعلوم عـند المسلمين والكافرين أن النصوص تؤخذ جملة أو تترك جملة، وأن الإقتصار على البعض هو دليل دامغ على ضعف الحجة وانعدام الحـيلة، ناهيك عن الخيانة وتعمد التزييف وسنأتي إن شاء الله على الأدلة القاطعة عليه عند عرضه.

سادساً: الجهل التام بأصول تناول آيات الكتاب الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، والرغبة الجامحة مع ذلك في تفسير الآيات وشرح الأحاديث. الأمر الذي ينتهي بهم إلى نتائج مضحكة عند أهل الإختصاص ومناقضة البدهيات الأصولية المعلومة والمطلوبة لتفسير القرآن أو شرح الحديث. وقد استقر علماء الإسلام جميعاً عليها، بما يجعل المعرفة بها سبيلاً محتماً لمعرفة آرائهم قبل الحكم عليها. فضلوا في تفسير الآيات الخاصة بالمرأة أو الأحاديث الشريفة الشارحة لوظائفها في الإسلام.

أوهن من خيط العنكبوت

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون) العنكبوت٤١

سابعاً: إن فاقد الشيء لا يعطيه، وبيان ذلك، أن المرأة قد انحطت فى العالم الغربى بأسره إلى حالة مزرية عقائديا وأدبيا واجتماعيا، تلك الحالة التى لا يسترها دعاوى حريتها فى إدمان المخدرات، والعبث الفاحش واللهو المدمر، وهذا ليس من بنات أفكارنا، بل هو من مصادرهم ومقرر لديهم ومعترف به عندهم، حتى اعتبره العقلاء بينهم أسبابا كاسحة مدمدمة لتدمير الحضارة الغربية بكاملها، وإن ما تواتر من الأسانيد والأدلة القاطعة على ذلك، إنما يجعل الجدل من أرباب هذه الأكذوبة الكبرى معها نوعا من المكابرة والتحكم والإعتساف .

ثامـــنا: الجهل المنكر المعيب بأبسط البدهيات التاريخية، والتطبيق الأعمى للنـــتائج دون النظر إلى مقدماتها، وبيان ذلك، أن الأسباب التى أدت إلـــى تمـــرد المرأة فى أوروبا والغرب ورغبتها المحمومة للتحرر والإنفـــلات لهـــا أسباب مشهورة ومعلومة، ولم تكن حركة تحرير المرأة هنالك سوى ثمرة مريرة لشجرة أشد مرارة، وعلاج مأساوي لظـــروف قاهـــرة مأساوية وجدت فيها المرأة الأوروبية نفسها بين حـــربين عالميتـــين مدمـــرتين، الأمـــر الذى لا علاقة للإسلام ولا للمسلمين به من قريب ولا بعيد، وإن نقل هذه الأفكار كعلاج واجب فى العالم الإسلامى دون النظر فى الأسباب والأدواء التى قامت من أجل علاجها، هو محاولة للعلاج فى غير داء، واستنبات للبذور فى الهواء.

تاسعا: الإفتقار إلى أدنى مشاعر العدالة والإنصاف عند المقارنة والدراسة، فبيـــنما يغـــض دعاة تحرير المرأة عن فظائع التجاوزات فى الغرب والتى أدت بالمرأة إلى أفحش حالات الشذوذ والتردى، وحولتها إلى سائمة فى الطرقات، ولعبة بين يدى تجار الدعايات والإعلانات، إذا بهـــم يـــتحكمون فى الهجوم الظالم على الإسلام ومقرراته فارضين علـــيه فروضا مثالية من حميا الخيال، لا واقعية ولاوجود لها، ولا يقـــدر علـــيها أحـــد مـــن جنس الإنسان رأسا، متناسين أن الشرع الإســـلامى الحكيم إنما يمثل علاجا ناجعا لواقع الإنسان وبما تطيقه مـــؤهلاته وقدراتـــه واستعداداته، لابما يجنح به خيال الواهمين ولا أحلام الحالمين.

عاشـــرا: إن البدائل التى أعدها دعاة تحرير المرأة لا تعدو أن تكون دينية أو دنيوية، فأما الدنيوية فقد عرفناها، وهى تختصر فى إطلاق كامل الحـــرية للمـــرأة وعدم التعرض لها بأى طريق، تفعل كل ما تشاء وكيفما تشاء دون النظر إلى أى نتيجة أو عاقبة، وأما الدينية فهى إما منســـوبة إلـــى الله أو إلى غيره سبحانه، فأما الديانات المنسوبة إليه سبحانه فلا يوجد على الأرض منها سوى اليهودية والنصرانية، وأما الـــديانات الوثنية فهى من أمثال البوذية والكونفوشوسية والهندوسية وغيرها. وإن مقارنة الإسلام بغيره من الديانات المذكورة، إنما يضع أربـــاب الحركة النسائية فى موقف لا يحسدون عليه، ولسوف يتبين لـــك عـــند المناقشة ما يندى له جبين كل من له حس أو شعور من أولئك الذين يتبنون مذهب إنقاذ المرأة من الإسلام، كى يضعوها فى أتـــون نـــار لا تهـــدأ مـــن التحريفات وشذوذ التشريعات الوضعية والمحرفة والتى لا يقرها عقل ولا تابع حق، ويقطع بصورة لا حيلة معها كل أراجيفهم وترهاتهم وتهويماتهم.

حادى عشر: الجور الجسيم على حقوق المرأة تحت ستار حمايتها، ذلك أن سهامهم الطائشة الرعناء قد تقاذفت جميعها دفاعا عن شريحة واحدة مـــن النســـاء ألا وهى شريحة المرأة العاملة، أو تلك الشابة الناشطة الراغبة فى ممارسة حريتها وحياتها بزعمهم، على ما يمثله ذلك من تجاهل فاحش لبقية شرائح وطبقات النساء. فعند القاصى والدانى لا تمثل المرأة فقط تلك التى تكابد الحياة وتسعى لتوفير لقمة العيش، بل المـــرأة المسنة كالجدة والأرملة والمقعدة وأيضا الطفلة اليتيمة والتى

تكابـد العنوسـة واليائسة من المحيض والأم وغيرها من ضروب النسوة المتغلغلات فى حياة جميع المجتمعات، وإن التركيز التام على القضـايا التى تخص صنفا واحدا مما ذكرنا وتجاهل بقية الأصناف بيـنما هن الأغلبية الساحقة، إنما يقطع باتباع الهوى وتعمد الفساد، والإفتقار إلى العدل والإنصاف لحقوق المرأة بالمفهوم الواسع، خلافا لـزعمهم الأعـوج بالدفاع عن المرأة وحقوقها.هذا ولسوف نواصل فضـح رؤوس ضلالاتهم وعناصر خداعهم مستعينين بعد الله تعالى بكل سلاح من الأثر والنظر وسائلين الله تعالى لنسائنا وبناتنا النجاة من أحابيلهم وخدعهم ومكرهم.

كفـر أو إيمـان

(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) آل عمران ١٦٧

هاهنا تفنيد الأركان التى اعتمد عليها دعاة تحرير المرأة، وبيان مدى هوانها وتهافتها عند عرضها على العقل السوى أوالشرع القويم، أو مـا أثبتـته قواطع الأدلة العلمية فى زمن يعتمد العلم مقياسا لقبول الحق، فنقول والله المستعان:

ثانـى عشر: إن المنتسبين للإسلام من دعاة سلخ المرأة من إسلامها، إنما يقعون فى الخطأ العقائدى القاتل، ألا وهو الإستدراك على أوامر الله تعالـى المحكمة، بل ومعارضتها وطرح البدائل لها. الأمر الذى لا يحل لمسلم أن يتردى فيه بإجماع المسلمين، وهو طريق أسوأ وأحط مـن طريق بنى إسرائيل إذ حادّوا أنبياءهم فانتهى بهم الأمر إلى أن

مسـخوا قـرودا وخنازير. وكل من وقف أدنى وقوف على أصول الإيمان فى ملة المسلمين علم بالإضطرار أن من انتسب إلى الإسلام وجـب عليه ألا يخالف هذه الأصول الإسلامية العظمى والتى تلزم كـل مسلم بالخضوع الكامل والإنصياع التام لكل ما ورد فى الكتاب والسـنة دون أدنـى تردد أو تساؤل، يقينا بحكمة الله تعالى وعلمه الأعلـى حيث يقضى بما يشاء وبما لا يحيط بحكمته البالغة أحد من خلقه، وهو ظاهر وبين كما هو معلوم فى المصنفات المتطاولة لأهل الإسـلام من أولهم وآخرهم ومن شاء فليرجع إليه ففيه الكفاية لمن أراد الله تعالى له الهداية.

ثالـث عشـر: قـيام مذهبهم على سوء الظن بالمرأة المسلمة والفتراض الـواهم بأنها توفقهم على كل أباطيلهم وشرودهم، ثم انتداب أنفسهم حمـاة لها من غير تفويض منها ولا توكيل ولا موافقة ن وإننا حين رجعـنا إلـى جموع المؤمنات المسلمات الطاهرات وجدنا أنهن لا يرتضين بغير الإسلام كما أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بديلا ولا عوضا، وإن المرأة منهن لتقبل أن تفقد مالها وأبناءها ولا يصاب الإسلام بأذى أو يمس إسم الرسول صلى الله عليه وسلم بمكـروه، وهـذا بيّن لمن أراد أن يلمسه دون عناء فى الملايين من المسلمات العاضّات على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بأسنانهن، ولا ندرى؟ من وكل حماة المرأة وتحريرها بالدفاع عنهن وتولى قضاياهن دون رضى أو علم، إلا إذا اعتبرت حفنة الضائعات المعـدودات على الأصابع من المرتزقات من قضية المرأة وحركة

تحرير المرأة وخلافه، هن جميع المسلمات، بما لا يدعيه إلا مباهت يجحد الشمس فى رابعة النهار. ومن استعرض سيرة هذه الحفنة الشاردة من النساء جزم بما أوردناه لك فاعرفه.

رابع عشر: إن الوقائع التاريخية الدامغة قاطعة بأن أساطين هذه الفتنة العمياء، ورؤوس هذه الدعاوى الهدامة هم ربائب مخلصة للإستعمار، وأدوات طيعة لتنفيذ أهدافه الإجرامية، من أجل هدم مناعة هذه الأمة، وتدمير قدراتها على المقاومة توطئة للسيطرة الكاملة على مقدراتها. وبمراجعة تاريخ الدعاة الأوائل لسفور المرأة وغير ذلك من دعايات الإنحلال، وقعت الأيدى على العهود المبرمة والمواثيق المعقودة والصفقات الخيانية بينهم وبين سادتهم وأربابهم من ذئاب الإستعمار الوالغة فى دماء المسلمين. إن هذه ليلقى الضوء الفاضح على هذه الحلقة البشعة من المؤامرة الكبرى ضد الإسلام والمسلمين تحت الدعاوى البراقة والشعارات الزائفة حول نصرة المرأة وإنصافها وتحريرها وغير ذلك من معسول الكلام الذى يخفى وراءه أشد النوايا خبثا ومرارة.

خامس عشر: إن دعاواهم الكاذبة المضللة بعد ما تبين أنها منافية للمنطق وللعقل وللعلم وللعدالة وللإنصاف وللمنهج العلمى السوى، فضلا عن منافاتها لتعاليم الشرع الحنيف.فإنها قبل ذلك وبعده منافية للفطرة الإنسانية الصافية فيما يتعلق بسلوك المرأة عامة، والمرأة المسلمة خصوصا. بل هى منافية لسلوك الحيوان الإجتماعى والذى أثبتت قواطع الأدلة العلمية التزامه بقواعد ونظم سلوكية اجتماعية، عجز عن بلوغها المنطق المنحط لأنصار سلخ المرأة من إسلامها ليهبطوا

بهـــا إلـــى مـــرتبة دون مرتبة الأنعام الهائمة. ولقد حرصت تعاليم الإســـلام على تخصيص هذا المرتكز بالذات بغاية الإهتمام، والتنبيه بقـــوة على أن هذه الشرائع القويمة هى التعبير الحتمى على الفطرة الراسخة، الكامنة فى أعماق كل امرأة على وجه الأرض، فضلا عن المرأة المستنيرة بهديها والسالكة فى رشد على دربها (فطرة الله التى فطـــر الـــناس عليها لا تبديل لخلق الله). ولسوف نورد من ذلك ما يشتفى به قلب كل أواب منيب. إن شاء الله تعالى.

وبعد

فمـــا ذكـــرناه هو إشارات إلى أصول الأركان التى اعتمد عليها أهل هذه الفتـــنة التـــى خلفـــت من ورائها الناس بين هالك وناج ومتحير لا يدرى دربا ولاطـــريقا، وكـــذلك إشارات إلى أصول دحضها وردها بأسلحة الأثر والنظر وحقائـــق العلـــوم وشهود الحق هاهنا الجواب المختصر على الدعوى العريضة التـــى ركـــب نـــزقها أدعـــياء تحرير المرأة، واضعين أنفسهم ومن تبعهم من المخدوعين بأباطيلهم ممن ينتسبون إلى الإسلام فى مرتع وخيم وهاوية سحيقة، مـــع تهافـــتها وتهتكها فهى أوهن من بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون،، مع ذكر الجـــواب المفحم المستفيض عليها بحجة من الله تعالى ورسوله، وبما استقر فى عقائد المسلمين، ثم بما اتفق عليه العقلاء من استهجان باطلهم وسخفه وفقدانه لما يـــنهض للحجـــة والبـــرهان، الأمر القاطع لعذر المعتذرين، والفاضح لضلال المضلين.(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

أســـأل الله تعالـــى أن يجعـــل العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يرد كيد الكائدين وكل من اراد بالإسلام سوءا وبالمسلمين آمين.

أمثلة للمقال التفسيرى العلمى

معجزة الصيام بين الطب والقرآن[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) وأن تصوموا خير لكم

يقول الله تعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

صدق الله العظيم

البقرة: ١٨٣،١٨٤]

(1) ضمن سلسلة مقالات تفسيرية حول قضية المرأة للمؤلف وقد نشرت تباعا فى مجلة الدعوة السعودية

يقــول تعالــى مخاطــبا للمؤمنين من هذه الأمة وآمرا لهم بالصيام وهو الإمســاك عــن الطعام والشراب والجماع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكــاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذكر تعالــى أنــه كمــا أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيهم أسوة، ولتجــتهد هذه الأمة في أداء هذا الفرض أكمل مما فعلته الأمم السابقة، كما قال تعالــى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليــبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات)الآية ولهذا قال ههنا: (يا أيها الذين آمنوا كــتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) لأن الصوم فيه تــزكية للــبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين: يا معشر الشــباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجــاء. ثم بين سبحانه وتعالى مقدار الصوم وأنه ليس مستمرا دائما لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات رحمة بهذه الأمة وتخفــيفا علــيها، ومن التخفيف كذلك أن الأمر بالصوم جاء على التدريج شأن الإسلام فى نقل النفوس نقلا متئدا عما اعتادته وشبت ونشأت عليه فقد كانوا في ابــتداء الإســلام يصــومون من كل شهر ثلاثة أيام ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان

أمــا عن كون الصوم كان مفروضا على الأمم السابقة فقد روى عباد بن منصــور عن الحسن البصري: فى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات) فقال نعم والله لقــد كــتب الصــيام علــى كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهرا كاملا وأياما

معدودات عددا معلوما، كما روى عطاء الخراساني عن ابن عباس قوله تعالى: (كما كتب على الذين من قبلكم) يعني بذلك أهل الكتاب.

وما قرره القرآن الكريم وجدناه فى جميع المصادر الدينية والتاريخية حيث ثبت أن الصيام ليس بأمر مستحدث فى تاريخ الأمم جاء به الإسلام، وإنما كانت معظم أمم الدنيا تخضع له، مما يؤكد قوله تعالى بأنه كان ركنا ركينا من التشريع الربانى للأمم السابقة، أما ما نجده من الفوارق والبواعث الاعتقادية المختلفة حوله بين الأمم فهو دال كذلك على ما أكده القرآن الكريم من وقوع التحريفات والتبديلات التى عبثت بالشرائع التى حف الله تعالى بها عباده، غير أن أصل التشريع بالصوم بقى ماثلا فى جميع الملل حتى الوثنية منها، فهو معروف عند قدماء المصريين، واليونانيين الذين كانوا يفرضونه ولا سيما على النساء، وكذلك الرومانيون كانوا يعنون بالصيام، ولا يزال وثنيو الهند وغيرهم يصومون بشكل أو بآخر حتى أيامنا هذه، أما بالنسبة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم الذين ذهب بعض المفسرين إلى أن النص الكريم إنما قصدهم، فالظاهر من نص القرآن أن الصوم كان فرضا عليهم، برغم أنه ليس فى أسفار التوراة التى بين أيديهم اليوم ما يدل على فرضية الصيام، غير أن فيها مدح الصوم والصائمين، كذا ورد فيها أن موسى عليه السلام صام أربعين يوما، وهو يدل على أن الصوم كان معروفا لديهم ومشروعا ومعدودا فى العبادات، ولا يزال اليهود حتى اليوم يصومون أسبوعا تذكارا لخراب أورشليم وأخذها، ويصومون يوما من شهر آب، أما عن هيئة الصوم فاليهود كانوا يأكلون فى اليوم والليلة مرة واحدة، فغيروه وصاروا يصومون من نصف الليل إلى نصف النهار ولهم أيام أخر يصومونها نهارا. ويروى أن التوراة فرضت عليهم صوم

اليوم العاشر من الشهر السابع، وأنهم يصومونه بليلته و كانوا يسمونه عاشوراء، وهم قد فعلوا ذلك على عصر النبى صلى الله عليه وسلم، فشرعت السنة المطهرة صوم عاشوراء كما هو معلوم من السيرة النبوية الشريفة. أما النصارى فليس فى أناجيلهم المعروفة نص فى فرضية الصوم وإنما فيها ذكره ومدحه واعتباره عبادة، وأن الصائم عليه أن يدهن رأسه ويغسل وجهه حتى لا تظهر عليه أمارات الصيام فيكون مرائيا، وأشهر صومهم وأقدمه الصوم الكبير الذى قبل عيد الفصح، وهو الذى يقولون أن موسى وعيسى عليهما السلام قد صاماه، ثم ابتدع رؤساء الكنيسة من رهبان النصارى ضروبا أخرى من الصيام، مما أورثهم خلافا كثيرا بين المذاهب والطوائف النصرانية، واضطرابا وفرقة فى أشكاله وصفاته فمنه الصوم عن اللحم من دون الطعام، ومنه الصوم عن السمك ومنه الصوم عن البيض واللبن، وغير ذلك، ولكن مع توقفنا فى نسبة هذه الأنواع المتباينة إلى الله تعالى والأنبياء، فإنها تبقى شاهدا جازما للحق فى كتاب الله تعالى بأن الصوم كان فى الأمم السابقة مكتوبا ومشروعا. وصفوة القول أن الصوم، وإن كان يعنى فى الإسلام الإمتناع عن الأكل والشرب والشهوة بنية التقرب إلى الله تعالى، فهو عبادة قديمة ربما ظهر بظهور البشر والحياة على وجه البسيطة،أو من زمن نوح عليه السلام كما ورد من أقوال بعض الصحابة والتابعين حيث روى أن الصيام كان مفروضا علينا أولا كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام، وذلك عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك بن مزاحم وزاد لم يزل هذا مشروعا من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان.

أمـــا الصـــوم فى الإسلام فغايته حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألـــوفات طلـــبا لما فيه سعادتها ونعيمها، وسلوك ما تزكو به مما فيه حياتها الأبديـــة، بالجـــوع والعطش، وهو يذكرها بحالة الأكباد الجائعة من المساكين، ويحـــبس جموح الأعضاء عما يضرها فى معاشها ومعادها، فهو لجام المتقين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، لما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن الله عزوجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به. وبيان ذلك أن كل صائم صادق ولا محالة إذ لا يمـــنعه مانع من الأكل أو الشرب خفية من الناس إذا شاء دون رقيب، فلما كان فـــى سره باقيا على الجوع والعطش لا يراه إلا الله تعالى كان ذلك دليلا جازما علـــى صدقه وخشيته من الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وعلى الجملة فلا إمكان للنفاق فى الصوم بخلاف العبادات الأخرى كالصلاة أو الزكاة أو الحـــج فكلها عبادات فعلية تسمع وترى ويرد عليها الرياء والسمعة والنفاق، وأيـــن الرياء أو النفاق فى قلب من يترك شهوته وطعامه وشرابه و محبوبات النفس ولذاتها وشهواتها إيثارا لمحبة الله ومرضاته.

وممـــالا شـــك فيه أن الصوم فى الإسلام، يختلف ويتميز عن الصوم فى الأديـــان والمذاهب القديمة، وسواء من جهة القصد منه أو الهيئة والطريقة التى يؤدى بها، فمن المعلوم أن الإسلام لا يقصد فى أى من تشريعاته التربوية للنفس الإنسانية تعذيب الجسد، كما هو الأمر فى البوذية والبراهمية وغيرها من الملل والمـــذاهب التـــى تعتبـــر إهانـــة الجسد وإيذائه وتعذيبه هو عين ترقية النفس وتطهيـــرها، بل الغاية من العبادات عامة فى الإسلام والغاية من الصوم خاصة هى تزكية النفس وتطهير الروح وخلق العلاقات والوشائج الإجتماعية المتوازنة

دون اللجـوء إلى التشريعات المهينة المذلة للأجساد والتى لا نفع فيها . ويؤكد ذلـك ما كشفه علماء كثيرون مسلمون وغير مسلمين عن فوائد الصيام الصحية للجسد نفسه، وما يمكن أن يعود على الإنسان منه من منافع، فقد كان الناس إلى زمـان قـريب يحسبون أن الصيام من الشؤون الدينية العبادية المحضة التى لا يجـوز لأحـد يسأل عن الحكمة فيها، ولكن لم يكد يتسع علم الطب وينتشر بين الناس حتى علم الجميع أن الصيام قد اعتبر فى كثير من الأمراض من مقومات الصـحة الجسمانية، وأنه عامل قوى من عوامل تنقية الجسم من سموم الأغذية، فـإن الأغذيـة تحتوى مواد غير متقبلة من الأجساد ومنها سموم يلفظها الجسم ومـنها شوائب ومواد دهنية،ومواد أخرى معقدة رباعية العناصر لا تطيق البنية البشـرية أن تختزن مقدارا يزيد على الحاجة منها. وإن إطلاق الحرية للإنسان يجعلـه يتناول كل ما يقع تحت يده، وكثيرا ما يصاب بسبب هذه الحرية بآفات مرضـية تكـون وبالا عليه، ولكن أكثر الناس لا يأبهون كثيرا بالمستقبل، ولا يحسـبون حسابا للشيخوخة، حيث تتراكم تداعيات الإفراط فى الطعام والشراب لتقوم دفعة واحدة فى النهاية بهدم أركان الجسد ونشر الوهن والخور بين جنباته. والصـوم ذو تأثيـر بالـغ فى تخفيف الأعراض التى تنتاب الأعضاء الظاهرة والباطـنة، وتحـويل حاسم فى حالة المريض يؤدى به إلى التخلص من الآلام والانحـرافات، وقد استفاد الطب فى بعض جوانبه من الصوم ما لم يستفده من العلاج بالعقاقير.

إن الصـوم نعمة وهداية ومنة من الله تعالى إلى البشر، وهو وإن كان قد أفاض بنفعه على الإنسانية فى مختلف مراحل تاريخها، إلا ان تلك الفائدة لم تبلغ

ذروة العظمـــة والكمال إلا بتشريع فريضة الصوم على الهيئة والصفات الفريدة التى جاء بها الإسلام

يقول الله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ صدق الله العظيم

[البقرة:١٨٤،١٨٣]

(٢) القرآن والعلم: صوموا تصحّوا

قـــال الله تعالـــى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ [البقرة:١٨٥]

يمدح تعالى شهر رمضان من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه كما قال تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وقال(إنا أنزلناه في ليلة مباركة) ثم نزل بعد مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس، ثم قال تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، وهو تصريح بأن العلة فى تشريعات الإسلام عامة وتشريع الصوم على وجه الخصوص هو التيسير لا التعسير فى تنبيه ظاهر إلى منهج الإسلام من قصد التزكية والترقية للنفوس دون اللجوء على أسلوب القسر والأذى وتعذيب الجسد، يؤكده ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد عن أبي قتادة عن الأعرابي الذي سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن خير دينكم أيسره إن خير دينكم أيسره، وروى أحمد عن أبي عروة قال كنا ننتظر النبي صلى الله عليه وسلم فخرج رجلا يقطر رأسه من وضوء أو غسل فصلى فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه علينا حرج في كذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن دين الله في يسر

ثلاثـــا يقـــولها. وقـــوله تعالى: ولعلكم تشكرون أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعـــته بـــأداء فرائضـــه وتـــرك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشـــاكرين بذلك، فينالكم ما ينتظر الصائم من الأجر العميم ومن القرب من الله تعالي، فمن المعلوم أن العبد لا يبلغ الدرجة التى يكون فيها مستجاب الدعوة إلا إذا كان أقرب ما يكون إلى الله تعالى،كذا لا يجيبه الله تعالى بمجرد دعائه إلا إذا كان أرضى ما يكون عنه، وقد وردت فى هذا المعنى من الأحاديث الشريفة عن النبـــى صلى الله عليه وسلم والآثار ما هو معلوم، وتصوروا عبدا من عباد الله إذا دعـــا الله تعالـــى أجابه وإذا أقسم عليه أبره، كم يبذل من المجاهدة والعبادة والإخـــلاص والتجرد حتى يبلغ هذه المرتبة فهذه هى الحالة الصافية التى يصبو إلـــيها العباد والمتقون والأبرار، فعن عبد الله بن عمرو قال قال النبي صلى الله علـــيه وسلم إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد، وفي مسند الإمام أحمد وسنن التـــرمذي والنســـائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله علـــيه وســـلم: ثلاثـــة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتي لأنصـــرنك ولو بعد حين، وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور، ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وســـلم بالحث على السحور ففي الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله صلى الله علـــيه وسلم تسحروا فإن في السحور بركة وفي صحيح مسلم وقال الإمام أحمد عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السحور أكلة بركة فلا تدعوه ولو أن أحدكم تجرع جرعة ماء فإن الله وملائكته يصـــلون علـــى المتسحرين وقال الإمام أحمد: عن أبي ذر قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم لا تزال أمتي بخير ماعجلوا الإفطار وأخروا السحور. قال ابن كثير: وقوله ثم أتموا الصيام إلى الليل يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكمـــا شـــرعيا كمـــا جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عـــنه قـــال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر أخرجاه وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقـــول الله عـــز وجل إن أحب عبادي إلي أعجلهم فطرا. فمما سبق يبدو الوجه المعجـــز فـــى هذا التشريع الربانى حيث افترض الصوم وحدد الفترة لزاما من الفجر إلى الغروب ودون تأخير وكان ميسرا فحبب السحور قرب الفجر، فحاز بذلك منافع الصوم من تنقية الجسم مما تراكم فيه من الشوائب والعناصر المؤذية مـــن جـــراء الأكـــل دون ضابط طوال العام، ثم نهى عن أى شىء يؤدى إلى التعذيب أو الإيذاء المجرد شأن الملل الأخرى التى ترى فى تعذيب الجسد حياة لـــه وضـــلوا بـــذلك كما نراه فى رهبانية الرهبان وصوم الوثنيين من البوذيين وغيرهم كما يخالف ما ذهب إليه رؤساء الكنيسة من تشريع ضروب من الصيام التـــى لا حكمـــة من ورائها ولا مفهوم لها مثل الصوم عن البيض فقط أو عن الســـمك فقـــط أو عن اللحم أو الزيت فقط، هذا الأمر الذى لفت نظر المنصفين ممـــن ليســـوا على ملة الإسلام، فأيقنوا بأن دين الإسلام هو الحق المحض من تشريعاته عامة ومن تشريع الصيام خاصة على هذه الهيئة المحكمة الجامعة لكل خير والمانعة لكل شر. وشهد بذلك قادة العلم فى الغرب مثل ما ورد عن أستاذ القانـــون الألماني الدكتور(ويلفرد هوفمان)، والذى عرف بتفوقه وتميزه وعمق

فكـــره واطلاعـــه لذا كان ترشيحه للعمل سفيرا لبلاده في العديد من الدول، فقد تـــنقل للعمـــل فى السلك الدبلوماسي منذ عام ١٩٦١م وحتى الآن عام ١٩٩٣م. ومـــن الـــبلاد التي عمل فيها سفيرا لبلده ألمانيا هذه الدول: بلجيكا – فرنسا – النمســـا – الجزائـــر – سويسرا – يوغسلافيا. وأخيرا عمل سفيراً لألمانيا في المملكـــة المغربية. وبعد دراسات عميقة وطويلة ومقارنات مرهقة بين الإسلام وغيـــره من الديانات والتشريعات الوضعية والكتابية وصل الدكتور هوفمان إلى الـــنور وحسم أمره بأن الإسلام هو الحق فأشهر إسلامه عام ١٩٨٠م، وأطلق على نفسه إسم (مراد فريد)، وأصدر كتابا تحت عنوان (يوميات مسلم ألماني) يحكي فيه بالحوار مع نفسه والعالم من حوله قصته مع الإسلام الذي أصبح أحد أبـــنائه. ومما قاله من الشهادة الجازمة لدين الإسلام ما نصه: إن الإسلام بكتابه العظـــيم، هـــو الدين العظيم الذي ينزه الله ويعطيه صفة القمة التي أتم بها البناء الإنساني، لذلك لا أشك أن الإسلام سيعلو، لأن قوة غير عادية تكمن في تعاليمه البسيطة التي لا تقبل مع الله وسيطا علاوة على أن المسلم الذي ينطق بالشهادتين يصبح مسلما ولا يستطيع أحد رده مادام يؤدي الصلوات الخمس ويبقى ذكر الله في كل شئ في حياته ويسلك السلوك الإسلامي المطلوب "..." لقد جربت الصيام قبل الإسلام، واكتشفت كم هو مقيد للنفس البشرية، ليصبح الإنسان إنسانا صافيا، فيحس بغيره من الفقراء فيساعدهم على قدر استطاعته.

عـــلاوة علـــى أن الصيام منقٍّ للجسد من الشوائب التي تؤثر على صحته طوال العام، والصيام أحد أركان الإسلام التي تكتمل به إنسانية الإنسان، فيصبح بذلك محبا للناس، متعاونا معهم مؤديا الفروض التي يكتمل إيمانه بأدائها ليصح المجـــتمع.إن الإســـلام ورســـوله صلى الله عليه وسلم أحق بالإتباع، وقد وقف

الإسلام بتعاليمه شامخا لم تهزم شرائعه أمام أعتى النظريات التي كانت تحاربه وتفتتت الأنظمة التي كانت تحاول تشويهه.

ويبقـــى الإسلام قويا، ولكنه يحتاج من المؤسسات والأفراد والجماعات أن يكونوا على طريقه لينتشر في العالم الذي يتوق إلى معرفته " انتهى

فانظر أخى القارىء الكريم كيف أدى الإحساس بالعظمة فى الصوم الذى شـــرعه الله تعالى للمسلمين بأحد كبار العلماء فى الغرب إلى شهادة الحق، علما بأن ما ذكرناه هاهنا ليس إلا مثالا واحدا يغنى عن ذكر عشرات الأمثلة المشابهة والدالة بصورة قاطعة على ثمار الإعجاز الطبي في القرآن عن طريق فريضة الصـــيام بغاياته وصفاته، وهي أمور ربما مر عليها الكثيرون مر الكرام، ولكن المعجـــزة القـــرآنية العلمية الكامنة في أقصر العبارات وأدق التشريعات تتجلى بأثرها الباهر فيخرج من شاء الله تعالى من الظلمات إلى النور . وقد صدق الله تعالى إذ يقول

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة:١-٣]

•••••

(٣) أمراض شفاؤها الصيام

يقول الله تعالى:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ:٦]

من الناس من يتوهم أن في صيام رمضان وهو الركن الرابع من أركان الإسلام مضرة تلحق بالصائم لما يصيب الجهاز الهضمي وغيره من الأعضاء، ولما كان من المؤكد أن كثيرا من شرائع الإسلام لم تظهر حكمتها إلا مع تقدم العلوم، فإن موضوع هذه الحلقة هو ما ظهر طبيا للآن من فوائد الصيام وتفسير للآيات القرآنية الباهرة التى تجلت معجزاتها فى ضوء الطب الحديث، إذ قد تبين أن الصيام يعد علاجا طبيا في حالات مرضية كثيرة، بل ربما كان العلاج الوحيد فى بعض حالات المرض بعينها، فضلا عما هو معلوم من أنه من أعظم وسائل الوقاية من أمراض شتى. فأما الفوائد العلاجية للصيام من بعض الأمراض فعلى سبيل المثال في حالات اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمر في المواد الغذائية المؤدى إلى الإنتفاخ والغازات فالصيام هاهنا علاج حاسم لهذه الحالة وخصوصا إذا روعى عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان وقد ثبت أن هذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الأمعاء . كما أن الصيام علاج أساسى لحالات السمنة وزيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة، فالصيام أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار في الطعام والاكتفاء بالماء في

السحور.وأيضا مرض زيادة ضغط الدم وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والإقبال على الطعام وخاصة الدهنيات من جانب، كذلك مع زيادة التوتر العصبى والانفعالات النفسية ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة خصوصا إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي. ومن المعلوم أن مرض البول السكري يكون في مدته الأولى وقبل ظهورأعراضه مصحوبا غالبا بزيادة الوزن فهنا يكون الصيام علاجا نافعا إذ أن السكر يهبط مع قلة السمنة ولا يزال الصيام مع بعض الملاحظات في الغذاء أهم علاج لهذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين خصوصا إذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعي ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام. ومن الأمراض التى يعالجها الصيام كذلك التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم وكذلك أمراض القلب المصحوبة بتورم والتهاب المفاصل المزمنة خصوصا إذا كانت مصحوبة بسمنة كما يحصل عند السيدات غالبا بعد سن الأربعين وقد شوهدت حالات تتحسن بصورة مثيرة في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتحسن مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب وسائل الحديث. وربما قال قائل: ولكن الصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء بدليل أن المريض رخص له فى الفطر كما هو معروف. فالجواب أن ما ذكرناه إنما هو الدور العلاجى للصوم فى أمراض بذاتها بناء على ما قرره أهل الطب، أما بالنسبة للأصحاء فإن فائدة الصيام لهم هي الوقاية من الأمراض المذكورة وغيرها، فمن المعلوم أن هذه الأمراض كلها تبتدئ في الإنسان تدريجيا بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض قبل ظهور أى أعراض له فكانت الوقاية عن طريق الصيام هى السبيل الأوحد لدفع أخطار الإصابة بكل هذه الأمراض وغيرها،

وخاصـــة أنـــه قـــد ظهر بالدراسات العلمية التى لا تقبل الشك أن زيادة السمنة يصـــحبها اســـتعداد للإصابة بمرض البول السكري وزيادة ضغط الدم والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها فكان الصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض علما بـــأن هـــذه الأمـــراض تنتشـــر بزيادة الحضارة والوسائل الحديثة من مرئيات ومسموعات ومثيرات للأعصاب من جانب، كذلك تزداد ازديادا كبيرا مع زيادة التـــرف والطعام والشراب يؤكد ذلك ما ثبت علميا من أنها انتشرت في أوروبا وأمـــريكا علـــى درجـــة مخيفة بالمقارنة بالأزمان السابقة، كذلك انتشرت هذه الأمراض فى كثير من دول العالم، بل إنها فى كثير منها تكاد تكون مركزة فى الطبقات المتوسطة والطبقات العليا من المجتمعات، بينما هى تكاد تكون معدومة فـــى الطبقات الفقيرة، وكل ماأوردناه قد ثبت من أعقد البحوث والتحاليل العلمية علـــى عشرات الصائمين التى أثبتت أن الصوم فى حقيقته عبارة عن معجزة علمـــية حقيقـــية، وقد اختصرنا فقط بعضا مما كشفته العلوم الحديثة من وجوه الإعجـــاز الطبى فى تشريع الصوم على الطريقة الإسلامية بناء على الأبحاث التجريبية التي أجريت في الصيام الإسلامي أثناء الصحة والمرض، وخصوصا على جهاز المناعة، ومكونات الدم، وهرمونات المرأة، ومرضى الجهاز البولي، وعمـــل الغـــدة الدرقـــية، وهرمونات الشدة، وخلايا الدم الحمراء، وتجلط الدم، والإخصاب عند الرجل، وتأثير الصيام على الغدد الجنسية وعلى مرضى التهاب المفاصل، وغير ذلك.

وبـــناء علـــى الدراسة المستفيضة لعمل أعضاء الجسم أثناء فترة الصيام، وهى الفترة من الفجر إلى المغرب، ثبت أن الصيام الإسلامي، إنما يطابق الفترة

التـــى يســـتغرقها الجســـم طبيعيا فى حالة هضم وامتصاص الغذاء عبر فترتين تتـــراوح مدتهما ما بين ١٢-١٦ ساعة، وهي فترة آمنة بكل المقاييس العلمية، يؤكده ما هو معلوم اليوم من العلاج بالتجويع والذي أنشئت له مصحات عالمية في كثير من البلدان الغربية والشرقية، نظرا للفوائد الطبية للتجويع، أو ما يسمى الآن بالصيام الطبي، غير أنه ثبت من تقارير المصحات المذكورة ما يخفيه هذا العـــلاج الطبـــى مـــن مخاطر تميز الصوم الإسلامى بما فيه من أوجه خلاف، ومميزات الصيام الإسلامي عليه.

وقـــد تبـــين مـــن الدراسات أن الصيام يخلص الجسم من السموم، ومن الشـــحوم، بـــل أن له دور حاسم فى تجديد الخلايا بدلا من الخلايا الميتة وأيضا تنشـــيط الخلايا المنهكة فكأنه يجدد شباب الخلايا ومه شباب الجسد بأجمعه، كما ثبت أن الصائم النشط المتحرك أفضل من الناحية الصحية من الصائم المتراخى المتكاسل

فثـــبت مـــن كـــل ما تقدم وجوه الإعجاز في الصيام، والمتجلية في يسر الصـــيام الإسلامي وسهولته، وفوائد الصيام ومنافعه، وأنه وقاية للجسم والنفس مـــن الأمراض والعلل، وهو بين ظاهر فى كلمات اليسر والخير والتقوى،التى تفـــيض بها آيات الصيام، وكما ذكرنا سابقا ما زالت بقايا الصيام قائمة فى شتى الشرائع وسواء منها الوضعية المخترعة أو ما يزعم أهل الكتاب أنه من عند الله تعالـــى، غيـــر أن الـــوجه الفاصـــل بين الحق والباطل وبين تشريع الله تعالى وتشـــريعات البشر هو الصفة المعجزة والخصائص الدقيقة التى تضمنها تشريع الصـــوم فى الإسلام مخالفا فى ذلك كا ما ذهب إليه الملل الاخرى وهكذا تجلت

حقـيقة الصـيام الإسـلامي في هذا العصر وأنه حقاً معجزة علمية وضرورة إنسانية.

وقـد دعـت هذه الملاحظات المثيرة للصوم المختصين إلى عقد الندوات العلمـية لإبـراز هذه المعانى الجليلة ومن ذلك الندوة الطبية عن الصيام والتى شـارك فيها عدد من كبار الأساتذة بكلية الطب جامعة الملك عبدالعزيز، والتى عقـدت فـي إحدى مستشفيات مكة المكرمة، وكذلك الندوة الكبرى حول الأثر الطبى للصيام المنعقدة فى جامعة الملك سعود بالرياض – وقد شارك فيها عدد كبيـر من الأساتذة والباحثين من داخل وخارج المملكة، وكانت الأبحاث القيمة التي قدمت في تلك الندوة حول المعجزة الطبية للصوم دليلاً جازما على عظمة هذا الدين، وليعلم الجميع أن الدين الحق لايتعارض مع حقائق العلم،كما يروج لـذلك بعض الجهال، بل إن العلم خادم للدين، يكشف كل يوم عن آية من آيات الله في الآفاق والأنفس،وسبحان الله العظيم إذ يقول:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣]

الباب الرابع

المعجـــــزة

تطبيق إعجازى على التفسير الموضوعى

من جملة القرآن الكريم

معجزة خلق الإنسان

فى ضوء القرآن والعلم الحديث

دراسة تطبيقية فى التفسير الموضوعى فى القرآن الكريم

بحر بلا ساحل من المعجزات

موضـــوع الإنســـان جاء فى القرآن فى عرض زاخر حافل بالمعجزات، مبـــتدءً بمعجزة فريدة فى طريقة العرض قبل الخوض الصاخب فى دقائق هذا الإســـتعراض الذى لا يكاد يصدق لما فيه من غرائب العلوم وعجائب البراهين العلمية، المعجزة لا تقف فقط عند حد الصدمة المدوية بالحقائق العلمية التى كان مـــن أمحل المحال معرفتها على عصره صلى الله عليه وسلم، إن المعجزة تبدأ فـــى الطريقة المعجزة التى تقدم بها المعجزة، وبيان ذلك أنك عندما كنت جنيناً تـــتقلب طورا بعد طور في بطن أمك فإنك لم تتشكل كقطعة الحلوى طبقة فوق طبقة ولا كخشبة الباب أو النافذة قطعة من وراء قطعة، لا يتكون الرأس أولا ثم تخـــرج الذراع وبعدها تظهر الرجلان، ولكنك تتكون وتصور وتتنامى متزامناً، يقول بروفيسور سياراس ويرس فى مقدم كتابه المثير: (من النطفة إلى الولادة):

(والأمر المثير لأشد حالات الإنبهار والذهول هو معجزة أسرار الجنين فى تـــوريث المحـــتوى الجينى والخلايا العجيبة التى تقوم بتكوينه عبر خيوط الدنا DNA الســـابحة فى أنبوبة إختبار أو الخلايا الجذعية النامية فى طبق معملى. إن الجنـــين قادر ليس فقط على مجرد بناء بروتين مفرد تائه أو بقعة من الأنسجة الباهـــتة، بـــل يـــتحول إلى بناء كائن حى كامل تعمل فيه كل خلية فى منظومة متـــناغمة وتعـــرف دورهـــا الهام كجزء فاعل من الكل المعقد المتلاطم كموج الـــبحار، تخيل نفسك كأطول ناطحة سحاب فى العالم وقد بنيت فى تسعة أشهر بصورة فوق التصور وقد تولدت من لبنة واحدة، والأعجب إذا ما انقسمت هذه

اللبـنة الواهـنة إذا هـى تفرز كل نوع من المواد الموغلة فى تنوعها وتباينها وخصائصها اللازمة لتشييد وتشغيل هذا البرج المشيد، مليون طن من الصلب، الأسـمنت والملاط والسباكة والأسلاك والخشب والجرانيت والمذيبات والسجاد والكـابلات الكهـربائية والـزجاج والأثاث ونظام الإتصال التليفونى ووحدات التسـخين والتبـريد والأسـلاك الكهـربائية والأعمال الفنية التجميلية وشبكات الكمبيوتر بما فيها الأقراص المدمجة. وبعدد من الخطوات المتعانقة المتداخلة فى هذه العملية، فإن الأمر الذى يمثل ذروة الإعجاز إلى ما لا نهاية أن الحياة حيثما كانت إنما تطفر وتطفو دون جذبة مفاجئة ولا نقلة مباغتة أو قفزة مندفعة، يقول بروفيسـور تـوماس جيسـيل تخصـص الجهاز العصبى الجنينى من جامعة كولومبيا:

(ومـا أن تنظـر من جنين إلى آخر فإن الأمر الذى يصيبك بالصدمة هو مـدى الدقـة المذهلـة للعملية، ومع ذلك، فإن هذه الدقة تبدو غامضة وأما عن الأسـباب: لماذا يحدث كل هذا؟؟ وبعد أشد درجات التدقيق والتأمل تأتى الإجابة محيرة ومديرة للرؤوس) .

قلـت: ويتبـين جليا مما تقدم أنه بينما يتنامى الجنين فهو يتكون ويصور ويـتطور في بطن أمه من طور إلى طور في آن واحد، فكيف يمكن أن تصف هذا التنامى والتطورعلى طريقة علمية حقيقية مطابقة للواقع الفعلى، حتى كتب الأجـنة الحديثة أعيتها المطابقة بين الواقع الجنينى وطريقة التعبير العلمى عن هذا الواقع فلا تأتي بالفصول إلا مسلسلة متتابعة بحيث لا يمكن معرفة التزامن بـين تماوجات النمو الجنينى إلا بالتعليق المتكرر والمفسر لمسألة الزمن بالذات

فـإذا بـك تـتجول جيئة وذهابا بين الفصول للوقوف على ما يحدث حقيقة فى الأرحـام فـى تشابك العلاقة المعقدة بين الزمان والمكان، فلا ينفك الأمر عن التعقيب المستمر بأن هذا التحول فى هذا الأسبوع يتزامن مع ما ذكر فى الفصل السـابق عـن الـتحول فى العضو المذكور هنالك حتى يتيسر الفهم لمجريات الأمور، لكن القرآن الكريم عندما عرض هذه التحولات المعقدة فقد سلك طريقة فـذة لا سـابقة لهـا، فأتى بالآيات المشيرة لجوانب القضية متفرقات فى أماكن مخـتلفة من كتاب الله تعالى ولم يأت بها فصلا واحدا أو وحدة تامة لا انفصال لهـا، فـتجد الآيـات حول خلق الإنسان واقعة في سورة البقرة وفي سورة آل عمـران و المؤمـنون والحج وغيرها؟ لإثبات الإعجاز اللطيف والعجيب حيث يعـرض الآية بحقيقة علمية في مكان ويأتي بالأخرى فى سياق ومكان آخر من الكـتاب لـتوازيها في الزمان وبثالثة فى موضع آخر كى تكتمل الصورة زمانا ومكانا وهكذا مصورا لك الجنين تصويرا علميا مجسما متزامنا ومتطابقا مع ما هـو قـائم وناشىء ومتكون ومتحول فى كل يوم بل فى كل ساعة فى غيابات الأرحام؟ فهي معجزة في نفس الحقيقة العلمية ومعجزة أخرى في عرض الحقيقة العلمـية لا تخطر على قلب بشر، إذ يستحيل على بشر وإن كان متخصصاً فى الزوابة من هذا الفرع العلمى أن يخترعها أو يصل إليها، فإذا هما معجزتان في آن واحد.

المعجـزة الأولى: المعلومات الدقيقة جداً إلى حد أذهل العلماء الذين أذابوا زهرة أعمارهم بين عدسات المجاهر وتجارب المعامل .

الأمـــر الثانـــي: طـــريقة العـــرض للمعجزة التي تتحدى الجهد البشري بخاصـــيتين لا سابقة لهما فى كلام البشر الأولى: قبول العامى الجاهل الذي لا يدرى عن علم الأجنة شيئا لها زافرا لما فيها من الحق بذروف الدموع ووجيب القلـــوب، فإذا تليت على عالم الأجنة المستبحر حتى النخاع فى أدق دقائقه خرّ لهـــول الصـــدمة العلمية ساجداً باكيا. الأثر الهائل فى آن واحد بين فريقين من الـــناس تتناقض وسيلة خطابهما أشد التناقض وتتباين قدراتهما العلمية والعقلية غايـــة التباين، والذى لا يوجد فى خصائص أى خطاب من كلام البشر من لدن آدم علـــيه السلام. البدوي الساذج الغافل والغلام الوحشى الذي لم يقرأ كتاباً قط يخاطب بنفس الآية فلا يحدث له خلط فى الفهم ولا خلل فى العقيدة ولا عائق فى الإدراك وفـــي آن واحـــد هـــي نفسها المعجزة التى يدور لها فؤاد عالم الأجنة الســـاهر علـــى علمه الذي قضى عمره بين المعامل والمجاهر والتحاليل فيخر مذهولا مشدوها قائلا: آن الأوان أن أشهد أن لا إله إلا الله.

إنهـــا المعجزة المتفجرة بين ثنايا النظم الكريم الفائض بالنور الإلهى فى قلـــب كل تالٍ له عابد باك فى جوف الليل، أو قائم على عدسته ساهر بين كتبه واقف على سر الخلق سابح فى بحار العلم ردحا طويلا .

معجزة القرآن

وقد خلقكم أطوارا.. طور النطفة

لقد كان اكتشاف الأطوار المتنوعة والمتتابعة التي يمر بها الجنين فى غيابات الرحم من أشق المسائل العلمية وأشدها تعقيدا في تاريخ العلم الطبى عامة وعلم الأجنة على وجه الخصوص، نظرا للحجم المجهرى المتناهي في الضآلة والصغر لمراحل الجنين وخاصة في الأسابيع الأولى من الحمل حيث تكون كثير من النساء الحوامل غافلات أصلا عن حدوث الحمل، بما تعجز القدرة البشرية البصرية قبل اكتشاف الميكرسكوب في القرن السابع عشر عن الوقوف عليه أو تتبع تبدلاته وتغيراته في ظلمات الرحم دون تقنيات علمية شديدة التطور والتقدم، ناهيك عن الجهالة المطبقة لقرون طويلة بالخطوة الأولى لحدوث الجنين والحمل ألا وهى اشتراك الذكر والأنثى كلاهما فى تكوينه وهذه المعلومة البدهية اليوم على بدائيتها كانت معضلة كبرى فى معارف الناس أحقابا.

إلا أن القرآن الكريم والذى يعد أقدم مرجع فى هذا المضمار بين أيدينا (تاريخ نزوله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم كان فى القرن السابع الميلادي) يذكر أطواراً للجنين، واصفا تحت مسميات ومصطلحات علمية الصورة الخارجية، والعمليات الحيوية والأحداث الداخلية لكل طور من الأطوار، فى تفصيل مذهل وتقرير جازم وتقسيم صارم تحت مصطلحات قرآنية شديدة الإحاطة والمطابقة للمطلوب من الحقائق العلمية فى منهج قرآنى فذ يتوجب على كل عالم يحترم علمه أن ينهج عليه ويقتفى أثره ويلزم غرزه يقول

الله تعالى مبيناً مراحل التطور الجنيني: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين* ثم جعلناه نطفة في قرار مكين* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضـــغة عظامـــاً فكســـونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (المؤمنون: ١٢-١٤).

ويقول الله تعالى: (ما لكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا)

وأول الأطوار وأشدها بعدا عن معارف العالم أجمع على عهد النبى صلى الله علـــيه وسلم هو ما أطلق القرآن العظيم عليه طور(النطفة) كونها موغلة فى صغرها وضآلتها مع استحالة تصورها فضلا على الوقوف على بعض أسرارها فضـــلا عن العلم الراسخ بها، ولسوف نبدأ فى هذا البحث المختصر بمعجزات النطفة سواء من جهة إعجاز الخلق الدال دون مرية أو شك أو تردد على حجم العظمـــة الـــربانية والإقـــتدار والتحدى وحيث تتبين بكشف الحجب الكثيفة عن أســـرارها العلمـــية الدفيـــنة أمور على غاية الأهمية من المقاصد الكبار لنزول القرآن العظيم منها:

إثـــبات نســـبته لله تعالى عن طريق المعجزة العلمية الباهرة والآية البينة الحاضرة الماثلة والتى لا يجحدها إلا مكابر،

والثانـــية: نسبة الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم كون كل نبى جاء من عند الله تعالى كان له من الآيات ما يتوجب أن يؤمن على مثله الناس كما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم.

والثالـــثة: توجـــيه أذهان المسلمين للتفكر والتدبر المؤدى إلى أوثق عرى الإيمان اليقينى الراسخ بكل العقائد وما ينبنى عليها مما ضمه القرآن العظيم بين دفتيه.

والـــرابعة: تعليم الناس وخاصة فى عصر العلوم كيف يرتقون فى اختيار طـــريق العلم وتعريفهم بالغاية من المعارف والعلوم والإختيار الراقى للمصطلح العلمى.

وغيرها من الأمور العظام التى سوف نتطرق لها تباعا فى مواضعها والله تعالى المستعان ولا قوة إلا به وعليه التكلان .

والـــنطفة فـــي اللغـــة العربية تطلق على عدة معان منها: القليل من الماء والذي يعدل قطرة.

قـــال ابن منظور هي: صغار اللؤلؤ: والواحدة نَطَفَة، ونُطَفَة شبهت بقطرة الماء[1].

وقال الزبيدي: ونطفت آذان الماشية وتنطفت: ابتلت بالماء فقطرت[2].

وجاء في حديث شريف: (فلم نزل قياماً ننتظره حتى خرج إلينا وقد اغتسل ينطف رأسه ماء)[3].

---

(١) لسان العرب ٩: ٣٣٥.

(٢) تاج العروس ٦: ٢٥٨-٢٥٩، لسان العرب ٩:٣٣٦.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ١: ٤٢٢ ج١٥٧، وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه" مسند أحمد ٣: ١٦٦.

ويشـــير إلى ذلك ما رواه أحمد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

"مـــر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي فقال لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قـــال فجاء حتى جلس ثم قال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا يهودي من كلٍ يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة"[1].

أما طور النطفة بحسب ما ورد فى القرآن الكريم فيشمل: الحيوان المنوى للـــرجل والبويضـــة للمرأة ثم بالتزاوج بينهما تأتى (النطفة الأمشاج ــ الوبضة المخصـــبة ــ الزيجوت) الى تتحول بالإنقسام المتتابع إلى الغريسة التى تنغرس فـــى الرحم وينتهي طور النطفة بطور الحرث (الانغراس)، وتمر النطفة خلال تكونها بالأطوار التالية:

الماء الدافق والصلب والترائب

يقول الله سبحانه وتعالى:

"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"،

ويقول الله سبحانه وتعالى: "وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها"

فـــي سورة الطارق كلمتان أشكلتا على المفسرين جميعاً عبر عشرة قرون وذلك فى قول الله تعالى

(١) مسند أحمد ١: ٤٦٥.

"فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر"

يقولون هذا من صلبه يعني من ظهره ففقرات الظهر هى الصلب، والتريبة هي الضلع وجمعها ترائب وهى الضلوع، والماء الدافق هو المني. ومما تقدم يتبين لك أن كل رجل على وجه الأرض يعرف من أين يخرج الماء الدافق، فإذا جاء القرآن بآية تقرر عكس المشاهد المحسوس، بأنه يخرج من بين الصلب والترائب، يورث ذلك إشكالا لأنهم لا يعرفون شيئاً عن علاقة أى من الصلب أوالترائب بالمنى الذى يمنى هذا الإشكال الأول.

أما الإشكال الثاني: أنه بالإضافة لما تقدم يعد المنى في حكم النخامة أو البصقة، وهو مقرر طويلا عند الفقهاء حين اختلفوا في نجاسة أو طهارة المني فمن قال منهم أنه طاهر بنى حكمه على أنه كالبصقة أو النخامة وهى ليست نجسة باتفاق، وأما الذي قال بنجاسته فلأنه يخرج من مجرى البول ماراً بالنجاسة فهو على هذا نجس، إذن غاية ما اتفق عليه الناس في حكم المني أنه مثل البصقة أو النخامة التى لا حياة ولا حراك فيها؟ ومنه قرر المفسرون أن المني الذي هو مثل البصقة أو النخامة لا يكون دافقاً؟ يعني فاعلاً يتحرك بذاته ويسلك سلوك الأحياء، فقالوا بل هو مدفوق، ولكن قال الله (دافق) مراعاة للفاصلة فخرجوا من إشكال إلى آخر، إذ قرروا تغير المعنى من اسم المفعول إلى اسم الفاعل من أجل مراعاة جمال وتناسب الفواصل وهى أواخر الآيات، وهذا وإن كان جائزا في لغة العرب، إلا أنه قد لوى به النص وانصرف عن ظاهره الصريح، خلافا لأصول التفسير المقررة بين أهل العلم من وجوب تفسير

القرآن على ظاهره وعدم جواز صرفه عن الظاهر إلا بقرينة، سدا للذرائع أمام ضلالات تفاسير الباطنية والرافضة وأشباههم، فالأصل في القرآن اعتماد ظاهر النص، إلا إذا دعت الضرورة العقدية أو الشرعية أو العقلية لصرفه إلى المجاز وجب عندها التصريح بالسبب الشرعى للعدول عن القاعدة التفسيرية، ومن هنا لما قال الفقهاء والمفسرون: ماء دافق، أصلها: مدفوق، ذكروا سبب خروجهم عن ظاهر النص بأنه مراعاة للفاصلة وللاستحالة العقلية أن يكون هذا الماء الشبيه بالنخامة فيه حياة فيفعل فعل الأحياء بأن يكون دافقا، أما الإشكال الأعظم فجاء عند ذكر الصلب والترائب والبحث الجهيد فى الكيفية العجيبة التى بها يخرج هذا الماء الدافق من بين الصلب والترائب فإذا بعشرة أو خمسة عشر مذهبا كلها لا تفسر الآية، كما سيأتى مستفيضا فى موضعه، وإذا كان التفسير هو التوضيح والتبيين وكشف المعانى الغامضة المشكلة، فإن ذلك لم يقع حيث لم يقف أحد بعد طول الجهد على الجواب، من أين يخرج الماء الدافق؟ لم يسفر الأمر عن تفسير كاشف للآية بل غموض كامل واضطراب عظيم . ولكن المفاجأة التى أسفرت عن وجهها بعد عشرة قرون أو يزيد من نزول هذا النص الكريم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم إن تفسير هذه الآية لم يكن بين طيات ديوان العرب. وإنما يكمن فى إعجاز مذهل تحت عدسات المجاهر بالرؤية الجاهرة عياناً، وإذا بصاحب المجهر وقد جاء من عالم المختبرات يسعى مقررا دون تردد بأنه يجب أن لا يقال علي هذا الماء أنه مدفوق بوجه من الوجوه، بل الحق المبين أنه دافق بكل ما تحمله كلمة الدفق من معان، دافق فعلاً وعملا ومعاينة، ففسرت المجاهر الآية الكريمة على ظاهرها وأقامت القاعدة التفسيرية التى أطبق عليها العلماء وفجرت المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه

وسلم، وعززت المقصد الأسمى للقرآن واستتبت الأمور كلها وكانت ثمرة من أجمل ثمرات هذا الكتاب الأعظم

وإليك الجواب الشافى للسؤال المعضل: كيف يخرج الماء الدافق من بين الصلب والترائب. يقول الله تعالى: (فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب.) سورة الطارق " ٥- ٧ ".

قال ابن كثير: (خلق من ماء دافق) يعنى المنى يخرج دفقا من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله عز وجل،

وقال الطبرى: (خلق من ماء دافق) يعنى: من ماء مدفوق، وهو مما أخرجته العرب بلفظ فاعل وهو بمعنى المفعول، كقولهم: هذا سر كاتم، وهَمٌّ ناصب، ونحو ذلك.

واختلف أهل التأويل فى معنى الترائب وموضعها. فقال بعضهم:

الترائب: موضع القلادة من صدر المرأة.

وقال آخرون: الترائب: ما بين المنكبين والصدر.

وقال آخرون: هو اليدان والرجلان والعينان.

وقال آخرون: معنى ذلك أنه يخرج من بين صلب الرجل ونحره.

وقال آخرون: هى الأضلاع التى أسفل الصلب.

وقال آخرون: هى عصارة القلب.

والصـــواب من القول فى ذلك عندنا قول من قال: هو موضع القلادة من المرأة، حيث تقع عليه من صدرها لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم. ٢

وقال السيوطى:

وقد ألف الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى كتابا سماه (إحكام الرأى فى أحكـــام الآى) قال فيه: " إعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربية يرتكب بها أمور من مخالفة الأصول"

. قـــال: وقـــد تتـــبعت الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاة للمناسبة فعثـــرت مـــنها على ما ينيف على الأربعين حكما. قال: " ٣٢ - وقوع الفاعل موقـــع مفعول نحو (عيشة راضية) القارعة ٧، (ماء دافق) الطارق٦. قال: قال ابن الصائغ: لا يمتنع فى توجيه الخروج عن الأصل فى الآيات المذكورة أمور أخـــرى مع وجه المناسبة. إن القرآن العظيم ـــ كما جاء فى الآية لا تنقضى عجائبه " انتهى.٣

فهـــذه أقـــوال المفسرين فى الآيات المذكورة، وقد اقتصرنا على التفاسير المذكورة لوجود الفترة الزمنية الكافية بينها، وكذلك لجمعها لكافة الأقوال تقريبا، بحيث أن غيرها من التفاسير لم تزد عن الآراء المذكورة فيها.

ومما سبق يتبين ما يلى:

أولا: قـــرروا ــ بإجماعهم تقريبا ــ أن الإنسان خلق من الماء الدافق، أى منـــى الرجل فقط. وهذا مخالف لما استقر عليه التفسير فى آيات أخرى، وكذلك الأحاديث الشريفة، من القطع

بأن الإنسان يخلق ضرورة من ماء الرجل " المنى "، وماء المرأة " أصفر رقيق "، ولا يمكن أن يخلق من أحدهما فقط.

ثانيا: اعتبارهم ــ بشبه إجماع ــ أن الماء الدافق يعنى المدفوق، أى لابد مـــن صرف اللفظ على غير ظاهره، وذلك لاستحالة أن يكون " الماء " فاعلا، لأن الفاعـــل حـــى ولا محالة، أو ما هو فى حكم الحى. ولما كان المنى عندهم ميت لا حياة فيه، فلابد أن يكون مفعولا به وليس فاعلا. ومنهم من بالغ فاعتبر أن الآية جاءت مخالفة للأصول العربية والبلاغية، وذلك مراعاة للفاصلة.

ثالـــثا: اضـــطراب تام فى مسألة الصلب والترائب، فمنهم من ذكر المعنى اللغوى، وهو مخالف للمشاهد المحسوس، ألا وهو خروج ماء الرجل من إحليله، وبالطبع أعرض تماما عن ماء المرأة. فبقيت الآية بدون تفسير، إذ كيف يخرج ماء الرجل، أو ماء المرأة من عظام الصدر أو الظهر.

ومنهم من اجتهد فى إيجاد تفسير عقلى استنتاجى، كمن قال أن الماء يخرج من الدماغ "ويمر" بين الصلب والترائب، بينما الآية تجزم بأنه " يخرج " من بين الصـــلب والترائب، والفرق ظاهر جدا بين " يمر " و" يخرج "، ومنهم من قال اســـتنتاجا: (مـــن بين اليدين والرجلين والعينين)، ولكن دون كيف ولا توضيح لـــوجه العلاقة بين هذه الأعضاء من جانب وبين ماء الرجل أو ماء المرأة من جانـــب آخر. ومنهم من قال: إنه من صلب الرجل اى ظهره، وأنه محتبس فيه

(المنـــى) فـــإذا خرج منه أحدث ألما فى الظهر مع كثرة الجماع، فأوجد علاقة تخيلية بين آلام الظهر عقب الجماع ووجود المنى فى الظهر (الصلب)، ولكنه لم يورد دليلا شرعيا أو علميا على ذلك.

وأكثـــرهم استنفذوا معنى الترائب لغة. ولكنهم بالإجماع لم يذكروا علاقة ذلك جميعه بالآية، ولا كيفية خروج المنى فى الرجل أو الماء فى المرأة من هذه المواضع، أى أنهم أغفلوا تماما تطبيق هذه اللغة على الآية المطلوب تفسيرها.

رابعـــا: اختلفوا فى خروج الولد، وهل يكون من الماء الخارج من صلب الرجل وترائبه، أو هو يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. فإن قيل: بل هو منى الرجل من صلبه فقط، وماء المرأة من ترائبها فقط، ومن اختلاطهما يكون حـــدوث أصل الصلب والترائب جميعا، قيل: فإنه إذن يترتب على " الإختلاط " وليس " الخروج "، والآية جازمة بأن الماء الدافـــــق

"يخرج "من بين الصلب والترائب،أى ببساطة يرجع ذلك إلى " الخروج " وليس " الإختلاط"

خامســـا: إنهم جميعا اعتبروا الماء الدافق هو ماء الرجل، ولم يأتوا على ذكرٍ لماء المرأة لما هو مشاهد من أنه " غير دافق " فقصروا الماء على الرجل.

***

الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم

وفصل الخطاب

أولا: الماء الدافق:

جاء فى كتاب علم الأجنة بين القرآن والسنة:

"يخـــرج مـــاء الرجل متدفقا، ويشير إلى هذا التدفق قوله تعالى: (فلينظر الإنســـان مم خلق. خلق من ماء دافق.) ومما يلفت النظرأن القرآن يسند التدفق للمـــاء نفســـه مما يشير إلىأن للماء قوة دفق ذاتية. وقد أثبت العلم فى العصر الحـــديث أن المـــنويات التـــى يحتويها ماء الرجل لابد أن تكون حيوية متدفقة متحركة، وهذا شرط للإخصاب. وقد أثبت العلم أيضا أن ماء المرأة الذى يحمل البييضة، يخرج متدفقا إلى قناة فالوب، وأن البييضة لابد أن تكون حيوية متدفقة متحركة حتى يتم الإخصاب " انتهى. ٤

وجاء فى كتاب "أساسيات علم وظائف الأعضاء " ما نصه:

"والـــنطاف تستطيع أن تعيش لعدة أسابيع فى القنوات الجنسية فى الرجل، ولكـــن بعد قذفها مع السائل المنوى، فأقصى فترة لحياتها هى: من ٤٢ ــ ٧٢ ساعة ".

قال: " كمية المنى التى تقذف فى المرة الواحدة بعد عدة أيام من الإنقطاع عن الجماع هى حوالى: ٢ــ ٤ سم٣، وكمية المنى وعدد النطاف تنقص بالدفق المتكرر علما بأن نطفة واحدة هى التى ستلقح البييضة ".

"كــل ١سـم٣ من المنى يحتوى فى الأحوال العادية حوالى ١٠٠ مليون حيوان منوى، ٥٠ % من الرجال الذين عدد نطافهم أقل من ١٠ مليون نطفة فى كــل ١ ســم٣ عقيمون Sterile وتتحرك النطاف عبر الجهاز التناسلى الأنثوى بسرعة تقرب من ٣ مم/ دقيقة ".

"ومــن ناحية الحركة يجب أن يكون حوالى ٦٠ ــ ٨٠ % من النطاف تتحــرك بنشاط عندما تفحص بعد فترة تتراوح من ٣ــ ٦ ساعات بعد الدفق " انتهى ٧

فهذا كلام العلماء التجريبيين بالمشاهدة العينية مع استخدام أحدث الوسائل المجهــرية (القوة الصغرى والقوة الكبرى) ورؤية ما بداخل المــاء الدافق من مائة مليـــــون كائن حى فى كـــــل

١سم يسعى مندفعا (دافقا) بسرعة ٣مم / دقيقة، وهى سرعة هائلة بالنسبة لحجمه.

وأنه مكون من رأس وعنق وجسم وذيل، وكلها تتعاون لأداء أنشط درجة من الإندفاق والإندفاع الذاتى.

وأن الحــركة الذاتية ذات ضروب متعددة، وأنه يعيش ساعيا مندفعا لمدة ثلاثة أيام كاملة بعد خروجه من إحليل الرجل.

أليس ذلك فصلا للنزاع بين العلماء حول المسألة اللغوية المحيرة للمفسرين بحيث لو أنهم قدر لهم الوقوف على هذه المعلومات القطعية الدقيقة المشاهَدة، والتى لا تقوم على فروض ونظريات، بل على حقائق علمية بصرية هى فى حكم البدهيات. وهل بعد هذه المعلومات الصادمة لعقل كل متردد مرتاب، هل بعد هذا يستساغ قول القائل: إن كلمة (دافق) " مخالفة للأصول، وإنما جاءت مراعاة للفاصلة ". وهو قول أقل ما يقال فيه أنه (مخالف للأصول الشرعية والعلمية).

يقول الشيخ محمد عبده:

" إن كل كلمة فى القرآن موضوعة فى موضعها اللائق بها، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة، لأن القول بمراعاة الفواصل إثبات الضرورة كما قالوا فى كثير من السجع والشعر: أنه قدم كذا و أخر كذا لأجل السجع أو لأجل القافية، والقرآن ليس بشعر، ولا التزام فيه للسجع، وهو من الله الذى لاتعرض له الضرورة، بل هو على كل شىء قدير، وهو العليم الحكيم الذى يضع كل شىء فى موضعه" انتهى. ٨

إنها الثمرة المفحمة للإعجاز العلمى فى حل طلاسم طال الطواف حولها، وفك ألغاز طالما احتار المفسرون فيها. وبضربة واحدة انكشف الأمر وأشرق المعنى واستقر التفسير وثبتت المعجزة الكبرى للقرآن فى آنٍ واحد

***

الماء الدافق فى المرأة

أمـــا عـــن خروج ماء المرأة دافقا أيضا، فهو حقيقة علمية أخرى وردت بـــنفس الوسائل العلمية، وثبت بالرؤية والمشاهدة أن الطفلة التي تولد من بطن أمهـــا إنمـــا تخـــرج إلى الوجود بمبيضها وهو يحمل جميع بويضاتها حتى سن الإيـــاس، وتبقى هذه البويضات كامنة فى المبيض تتنامى حتى سن البلوغ حيث يكون النضج التام لأول بويضة فتندفع خارج المبيض، وعلى هذا المنوال تخرج واحدة كل شهر فى تناقص مستمر للمخزون الكامل لبويضات المرأة إلى أن تبلغ سن الإياس، ومن هذا يتبين أن المرأة ينطبق عليها قول: يخرج من بين الصلب والتـــرائب أكثر مما ينطبق على الرجل، لأنها تولد بمائها وقد تخلق بكامله فى المنطقة السحيقة وفى الزمن الرحمى فى المبيض الجنينى وفيه البويضات تسمى Gormal calls وهي جاهزة فى ظلمات الرحم كى تخرج من بين الصلب والترائب مائة بالمائة. من الذي علم محمداً هذا العلم الغيبيى المدير للرؤوس؟ علمه الحكيم الخبير.

أمـــا عـــن كونه دافقا، فإن مغامرة كبرى سوف تخوض غمراتها البويضة حـــيث تواجه أحد المصيرين فإما أن تندثر وتزوى إلى الأبد أو تكتب لها الحياة لتواصل رحلتها العجيبة فى هذا الغيب البعيد، فإذا ما علمت أن حجم هذه البويضة هـــو حجم مجهرى لا يرى بالعين المجردة وهو جزء من المليمتر ١/١٠٠٠ يتبين لـــك حجـــم المخاطرة فى قفزتها المصيرية المهددة بالسقوط فى أعماق تجاويف البطن حيث بحر شاسع من الظلمات الفاصلة بين المبيض وقناة الرحم، ولا تسل

بعـد ذلك عن حجم الإندفاع المطلوب عند قفزها لتأمين وصولها فى سلام إلى قناة الرحم وتجنب المصير المرعب، والحاصل أنه لابد من اندفاع البييضة بقوة هائلـة بالنسـبة لحجمهـا وسط سائل متفجر عند (انفجار) حوصلة جراف Graffian follicle وأنهـا تتقذف طائرة عبر التجويف البريتونى الشاسع الهائل بما فيه بالنسبة لحجمها الذى لايزيد عن ١/ ١٠٠٠ من المليمتر، وأنها بعد ذلك لها مـن الحيوية والحركة ما يمكنها من السير فى قناة فالوب ثم الإستقرار كى يتم تخصيبها بماء الرجل.

ولتقـريب هذه الرحلة المروعة تصور أنك على قمة جبل شاهق وترغب فى القفز إلى جبل مجاور بنفس الإرتفاع، فلا شك أنك عند هذه المحاولة المخيفة سوف تطير بكل ما أوتيت من قوة لعلمك اليقينى بالعاقبة المدمرة لأى تهاون أو تباطؤ، ألا وهو السقوط المدوى إلى القاع، فهذا هو مصير البويضة إذا لم تقفز فـى انفجار بركانى هادر بكل قوة واندفاع، البويضة المتحفزة للإندفاق تتضغط بكل قوة بالسائل المحيط بها فى ما يسمى بحوصلة جراف Graffian follicle، كما تتضغط البذرة داخل حوصلة مملوءة بالسائل إلى أن تنفجر قاذفة بها فى اندفاع مصحوبة بانفجار بركانى للسائل المحيط بها، هذه الطريقة الفريدة التي تطير بها البويضة قاطعة المسافة الحرجة الفاصلة بين المبيض وقناة الرحم، لتنزل بسلام نـزول المظلات مستقرة بهوادة وخفة على الأهداب الكثيرة المبطنة لقناة فالوب للمـرأة تلـك التى تستقبلها إستقبال الأبطال الفاتحين، هذه هي البويضة الراحلة المغمـورة فـى غيب الأرحام والتى لم يعرف شيء عن قصتها المثيرة إلا بعد اختراع المجاهر القادرة على تكبيرها ٢٠٠٠ مرة، وحسبك بالنتيجة المروعة لو لـم تتقذف البويضة فى قفزتها الأسطورية الهائلة، حيث تفقد نهائيا وتنتهي بذلك

العملية برمتها وتفشل التجربة بكاملها، ومنه يظهر لك في وضوح أن ماء المرأة دافق بالمعنى الحرفي للكلمة بل هو أشد احتياجا للدفق من ماء الرجل، وباختصار فإن تجربة الحمل والولادة وخلق بشر سوى، متوقف بتمامه على هذه القفزة، فلابد والحال هذه أن تكون على هذا القدر من التفجر وغاية الإندفاع والقوة.

غير أن المفاجأة الكبرى تكمن في أن هذا العلم لم ير ولم يعرف إلا بالميكروسكوبات الدقيقة الإلكترونية وبعد أن أخترع اليابانيون إختراعاً اعتبر ثورة في عالم الطب ألا وهو المناظير الطبية ذات الألياف الصناعية المضيئة داخل البطن المظلمة للتشخيص والعلاج ومن خصائصها العجيبة أنها تضيء لترى الحقائق العلمية على ضوئها في أعماق الظلمات، من ذا الذى رأى في الظلام كل هذا حتى يقرر في ثبات ودون تململ أو تردد أو شك أنه ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون).

إذن استقرت البويضة داخل قناة فالوب بوشاحها الأصفر الجميل الذي يحوطها من كل جانب، إنه الدرع الذى يحميها من عاديات الدهر وتقلبات الزمن.

ولعلك ما زلت تتذكر جيداً الأحداث المتزامنة في طيات اللفائف الطويلة المضغوطة بإحكام في الخصية حيث الجنود المستعدة للإنطلاق جاهزة من مكامنها، وهاهنا هذه البويضات كانت تجهز على قدم وساق في مكامنها كى تستعد للإنطلاق، فهما جهتان تعملان في آن واحد: الخصية كمنصات الصواريخ الموجهة المجهزة للإنطلاق، والمبيض كالمدافع القاذفة للقذائف الجاهزة

للإنطـــلاق، إنهـــا المعجزة الربانية الكبرى التى يترتب على نجاحها بقاء الكيان البشري على كوكب الأرض وعليه تكون النبوات والتكليفات والشرائع كله مبني على هذه الخطوة الفاصلة الأولى، والتى بدونها لن يكون هناك بشر، أول حدث بشرى هائل على هذا الكوكب ومن بعده صار كل الذي أنت راء .

وكل ما أوردناه لك ثابت بالرؤية المجهرية فى كل كتب علم الاجنة، قاطع الوضـــوح والظهـــور مايثـــبت فـــى جلاء هذه الحقائق المذهلة ومدى المطابقة المعجزة بينها وبين آيات القرآن الكريم.

فوقع بما ذكرناه:

أولا: الإنســـجام التام بين مقررات القرآن فى علم الأجنة، وأن الجنين إنما يتكون من ماء الرجل وماء المرأة معا، ويستحيل تكونه بماء واحد منهما.

ثانيا: أن هذا الماء (الرجل والمرأة) هو ماء دافق، ولا تختص هذه الصفة بطرف دون آخر .

****

ثانيا: الصلب والترائب

الأمر الآخر الذى حير المفسرين أشد الحيرة هو مسألة الصلب والترائب، وهـــى معضلة حقيقية لم تكتشف إلا فى السنوات الأخيرة، ونظراً لتشعبها وعدم القـــدرة على إثباتها إلا باجتماع عدد من العلوم : Biochemistry الكيمياء الحيوية، وعلم وظائف الأعضاءPhysiology ، وعلم الغدد الصماءEndocrine ، وعلم الأجنة Embriology

فلسوف نقتصر هاهنا على مختصر غير مخل.

لقـــد ثبت أخيراً ثبوت الحقائق المشاهدة أن أماكن تكون ماء الرجل (وهى الخصية) وأماكن تكون ماء المرأة (وهو المبيض) إنما تبدأ فى الأسبوع التاسع من عمر الإنسان، بينما هو بعد جنين فى بطن أمه، ببرعم جنينى يقع فى المكان الـــذى تقع فيه الكلية حيث يتكون الجهاز التناسلى والجهاز البولى معا من نفس البرعم الجنينى المذكور، ويبدأ هذا البرعم الواحد فى الإنفصال إلى الجهازالبولى (كلية ــ حالب ــ مثانة)، والجهاز التناسلى (خصية ــ حبل خصية يحتوى على الأوردة والشـــرايين والحـــبل المـــنوى) (مبـــيض ــ حبل يحتوى على أورددة وشرايين لتغذية المبيض).

إن هـــذا المكـــان يقع تحديدا فى الزاوية الضيقة المكونة من التقاء العمود الفقـــرى (الصلب)، والأضلاع الأربعة السفلى (الترائب)، ويبقى هذا المكان هو مســـتقر الكليتين سواء فى المرحلة الجنينية أو بعد خروج الجنين من بطن أمه. أما المفارقة الكبرى هنا فتقع حيال الخصية والمبيض،

ذلك أنهما يبدآن في التزحزح بصورة مثيرة من مكانهما الأول المذكور(بين الصلب والترائب) نزولا باتجاه الأسفل أثناء وجود الجنين فى بطن أمه وحتى تستقر الخصية فى الصفن ساحبة وراءها الأوعية الدموية النابعة من نفس مكان تكونها الأول (بين الصلب والترائب)، ونفس العملية تحدث فى المبيض الذى يهاجر فى المرحلة الجنينية من موطنه الأول (بين الصلب والترائب) حتى يستقر فى مكانه الأخير فى حوض المرأة موصولا بعروقه الممتدة إلى المنطقة التى لاتزال تغذيه من موطنه الأول (بين الصلب والترائب). هذا من جهة الأصل التكوينى والتشريحى.

أما التكوين الفعلى للماء، فإن الحقيقة العلمية هاهنا أكثر إثارة، إذ قد ثبت بالتجربة المعملية المحسوسة أن ماء المرأة بكامله إنما يتكون فى المبيض فى هذه المرحلة الجنينية المبكرة وفى هذا المكان السحيق (بين الصلب والترائب)، أى كما تقدم ذكره ببساطة تامة إن كل أنثى تولد بجميع البييضات التى تكفيها فترة حياتها كاملة بينما هى بعد جنين فى بطن أمها، أما الذكر فإن البدايات البدائية لتكوين المنى تحدث فى الخصية فى نفس الزمان والمكان فيما يعرفه العلماء باسم الخلايا الجنسية Germal cells ومنها يحدث التطورعندالبلوغ لتكوين المنى الكامل. والحاصل أنه كيميائيا، وبتأثير إفرازات الغدد الصماء على أداء الخصية والمبيض، وهى هرمونات سارية فى الدماء وخاصة شريان الخصية وشريان المبيض الآتيان من بين الصلب والترائب (من الناحية التشريحية)، يتم (تخليص) المنى من عناصر أخرى كثيرة وقال المفسرون أن اللفظ القرآني إذا احتمل معنيين فصاعدا فكل معنى منهما يظن أنه مراد لله سبحانه وتعالى، ومن ناحية اللغة فإن لفظ: (يخرج) يفسر على معنيين أحدهما حسى بمعنى: ينتقل —

والآخر معنوى بمعنى: يتخلص " مثل قولهم: خرجت من المشكلة، أى تخلصت منها].

فعلى ماسبق يتخلص المنى " الماء الدافق" من بين العناصر الأخرى كيميائيا، شأن تخلص اللبن من بين فرث ودم، فنفس السياسة المقررة فى تخلص اللبن من الفضلات الدموية، كذلك يحدث فى سائل المبايض والسائل المنوى، وهى موافقة معجزة بين الإشارات العلمية فى القرآن فى مجالات شتى (اللبن والمنى) لإثبات حقيقة علمية. فثبت بالمشاهدة والرؤية والمعاينة أن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب فى كل من الرجل والمرأة، وسواء من ناحية المكان التشريحى، أو التخلص الكيميائى، أو الأثر الهرمونى، من غير تردد أو شك أو اختلاف.

ولا شك أن هذا التفسير العلمى إنما يقطع النزاع الطويل عن طريق درء التعارض بين صحيح المنقول وبين المعين المحسوس، وهو أصل عظيم قرره العلماء سلفا وخلفا، فيما هو أبعد من ذلك عن طريق تقرير قاعدة [درء تعارض العقل والنقل]، فإذا كان صحيح المنقول لايمكن أن يعارض صريح المعقول، فلا شك أن المشاهَد المعاين يستحيل أن يعارض القرآن الكريم كما ظهر لك مما أوردناه، فتدبر.

فهذا الماء الدافق يتخلص من بين فرث ودم مثلما يتخلص اللبن فى ثدى المرأة، ومعلوم أن هذا الثدي ليس كرة مملوءة باللبن بل هو غدة مملوءة بالأوعية الدموية والأوعية اللمفاوية والأنسجة والغدد اللبنية أيضاً ومع ذلك يتخلص اللبن على نفس طريقة التخلص التي تتم كيميائياً وبيولوجياً عن طريق

هـرمونات وعمليات معقدة كما يتخلص الماء من بين الصلب والترائب، الدليل القطعـي علـى ذلـك أنه أحياناً وفى عيب خلقى شائع يولد بعض الأطفال بلا خصـية، فيقوم الأطباء المختصون بإجراء أشعة فوق صوتية على بطنه باحثين عـن الخصية الغائبة التى كانت فى طريقها من بين الصلب والترائب نازلة إلى مكانهـا الطبيعى فى الصفن أثناء حياة الجنين فى بطن أمه، غير أن عائقا حال دون تمـام رحلـتها، فيتم إجراء جراحة معلومة عند أهل الإختصاص من أجل إزالة العائق وسحب الخصية إلى مكانها الطبيعي فى الصفن. إذن هي هابطة من بـين الصلب والترائب، وبه يتبين فى جلاء من أين يأتي الماء الدافق؟ إنه يأتي مـن أصـوله الضاربة إلى المنطقة البعيدة بين الصلب والترائب؟ من الذي علم محمـداً هـذه القضية المعقدة التي لم يكن أحد فى زمنه وحتى زمننا يعلم عنها شيئاً؟ من الذي يعلم أن أصل الخصية كان قائما فى هذا الركن الخفى فى الجنين الخفـى فى ظلمات الرحم الحالكة السوداء، ومثله عند المرأة، وقد تقدم، فإن ماء المـرأة يأتـى دافقا من بين الصلب والترائب. هذا حق علمى مبين وهو كذلك معجـزة نبوية شريفة. كل هذه المعارف المصورة بالميكرسكوبات الإلكترونية وكـل هـذه الصور دقيقة جداً إلى الدرجة المذهلة التى كان من المحال معرفة تفاصيلها منذ عشرين سنة من الآن

معجزة القرآن فى السلالة

لأن الأمـــر متزامن كما سبق التنبيه له فى ما يحدث عند المرأة والرجل، فلســوف نغــوص الآن إلـــى خصية الرجل حيث المستودعات الحافلة المفعمة بالحــيوية والنشاط التى تتكون داخلها الحيوانات المنوية، هذا هو الماء السلالة يقول الله تعالى "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" ما هي السلالة؟

يأتـــي لفظ سلالة في اللغة بمعنيين: انتزاع الشيء وإخراجه في رفق[1].، السمكة الطويلة[2].

أما الماء المهين: المراد به ماء الرجل[3].

وبالـــرجوع إلى ما سبق أن قررناه لك عن أحوال المنوى وهيئته المكبرة آلاف المرات سوف تنعقد الأسنة للمفاجأة:إنه سلالة حقيقية تنسل وتستخلص من الخضـــم المـــتلاطم لماء الرجل وهو على شكل السمكة الطويلة التى تسبح دون توقف ثم تستخرج برفق من السائل المنوى (الماء المهين). هذه المسائل العلمية الـــثلاث الكـــبار تجدها فى اقتدار وإعجاز بيانى وعلمى فى آن واحد متضمنة بـــتمامها فـــى آية واحدة من كتاب الله تعالى في قوله تعالى: (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) (السجدة: ٨).

---

(١) لسان العرب ج١١ ص٣٣٨، ٣٣٩ القاموس المحيط ج٣ ص٤٠٧ الصحاح ج٥ ص١٧٣١، تاج العروس ج٧ ص٣٧٧-٣٧٨.

(٢) القاموس المحيط ج٣ ص٤٠٧، تاج العروس ج٧ ص٣٧٧-٣٧٨.

(٣) تفسير الطبري ٢١: ٥٩، تفسير القرطبي ١٩: ١٥٩.

إن مـــاء الـــرجل المـــتدفق بين ثنايا رحم المرأة كى يقابل البويضة (ماء المـــرأة) فـــي قناة الرحم عبر رحلته المنهكة المرهقة والتى يتساقط فيها مئات الملايـــين من المنويات بين قتيل ومفقود ولا يصل إلا القليل القوى حيث يخترق منوي واحد البييضة، وإذا بها وقد تغيرت فى سرعة فائقة كى يستحيل غشاؤها سدا وستارا مانعا لسائر المنويات المتزاحمة على أبوابها من الدخول، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معجزة نبوية هادرة فى البحر الخضم مـــع أخـــواتها المعجزات فى كتاب الله تعالى: (ما من كل الماء يكون الولد)[1]. الوصـــف النـــبوي المذهل والمطابق دون خلل أو خلاف لكل هذه المعاني التي كشف عنها العلم اليوم.

هـــذه هـــي المياه الدافقة المتلاطمة بأعداد غفيرة تبلغ ثلاثمائة مليون إلى خمســـمائة مليون كائن يتقاذفون فى سباق محموم جبار حتى يفوز واحد، واحد علـــى خمسمائة مليون، لضمان النجاح بما لا يدع شبهة ولا مجالا لشبح الفشل، لـــيس ضمانا واحدا أكيدا، بل خمسمائة مليون ضمان (ذلك تقدير العزيز العليم) الحـــيوان المنوى (السلالة) هذا الجندي الذي كتب عليه أن يكون مجاهداً حياته بأكملها. لا يوجد على وجه الأرض كائن حي يقضي عمره من يوم مولده حتى مماتـــه وهو ساع مندفع لا يفتر إلا هذا الحيوان المنوي، لا ينام ولا يرتاح ولا يهجـــع، إنمـــا ينطلق مجالداً بين أحراش الرحم وأغواره وجباله أو يموت دون الوصـــول إلى الغاية العظمى والهدف المنشود ومن أعجب العجب أن طول هذا الدافـــق المـــنطلق ١/١٠٠٠ من المليمتر، بينما رحلته العاصفة الدافقة دون توقف مسافتها ٣٠سنتيمترا (طول رحم المرأة وقبله مسافة المهبل ثم قناة فالوب) إنها

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث طويل ٢: ١٠٦٤، ج١٣٣.

مفازات شاسعة تتقطع فيها الأعناق وتذوب فيها الأعمار وتنهار بين أعاصيرها القــوى والعــزائم، لو تصورناه رجلا فلسوف يندفع فى سعى هائل بلا انقطاع وبسرعة ٣٦٠كم في الساعة لمسافة ألف كيلو متر دون راحة أو توقف. غير أن عواصــف المشــكلات وملاحمها الضارية لم تبدأ، فعند أول دفقة للمنويات بين ثنايا مهبل المرأة ومن أثر الوسط الحمضى الحارق الذى وقى الله تعالى المهبل بــه من غواشى الميكروبات والكائنات الدقيقة التى لا تنفك تغشاه صباح مساء مــوقعة به الأضرار والأمراض، إذا بهذا الوسط الحمضى المبطن لجدر المهبل وكأنه بحيرة من نار تلظى تتهاوى فيها مئات الآلاف من الحيوانات المنقذفة فى مــوجات مــتلاحقة وفى ثوان معدودة، فإذا بالخسائر الرهيبة الفادحة عند أول هجمــة وقــد قضى مائة مليون منوى حتفهم على بوابات الرحم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، ما يقارب ربع العدد الكلى الهائل المتلمظ فى اندفاع صارم للوصــول إلى الهدف الذى لا يغيب لحظة عن الأذهان، إنه البويضة وتخصيب البويضــة، ومــا أن يفــيق المرء من هول الصدمة الأولى وخسائرها المدمرة الفاجعة، إذا بشبح مصيبة جديدة مرعبة متربصة غير بعيد، فقد قضت حكمة الله تعالــى حينما (يحس) الرحم بهذه الحيوانات المندفعة داخله فى سباق كاسح، أن تقــام الســدود والإســتحكامات وتنتصب السواتر والحصون فى امتحان فاصل لاختبارالقوي والمواهب والقدرات، فقد يكون المنوى مشوها وقد يكون سقيما أو هزيلا أومصابا بداء وراثى مقعد، فتوضع له هذه العوائق والاختبارات حيث لا تجــزىء نيــران المهــبل ولامجاهل الرحم ولاغيابات المجهول. وكأنها السنة الكونــية المحتمة: لا تمكن حتى تفتن و تبتلى وتمتحن، لأن شرف تكوين حياة جديــدة لا يحــوز الســبق إليه والفوز به إلا من كان على هذا القدر من القدرة والأهلــية والعظمــة. عــند عنق الرحم وعلى بواباته المنيعة يمتاز الخبيث من

الطـيب، ومن فتحة الرحم التي سوف يجتازها المولود آمنا بعد تسعة أشهر من هـذه اللحظة الفارقة بين الصالح والطالح، تتدفق زخات من سائل مخاطى لزج تتعثـر المنويات الباقية على قيد الحياة فى غمراته وشراكه حيث يقتحم السابق الأقـوى ويتراجع الواهن الضعيف، انظر تقدير ربك وتدبيره بين طياتك تأهيلا وتمهيدا وأنت غافل لاهٍ لا تدرى. إنها بوابة الحياة، ولا بد من دفع الثمن اللائق بمـنة الحـياة، وإن الثمن الأوحد المقبول هاهنا ليس إلا القوة الفذة والاستعداد الكاسـح والأفضلة الباهرة أو بذل الحياة نفسها ثمنا للحياة . إن ملايين المنويات قـد حصـرت فى تكدس هائل وزحام شديد بسبب حواجز وجبال السائل اللزج الثخـين الذي ضخه الرحم حيث لا يسمح لهم إلا أن يمروا واحدا واحدا، فمنهم مـن يجالـد فى صبر وعزم وإصرار، وما أن يشارف على النجاح حتى يكون الضـعفاء قد قضوا نحبهم فرادى وجماعات، مخلفين وراءهم قلة عظيمة العزم شـديدة المراس قد نجت من الامتحان العسير وعبرت بين ثنايا تراكمات السائل الرحمـى الـذى يشاء الله تعالى بحكته البالغة وتدبيره القديم أن يحوى مسارات آمـنة وأنفاق خفية ما أن يعبر المنوى الفائز فى فوهاتها حتى تحمله موجهة إياه فـى سلام نحو الجانب الآخر فى عمق الرحم باتجاه البويضة، وإذا به فى قلب الرحم وهناك المفاجأة المدهشة، إنه قفر موحش مظلم ذو وهاد وجبال وأحراش، يامن تظن أن رحلة الرحم مفروشة بالورود، من كان يظن أن رحلة الحياة على هذا القدر من الجهاد والصبر والمرارة، هذا الكائن المجهرى العجيب الملقى فى بيداء سحيقة مظلمة ليس عليها علامة وقد نجا للتو من الموت المحقق، ولكن الله تعالى الذى خلقه وهداه وجهزه لمواجهة أشق الصروف وأصعب الظروف، خلق على أم رأسه قبعة حمراء بها سر إلهي عظيم، إن لها دورا مصيريا يمثل الحياة أو المـوت، فمـن جانب هى كالبوصلة تدله على مكان الهدف الغالى البعيد ألا

وهو البويضة فى مجاهيل هذا العالم الظلامى الدامس، ومن جانب آخر لها قدرة الـدرع المضاد للصدمات، ممكنا إياه من تلقى آلاف الصدمات حتى لا ينسحق قبل أن يصل إلى الهدف المنشود فى رحلته المضنية المليئة بالعثرات والعراقيل. هذا الكائن المجهرى لم يكد يخرج من سلسلة المخاطر المحدقة المميتة حتى يجد نفسـه وجهـا لوجه أما الخطر الأعظم الذى لا يشك احد فى هلاكه معه، والتى تبدو كل المخاطر السالفة إلى جواره مداعبات وممازحات، إنها الخلايا المناعية، الحـرس الشديد العنيد الموكل بحماية الرحم من أى كائن غريب، والذى لا يفتر اللـيل والنهار فى افتراس مستمر دائم لأمم بكاملها من الكائنات الدقيقة، فخلاياه شـديدة القـدرة على الإفتراس، وهى شديدة العدوانية والشراسة، متوحشة غاية الـتوحش، مندفعة لافتراس أي جسم غريب تسول له نفسه الدخول إلى الأسوار المنيعة للقرار المكين حتى ولو كان الحيوان المنوي ذاته، إنها تدافع عن الرحم باسـتماتة وفـي غايـة الـتهور والضـراوة، تأكل كل ما أمامها من البكتريا والميكـروبات وتفترسـها فـرادى وجماعـات بغاية الكفاءة، الكلاب المدربة المسعورة الواقفة لكل دخيل بالمرصاد، إن الحيوان المنوى ليقف مذهولاً واجما فقد خرج من فوره من شلال المخاط الرحمى فإذا هو فجأة أمام وحش كاسر لا يـرحم، فـى اختبار حاسم جديد تتخطف فيه المنويات الباقية خطفا وتؤخذ أخذا وتنتهش انتهاشا فالأكثرون هلكى، ومن نجا وحيد موحش، قلة متفرقة فى أصقاع متباعدة، لكنهم ماضون إلى الهدف دون سكون أو يأس، إنها بذرة الإنسان الذي منه الأنبياء والمرسلون، هذا هو السر الأعظم لوجود الحياة على هذا الكوكب.

الراحة بعد العناء

الآيات البينات فى تخصيب البويضة

هـــا نحن وقد بلغنا نهاية الرحلة المثيرة إلى الغاية المرتقبة، وبعد أن شقت الحـــيوانات المنوية طريقها الطويل عابرة الرحم بكامله في اتجاه البويضة إلى طـــيات قناة الرحم الملحقة به كذراع طويل، وقد هلكت مئات الملايين منها بين الشعاب والدروب المجهولة، مخلفة بضع مئات منها لتواصل رحلتها الحافلة إلى البويضـــة عـــند الطـــرف البعيد لقناة الرحم، وما أن تتبدى البويضة التي تكبر الحيوان المنوي بحوالي ٨٥٠٠٠ ضعف وتتداعى الحيوانات المنوية من حولها حتـــى نجـــد أنفسنا أمام صورة أسطورية مذهلة مجسدة فى هذه اللحظة المهيبة عظمة الخلاق القدير، فالبويضة تدور بهدوء وثقة حول نفسها فى زهو وخيلاء كالكوكب الدرى المنير، بينما الحيوانات المنوية تسبح من حولها في فلك دائري كالأقمار اللامعة المضيئة، حتى يفوز أحدها بشرف الولوج إلى قلبها الحصين، مدفوعة بالحركة الحالمة والتماوجات اللطيفة للأهداب الكثيرة بين دفقات السائل الرقـــراق بقناة فالوب، هذه هي البويضة، زهرة الحياة، بارزة فى مهابة كالجسم الأسطورى المهيب تتزاحم حولها البقية القليلة الباقية بعد تباريح السباق المروع بين خمسمائة مليون حيوان منوى والذى قد افتر الآن عن عدد لا يجاوز المئات تلك التى خاضت الملاحم الضروس من غير تردد أو تراجع مغررة بحياتها فى مـــواجة المـــوت ذاتـــه كاشرا دون حائل، كى تصل على غاية القوة والإقتدار والأهلية إلى تلك الربوة المنيفة والقمة العالية، هى الصفوة المختارة من بين أمة

كاملـــة حاشـــدة هلكت بكاملها فى ملحمة هادرة، ليكون لها شرف تفجير شرارة الحـــياة فى غيابات الرحم الهامد الميت، ولم يكن لهم أن يخوضوا شلالات هذه الأهـــوال المتعاقبة التى لا تهدأ بكل ما فيها من مفاجآت وأعاصير ومحن إلا إذا كانت عند غاية الإستعداد والمضاء، كم من الوقت قضت من غير راحة؟ كم من عمـــر الحـــيوان المنوى؟ عمره كله أربع وعشرون ساعة، فإذا طال به العمر أدرك ثمـــان وأربعين ساعة، أما إذا بلغ أرذل العمر فسيعمر إلى اثنتين وسبعين ساعة، يقضيها كلها مجازفا مغامرا مسافرا في الأحراش الرحمية الموحشة حتى يصـــل إلـــى هنا. أى كائن من خلق الله تعالى يفوقه دفقا وحركة وحياة صاخبة حافلة . لتعلم الحكمة الإلهية البالغة والتدبير الربانى الحكيم من وراء تقاذف هذا العـــدد الفلكـــى الهائل من المنويات، والذى قرره النبى صلى الله عليه وسلم فى معجـــزة أخرى من سيل المعجزات القرآنية والنبوية يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من كل الماء يكون الولد)[1].كأنما ينظر إلى الغيب البعيد بوحي من الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى ودليل دامغ من دلائل نبوته صلى الله عليه وســـلم. الآن وقـــد رست السفن على شاطىء الأمان وحط المسافرون الرحال ووضـــعت المعـــركة الكبرى أوزارها، لقد كللت الملحمة بالظفر والفوز المبين ووصـــلت فعلـــيا وياللعجـــب قلائل لامعة باهرة من الحيوانات المنوية تتحسس الجدار البهيج للبويضة الراسية فى بهاء وشموخ، بينما جماعات أخرى ما زالت تصطرع قاب قوسين أو أدنى فى سباق مرير جاهدة ترنو إلى الهدف المنشود، هـــؤلاء كلهم متقاطرون حول البويضة من كل جانب لاهثون فى شوق وشغف لدخـــولها الهانىء بعد منافسة اللحظات الأخيرة للسباق المحموم، لكن البويضة

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث طويل ٢: ١٠٦٤، ج١٣٣.

المنتظـــرة فـــى هيام لهذه اللحظة الشاعرية الحالمة منذ ثلاث ليال سويا، تسلك بهداية مذهلة من الله تعالى سلوك العقلاء الراشدين وكأنها ترثى لأتراح وتباريح الغـــربة والإرهـــاق البادى على محيا المنويات القليلة المتعبة المنهكة، فتكافئهم بزخات من مطر المنعشات والمرطبات الهرمونية والكيميائية، إضافة إلى بعض الأنـــزيمات التـــي تفـــرزها بطانة الرحم وقناته، التي تجعل المنوي قادراً على الإخصاب والولوج إليها وذلك بإزالة الدرع الأحمر المضاد للصدمات (البروتين السكري) من فوق رأسه[1].وتعمل هذه الأنزيمات بالإضافة إلى ذلك على إزاحة الخلايـــا الغذائـــية والخلايا الحارسة المحيطة بالبويضة وكشف غشائها الواقي لإفساح الطريق أمام المنوي[2].الذى يترك ذيله الطويل الذى طالما جالد به خلال رحلته، فكيف عرف أنه في المكان الصحيح؟ كيف أدرك أنه يجب أن يخلع ذيله وقبعته فى هذا المقام، عجائب خلق تخلف من ورائها أشد الكافرين عنادا كظيما مـــبهوتا محصـــورا. فثبت علميا بما قدمناه أن ماء المرأة الذي يحمل البويضة يخرج متدفقاً إلى قناة الرحم (فالوب)، وأن البويضة يتعين أن تكون على درجة عالـــية مـــن الحيوية والحركة والتدفق كى يتم نجاح الإخصاب ولقاء المنويات المـــتقاذفة عبر قناة الرحم ، أما ماء الرجل الذى تسبح فيه هذه المنويات فإنه قد استنفذ فى غمرات الرحلة المرهقة ما يحويه من عناصر كيميائية منشطة ومقوية مثل مادة البرستاجلاندين القادرة على إحداث تقلصات في الرحم ناقلة المنويات إلـــى موقـــع البويضـــة مـــن أقصـــر طـــريق حيث يتم ضمان اللقاء الموعود

(١) التخلق البشري كيث مور – ص١٠.

(٢) (ميلاد طفل) نيلسون، إنغلمان سندبيرغ ويرسون ص٢٢، (التخلق البشري) كيث مور –ص١٠.

والإخصاب[1] ذلك الذى يتم بإشارة ربانية وامضة كشرارة تتقد بها جمرة الحياة عن طريق بروز يظهر على غشاء البويضة، فينجذب إليه الحيوان المنوي المجهز بأدواب الإجتياز فى أعقد الظروف ليفرز من رأسه موادا كيميائية مذيبة لجدار البويضة شاقا طريقه فى ثبات إلى عمق غشاء البويضة، ومنه برأسه المدجج بأعاجيب المفاتيح إلى قلب البويضة ذاتها، تلك التي ترتجف لمدة دقيقة مؤدية فروض التحية والإحترام لذلك الشجاع المقتحم الجسور، سيد الحيوانات المنوية وفارسها الذى لا يشق له غبار، وطاردة في نفس الوقت من أمام أبوابها الحصينة الحيوانات المنوية المخفقة العاثرة التي تنتفض وتهرب أو تتقذف مرتدة نتيجة للشحنة الكهربائية التي تصدر عن رجفة البويضة!

وما أن يستقر المنوى الفائز المستريح من وعثاء السفر فى قلب البويضة حتى يضمه فى قوة فيتم الالتحام الحميم بين نواة المرأة ونواة الرجل، الحاملتين للمادة الجينية ووراثيات كل من البويضة والحيوان المنوي، لتنتج الخلية البشرية الجنينية الأولى (الزيجوت ــ النطفة الأمشاج) وقد اجتمع الحميمان والتأم شمل المادة الوراثية واكتملت بنية النواة (٤٦ كروموسوماً).

(١) انظر تفسير القرطبي ج٢٠ ص٤، حاشية الجمل على تفسير الجلالين ٤: ٥١٧، فتح القدير ٥: ٤١٩.

طور النطفة الأمشاج

و بهذا الطور دخلنا في مرحلة تالية اسمها النطفة الأمشاج تعبر عنها آية أخـــرى.إلى هذه المرحلة الجديدة في حياة الجنين يشير القرآن الكريم وبصياغة معجـــزة: "هـــل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً" (سورة الإنسان).

وبها معجزتان علميتان مذهلتان أولهما قال تعالى: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)

قال القرطبى ١١٨/١٩

قوله تعالى هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، هل بمعنـــى: قـــد، قال الفراء : هل تكون جحدا وتكون خبرا فهذا من الخبر، لأنك تقـــول: هل أعطيتك؟ تقرره بأنك أعطيته، والجحد أن تقول: هل يقدر أحد على مثل هذا؟، والمعنى أتى.

وقـــد قيل: (الإنسان) عني به الجنس من ذريةآدم، وأن الحين تسعة أشهر مدة حمل الإنسان في بطن أمه، لم يكن شيئا مذكورا: إذ كان علقة ومضغة لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له

وقـــال أبو السعود ٧٠/٩:، والمراد بالإنسان: الجنس، فالإظهار في قوله تعالـــى: (إنـــا خلقنا الإنسان من نطفة) لزيادة التقرير، أو آدم عليه السلام وهو

المروى عن ابن عباس وقتادة والثورى وعكرمة والشعبى.وقال ابن الجوزى فى زاد المسير ٤٢٧/٨ (وفي هذا الإنسان قولان أحدهما أنه آدم عليه السلام والحين الذي أتى عليه أربعون سنة وكان مصورا من طين لم ينفخ فيه الروح هذا قول الجمهور والثاني أنه جميع الناس روي عن ابن عباس وابن جريج، فعلى هذا يكون الإنسان اسم جنس ويكون الحين زمان كونه نطفة وعلقة ومضغة . وقال الألوسى روح المعانى ٢٩ /١٥٠: (والمراد بالأنسان الجنس على ما أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس، والحين: طائفة محدودة من الزمان شاملة للكثير والقليل، والدهر: الزمان الممتد غير المحدود ويقع على مدة العالم جميعها وعلى كل زمان طويل غير معين

ولا شك أن الحمل على آدم عليه السلام في هذا لا وجه له ولا نقض به على إرادة الجنس بناء على أنه لا عموم فيه ولا خصوص، نعم دل قوله سبحانه من نطفة على أن المراد غيره أو هو تغليب، وقيل: يجعل ما للأكثر للكل مجازا في الإسناد أو الطرف. ورويت إرادته عن قتادة والثوري وعكرمة والشعبي وابن عباس

و(هل) هنا هى استفهام تقريري بمعنى: قد فيكون المعنى: قد أتى على الإنسان، أما (لم يكن شيئاً مذكوراً) يعني كان شيئاً ولكن غير مذكور، قال الألوسى: (لم يكن شيئا مذكورا): بل كان شيئا غير مذكور بالإنسانية أصلا أي غير معروف بها على أن النفي راجع إلى القيد، والمراد: أنه معلوم لم يوجد بنفسه بل كان الموجود أصله مما لا يسمى إنسانا ولا يعرف بعنوان الإنسانية وهو مادته البعيدة: أعني العناصر، أو المتوسطة: وهي الأغذية القريبة، وهي

الـنطفة المـتولدة من الأغذية المخلوقة من العناصر). وقال ابن الجوزى: قوله تعالى لم يكن شيئا مذكورا المعنى: أنه كان شيئا غير أنه لم يكن مذكورا. وقال أبو السعود: (بل كان شيئا منسيا غير مذكور بالإنسانية أصلا كالعنصر والنطفة وغيـر ذلك، والجملة المنفية حال من الإنسان أى غير مذكور، أو صفة أخرى لحـين علـى حـذف العائد إلى الموصوف أى لم يكن فيه شيئا مذكورا. وقال القرطبى: (لم يكن شيئا مذكورا): قال الضحاك عن ابن عباس لا في السماء ولا في الأرض وقيل أي كان جسدا مصورا ترابا وطينالايذكر ولا يعرف ولا يدري مـا اسـمه ولا مايراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورا قاله الفراء وقطرب وثعلب. وقيل ليس هذا الذكر بمعنى الإخبار، فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم، بـل هذا الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدر. تقول: فلان مذكور أي له شرف وقـدر، وقـد قال تعالى وإنه لذكر لك ولقومك، عن الفراء: (لم يكن شيئا) قال: كان شيئا ولم يكن مذكورا.

فأنـت تـرى إطـباق أهل العلم على ما ذكرناه، ويؤيده دليل صريح من الكتاب وهو أن الله لما نفى الشيئية بالكلية في صورة مريم قال "وقد خلقتك من قـبل ولـم تـك شيئاً" أى لم تك شيئا أصلا لا مذكورا ولا غير مذكور، وهى المرحلة العدمية التى كان فيها الإنسان عدما محضا ثم لم يلبث بقدرة الله القادر العظـيم أن جعله شيئا بعد أن لم يك شيئا، ولكنه شيء لا ذكر له ولا شرف من مواد وعناصر بدائية أو طينة مهينة، ثم بعدها صار إنسانا مكرما مذكورا مشرفا خليفة لله تعالى أرضه، فمنه يظهر لك أن الله تعالى أثبت الحالين وردهما لقدرته سبحانه وتعالى: أولاً: أنه خلق الإنسان ولم يكن شيئاً بل عدم مطبق، وثانيا: أنه

خلــق الإنسان على حالة كان فيها شيئا ولكنه كان غير مذكور، و اللفظ الكريم يشــمل بعمومه الحيوان المنوي والبويضة والنطفة الأمشاج، لأن كلا منها شيئا غيــر أنه لا ذكر له، ليس شيئا مرئيا لا اهتمام ولا قدر ولكنه بعد كل هذا شيء وكائن حى بين خلق الله تعالى، فهو شيئ ولكنه غير مذكور.

"هــل أتــى علــى الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً أنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج" يمتنع فى لغة العرب أن تختلف الصفة عن الموصوف والمحفوظ المعلوم عند أهل اللغة جميعا أن الصفة تتبع الموصوف إفرادا وتثنية وجمعا وتذكيرا وتأنيثا وإعرابا، وعليه فلا يمكن أن يقال: رجل أقوياء، أو إمرأة جميلات، والصحيح على إجماع أهل اللسان العربى أن يقال: إمرأة جميلة، رجل قــوي، نســاء جميلات، رجال أقوياء فيصح القول على إعمال القاعدة التى لا تــتخلف وهــى أن الصفة تتبع الموصوف غير أن هذه الآية الكريمة قد أشكلت علــى أهــلا للغة بنظمها الخارج عن القياس اللغوى المتفق عليه، وهو (نطفة أمشاج) فالموصوف هى النطفة وهى مفردة كما ترى والصفة أمشج وهى جمع كمــا تبــين ســابقا مــن تصاريفها فى لغة العرب، حيث تعني أمشاج أخلاط، ومشــجت هذا بهذا يعني خلطته بعضه ببعض حتى صار شيئاً واحداً، جاء فى لسان العرب:١/٤٣٩):

مشــج مشج المشج و المشج و المشج و المشيج كل لونين اختلطا، وقيل هو ما اخــتلط من حمرة وبياض وقيل هو كل شيئين مختلطين والجمع أمشاج مثل يتيم

وأيـــتام، وقال ابن السكيت الأمشاج الأخلاط يريد الأخلاط النطفة لأنها ممتزجة من أنواع ولذلك يولد الإنسان ذا طبائع مختلفة

وبهـــذا تكـــون كلمة أمشاج أدق تعبير لخلية الزيجوت الناتجة عن التحام المـــادة الوراثـــية لكـــل من نطفة الرجل والمرأة. فالأمشاج جمع لا محالة، لأن مفـــردها معـــروف اسمه مشج أو مشيج أو مشج فراجعه، وهذا ما جعل بعض المفسرين لما لم يجدوا ممكنا أن يخرجوا عن المعلوم المقررعندهم قاطعين بأن لفظـــة أمشاج يتعين أن تكون مفردا وليست جمعا، فى مخالفة صريحة للأصول المعتمدة والقاعدة الراسخة مع ظهور الأمر جدا حتى قال الزمخشري بأنها مفرد واختاره من دون مذاهب أهل اللغة مع ما هو شاهر من تمكنه فى البلاغة، وقال أبوالسعود: (وقيل مفرد كأعشار وأكياش) والشوكانى: (وقيل الأمشاج لفظ مفرد كبـــرمة أعشـــار ويؤيد هذا وقوعه نعتا لنطفة) فهؤلاء وهم من أساطين التفسير والبلاغة واللغة قد وقعوا فى هذه المخالفة البينة للاصول المعتمدة عند كافة أهل اللسان العربى مما دعا الألوسى المتوسع فى تفسيره روح المعانى توسعا عظيما فى تصاريف اللغة والنحو والبلاغة نقل هذا القول وأنكره بالمشهور عن سيبويه وجمهـــور الـــنحاة مقررا أنها لا تصلح مفردا بحال فقال: (وقيل: هو مفرد جاء علـــى (أفعال) كأعشار وأكياش في قولهم أعشار: أي متكسرة وبرد أكياش أي مغزول غزله مرتين واختاره الزمخشري، والمشهور عن نص سيبويه وجمهور الـــنحاة أن " أفعالا " لا يكون جمعا) قلت: وأنت تعلم أنها جمع وله مفرد معلوم كـــذلك وهـــو مشـــج ومشيج، واللغويون المذكورون يلوون عنق الآية ليّا حتى يتخلصوا من مشكلة لغوية كبيرة لا تفسرها معاجم اللغة ومخارج اللغويين وإن كانت خادمة لها ودون حاجة للبحث عن مخارج بما يحقق المعجزة القرآنية، ولو

رأوا الحقيقة العلمية الناطقة بكل لسان تحت عدسات المجاهر وبين ردهات المعامل لعلموا الحق الذى لا مرية فيه، وها هم أرباب المجاهر والمعامل والتجارب، المشاهدون معاينة دفقات الحياة المتماوجة فى أعماق النطفة الأمشاج، يجزمون بلسان العلم فى غير تردد أو تلعثم بأنها جمع لا محالة، بل يتعين أن تكون جمعا، وكل قول خلافه هو محض باطل ومخالف للمحسوس المشاهد رأى العين، فهى قطرة واحدة (نطفة) داخلها مورثات كثيرة، فلا يصح أن يقال لها إلا نطفة أمشاج أى قطرة مفردة تحتشد فيها جموع المورثات، فبعد أن كانت نطفة فقط فى المرحلة السابقة إذا هى وقد صارت الآن نطفة أمشاج، لما استقر الحيوان المنوى داخل البويضة حيث تجذبه نواتها بقوة حتى تلتقي النواتان فإذا التحمتا كان إنسانا لأول مرة، لأن كل الذي رأيته فيما سبق ليس إنسانا، بل نصف إنسان يهاجر ليلقى نصف إنسان آخر. الآن بدأ الإنسان وفيه تشير الآية بقوة بلفظ الإنسانية فى قوله تعالى: "هل أتى على الإنسان" "إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج" نعم قد صار نصف الإنسان بعد التخصيب إنسانا، فليست البويضة إنسانا وليس الحيوان المنوى إنسانا، وكل منهما يحمل فقط نصف مورثات الإنسان وعددها ٢٣ كروموسوما، ولكن (النطفة الأمشاج) إنسان تام فى كتاب مذهل مكون من مورثات الإنسان الكامل وعددها ٤٦ و هوعدد معلوم محدد لا يتخلف ولا يختلط ويميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى جميعا على كوكب الأرض.

النطفة الأمشاج، هذا هو المفرد الجمع الذى حير علماء اللغة العربية وفصحاءها، مفرد جمع عالما صاخبا قوامه ستة وأربعون كائنا كل منها يحوى عشرات الآلاف من الجينات (المورثات) التى تتركب من مئات الملايين من

الكلمـــات فى كتاب صاعق لوترجم إلى حروف البشر لكانت كلماته ستة آلاف ملـــيون كلمة، أنت بكاملك لحما وعظما وعصبا وكل ما أنت راء منك مرسوم حـــرفا حرفا وكلمة كلمة في هذا الكتاب. عينياك حاجباك أهداب عينيك ولونها طباعك حجمك طولك لونك شعرك جلدك، كل ما تراه عينك مكتوب ومسجل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها يقول الله تعالى: " إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير" وفى كلمة واحدة: أنت مسطور في كتاب، فالآية مشرقة بمعجزة متحدية مهيبة مفسرة تماماً من دون حاجة أو ضرورة الي لىّ أعناق الآيات ولا دخول في مخارج لغوية مغربة مغرقة فى خروجها عن الأصول لغة وتفسيرا.

وأما المعجزة التى تنعقد لها الألسنة وتخفق القلوب وتقشعر الجلود فهى فى الوصف المعجز لهيئة المشيج، كتب ابن منظور في لسان العرب ما نصه:

(فهن يقذفن من الأمشاج مثل برود اليمنة الحجاج

وعلـــيه أمشاج غزول أي داخلة بعضها في بعض يعني البرود فيها ألوان الغـــزول، قال الأصمعي: أمشاج وأوشاج غزول داخل بعضها في بعض) وقال الألوسى: (وبرد أكياش أي مغزول غزله مرتين) ومنه يتبين فى جلاء أن المشج والمشـــيج لفـــظ عربى مبين من بين معانيه المعروفة أنه يصف الشىء كالغزل الـــذي يغـــزل، بـــل أنه مغزول مرتين فقط تحديدا، فإذا قدر لك أن تنظر إلى الصـــورة العلمـــية للحمـــض النووى الريبوزى DNA لدار رأسك مرتين لحجم المطابقة المذهلة بين المعنى العربى للمشيج والهيئة الحقيقية له فى أعماق الخلـــية وهو شريط مجهرى بالغ الضآلة والإعجاز مكون من خيطين مغزولين على هيئة حلزونية تقع فى عمق الخلية البشرية بحيز لا يمكن رؤيته إلا بتكبيره

إلـــى عـــدد مـــذهل مـــن المرات يبلغ خمسمائة الف مرة ، فثبت بما قدمناه أن (الأمشاج) هذا اللفظ العجيب الشائك فى آية واحدة من كتاب الله تعالى يحمل كمّا صـــاعقا من المعجزات العلمية لا نقول من جهة إثباته الإختلاط بين المائين ماء الـــرجل وماء بما لم يكن معلوما قبل اختراع المجهر، فهذه ربما ادعى العلم بها مـــن لا علـــم له، أو عرفها الناس بحكم مشاهداتهم وخبراتهم، بل تقع الصدمة الصـــاعقة المديـــرة للـــرؤوس فى وصفه الخارق للعادة لشكل الحمض النووى الـــريبوزى الذى أثمرت الجهود العلمية الجبارة فى سبيل معرفة هيئته ووصف صـــورته المغـــزلية حصـــول ثلاثـــة من أساطين علم الوراثة فى الغرب وهم الإنجليـــزى فرانسيس كريك و الأمريكى جيمس واطسن و الإنجليزى هنز كنز مـــن جامعـــة كمبردج على ثلاث جوائز نوبل مع جهد معملى جبار قضت فيه العالمـــة الإنجليزية روزالين من جامعة لندن حتفها مصابة بالسرطان من جراء تجاربهـــا المتواصـــلة بين إشعاعات الأشعة السينية للكشف عن الشكل المغزلى المـــزدوج(Helix) للحمـــض النووى وخيال علمى طامح لمدة خمسين عاما، ثم، وياللصدمة المروعة لتكبيره خمسمائة ألف مرة (٥٠٠٠٠٠) لكشف السر الأعظم فـــى هذه اللفظة فقط من القرآن: أمشاج، بمعنى غزول يدخل بعضها فى بعض مـــرتين، أى كالمغزل المزدوج وهذا المغزل يشغل مكانا بالغ الصغر يبلغ واحدا مـــن الألـــف من المليمتر. من الذى رأى هذا المغزل النووى البديع فى ظلمات الخلـــية قبل ألف وأربعمائة عام؟؟!!. كيف رأى محمد صلى الله عليه وسلم هذا الخلق المجهرى الموغل فى تضاؤله؟ من الذي صوره له ودله عليه؟ من عرفه الغيب الحالك الذى عجز العلم عن رؤيته إلى بعد تكبيره ثم تكبير التكبير مئات المـــرات ثم إعادة معالجة التقنيات من أساسها بعد أن عجز التكبير الإلكترونى

الـذى مـثل ثـورة كاسحة فى عالم الطب،كى يمكن التكبير مئات الملايين من المرات، فإذا به شريط بديع ذو خيطين اسمه(D N A) وهى الحروف الأولى من الكلمة الإنجليزية التى ترجمتها: الحمض النووى الريبوزى المنزوع الأوكسجين. لقـد كان عبارة عن ميكروفيلم مضغوط باقتدار في كل خلية بشرية طوله متر ونصف وحجمه جزء من الألف من المليمتر وعرضه جزء من ألف مليون جزء مـن المليمتـر، ولو جمعته من خلايا إنسان واحد ومددته كان خيطا واحدا يبلغ طـوله رقمـا فلكيا مذهلا وهو ثلاثة وتسعون ألف مليون ميل أى المسافة فلكية الواصـلة بين الأرض والشمس، لتقف على آية علمية صاعقة فى كتاب الله تعالى

هذه هي النطفة الأمشاج وهي الشفرة الوراثية البشرية وبها تتحول الخلية إلـى غرفة عمليات صاخبة لا يتوقف العمل الحيوى بين جنباتها. وبعد ساعات مـن تخلـق هذا الإنسان الجديد في خلية إنسانية كاملة تبدأ سلسلة من العمليات المعقـدة المنسـجمة، تـتحدد بها الصفات والصورة التي سيكون عليها الجنين (الصـفات السـائدة). كما تحدد كذلك الصفات المتنحية التي تظهر في الأجيال القادمـة. وهكذا تتم بسرعة وخفة واحدة من أعقد عمليات الخلق وأشدها تاثيرا فـى مجريات الأمور ألا وهى التقدير[1] (البرمجة الجينية) يقول الله تـالى (من أى شىء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره)

فـإذا كـان المنوي الذي نجح في تلقيح البويضة يحمل الكروموسوم (Y) كانـت المولـود ذكـراً، وإذا كـان ذلك المنوي يحمل الكروموسوم (X) كانت المولودة أنثى.

(١) يأتي التقدير بمعنى: أ- التروية والتفكير في تسوية أمر وتهيئته. ب- تقديره بعلامات يقطعه عليها. ج- أن تدري أمراً بعقدك تقول: قدرت أمر كذا وكذا أي نويته وعقدت عليه. لسان العرب٥/٧٦.

والمفارقـــة هاهنا أن الناس من قديم الزمن يعتقدون جازمين أن المرأة هى التى تحدد نوع الجنين ذكرا أو أنثى، وكم من الحوادث المأساوية قد ترتبت على هذا الإعتقاد، وكم من أسر تمزقت، وكم من نساء طلقت، بينما القرآن ينادى منذ ألـــف وخمسمائة عام أن الرجل لا المرأة هو السبب الأول لتحديد جنس الجنين فقـــال سبحانه "أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يكن نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى"

والقـــرآن نـــزل بلســـان عربـــي مبين، وفى اللغة العربية قاعدة معلومة مضـــمونها أنـــه إذا كان فى الجملة مذكورَيْن يعقبهما ضمير، فالصحيح أن هذا الضمير يعود لأقرب المذكورين له لا الأبعد عنه ومثاله البين هذه الآية، ففيها: "أيحســـب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلـــق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى" فالضمير فى لفظ (منه) لا يمكـــن أن يعـــود علـــى لفظ (العلقة) لأنها مؤنث بينما الضمير مذكر، ولو كان مـــتعلقا بالعلقة لكان (منها) وليس (منه)، فتوجب أن يكون عائدا إلى الإنسان أو إلى المنى ولا محالة، وجمهور المفسرين عدوه عائدا على الإنسان لا على المنى مخالفـــين القاعدة اللغوية المتقدمة بعودة الضمير لأقرب المذكورين له وهو هنا (المنـــى) ولـــيس (الإنسان) قال القرطبى: (قوله تعالى: " ألم يك نطفة من مني يمنى" أي من قطرة ماء تمنى في الرحم أي تراق فيه...ثم كان علقة أي دما بعد الـــنطفة أي قـــد رتبه تعالى بهذا كله على خسة قدره ثم قال: فخلق، أي: فقدر، فســـوى: أي فســـواه تسوية وعدله تعديلا بجعل الروح فيه، فجعل منه: أي من الإنسان) مع علم القرطبى بالقاعدة المذكورة وإنما خالفها دون تردد لما استحال عـــنده أن يكـــون المنى هو الذى يتسبب فى الذكورة والأنوثة بل جنس الإنسان

بحسب ما هو مشاهد هو الذى يتخلق منه الذكور والإناث، غير أنه من المفارقات أن بعض أهل التفسير قد أعملوا القاعدة دون تردد مع عدم وضوح المعنى السالف الذكر لديهم سابقين العلم بمئات السنين دون أن يشعروا كابن الجوزى فى زاد المسير حيث قال: (ثم كان علقة بعد النطفة فخلق فيه الروح وسوى خلقه، فجعل منه: أي خلق من مائه أولادا ذكورا وإناثا) وكذلك نقله القرطبى مرجوحا فقال: (وقيل: من المني، الزوجين الذكر والأنثى أي الرجل والمرأة)، ومعلوم اليوم من غير أدنى لبس أو شبهة أن المنى الذى يقذفه الرجل هو الذى يحوى نوع الجنين ذكرا كان أو أنثى، وهو علم يقينى لا نزاع فيه مقرر بين أهل الإختصاص بعد أن رأته المجاهر الحديثة المتطورة رأى العين بل وتجرى المحاولات على قدم وساق للفصل بين المنويات الحاوية على مورثات الذكورة عن نظيراتها مورثات الأنوثة فى محاولات طموحة لتحديد جنس المولود بعدما ثبت نهائيا عدم مسئولية ماء المرأة بالكلية عن تقرير جنس المولود، وبهذه الحقيقة العلمية المشاهدة يمكننا إعمال القاعدة العربية الصريحة دون حاجة إلى العدول عنها، وإثبات تعلق الضمير هاهنا بالمنى تحديدا لا بعموم الإنسان، فيكون "فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى" أي المني وليس الإنسان. وبه تبعث معجزة جديدة فى بحر المعجزات المتلاطم فى هذا الكتاب، إذ يقطع بأن الرجال هم المسئولون عن تحديد جنس الجنين؟ من كان يدرى شيئا عن هذه الحقيقة العلمية التى كان يجهلها حتى اليوم عامة الناس بل وخاصتهم إلا بعد جهود علمية جبارة وكشوف طبية متلاحقة فى ثورات متعاقبة كشفت الحجب الكثيفة عن البصر وجردت الحقائق كاشفة عارية (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى). والأشد إعجازا والأبلغ تحديا أن الله تعالى قد أتى بنفس الحقيقة

العلمية فى موطن آخر من الكتاب صريحة من غير رجوع لقواعد الضمائرولا مخـــارج أهل اللغة ولا خلافات المفسرين ناطقة بلا تلبيس أو غموض في قوله تعالـــى "وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى". وهو ذكر يفيد التأكـــيد وينفى العفوية والمصادفة في مكان بعيد من القرآن الكريم مؤكدا باللفظ الصـــريح أنـــه خلـــق الـــزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، وقد أجمع المفســـرون واللغويون أن النطفة التى تمنى هي مني الرجل قال الشوكانى: (ألم يك نطفة من مني يمنى مستأنفة أي الم يك ذلك الإنسان قطرة من مني يراق في الرحم وسمي المني منيا لإراقته) وعليه إجماع أهل التفسير، فبدا مذهب القرآن فاصـــلا فـــى المســـألة محل النزاع فى تكرار وتقرير جازم لرواسخ علم كان مجهـــولا تماما على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، بل ومناف لمعارف عصر النبي صلى الله عليه وسلم كله، بل والعصور التالية إلى أن شاء الله تعالى فوقع الـــناس على الحقيقة المزلزلة التى تفجرت بها المعجزة العلمية الهادرة فى هذا الكتاب، وكأن هذا هو المقصد الأعظم من ورود هذه التفاصيل العلمية المتزاحمة بهـــذه الكيفية وهذا الكم فى كتاب الله تعالى، ألا وهو البلاغ المبين أنه كتاب من عـــند الله تعالـــى يـــتحدى به الإنس والجن فى كلمات مدوية صارمة (قل لئن اجـــتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).

فتبين مما تقدم حقائق علمية هامة فى كتاب الله تعالى:

أولا أطلـــق القـــرآن الكـــريم والسنة النبوية على الطور الأول من أطوار الجنـــين اســـم (نطفة)، وهو لفظ عربي يدل على القليل من الماء أو على قطرة

منه. وهكذا يبدأ خلق الجنين من قليل من ماء الأب والأم، ثم يأخذ شكل القطرة في مرحلة التلقيح (الزيجوت)، وقبل التلقيح ينسل المنوي من الماء المهين فيكون سلالة من ماء مهين، كما قرر القرآن الكريم.

وشكل المنوي كالسمكة الطويلة، وهذا أحد معاني لفظ (سلالة) الذي استعمله القرآن الكريم لوصف هذه المرحلة.

وبالتلقيح بين المنوي والبييضة يكون الجنين في شكل نطفة مكونة من أخلاط ماء الرجل والمرأة وما فيهما من أخلاط وراثية. فأطلق القرآن عليها (نطفة أمشاج)، فكان وصفاً معبراً عن الشكل (قطرة) وعن التركيب المفرد، فهي (نطفة)، وعن الأخلاط المجتمعة في النطفة (أمشاج).

وبين القرآن أن المرأة محل الحرث، وبهذا الوصف يتبين لنا أن النطفة تتغرس في العضو الخاص بالحمل عند المرأة (الرحم)، وبهذا الانغراس تبدأ النطفة في التغير لتصبح بعد ذلك علقة.

ويبين القرآن أن تلك النطفة تستقر في جسم المرأة، في مكان وصف بأهم وصفين يتعلقان بالجنين ونموه، وهذان الوصفان (قرار) و (مكين) معبران أتم التعبير عن أهم خصائص الرحم ومميزاته.

وهكذا قدم القرآن الكريم والسنة النبوية منذ أكثر من ألف عام مصطلحات تصف مراحل الجنين، وهي منطبقة تماماً مع قواعد تحديد المصطلحات في ضوء معارفنا المعاصرة وكل مرحلة قد قدم لها وصفاً دقيقاً يشمل المظهر الخارجي وأهم أحداث الخلق في تلك المرحلة.

ونريد أن نؤكد أنه مع استمرار البحوث الحديثة في هذا الموضوع، يمكن أن تصبح المصطلحات القرآنية في الحقول العلمية أكثر ملاءمة من المصطلحات المستعملة حالياً، بحيث يستعملها العلماء والدارسون بديلاً للمصطلحات المعاصرة لا سيما وأن لها مزيتها البينة في إيضاح بداية ونهاية كل مصطلح وخلوها من الغموض أو الالتباس.

أولا: إن الإنسان يتكون من سلالة والسلالة شيء ينسل برفق من بين أشياء.

ثانيا: السلالة هي عبارة عن السمكة الطويلة والله سبحانه وتعالى لا يقرر في كتابه أن الحيوان المنوى عبارة عن سمكة ولكنه يأتي باللفظ العلمي الذي يكون أكثر مطابقة للواقع وأشد وصفا للحقيقة العلمية سواء من مظهرها الخارجى أو مما يجرى داخلها من حوادث علمية.

ثالثا: النطفة هى القطرة المستديرة وهى مطابقة لشكل البويضة من جاهنب ثم البويضة المخصبة من جانب آخر

رابعا: النطفة الأمشاج هى القطرة المستديرة الحتاوية على الأخلاط الكثيرة كما أن هذه الأمشاج على هيئة العزول المغزولة وهى مطابقة مدوية لواحدة من أعقد الحقائق العلمية الطبية

خامسا: يطرح ما سبق قضية المصطلح القرآني العلمى ومنه تبرئة اللغة العربية مما ألصق بها من اتهامات فيما يتعلق بالعلم الحديث، ذلك أن هناك إتهاما شائعا فحواه أن اللغة العربية قد عفا عليها الزمان وأنها

متخلفة وقاصرة ولا تصلح لعصر العلوم، وعليه فلا بد من نبذها وتلقى العلم باللغة الأجنبية لأنها هى التى اكتشفت العلوم وهى القادرة على التفاهم والتعامل بها.

وها قد تبين لك مما قررناه طويلا أن القرآن العظيم إنما يشمل منظومة كاملة من المصطلحات العلمية، برنامجا كاملا للاستخدام العلمي للغة العربية مثل (نطفة أمشاج) هذا مصطلح علمي يصف ويشرح ويبين المظهر والمخبر على السواء. ومن الحقائق المهملة التى لا يلتفت إليها كثير من الناس وخاصة المأخوذين ببريق الحضارة الغربية والذين لعبت برؤوسهم خمر المصطلحات الأعجمية حقيقة أن المصطلح (العلمى) الأعجمى هو أقرب إلى المزحة والأضحوكة منه إلى العلم، بل ولا يمت إلى الكلام البشرى السوى بصلة، مثلا جهاز الحاسوب (الكمبيوتر) يتم تحريكه بمؤشر له إسم علمى شاذ ألا وهو (الفأرة) ولا تسل عن المبرر العلمى أو اللغوى لتسميته بهذا الإسم الذى لا علاقة له بالجهاز ولا بالمستخدم أو بالعلم، وليس ما قدمناه من مثال محصورا على التخصصات الكهربائية أو الإلكترونية والهندسية بل هو شائع فى كل أنواع المعارف الحديثة تقريبا، ففى الطب مثلا نوع من سرطان الثدى يسمى (فأر الثدي) Breast mouse، وقد سمى بهذا الإسم الموهم لا لشىء سوى أنه يتحرك داخل فراغ الثدى متحررا من أى روابط تثبته، ولكن يبقى السؤال، ما القيمة العلمية أو اللغوية لاختيار هذا الإسم بالذات للتعبير عن هذه الظاهرة العلمية الطبية؟ وقس على ذلك عشرات المصطلحات العلمية فى الفلك والبحار والجيولوجيا ولو ذهبنا نستقصى المسألة لطال الأمر جدا ولكن فى ما ذكرناه دليلا على ما لم نذكر، فدلك ذلك على حجم التهافت والعبث فى الأداء العلمى

للغة الأجنبية. إذن صارت المشكلة كامنة فى غرابة أطوار من يتفوه بعبارات لا تصدر إلا عن مجنون ثم يسميها لغة (علمية) ثم يتهم بناء على أوهامه وشطحاته اللغـــة العربية . أما القرآن العظيم فإنه يعطي قدوة عالية ومنهجا مختارا، يجب على حضارة الغرب أن تتعلمه وتنهج عليه إذا كانت حقيقة معنية بالعلم والعلوم بدلا من تلفيق الإتهامات وكيل الأكاذيب للغة العربية التى علّم القرآن العظيم بها الـــناس كـــيف يستخدمون المصطلح العلمي استخداما راقيا نافعا معبرا أصدق تعبيـــر عـــن الحقيقة العلمية، هذه نطفة أمشاج، و النطفة يعني قطرة صغيرة، وســـلالة يعنـــي تنسل وسمكة طويلة، أما الفأر وغيره من مضحكات وغرائب المصطلحات، فلا حيلة فى الدفاع عنها أو تبرير سخفها وتخلفها .

يالـــه من قـــرار مكين!!!

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَـــاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَـــادِرُونَ)

يقول الله سبحانه وتعالى "ثم جعلناه نطفة في قرار مكين"

مصـــطلح علمـــي قرآني جديد هو وصف الرحم بأنه "القرار المكين، وقد وصفه القرآن الكريم بوصفين الأول أنه (قرار) والثاني أنه (مكين)

وبعـــدما وصـــف القرآن الكريم النطفة مع تطوراتها وما يحدث فيها بأدق وصـــف وأبلغ بيان، فإنه هنا يصف الرحم وهو الحصن الذي تستقر فيه النطفة بوصـــفين جامعين شاملين كافة الخواص العجيبة لهذا الحصن الحصين والسياج المنـــيع الـــذى يمـــثل القدرة والحكمة الربانية فى أروع مظاهرها، قال سبحانه وتعالى: (ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) (سورة المؤمنون: آية١٣).

فكلمة (قرار) في الآية الكريمة تتعلق بالعلاقة بين الجنين والرحم. فالرحم (مكان لاستقرار الجنين)[١]. أما (مكين) فهى تمثل العلاقة بين الرحم وجسم الأم.

وجملة المعانى اللغوية للفظ القرار: (استقر واستراح)[٢]. وكذلك القرار هو مكان يستقر فيه الماء ويتجمع[٣].

---

(١) مقاييس اللغة ٥: ٧،٨، لسان العرب ٥: ٨٤.

(٢) تاج العروس ٣: ٤٨٦.

(٣) تاج العروس ٣: ٤٨٦.

ومـــع تلاحـــق الكشوفات العلمية خاصة حول العلاقة الحميمة المثيرة بين الرحم والجنين فى سائر مراحل وجوده به من مرحلة النطفة صعودا إلى مراحل الجنـــين اللاحقـــة حـــيث الرحم فيها سكن آمن مطمئن لمدة تسعة أشهر تكشفت وجـــوها معجزة لهذا اللفظ الفذ الذى عجزت كافة المحافل والمرجعيات المعنية عن الوصول له .

فالرحم كما تقدم عضو شديد الحساسية للأجسام الغريبة وهو يعج بالأجسام المضادة القاتلة لكل ما هو مجهول وغير معروف لجسم المرأة كما يحوى حرسا شـــديدا مدمـــرا من الخلايا المناعية البالغة الشراسة وقد تقدم الحديث عنها فى مفتتح هذا البحث، والأوامر الصارمة لهذا الجهاز الجبار من المناعة والمقاومة هـــى تدميـــر أى جسم غريب يتواجد فى الرحم وتمزيقه دون هوادة أو الموت الـــزؤام دون هذا الهدف، وبالرغم من هذه الطبيعة العدوانية المتحفزة لطرد أو قتل أي جسم خارجي، فإن هذا الرحم يأوي الجنين الذى يعد جسما غريبا دخيلا، ويحتضنه ويحدب عليه فى رأفة وحنان ويمده بكافة وسائل التغذية والراحة. كما أن ما يتمتع به الرحم من جهاز عضلى متين وأربطة بالغة القوة والمرونة فإنه يحفـــظ مكانه فلا يضطرب ولا يميد ولا يتقلقل بما يجعله قرارا حقيقيا وحصنا راســـخا للجنـــين الضـــعيف حيث يكون فى أمس الحاجة للهدوء والحماية. أما الخصـــائص المذهلة للرحم والتى بها يتواكب فى نموه مع النمو المطرد للجنين متمددا ليتلائم معه فى جميع أطواره ويكون قرارا له فى جميع المراحل، فإذا هو عـــند النطفة ذات الحجم المجهرى قرار لها على قدر حجمها المجهرى إلى أن يكـــون طفلا كامل الهيئة والبناء فهو قرار له كذلك برغم ما بين البداية والنهاية مـــن التفاوت والتباين فى الحجم والخصائص مما يحيل على عضو واحد توفير

الحمايـــة والنهوض بمسئولية الحفظ والرعاية لهما جميعا، وهى خاصية معجزة فـــى الخلق ودليله الذى لا ينازع على القدير الحكيم ثم هى معجزة علمية قرآنية مـــن حـــيث اختيار اللفظ الواحد الجامع للمساعى جميعها فى موطن بهذا التغير والتبدل والتنوع . ثم داخل أسوار الرحم المنيعة يحاط الجنين بالسائل الأمنيوسي (الجنينى) الذى يمثل وسادة حانية مرنة تحوطه من كل جوانبه موفرة له الغذاء والإخـــراج والحـــركة وســـائر موجبات الحياة فضلا عن مقاومة الإضطرابات والصدمات التكررة التى لا تنفك عنها الأم حال حياتها وسعيها، ثم بعدها الغشاء الأمنيوســـي (الواقـــى) المندمج بالمشيمة فهو حافظ لما وراءه مثبت للجنين، ثم طـــبقة مدرعـــة مـــن العضلات القوية المتضافرة للرحم المحيطة به كالأسوار المنتصـــبة العتيدة تعززها سلسلة تالية من العضلات المشكلة لجدار البطن ذات الألـــياف المنـــتظمة والمتراصة فى اتجاهات متعامدة ومائلة لضمان الوقاية من أعتـــى الصدمات وأشد الضربات، تحصينات من وراء تحصينات تمثل للجنين ركنا هادئا هانئا يقر فيه ويمضى وادعا فى رحلته المصيرية إنها رحلة الحياة. كمـــا تضـــمن أثـــناء الحياة الرحمية تبادل دماء الجنين مع دماء الأم فى سلامة وأمـــان متجنبة الخطر القاتل حيث تكون فى الغالب فصيلة دماء الجنين مخالفة لفصـــيلة دماء الأم، فلو اختلطا، أدى ذلك مباشرة إلى كارثة مروعة تودى بحياة الجنين وتقضى عليه، غير أن الطريقة المعجزة التى يتم بها تبادل الدماء بينهما داخـــل الرحم تسمح بسلسلة من العمليات الكيميائة الحذرة والمعقدة بتبادل الدماء غيـــر أنها لا تسمح باختلاط دماء الجنين مع دماء الأم فسبحان الخلاق العظيم. ومـــن حكمـــة الله دائماً أو عادة لما يتكون الجنين يتكون في الجهة الخلفية من الـــرحم وليســـت الأمامـــية لماذا؟ لأن الأمامية عرضة للإصابة فالمرأة تتحرك

وتسعى وربما واجهت مشكلة أو ارتطمت فى حادثة أو سقطت وغيرهال مما لا يمكن تجنبه فى حياة الناس، فإذا كان الموقع المختار للجنين من الرحم فى الجهة الأمامـية فلا يخفاك ما يمثله ذلك من الخطر الداهم على حياته، فقضى ربك أن يكون المكان فى الغالب فى الجهة الخلفية لا الجهة الأمامية زيادة في الحماية أما القـرار نفسـه فقـرار ومكـين أي مثبت بقوة فأصبح اللفظ يدل على المعنى. فالمصطلح العلمى المثالى هنا هو قرار، وهكذا فإن كلمة (قرار) قد استعملت في القـرآن الكـريم لكل المعاني المذكورة وغيرها كثير، متضمنة وظائف الرحم باعتـباره المكان الأمثل لاستقرار الجنين وحياته وتطوراته الكثيرة المعقدة من طـور النطفة إلى أن يصير بشرا بديعا سويا . وقد جمع هذا اللفظ المعجز الذي وصف القرآن الكريم به الرحم (قرار) كل الحقائق التي اكتشفها العلم حتى اليوم، بـل ومـا قد يستجد من كشوفات تدفع فى هذا المضمار وتلك الغاية، فى بيان عميق بليغ لمدى مناسبة الرحم لاستقرار الجنين.

أمـا كلمة (مكين) فتعني عند أهل اللغة: مثبت بقوة[1]، وفيه توجيه جامع للعلاقـة العضـوية بين الرحم وبين جسم الأم، وموقعه التشريحى المثالي الذى يؤهله لتحمل ونمو الجنين.

وبالإطلاع على موقع الرحم تشريحيا فى حوض المرأة يتبين أن الرحم يقع مكينا في مركز الحوض محاطا بسلسلة منيعة من العظام والعضلات والأربطة التـي تثبـته بقوة فى موقعه المكنون. أي أنه مكين، وهذا لفظ جامع فذ واصف

(١) ويذكر كثير من المفسرين هذا المعنى عند تفسير هذه الآية (منهم ابن كثير ٣: ٢٤٣، الطبري١٨: ٧، أبو حيان ٦: ٣٩٨) كما تبين آية أخرى من القرآن الكريم معنى (مكين) بأنه متمكن بقوة قال تعالى: (فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) (يوسف: آية٥٤): أي قوي التمكين.

لكـل المقومات والخصائص التي تبين تمكين الرحم وتثبيته في جسم الأم. وهو مكـين أى يسـتمكن بنفسه كى يستمكن فيه الجنين، وهو ظاهر بين فيقع حوله صندوق عظمي فى غاية الصلابة والقوة أي "الحوض" وأمامه المثانة وهى فى عامة أحوالها مليئة بالبول الذى يمتص الصدمات، أما الجهة الخلفية للرحم فيقع المستقيم وهو نهاية القناة الهضمية فهو ملىء كذلك بالمواد الإخراجية اللينة للقيام بـنفس مهمـة الـبول فى الأمام ألا وهى امتصاص الصدمات ومنع أثرها عن الجنـين، ومن حوله عظام الحوض من كل جانب ومثبت بأربطة من كل اتجاه حتى يكون قرارا مكينا مؤهلا لأداء الدور العظيم الذي ينتظره، فسماه الله تعالى بالإسم الشافى الوافى وهو مصطلح علمي بالمعنى الكامل للكلمة فلم يقل أنه رحم ولـم يقـل أنـه مكـان الولد بل قال أنه: "قرار مكين" ليبين لك فوق الوصف التفصيلى للوظائف بهذا المسمى على أنه عليم شهيد يعلم دقائق وخبايا ما يحدث فـي هذا المكان. أي أنه يعرف ماذا يتم داخله فهو قرار يستقر فيه الماء، وهو مكـين مثـبت بقوة تشريحياً، وهكذا فإن كل وصف يتضمن العلاقة بين الجنين والـرحم أو بـين الرحم وجسم الأم، فقد شمله العموم البليغ للكلمتين القرآنيتين (قـرار) و (مكين) اللتين تعبران تعبيراً تاماً عن حقيقة الرحم ووظائفه الدقيقة، ولا يفطـن إلـى أهمية هذين الوصفين الضرورين والذين لا يغنى أحدهما عن الآخر إلا المتخصص العالم بحاجات ولوازم نمو الجنين، وحاجات ولوازم ثبات الرحم ومرونته لمواكبة هذا النمو المطرد حتى تتم الرحلة الجنينية بسلام

ومنه تعلم لماذا لم يورد الله تعالى إسمه الدارج المعلوم ألا وهو (الرحم) لأننا بصدد الحديث عن وظائفه اللصيقة بالجنين ومراحل نموه، لأنه هنا يخاطب المخـتص المتمرس الفاهم لمتطلبات كل مرحلة الباحث عن الحقائق فى غيابات

الأرحـــام، فوظيفته عند هؤلاء وفى هذا المقام العلمى التفصيلى ليست أنه رحم، بل أنه مكان عند غاية التأهيل الفسيولوجى والتشريحى والكيميائى، فهو قرار أى يســتقر به الجنين، فى طيات هذا الحصن المعجز والذى وصفه الله تعالى بأنه (قــرار مكــين) ولـــه من الخصائص الصاعقــة التى لا تكـــاد تُصدَّق ففيه الوفادة وفيه الرفادة وفيه الحضانة وفيه الحماية إنه يجمع الخصال المستحيلة من غايـــة القوة والتمكين بما يفوق نظيره من الفولاذ، مع غاية المرونة التى تسمح بتضـــاعف حجمـــه مائـــة مرة مع ساكنه الجنين يوما بيوم، إنه الحصن المكين الـــرابض فـــى حماية صارمة لعظام الحوض المنتصبة فى شموخ سياجا مهيبا وحرسا شديدا . أى لفظ أبلـــغ وأحكم وأعلم مما وصف القرآن العظيم. ياله من قرار مكين.

نساؤكم حرث لكم

تبقى النطفة إلى ما قبل طور الحرث (الاثغراس) مضطربة متحركة غير قارة ولا ثابتة، وبالتصاقها بالرحم تبدأ مرحلة الاستقرار التي أشار إليها الحديث النبوي (يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين يوماً...)[1]. ونظرا لتلاحم المراحل وتزامنها فيحسن هنا أن نعيد التذكير بتلك اللحظات التى تبدا بها قصة نمو الجنين التى يعلمها معظم البالغين اليوم، وهى عملية تخصيب الحيوان المنوى للرجل بالبويضة من المرأة، تلك التى أوردنا تفاصيلها المثيرة فى أول هذه المبحث، حيث تبين أن كل واحد منهما يحتوى فقط ٢٣ كروموسوما وهى نصف كمية الدنا (المحتوى الوراثى) المطلوبة لتكوين إنسان كامل، وعندما يندمج الحيوان المنوى والبويضة فإن صبغياتهما تسفر عن الزيجوت المجهرى (النطفة الأمشاج أوالبويضة المخصبة) تلك التى وصفها الله تعالى فى كتابه بإعجاز: (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا)، والتى تبدأ على الفور فى عملية التكاثر. وأما تكاثرها فهو مضاعفة الدنا DNA (محتوى الصفات الوراثية) الذى تحمله فى كل .رة تنقسم فيها إلى خليتين متطابقتين ثم أربعا ثم ثمان وهكذا، ولكن إذا تواصل هذا الإنقسام وعلى هذه الوتيرة إلى ما لا نهاية فإن الأم البائسة حينئذ ستضع ورسا متكورا هائلا ذا أبعاد فلكية. بيد أن الذى يحدث أمر لو لم يره الناس

(١) رواه مسلم في صحيحه ٤: ٢٠٣٧ ح٢.

مرارا منذ خلق الله تعالى الحمل والولادة لما كان قابلا للتصديق بل لم يكن قابلا للتصـــور، وهـــنا تكمن المعجزة الإلهية التى تتجلى فى خلق الرحمن بما يحير تصـــاريف العقول ويأخذ بمجامع القلوب. إن الخلية المخصبة (النطفة الأمشاج) (وبرشـــد) عجيب بدلا من مواصلة انقسامها فى آلية صماء عمياء لا تعقل ولا تعـــى تبـــرز وجها مذهلا من الهداية الربانية المذهلة التى تقودها فى مجاهل لا حـــدود لها، إلى خطة رشد أروع ما تقع عليها عينا بشر، أو تقف على تماوجها الخارق عدسة باحث .

إنهـــا تتصور وتتجسم كأنها كائن قادم من عالم الخيال، فى براعم تتنامى لتســـلم إلى أعضاء تتكامل لتسلم إلى تناغم وتلاقى إلى سيطرة كاملة للعقل على الجميع إلى بشر سوى يهتز ويتقلب ويمتص ويلهو.

إنها آية الخلق العظمى التى طالما وجه القرآن الأنظار إليها فى إشارات بلـــيغة مفحمة. يقول الله تعالى: (أم لهم شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قـــل الله خالـــق كـــل شىء وهو الواحد القهار) ويقول تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ويقول تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فـــى قـــرار مكين فخلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)

إن أول صـــدمة مدويـــة تبدأ مباشرة عقب التخصيب عندما تتكون الكتلة الجنينية المجهرية ذات الإثنين والثلاثين خلية والتى تدعى (التوتية) Morula(نسبة إلى ثمرة التوت) عند نهاية مرحلة النطفة الأمشاج، تلك التى يتولد عنها طبقتان محـــددتان تلـــتفان حول كرة مليئة بالسائل تعرف باسم بلاستوسيست Blastocyst

(المتكيسة المجهرية)، وفي تقدير مهيب تبدأ هذه الكتلة الكروية (المتكيسة المجهرية) في التهادى على جدار الرحم باحثة متحسسة الموضع المثالى للإنغراس في بطانة الرحم حيث تستقر فى هدوء منغرسة انغراس البذرة في تربتها لتبدأ مرحلة جديدة وحدثا جديدا سماه القرآن الكريم بطور (الحرث) وتجسده الآية الكريمة فى قوله تعالى: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) (البقرة:٢٢٢) وبهذا الانغراس يبدأ طور (الحرث) ويكون عمر النطفة حينئذ ستة أيام.

وعندما يقول الله سبحانه وتعالى: "نساؤكم حرث لكم" فإنه يعاود التأكيد على الحقيقة الراسخة وهى مسئولية الذكور لا الإناث عن تحديد نوع الجنين فأنت عندما تضم قوله تعالى: (نساؤكم حرث لكم) إلى قوله تعالى (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) فقوله تعالى: (نساؤكم حرث) أي أرض صالحة للزرع فيها، فأنت الباذر للبذور وبه تكون عليك مسئولية نوعية البذور التى تزرعها، وما أرحام النساء إلا حرث. وما الجنين إلا بذرة بذرها الرجل لتنبت فى الأرض الخصيبة التى هى رحم المرأة . أخرج مسلم عن جابر قال كانت اليهود تقول من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله وأعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) والمعنى ظاهر وهو يرمى إلى تحرير عقول المسلمين من جهالات اليهود وأشباههم، وهو أمر معقول بالغ الظهور فإنك إذا زرعت زرعا فى أرض من جهة الشرق أوالغرب أو الشمال أو الجنوب أنبتت الأرض نباتها، فلا علاقة للجهة التى تتم بها الزراعة بنوعية الزرع أو بجودته، لأن هذه أمور محلها نوع وخصائص البذرة لا الجهة أو الطريقة التى تزرع بها

البذرة، ولكن اليهود جهلة ومن تابعهم أشد جهالة منهم، والله سبحانه وتعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل. ولا تلبث البذرة أن تستقر ، ولا يلبث جدار الرحم أن يتملىء بالأنهار الجارية من تحت الجنين الذى يطفر كأنه خيال أسطورى فى ظلمات الرحم، فإذا علمت أنها فى هذا الطور لا تزيد حجما عن جزء ضئيل من المليمتر فى أعماق الرحم الغاصة بالدماء والظلمات أدركت حجم المعجزة القرآنية فى استخدام هذا المصطلح العلمى لهذه المرحلة الموغلة فى دقتها، حيث تنغرس النطفة الأمشاج فى جدار الرحم أشبه بالنبات الكامن ليمد جذوره الظمأى فى أرض زراعية خصبة فلا يوجد لفظ أبلغ ولا أشمل ولا أدق من لفظ الإنبات ما عبر عنه القرآن الكريم (والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً).

أما السر العجيب فى انغراس النطفة (كيس الجرثومة) في بطانة الرحم وفى هذه اللحظات الحرجة بالذات فإنه يرجع لخلايا متميزة تنشأ منها لتغزو بها جدار الرحم ولتكوّن المشيمة، ويستخدم علماء الأجنة الآن مصطلح Implantation وترجمته المعتمدة فى كتب الطب العربية (انغراس) في وصف هذا الحدث، ولعل ذلك من وهم المترجمين فإن ترجمتها الحقة لو أصابوا هى اللفظة القرآنية (الحرث)، فإن الغرس أو الإنغراس لا يفيد عند العرب إلا إيلاج الشجر أو النخل أو شجر العنب النابت فعلا أو القضيب الذى ينزع من نبات ويدخل فى التربة، ولا يفيد لفظ (الغرس) طمر البذور ذاتها فى التربة إلا فى بعض جوانبه البعيدة، جاء فى لسان العرب: (غرس الشجر والشجرة يغرسها غرسا، والغرس الشجر الذي يغرس والجمع أغراس ويقال للنخلة أول ما تنبت غريسة، والغرس غرسك الشجر، والغراس ما يغرس من الشجر، والغرس القضيب الذي ينزع

من الحبة ثم يغرس، و الغريسة شجر العنب أول ما يغرس والغريسة النواة التي تزرع، والغريسة: الفسيلة ساعة توضع في الأرض حتى تعلق والجمع غرائس) إنتهى، بخلاف الحرث فإنه مقصور بتمامه على استنبات البذور رأسا، فلا يفيد غـرس نـبات كامل ولا شجرة ولا جزء من شجرة بحال وهو مطابق للترجمة الحرفية للفظة الإنجليزية تمام الإنطباق فإن لفظ Implantation مشتق من لفظ plant وهـو النـبات، ومصدره الإنجليزى هو لفظ Implantation أى (الإستزراع)، أو بلفظـة عربية جامعة هو (الحرث)، وهو مع ذلك يطابق مصطلح القرآن وهو (الحـرث) الـذى معناه الدقيق فى لغة العرب قذف الحب فى الأرض، جاء فى لسـان العـرب: (حـرث الحرث و الحراثة : العمل في الأرض زرعا كان أو غرسا وقد يكون الحرث نفس الزرع، الحرث قذفك الحب في الأرض لازدراع، و الحـرث الزرع و الحُرّاث: الزراع، وقد حرث واحترث مثل زرع وازدرع .... والمـرأة حرث الرجل أي يكون ولده منها كأنه يحرث ليزرع وفي التنزيل العزيز: (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال الزجاج زعم أبو عبيدة أنه كناية قال والقول عندي فيه أن معنى: (حرث لكم) فيهن تحرثون الولد (فأتوا حرثكم أنى شئتم) أي ائتوا مواضع حرثكم كيف شئتم مقبلة ومدبرة،) وهو ظاهر جـدا ولا يخفاك أنه وثيق الصلة بزراعة البذور نفسها لا الفسائل ولا الأشجار، ويطابـق تمامـا الحـدث العلمى الواقع فى الرحم فإن الكائن هنا هو (التوتية) Morula أو بلاستوسيست Blastocyst (المتكيسة المجهرية) وهى عبارة عن بذرة الجنـين التـى تزرع فى جدار الرحم لتنبت من الأصل مرحلة مرحلة، وليست شـجرة صـغيرة ولا فسـيلة تامة النمو منقولة من أرض على أرض لتغرس وتواصل حياتها، وهو فرق دقيق ونفيس جدا فتأمل.

وطـور الحـرث هو آخر طور في مرحلة النطفة، وبنهايته ينتقل (الحمل الخفـيف) Faetus مـن شكل النطفة المستدير الكروى إلى شكل العلقة المستطيل الممتد الذى يتعلق بجدار الرحم ليبدأ مرحلة جديدة تحت إسم علمى قرآنى جديد، وذلـك فـي اليوم الخامس عشر. وعليه، وعند غاية الإبهار والإعجاز وصف القـرآن الكريم كل جوانب وتغيرات وتلاحقات الأطوار فى مرحلة النطفة ذات الشـكل المكـور للجنـين بتفاصـيلها المذهلة من البداية إلى النهاية، مستعملاً مصـطلحات علمية دقيقة واصفة فى اقتدار كل طور من أطوارها، بل ومحددة أول مراحلها بالماء الدافق فقال تعالى: (فلينظر الإنسان ممّ خلق* خلق من ماء دافـق) (الطارق: ٥،٦). و آخرها بحرث النطفة في القرار المكين، كل هذا يوم كـان مـن المسـتحيل على أى جهد بشرى كشف أى من الملاحم العاصفة من الـتطورات والتقلـبات الكثيـرة المتباينة خلال هذه المرحلة أو الوقوف اليقينى الراسـخ علـى تفرعاتها من غير استخدام المجاهر المعقدة، والتقنيات البصرية شـديدة الـتقدم نظـراً لحجم النطفة المجهرى الموغل فى الضآلة والدقة. إنها مـنظومة مـن العلـم القرآنى المزلزل أقل ما توصف به أنها معجزة إلى حد الصـدمة كـون الأحداث على ما قررناه لك من ضآلة حجمها تتم فى عالم من المجهـول التام من غيابات الأرحام المظلمة، بين غيابات الجهل بكل شىء عن هـذا العلم فى القرون الأولى، بين غيابات العجز البشرى عن الرؤية ولو كانت كاشـفة ظاهـرة فكـيف وهى بين الدماء مخبوءة فى باطن الظلمات الرحمية الحالكـة، فهو غيب من غيب من غيب لا يعلمه إلا العزيز القدير الذى جاء به متحديا مواجها للكفر المريد فى عصر العلم واستكبار العلم، برهانا لا يجحده إلا سـادر فى غيه شديد الزيغ والظلم والضلال، يقول الله تعالى (لكن الله يشهد بما

أنـــزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا). كل هذا الطوفان من معجزات العلم كان يتلاطم تلاطم الموج الهادر بين دفتى هذا الكتاب الأعظم المنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم قبل ألف وأربعمائة عام، بينما كان أشد علماء التشريح من غير المسلمين تقعرا وتمكنا فى شغل عظيم حول إثبات تخلـــق الجنـــين فى الرحم من دم المحيض المحتبس فى رحم المرأة إلى ثلاثة قـــرون فقـــط من زماننا، ناهيك عن العقائد (العلمية) الشائعة الأخرى الخاطئة والمضحكة التى كانت فى حكم المسلمات حتى القرن الثامن عشر حتى اختراع المجهـــر (microscope) فـــي القرن السابع عشر الميلادي، إلى أن عرفوا بالكاد، وياللعجب، المعلومة القرآنية النبوية الأولية البدهية المقررة والمكررة فى الكتاب والســـنة أن كـــلاً من الحيوان المنوي والبويضة ضروريان لحدوث الحمل [1]. ومـــنه تتجلى لك الحقيقة الساطعة وبعد قرون عديدة من الجهود العلمية المرهقة حـــيث تمكـــن العلم من الوقوف على النذر اليسير من بعض ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية عن التخلق البشري.

وبعـــد فترة زمنية خاطفة تتحول الطبقة الخارجية من الخلايا إلى المشيمة والسائل السلى Amniotic fluid بينما الطبقة الداخلية تتشكل عبر تحولات وأطوار إلى الجنين ذاته. إن تكون البلاستوسيست(المتكيسة المجهرية) يعطى إشارة البدء فى سلسلة من التغيرات المنسجمة والمتناغمة فى تماوج حالم أشبه بترانيم قدسية فى عالم الخيال .

(١) (التخلق البشري) كيث مور –ص٩– انظر بحث نظرة تاريخية في علم الأجنة.

وما أن ينتهى الاسبوع الأول حتى تنتفخ النبتة الواهنة الرقيقة إلى طبقتين إضـــافيتين. الطـــبقة الأولـــى والتى تعرف باسم الإندوديرم Endoderm (الطبقة الداخلـــية) تتولد منها الخلايا التى تبطن قناة الجهاز الهضمى. ومن الثانية والتى تســـمى إكتوديرم Ectoderm (الطبقة الخارجية) تنشأ الخلايا العصبية التى يتكون منها المخ والنخاع الشوكى معا مع الخلايا الإبيثيليوم Epithelium(الجلدية) التى يتكون منها الجلد.

مـــع نهايـــة الأســـبوع الثانى فإن (الطبقة الخارجية) تبرز صفا بارزا من الخلايا تدعى (الشريط البدائى) Primitive streakوالتى منها تنشأ طبقة جديدة ثالثة مـــن الخلايـــا تدعى (الميزوديرم) Mesoderm(الطبقة الوسطى) والتى منها تنبع براعم الخلايا لتكوين القلب والرئتين وبقية الأعضاء الداخلية.

عـــند هذه النقطة وبتكون هذه الثلاث الطبقات: الخارجية ــ والداخلية ــ والوسطى، يشبه الجنين قزما مستديرا أتى من عالم الأحلام على هيئة مستديرة مفلطحة ومستعرضة.

من الحرث إلى العلقة درب المعجزات

طورالعلقة

في تفصيل علمي مثير ومتحدٍ لمعارف العالمين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وما تبعه من عصور، يخوض القرآن الكريم في الظلمات المتراكبة للأرحام مقتحما عقبة كأداء لم يكن بشر في القرن السابع الميلادي يتصورها خيالا فضلا عن العلم بغيبها المجهول ألا وهي ملاحم تقلبات الجنين البشري في أعماق الأرحام، وإليك البيان العلمي المذهل يقول الله تعالى:

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (المؤمنون: ١٢-١٤).

هذه الآية الكريمة فصّلت حياة الجنين في الرحم إلى ثلاثة أطوار، والفاصل بينها حرف العطف (ثم) وهو يفيد الترتيب مع التراخي أي التتابع البطيء بين كل طور وسابقه .

فالأول طور النطفة.

والثاني طور الخلق.

والثالث طور النشأة الأخرى.

فأما طور النطفة فقد تقدم بتفاصيله مستفيضا وبدا لك هنالك مدى الموافقة المعجزة بينه فى القرآن الكريم وبين حقائق العلم الثابت بأحدث الوسائل العلمية، وأمـــا الطـــور الثانى وهو طور الخلق (هذا الإسم يطلق عليه نظرا لتردد لفظة (فخلقـــنا) به وتكرارها فى بيان بليغ بأن كل خليقة فى هذا الطور إنما تُخلق من سابقتها ولكنها مع ذلك تتميز بخصائص لا توجد في سابقتها،وكأنها خلق جديد لا علاقـــة لـــه بـــه، وهو الواقع علميا كما سنبينه مستفيضا وفيه ما لا يخفى من الإعجـــاز المذهل نظرا للحجم البالغ الضآلة لخلائق هذا الطور وخاصة الأولى منها) ويمتد هذه الطور ابتداءً من الأسبوع الثالث حيث يكون حجم الجنين دون مســـتوى الـــرؤية البصرية، مارا بالأسبوع الخامس والسادس وطوله ٦ مليمتر "(بحجـــم حـــبة الأرز) " إلى الأسبوع السابع وطوله ١،٣سم "(بحجم حبة العنب الصغيرة")، وينتهى هذه الطور فى نهاية الأسبوع الثامن وطوله ٢،٥ سم "(بحجم ثمـــرة الفراولة)". وأهم ما يميزه هو التكاثر السريع للخلايا، وتمايزها وتنوعها مـــن ناحية الشكل أو الوظيفة فى نشاط فائق لتكوين البراعم والأعضاء الجنينية المخـــتلفة [1] والتصوير الخارجي للجنين حيث يتقلب فى سرعة من صورة إلى صورة، حتى يبدو فى أول صورة بشرية في الأسبوع السابع حال تخلق الهيكل العظمى البشرى الذى يعقبه مباشرة وكتفا بكتف الكساء بالعضلات في الأسبوع الـــثامن ممـــا يجعل لفظ (التخلق) لفظا مبدعا أيما إبداع فى توصيف التطورات المتلاحقة فى هذه الزمن الوجيز .

ولما كانت العمليات الخلقية للجنين هاهنا تتم فى تلاحق وسرعة وتتابع كما تقـــدم، ولمـــا كـــان التعبير اللغوى يستلزم العطف حتما لإبراز التغاير والتبدل

(١) انظر علم الأجنة لكيث مور ص٧٨.

اللاهث الحثيث فى الخلقة طورا من بعد طور، ولما كان الواصف فى هذا المقام هو العليم الخبير الذى لا تخفى عنه خافية، فقد جاء اللفظ القرآنى مواكبا كالعادة لتماوجات التغيرات الكثيرة السريعة باستخدام الحرف العاطف (الفاء) الذي يفيد الترتيب مع التعقيب والذى تستخدمه العرب عادة لبيان تقلبات الحدث مصحوبة بالسرعة الزمنية، للربط والانتقال بين خلائق هذه الطور المفصل إلى أربع خليقات مبينة: العلقة، المضغة، العظام، اللحم، وكل عطفت على سابقتها بالفاء وكأنها موجة سريعة تتبع أختها دون تراخ أو انقطاع.

معجزات خلق العلقة

يقول الله تعالى: (ثم خلقنا النطفة علقة) العلقة مصطلح علمي جديد يسخر مـــن مصطلحات اللغة الأجنبية ويؤكد علمية القرآن واللغة العربية، وقد وردت لفظـــة (علقـــة) و (علق) ومشتقاتها مطلقة في القرآن الكريم لتشتمل على معان واسعة وكثيرة جدا، وتتجلى هذه المعاني فيما توصل إليه العلم الحديث، بما يلفت النظر بقوة إلى السبب المعجز لاختيار هذا اللفظ بالذات لوصف هذه الخلقة بين الـــنطفة والعلقـــة فى قوله تعالى (خلق الإنسان من علق) وقوله تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة) فى إيذان بوصف مهيب ومعقد ومعجز لتفريعات شديدة التنوع بين جنـــبات هذا الطور الجنينى، فمنه ما يطابق الوظائف الفسيولوجية للجنين، ومنه مـــا يصف المظهر الخارجى، ومنه ما يشير إلى حقائق كيميائة حيوية، ومنه ما يفـــيد ظواهر تشريحية تكوينية، ومنه ما يشير إلى المزاوجة واللغة العجيبة بين الجنين والرحم، فسبحان من أنزل الكتاب العظيم قائلا: (وعلمك ما لم تكن تعلم وكـــان فضل الله عليك عظيما)، والآن نشرع فى المقصود وبالله تعالى التوفيق، فـــنجد أن الجنـــين فى مرحلة العلقة يتميز بخصائص لم يتم التوصل لها إلا بعد جهود جبارة متضافرة ومرهقة بين علماء من تخصصات متباينة فى كافة أفرع العلـــوم الطبـــية والفيـــزيائية والكيميائـــية والطبية وبعد ثورة علمية كاسحة فى التصوير الطبى للأجنة داخل الرحم قد فجرت واحدة من أمجد معجزات القرآن وأشدها تحدّيا. كتبت التايم الأمريكية: (أحد أسباب معارفنا هذه هى سلسلة معبرة

ومستقدمة من صور الرنين المغناطيسى MRI وفوق الصوتية وغيرها من التكنولوجيا التصوير التى تمكننا من الغوص إلى عمق عملية نمو الجنين فى كل طور من أطواره من لحظة اندماج الحيوان المنوى والبويضة وحتى لحظة الولادة عند ٤٠ أسبوعا لهذا الآدمى المنمنم). أما ما تم التوصل له فعليا فى هذا الطور فبيانه أنه بينما (الطبقة الوسطى) للجنين تمتد فإنها تتداخل مع خلايا (الطبقة الخارجية) . وبسرعة فائقة تلتف هذه الخلايا لتصوير (تجسيم) الأنبوب العصبى الذى يعد المقدمة البدائية لتكوين المخ والنخاع الشوكى أى الجهاز العصبى بتمامه .

كل هذا بالتزامن مع زحف الطبقة الوسطى، الذى يؤدى إلى تكوين تجمع من الخلايا على كل طرف للجنين الذى استطال وتحول إلى شكل الدودة (العلقة)، تجمع خلايا فى الأعلى لتكوين الفم والآخر فى الأسفل لتكوين الشرج.

لقد غدا الجنين الآن مستطيلا بعدما كان مكورا، ففصل القرآن بين الطورين فى وصف علمى معجز إلىَ حد الصدمة حيث سماه الآن (علقة) أى: أشبه بالدودة التى تمتص الدماء وتتعلق بأفواه البهائم التى تشرب الماء بحسب ما كان عليه كلام العرب، وذلك فى قوله تعالى: (فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة).

إن الجنين فى هذه المرحلة وهذا الطور لا يزيد فى حجمه عن حبة الأرز. قد تحدد فيه المحور من الرأس إلى الذيل هذا المحور الذى من حوله سوف تتكون وتنتظم جميع الأعضاء الجسدية.

أما السلسة المذهلة من المعجزات القرآنية التى تبدت فى هذا الطور فقط فهى تبدو كما يلى:

المعجزة الأولى

الصـــورة الخارجية والهيئة الظاهرة للعلقة التى لم تزل بعد فى حجم حبة الأرز دون القدرة البشرية على رؤية تفاصيلها، فهى قد استطالت وتمددت فغدت أسطوانية كالدودة تماما بعدما كانت مكورة مستديرة فى طور النطفة، كذلك تبدل لونها فغلبت عليه الحمرة الدموية لكثرة تدفق دماء الرحم فيها مع بعض السواد لوجود الدم الراكد قبل جريانه عند تكونه لأول مرة فى هذا الطور، ويحدث هذا بدقـــة بأن تلتصق النطفة التامة التكوين والتي تسمى في هذه المرحلة: المتكيسة الجـــرثومية (BLASTOCYST) بجـــدار الـــرحم في اليوم السادس في بداية طور الحرث (الانغراس) (IMPLANTATION) حتى تتزرع تماماً. وتستغرق هذه العملية أكثـــر مـــن أسبوع حتى تلتصق النطفة بالمشيمة البدائية بواسطة ساق موصلة تصبح فيما بعد الحبل السري وهى فترة طويلة تعبر عن البطء فى التحول. بينما تفقـــد النطفة شكلها لتتهيأ لأخذ شكل جديد هو: العلقة، وهو جلى جدا فيما يفهمه العربـــى من لفظة العلقة، جاء فى لسان العرب: (العلق: هو ما اشتدت حمرته والقطعـــة منه علقة، وفي التنزيل (ثم خلقنا النطفة علقة)، والدابة التي تكون في المـــاء علقـــة لأنها حمراء كالدم، والعلق: دود أسود في الماء معروف والواحدة علقـــة، والعلقـــة: دودة في الماء تمص الدم، والجمع علق . العلق دويدة حمراء تكون في الماء تعلق بالبدن وتمص الدم وهي من أدوية الحلق والأورام الدموية لامتصاصـــها الدم الغالب على الإنسان، وقال أبو الهيثم العلوق ماء الفحل لأن

الإبـــل إذا علقت وعقدت على الماء انقلبت ألوانها واحمرت فكانت أنفس لها في نفـــس صاحبها...)[1] قلت: ومنه يبدو لك جليا الوصف القرآنى المعجز للجنين فى هذا الطور فهو مستطيل كالدودة تماما كما تقرر بعد التصوير الطبى كما أن لـــونه يتـــراوح بين الحمرة والسواد وهما لونان مشهوران للدم المسفوح والدم المتخثـــر اللـــذان يكـــونان معظم تركيبها الفعلى. وبالإضافة إلى ذلك فقد أظهر القـــرآن الكـــريم الـــتحول البطيء من النطفة إلى العلقة " فالدلالات الواردة في الآيـــات المذكورة فيما يتعلق بالفترة التي تتحول فيها النطفة إلى علقة،تأتي من حرف العطف (ثم) الذي يدل على انقضاء فترة زمنية طويلة نسبيا حتى يتحقق التحول إلى الطور الجديد.

المعجزة الثانية

العلاقة الحميمة بين الرحم وبين الجنين والتى بدأت تترسخ وتشتد فى هذه المرحلة بعد مرحلة الحرث التى عانى فيها الجنين محاولات الإنغراس والخوف المـــروع من هجمات مناعات الرحم، ففى هذا الطور يتحول الرحم من النزعة العدوانية المتحفزة إلى النزعة الحانية الرحيمة، فإذا العلاقة الآن علاقة عضوية حمـــيمة تقـــوم على المحبة والضم، وهذا المعنى العاطفى اللطيف يبدو جليا من المعانى التالية لمشتقات العلق والعلقة: (علق بقلبه علاقة بالفتح وكل شيء وقع موقعه فقد علق، ويقال علقت فلانة علاقة أحببتها و علقت هي بقلبي تشبثت به، وفـــي الحديث: (فعلقت منه كل معلق) أي أحبها وشغف بها، و العلاقة الهوى والحب اللازم للقلب، و تعلقها و تعلق بها و علقها وعلق بها تعليقا: أحبها، وقال اللحيانـــي: العلق الهوى يكون للرجل في المرأة، وقالوا في المثل: نظرة من ذي

(١) لسان العرب لابن منظور، باب: علق بتصرف واختصار.

علق: أي من ذي حب، وعلق حبها بقلبه هويها وقال اللحياني عن الكسائي: لها في قلبي علق: حب، و علاقة حب، واعتلقه اي احبه)

قلـت: كتبت النيوزويك الأمريكية: (ونحن كذلك نعلم أنه قبل فترة طويلة مـن ولادة الطفل فإن الجينات الوراثية تتزاوج مع بيئة الرحم فى تناغم وتلاحم غايـة فى الدقة والإحكام، إنها محاورة ثنائية الطريق لا تشتمل فقط على الهواء الـذى تتنفسـه الأم والمـاء الذى تشربه بل كذلك العقار الطبى والمكيفات التى تـتعاطاها والأمـراض التى تحملها بل وحتى الصعاب التى تواجهها فى الحياة وتعانى منها.) [1][2]

يقـول الله تعالـى: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)، فهاهو العلـم يكشف اللغة الخفية والمحاورات الهامسة والمداعبات الرقيقة بين الجنين والـرحم فـى غايـة الإنسجام والتفاهم، وبينما كان الإعتقاد الراسخ أنها علاقة جامـدة لا حـرارة فـيها إذا بالعلم وبأحدث التقنيات فى التصوير بين الظلمات وتحسـس أرهـف التغيرات يخرج بالعلاقة الحميمة واللغة الخافية بين الجنين الوافد الغريب والرحم المضيف بالحفاوة والتودد وحرارة الوفادة والإستقبال يالها من لغة.. ياله من عناق.

(١) لسان العرب لابن منظور، باب: علق بتصرف واختصار.

(٢) دافيد جيركى وأليس بارك: نيويورك، دان كراى، لوس أنجلوس التايم الأمريكية نوفمبر ٢٠٠٢

المعجزة الثالثة

وضـــع العلقـــة فـــى الرحم حينئذ ألا وهو التعلق به بمعنى التدلى توطئة للأطـــوار التالية نظرا لأنها أول المراحل بعد طور الحرث (الإنغراس) إذ يبدأ بتعلق الجنين بالمشيمة، ووصف القرآن الكريم هذا التعلق بالعلقة فهى معلقة أى مثبـــتة ملتصقة بأحد طرفيها بجدار الرحم أما البقية فمتحررة غير ملتصقة، ولا يخفاك أنه هذا يتفق مع المعنى (التعلق بالشيء) الذي يعتبر أحد مدلولات (كلمة علقـــة) قال ابن منظور: (علق الشيء بالشيء ومنه وعليه تعليقا ناطه، و تعلق الشـــيء: علقـــه مـــن نفسه، وفي الحديث (من تعلق شيئا وكل إليه)، و العليق: القضيم يعلق على الدابة، وجعل لها علاقة، و علقه على الوتد

وعلـــق الشـــيء خلفه كما تعلق الحقيبة وغيرها من وراء الرحل، و علق الثوب من الشجر علقا و علوقا : بقي متعلقا به)[1]

المعجزة الرابعة

التصاقها على الحالة السابقة بجدار الرحم والتزامه بحيث لا تنتقل متجولة أو هائمة فى تجويف الرحم شأن السلالة أو البويضة أو النطفة الأمشاج أو حتى الغرســـة فى طور الحرث، والحاصل أن طور النطفة بكافة أشكاله طور منطلق متحـــرك لا يقـــر ولا يهدأ للأسباب والحكمة الكبرى التى هيأه الرحمن لها وقد فصـــلناه فـــى موضعه فراجعه، بخلاف طور العلقة هنا فإن فيه قرار وسكون

(١) لسان العرب لابن منظور، باب: علق بتصرف واختصار

والتزام والتصاق لجدار الرحم تمهيدا للأطوار التالية المبنية عليه، بل والمتخلقة منه كما أسلفنا القول، وهذا الإلتصاق والتعلق بجدار الرحم والتزامه مشمول كذلك فى المعنى اللغوى للفظ القرآنى الفذ وهو العلقة. قال الجوهرى : (علقت الدابة إذا شربت الماء فعلقت بها العلقة، و علقت به علقا: لزمته)، وفي حديث أبي هريرة رئي وعليه إزار فيه علق، وقد خيطه بالأسطبة، وعلق الدابة علقا: تعلقت به العلقة)

المعجزة الخامسة

الطريقة التى تتثبت بها جذور العلقة فى جدار الرحم وتتشب به ألا وهى امتداد خلايا المشيمة التى تتسم بالنشاط والعدوانية حتى أنها تغزو فى جرأة واندفاع جدار الرحم وتحل محل الخلايا الرحمية فى موضع وجود العلقة وهى معان كائنة فى لفظة العلقة ومشتقاتها: (أعلق أظفاره في الشيء أنشبها، ويقال: علق العلق بحنك الدابة علقا إذا عض على موضع العذرة من حلقه يشرب الدم، علق بالشيء علقا

وعلقه: نشب فيه: قال جرير:

اذا علقت مخالبه بقرن أصاب القلب أو هتك الحجابا،

وفي الحديث: (فعلقت الأعراب به) : أي نشبوا، وقال أبو زبيد:

إذا علقت قرنا خطاطيف كفه رأى الموت رأي العين أسود أحمرا

وهـو عالـق به: أي نشب فيه، وقال اللحياني: العلق: النشوب في الشيء يكون في جبل أو أرض أو ما أشبههما، وأعلق الحابل : علق الصيد في حبالته، أي نشـب. ويقـال للصـائد: أعلقت فأدرك أي علق الصيد في حبالتك، وقال اللحيانـي: الإعـلاق وقوع الصيد في الحبل، يقال نصب له فأعلقه) قلت: هذه الحالة العدوانية للعلقة وكأنها أظفار أو مخالب تغزو بها جدار الرحم وتنشب به هـى أمـور كانـت غيـر معلومة بل غير متصورة حتى بعد اكتشاف العلقة والمضـغة وغيـرها من التفاصيل عن طريق المجاهر الإلكترونية حتى جاءت آخـر صيحات التصوير الطبى والتقدم الهائل فقط فى السنوات القلائل الماضية لتكشـف الحقيقة القرآنية المديرة للرؤوس حول الدور المثير للمشيمة فى تثبيت العلقـة بالطريقة المستحيلة القريبة من الغزو وإيقاع الخلايا الرحمية فى فخاخها وهى من عجائب قدرة الله، إذ يعدو الضعيف الواهن على القوى الممكن ويثبته ويغزوه وكأنه سبع أنشب أنيابه بفريسته العاجزة التى لا تحير حراكا

تقول د. سوزان فيشر عالمة الأجنة الحيوية فى جامعة كاليفورنيا وسان فرانسيسكو:

(أمـا الحلقـة الخارجـية مـن الخلايا والتى تشتمل على المشيمة، فإنها عدوانية إلى أقصى درجة وتسلك سلوك الخلايا السرطانية بأن تغزو جدار الرحم وتنفتح على الأوعية الدموية للأم الحامل. إن هذه الخلايا النشطة تحل فى النهاية محـل خلايا الأم التى تكون الجدران الداخلية لشرايين الرحم، إنها تحول جهاز المناعة الخاص بالأم للتكيف مع وجود الجنين بدلا من طرده باعتباره كتلة من النسـيج الغريب عن الجسم. وهكذا تعد المشيمة شرطيا صارما لتنظيم المرور،

ووظيفتها الكبرى فى أنها تترك ما ينفع الجنين فى الداخل وما يؤذيه ويضره فى الخـــارج. إن المشـــيمة تقود ــ دون حد ــ فصائل الخلايا القاتلة الطبيعية فى دماء الأم لتفرض حمايتها وتتضافر مع ملايين المضخات الجزيئية الدقيقة التى تطرد السموم قبل تمكنها من تدمير الجنين الذى لا حماية له.) قلت: إذن صارت المشـــيمة هـــى الجـــندى الربانى الفذ ذو المهمة المستحيلة، من كان يدرى بهذه الطبـــيعة العدوانية من نسيج ناشىء للتو فى كائن شديد الضعف ومباشرة عقب الـــنجاة من هلاك رحمى محقق عبر هجوم قاتلات المناعة أو مضادات الأجسام الغريبة ولكن القرآن المعجز ضمن هذا المعنى المذهل فى اللفظ المعجز ومعانيه الكثيرة التى تسع كل ما قدمناه وكل ما سوف يأتيك فتدبر.

المعجزة السادسة

أنها كثيرة الخلايا بما لا يقارن بالأطوار التى سبقتها فإنك تلاحظ أن طور الـــنطفة من أول الحيوان المنوى (السلالة) والبويضة مرورا بمرحلة التخصيب وحـــدوث طور النطفة الأمشاج (الزيجوت ــ البويضة المخصبة) وانتهاء بطور الحـــرث (الإنغراس) والذى يبدأ بانقسام النطفة الأمشاج إلى خليتين فأربع فثمان فست عشرة خلية إلى المتكيسة الجرثومية ذات الإثنتين وثلاثين خلية. ولا يخفاك ظهـــور العـــدد المحدود للخلايا بل وقوعها تحت الحصر كما ترى إلى الإثنتين وثلاثين خلية، فأما فى طور العلقة فبينما (الطبقة الوسطى) تمتد فإنها تتداخل مع خلايـــا (الطبقة الخارجية) . وبسرعة فائقة تلتف هذه الخلايا لتصوير (تجسيم) الأنـــبوب العصـــبى الذى يعد المقدمة البدائية لتكوين المخ والنخاع الشوكى أى الجهـــاز العصـــبى بتمامه . كل هذا بالتزامن مع زحف الطبقة الوسطى، الذى

يؤدى إلى تكوين تجمع من الخلايا على كل طرف للجنين الذى استطال وتحول إلى شكل الدودة (العلقة)، تجمع خلايا فى الأعلى لتكوين الفم والآخر فى الأسفل لتكوين الشرج .

وغنى عن البيان أن أعداد الخلايا المتميزة المذكورة تتكاثر بصورة يصعب إحصاؤها وهو صريح فى معنى العلقة قال ابن منظور فى لسان العرب: (العلق: الجمع الكثير) والحاصل أنها تخرج فى هذا الطور من جمع الخلايا المحصور إلى جمع الخلايا الكثير والذى لا وجه لمقارنته بكل المراحل التى سبقته.

المعجزة السابعة

أن لفظ العلقة لا يفهم منه فقط معنى تغذى العلقة على الدماء كما تقدم بيانه، ولكن، وياللإعجاز، بين الطريقة الدقيقة التى تتمكن بها العلقة من الحصول على هذا الغذاء ولا يخفى أن وسائل الكائنات فى الوصول إلى غذائها تتباين تباينا واسعا من الإبتلاع إلى الإفتراس إلى الإمتصاص إلى التشرب وغيرها من وسائل تلقى الكائنات لغذائها بما يجعل تحديد نوع بذاته من وسائل التغذى لكائن فى حجم حبة الأرز هو معجزة دامغة لا فكاك من الإذعان لها، وهو القائم هنا فإن لفظ العلقة إنما يحمل الطريقة التى تحصل بها العلقة على غذائها ألا وهى الإمتصاص بعد الإلتصاق بجدار الرحم فهو مصاصة للدم كالدودة السالفة الذكر وهو مقرر فى المعانى اللغوية المتشعبة للفظة العلقة : (الإعلاق إرسال العلق على الموضع ليمص الدم وفي الحديث: (اللدود أحب

إلـــي من الإعلاق) وفي حديث عامر: (خير الدواء العلق والحجامة)، والصبي يعلـــق: يمص أصابعه، قال الأزهري ويقال للشراب عليق...) والمعنى المتكرر هاهنا إنما يدور على الإمتصاص، وبه تكون العلقة كائنا مصاصا للدماء الغزيرة المتدفقة عليه من جدار الرحم المدرار، وهو الحق فتأمل.

المعجزة الثامنة

أن العلقـــة كـــائن مجهز وظيفيا ليتمكن من هذا الإمتصاص بمعنى أنها لا تتشرب الدماء تشربا ولا تبتلعها ابتلاعا بل تمتص بآلية فسيولوجية منتظمة أشبه مـــا تكـــون بالنبات الذى يمتص غذاءه من الأرض كما تقرر فى موضع آخر، وهـــذه الآلـــية معلومة كذلك من معانى العلقة فى اللغة العربية فإن لفظة العلقة تطلـــق عند العرب على كل آلة مركبة تستخدم فى رفع المياة من الآبار وهو ما يحدث للعلقة المثبتة فى جدار الرحم الذى يضخ من أعماقه الدماء ولديها الوسيلة الفســـيولوجية لامتصاصه كما لو كانت آلة مجهزة للإمتصاص دون توقف: (و العلـــق الذي تعلق به البكرة من القامة، يقال أعرني علقك: أي أداة بكرتك وقيل العلـــق البكـــرة والجمع أعلاق، وقيل العلق: أداة البكرة وقيل هو البكرة وأداتها يعني الخطاف والرشاء والدلو وهي العلقة، و العلق الحبل المعلق بالبكرة، وقيل العلق الحبل الذي في أعلى البكرة، قال الأصمعي: العلق اسم جامع لجميع آلات الاستقاء بالبكرة، ولا يكون العلق إلا السانية وجملة الأداة من الخطاف والمحور والبكـــرة والنعامتين وحبالها كذلك حفظته عن العرب) قلت: فظهر مما تقدم أن العلقـــة تطلـــق على جميع مركبات آلة الإستسقاء وتأمل مقارنة العرب لنوعية الإستسقاء ألا وهى الآلية المعقدة لرفع الماء من عمق الآبار إلى سطح الأرض

حتـــى يـــتم الإنتفاع به، وهو مطابق تمام المطابقة لآلية تغذية العلقة فى الرحم، فإنهـــا تمـــد جذورها فى الطبقة العليا من جدار الرحم كى تتمكن من امتصاص الـــدماء بآلـــية السحب رافعة إياها لتمتصها من برك أوعية الدماء المنتشرة فى جدار الرحم، فتأمل.

المعجزة التاسعة

أنهـــا قـــادرة علـــى البقاء مع القليل من الغذاء بالمقارنة بالمراحل الكثيرة التابعة لها، وأنها مؤهلة للإفادة من الغذاء فى جدار الرحم كائنا ما كانت وفرته أو ندرتـــه، قانعـــة بمـــا يكون فيه من غذاء قل أو كثر، وفى كل أحوالها باقية مواصـــلة، وهـــو معنـــى للعلقة كذلك مأخوذ من اللسان العربى، جاء فى لسان العـــرب: (وكل ما يتبلغ به من العيش فهو علقة، ويقال: لم تبق لي عنده علقة، أي: شـــيء .والعلقـــة من الطعام والمركب: ما يتبلغ به وإن لم يكن تاما، ومنه قـــولهم: إرض من المركب بالتعليق، يضرب مثلا للرجل يؤمر بأن يقنع ببعض حاجته دون تمامها، كالراكب عليقة من الإبل ساعة بعد ساعة، ويقال هذا الكلام لـــنا فيه علقة: أي بلغة، وعندهم علقة من متاعهم: أي بقية) قلت: وسواء كانت قلـــة الغـــذاء الكافى للعلقة راجعة لقلة ودقة حجمها بالنسبة لغيرها من الأطوار التالية، أو كانت راجعة لإمكاناتها واستعدادها على الصبر على حال جدار الرحم الناشـــبة فـــيه وسواء كان غنيا بالدماء أو فقيرا بحسب حالة المراة الحامل من صحة أو سقم أو قوة أو ضعف، فالحاصل أن لفظة العلقة تفيد التبلغ بالقليل من الغـــذاء والصبر عليه، وهو مطابق كما لا يخفى لحالة العلقة الضئيلة الضعيفة المتخلقة عقب الطور المجهري للجنين، فتدبر.

المعجزة العاشرة

أنها إنما تتلقى غذاءها عن طريق جزء معين فيها خاص بهذه الوظيفة ألا وهـو الخلايا المشيمية الماصة الممتدة كالجذر فهو منها بمثابة الفم لغيرها من الأحـياء فإنـه يقوم بمهمة تناول الغذاء بالنسبة للحيوان وهو مأخوذ من المعنى العربـي للعلقة وهى قولهم: (والعالق أيضا الذي يعلق العضاه، أي ينتف منها، سمي عالقا لأنه يعلق العضاه لطوله، وعلقت الإبل العضاه تعلق بالضم علقا إذا تسنمتها: أي رعتها من أعلاها وتناولتها بأفواهها، وهي إبل عوالق، والبهم تعلق من الورق: تصيب، وكذلك الطير من الثمر، وفي الحديث: (أرواح الشهداء في حواصـل طيـر خضـر تعلق من ثمار الجنة) قال الأصمعي: تعلق أي تناول بأفـواهها، و العلـوق: مـا تعلقه الإبل أي ترعاه....) قلت: فتبين مما تقدم أن المعنـى المعـتمد عند العرب للعلقة كطريقة خاصة للتغذية هى: (نتف) أعالى الشـجر، التـناول بأفـواهها، ولا يخفـاك كون العلقة فى جدار الرحم بالخلايا المشـيمية الحالـة محـل الخلايا الرحمية فاتحة أفواهها لتلقى الدماء من أعالى الطـبقة العليا من جدار الرحم أى أنها لا تتناوله من الأعماق بل مجرد الطبقة الخلـوية العلـيا وهـى مناسبة أيما مناسبة لقول العربى فى الإبل (رعتها من أعلاهـا) (ينـتف منها) (تناولتها بأفواهها) فما العلقة إلا كائن حى يعلق الجدار الرحمى (من أعلاه) بأفواه كثيرة ممتدة فى الطبقة العليا من الجدار الرحمى، أما الأوعـية الدموية التى تتغذى العلقة من أعلاها فقط فما أشبهها بغابة كثيفة من العضاة (نبات طويل) كالعروق الطويلة التى لا تمس العلقة إلا أعلاها وفيه من الشبه اللصيق بالحقيقة العلمية ما فيه فتأمل.

المعجزة الحادية عشرة

أنهـا إنمـا تتحصل على هذا الغذاء بإحداث خرق فى جدار الرحم مثبتة جـذورها فـى هذا الخرق فاسحة المجال لخلاياها المشيمية الماصة للعمل دون هـوادة، وقـد تبـين لك سابقا من شرح دور المشيمة هذا الجانب العدوانى فى تعاملهـا مـع جدار الرحم فراجعه علميا ثم راجعه الآن لغويا لتقف على حجم المطابقة بين هذا اللفظ الواحد العجيب جدا والذى استخدمه القرآن الكريم للتعبير الهائـل المـذهل المحيط عن ظاهرة علمية بهذا الحجم من التشعب والتنوع فى الشـكل والصـفة والوظيفة والهيئة، جاء فى معنى هذا العمل للمشيمة فى جدار الـرحم ما معناه فى كلام العرب فيما يتعلق بالعلقة: (العلق الخرق وهو أن يمر بشـجرة أو شـوكة فتعلق بثوبه فتخرقه، و العلق الجذبة في الثوب وغيره وهو مـنه) قلـت: ولا شـك أن العلقة عندما تبدأ العمل فى الغزو والتغلغل من أجل التثبيت والنشوب، فهى إنما تحدث خرقا فى جدار الرحم جاذبة الخلايا الرحمية وغازية بطريقة سرطانية مكانها، فالحاصل أنها تخرق فى جدار الرحم وتجذبه تاركة خرقا فيه فاعرفه فهو نفيس جدا فى بيان المعجزة القرآنية فى اختيار لفظ بديع ثرى المعنى غنى التعبير على هذا الحجم.

المعجزة الثانية عشرة

إنهـا عـندما تمـد جذورها فى جدار الرحم فلا يلبث أن يرجع دماءه فى أفـواهها تمامـا كما يضع المرء إصبعه فى فمه ليتقيأ، فهو وصف قرآنى ممتد للـرحم وأثـر وجود العلقة عليه من ردة فعل وتجاوب رحمي لضخ دمائه إلى

خارجه باتجاه العلقة وهو غير معتاد فى عمل الدورة الدموية الصحيحة المحكمة الإنغلاق فى جسد الإنسان، إذ يمثل أى خرق أو إصابة فى أى من الأوعية الدموية نزيفا دمويا يستلزم الإسعاف الفورى، أما فى هذه الحالة فخروج الدماء إلى خارج الدورة الدموية الرحمية باتجاه العلقة عمدا كاستجابة من الرحم لنداء العلقة أشبه ما تكون بتقيؤ المرء للطعام من داخل جوفه إلى خارجه عبر فمه، وهو صريح المعنى من مشتقات العلقة فى كلام العرب وهو: (قولهم أعلقت علي إذا أدخلت يدي في حلقي أتقيأ....) قلت: فهنا يمتد الوصف ليس للعلقة وأحوالها ومجمل نشاطها فحسب، بل لأثرها فى الرحم خارجيا بإحداث الخرق فى جداره وداخليا فى التسبب فى الإرتجاع الدموى من الرحم إلى خارجه كما يتقيؤ المرء طائعا بإدخال الإصبع فى فمه لاستجلاب القيء وتأمل المشابهة بين الإصبع وبين العلقة من جانب، وبين الفم وتجاويفه والرحم وتجاويفه من جانب آخر، وسبحان من شهد بالعلم الربانى فى هذا الكتاب دليلا لا يكذب على أنه من عند الله تعالى وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا)

المعجزة الثالثة عشرة

أن العلقة ذات عمر قصير ولا تدوم طويلا على هذا الحال فسرعان ما تنتقل من طور إلى طور آخر وأقربه لها طور المضغة فهى لابثة قليلا من عمر الزمن، وقد أسلفنا القول بأن الله تعالى وصف هذه المرحلة بكاملها عاطفا التخلقات المتتابعة بالحرف العربى الدال على التطور السريع وليس البطىء وهو حرف العطف (الفاء)، فالعلقة فى الشبه كالنبات، ثم هى كالنبات الذى لا يلبث

طـــويلا، ثم هى كالنبات الذى ينمو ويعيش فى الجو الحار القائظ نظرا للحرارة العالـــية الناجمة عن تدفق الدماء الغزيرة الحارة فى جوف الرحم، وهو ما عبر عنه القرآن بالحرف التعقيبى (الفاء)، فلا تلبث أن تتحول إلى طور آخر منتهية ســـريعا وماذكرناه معلوم من معانى العلقة فى كلام العرب، قالوا: (العلقة: نبات لا يلـــبث، و العلقـــة: شـــجر يبقى في الشتاء تتبلغ به الإبل حتى تدرك الربيع، والعلقى : شجر تدوم خضرته في القيظ ولها أفنان طوال دقاق وورق لطاف...) وتأمـــل المطابقـــة بين النبات والعلقة، وتأمل المطابقة بين اللبث اليسير للنبات والعمـــر اليسير للعلقة فى الرحم، وتأمل المطابقة بين النبات المزدهر فى القيظ أى الحـــر الشـــديد والعلقة المزدهرة النامية فى قيظ الرحم أى حراراته الشديدة نظرا لامتلائه بالدماء الحارة التى تضخ فى جدرانه دون توقف.

المعجزة الرابعة عشرة

من أعظم معجزات المصطلح العلمي القرآني أنه يعبر عن الحقيقة العلمية من كافة جوانبها، بحيث إذا تم النطق باللفظ القرآنى (علقة) فهم السائل كل شىء عـــنها، وهنا نجد هذه اللفظة العجيبة شارحة للباطن ذو الطبيعة الدموية للعلقة، وهو ظاهر فى المعنى العربى: (والعلق: الدم عامة، والشديد الحمرة أو الغليظ أو الجامد[1]،. ويضاف إلى ذلك أن العلقة تطلق على: الدم الرطب [2]. و العلق الدم ما كان، وقيل الجامد قبل أن ييبس، وكل دم غليظ علق) وطبقاً لمعنى (دم

(١) لسان العرب ج١٠ ص٢٦٧-٢٦٨، الصحاح للجوهري ج٤ ص١٥٢٩، مقاييس اللغة ج٤ ص١٢٥، المعجم الوسيط ج٢ ص٦٢٣، القاموس المحيط ج٣ ص٢٧٥، المفردات للأصفهاني ص٣٤٣.

(٢) نظم الدرر ج١٣ ص١١٥، زاد المسير ج٥ ص٤٠٦، مجموعة التفاسير ج٤ ص٣٣٦، روح المعاني ج٣٠ ص١٨٠، فتح القدير ج٥ ص٤٦٨، البحر المحيط ج٦ ص٤٦٨، الجامع لأحكام القرآن.

جامد أو غليظ) للفظ العلقة، نجد أن المظهر الخارجي للجنين وأكياسه يتشابه مع الدم المتخثر الجامد الغليظ لأن القلب الأولي، وكيس المشيمة، ومجموعة الأوعية الدمـوية القلبية تتكون بصورة بدائية فى هذا الطور، وتكون الدماء محبوسة في الأوعـية الدمـوية حتـى وإن كان الدم سائلاً، ولا يبدأ الدم دورته فى الجسم كالمعـتاد حتى نهاية الأسبوع الثالث، وبهذا يأخذ الجنين فى طور العلقة مظهر الـدم الجامـد المتخثر الغليظ مع كونه فى الحقيقة دماً رطباً. وتتدرج الصفات المذكورة تحت المعنيين المذكورين للعلقة (دم جامد أى متخثر) أو (دم رطب أى سائل).

المعجزة الخامسة عشرة

أنهـا فـى حال حياتها لا تنفك عن الإمتصاص ليلا ولا نهارا فهى دائمة الإمتصاص بل فى الحقيقة إن العلقة ليس لها وظيفة إلا الإمتصاص فهى سريعة النمو سريعة الإمتصاص وهى طور انتقالى سريع التحول وإنها لتقضى عمرها حيث لا تكف عن العمل الدؤوب لا وهى عملية الإمتصاص وهو المعنى الظاهر عـن العلقة من المعنى العربى لها قال ابن منظور : (علق فلان يفعل كذا: ظل، كقـولك: طفـق يفعل كذا، وفي الحديث فعلقوا وجهه ضربا أي طفقوا وجعلوا يضـربونه) وتأمل قوله علق يفعل أى ظل يفع وطفق يفعل أى أنه لا يكف عن الفعـل فـى نشـاط ودأب تتأمل الحديث الشريف فعلقوا وجهه ضربا أى ظلوا يضربونه دون توقف ولا انقطاع فى همة واندفاع وهو مطابق لفعل العلقة التى علقـت تمتص أى ظلت تقوم بالإمتصاص والنمو والتغير من يوم ليوم بل من سـاعة لسـاعة فما أعظم هذه اللفظوة الجامعة المحيطة بالمعانى الهائلة التى لم

يكن أحد يعلمها ولا حتى بعد اختراع المجاهر وإنها لبينة ساطعة دامغة مبينة لا يحجدها إلا من طبع الله على قلبه وطمس على بصسيرته وكان من الصم البكم الذين لا يعقلون.

•••••

ومـــن جملة ما تقدم فإن التعبير القرآني "علقة" يعتبر وصفاً علميا متكاملاً دقيقاً إلى درجة تبعث على الإنبهار والذهول عن طور العلقة مشتملا على دقائق العملـيات الحيوية الأساسية الخارجية والداخلية. صروف غيبية ودقائق وعلوم وشروح ما كان لبشر أن يعلم عنها شيئا قبل هذا . مَنْ على كوكب الأرض فى عهـد نـزول القرآن العظيم كان يعلم بتحول هذه (الدودة) الكامنة فى الأعماق السحيقة وسط غيابات الرحم المظلم والتى لا تكاد تحس أو ترى؟؟

كـيف أمكـن الفصـل بـين طورين من حياة الجنين فى أحجام مستحيلة الوصـف، مستحيلة الرؤية، بدءً من رأس دبوس فى بحر من دماء المشيمة إلى حبة الأرز فى غابة من تضاريس بطانة الرحم؟؟؟

كيف أمكن الوقوف المستحيل على الشكلين والتمييز المبهر المعجز بينهما فـى التسمية والوصف الذى يشرح الشكل الخارجى جنبا إلى جنب مع الوظيفة والـتكوين الداخلـى، إذ أحـدهما كرة فكان نطفة أى: قطرة، والثانى اسطوانة مجهرية فسمى (علقة) أى: دودة مستطيلة؟

كـيف تمـت الرؤية المجهرية المعقدة لشرح دقائق التصاريف الكيميائية والتشـريحية والفسيولوجية فى عالم من العماية التامة والجهالة المطبقة والظلام الدامس؟؟

كـيف علـى كـوكب الأرض أمكن لهذه (الدودة ـ العلقة) ـ التى يمكن اعتبارها بالكاد كائنا حيا ـ أن (تعرف) ماذا ينبغى عليها أن تعمله، بل وتعمله فى اقتدار وإبداع يعجز عن فهم أسراره العميقة أساطين العلم فى عالمنا الزاخر بالأفكار والتقنيات والعلوم؟

كيف تسلك فى دروب الرحم المجهولة الشاسعة بين ظلمات عمياء مطبقة ووسـط غابـات كثيفة موحلة، وتحت بحار دماء الرحم المتلاطمة المغرقة فى هداية صاعقة ودون خطأ أو زلل نحو الهدف المقصود والوعد الموعود؟؟

إن الإجابات على هذا السيل من التساؤلات بقدر ما هى بسيطة فإنها هادرة مدوية صادمة لقلوب أشد الكافرين كفرا وأعتاهم عنادا وأصلبهم استعصاء على الحق البارق وتجبرا وصدودا .

يقول الله تعالى: (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)

معجزة تصوير الإنسان

عجائب قدرة الله تعالى فى عالم الأرحام

يقول الله تعالى "وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة"

يقول الذي أحسن كل شيء خلقه "وبدأ خلق الإنسان من طين"

فـــى تسعة أشهر حافلة بأشد الأحداث إثارة وروعة يخوض الجنين رحلته المذهلـــة من عالم البرزخ فى الرحم إلى عالم الحياة، الجنين الذى يسابق الزمن ســـرعة وتوثـــبا على الطريق العجيب نحو دخوله العظيم إلى عالمنا المتماوج كالـــبحار الثائرة، وقد سلح بأمضى الاسلحة والدفاعات الربانية المعززة لرحلته القادمـــة العاصفة فى عالم الشهادة ابتداءً بالزيادة الكبيرة فى وزنه وحجمه، ذلك أن الأعضاء جميعا تكتمل وتتم فى الشهر الثالث ويقطع الجنين بقية الرحلة وهى ســـتة أشـــهر فى زيادة الوزن بما يلائم تبعات مرحلة الحياة الأرضية، ومجهزا بمخـــزون مـــن مواده الغذائية اللازمة للطوارىء والأحداث العصيبة ومختزنا الخلايـــا المناعـــية المقاومة للأمراض والتى تضخها الأم فى ثبات وتتابع عبر المشيمة والحبل السرى.

لقـــد تقـــدمت التقنيات فى تطور جذرى يعد ثورة حقيقية فى عالم المعرفة الطبية، وكان فى طليعة هذه الثورة العلمية وعلى رأس هذه التقنيات تقدم فاصل فـــى مجـــال التصـــوير الطبى وسواء بالاشعة المقطعية الحاسوبية CTscan التى تغوص إلى الأعماق كاشفة الجسد البشرى بأدق تفاصيله الخفية فى سلسلة رائعة

من الصور على هيئة شرائح بأى عدد لا تخفى بعدها خافية، أو الأشعة بالرنين المغناطيسى MRI والتى تجسد الصورة بالأبعاد الثلاثية وبتفاصيل ودقائق عند غاية التبيان والكشف، وأما الفارس الثالث الذى لا يشق له غبار فهو الأشعة فوق الصوتية Ultrasonography إذ أثبتت جدارة فائقة فى هذا السباق العلمى الحافل وإذا بها فارسها المجلى وقطب دائرتها نظرا لما تتميز به فوق الكفاءة والفاعلية بأنها واحدة من الوسائل الطبية النادرة التى لا أضرار لها سواء على المريض او الطبيب حيث تعتمد تقنيات (الخفاش) للرؤية فى الظلام عن طريق عكس الصوت وتحويله إلى موجات كهربائية لرسم صورة الهدف المستحيل الغارق فى بحر من الظلمات فسبحان من علم الخفاش مالم يعلم.

وقد خدمت هذه الاشعة نوعا مثيرا من المعارف الطبية فى الأمراض التى كان من المستحيل التعرف على خباياها نظرا لوجودها فى أعماق مظلمة من الجسد البشرى لا يمكن الوصول لها بأى من الوسائل التى عرفها الإنسان فى أى عصر من العصور

من النطفة إلى الولادة

أيات فى إثرها آيات

امـــا الصـــدمة المزلزلة التى تبدت بسبب هذا النوع من الاشعة فهى سيل المعجـــزات المتدفق فى كتاب الله تعالى بكم من العلوم يستعصى على الإدراك البشـــرى فى كافة العصور قاطبة قبل اندلاع هذه الثورة الطبية التصويرية منذ ســـنين عـــددا، وخاصـــة فى مجال نشأة الإنسان إبان الحياة البرزخية فى عالم الأجنة، أما طريقة رؤية الآيات فبقدر ما هى بسيطة ساذجة بقدر ما هى مذهلة صاعقة فى النتائج الهائلة التى افترت عنها إذا تغوص بالإنسان فى ظلام مطبق ليرى ما لم يكن يخطر على قلبه ولا رأته عينه ولا سمعته أذنه طوال الأحقاب المـــتطاولة من وجوده على هذا الكوكب، إن المسبار اللامع المبهر والذى يحمل الكاميرا الدقيقة ينساب بيسرعبر بطن الأم الحامل والتى يمكنها ان تنظر بعينين مفتوحتـــين إلى شاشة الفيديو المنبسطة على الحائط، إنها تبرز رأسا يحمل فما بديعا وعينين رائعتين، وأنها تستطيع رؤية زوجين من الأيدى والأرجل تنتهيان بكفين وقدمين دقيقتين، أنها تستطيع فى غمرات دهشتها أن ترى العمود الفقرى المنحنـــى وقنطـــرة الأنف، وأما الأهم والأجمل فهو تأملها ورؤيتها للحركة، فم جنينها يمتص، قدماه تضربان، وكفاه تتماوجان، وما أن يبدا الطبيب فى تشغيل المؤثرات الصوتية حتى تتمكن الأم فى سعادة ذاهلة من سماع ضخ الدماء منها

إلـــى جنيـــنها عبر الحبل السرى، كما تنصت فى شغف عاشق للدقات السريعة للقلب الناشىء الصغير.

بـــل إن إحدى الأمهات عبرت فى دهشة بينما يعبر جهاز التصوير فوق الصـــوتى تحت جلد جنينها وهى تصرخ: (إن قلبه فى الجهة اليسرى كما ينبغى أن يكون، وله أربع حجرات انظر: واحد اثنين ثلاث أربع)، هذه الصور الباهرة المذهلـــة التى تهتز فى الرحم فى المراحل المختلفة من عمر هذا الفرخ البريء المســـتقر فـــى دعـــة وسلام بين نعيم الرحم الدافىء، إنما تقع على خط الجبهة الأمامى لتلك الثورة الطبية الكيميائية التى تنزل تغييرات جذرية سريعة وحاسمة بكـــل أفكارنا وتصوراتنا ومعارفنا حول هذا العالم الغامض الحالم، عالم ما قبل الولادة. وبرغم أنها رحلة قصيرة بما لا يقارن إذا ما قورنت بحياة الإنسان على الارض و لا تســـتغرق سوى تسعة أشهر لتمام تكون الجنين فإننا نعلم اليوم أن أشد خطوات النمو أهمية ومن بينها وضع الأساس المتين للأعضاء الكبرى مثل القلب والرئتين والمخ إنما تتم قبل نهاية الشهور الثلاثة الأولى.

إن الصور المذهلة للجنين إنما نقلت عن كتاب جديد أحدث عاصفة لا تهدأ فى سماء العلم بينما يبرز بالالوان الناطقة المثيرة هذا العنوان البليغ (من النطفة إلى الولادة ــ حياة بلا مشاكل) والذى تقوم بنشره مطبعة إيبرى فى إنجلترا و ينشـــر بواســـطة درومار فى ألمانيا، جروب ٦٢ فى أسبانيا وغيرها من البلاد الأوروبـــية) تصـــوير المصـــور ألكساندر تيسياراس والكاتب بارى ويرث، إن الكمبيوتـــر (الحاســـوب) الفذ الخاص بهم إنما يعيد إلى الذاكرة الصور المعبرة

المزلزلة والتى التقطت عن طريق المصور الطبى الشهير ليونارد نيلسون والتى ظهرت فى مجلة الحياة عام ١٩٦٥م، تلك التى أوردنا لك بعضا منها أيضا، كما أثبتنا بالصور العلمية النادرة الأخرى من كافة المراجع المعتمدة فى فروع الطب والأجنة فى هذا المصنف فحاز المساعى جميعها من أول هذا الفتح العلمى الهائل حول التصوير التفصيلى الثابت والمتحرك للجنين فى بطن أمه وإلى آخر ما وقفت عليه تقنيات التصوير الحاسوبى الفذ، الأمر الذى وضع الآيات القرآنية المتحدية فى إعجازها فى بؤرة الأحداث حتى خرَّ أمامها أئمة العلم التجريبى وائمة علوم الطب والأجنة سجدا وبكيا

حياة الرحم تثير ذهول العلماء

السبب الآخر فى معرفتنا كثيرا جدا حول ما يجرى داخل الأرحام أن الباحثين بصورة متقدمة وملحوظة قد قطعوا شوطا بعيدا فى سبر أغوار سلسلة الإشارات الكيميائية التى تقود عملية نمو الجنين وتطوره. إن العلماء الآن يمكنهم الوصول الدقيق إلى مستوى الجينات والجزيئات الكيميائية المفردة لكثير من الخطوات التى تتحكم فى بناء الإنسان، من أول بناء محور النمو من الرأس إلى الذيل،مرورا بتبرعم الأطراف ونباتها، إلى التصوير المهيب للقلب ذو الحجرات الأربع والتماوج المذهل لبلايين الإتصالات العصبية المتضافرة .

لقــد بــدأ العلماء فى كشف أسرارالخريطة الجينيةالأولى للحياة والتحديد الدقيق الوسائل الجزيئية الكيميائية الضرورية لتركيب البناء. يقول ماتيو سكوت الباحث البيولوجى فى جلمعة ستانفورد:

(إن تنامـــى البشر داخل الرحم لم تعد بعد علما معقدا مستحيل الفهم، إنها فقــط تبدو مذهلة ومثيرة للدهشة مع كونها رائعة، وكيف كانت فنحن مدعوون لغايــة الــتعجب كيف أن هذه البويضة المخصبة والتى لا تعدو أن تكون مجرد قطــرة مــن البروتوبلازم والدنا DNAمحوصلة فى درع كروى مجهرى، كيف يمكــنها أن تنشىء مثل هذا الكائن المعقد المترامى العجيب، إن الإجابات برغم كونها غير تامة وغامضة بدأت تتضح وتقترب من بؤرة اليقين).

ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت

فقط منذ ٢٠ عاما مضت كان معظم الباحثين البيولوجيين فى علوم الأجنة يعــتقدون دون ريب أو شك أنه لا علاقة للجنين وما يحدث له بأى من الكائنات الدقــيقة والتى تنمو طبقا لمجموعة صارمة من القوانين الكيميائية والبيولوجية، وعليه تصوروا أن تجشم محاولة فهم كيفية تنامى جنين الذبابة أو الدودة أو حتى الفقاريــات مثل الدجاجة أو السمكة لا تفيد ولاتخدم إلا قليلا فى إضاءة الطريق لمعــرفةالتطورات المعقدة فى نمو البشر . ولكن فى عام ١٩٨٠م وجد الباحثون تشــابها واضحا ومذهلا فى مفاتح العملية الجزيئية والمطبقة على كافة الكائنات الدقــيقة المنتشرة بعرض المملكة الحيوانية بغض النظر عن الجنس أو الفصيلة، بما أثبت كشفا هائلا لا يكاد يصدق .

إن قــدرة الخلــق المهيمنة فى الجميع تتجلى بنفس الأدوات ونفس الآلات ونفــس الوسائل، نفس المسامير والمفكات، نفس المطارق ووسائل الطاقة التى تضع الجنين فى حيز التنفيذ من العدم المحض إلى روعة الحياة وتدفقها. الأمر الــذى يجــزم دون مــرية أو لجاج بوحدة الخالق العظيم ويشير دون ريب إلى عظمــته وعــزته، كيف وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز (ما ترى فى خلق الــرحمن من تفاوت) فوحدة القصد من الخلق ووحدة الغاية ووحدة الوسيلة إليها قاطعــة بوحدة الصانع والقدرة الصاعقة فى خلق الله تعالى، دع عنك خزعبلات أولــئك الذين ينسبون ذلك إلى (الطبيعة) ظلما وتهتكا وتهافتا وعلوا حتى قالت الــتايم الأمــريكية (إن الطبــيعة (هكذا) تستخدم نفس المسامير ونفس المفكات) وغنــى عــن البيان افتقار هذا القول لأدنى مسحة من عقل أو إدراك أو علم أو إنصــاف، والأدلــة على نقضه لا تحصى عقلا ونقلا وقد بسطت مستفيضة فى مــباحث العقــيدة والــرد على الدهريين والدارونيين والطبيعيين بما يغنى عن إعادتها هاهنا، وإن الإنسان ليعجب أشد العجب من منطق هؤلاء الذى يستعصى علــى الفهــم بيــنما تقــرعهم الحقائــق المزلزلة لأشد القلوب قسوة وتحجرا، والصــارخة فى تلاحق بالصوت العالى تحت عدسات المجاهر وبين طيات أدق الكائــنات وأمــام عــيون الكاميــرات دقيقها وعظيمها، فالكون كله نشيد واحد ومعــزوفة بليغة تسبح بذكر الخالق الحكيم الجليل الجميل العظيم تعالى الله عما يشركون (أإله مع الله تعالى الله عما يشركون)

هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه

والأمر المثير لأشد حالات الإنبهار والذهول هو معجزة أسرار الجنين فى تـوريث المحـتوى الجينى والخلايا العجيبة التى تقوم بتكوينه عبر خيوط الدنا DNA السابحة فى أنبوبة إختبار أو الخلايا الجذعية النامية فى طبق معملى.

إن الجنـين قادر ليس فقط على مجرد بناء بروتين مفرد تائه أو بقعة من الأنسجة الباهتة، بل ــ وياالله العجب ــ يتحول إلى بناء كائن حى كامل تعمل فيه كل خلية فى منظومة متناغمة وتعرف دورها الهام كجزء فاعل من الكل المعقد المتلاطم كموج البحار، يقول بروفيسور سياراس وويرس فى مقدم كتابه المثير:

(تخـيل نفسـك كأطول ناطحة سحاب فى العالم وقد بنيت فى تسعة أشهر بصورة فوق التصور وقد تولدت من لبنة واحدة، والأعجب إذا ما انقسمت هذه اللبـنة الواهـنة إذا هـى تفرز كل نوع من المواد الموغلة فى تنوعها وتباينها وخصائصها اللازمة لتشييد وتشغيل هذا البرج المشيد، مليون طن من الصلب، الأسـمنت والملاط والسباكة والأسلاك والخشب والجرانيت والمذيبات والسجاد والكـابلات الكهـربائية والـزجاج والأثاث ونظام الإتصال التليفونى ووحدات التسـخين والتبـريد والأسـلاك الكهـربائية والأعمال الفنية التجميلية وشبكات الكمبيوتر بما فيها الأقراص المدمجة.).

وبعـدد من الخطوات المتعانقة المتداخلة فى هذه العملية، فإن الأمر الذى يمثل ذروة الإعجاز إلى ما لا نهاية أن الحياة حيثما كانت إنما تطفر وتطفو دون

جذبـــة مفاجئة ولا نقلة مباغتة أو قفزة مندفعة، يقول بروفيسور توماس جيسيل تخصص الجهاز العصبى الجنينى من جامعة كولومبيا:

(ومـــا أن تنظـــر من جنين إلى آخر فإن الأمر الذى يصيبك بالصدمة هو مـــدى الدقـــة المذهلـــة للعملية، ومع ذلك، فإن هذه الدقة تبدو غامضة وأما عن الأســـباب: لماذا يحدث كل هذا؟؟ وبعد أشد درجات التدقيق والتأمل تأتى الإجابة محيرة ومديرة للرؤوس) .

فتبارك الله أحسن الخالقين

معظم البالغين اليوم، بل ومعظم الصغار يعرفون بدقة كافية تفاصيل عملية تخصيب الحيوان المنوى للرجل بالبويضة من المرأة، وإنه فى تلك اللحظة تبدا قصة نمو الجنين.

ذلـــك أن المنوى والبويضة كل واحد منهما يحتوى فقط ٢٣ كروموسوما وهى نصف كمية الدنا (المحتوى الوراثى) المطلوبة لتكوين إنسان كامل، وعندما يندمج الحيوان المنوى والبويضة فإن صبغياتهما تسفر عن الزيجوت المجهرى (الـــنطفة الأمشـــاج أوالبويضـــة المخصبة) تلك التى وصفها لله تعالى فى كتابه بإعجاز: (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا)، والتى تـــبدأ علـــى الفـــور فى عملية التكاثر . وأما تكاثرها فهو مضاعفة الدنا DNA (محـــتوى الصـــفات الوراثـــية) الذى تحمله فى كل مرة تنقسم فيها إلى خليتين متطابقتـــين ثـــم أربعا ثم ثمان وهكذا، ولكن إذا تواصل هذا الإنقسام وعلى هذه الوتيرة إلى ما لا نهاية فإن الأم البائسة حينئذ ستضع ورما متكورا هائلا ذا أبعاد

فلكية. بيد أن الذى يحدث أمر لو لم يره الناس مرارا منذ خلق الله تعالى الحمل والـــولادة لما كان قابلا للتصديق بل لم يكن قابلا للتصور، وهنا تكمن المعجزة الإلهـــية التى تتجلى فى خلق الرحمن بما يحير تصاريف العقول ويأخذ بمجامع القلوب.

إن الخلـــية المخصـــبة (وبرشد) عجيب بدلا من مواصلة انقسامها فى آلية صـــماء عمياء لا تعقل ولا تعى تبرز وجها مذهلا من الهداية الأسطورية التى تقودها فى مجاهل لا حدود لها، إلى خطة رشد أروع ما تقع عليها عينا بشر، أو تقف على تماوجها الخارق عدسة باحث .

إنهـــا تتصـــور وتتجســـم كأنها كائن أسطورى قادم من عالم الخيال، فى براعم تتنامى لتسلم إلى أعضاء تتكامل لتسلم إلى تناغم وتلاقى إلى سيطرة كاملة للعقل على الجميع إلى بشر سوى يهتز ويتقلب ويمتص ويلهو.

إنها آية الخلق العظمى التى طالما وجه القرآن الأنظار إليها فى إشارات بلـــيغة مفحمة. يقول الله تعالى: (أم لهم شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قـــل الله خالـــق كـــل شىء وهو الواحد القهار) ويقول تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ويقول تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فـــى قـــرار مكين فخلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)

إن أول صـــدمة مدويـــة تبدأ مباشرة عقب التخصيب عندما تتكون الكتلة الجنينية المجهرية ذات الإثنين والثلاثين خلية والتى تدعى (التوتية) Morula(نسبة إلـــى ثمرة التوت) تلك التى يتولد عنها طبقتان محددتان تلتفان حول كرة مليئة

بالسائل تعرف باسم بلاستوسيست Blastocyst (المتكيسة المجهرية)، وهذه الكتلة الكـــروية تبدأ فى التهادى على جدار الرحم متحسسة الموضع المثالى للإنغراس حيث تستقر فى هدوء لتبدأ مرحلة جديدة سماها القرآن الكريم بطور (الحرث) وذلك فى قوله تعالى:

(نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)

فإذا علمت أنها فى هذا الطور لا تزيد حجما عن جزء ضئيل من المليمتر فـــى أعماق الرحم الغاصة بالدماء والظلمات أدركت حجم المعجزة القرآنية فى اســـتخدام هـــذا المصطلح العلمى لهذه المرحلة الموغلة فى دقتها، حيث تنغرس الـــنطفة الأمشـــاج فى جدار الرحم أشبه بالنبات الكامن ليمد جذوره الظمأى فى أرض زراعية خصبة ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: (والله أنبتكم من الأرض نباتا) .

وبعد فترة زمنية خاطفة تتحول الطبقة الخارجية من الخلايا إلى المشيمة والسائل السلى Amniotic fluid بينما الطبقة الداخلية تتشكل عبر تحولات وأطوار إلى الجنين ذاته.

إن تكون البلاستوسيست(المتكيسة المجهرية) تعطى إشارة البدء فى سلسلة مـــن التغيرات المنسجمة والمتناغمة فى تماوج حالم أشبه بترانيم قدسية فى عالم الخيال .

ومـــا أن ينتهـــى الاســـبوع الأول حتى تنتفخ الغرسة الواهنة الرقيقة إلى طبقتين إضافيتين. الطبقة الأولى والتى تعرف باسم الإندوديرم Endoderm (الطبقة

الداخلـــية) تتولد منها الخلايا التى تبطن قناة الجهاز الهضمى. ومن الثانية والتى تســمى إكتوديرم Ectoderm (الطبقة الخارجية) تنشأ الخلايا العصبية التى يتكون مــنها المخ والنخاع الشوكى معا مع الخلايا الإبيثيليوم Epithelium(الجلدية) التى يتكون منها الجلد.

مــع نهايــة الأســبوع الثانى فإن (الطبقة الخارجية) تبرز صفا بارزا من الخلايــا تدعــى (الشريط البدائى) Primitive streakوالتى منها تنشأ طبقة جديدة ثالثة من الخلايا تدعى (الميزوديرم) Mesoderm(الطبقة الوسطى) والتى منها تنبع براعم الخلايا لتكوين القلب والرئتين وبقية الأعضاء الداخلية.

عــند هذه النقطة وبتكون هذه الثلاث الطبقات: الخارجية ــ والداخلية ــ والوســطى، يشبه الجنين قزما مستديرا أتى من عالم الأساطير والأحلام على هيئة مستديرة مفلطحة ومستعرضة.

ولكــن بيــنما (الطــبقة الوســطى) تمتد فإنها تتداخل مع خلايا (الطبقة الخارجية) . وبسرعة فائقة تلتف هذه الخلايا لتصوير (تجسيم) الأنبوب العصبى الــذى يعــد المقدمــة البدائية لتكوين المخ والنخاع الشوكى أى الجهاز العصبى بتمامه .

كــل هذا بالتزامن مع زحف الطبقة الوسطى، الذى يؤدى إلى تكوين تجمع من الخلايا على كل طرف للجنين الذى استطال وتحول إلى شكل الدودة (العلقة)، تجمع خلايا فى الأعلى لتكوين الفم والآخر فى الأسفل لتكوين الشرج .

لقد غدا الجنين الآن مستطيلا بعدما كان مكورا، ففصل القرآن بين الطورين فى وصف علمى معجز إلى حد الصدمة حيث سماه الآن (علقة) أى: أشبه بالدودة التى تمتص الدماء وتتعلق بأفواه البهائم التى تشرب الماء بحسب ما كان عليه كلام العرب، وذلك فى قوله تعالى: (فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة).

إن الجنين فى هذه المرحلة وهذا الطور لا يزيد فى حجمه عن حبة الأرز. قد تحدد فيه المحور من الرأس إلى الذيل هذا المحور الذى من حوله سوف تتكون وتنتظم جميع الأعضاء الجسدية.

شهادة الكائنات

خالق واحد وسنة واحدة فى خلق عامة الكائنات

إن الخطة التى عليها ينبنى تخليق محور الجسد فى الجنين البشرى هى نفس الطريقة التى يتخلق بها جنين ذبابة الفاكهة وكما يخلق جنين دودة إليجانز C. elegans. بل وكما تتخلق أجنة المخلوقات الأخرى التى لا تعد ولا تحصى كبيرة كانت أو صغيرة.

فى جميع الحالات وجد العلماء فى جعبة بناء هذا المحور طاقم خاص من الجينات. خصوصا الجينات المسماة هوميوتيك هوميوبوكس، أو جينات (هوكس).

جيـــنات (هوكس) قد اكتشفت أول مرة فى أوائل الثمانينات عندما لا حظ العلمـــاء أن غـــيابها يتسبب فى طفرات مدمرة فى ذبابة الفاكهة. الرؤوس على سبيل المثال قد أنبتت أرجلا بدلا من قرون الإستشعار، والصدور أخرجت زوجا إضافيا من الأجنحة.

إن جينات (هوكس) قد وجدت تقريبا فى جميع أنواع الحيوانات، غير أن عددها يتفاوت، ففى ذبابة الفاكهة هى تسعة بينما فى البشر تسع وعشرون . إنها دون اســـتثناء تنتظم على طول الصبغيات فى طريقة تناسب الجسم الذى تكون فيه.

كثيـــر من الجينات تشارك (هوكس) مثل جينات (هيدج هوج) Hedge Hog و(تينمان) Tinman، تلك التى بدونها ينبت لذبابة الفاكهة غطاء من شعر كثيف أو تخرج بدون القلب رأسا . ولقد وقف العلماء على التفاصيل الدقيقة عما تفعل هذه الجيـــنات فى المراحل المختلفة من عملية نمو الجنين. واحد من الثلاثة جينات (هـــيدج هوج) والذى يدعى: (سونيك هيدج هوج) ــ وهو الإسم المعروف فى مجال ألعاب الفيديو والكارتون ــ قد أبدى القدرة على أداء الدور على الأقل فى صنع نصف دستة من أنواع الخلايا العصبية الخاصة بالنخاع الشوكى..

إن الخلايـــا فى الأماكن المختلفة من الأنبوب العصبى تتعرض لمستويات مخـــتلفة مـــن البـــروتين المكـــود بواسطة هذا الجين. فالخلايا المشبعة من هذا البـــروتين تنضج إلى نوع معين من الخلايا العصبية، أما الخلايا التى تتعرض إلى الرذاذ الضئيل منه فإنها تنمو إلى نوع آخر.

وفى الحقيقة فإن الباحث الحيوى العصبى جيسيل مع فريق البحث المعاون فـــى جامعة كولومبيا حديثا قد طوروا الخلايا الجذعية من جنين الفأر إلى خلايا ناضـــجة عصـــبية حركية Motor neorons. عند استخدام تركيز معين من جينات (سونيك هيدج هوج)

أمـــا فى جامعة كاليفورنيا وسان فرانسيسكو فقد أجرى فريق علمى تحت قيادة بروفيسور (دايدير ستانير) أبحاثهم على الجينات الضرورية لتكوين الجهاز الوعائـــى الدمـــوى Cardiovascular وبحذف واحدة منها إسمها ميلز أبارت Miles Apart مـــن جنين سمكة الزيبرا (السوداء) أدى إلى تشوه وخيم وجنين سمكة له قلبان ميتان. لماذا؟؟

فـــى كـــل الفقاريات بما فى ذلك الإنسان يتشكل القلب على هيئة برعمين توأمـــين متـــباعدين، ولكى يتمكن من العمل يجب أن يتقارب البرعمان إلى أن يتحدا. يقول بروفيسور ستينز:

(أمـــا الطريقة التى يظهر بها عمل جين (مايلز أبارت) فعن طريق إفراز مادة كيميائية لها رائحة جاذبة فائحة مثل رائحة طبيخ طعام العشاء فى المطبخ، تلك التى تحرض البراعم المتباعدة على الحركة باتجاه بعضهما البعض).

إن رحلة الإنسان من بويضة مخصبة واحدة إلى بشر يسعى إنما تعد حدثا معقـــدا بصورة هائلة، وفى أى خطوة من الخطوات المتداخلة المتراكبة التى لا تحصـــى يمكن أن يحدث خلل بسبب من الأسباب البيئية أو الجينية الكثيرة التى أوردناها.

فمثلا عندما يحدث الخلل فى خطوات النمو الصحيح لعضلة القلب، فيمكن أن يـولد الطفـل بـثقب فى القلب أو حتى بقلب بلا صمامات أو دون أى من حجرات القلب.

وعندما يكمن الخلل فى مسار تنامى الجهاز العصبى فإن الطفل يولد بمخ لم يتم نموه Anencephalyأو بشوكة ظهرية ناقصة التكوين Spina bifida.

إن تشـوهات الأنـبوب العصبى إنما ترجع إلى مستويات غير كافية من حمـض الفولـيك القابل الذوبان فى الماء. والسبب أن حمض الفوليك ضرورى لتمكـين الخلـية المنقسـمة من نسخ الدنا (المحتوى الوراثى) . فيتامين أ (A) عنصر غذائى مصيرى آخر للجهاز العصبى..

ولكن لا بد من الحذر حيث أن الكميات الكبيرة من فيتامين (أ) تعد سامة. فـى كـتاب أمريكى حديث هو: (قبل حملك) before your pregnancy فإن عالم الغذائـيات: إيمـى أوجل وأستاذة الولادة د. ليزا مازولو يحذران الأمهات من تـناول كميات كبيرة من الأغذية الغنية بفيتامين أ وخاصة الكبد، وكذا منتجات الطعام التى تحتوى كمية كبيرة منه مثل زيت كبد الحوت.

إن الجـرعات الـزائدة مـن فيتامين(أ) تتسبب فى تدمير جمجمة الجنين والعينـين والـنخاع الشوكى والمخ ربما لأن مادة)الريتينويدز Retenoids) (أحد مشـتقات فيتامـين أ) تـتفاعل مباشرة مع الدناDNA مؤدية إلى تشوه الجينات الأساسية . حمض الفوليك وفيتامين أ وغيرها من المواد الغذائية إنما تصل إلى الجنين عن طريق المشيمة.

****

فى أى صورة ما شاء ركبك

* تصـــوير الجنـــين فى بطن أمه خاصية وجه القرآن الكريم الأنظار لها طويلا، مبينا أنها منة عظمى ونعمة كبرى لله تعالى وهى معجزة مذهلة فـــى الخلـــق تشـــهد بداياتها الأولى عندما يكون الجنين فى عمر ثلاثة أسابيع وبحجم لا يزيد عن ثلاثة مليمترات حيث تظهر أول الفلقات مع ظهور شق عصبي عميق على طول ظهر الجنين المستطيل.

* فـــى أول يومـــين مـــن الأســـبوع الرابع وقد تزايد الطول إلى أربعة مليمتـــرات. تـــبدأ جـــوانب الشق العصبى فى الإلتفاف ليتحول الشق العصـــبى إلـــى أنـــبوب مجوف مفتوح من أعلى ومن أسفل(الأنبوب العصبى) بينما تتابع الفلقات إلى عدد (متوسط ست فلقات)

* أمـــا الـــيوم الخـــامس والعشـــرون ــ وقد قارب الجنين طول الخمسة مليمترات (حجم حبة الأرز) ــ فيشهد بداية خلق العضوين العظيمين، السمع والبصر، إذ يظهر مكان الأذن كثقب غائر بينما تتخلق الحوصلة البدائـــية للعـــين فـــى مكانها المعهود. وفى سرعة وتتابع بين اليومين الســـادس والعشرين والسابع والعشرين تظهر موجات متلاحقة متكاثرة مـــن الانـــتفاخات والفلقات (ربما وصلت عددا بين العشرين والثلاثين فلقـــة) لها هيئة كطبع الأسنان على قطعة اللحم الممضوغة لتمثل أول ظهور بارز لصورة المضغة تلك التى وصف القرآن الكريم هذا الطور بصفتها البينة فقال تعالى (فخلقنا العقة مضغة). كل هذا الخلق المتتابع المهيب والجنين لم يجاوز حجمه بعد حجم حبة الارز أو بذرة التفاحة،

فـــى سلســـلة من التخليق بظهور براعم الطرفين العلويين(الذراعين)، متزامنة مع انغلاق الأنبوب العصبى، مع بداية تخلق المضغة العظمى التـــى لـــو صلحت صلح كل شىء ولوفسدت لفسد كل شىء ألا وهى القلب.

* عـــند تمـــام الشهر الأول من عمر الجنين فإن هذا الجنين المثقل بتكاثر الفلقـــات والإنـــتفاخات والإنخفاضـــات الممثلة للبراعم الخلقية البدائية للأعضـــاء (ربمـــا وصلت على خمس وثلاثين فلقة) يتقوس وينحنى، وتتصـــور الـــيدان كأنهمـــا مخلـــوق خيالى على هيئة زعنفتين، بينما حويصـــلتا الأذنين تبرزان، وعدستا العينين على هيئة قرصين بدائيين، ثم العلامة المميزة لكل إنسان وهى (عجب الذنب) على هيئة ذَنَبٍ دقيق قـــال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يبلى وإن مات الإنسان ومرت عليه فى الأرض الدهور، وعليه يركب يوم القيامة مفجرا بهذا الحـــديث الشـــريف معجـــزة علمـــية فى السنة النبوية تلحق بأخواتها المتماوجات موج البحار اللجية فى القرآن العظيم.

* فـــى الـــيوم الثلاثين إلى الأربعين وقد قفز حجم الجنين إلى السنتيميتر الواحد [1]، يتنامى الطرفان العلويان ويشبهان مجدافى القارب ثم لا يلبث الكفـــان أن يـــتخلقا بالتـــزامن مع تخليق الطرفين السفليين على شكل مجدافـــى القـــارب كذلك ثم تخليق القدمين، فى تجسيم أقرب للحلم أو

(١) يصعب عند هذه المرحلة والمراحل التالية تحديد عدد الفلقات ويكون هذا العدد غير مفيد كمقياس.

للخـــيال، وتصوير لو لم يشاهد عيانا لكان تصديقه من أمحل المحال، وها هو الجنين الآن وقد صار كائنا مصورا مجسما ذا أربعة أطراف.

وأمـــا العضوان البليغان اللذان ينفتح بهما الإنسان على الكون الفسيح من حوله وهما السمع والبصر فيخلقان خلقا بديعا فى اقتدار وجلال طافرين للوجود فى زمنهما الأمثل المقدور:

* فأما العينان: فبالتزامن مع ما سبق تظهر فتحتا العدستين كثقبين غائرين فـــى مكـــان تخلق العينين ثم تخلق حويصلتي عدستي العينين ومنهما يـــتطور تخلـــيق نفـــس عدستى العينين بينما تظهرالصبغة الداكنة في الشبكية فى قاع العينين، فالعين هنا على وشك الإكتمال بتركيبها البديع من محجر وعدسة وكرة العين ثم الشبكية فى القاع.

* وأمـــا الأذنـــان فتســـلكان ســـبيلا موازيا لأختيهما العينين، وأما الأنف وبالتزامن كذلك مع تخليق العينين تتخلق فتحتا الأنف كثقبين غائرين لا يلبـــثا أن يرتفعا ويبرزا ليصيرا على هيئة الأنف فيما بعد فى الأطوار التالية .

* ثم إذا جاء اليوم الأربعون وفى زمن خاطف يمتد إلى الثالث والأربعين تكـــتمل الأعضـــاء تقـــريبا وفى صورة بدائية مصغرة فمثلا تتصور وتـــتخلق أطـــراف الأصابع فى تقدير عجيب . ويتخلق صيوان الأذن الخارجـــى تـــدريجا إلـــى هيئته مكملا مهمة التصوير لأداة السمع فإذا الإنســـان ســـميع بصير. أما الجسد الجنينى المقوس والمنحنى والمكب علـــى وجهـــه طوال طور العلقة فهاهو الآن يداف إلى طور الإعتدال

والإنتصـــاب والإستواء رافعا رأس الجنين وإذا ربك وقد خلقك وسواك وعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك. ثم يتجلى الحدث الكبير فى حياة الجنين فى الرحم بل فى حياة الإنسان كلها، ألا وهو بدء نشأة المخ على هيئة بدائية فى صورة حوصلات متفرقة فى تجويف الدماغ .

* فـــى اليوم الرابع والخمسين تكون جميع الأعضاء الهامة قد فرغ منها تصـــويرا وتجسيما وتسوية على صورة مصغرة ضئيلة من المخ إلى القلـــب والـــرئتين والحبل السرى والكليتين والمعدة والمرىء وغيرها وكلهـــا الآن جاهـــزة ومـــؤهلة تماما لطور الإنطلاق الكبير إلى عالم البشـــرية البديع عالم النشأة والخلق الآخر كما وصف الكتاب العزيز. فسبحان القائل الحكيم: (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

توالد المعجزات فى الظلمات الثلاث

كـل هذه العمليات تتم في ظلمات ثلاث يقول الله سبحانه وتعالى: "يخلقكم من بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث"

في أحد مؤتمرات الإعجاز العلمي بينما العلماء المسلمون فى غاية الإنبهار بآيات القرآن المقررة لكون الجنين يتخلق بإعجاز فى ظلمات ثلاث، موجهين كل اهـتمامهم بكـون الآية الكريمة قررت أنها ثلاث بينما لم يكن على عهد النبى صـلى الله عليه وسلم بالطبع من يدرى شيئا عن الصفاقات والأغشية والرقائق المحـيطة بالجنـين فضـلا عن العلم بعددها المعلوم ألا وهو الثلاث، غير أن المفاجـأة الصـاعقة جاءت تسعى عندما بدا الآخرون فى دعوة واحد من كبار علماء الغرب فى تخصص الأجنة إلى الإسلام بدليل هذه المعجزة المذهلة وهى موافقة القرآن لأحدث المعارف الطبية وهى الثلاث الظلمات المقررة الآن دون نزاع: ١) ظلمة الرحم ٢) ظلمة الغشاء السلى ٣) ظلمة الغشاء الكوريونى.

فإذا به يهب ليعلق فى دهشة على ما ترجم له من الآية الكريمة مقررا أن مـا يديـر رأسه فى ليس تقريرالآية للظلمات وأنها الثلاث، وإن كان هذا خبرا محيـرا مـن القرآن، ولكن الصدمة الحقيقية أن القرآن قرر أن الجنين ينمو فى (ظلمـات) أولا، ثم فى (ثلاث) وربما كان تقرير أنها ظلمات أشد إعجازا من تقريـر أنهـا ثلاث لأن العلماء فى الغرب طوال أحقاب طويلة من المحاولات المـرهقة لتنمـية الجنين فى المعمل واجهوا فشلا مستمرا محبطا وغير معلوم الأسـباب، حتـى أفاقـوا فجأة بعدما برقت فى أذهانهم فكرة ضرورة أن يكون المعمل محل التجربة مظلمات تماما كما هو حال الرحم فلما أجروا تجاربهم مع

الإظـــلام الـــتام للمختبـــر نجحـــت التجارب الأولية فتبين من ذلك أن الظلمات ضـــرورة محـــتمة لنمو الجنين تماما مثل الصفاقات الثلاثة التى تحوطه من كل جانب.

فعـــندما قـــال الله تعالى: "في ظلمات ثلاث" فإنه يجزم بالإثنتين: أن يكون ظـــلام وأن يكـــون ثلاث، وهذا من أحدث المكتشفات والمعارف العلمية التى لم تكتشـــف إلا بشق الأنفس مع بزوغ فجر أبحاث أطفال الأنابيب حيث فشلت في الـــنور ونجحت في الظلام. علما بأن حجم الجنين عند تحقق هذا الخبر لا يزيد عن سنتيمتر واحد، مما يجعل من المحال على بشر أن يعرف ما إذا كانت ظلمة واحـــدة أم اثنتين أم ثلاث إلا بعد وسائل معقدة معنتة تنقطع دونها أعناق الإبل غيـــر ان النـــبأ اليقين جاء فى القرآن عذبا بليغا حاسما دون غموض فى قوله تعالـــى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم الحق)

دلائل القدرة فى تخليق المضغة

فـــى يومـــين اثنـــين فقط تزوى خصائص طورالعلقة وتظهر إلى الوجود خصـــائص طور جديد ألا وهو طور المضغة، فبينما يشارف طور العلقة على نهايته فى اليومين الثالث والعشرين والرابع والعشرين من تخصيب البويضة إذا بمظاهر المضغة وخصائصها تبدأ فى البروز مع بداية اليوم الخامس والعشرين ممـــتدا إلـــى اليوم السادس والعشرين، ولا يخفى ما فى هذا التحول من فجائية وســـرعة، بمـــا يجعـــل وصف القرآن الكريم له فى قوله تعالى (فخلقنا العلقة مضـــغة) مطابقا مطابقة متحدية مسكتة بعد أن تقرر لك أن العطف بحرف الفاء إنما يوجه الأنظار صريحا إلى سرعة تتابع الأحداث وهو هنا ينادى مرة أخرى بمعجزة قرآنية صاعقة كون التحول متداخلا بين طورين كلاهما كان من المحال العقلـــى الوقوف عليه من غير وسيلة شديدة التعقيد والتطور كالتى اكتشفت فى زمنـــنا وتجلت على إثرها مجاهيل وعمايات الأرحام، الحقيقة التى بينتها التايم الأمريكية فى وضوح قائلة: (السبب فى معرفتنا المستبحرة حول ما يجرى داخل الأرحام أن الباحثين بوسائل متقدمة قد قطعوا شوطا بعيدا فى سبر أغوار سلسلة الإشـــارات الكيميائـــية التـــى تقود عملية نمو الجنين وتطوره. إن العلماء الآن يمكنهم الوصول الدقيق إلى مستوى الجينات والجزيئات الكيميائية المفردة لكثير من الخطوات التى تتحكم فى بناء الإنسان، من أول بناء محور النمو من الرأس إلـــى الذيل،مـــرورا بتبـــرعم الأطراف ونباتها، إلى التصوير المهيب للقلب ذو الحجرات الأربع والتماوج المذهل لبلايين الإتصالات العصبية المتضافرة .

لقد بدأ العلماء فى كشف أسرار الخريطة الجينية الأولى للحياة والتحديد الدقيق الوسائل الجزيئية الكيميائية الضرورية لتركيب البناء. يقول ماتيو سكوت الباحث البيولوجى فى جلمعة ستانفورد:

(إن تنامى البشر داخل الرحم لم تعد بعد علما معقدا مستحيل الفهم، إنها فقط تبدو مذهلة ومثيرة للدهشة مع كونها رائعة، وكيف كانت فنحن مدعوون لغاية التعجب كيف أن هذه البويضة المخصبة والتى لا تعدو أن تكون مجرد قطرة من البروتوبلازم والدنا DNA محوصلة فى درع كروى مجهرى، كيف يمكنها أن تنشىء مثل هذا الكائن المعقد المترامى العجيب، إن الإجابات برغم كونها غير تامة وغامضة بدأت تتضح وتقترب من بؤرة اليقين).

أما المعلم الظاهر لطور المضغة فهو ظهور الفلقات (Somites) تلك التى تبدو مع نهاية طور العلقة ولا تلبث أن تصير هى الصفة البارزة طوال هذا الطور مظهرة الصورة المميزة للمضغة، فتبدو وكأنها قطعة من اللحم ممضوغة قد لاكتها الأسنان، وسيأتك بيانه والله المستعان

التعريف اللغوى لمصطلح المضغة :

جاء فى لسان العرب: (و المضغة:القطعة من اللحم لمكان المضغ، التهذيب: المضغة قطعة لحم وقيل: تكون المضغة غير اللحم، وقال خالد بن جنبة المضغة من اللحم قدر ما يلقي الإنسان في فيه،، والمضغ: جمع مضغة، وهي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ، وسماها مضغا على التشبيه بمضغة الإنسان في خلقه يذهب بذلك إلى تصغيرها وتقليلها، وبالمضغة الواحدة شبهت

اللقمـــة تمضغ وقيل شبهها بالمضغة من اللحم لقلتها، ومضغ الأمور صغارها وكلاهما من المضغ)

مما تقدم يتبين أن المضغة فى كلام العرب تأتي بمعان منها:

(شيء لاكته الأسنان)[1]

وفي قولك (مُضَغُ الأمور) يعني صغارها[2].

وذكر عدد من المفسرين أن المضغة في حجم ما يمكن مضغه[3].

وكمـــا صار معلوما الآن من منهجية المصطلح العلمى القرآنى والذى يبز جمـــيع المـــناهج العلمية البشرية قديمها وحديثها حتى كأن الله تعالى أراده سمة متفـــردة تفـــرد بهـــا هذا الكتاب بحيث لا يمكن مجاراته فى ترسيخ متتابع لهذا المنهج الفذ العجيب الذى يختصر فى كلمة واحدة درسا علميا كاملا بالغ التعقيد والـــتداخل والتنوع، والدرس المتراكب هاهنا هو (المضغة) تلك اللفظة القرآنية الجامعـــة المانعة التى إذا نطقها القارىء بمجردها ودون زيادة، علم السائل كل شىء عن الأحداث المتماوجة بين طيات هذا الطور. وبيانه الشافى ما يلى:

أولا: تميـــز هـــذا الطور كما تقدم بظهور الفلقات (ارتفاعات وانخفاضات متتالـــية فـــوق جســـم الجنين البدائى) والتي أبرزتها الصور العلمية

(١) تاج العروس ج٦ ص٣٠، مقاييس اللغة ج٥ ص٣٣٠.

(٢) نظم الدرر ج٦ ص ٣٠-٣١، لسان العرب ج٨ ص ٤٥٠-٤٥٢.

(٣) فتح القدير ج٣ ص٤٣٦، البيضاوي ج٤ ص٢٨٨-٢٨٩، ابن كثير ج٣ ص٢٠٧، نظم الدرر ج١ ص٩، روح المعاني ج١٧ ص١١٦، زاد المسير ج٥ ص٤٧، الجامع لأحكام القرآن ج١٢ ص٩٠٦، محاسن التأويل ج١٢ ص٨، الكشاف ج٣ ص٥، جامع البيان ج١٨ ص٨، تفسير الرازي ج١٢، ص٨.

المجسمة الثابتة والمتحركة وكأنها وياللعجب مزعة من اللحم الذى لاكتها الأسنان، بل تبدو آثار الأسنان ظاهرة جلية جدا في صورتها كما لو كانت لقمة لفظت للتو من بين الأسنان.

ثانيا: مع ملاحقة هذا الطور بالمتابعة اللصيقة بالكاميرات الدقيقة لحظة بلحظة خرجت الأفلام كاشفة عن تماوجات لا تتوقف من التغير والتبدل، بل بدا التغير سريعا لاهثا في صورة الجنين فمرتفعات الفلقات ومنخفضاتها دائمة الحركة والتحول، فلا تثبت فلقة على حال، بل هى دائمة التغير سواء من ناحية الحجم ارتفاعا أو انخفاضا، أو من ناحية الموضع تنقلا من مكان إلى آخر فى جسم الجنين وكذلك جميع الفلقات طوال هذا الطور، ولكن آثار الطبع أو المضغ تستمر صفة لازمة. فالجنين يتغير شكله العام، ولكن الفلقات تبقى سمته الأساسية، وكما أن قطعة اللحم التي تلوكها الأسنان يحدث بها تغضن وانتفاخات وتثنيات فإن ذلك يحدث فى خلقة هذا الطور . ويكأن ثغرا لا يفتأ يمضغها ولسانا خافيا يحركها مع دوام العض بالأسنان التى تلوكها طابعة آثار المضغ مع تحريكها وتقليبها، فأى لفظ أبلغ ولا أنجع ولا أشد مطابقة ووصفا لحادثة على هذا القدر من الحركة والتقلب والتغير مثل لفظ (مضغة) أى قطعة من اللحم تمضغ فى فم خفى دون توقف .

ثالثا: تتغير أوضاع الجنين نتيجة التكوين المتلاحق للأنسجة الجديدة، بما يرتب تبديلا جذريا فى وضعياته، فما هو أسفل الآن نجده أعلى بعد

أيـــام وما هو عرضى سرعان مانراه طوليا، وبلاشك فهذا هو حال القطعة من اللحم التى تلوكها الأسنان حال مضغها فإن حركة اللسان النشـــطة تقلـــبها حيـــنا من بعد حين، وهو ما يستقى كذلك من لفظ (المضـــغة) فـــى مطابقة معجزة تغطى جانب الحركة للجنين عامة، والفـــرق بـــين هذه الحركة والحركة السابقة هو أن الحركة الأولى داخلـــية أى داخـــل جســـم الجنين وهى كائنة حتى لو افترض ثبات الجنـــين فى الجملة على وضع واحد، ولكن الحركة هنا هى الحركة الكلـــية للجنين من وضع إلى وضع آخر، والمواكبة للحركة الداخلية للتغضنات والفلقات وهو فرق دقيق فتأمله.

رابعـــا: بـــرغم هـــذه الموجات من التغيرات الدائمة فى هذا الطور داخل الجنـــين وخارجـــه، فإن تحوله العام قائم على قدم وساق من الشكل الإســـطوانى الأنبوبـــى الشـــبيه بالدودة فى طور العلقة إلى الشكل الممضـــوغ فى أول طور المضغة ثم لا يلبث أن يتحول إلى الهيئة المتقوسة المنحنية فى آخره، فإن ظهر الجنين ينحني ويصبح مقوساً محنـــيا أقرب إلى الإستدارة. وهو بالطبع مشمول فى جلاء بالمعنى العـــام لقطعـــة اللحـــم الممضوغة (المضغة) فلا شك أنها تتعرض للإنحناء والتقوس مرات عديدة أثناء تحولها تحت معالجات الأسنان واللسان.

خامســـا: لما كان طول الجنين فى هذا الطور لا يزيد فى نهايته عن واحد سنتيمتر، وهو حجم ظاهر القلة بالنسبة للأطوار التالية له، فبه ينطبق

اللفظ القرآنى (مضغة) من جانب بيان القلة، ويجب التنبه إلى أن ما سبق هو وصف الحركة والتبدل، أما هنا فوصف الحجم، وهو قليل، وهـذه القلـة صـريحة فى المعنى المتبادر من ذكر اللفظة القرآنية (مضغة) فأول ما يتبادر للذهن قلتها، وبه جرى اللسان العربى قالوا: (وبالمضـغة الواحدة شبهت اللقمة تمضغ وقيل شبهها بالمضغة من اللحـم لقلتها، ومضغ الأمور صغارها) وهو الأمر العلمى الواقع ذلـك أن الجنين فى هذا الطور إنما يحوى جميع الأعضاء خلقا من بعـد خلـق غيـر أنها براعم بدائية تمثل كل عضو ومنها ستتخلق الأعضـاء وتتنامـى فى الأطوار التالية.ولكننا فى هذا الطور أمام أصغر حجم لإنسان بدائى تخلقت براعم جميع مكوناته. فهو مضغة الإنسـان، لأن مُضغ الأمور: صغارها، وهذا إنسان بجميع أعضائه طوله (١) سم.

سادسا: وأما المعنى الذي ذكره بعض أهل العلم للمضغة (في أنها حجم ما يمكـن مضـغه)، فإنه لا ينطبق قطعا إلا على حجم الجنين فى هذا الطور، ففي نهاية هذا الطور يكون طول الجنين(١) سم. وقارن بين هـذا الحجم وحجم الطور السابق له مباشرة وهو العلقة فإنها بحجم أقصاه حبة الأرز، والعجز عن لوكها بالأسنان ظاهر، بخلاف قطعة اللحم الممضوغة هنا فإنها بحجم السنتيمتر الواحد، وهو حجم معقول فـى إمكان لوكه بالأسنان، فبه يتبين أن حجم الجنين فى هذا الطور هو أصغر حجم محتمل لقطعة اللحم التى يمكن للفم مضغها، بالطبع مـا بعدها من الأطوار أكبر حجما منه فلا ينطبق عليه كونه مضغة

لأنه كبير ولا يغربن عن بالك المعنى السابق للمضغة وهو ضرورة أن يكـــون الحجم صغيرا لتوجه معنى المضغة للقلة حتما، فهو لفظ دقـــيق يجمع بين نقيضين القلة فى الحجم وإمكان المضغ بما يرتب البحث عن الحجم الأمثل لانطباق هاتين الصفتين، ولا شك أنه حجم لا ينطبق إلا على حالة المضغة لأن ما دونها لا يمكن لوكه بالإسنان وما فوقها لا يمكن اعتباره قليلا، فتدبر.

ثامنا: وينتهي طور المضغة بنهاية الأسبوع السادس.ولا تتمايز الفلقات في البداية ولكنها سرعان ما تتمايز إلى خلايا وبراعم جنينية تتنامى إلى سائر الأعضاء، وبعض هذه الأعضاء تتكون بصورة بدائية في طور المضـــغة، والـــبعض الآخـــر يـــبدأ فقط ولكنه يتصور ويتكامل فى الأطـــوار اللاحقة . كذلك نرى أن المضغة تكون مخلقة بمعنى أنها تشمل براعم الأعضاء، وهو تخليق قطعا،غير أن الهيكل العظمى فى هـــذا الطـــور لم يكن قد تخلق أصلا وبه لا تكون هيئة المضغة هى الهيـــئة البشـــرية الإنسانية التى يميزها الهيكل العظمى البشرى، أو بعبارة أخرى لا يمكن تمييز جنين الإنسان فى هذا الطور عن جنين الســـمكة أو الدجاجة أو الأرنب أو الطائر، فهو غير مخلق من هذا الـــوجه، وهـــو مخلق من حيث توافر البراعم المؤهلة لتكوين كافة الأعضـــاء، وبـــه يصـــح القول بأنها مخلقة وغير مخلقة، وإلى هذا المعنـــى تشير الآية القرآنية الكريمة:(...ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقـــة...) (سورة الحج: آية٥). وهو معنى اختلف فيه أهل التفسير طويلا على خمسة أقوال :

أحـدها: أن المخلقـة ما خلق سويا، وغير المخلقة ما ألقته الأرحام من النطف وهو دم قبل أن يكون خلقا قاله ابن مسعود .

والثانـي: أن المخلقـة ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه وهو الذي يولد حيا لتمام، وغير المخلقة ما سقط غير حي لم يكمل خلقه بنفح الروح فيه هذا معنى قول ابن عباس

والثالث: أن المخلقة المصورة، وغير المخلقة غير مصورة قاله الحسن

والرابع: أن المخلقة وغير المخلقة السقط تارة يسقط نطفة وعلقة وتارة قد صور بعضه وتارة قد صور كله قاله السدي

والخامس: أن المخلقة التامة، وغير المخلقة السقط قاله الفراء وابن قتيبة

وبمـراجعة الأقـوال المذكورة نجد أن اعتبار غير المخلقة هى السقط هو ضد معنى الآية لأنها فى بيان قدرة الله تعالى على الخلق وإفحام الكافرين بذلك ضمن سلسلة متحدية من خلائق الله تعالى فى الأرحام ولا يخفاك أن ذكر السقط بينها لا يفيد هذا المعنى بحال بل ربما ناقضه، والذى نراه أن أقربهم طريقة هو قـول الحسـن: (أن المخلقة المصورة، وغير المخلقة غير مصورة)، فهو شبه مطابق لما نحن فيه وما قررته البحوث العلمية الحديثة ورأته رأى العين، وعلى الجملة فالتفسير الصحيح للآية الكريمة لايمكن الوصول له والعلم به وتعيينه إلا بعـد التعـرف على طبيعة المضغة وتصاريفها وأحوالها وهو علم لم يكن قائما بالكلية فى القرون الأولى مما أورث غموضا وخلافا قد علمته، وما أن تكشفت الحقائـق العلمـية الـيوم حتـى أشرق المعنى وأسفرت الآيات عن معجزاتها وجمالها، وانكشف الغموض وظهر الحق.

فبأى حديث بعده يؤمنون

بالمتابعة اللفظية للمسميات القرآنية لأطوار خلق الجنين من جملة ما قررناه يتبدى وميض معجزة قرآنية بارقة حيث يبدأ طور (العلقة) بتعلق الجنين بالمشيمة، ويأخذ في تعلقه واستطالته شكل العلقة.

وينتهي هذا الطور بالنمو السريع لخلايا الجنين في عدة طبقات، وتتخلق العلقة إلى صورة (المضغة) إيذانا بنشوء طور جديد لا يلبث أن ينتهى ببدء تخليق الهيكل العظمي في أوائل الأسبوع السابع.

إذن هى أطوار متتابعة ذات أسماء مقررة واعية مبصرة، ولكل منها بداية بينة ونهاية جلية، تفصل بينها أزمنة معلومة، ظاهرة أبلغ الظهور بحروف العطف الناطقة بلغة الزمن فاصلة بين التراخى والعجلة، فارقة فى تحدٍ واستعلاء وعظمة بين كلام البشر المتلطخ بالعمى والجهالة وكلام الله تعالى السميع حين لا مسمع والبصير حين لا مبصر.

إن كل ما قدمناه من عرض علمى حافل كان من أمحل المحال حتى قرنين من الزمان، فأين كان علم الناس منذ أربعة عشر قرنا.

أن الفواصل الزمنية بالغة القصر كما أن الأحجام المقصودة بالوصف بالغة الضآلة والصغر، وما من وسيلة للحصول على الأجنة لبحثها ودراستها إلا بوسائل علمية شديدة التعقيد والتقدم لم تكن حتى فى أوهام الناس وخيالهم وقت نزول الآيات القرآنية المذهلة، علما بأن السقط المبكر فى الاسابيع الأولى من

الحمل عادة ما يكون أقرب إلى نزيف الحيض منه إلى سقوط الحمل الذى يخفى عـن الكثـرة الكاثرة من النساء الحوامل بما لا يؤدى إلى الرغبة أو التفكير فى البحث عن جنين مجهرى أو حتى مزعة ممزقة من اللحم الممضوغ ضالة تائهة بين ضخات شلال من الدماء الغزيرة.

إن التوصـيف القرآنى المترامى المتعمق البليغ للأجنة الغارقة بين الدماء والظلمـات والجهالـة البشـرية المطبقة بكل شىء لدليل صاعق وبرهان دامغ ومعجزة ناطقة تنادى فوق الصراط وفى أعماق الظلمات وفى أعالى الآفاق بأن الله تعالـى منزل هذا الكتاب ومرسل هذا النبى محمد صلى الله عليه وسلم الذى مـا كان له أن يأتى به مباركا زاخرا بهذا البحر اللجى من العلم من تلقاء نفسه يقول الله تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون)

معجزة القرآن فى تخليق اللحم وكساء العظام

جـاءت هـذه السلسة الذهبية فى القرآن الكريم واصفة أطوار الجنين فى حلقـات متماسـكة يعانق بعضها بعضا من بدء النطفة وإنتهاء بالنشأة الأخرى ومـرورا بطـور الـتخلق البديع الذى تتابعت فيه الأطوار من العلقة التى تسلم مباشـرة للمضـغة وقد تقدم الحديث عنهما وأما المضغة فبدورها تسلم مباشرة لطور العظام الذى يسلم لطور اللحم، وهو قوله تعالى:

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين* ثـم خلقنا النطفة علقة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (سورة المؤمنون الآيات: ١٢-١٤).

ونقـف هـنا خاشعين ونحن نطالع آية باهرة جديدة كموجة تسارع لتلحق أخـواتها المـتقاذفات، علمـا بأن جدلا علميا صاخبا قد دار طويلا فى قاعات المؤتمـرات وعلـى صفحات الدوريات وفى المعامل والمختبرات للوقوف على الجـواب الحاسم للسؤال المعضل: أيهما ينشأ أولا العظام أم العضلات (اللحم)، فالواقـع المشـاهد يبين أن المسألة متزامنة فلم نر جنينا قد صار هيكلا عظميا مجردا من أى مزعة لحم ثم بدأت العضلات تنمو حتى تكسوه بعدما كان هيكلا عظمـيا، ممـا أدى ببعض الذين لا خلاق لهم لأن يجدوا فى هذه النقطة بالذات مغمـزا على كتاب الله تعالى زاعمين أنها خالفت الواقع العلمى فكيف يقول الله تعالى (فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما) ونحن نرى كافة الاجنة وقد

خرجت عظامها جنبا إلى جنب مع لحومها من غير هذا الترتيب المذكور، غير أن مـــا ظنه أعداء القرآن مغمزا فيه كان فى حقيقة الأمر آية قرآنية مدوية ولم تكـــن قـــد اكتشفت إلا بعد الوقوف العميق والتغلغل العلمى إلى الأصل الاصيل لتكون العظام واللحم الأمر الذى يستوجب الوقوف أولا على ما تعنيه كلمة العظم باعتبار أن الشبهة حولها كون اللحم معلوم مشاهد لا نزاع فيه

تخلق العظام آية للناس

طـــور العظـــام هو الطور الفارق بين ماهية جنين الإنسان وماهية سائر الأجـــنة لسائرالكائنات، وله من الخصائص مالا يتوفر لغيره كونه هو الأساس القـــوى والعمد المتين الذى تعتمد عليه البنية الكاملة للإنسان، ومنه فقد توفرت المعاهـــد العلمـــية المختصة على هذه المعضلة، فإذا بها تكشف عددا هاما من الحقائـــق المبهـــرة يجلى وجه الحق عند النزاع، ومن ذلك أن العظام بينها من التباين والتنوع ما يمنع أن تتخلق جميعا فى زمن واحد، فليست كالعين أو الأذن أو الكـــبد أو غيرها من الأعضاء، بل لها برنامج شامل ومتسلسل تتكامل حلقاته تـــباعا للإنتهاء بالبناء العظمى فى سائر الجسم على تمامه بدءا من طور العظام فـــى الطورالجنينى الذى نحن بصدده الآن، وهو يخرج إلى الوجود فى الأسبوع السابع، ومنه يكتمل فى الطور الجنينى خلق أول العظام قاطبة ألا وهى عظيمات الأذن الداخلـــية وتمـــتد فترة تخليق العظام بعد مغادرة الجنين الرحم إلى الحياة الدنـــيا فـــى تطـــاول عجيب حتى أن عظام الساقين لا تكتمل بناء تاما إلا بعد عشرين عاما من الولادة ومنها ما يزيد على هذا.

فأمـــا نهاية طور العظام فكما علمت، وأما البداية فقد حسم القرآن الكريم الجـــواب من غير لبس بأنها مخلقة مباشرة من المضغة وهو الذى سوف يثبت الآن مخلفـــا دوى معجـــزة أخرى تلحق بشلال المعجزات الذى عجت بها هذه الآيـــات العلمـــية وأضـــرابها. إذ أمكن الوقوف اليقينى على الطور الجنينى ذو الخصـــائص العظمـــية وهو قطعا غير واقع فى الأطوار السابقة كلها من بداية تخصـــيب البويضـــة إلـــى طور المضغة التى تنتهى فى الأسبوع السادس، وقد علمت ما فيها، ولم يأت أى ذكر أو أثر للعظام فيها، غير أن العظام البدائية تبدأ فى الإنتشار والظهور فى جنبات الجسم المختلفة في الأسبوع السابع حيث يشتد الهـــيكل العظمى البدائى (الغضروفى) ناقلا صورة الجنين من المضغة المقوسة المنحنـــية التي لا تمت للصورة الآدمية بصلة إلى طور العظام الذى يتوجه بنا إلى الصورة البشرية السوية المعدلة، تقويم الهيكل العظمي المميز للإنسان

وعملية تخلق العظام،تتم بخطوات كثيرة ومعقدة تتحكم فيها نوعية مصادر العظام فهناك مثلا (العظام الغشائية) (كعظام الفكين مثلا) وهى عظام تتخلق بين الأنســـجة الضـــامة حـــيث تتكاثف خلايا النسيج الضام مكونة كتلا من الخلايا العظمـــية البدائية لا تلبث أن تحيط نفسها بمنابت عظمية يترسب بها الكالسيوم محـــولا إياهـــا لخلايـــا عظمـــية. وأمـــا النوع الآخر من العظام فهو (العظام الغضـــروفية) وهى النوع الغالب وهى تتخلق على نفس الوتيرة، مع اختلافات طفـــيفة حـــيث يتخلق الهيكل العظمي البدائى غضروفيا ثم تحل العظام تدريجيا محل الغضاريف، ويحيطها ويغلفها نسيج ضام يصبح فيما بعد (السمحاق) وهو النسيج الصلب المعروف الواقى للعظام واللصيق بها.

وبالـــرغم مـــن أن خلايا العضلات البدائية (اللحم) وخلايا العظام البدائية تكـــون متجاورة في الفلقات حيث لابد لها من ذلك، إلا أن التزامن بينها يتخلف ويتغايـــر نظـــرا للهجـــرة التى تقوم بها كل منها من موطنها الأول فى الفلقات لتـــتجمع فـــى مواضعها فى الأطراف من جسم الجنين، ومن هنا فإن العضلات (اللحـــم) لا تكتمل انتشارا إلا بعد انتشار خلايا العظام لتكسوها وهى فى الحالة الغضروفية .

وتنشزعظام الجسم الطويلة عن الطبقة الجنينية الوسطى كنظيراتها، ويكون ذلـــك عن طريق نفس التخلق الغضروفى السابق مشيدة هيكلا غضروفيا يعطي الجنين هيكله العظمي وشكله الإنساني. يقول الله تعالى: (وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما)

ومـــع مـــا تقـــرر من عدم تخلق العظام على نحو موحد في الجسم كله، وظهـــور الأنســـجة العظمية بالتعاقب. فإن الأسبوع السابع يشهد مرحلة نشاط وانتشار الهيكل العظمي في جسم الجنين متغلغلا وكأنه قضبان صلبة من الحديد تمتد فى قوة بين جنبات بناء مشيد، ويبدأ نمو عظام الأطراف في براعم العظام الجنينية من خلايا الطبقة الجنينية الوسطى، وتظهر مراكز التعظم الابتدائي في الفخذ خلال الأسبوع السابع، وفي القص والفك خلال الأسبوعين الثامن والتاسع، وبالـــرغم من وجود خلايا اللحم البدائية بالقرب من العظام النامية فإن الإرتباط بيـــنهما والذى يحدث لاحقا عن طريق تخلق روابط عظمية عضلية ليكسو اللحم العظام لا يحدث إلا بعد بدء عملية التعظم.

معجزة القرآن فى مصطلح العظام

وما سبق من تفصيل هو ما قرره الكتاب، قال الله تعالى: (فخلقنا المضغة عظاماً).

فهـذا الـنص القرآني يقرر دون غموض أن طور العظام إنما يأتي عقب طـور المضـغة مباشرة متخلقا عنها. وهو الحق ذلك أن الجنين يشهد فى هذا الطـور انتشارا متعاظما وتناميا مطردا للهيكل العظمى البدائى وقد تقدم بيانه. وكمـا بيـناه مستفيضا من دلالات حرف العطف (الفاء) في الآية الكريمة وأنه يشـير فى حسم إلى أن طور العظام إنما يأتى فى الزمن اللاحق مباشرة لطور المضـغة. وتؤكده الحقيقة العلمية المشاهدة وقد تبين لك كيف أن طور المضغة ينتهـى فى نهاية الأسبوع السادس ومباشرة فى أول الأسبوع السابع تبدأ الخلايا العظمـية علـى كافة تنوعها فى حالة تخلق وتكاثر وتغلغل على قدم وساق فى سائر أرجاء الجنين .

وفـى إعجاز قاطع وبرهان لا يمارى بأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى إذا الحديث النبوى الشريف يتوج هذا الاستعراض الحافل بالمعجزات حـيث يقـول الرسـول صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة بن أسيد الغفاري رضـي الله عـنه: (إذا مـر بالـنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها)[1].

(١) أخرج الحديث مسلم في صحيحه ٢٠٣٧/٤ برقم: ٢٦٤٥، وله طريق آخر عنده عن حذيفة، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٩٨/٣ برقم ٣٠٤٤، وأبو داود في كتاب القدر: ورقة ٤٥/٤٤، والسيوطي في الجامع الكبير ٨/١، وجعفر الفريابي انظر ابن حجر في الفتح ٤٨٣/١١.

والشاهد الناطق فى الحديث الشريف هو العدد النبوى المعصوم الذى يقبل القسمة على سبعة ليأتيك بالأسابيع تامة على لغة أهل الإختصاص فالإثنتان وأربعون ليلة هى ستة أسابيع تامة أى فى أول ليلة فى الأسبوع السابع يأتى الملك ليصورها، وهنا الشاهد الناطق الثانى وهو اللفظ الشريف (فصورها) فإن التصوير هو التجسيم وظهور تمام الخلقة، ولايخفاك أن الصورة البشرية الآدمية لا تكون إلا بالهيكل العظمى حيث هو الفارق بين الصورة الآدمية وغيرها من تنوعات المخلوقات كما بيناه قريبا، فكأنه صلى الله عليه وسلم يشيرمن ظهر الغيب بإصبعه الشريف إلى طور العظام صفة وزمنا، فأما الصفة فهى تصوير الآدمى على صورته التى خلقه الله عليها وهو طور العظام وقد تبين لك، وأما الزمن ففى أول الأسبوع السابع وهو المقرر دون خلاف بين العلماء بعد قرون من العمل المضنى والبحث المرير والمكتشفات المتلاحقة والوسائل المذهلة. سلوا أشد الكافرين عنادا، من علم محمدا بليلة التصوير الربانى حيث قطع النبى صلى الله عليه وسلم بالليلة المحددة التى يتم فيها التصوير من بين مائتين وسبعين ليلة أو قريب، تلك التى صادقت عليها الصور العلمية الصارخة بالحقيقة المذهلة. هاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدد ليلة التصوير فى معجزة علمية صاعقة خلفت الكفر بعدها واجما مبهوتا، إنها السنة الشريفة جنبا إلى جنب مع القرآن العظيم فى استعراض هادر فى بحر من المعجزات،ولا يكابر فى ذلك إلا أعمى شديد الزيغ والفساد.

وبنشوز العظام فى هذا الطور الفاصل يتكامل تخلق الأعضاء وتتكاثف تخلقات إعدادها لحياة ما بعد الرحم. وبدلا من التعاريج الكثيرة فى طور المضغة ومع انتصاب الهيكل الغضروفى في طور العظام يستوى ويتناسق جسد

الجنـــين، كمـــا ينتصب الإنحناء والتقوس إلى الإعتدال والإستقامة كما ورد في القـــرآن الكـــريم (ياأيهـــا الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك* فى أى صورة ما شاء ركبك)[1] (سورة الأنفطار:٧).

(١) انظر بحث: توافق المعلومات الجنينية مع ما ورد في الآيات القرآنية.

فكسونا العظام لحما

إن معظـــم خلايـــا العضلات (اللحم) الكاسية للعظام إنما تنشأ من الفلقات المـــتخلقة فى طور المضغة والتى تتحدد بها مناطق الجسد حيث تمثل كل فلقة مـــنطقة بعيـــنها من الجسم.وبناء عليه فإن العضلات تتخلق منطقة منطقة وكتلة كـــتلة من الجسم، ولاينشأ الجهاز العضلى دفعة واحدة كبقية الأعضاء الأخرى تلـــك الحقـــيقة التى تبرهن عليها توزيعات الأعصاب فى سائر الجسم، ذلك أن الأعصاب تواكب مسيرة تنامى العضلات لتوفر لها عنصرى الإحساس والحركة معا، فبمؤشر تفرعات الأعصاب يتم التعرف على تفاصيل تخلق العضلات، هذا بالطبع فضلا عن المتابعة المباشرة لتنامى العضلات فهى تقطع بهذه الحقيقة.

أمـــا عن البداية ففيها كثير من المشابهة فى تفاصيل التخليق بالعظام، فعند نهاية الأسبوع الخامس، وبداية الأسبوع السادس الجنينى تهاجر الخلايا العضلية الأولـــية عن موطن تخلقها الأصلى فى الفلقات، وهو نفس السلوك الذى تسلكه الخلايا العظمية البدائية.

وبمجرد أن تستقر فى مواضعها الجديدة فلا تلبث أن تتشابك وتتماسك مع نظيـــراتها متنامـــية باتجاه البطن لتكوين كتل عضلية ظهرية (epimeric) وأخرى بطنية(hypomeric) فأما لحم الظهر فى الإنسان البالغ فأصله الكتلة الظهرية، بينما عضـــلات الـــبطن والضلوع من الكتلة البطنية (hypomeric)، وفى تناغم عجيب يرســـل العصب الشوكى فروعا عصبية تأخذ مجراها متفرعة بإحكام بين ثنايا العضلات كتركيبات الكهرباء المتغلغة داخل جدران قصر مشيد .

وأمـــا عـــن التدبير الحكيم والهداية المهيمنة على تخليق اللحم الذى يكسو العظـــام فإن الخلايا العضلية الابتدائية المتميزة بقصر أطوالها سرعان ما تندمج مـــع بعضها متحولة إلى أنابيب عضلية طويلة (Myotubes)، تتخلق تدريجيا إلى الألياف العضلية Myofilaments التى تنتظم تدريجياً كذلك في الحزم المعروفة من الألـــياف العضلية المميزة لنسيج اللحم الذى يكسو العظام، ثم مع نهاية الأسبوع الســـابع وخـــلال الأسبوع الثامن، تتصور وتتجسم عضلات الجذع والأطراف والرأس، بحيث يمكن للجنين بها أداء أوائل حركته الواهنة الضعيفة.

ويـــتم اتصال الألياف العضلية بالعظام بواسطة الأوتار الموصولة بغشاء العظـــام الـــذي ســـبق تخلقـــه. العلم المذهل الذى ذكره القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة عام وهو أن العظام في جنين الإنسان إنما تتخلق فى طور سابق على طور كساء العظام باللحم (العضلات) فقال تعالى: (فكسونا العظام لحما) (سورة المؤمنون: آية١٤).

إن الشـــهادة المدوية لأساطين العلم الجنينى وبين أيديهم عشرات الوسائل العلمية المقتحمة إلى أعماق الرحم لتنادى بعظمة القرآن الكريم وإعجازه، وتفجر المعجزة القرآنية فى التقرير الجازم دون تردد أو تلعثم أن العظام أولا ثم اللحم ثانـــيا، المســـألة المحيرة التى تخبطت فيها آراء أشد علماء الأجنة رسوخا حتى ســـنين قلائـــل، وإليك البيان التالى فى عبارة واحدة تعرف منها حجم الإعجاز المـــذهل في شرح الحقائق المستحيلة: يقول بروفيسور باتين فى كتابه الشهير: علم الأجنة البشرى

(عـندما تـتكون عظـام الهـيكل فإن الطبقة المتوسطة التي تتشكل منها العضـلات تبدأ في التجمع على هيئة كتل ظهرية أو بطنية، وتقوم بكساء أجزاء الهيكل العظمي المتكون).[1]

قلـت: أليسـت هذه هى الترجمة الحرفية لقول الله تعالى: (فخلقنا المضغة عظامـا فكسـونا العظام لحما)، يقول الله تعالى: (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون).

(١) PATTEN, HUMAN EMBERYELOGY, ٣RD EDP. ٢٤٨ ١٩٦٨.

سكون هادئ بين طورين صاخبين

الأربعـــون يـــوما الأولى من حياة الجنين تكون خالية تماما من العظام أو اللحم (العضلات)على صورتها المعروفة . ولا تظهر العظام إلى الوجود إلا في الأسبوع السابع كما تقدم، ويتغير على إثرها الجنين هيئة وتصويرا وتجسيما وقد بيناه قريبا فراجعه، وبه فأنت أمام طور جديد ذى خصائص متميزة فارقة دون لـــبس بيـــنه وبين سابقه ألا وهو طور المضغة. ويلي طور العظام طور آخر فاصـــل بـــدوره من غير غموض بين طورين: طور العظم المحض فى أوائل الأسبوع السابع، وطور العظم المكسو باللحم ويأتي عقب مرحلة العظام مباشرة من أواخر الأسبوع السابع إلى تمام الأسبوع الثامن. فيستوى الجنين بناءً ويعتدل قامـــة ويصور على الهيئة الآدمية المألوفة، وتتكامل الأعضاء وتتخلق جميعها تقـــريبا كمـــا ورد فـــى موضعه، إلى أن يبلغ التخليق ذروته بقدرة الجنين على الحركة وإن كانت ضعيفة في نهاية الأسبوع الثامن.

ولا يشـــك عاقـــل فى البون الشاسع بين هذا الطور المتكامل البديع وبين الطـــور الـــذى يسبقه حيث ملحمة تخليق العظام الناشزة المنتشرة المتغلغلة فى أنحاء الجسد الجنينى. (انظر الشكل ١١-٤).

وهـــو الحـــق المبين الذى جاء به القرآن مقررا ليس فقط وجود الطورين وتمايزهما وهو كاف لإلجام أشد المعاندين عنادا، بل بتقرير متحد راعد لطبيعة الـــزمن الخاطـــف السريع الذى يفصل بين الطورين مبينا ذلك باستخدام حرف العطف المعبر عن السرعة والعجلة لا التراخى والإبطاء، وهو الحرف الفذ الذى قد علمته الآن ألا وهو حرف الفاء.

ومما يقطع بالقصد العامد والحكمة البالغة، وينفى الصدفة والعبثية، تلك المراوحة بين الحرفين الدالين على النقيضين الزمنيين: السرعة والتراخى. والعجيب أن القرآن قد ذكر الطور التالى وهو طور(النشأة خلقا آخر) مقدما بحرف التراخى الزمنى (ثم) ليدلك فى علم مذهل على أن هذا الطور الأخير غير الأطوار السابقة فى أنه يستلزم زمنا أطول كثيرا منها جميعها، فأتى بحرف العطف (ثم) الدال على الترتيب والتراخي في الزمن، كما هو معلوم ومقرر دون نزاع فى كلام العرب، لتعلم أنه قصد عليم حكيم خبير سميع بصير بكل خلية مهاجرة راحلة فى خشوع من موطنها فى الفلقة إلى مستقرها فى الأطراف، وبكل خيط عصبى ساع كجندى طائع إلى مهمته فى أقصى زاوية من الكتلة العضلية، وبكل وتر قابض فى انصياع وتجرد ودون تراخٍ أو تكاسل بين غشاء العظام وأطراف العضلات، وكل عظمة تخلقت، وكل انحناءة بسطت، وكل جارحة صورت. الآية الناطقة الصاعقة فى الحرف الواحد الفاصل كالنهار بين كلام البشر القاصر الذاهل الناسى وكلام الحكيم العليم الخبير فى الآية الكريمة في قوله تعالى:

(فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) (المؤمنون: آية١٤).

معجزات.. معجزات

* كمـــا أن أحـــدث الصـــور العلمية أثبتت أن الطفل عقب الثلاثة الأشهر الأولى فى بطن أمه يبدأ محاولات مص أصابعه، فما هى ما مصلحته فى مص الأصـــابع فى ظلمات الرحم الكثيفة وما أدراه أنه سيعتمد ردحا من الدهر على هـــذه الموهبة الربانية بحيث تصير هى الخاصية الأولى فى حياة ما بعد الرحم، والفاصـــلة بـــين المـــوت والحياة؟ من الذي علمه؟ وأرشده فى حكمة وعلم عن حاجاته بعد عالم البرزخ الرحمى الذى يأتيه فيه زرقه رغدا من كل مكان دون جهـــد أو محاولـــة، إلى عالم الطعام والشراب والكد المتواصل والسعى الذى لا يهدأ .

* بـــل هناك ما هو أعجب وأغرب فقد أثبتت أحدث الدراسات أن الجنين فى أواخر أطوار الرحم يمعن ويجيد فن التصنت بأذنيه مسترقا السمع من خلف جدار بطن أمه إلى الأصوات في العالم الخارجى مستأنسا بها حتى إذا ما خرج تـــراه عارفا مميزا بنبرات الأصوات، يأنس بصوت الأم ويطرب لسماعه دون فهـــم أو إدراك فهـــذا الصوت العذب الحانى لطالما أمنصت فى حبور غليه يوم كـــان يـــتقلب فى عالمه الرحمى، والطريف انه يعرف الأب كذلك من غير أن يكـــون بينهما صله، وبعد إعمال الفكر والبحث وقف العلماء على سبب تعرف المولـــود على الصوت الأب والطرب له دون سائر الناس لأن أكثر صوت كان يســـمعه بجـــوار الأم هو صوت الأب، وما أن يخرج للعالم ويسمع صوته حتى يهش ويفرح ويستأنس به، يقول سبحانه "الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

طور النشأة خلقا آخر

طور فارق بين الحمل الخفيف(Faetus)

والحمل الثقيل(Embryo)

فـــى تسعة أشهر حافلة بأشد الأحداث إثارة وروعة يخوض الجنين رحلته المذهلـــة من عالم البرزخ فى الرحم إلى عالم الحياة، الجنين الذى يسابق الزمن ســـرعة وتوثـــبا على الطريق العجيب نحو دخوله العظيم إلى عالمنا المتماوج كالـــبحار الثائرة، وقد سلح بأمضى الاسلحة والدفاعات الربانية المعززة لرحلته القادمـــة العاصفة فى عالم الشهادة ابتداء بالزيادة الكبيرة فى وزنه وحجمه، ذلك أن الأعضـــاء جمـــيعا تكتمل وتتم فى الشهر الثالث، ويقطع الجنين بقية الرحلة وهى ستة أشهر طويل تمثل الطور الممهد لدخول الجنين إلى عالمنا وهو طور (النشـــأة الأخـــرى) فـــى زيادة الوزن بما يلائم تبعات مرحلة الحياة الأرضية، ومجهـــزا بمخـــزون مـــن مواده الغذائية اللازمة للطوارىء والأحداث العصيبة ومختزنا الخلايا المناعية المقاومة للأمراض والتى تضخها الأم فى ثبات وتتابع عبر المشيمة والحبل السرى.

وبـــيان ذلك أنه فى اليوم الرابع والخمسين إلى السادس والخمسين أى فى نهاية الاسبوع الثامن تكون كافة الأعضاء العظمى للجنين قد تخلقت فعليا، وبدأ كل منها وبصورة تدريجية محاولاته الأولى لأداء عمله فى ثقة وإتقان، وكسيت العظام لحما، وكسى اللحم جلدا بديعا، وتميز الوجه والأنف والفم وتخلق اللسان،

وبـــدت اصابع اليدين والقدمين، وبدأ الجنين يتململ فى حركات ساذجة متكررة دون أن تشـــعر به الأم، وبدا الإنسان على الهيئة القويمة التى وصفها الله تعالى فى كتابه فى قوله تعالى: (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)

وبهـــذه التصـــويرات المتقنة المتناغمة المحكمة فكأنما تخلق الإنسان فعليا علـــى تمامه، غير أنه فى حجم صغير مثير لا يزيد عن ثمرة الفراولة (بوصة واحدة أو إثنان ونصف سنتيمتر)

وتـــبدأ طـــور النشأة خلقا آخر في الأسبوع التاسع، حيث يأخذ الجنين فى النمو المتواصل لتحصيل أكبر زيادة فى الوزن غير أن هذا التنامى يبدأ متباطئا ثقيلا لثلاثة أسابيع إلى بداية الأسبوع الثانى عشر وفجأة تنطلق عمليات البناء فى تســـارع وانـــدفاع محدثـــة تغييـــرات ضـــخمة فـــى الوزن والقدرات وتأهيل الأعضاء.ولعل هذا التثاقل فى التنامى هو الفترة الزمنية المتراخية، والتى يجهز فـــيها الجنـــين لطـــور الإنطلاق الأعظم مندفعا فى طريق التأهيل لحياة ما بعد الـــرحم، ولا تســـتهن بفتـــرة ثلاثـــة أسابيع رحمية فإنها طويلة جدا لو قورنت بالفتـــرات الســـابقة التى لا تتعدى الأيام القليلة بين طور وآخر فراجعه فى هذا المقـــام فهـــو عظيم النفع، ومن هنا جاء الحرف القرآنى البليغ لبيان هذه الفترة الفاصلة بين الطورين بحرف العطف (ثم) وذلك فى الآية الكريمة:

(ثم أنشأناه خلقاً آخر) (سورة المؤمنون: ١٤).

معجزة اللفظ العلمى القرآنى (النشأة خلقا آخر)

أمـــا عـــن دقائق التفاصيل الحادثة فى هذا الطور فإنها تستبين لك كما هو معتاد من المدرسة العظمى فى تأصيل مثالية اختيار اللفظ العلمى القرآنى، فإنك لـــو رجعت لمعانيه العربية اللغوية لأدركت على الفور كل ما هو حادث داخل الطـــور المقصود وخارجه. وقد تبدت هذه السمة العجيبة فى القرآن الكريم فى كـــل المصـــطلحات المذكورة من أول بحثنا هذا، بل وفى كافة الفروع العلمية الأخرى حيث لا مجال لذكرها هاهنا.

التعريف اللغوى لألفاظ (النشأة خلقا آخر):

وفى هذا المقام ونحن بصدد بيان طور (النشأة خلقا آخر) فإنه مركب من ثلاثـــة ألفـــاظ: النشأة ــ الخلق ــ الآخر. فأما الآخر فقد جاء فى لسان العرب: (والآخـــر بالفـــتح: أحد الشيئين وهو اسم على أفعل، والأنثى أخرى، إلا أن فيه معنـــى الصفة لأن أفعل من كذا لا يكون إلا في الصفة. و الآخر بمعنى: غير، كقـــولك رجل آخر وثوب آخر وأصله أفعل من التأخر، ومعنى آخر: شيء غير الأول)

فمما ورد هنا نقع على ثلاثة معان:

الأول: أنه مختلف عن غيره وفيه معنى صفة تأخره عنه.

والثانى: بمعنى: غيره.

والثالث: بمعنى اعتبارهما شيئين اثنين أول وآخر، فالآخر غير الأول.

المطابقة القرآنية المعجزة للفظ (آخر)

وهـو وصف بالغ الدقة إلى حد مذهل لما يحدث فى هذا الطور، وتنطبق عليه بصورة مذهلة كافة المعانى المشتقة من اللفظ القرآنى (الآخر) وبيانه:

أولا: هـذا الطور نشط كاسح زمانا ومكانا، فأما الزمان فهو يستحوذ على ثلثى فترة الحمل بكاملها وكل ما سبق من أطوار وتخلقات لا تشغل إلا فى فترة الثلث فقط، وأما المكان فهو يقفز بحجم الجنين من حجم ثمرة الفراولة بطول بوصة واحدة عند نهاية الأسبوع التاسع ثم فترة متوسطة لثلاثة أسابيع فى تنامى هادىء رصين توطئة لما يأتى حيث يندفع فى وثبات متلاحقة من النمو العاصف إلى الحجم الهائل للجنين الذى يبدو فى نهايته سمينا جدا حيث يزن ثلاثة ونصف كيلوجرامات فـى مضـاعفة هائلـة للحجـم إلى مائة ضعف تقريبا، أما الطول فيتضاعف قافزا بصورة مثيرة إلى عشرين ضعفا فيبلغ طوله نصف المتـر. فتبـين لك مما سبق أن هذا الطور يخالف الأطوار السابقة مجتمعة حتى كأنها جميعا وقد صارت بالنسبة له طورا واحدا يعقبه هذا الطور الآخر وهو ظاهر جدا فتأمله، وبه ينطبق المعنى العربى مـن لفظـة(آخر) وهو: (بمعنى اعتبارهما شيئين اثنين أول وآخر فالآخر غير الأول) وقولهم: (و الآخر بالفتح: أحد الشيئين)

ثانيا: إن هذه الطور مرتبط بالذى سبقه من الأطوار من جهة أنه يبنى على تـراكم التخلقات الكثيرة قبله حتى تأتيه شبه تامة ولكنها فى صورة مصـغرة، فهو من جهة مختلف عنها كونه ليس مجالا لأية تخلقات

جديـــدة للأعضـــاء المخلقة فعلا، غير أنه متأخر زمنا عنها جميعا ليجهز هذه الحصيلة التخلقية الثرية فى قدرة وقوة لحياة ما بعد الرحم فهـــو مـــن هذا الجانب طور(آخر) بمعنى: متأخر، فالتأخر صفة له هاهـــنا لأن (آخـــر) هـــى (أأخـــر) على وزن أفعل كأجمل وأكمل وغيـــرها، وهـــو المعنى بقولهم: (أنه مختلف عن الخلق الأول وفيه معنى صفة تأخره عنه)، فتدبر.

ثالـــثا: قـــد ظهر لك جليا مما تقدم أنه زمانا ومكانا غير الأطوار الأولى مجـــتمعة، وهو المعنى الثالث المتبادر للعربى من إطلاق لفظ(آخر) وهو يفيد (الغيرية)، وهو الحق حيث أن هذا الطور لا يتميز بتخليق أعضـــاء لـــم تخلـــق، بل هو طور طويل يمثل حوالى ثلثى الحياة الـــرحمية مكرســـا بأكملـــه لتعزيـــز ما سبق أن تخلق، وتجهيز تام للاعضاء المخلقة، وتأهيل الجنين بالعناصر الغذائية اللازمة لحياة ما بعـــد الرحم، فهو باختصار طور التأهيل والتهيئة والتوطئة للخروج للعالم، فهو وظيفة وعملا وأداء يختلف كليا عن كل الأطوار السابقة حيث قد ارتكز كل طور منها على تكملة بناء لم يكن موجودا بالكلية فيما سبقه فكلها أطوار تكميلية تراكمية ينبنى كل منها على سابقه من جهة التخليق، بل يتخلق منه متحولا من حال إلى حال، بخلاف هذا الطـــور الكبيـــر فهـــو طور الإنطلاق بالكل من عالم الرحم المظلم المحـــدود إلـــى العالم الكبير الذى هو مقبل عليه ومتوجه إليه، فهو طور آخر غير الأطوار الأخرى مجتمعة، والله تعالى أعلم.

المعنى اللغوى للفظ (خلق):

وأما الخلق فهو فى كلام العرب كما يلى:

(أصل الخلق: التقدير، فالله تعالى باعتبار تقدير ما منه وجود المخلوقات: خالــق، وبالاعتــبار للإيجاد على وفق التقدير: خالق. والخلق في كلام العرب: ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه (ألا له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين) قال أبو بكر ابن الأنباري الخلق في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإنشاء على مثال أبدعه، والآخــر: التقدير، وقوله تعالى: (أني أخلق لكم من الطين) خلقه: تقديره ولم يرد أنه يحدث معدوما، وخلق الله الشيء يخلقه خلقا أحدثه بعد أن لم يكن، وقوله عــز وجل: (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث) أي يخلقكــم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ثم يكسو العظام لحما ثم يصور وينفخ فيه الروح فذلك معنى خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث) إنتهى

فظهر مما سبق أن الخلق له معان:

التقديــر ــ إحــداث المعدوم ــ إبتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه ــ تصيير مخلوق إلى آخر كالعلقة إلى المضغة

المطابقة القرآنية المعجزة للفظ (خلق)

وهى معان كلها متحققة فى هذا الطور العجيب.

أولا: فــالله تعالــى خلقه خلقا آخر باعتبار تقدير ما منه قد خلقه ألا وهو جملة الأطوار السابقة له.

ثانـــيا: هو خلق آخر لله تعالى باعتبار حدوثه حتما بناء على تقدير من الله تعالى،

ثالـــثا: كل كمية اللحم والعظم والأعضاء النامية الزائدة والعناصر المغذية المخلـــوقة والـــوزن الهائـــل والطول الفارع بالنسبة لسائر الأطوار مجتمعة يعد خلقا من جهة إحداث المعدوم، فأين كان كل هذا الكائن الضخم عندما كانت أعضاؤه جميعا إبان طور المضغة فى حجم حبة العـــنب، وعـــند طور الكساء باللحم فى حجم ثمرة الفراولة، كل هذا وهـــو مكـــتمل بـــناءً وأعضـــاءً وهيئة، فأين هذا من حجم الثلاثة كيلوجرامات عندما يولد الجنين،

رابعـــا: وأمـــا من جهة تصيير مخلوق إلى آخر فمن جهة أنه عبارة عن تضخيم للجنين المتخلق علقة فمضغة فعظام فلحم،

خامســـا: أمـــا ابـــتداعه على غير مثال سابق فهو معجزة المعجزات فى أعاجـــيب خلق الجنين، فكل ضحكة وكل حركة وكل دعابة طريفة وكل لفتة بديعة من غرائب خرق العادة على غير مثال سابق، بل إن نفـــخ الروح وحدها فى هذا الطور كافية لوضعه فى المعنى الحرفى للخلـــق المعجز الذى أوجده الله تعالى بقدرة وعظمة وعلو على غير مـــثال سبق إليه، كيف ولا يمكن تصور الروح فضلا عن العلم بها وأســـرار ســـريانها فـــى هذا المخلوق البديع الخارج لتوه من عالم الظلمـــات، لا مثال له، ولا يمكن تصوره أو تخيله إلا بعد أن يخلقه الله تعالـــى واقعا متحديا شاخصا ماثلا، يقول الله تعالى: : (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين)

الطور الفارق بين (الحمل الخفيف) و(الحمل الثقيل)

يقول الله تعالى:

(هـو الـذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين)

تتميز مرحلة (الحمل الخفيف) ببداية تكون الأعضاء وظهورها، بينما تتسم مرحلة (الحمل الثقيل) اللاحقة لها بتهيئة الأعضاء المختلفة لأكمل أداء لوظائفها فـى عـالم مـا بعـد الولادة، وهو كما ترى موافق تماما لما ذهب إليه بعض المفسرين من وصفه بأنه فيه (يصبح الإنسان كائناً ناطقاً سميعاً بصيراً)[1].

وتعبـر نهايـة طور كساء العظام باللحم الحد الفاصل بين مرحلتي الحمل الخفـيف والحمـل الثقيل، وذلك معجز أيضا فى تفرقة القرآن الكريم بين هذين الطـورين العظيمين فى حياة الرحم جامعا كل الأطوار التخليقية من أول الحمل حـيث الحجم المجهرى إلى نهاية طور الكساء باللحم فى الأسبوع الثامن حيث حجـم ثمـرة الفراولة تحت إسم جامع لها وهو (الحمل الخفيف)، وأما (الحمل الثقـيل) فهو القسم الكبير الباقى وهو البادىء من نهاية الحمل الخفيف إلى نهاية الحمل بكامله وزمنه ستة أشهر ووزنه ثلاثة كيلو جرامات ونصف. ومن عجب أن أحدث المراجع العلمية بكافة اللغات والبلدان قد أجمعت على تقسيم الجنين فى الـرحم إلى قسمين كبيرين من ناحية الحجم تحت مسميين مختلفين وهما Faetus

(١) الألوسي: (روح المعاني) ج١٨ ص١٤.

عندما يكون دقيقا صغيرا جدا(الحمل الخفيف)، Embryo عندما يكون فى مراحله الأخيـــرة حيث الهيئة المعتادة للجنين (الحمل الثقيل) فلا تسل عن حجم المعجزة المدويـــة فـــى هذه المطابقة العجيبة بين مصطلح القرآن والمصطلح المعاصر وكأنه ترجمة حرفية لما جاء فى هذا الكتب ليكون شاهدا ونذيرا يقول الله تعالى (ويـــرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) .

طور فارق بين حياة النبات وحياة الإنسان

هذا الطور فارق أيضا بين نوعين من الحياة ينتشران فى كون الله الفسيح، فإحداهما هى الحياة غير المقرونة بالإرادة كحياة النبات، والثانية الحياة الإرادية كحياة الحيوان، وهما كلتاهما تمثلان طورين رئيسيين فى حياة الجنين، والفرق بينهما هو طور(النشأة خلقا آخر)، فالحمل الخفيف وما قبله هو حياة قطعا، ولا يقول عاقل بأن كل ما حدث فى الأطوار السابقة هو محض عدم أو هو شأن الجماد الميت أو الحجر الأصم، إنها حياة ولا ريب، تتنامى وتتطور وتتخلق فى نشاط ودأب، غير أنها حياة لا ترابط فيها بين عضو وعضو، بل لا إرادة سواء فى الحركة أو الدافع والرغبة، وما تؤكده النصوص القرآنية[1] والنبوية[2]أن الروح تنفخ في الجنين فى لحظة مقدرة كتبها الله تعالى، يفهم منه صريحا أنه بلا روح قبل هذه اللحظة، مع ما تقدم من التسليم بأنه كان حيا طوال فترة وجوده فى الرحم، فكيف يكون حيا قبل نفخ الروح، والجواب أن حياة الجنين البدائى قبل نفخ الروح ما هى إلا حياة برزخية خاصة لها صفات محدودة مغايرة لحياة الناس، مما دعا علماء السلف إلى إطلاق إسم (الحياة النباتية) عليها . وشأن الروح من الأسرار الربانية الكبرى فى خلقه والتى قضت حكمته سبحانه وتعالى أن يعمى العلم بها وبأحوالها عن سائر عباده وهو صريح فى

(١) قال تعالى: (فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر) (سورة المؤمنون:١٤).

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق -قال: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد" صحيح مسلم ٢٠٣٦/٤، ج٢٦٤٣.

قوله تعالى: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)، ولكن كيف يمكن التعرف على وجودها من عدمه فى كائن يعيش فى الظلمات ويقضى نصف عمره فى تخلق متواصل لتتم به الأعضاء فهو ناقص طوال زمن التخلق يزداد يوما بعد يوم، ومع ذلك فهو من الأحياء يقينا فالجمادات لا تتخلق ولا تتطور ولا تتكاثر ولا تتحول تباعا من حال إلى حال. ولكن هناك علامات يمكن اعتمادها للتعرف علي زمن دخول الروح إلى الجسد دون السؤال عن الكيفية أو الهيئة، فهو عبث وطلب ما لا مطمع فى العلم به بعدما حسم الله تعالى الجواب على السائلين.

وأقرب علامتين لوجود الروح فى الجنين هما: أولا: قدرة الجنين على النوم واليقظة فإذا تم التحقق من الزمن الذى يحدث فيه ذلك، أى الوقوف الدقيق على أول لحظة يكتسب الجنين فيها القدرة على النوم واليقظة فى الرحم، دل ذلك قطعا على وجود الروح لأنه من سماتها أنها تغادر الجسد فى النوم وتعاود الإتصال به فى اليقظة [1]،وهو ظاهر فى قول الله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (سورة الزمر:٤٢).

(١) في أثناء النوم تحدث بعض الرؤى المنامية الصادقة التي تتحقق بعد رؤية النائم لها بفترة من الزمن وهذا دليل على أن النائم يمكن أن يرى شيئاً من المستقبل قبل وقوعه، ومن المؤكد أن جسم الإنسان لم ينتقل من مكانه ليرى ذلك الشيء، وهذا يدل على أن الروح هي التي رأت ذلك، وهي التي تعطي الإنسان إذا استيقظ الشعور بأنه كان في مكان بعيد ثم حضر لتوه، وأن الروح التي رأت الرؤيا هي نفسها التي تتذكرها في حالة اليقظة (المعلق).

وقـــال تعالى: (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فـــيه ليقضـــي أجـــل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) (سورة الأنعام:٦٠).

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عند استيقاظه: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور)[1].

وأمـــا العلامة الثانية: فهى لحظة تمكن الجنين من التحرك الإرادي بقصد ورغـــبة عفـــويا أو إزاء التقلبات المفاجئة فهو دليل على وجود الروح، مقارنة بأطـــوار التخلق الأولى حيث تتكاثر الخلايا وتتخلق دون إرادة الجنين، وكذلك الحـــركة الجنينية البدائية قبل اكتمال الجهاز العصبى فإنها إنعكاسية ولا إرادية. فلا دليل هاهنا على وجود الروح.

(١) رواه البخاري انظر فتح الباري ١١: ١٣٠.

طور الخلق فى أحسن تقويم

قد علمت عموم ما يحدث من تماوجات الخلق فى طور(النشأة خلقا آخر)

ولكن التفاصيل تبقى بعد ذلك صاعقة ومذهلة ومديرة للرؤوس.

(الشهر الثالث) الأسبوع الثانى عشر

(يبلغ طوله ستة ونصف سنتيمترا ووزنه١٨ جرام)

يصبح الجنين أقرب ما يكون من الإنسان صورة مع أن رأسه يبقى ضخما بالمقارنـــة بجســـده أما أطرافه فتبقى صغيرة برغم اكتمالها،تشكلت كل اعضائه الداخلـــية وباشـــر معظمهـــا وظائفه تكون الجفنان وهما يغطيان العينين، تكون صـــيوان الأذن، الأطراف مع أصابعها، باشرت أظافرصغيرة النمو فى أصابع اليدين والقدمين، بدأت العضلات بالنمو لتزيد حركة الطفل، بات قدرا على ثنى اصـــابع قدميه وقبض يديه، تحريك عضلات الوجه للعبوس وفتح الفم وإغلاقه وتحريك الشفتين، ويمكنه الأم أن يرضع ويبتلع ويتبول.

الطور الفارق: ذكر أم أنثى

(الشهر الرابع)الأسبوع السادس عشر

(الطول ١٦ سنتيمترا والوزن ١٣٥ جرام)

ينمو الحاجبان والأهداب بعد نمو شعر زغبى على وجهه وجسده، كما تبدو بشـــرته رقيقة للغاية وشفافة وتظهر شبكات الأوعية الدموية من تحتها، تتشكل مفاصل يديه وقدميه، يحرك صدره الآن وكأنه يتنفس، ويمتص إبهامه، ويتحرك بكثـــرة دون أن تحس به الأم، أما القلب فإنه ينبض بسرعة دقات ضعف دقات قلب أمه التى يمكنها فى سعادة سماعه بسماعة خاصة بعد الأسبوع الرابع عشر، إن هـــذا الشـــهر ليشهد نموا سريعا حتى يكتمل الطفل تماما، ليواصل نموه فى الأسابيع القليلة الباقية ليصبح قادرا على الحياة خارج الرحم .

تحديد الجنس: وتتضح الأعضاء الجنسية بحيث يمكن تمييز جنس الجنين

وقـــد ورد فـــي القـــرآن الكريم والحديث النبوي ثلاث خطوات تحدد نمو الخصائص الجنسية (التذكير والتأنيث).

- وتحدث الخطوة الأولى:

في مرحلة النطفة[1]

- أما الخطوة الثانية:

(١) راجع بحث النطفة.

وهـــي تمايز غدتي التناسل على شكل خصيتين أو مبيضين، فإنها تحدث خلال مرحلة الكساء باللحم (في الأسبوع التاسع)[1].

- وتحـــدث الخطوة الثالثة وهي: تميز الأعضاء التناسلية الخارجية خلال طور: (النشأة خلقا آخر) .

كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف الذي رواه مسلم (عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعـــث الله إلـــيها ملكـــاً فصـــورها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها. وعظامها، ثم قال يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك)[2].

فالحديث يفيد أن الملك يستأذن الله عز وجل في جعل الجنين ذكراً أم أنثى بعد خلق السمع والبصر واللحم والعظم والجلد، فيأذن الله له بذلك.

وهذا يتحقق بخلق الأعضاء التناسلية الخارجية التي يتم بها التمييز النهائي للذكورة والأنوثة، وتكتمل بها أطوار تحديد الجنس، علما بأن الأعضاء التناسلية الخارجـــية تكـــون مـــتماثلة إلى الأسبوع التاسع، وتتم البدايات الأولى لها في الأســـبوع الثانـــي عشر وسرعان وما تظهر الأعضاء جلية متميزة بينة فى هذا الشهر.

وللتوفـــيق بين هذا الظهور فى الأعضاء التناسلية وبين قوله تعالى (وأنه خلـــق الـــزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) والذى شرحناه بتفصيله فى موضعه فبيانه ان ما يتم فى النطفة هو تقدير الذكورة والأنوثة وكتابتها فالنطفة

(١) انظر بحث توافق المعلومات الجنينية مع ما ورد في الآيات القرآنية.

(٢) صحيح مسلم٤: ٢٠٣٧ ج٢٦٤٥.

كما علمت مكتوب فيها كل ما يتعلق بالجنين غير أن هذا التفجير لا يبصر العالم الخارجـــى غلا بالتتابع طوال أطوار التخلق غل ىان يبدو على الهيئة الواقعية التى يتم بها التعرف على الجنين بالعين المجردة كالذى يحدث هاهنا ومنه تفهم كمـــا نلاحظ أنه يمكن التمييز بسهولة بين الأعضاء التناسلية الخارجية للجنسين فـــي الأسبوع الثاني عشر، وتصعب قبل ذلك علماً بأن التطور الجنسي لمستقبل الجنين المتمثل في الغدد والأعضاء التناسلية الخارجية قد تحدد سلفاً وفقاً لجنس الصبغى المامكن فى النطفة الأمشاج كما تبين لك عند المكلام عليها، فتدبر

(الشهر الخامس)الأسبوع العشرون

(الطول ٢٥ سنتيمترا والوزن ٣٤٠ جرام)

ينـــبت الشعر على الرأس، وتبدأ الأسنان بالتكون، وينتهى تصوير وتكوين الذراعين والساقين. تكثر الحركة وتشعر الأم بها خفيفة رقيقة على صورة رفيف خافت، يتجاوب الجنين مع الأصوات خارج الرحم

الشهر السادس) الاسبوع الرابع والعشرون

الطول ٣٣ سنتيمترا والوزن ٥٧٠ جرام

معجزة القرآن فى تقرير أقل مدة للحمل

يصبح الجنين فى هذا الشهر من هذا الطور الأخير (النشأة خلقاً آخر) قادراً على الحياة خارج الرحم، فى موافقة معجزة مع ما يجزم به القرآن العظيم بما يتبين جليا من تطبيق المنهج القويم فى الجمع بين أطراف الأدلة فى الآيات القرآنية الكريمة التالية:

قال تعالى: (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) (سورة الأحقاف:١٥).

وقال تعالى: (... وفصاله في عامين...) (سورة لقمان:١٤).

وقال تعالى: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة...) (سورة البقرة:٢٣٣).

قلت: ففى الآيات الكريمة جاء الحمل والفصال أى الفطام فى ثلاثين شهرا بينما قررت الآية الثانية والثالثة أن الرضاعة تتم فى حولين كاملين أى فى أربعة وعشرين شهرا، فكان الحمل دون الفصال هو ستة أشهر وقد اعتبرها المفسرون أقل مدة ممكنة للحمل فلا يعد الحمل حملا كاملا دون هذه الأشهر الستة من خلال تلك الآيات. وقد أثبت العلم ما قرره المفسرون[1] لاستحالة قدرة الجنين على التنفس قبل نهاية الأسبوع الرابع والعشرين نظراً لعدم اكتمال تخلق الرئتين اللتين سوف يعتمد عليهما فى تنفس الهواء الذى تستحيل الحياة بدونه، كما أنه فى حال ما إذا ولد قبل هذه الفترة فلا يمكن تحت أى تجهيزات طبية تكملة تخليق الرئتين خارج الرحم، نعم يمكن بعد الشهر السادس معاونة الجنين

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٠٨، البحر المحيط لأبي حيان ٨: ٦٠.

علـــى التنفس فى حضانات طبية مخصصة لذلك، شريطة وجود أداة تنفس فى الجسم صالحة للعمل من حيث الأصل، الأمر الذى لا يتم إلا بعد الشهر السادس حـــيث تمـــام خلق الرئتين، ولقد فهم الصحابة هذا المعنى الجليل الدال على أن أدنـــى مدة للحمل هي ستة أشهر، أى أن أدنى حمل معتبر هو ستة أشهر، وبه أفتـــى أميـــر المؤمنـــين علـــي بـــن أبي طالب رضي الله عنه وأقره على ذلك الصحابة[1] رضوان الله عليهم أجمعين، وبه قال المفسرون. ومن هذا يتبين مدى المـــوافقة القـــرآنية المدهشـــة في تحديد أقل مدة للحمل، كما تشير إليها الآيات القـــرآنية مـــع ما تقرر علميا بعد أشق الدراسات وأعقدها. وفيه مالا يخفى من الإعجاز نظرا للجهل التام به قبل عصر الإستبحار فى علوم الفترة الرحمية، كما أن فـــيه مـــا لا يمكـــن جحده من ضرورة العلم الشامل بما يتم فى هذا الشهر الســـادس لتقريـــر هـــذه الموافقة العلمية، بل فيما يتم فى هذا الطور الأخير من الحمل بتمامه حتما ولزاما للقطع بهذا الزمن المحدد الذى يخالف ما هو متعارف عليه بين الناس جميعا، وما هو معهود فى حالات الولادة من أن الحمل الصالح لا يكـــون إلا تسعة أشهر أو سبعة أشهر ولا غير، حتى أتى القرآن الكريم بهذا الرقم المخالف لمعارف العامة والموافق لأحدث المعارف العلمية ليبين للناس أنه كلام العزيز الحميد بما لا يجحده إلا مكابرلا يعقل أو مطموس البصيرة ختم الله تعالى على قلبه .

ويضـــاف إلـــى ما سبق بيانه أنه لما كانت الولادة عادة ما تتم بعد تسعة أشهر، ولما كانت الأشهر الستة كافية لخروج الجنين مؤهلا بما يمكنه به الحياة،

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٧: ٣٧٧، تفسير ابن كثير ٤: ٢٤٠-٢٤١.

فعلـيه تكون الأشهر الثلاثة الأخيرة فترة تعزيز وتقوية وترسيخ لما هو حاصل فعـلا مـنذ الشـهر السادس الذى تتم فيه عمليات التنامى على أشدها، وبأسرع وأعلـى معـدل فى حياة الرحم بأكملها كما يأتيك الآن مفصلا، بما يعلم به أن مـرحلة الأشـهر الثلاثة الأخيرة من الحمل مرحلة حضانة ربانية للجنين داخل الرحم، أما ملاحم تكملة هذا الخلق القويم فى أحسن تقويم على حدها الأدنى فى الشهر السادس فإنها تجرى فى تلاحق وتزامن وتسارع كما يلى:

- عضـلات الذراعـين والساقين تتقوى لتصير بهما الحركة عنيفة، كما يصير الجنين قادرا على السعال والفواق (التجشوء)،
- فى هذا الزمن يغدو الطفل إنسانا واعيا ذا مشاعر ومتجاوبا مع محيطه، ونظرا لضخامة حجمه بالنسبة لفراغ الرحم فإنه يأخذ وضعه فى الرحم وهو متقوس بحدة بينما يتوسد كيس الماء الذى يحيط به من كل جانب .
- يعـتمد كلـيا على المشيمة متعلقا بحبل الحياة وهو الحبل السرى الذى تتدفق عبر نبضاته الحانية دفقات الطعام والأكسيجين،.
- فأمـا البصر: فما زال جفناه مغلقين لكنهما ينفتحان مع حلول الأسبوع الـثامن والعشرين (الشهر السابع)، فيتمكن عندها من الرؤية ومن فتح العينين وإغلاقهما.
- وأما السمع: فبإمكانه الآن استراق السمع وسماع صوت الأم، وإذا كان نائمـا فإن الأصوات الصاخبة تزعجه وتوقظه، وهو ويااللعجب، يفضل بعـض الأصوات على غيرها فينصت فى سكينة ومتعة لبعضها معبرا

عـــن ذلـــك بتحركاته الهادئة الوادعة، بينما يجفل وينتفض لدى سماعه ضجيجا صاخبا مفاجئا.

- وأما الوجه: فيبدأ تعبيرات فى غاية الجمال والروعة والطرافة إذ يقطب حاجبيه ويحول عينيه ويصر على شفتيه ويفتح فمه ثم يغلقه.
- بيـــنما عناية الله تعالى تتابعه فى رحمة وحكمة لحظة بلحظة فى إمداد ضافٍ سابغ رغد بمقومات الحياة إذ يتغذى بواسطة المشيمة حيث يأتيه رزقـــه رغدا من كل مكان، فى حماية منيعة من السائل السلى الدافىء (المحـــيط بـــه) والـــذى يـــتجدد بكامله كل أربع ساعات متخلصا من القاذورات والفضلات ومنظما حرارته وواق له من غوائل الميكروبات والعـــدوى، كـــذلك يمـــثل له حرزا حاميا وسياجا منيعا من الصدمات المفاجئة.
- وأمـــا التحـــركات: فإنه يمارس الآن أشد التمارين نشاطا وقوة، فيركل بـــرجليه ويقـــبض يديه، ويلكم بهما غير مبال بما يحدث خارج الرحم، وينقلب بحركات شقلبة فى خفة ونشاط وهمة،
- وأمـــا قدرته على النوم: فإنه ينام ويستيقظ عند الرغبة فى ذلك مباشرة وبصورة عشوائية، دون موعد محدد للنوم واليقظة، فلا فرق عنده بين الليل والنهار وقد يكون فى قمة الحيوية والحركة والسعادة عندما تكون الأم فى غاية الإرهاق والرغبة فى الإسترخاء والنوم.

- وأما تميز الشخصية: فإن قسم الدماغ المختص بالشخصية والذكاء يشهد نشـــاطا وتطـــورا وتكاملا خلال الشهر السادس، وهذا ما يساعد على التكوين السريع لشخصيته وظهور طباعه وسماته .
- وأما المص والإبتلاع والتنفس: فإنه يمص إبهامه، ويبلع السائل السلى، ويطـــرحه وفـــيه الفضلات من جسده على هيئة بول، كما أنه وبصورة مذهلـــة يواصل تفجير المفاجآت الطريفة من جهة استعداده لحياة ما بعد الـــرحم فـــيقوم بحركات تنفسية حيث لا هواء متمرنا بذلك على الحياة خارج الرحم.
- وأما التذوق: فتتشكل براعم التذوق فى لسانه، الآن، لكى يصبح بإمكانه الإســـتجابة للمـــذاق الحلو أو اللاذع أو المر عند حلول الأسبوع الثامن والعشرين (الشهر السابع).
- وفـــى عبارة واحدة فإنه يبدو الآن مشابها لوليد حديث الولادة ويتصرف مثله فى طفرات حالمة للحياة بين الناس خارج الرحم.

(الشهر السابع) الأسبوع الثامن والعشرون

طوله ٣٧ سنتيمتر ووزنه٩٠٠ جرام

يأخـــذ الطفـــل فى اختزان الدهن كما يغدو كثير الحركة. وتتكون له بشرة حمـــراء مجعـــدة، ويبدأ الدهن بالإختزان تحتها، كما تحدث تطورات هامة فى

الـــدماغ فيصير أكبر حجما وأكثر تعقيدا، ويشعر الجنين بالألم فى الشهر السابع ويتصرف كالوليد المتألم.

(الشهر الثامن) الأسبوع الثانى والثلاثون

طوله ٤٠ سنتيمترا وزنه ١،٦ جرام

لقـــد اكـــتملت صـــورة الطفل فى أحسن تقويم كما قدره الله تعالى، وبدت مظاهـــرالجمال حـــيث يـــبدو علـــى أكمل صورة من التناسب والإنسجام بين الأعضـــاء، كما يتواصل اختزان الدهن تحت بشرته فيبدو أكثر سمنة واستدارة ونعومة،إنه الآن على صورة الولادة الحقيقية إلا قليلا من الدهون والسمنة، كما يمكـــنه تمييز النور من الظلمة، وفى هداية عجيبة ينقلب فى هدوء وثقة موجها رأسه إلى أسفل، وكأنه يعلم بنهاية الرحلة وحلول زمن الرحيل من عالم البرزخ الحافـــل إلـــى عالم النور الصاخب وسبحان الذى خلقه وهداه وأرشده وفى أى صورة ما شاء ركبه.

(الشهر التاسع) الأسبوع السادس والثلاثون

طوله ٤٦ سنتيمترا ووزنه ٢،٥ كيلو

يشغل كامل الرحم، فيركل ويلكم عوضا على أن يحرك جسده كله، ويصير طول شعره ٥سم، وتبدو بشرته وردية، ويبدو أكثر استدارة بسبب الدهون تحت

البشـــرة،، تنمو أظافر رقيقة على يديه وقدميه يكتسب كل يوم ٢٨ غراما على مدى الأسابيع الأربعة المتبقية، يهبط برأسه نحو الحوض استعدادا للولادة.

(نهاية الشهر التاسع) الأسبوع الأربعين

الطول ٥٠ سنتيمترا والوزن ٣،٥ كيلو

يختفـــى أكثـــر الشعر الزغبى، ويكون مغطى بالطلاء الدهنى، كما تتجمع مـــادة قاتمـــة عبارة عن غائط الجنين فى أمعائه لتطرح خارج الجسم عند أول تبرز بعد الولادة.

ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم

* على الجملة فجملة ما تم من تفاصيل هذه الملحمة المهيبة الجليلة التى لا تكـــاد تصـــدق من نقل الجنين من طور الحياة فى الرحم إلى طور الإنعتاق به وتجهيـــزه بكل سلاح لمواجهة هذا العالم العاصف المائج موج البحار المتلاطمة فى مواجهة مع هذا المخلوق الآتى لتوه من عالم الغيب البعيد ليخوض غمرات وتحديات البقاء التى لا عاصم من غوائلها إلا الله تعالى، إنها تتم كما هو مذكور في الآية التالية:

(ياأيهـــا الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك) (سورة الانفطار:٧-٨).

فكلمة "فسوّاك" في الآية الكريمة تعني جعل الشيء مستوياً ومستقيماً ومهيأ لأداء وظائفـــه، وتعني كلمة "فعدلك" تغير الصورة لتكوين شيء محدد([1])، وتبدأ التسوية خلال طور العظام.

أما الحرف "ف" قبل كلمة "عدلك" فهو معلم بأن ما يحدث لا تراخ فيه ولا تؤدة بل عجلة ومباشرة وسرعة

ويكـــون المعنى بذلك: (وبعد ذلك سرعان ما عدل صورتك) لأن "عدلك" تبيـــنها الآية التي تليها "في أي صورة ما شاء ركبك"[2]. ويشار إلى هذا بكلمة "تعديل" وتعني: التقويم[1].

(١) تفسير أبي السعود (٩: ١٢١) بتصرف. وحاشية الجمل على الجلالين ج٤ ص٤٩٩.

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٣٠: ١٧٧.

وتعني كلمة "صورة" في الآية الثانية (التجسيم على هيئة بذاتها) [٢].

فالآية تعني إذاً أنه عقب بدء عملية التسوية مباشرة يطرأ تغير حاسم على هيئة الجنين الساعى سعيا حثيثا لبلوغ ذروة أحسن تقويم (تعديل) داخيا وخارجيا، بما فى ذلك، بل ومن أهمه بروز ملامح وسمات وميزات الصورة الخارجية (التصوير) المنبئة بعظمة الخالق وعلوه وجلاله، وتبقى عملية التعديل والتصوير على قدم وساق حتى لحظة الولادة بل وربما امتدت ردحا طويلا بعد الولادة وقد نبهنا له فى طور تخليق العظام. هو الإنسان المخلوق البديع الجميل الذى لا شية فيه ولا شائبة تقدير العزيز العليم، صنعة الله تعالى الذى أتقن كل شيء خلقه ..

(١) المعجم الوسيط٢: ٥٨٨)

(٢)المعجم الوسيط (١: ٥٢٨).

كتاب المعجزات

عشرون معجزة

المعنى اللغوى للفظ النشأة:

وأمـــا النشـــأة فهى لفظة معلومة فى كلام العرب شهيرة الإستخدام ذائعة المعانـــى وهـــى تدور حول جملة المعانى المتشعبة للفظة (النشأة) ومنها معان جليلة وعظيمة النفع فى هذا المقام وهى[1].[2].[3].:

أولا: أنشأه: خلقه

ثانيا: أنشأ الخلق: بدأ خلقهم

ثالثا: النشأة الأخرى: البعثة

رابعا: نشأ: ربا وشب

خامسا: الناشىء: فويق المحتلم ــ الحدث الذى جاوز حد الصغر ــ الغلام الحســـن الشاب ــ الشاب حين بلغ قامة الرجل ــ الصغار فوق حد الصبا إلى الإدراك

(١) لسان العرب ج١ ص١٧١.

(٢) المعجم الوسيط ج٢ ص٩٢٠ الصحاح للجوهري ج١ ص٧٧.

(٣) لسان العرب ج١ ص١٧١، تاج العروس ج١ ص١٢٦.

سادسا: نشأ: ارتفع

سابعا: نشأ السحاب: ابتدأ وبدا أول ظهوره

ثامنا: أنشأ يحكى: جعل يحكى

تاسعا: من أين أنشأت: خرجت

عاشرا: أنشأ فلان: أقبل

حادى عشر: أنشأ: أنشد شعرا أو خطبة فأحسن

ثانى عشر: تنشأت إلى حاجتى نهضت إليها

ثالث عشر: ناشئة الليل: أوله وقيل كله متى قمت فقد نشأت

رابع عشر: النشيئة التمرة إذا غلظت وارتفعت وصارت رطبة

خامس عشر: النشيئة والنشأة من كل نبات: ناهضه الذى لم يغلظ بعد

سادس عشر: حوض بادى النشيئة: إذا جف وظهرت أرضه

سابع عشر: مستنشئة: الكاهنة لأنها تستحدث الأمور وتجدد الأخبار

ثامن عشر: نشيت الريح: شممتها

تاسع عشر: الجوار المنشآت: السفن المرفوعة الشرع فإذا لم يرفع قلعها فليست بمنشآت

عشرون: المنشئات: اللاتى يقبلن ويدبرن "

وهى معان متكالمة يتبين لك أنه ا بأجمعها على كثرتها إنما تنطبق تفصيلبا لى هذا الطور الأكبر وحق لها فهو الطور الأخير والأطول والأكمل،

ومن هذه المعانى استقى أهل التفسير ثلاثة أقوال:

فـــي صفة الإنشاء أقوال: أحدهما أنه نفخ الروح فيه رواه عطاء عن ابن عباس وبه قال ابو العالية والشعبي ومجاهد وعكرمة والضحاك في آخرين

والثاني أنه جعله ذكرا أو أنثى قاله الحسن

والثالث: تطور الجنين إلى مخلوق ناطق سميع بصير[1].

(١) البحر المحيط لأبي حيان ج٦ ص٣٩٨-٣٩٩، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٣٨٦، روح المعاني للألوسي ١٤:١٨.

المعجـــزات

وممـــا تقـــدم يتضح أن كلمة (أنشأناه) بحسب استعمالها في القرآن الكريم تشمل كافة وأدق التطورات والتغيرات الخارجية والداخلية في الجنين خلال هذا الطور السادس من التخلق البشري فى الرحم، وتنطبق هذه المعاني لكلمة "نشأة" بصورة مزلزلة مديرة للرؤوس محركة لأشد القلوب قساوة وغلظة وبيانه البليغ ما يلى:

أولا : هو الله الخالق البارىء المصور

أمـــا النشـــأة بمعنى (الخلق) أى خلق الله تعالى للجنين فمعلوم مقرر بين العقـــلاء لا نـــزاع فـــيه حاشا من طمس الله على قلبه واعمى بصره، فلم توجد طائفة من البشر أنكرت الخالق إلا قليلا من العجماوات المغلوبة على عقولها من الدهريين وملاحدة آخر الزمن من الشيوعيين وأضرابهم، والناس منذ خلقهم الله تعالـــى مقـــرون بالصـــانع الخالـــق لا يختلفون فى ذلك وهو ما يعرف بتوحيد الـــربوبية، وإنما أرسل الله تعالى الرسل لتبليغهم توحيد الألوهية الذى بمقتضاه يعـــبدون الله وحـــده لا شـــريك لـــه ما داموا قد أقروا بأنه هو الخالق البارىء المصور بلا نزاع فيه بينهم، وعلى ذلك فإن هذا الطور هو خلق الله تعالى وهو مفســـر بما بعده فى قوله تعالى: (أنشأناه خلقا آخر) فقوله تعالى (خلقا آخر) هو تفسير وبيان للنشأة بأنها الخلق وهو أعظم ما يشار إليه من معانى لفظة (أنشأناه) أى خلقـــناه، وهو الأصل الأصيل والذى تتفرع من بعده المعانى الكثيرة النافعة لهذه اللفظة التى حازت المعانى الكبار لهذا الطور المثير.

ثانيا: خلق من بعد خلق فى سلسلة من المعجزات

أنشـــأه بمعنى (بدأ خلقه) بيّن فى تطابق المعنى القرآنى مع الحقيقة العلمية الماثلة فى هذا الطور حيث تبدا الكثرة الكاثرة من الأعضاء فى أداء عملها كما أنها بداية الخطوات الواثقة المطردة للظهور بالمظهر الإنسانى المعهود،كما تقدم ومايســتفاد مــن ذلك أن بدء الخلق هاهنا لا يفيد إحداثه من عدم، بل معناه بدء خلقه على طريق تكميل الصورة القويمة الكاملة التى أراده الله تعالى لها، وذلك مبنى على خلق سابق عليه، وهو هنا جملة الأطوار التخليقية السابقة عليه والتى كانــت تمهــيدا وتوطــئة لهذا الطور الذى يبدأ فيه الخلق الجديد المؤهل للجنين للخــروج على عالم الأحياء، وفى هذا يكون بدء الخلق بمعنى التصيير من خلق لآخــر قياســا على قوله تعالى (فخلقنا العقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما) وقد بيناه فى موضعه فهو عظيم النفع.

ثالثا: شرارة البدء للآلة البشرية الجبارة بإذن الله

مــا ورد بمعنـــى ("بدأ"). ولفظ (النشأة) هنا إنما يصف بدقة معجزة حالة البدء الشاملة الكاسحة فى عمل كافة أجهزة الجنين وكأنها مؤسسة ضخمة هائلة عجت بضجيج الآلات المتحفزة والمعدات المتلمظة بعد شرارة بدء بارقة مهيبة، إنهــا بداية عمل الأعضاء والأجهزة الجسدية على كافة تنوعاتها ومهامها، فإذا الكلــية وقــد بدأت مهمتها في إدرار البول، وإذا مخ العظام وقد بدأ في تكوين خلايــا الدم، وبدأت حويصلات الشعر في الظهور، وقس على هذا جميع أجزاء

هـذه الآلة الربانية الجبارة والتى انطلقت من سكون الموت المطبق مقذوفة إلى عجيج صاخب لا يهدأ من العمل المحتدم دون هوادة بالليل والنهار.

رابعا : البناء البشرى المهيب من حجر ضئيل إلى جبل عظيم

وأمـا معنـى (نما) فإنه لا يحتاج إلى شرح أو بيان، كيف والطور بأكمله لـيس إلا وثبات وقفزات مندفعة من النمو الذى لا يكاد يصدق وحسبك أن تقف على حقيقة واحدة مما أوردناه دون غموض من تضاعف الحجم من أثر طوفان النمو المتلاطم إلى مائة ضعف هذا والجنين فى الأطوار جميعها مطمور مغمور لا يـزيد عـن الجـرامات المعدودة فإذا هو بناء شاهق سامق جليل الهيئة بديع الصنعة مكتمل البناء فخبرنى أنت أى لفظة البلغ ولا أدق ولا أشفى لمن فى قلبه مرض من لفظة (أنشا) يعنى(نمّى).

خامسا: تبارك الذى اهتزت به الأرحام وربت

وأمـا المعنـى (ربا) فإنه يصف تلك الزيادة الواضحة والسريعة جداً في وزن الجنـين ولكـن مـن جانـب آخـر بديع فتأمله، فإن الربا معناها الزيادة والتضخم، وهو متحقق لا يتوقف فى هذا الطور الذى يبدأ في الشهر الثالث حيث لا يـزيد وزنه عن ثمانية عشر جراما مندفعا إلى وزن هائل يعدل ثلاثة آلاف وخمسـمائة جرام، فهو قد شب وربا وتنامى وتزايد حتى صار فى حجم الحَمَل الوديـع الصغير من أصل حجم حبة العنب أو الفراولة، والفرق بين هذا وسابقه

دقـيق فإن (نما) بمعنى النمو ولا يكون إلا فى حى وبأسباب حيوية جبل عليها الأحـياء فهـو مـتحقق فى الأحياء ولاتتنامى الجمادات أو الموتى، وأما (ربا) فكقـوله تعالى (اهتزت وربت) وكما ترى قد يكون فى الأحياء أو غيرهم فهى صفة تدل على البركة والزيادة والمضاعفة فى الأنسجة ولو كانت لا علاقة لها بالحـياة، فالنمو حدث له أسباب النمو المعروفة فى التكاثر للخلايا وغيره وهو إرادى حى، وأما الربا فهو عمل ربانى خالص مبارك للجهود المبذولة ميسر لها فاتحـا الطـريق أمامها لتهتز وتربو، وكلتا الحالتين كائنة فى هذا الطور النمو والربا، وهو فرق دقيق جدا لمن تأمل فتدبر

سادسا: الجنين من قزم متضائل إلى ناطحة سحاب

وأمـا نشـأ بمعنى (ارتفع): فهو تعبير بليغ عن الزيادة المثيرة فى طول الجنين فإن ارتفاع الشىء هو علوه من أسفل إلى أعلى وهو ما يحدث قطعيا فى هذا الطور، فإن الجنين يتطاول فى صورة مثيرة مدهشة إلى حد انحناء الجنين علـى نفسـه لعدم وجود الفراغ الكافى فى تجويف البطن بكاملها ليتجاوب مع تسـارع تطاوله (ارتفاعه) الهائل من طول بوصة واحدة (٢،٥ سم) إلى الطول الخيالـى وهـو نصف متر(٥٠ سم) فالجنين فى هذا الطور يرتفع متصاعدا فى سـماء الـرحم كناطحة سحاب سامقة مقارنة بالطول القزمى المتضائل قبل هذا

الطـــور فمنه يتبدى لك حجم المطابقة بين هذا الجانب من تعديل الجنين مع ما يتبادر إلى ذهن العربى من اللفظ القرآنى الفذ (أنشأناه) .

سابعا: كذلك النشـــور

أما النشأة بمعنى (البعثة) وذلك فى قوله تعالى (وأن علينا النشأة الأخرى) قال المفسرون أى البعثة، وهو مشير بصورة معجزة إلى أن الروح لا تنفخ فى الجنـــين إلا فى هذا الطور، فهو مبعوث فعلا إلى عالم الأحياء فى هذا الطور، الأمر الذى لم يحدث طوال الأطوار السابقة حيث كان ميتا غير حى، وإنما هى الحياة النباتية التى أشرنا إليها، أما الحياة الحقة البشرية المعلومة من حيث النوم واليقظة من جانب ومن حيث الحركة الإرادية القاصدة، ومن حيث التجاوب مع الأصـــوات والتعرف عليها، ومن حيث تمارين التنفس والإبتلاع ومص الإبهام وغيـــرها، فهـــى الحياة، وما قبلها بالنسبة لها محض موت مطبق، وهو معنى الـــبعث، فإن الناس يبعثون يوم القيامة هكذا حيث تدب الروح فيهم فإذا هم قيام ينظرون، فكانت النشأة هنا بمعنى البعثة هو توجيه الأنظار إلى بعث الجنين بين الأحـــياء بـــنفخ الـــروح فيه وهو جلى جدا فى الكتاب والسنة وقد ظهر لك فى موضعه فتدبره.

ثامنا: طور الجمال والكمال وروعة الخلق

أمـــا النشـــأة بمعنـــى الناشىء: (،الحدث الذى جاوز حد الصغر ــ الغلام الحســـن الشاب ــ الصغار فوق حد الصبا إلى الإدراك) فكلها تدور حول معنى

الخروج من ربقة الطفولة الساذجة التى لا ملامح لها ولا أهلية، إلى البلوغ وهما طوران حادثان فى حياة الناس خارج الرحم يفصلان بين طور الطفولة الناقص وطـور الـبلوغ التام، وهو كذلك فى حياة الرحم بكاملها، فهما طوران كبيران، فأولهمـا يمثل الجنين صغيرا عمرا وحجما و حياة برزخية نباتية، والثانى هو الطـور الكبير زمنا ومكانا، يشب الجنين فيه عن الطوق، ويتنامى حتى يخرج مخـرج الكبار، وكأنه مميز مدرك تستجيب حواسه لما يحدث خارج الرحم من الشـعور بالنور والظلمة والليل والنهار والأصوات والطعم المر والحلو واللاذع وكذلك إدراك الألم والتألم، فقد خرج بهذا من ظلمات وعماية وطفولة عدم الحس والإدراك، إلـى الـبلوغ والرشـد والإدراك، ثم هو فى هذا الطور البديع حسن الصورة بديعها إذ يتخلق جلده وتتورد بشرته ويستدير جسده وتتناسق أعضاؤه، وعلى الجملة فعامة المعانى المذكورة منطبقة على الجنين بصورة مذهلة فى هذا الطور فهو جاوز حد الصغرحجما وزمنا، وهو فى طور تنامى الجمال والحسن وروعـة الخلقـة، وهو قد بلغ الإدراك نظرا لتمام الحواس والشخصية والجهاز العصبى فى هذا الطور الحافل فتأمل.

تاسعا: وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا

أما نشأ بمعنى: نشأ السحاب: ابتدأ وبدا أول ظهوره، ومثلما كان السحاب غيثا للبشر من بعد ما قنطوا، فلا شك أن الجنين غيث واعد ومطر مبشر وقرة عين لوالديه، ولكنه لا يكون تاما حقيقيا تسكن النفس له ويرتاح الفؤاد إلا إذا بدا فى أول ظهور حياته وشخصيته وملامحة السارة الواعدة أى الجنين التام الحى

الذى يتحرك ويلكم ويركل ويتقلب فإنها بشريات هاطلة ممطرة بصنوف الخير، ولا تكـون إلا فى هذا الطور، وباختصار فلا يكون الولد غيث فائضا وبشرى عاطـرة إلا فـى هـذا الطور. النشأة خلقا آخر) حيث يتقرر أنه حى وتتقرر صورته فهو كالسحاب الآتى جديدا فى أوله تماما كما يشير إليه المعنى المتبادر من اللفظة العجيبة الفذة المطابقة المذهلة (أنشأناه)

عاشرا: عمل دائب لا يكل وعمر مديد

أمـا النشـأة بمعنـى: (أنشأ يحكى: جعل يحكى) فلا شك فى انطباقه أتم انطباق على هذا الطور من حيث طول فترته بالنسبة لكل طور سبقه منفردا بل بالنسبة للأطوار مجتمعة فهو ضعف زمانها مجتمعة، بحيث يكون العمل الدائب المتواصـل فـيه ممثلا لتلثى حياة الجنين دون توقف فى تسارع وتلاحق فكأنه جعل ينمو وينمو ويتصور إلى أن يبلغ غايته الكاملة النهائية. فمعنى أنشأ: جعل، مـثل جعل يحكى، أى طفق يحكى، واستمر يحكى، وواصل الحكاية، فهو عمل دائب لا يكل وزمن طويل وهو مطابق لما يحدث فى الجنين فى هذا الطور مما أوردنـاه لك متطاولا بما يقر به فؤادك لمدى المطابقة بين اللفظ القرآنى المذهل وبـين الحقـيقة العلمية فى هذا الجانب صفة وزمنا وأداء ومكانا، فسبحان الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا.

حادى عشر: الخروج الكبير من سكون الموت إلى ضجيج الحياة

أمـــا النشأة بمعنى (من أين أنشأت: خرجت) بمعنى خرج فهو ظاهر حيث تخـــرج الأعضاء على تمامها كما تخرج إفرازاتها كما يخرج البول من الجنين كما يخرج الجنين نفسه من الموت إلى الحياة كما يخرج الجلد ولم يك شيئا، ففى الأطـــوار الأولـــى كانـــت براعم لم تلبث أن صارت أعضاء، غير أنها قزمية صغيرة فى الحجم ضئيلة فى الهيئة، أما هنا فقد خرجت الأعضاء وقامت بعملها فخـــرجت نتائج العمل الهرمونى والإخراجى والدموى، وهو وصف لما يحدث داخل الجنين من حيث الخروج فأنشأناه: أى أخرجناه وهوكما ترى خروج هائل مـــن سكون الموت إلى حركة الحياة ومن غيابة التقزم إلى نور الكمال البشرى فمـــا أشـــد مطابقة اللفظ القرآنى (أنشأناه: أخرجناه) لهذا الجانب الهام من حياة الجنين.

ثانى عشر: أقبل علينا بوجهك البديع وصورتك الجميلة

أمـــا أنشأ فلان: (أقبل) فهو واضح كذلك فى أن الجنين على تمامه وجماله إنمـــا أقبل وأتى كثمرة حلوة بعد ما تم الإعداد له إعدادا فى الأطوار السابقة فقد أقـــبل بـــوجهه الجميل وصورته الحالمة الوادعة، أقبل بجسده المتناسق وهيئته الـــبديعة، وهـــى خاصية ملازمة لهذا الطور، فلا يمكن أن يقبل الجنين بوجهه الأغر وصورته الحسنة وهيئته التامة إلا فى هذا الطور.

ثالث عشر: الذى أحسن كل شىء خلقه

أمـــا أنشأ: (أنشد شعرا أو خطبة فأحسن) تبارك الله أحسن الخالقين، فإنه تعالى ربنا أنشأه من عدم ثم أعده ثم سواه ثم عدله ثم أحسن خلقه وأتم صورته، فله الفضل والجلال والمنة والعظمة وهو سبحانه أحسن كل طور خلقه، غير أنه تعالى ذكر الإحسان مجسدا عقب هذا الطور مباشرة فقال تعالى (ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) نظرا لظهور الحسن جليا واضحا بينا لا ينكره إلا أعمى البصر ينكر الشمس فى رابعة النهار.

رابع عشر: من التقدير الربانى إلى التسوية والتعديل والتصوير

وأمـــا: (تنشـــأت إلى حاجتى نهضت إليها) فهو ظاهر فى النهوض بهمة ونشـــاط وتسارع، فمن جانب المخلوق فيه نهوض الجنين فى عملية نشطة من التنامى ليبلغ حاجته، كما أنه من جانب الخالق سبحانه إرادة لا تتخلف إلى إتمام الخلق المقصود بناء على التقدير الأول الذى قدره سبحانه فى طور النطفة، فهذا طـــور خروج التقدير إلى دائرة الضوء وتحوله من التقدير إلى الخلق والتسوية والتعديل، أى من قوله تعالى (من نطفة خلقه فقدره) إلى قوله تعالى (الذى خلقك فســـواك فعـــدلك فى أى صورة ما شاء ركبك)، وهى هذا الخلق الذى أراده الله تعالـــى فـــى أحسن تقويم، خروج هذا الجنين على تمامه وجماله وهى الحاجة الرئيســـية التى أرادها الله تعالى بما يليق بجلاله وعظمته وقدرته، فهو من باب قـــوله تعالـــى: (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وقوله تعالى : (وكان أمرا مقضيا)

خامس عشر: طور كامل من التنامى والتصوير للجنين

وأما (ناشئة الليل: أوله وقيل كله متى قمت فقد نشأت) فأما أوله فقد بيناه فراجعه، وأما كله، فلأن التنامى والتعديل والتصوير النهائى والصورة التامة كله يمضى على قدم وساق طوال هذا الطور بلا توقف فلو فرضناه ليلا يقومه عابد لكان الليل كله من أوله إلى آخره محلا للعبادة، فكلما قام من الليل فقد أنشأ، فكذلك هنا فالطور كله تعديل وتنامى وتسوية وتصوير ومتى تأملت أى لحظة منه فقد وجدت التصوير والتنامى والتعديل قائما على قدم وساق فتدبر.

سادس عشر: من جفاف التكوين إلى أحسن تقويم

وأما: (النشيئة التمرة إذا غلظت وارتفعت وصارت رطبة) فهى فاصلة أيضا بين طورين للتمرة، الطور الأول: وهى صغيرة متضائلة جافة، والطور الثانى: وهى غليظة مرتفعة رطبة، ولا يخفاك لو تأملت مدى المطابقة الحسية العجيبة بين هذه المعانى العربية المتبادرة بمجرد إطلاق لفظ (النشأة) وبين الواقع العلمى المدجج بأحدث الوسائل العلمية، ألا ترى الجنين فى جملة الأطوار السابقة هو أشبه ما يكون بتمرة ضعيفة جافة، بل ربما كانت مرة أو لا طعم لها، ثم ما تراه من أحوال الجنين فى هذا الطور الأخير الذى يمثل ثلثى الحياة الرحمية وقد ربا وغلظ وصار سمينا جدا نظرا لتخزين الدهون الذى هو سمة مميزة لهذا الطور، كما تغلظ العضلات فيتمكن من الركل واللكم كما تغلظ الملامح والشفتان فيتمكن من التقطيب ومن فتح الفم وإغلاقه، ثم ألا تراه رطبا

ليـنا متناغما فى هذا الطور بسبب تخزين الدهون من جانب ونشأة الجلد البديع الـذى يغطـى عوار الأعضاء ذات المهام الكثيرة المتباينة كى لا تبدو منكشفة منفـرة، فمـا أشـبه هذا الواقع العلمى المتشعب بالمعنى المعبر للغة العربية، وسـبحان مـن اختار هذا اللفظ الجامع المانع العجيب ليحوى معان جسيمة هذا حجم تشعبها وتباينها فى سابقة معجزة مدوية لاختيار المصطلح العلمى المذهل الذى يشرح كل شىء فى داخل الجنين وخارجه. أين المتشدقون بحضارة العلوم أين مصطلحات حضارة العلوم؟؟!!.

سابع عشر: الجنين الناهض لتمام الخلق

النشـيئة والنشأة من كل نبات: (ناهضه الذى لم يغلظ بعد) وهذا يرجع فى بعـض معانيه إلى البدء وقد تبين فى موضعه، وأما بالنسبة للنبات فقد تقرر لك طويلا فى طور الحرث أن الله تعالى قد شبه الجنين بالنبات، ولكنه فى أول هذا الطـور كناهض النبات الذى لم يغلظ ثم سرعان ما ينمو ويغلظ لتمام خلقته فى آخـره، ثـم إن هذا الطور بجملته بالنسبة للطفل المولود ناهض نبات كذلك لم يغلظ، فإذا ولد فقد غلظ وتم، فالمعنى مطابق من أول الجنين من جهة النباتية، ثم المقارنة بين الأطوار من أول هذا الطور مرورا بآخره إلى الولادة، فتأمل.

ثامن عشر: الجنين من الغيب إلى الشهادة

(أمـا حـوض بـادى النشيئة: إذا جف وظهرت أرضه) فهو على تمام المطابقـة بحالة هذا الطور بالنسبة لسابقه فلا شك أن الجهالة التامة بما يحدث

للجنـــين فى الأطوار السابقة من تطورات بالنسبة للأم والأب وأقرب الناس، فلا تظهـــر أعـــراض حمل، ولا تتبين الأم حملها، بينما العمليات الجنينية قائمة فى خفـــاء وســـكينة. ولكن فى هذا الطور يبدأ الحمل فى الظهور، وتتبين ملامحه، وتشـــعر الأم بحركة الجنين وتسمع دقات قلبه، وتحس تقلباته. فكأنه كان خافيا فانكشـــفت مســـببات خفائـــه، فظهر من غيب البطن والرحم إلى شهادة الحس والســـمع والبصـــر، فهذا الظهور من أظهر سمات هذا الطور. ولا يخفى مدى المطابقـــة لهـــذا الظهور بعد الخفاء، بظهور أرض الحوض الخافية بعدما جف ماؤه فلم تكن مرئية ثم رئيت، ولم تكن محسوسة ثم حست، ولم تكن ملموسة ثم لمســـت. فكـــذلك الجنين فى خفائه فى الأطوار السابقة ثم بعدها ظهوره فى هذا الطور الكاشف الظاهر، فتدبر.

تاسع عشر: طور زاخر بعظائم الأمور

أمـــا: (مستشـــئة: الكاهـــنة لأنها تستحدث الأمور وتجدد الأخبار) فوجه المطابقـــة بلـــيغ لأن الإستشـــاء هنا هو استحداث الأمور وتجديد الأخبار، ولو رجعـــت بنظـــرة عاجلـــة إلى الملاحم الكبار التى تتم فى كل شهر من الشهور الطويلة لهذا الطور الطويل لعلمت دون عناء ولا جهد كيف يستحدث فى كل يوم خبر جديد وأمر جديد وكيف يتجدد كل لحظة نسيج جديد وتسوية جديدة وتعديل جديـــد وخلق جديد، وحسبك من ذلك علما أنه يكبر فى هذا الطور من حجم حبة العنب إلى حجم الحَمَل الصغير، فى تحديث متتابع متلاحق للأمور أمرا من بعد أمـــر، وتجديد متسارع للأخبار خبرا من بعد خبر فى الجميع، الكليتين أو القلب

أو الجلـد أو الكبد وغيرها من عشرات بل مئات العمليات الحيوية فى الأجهزة المفعمـة بالعمـل والتجدد والنشاط فى تجهيز وتأهيل لا ينقطع فى كافة جنباته، فهـو طـور زاخر بعظائم الأمور، باستحداث للأمور وتجديد للأخبار بالمعنى الحرفى الذى بنطبق تمام المطابقة فتأمله فهو عظيم الفائدة.

عشرون: التنفس تحت الماء

أمـا: (نشيت الريح: شممتها) فيعبر عن حالة كان من المستحيل تعرفها قـبل اختـراع أعقد وسائل المتابعة والتصوير الطبى داخل الرحم، فلم يكن فى حسـبان أشـد المختصـين تعمقا أن الجنين بين سوائل الرحم، سيقوم بحركات تمرينية على التنفس، فيبدو وكأنه يشم الريح فى استمتاع ودعة، فالصدر يتحرك كأنـه يتنفس مدربا على حركة التنفس بين تماوجات السائل المحيط به من كل جانـب. فالقول بالنشأة بمعنى (شم الريح) يلمس دون خفاء هذا الجانب الغامض العجيب من جوانب القدرة الإلهية التى هدت هذا الخلق المستقر فى العالم المظلم حيث لا هواء ولا نسيم إلى ممارسة الشم والتنفس، الأمر الذى كان يجهله حتى الأطـباء غيـر المختصـين بل وكبار المختصين قبل اختراع وسائل المراقبة والتصوير فى الظلمات داخل الرحم .

واحد وعشرون: إرفع هامتك هذا طور النشأة

أمـا (الجوار المنشآت: السفن المرفوعة الشرع فإذا لم يرفع قلعها فليست بمنشآت)

فظاهـر جـدا فـى رفع الجنين رأسه فى هذا الطور، بل وارتفاع هامته بكاملها، وتأمل المعنى العربى بأنها لولم تكن مرفوعة القلع فليست بمنشأة، وهو نفيس جدا، حيث يفرق فى جلاء بين طور النشأة والأطوار الأخرى بفارق هام فى لغة العرب أنه يكون مرتفعا عاليا بينا ظاهر فهو المنشأ وغلا فليس بمنسشا وهـو الـذى فافى الأطوارالسابقة له جميعها فلا مرفوع ولا ظاهر ولا بين ولا منتصب فتدبره فهو جليل ودقيق.

ثانى وعشرون:

وأمـا : (المنشئات: اللاتى يقبلن ويدبرن) فهو لا يحتاج لكثير بيان غذ أن الجنين لا يمكنه الوصول إلى هذا المعنى قبل هذا الطور اصلا لسبب بسيط ابلا وهو نفخ الروح فبعدها يصير كائنا حيا يتقلب ويركل ويلكم ويقبل بوجهه وبدبر ويتحرك حركة كثيرة وينتفض بل ويقلب نفسه فى النهاية إلى أن يكون رأسه فى الأسفل استعدادا للنزول والخروج فهو مقبل ومدبر ومتقلب الحركة وهو المتبادر مما ذكر الآن فتأمل.

القــرآن يتحــدى

وبعد فمن تأمل مصطلح(النشأة خلقا آخر) تبين له دون عناء أن الأمر أبعد كثيرا من مجرد اختيار ألفاظ عربية واستخدامها كأسماء صماء لمسميات علمية . إن الأمــر يــتعدى ذلك لآفاق شاسعة فوق القدرة على تصورها، إنه اختيار خــارق للعادة بقصد شرح حقائق علمية غاية فى التعقيد والتداخل بإطلاق لفظة واحــدة فيشــرق كــل شيء كالشمس فى الظهيرة، هذا المنهج فى مجال علوم تجريبية شديدة الصرامة والصعوبة والبعد عن العواطف غير مألوف ولا معهود ولا ســابقة لــه فى تاريخ العالم قديمه وحديثه فى أى فرع من فروع المعارف البشرية لأنه باختصار لم يكن لبشر أن يتصوره فضلا عن أن يعلمه ويعمل به، وهو حد المعجزة. فلو أدرت لسان العرب بكامله فى محاولة لتغيير كلمة واحدة مــن هــذه الكلمات الثلاث، فلن تجد أخرى تحل محلها أو تقوم بمعشار أدائها، ليبــرز إلى الوجود تعريف جديد ومذهل لحد الإعجاز القرآنى، فالكلمة الواحدة معجــزة تامــة بحذافيرها ومن هنا كان القرآن معجزا كله قليله وكثيره، وكان الإعجــاز يســرى فــيه كما يسرى الماء فى العود الأخضر، ليست الجملة ولا العــبارة ولكــن فى عاصفة متحدية مدمدمة يتحدى القرآن اليوم بالكلمة والكلمة الواحدة من هذا الكتاب الأعظم، ولا يتحدى الطغام المغمورين فى قاع الصحراء ولا جماعــات الجهلة فى القبائل المتخلفة النائية، بل يتحدى فى اقتدار واستعلاء وعظمــة أســاطين العلوم التجريبية فى أعظم ثورة علمية فى تاريخ البشرية، سحرة عصر العلم، وكهنة تعبيد الناس لبوارق المخترعات والمكتشفات من دون

الله تعالـــى. يقــول الله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

ويقول سبحانه

: (قــل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

دقت الساعة الفاصلة

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ

المخاض أو الولادة

الجنين والخروج العظيم فى رحلة الحياة والموت

أمـــواج متلاطمة من الخطر المحدق بين الماء والدماء ومطارق الرحم وصرير العظام

كـــيف يعبر كائن بحجم الجنين فى قناة شديدة الضيق عبر عظام الحوض القاســية وتحــت مطـــارق الرحم الهائلة؟؟ إن الجواب يفجر واحدة من أمجد معجـــزات الملحمـــة وما هى إلا رحمة الله التى تحوطه عبر جند عظيم مسخر بـــنعمة من الله، فهرمون الريلاكسين (الإسترخاء) من المبايض والمشيمة يخفف مـــن قبضة الاربطة الجامعة للحوض ويلين عنق الرحم) و قوة الدفع الرحمى الجـــبارة تضـــرب من أعلى الرحم إلى أسفل بينما العنق يتراخى ويتراجع أمام اندفاع الجنين خارجا، بل أن الحوض العظمى القاسى للأم عند معاودة الارتطام المخـــيف لرأس الجنين به سرعان ما يحن ويلين على قسوته وجموده فتتراخى أربطـــته الصـــارمة العابســـة للحظـــة فاصلة معجزة يمر فيها الجنين آمنا بين أضراس العظام القاسية وما أن يمر حتى يعود الحوض سيرته الأولى، أما كيس الســـائل الجنينـــى الذى طالما قام بحمايته من صدمات ما قبل الولادة هو اليوم وسادة مائية حانية تمتص أعتى الصدمات الرحمية من كل جانب إلى بر الأمان

منفجـــرة ومتحولة إلى سطح أملس زلق للعبور الكبير، فى حركات جنينية غاية فـــى الخفـــة والمرونة من النزول من الحوض إلى الدوران والإنثناء عبر القناة الحلـــزونية والإستدارة الداخلية ثم التمدد ثم استرجاع الوضع الطبيعى الإستدارة الخارجية الأوضاع الرشيقة فى خفة للخروج فى سلام بين أنياب الخطر الداهم مـــن قـــناة الـــولادة إلى عالمنا الهائج المتلاطم... يالها من ملحمة تقشعر لها الجلود.

سبحان من أعانه ومن الموت أخرجه..سبحان من عزره ثم السبيل يسره

فتبارك الله أحسن الخالقين

المصادر

و

المراجع

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم

٢) تفسير العلامة أبي السعود – المجلد الأول- إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية

٣) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير- المجلد الأول- دار السلام – الرياض ١٤١٣-١٩٩٢م

٤) لسان العرب ج١٠ ص٢٦٧-٢٦٨ ، الصحاح للجوهري ج٤ ص ١٥٢٩، مقاييس اللغة ج٤ ص١٢٥، المعجم الوسيط ج٢ ص٦٢٣، القاموس المحيط ج٣ ص٢٧٥، المفردات للأصفهاني

٥) (برتراند رسل) – زكي نجيب محمود – دار المعارف – المقدمة – مصر.

٦) معجزة القرآن – الشيخ محمد متولى الشعراوى ـــالمختار الاسلامي للطباعة والنشر – الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ-كتاب ١٩٧٨م)

٧) (ميلاد طفل) نيلسون، إنغلمان سندبيرغ ويرسون ص٢٢، (التخلق البشري) كيث مور.

٨) أبو بكر الباقلانى ـ إعجاز القرآن ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م- دار إحياء العلوم – بيروت ـ قدم له وشرحه وعلق عليه الشيخ محمد شريف سكر . دار احياء العلوم – بيروت

٩) أبو حامد الغزالى ــ جواهر القرآن

١٠) أبو حيان، ط. دار الفكر، بيروت.

١١) أبو داود، ط. دار الحديث، حمص. سوريا.

١٢) أبــو ســليمان حمد بن محمد بن ابراهيــم الخطابي ــ (بيان اعجاز القــرآن) طــبع ضمن ثلاثة رسائل بمطبعة المعارف بتحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلا)

١٣) أبــو عــبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - -الجامع لأحكام القــرآن-- المجلــد الأول- الطــبعة الثانــية - مطبعة دار الكتب المصــرية- يوم الثلاثاء ٢٨ جماد الأولى- سنة ١٣٧٣هــ (فبراير ١٩٥٤م)

١٤) إتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر: د/ محمد إبراهيم شريف،

١٥) إتجاهــات التفســير فــي مصــر في العصر الحديث: د/ عفت محمد الشرقاوي

١٦) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي ، والبرهان: للزركشي.

١٧) إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي-الجزء الاول.

١٨) أساسيات علم وظائف الأعضاء : د٠ عبد المجيد الشاعر ــ د٠ عماد الخطيب ــ د٠ هشام كنعان ت دار المستقبل للنشر والتزيع ــ عمان الاردن ت الطبعة الثانية ــ ١٤١٣ هــ ــ ١٩٩١ م ــ ص٣٦٨ ٠

١٩) الإسلام عقيدة وشريعة: محمود شلتوت.

٢٠) الإســلام والعلم التجريبي - د. عبدالله حسن زروق الطبعة الأولى : ١٩٩٢م الناشــرون : المركــز العالمي لأبحاث الإيمان الطابعون : مطبعة جامعة الخرطوم .

٢١) الإسلام والمسيحية في الميزان - شريف محمد هاشم - مؤسسة الوفاء ببيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

٢٢) الإســلام يــتحدي ــ وحيد الدين خان ــ صــ١٥٢-١٥٣ ــ الطبعة العاشــرة ١٤١٤هــ -١٩٩٣م مراجع وتحقيق دكتور عبد الصبور شاهين - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان

٢٣) الإشــارات العلمية في القرآن الكريم- د. كارم السيد غنيم -دار الفكر العربي- الطبعة الأولى - ١٤١٥هــ-١٩٩٥م.

٢٤) أصــول التفسير وقواعده - خالد عبدالرحمن العك - الطبعة الثانية - دار النقاش - بيروت - ١٤٠٦هــ-١٩٨٦م..

٢٥) أضواء على الثقافة الإسلامية ــ الدكتورة نادية شريف العمرى .

٢٦) إظهار الحق . رحمة الله الهندى

٢٧) إعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي - صــ١٢٥-١٢٧ - دار الكتاب - بيروت - لبنان الطبعة الثامنة ١٤١٠هــ -١٩٩٠م .

٢٨) إعجــاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق: د/ حفني محمد شرف ص٣٧٥.

٢٩) آلان كوت ــ دراسة حول الصوم الطبى ــ مؤسسة الإيمان ــ بيروت ــ طبعة الثانية ــ ١٤٩٧/١٩٨٧

٣٠) الإمــام محمد عبده ومنهجه في التفسير دون رقم طبعة (١٤٠٠هــ-١٩٨٠م) - المركــز العربــي للــثقافة والعلــوم - د. عــبدالغفار عبدالرحيم - ص ٨٥-٨٦ .

٣١) إنــه الحق - عبدالمجيد الزنداني - المحرابي للتجاره والتوكيلات - دون تاريخ أو رقم طبعة

٣٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوي

٣٣) ابن تيمية ، تقي الدين أبي العباس أحمد . درء تعارض العقل والنقل . الجــزء الأول ، تحقــيق : محمد رشاد سالم ، مطبعة جامعة الإمام محمد بن مسعود ١٣٩٩هــ .

٣٤) ابن سلام ــ طبقات الشعراء

٣٥) اتجاه التفسير في العصر الحديث . صــ١٨٢ - طبعة مجمع البحوث الإســلامية - سلســلة البحوث الإسلامية ١٩٧٥ - الشيخ مصطفى الحديدي (١) صــ٤١١ مرجع سابق - التفسير العلمي في الميزان .

٣٦) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن - د . محمد ابراهيم شريف

٣٧) الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم "دوافعها ودفعها " محمد حسين الذهبي

٣٨) الاتقـــان فـــي علوم القرآن -جلال الدين السيوطي- الجزء الثاني - الطبعة الثانية - دار ابن كثير للطباعة والنشر - دمشق (١٤١٤هـ-١٩٩٣م)

٣٩) ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم (لأبي السعود)

٤٠) الاسلام والطب الحديث - د. عبدالعزيز اسماعيل - طبعة ١٩٥٧م.

٤١) الاعجاز العلمي في القرآن والسنة الأهداف والوسائل - طبعت بمطابع رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة

٤٢) -التفسير البياني - بنت الشاطئ -

٤٣) الامام محمد عبده ومنهجه في التفسير - د. عبدالغفار عبدالرحيم

٤٤) الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي ج٢.

٤٥) الموافقات: الشاطبي ج٤.

٤٦) البحر المحيط لأبي حيان ج٦

٤٧) بحوث فى أصول التفسير - د. محمد لطفي الصباغ - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م الكتب الاسلامي - بيروت.

٤٨) بحـــوث في أصول التفسير ومناهجه - د. فهد عبدالرحمن الرومي - مكتبة التوبة - الطبعة الثالثة١٤١٦هـ

٤٩) البخاري فتح الباري ١١: ١٣٠.ابن حجر العسقلانى

٥٠) تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - الشيخ عبدالمجيد الزنداني - (من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للاعجاز العلمي في القرآن والسنة المنعقد باسلام اباد / باكستان في الفترة من ٢٥-٢٨صفر ١٤٠٨ - ١٨-٢١ اكتوبر ١٩٨٧) - طبع رابطة العالم الاسلامي مكة المكرمة .

٥١) تاج العروس، ط. دار الفكر للنشر والتوزيع.

٥٢) تاريخ الحضارات العامة ــ الجزء الرابع ــ صـ ١٠٢، (أشرف عليه موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا ، وألفه رولان موسينييه الأستاذ بجامعة السربون ــ نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر - فريد م . دافر - التحول الفكرى العظيم الذى طرأ على البشرية طول الحركة العلمية الحديثة - سيطرة أوروبا - منشورات عويدات بيروت - باريس - الطبعة الثانية ١٩٨٧م)

٥٣) تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم - دار المعارف - مصر - ١٩٦٢م.

٥٤) التبيان فى أقسام القرآن ــ ابن القيم

٥٥) التحرير والتنوير الجزء العشرون صـ٣٨ الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر - ١٩٨٤ دون رقم طبعة .

٥٦) التخلق البشري كيث مور

٥٧) ترجمة الأستاذ الامام، لفضيلة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق. كتاب الهلال العدد ٩٦ مارس سنة ١٩٥٩.

٥٨) التعبيـــر القرآني لا تنقضي عجائبه ــ مجلة الفيصل - العدد ٢١٥ - صـــ٢٩- جمادي الأولى - ١٤١٥هـــ - ١٩٩٤م.

٥٩) تفسير مفاتح الغيب (للإمام فخر الدين الرازي

٦٠) تفســير الآيــات الكونية - الدكتور . عبدالله شحاته - دار الإعتصام للطبع والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ١٤٠٠هـــ-١٩٨٠م.

٦١) تفسير البغوي - (معالم التنزيل) - دار طيبة - الرياض السعودية - الطبعة الثانية - ١٤١٤هـــ١٩٩٣م .

٦٢) التفسير البياني للقرآن الكريم: د/ عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ".

٦٣) تفسير الرازي ج١٢.

٦٤) التفسير العلمي في الميزان -أحمد عمر أبو حجر - رسالة دكتوراة- دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ١٤١١هـــ - ١٩٩١م - بيروت لبنان .

٦٥) تفسير الكشاف - الإمام محمود بن عمر الزمخشري - الطبعة الأولى - مطبعة الإستقامة بالقاهرة - ١٣٦٥هـــ-١٩٤٦م .

٦٦) تفســير المراغـــي - د. أحمد مصطفى المراغي - دار احياء التراث العربي - بيروت لبنان - بدون تاريخ أو رقم طبعة .

٦٧) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر -١٣٩٨هـــ-١٩٧٨م (سلسة أجزاء متتابعة) .

٦٨) التفسير الموضوعي - د . محمد القاسم

٦٩) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص٢٩ د. صلاح عبد الفتاح الخالدي – دار النفائس للنشر والتوزيع- الأردن. الطبعة الأولى١٤١٨.

٧٠) تفسير جزء عم: الشيخ محمد عبده،.

٧١) تفسير فاتحة الكتاب: الشيخ محمد عبده،

٧٢) التفسير معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي ص٣٨-٣٩.

٧٣) تكوين العقل الحديث – جون راندال- ترجمة جورج طعمة – جزءان – دار الثقافة – بيروت لبنان – سنة ١٩٦٥م-الجزء الأول.

٧٤) من سلسلة من المقالات التفسيرية تأليف الدكتورتوفيق علوان أستاذ /التفسير وعلوم القرآن / كليات البنات / الرياض نشر مجلة الدعوة السعودية ١٩٩٩م مجلة الإرشاد بالحرس الوطنى السعودى ٢٠٠٢م

٧٥) الجامع لأحكام القرآن – لأبي عبد الله القرطبي- مجلد٣ – دار الحديث- القاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٤-١٩٩٤- صـ٢٩٠.

٧٦) جريدة الجمهورية القاهرية – مصر – عدد الجمعة – ١٩٩٤/٤/١٥م

٧٧) جعفر الفريابي في الفتح، ط. دار المعرفة، بيروت.

٧٨) جلال الدين السيوطى ــ (معترك الأقران في إعجاز القرآن) ــ الجزء الأول – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م ..

٧٩) جمع هذه القواعد الدكتور كامل سعفان في كتاب "المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم"، ص١١٥-١١٩.

٨٠) حاشية الجمل على الجلالين، ط. دار التراث العربي، بيروت.

٨١) الحافظ ابن كثير / البداية والنهاية ٢٣٢/١٤

٨٢) حامد محمد حامد ــ رحلة الإيمان فى جسم الإنسان ــ دار القلم ــ دمشق ــ الطبعة الأولى ــ ١٤١١/ ١٩٩١

٨٣) الحضارة ــ الدكتور حسين مؤنس ٠

٨٤) حكمة الغرب- برتراند راسل-الجزء الثاني-ترجمه د. فؤاد زكريا- سلسلة عالم المعرفة-العدد

٨٥) د. أحمد جمال العمري - مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري - دار المعارف بمصر الطبعة الأولى ١٩٨٤م .

٨٦) د. م. بيجين : بحث كيمياء حيوية على صوم رمضان ، نشرة الطب الإسلامى ــ العدد الثالث ــ أعمال وأبحاث المؤتمر العالمى الثالثعن الطب الإسلامى ــ منظمة الطب الإسلامى ــ الكويت ١٤٠٥ / ١٩٨٤

٨٧) د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم: ص١٦٢ حاشية.

٨٨) دائرة معارف القرن العشرين - محمد فريد وجدي - دار المعرفة بيروت - المجلد السادس - الطبعة الثالثة - سنة ١٩٧١م .

٨٩) دافيد جيركى وأليس بارك : نيويورك ، دان كراى ، لوس أنجلوس التايم الأمريكية نوفمبر ٢٠٠٢

٩٠) دافيد جيركى وأليس بارك : نيويورك ، دان كراى ، لوس أنجلوس التايم الأمريكية نوفمبر ٢٠٠٢

٩١) درء تعارض العقل والنقل - إبن تيمية - تحقيق محمد رشاد سالم - مطابع جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية - ١٣٩٩هـ .

٩٢) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - د.زاهر بن عواض الألمعي - الطبعة الأولى ١٤٠٤/١/١هـ.٧.

٩٣) دروس الكائنات ـ الطبعة الثالثة - ١٣٥٤هـ - صـ٢٢٨-٢٣١ - - د. محمد توفيق صدقى

٩٤) الدين ـ د. محمد عبد الله دراز .

٩٥) رحلة الإيمان في جسد الإنسان (دار القلم - دمشق - د . حامد أحمد حامد - الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م صـ١١١-١١٧) .

٩٦) روح المعاني - العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي - المجلد الثالث - تفسير سورة النساء - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - (١٤١٥هـ-١٩٩٤م)

٩٧) زاد المسير

٩٨) زاد المسير، ابن الجوزى ط. المكتب الإسلامي، بيروت.

٩٩) سعد السعدي ـ النبوة اصطلاح تقتضيه رحمة الله ـ ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م دار العربية - للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت لبنان .

١٠٠) سعدي ياسين ـ (البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان) الطبعة الرابعة ١٣٩٨-١٩٧٨ المكتب الإسلامي- بيروت - دمشق .

١٠١) سلسلة قضايا الفكر المعاصر - (٥) - كيف نتعامل مع القرآن - فضيلة الشيخ محمد الغزالي - المعهد العالمي للفكر الإسلامي - الطبعة الثالثة - ١٩٩٢م .

١٠٢) سلسلة مقالات تفسيرية حول قضية المرأة للمؤلف وقد نشرت تباعا فى مجلة الدعوة السعودية

١٠٣) السيد سابق- العقائد الاسلامية -الأستاذ في جامعة الأزهر- دار الكتاب العربي -بيروت لبنان - بدون تاريخ أو رقم للطبعة.

١٠٤) السيوطى ـــ (معترك الأقران في إعجاز القرآن) ـ - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى -١٤٠٨هـ-١٩٨٨م ..

١٠٥) السيوطي في الجامع الكبير

١٠٦) شريط إنه الحق باللغات الآتية : العربية ، الإنجليزية ، الفرنسية ، الأردية ، التركية .

١٠٧) شريط الفيديو من أربعة أجزاء حول التفاصيل المذهلة لهذا الحدث معززة بأحدث اللقطات العلمية الحية د. توفيق علوان

١٠٨) شـريط فعاليات المؤتمر العالمي للإعجاز العلمي والمنعقد في موسكو من ١٧ إلى ١٤١٤/٣/٢٠

١٠٩) فتح القدير ــ الشوكاني، ط. دار المعرفة، بيروت.

١١٠) د. حسـن ضـياء الدين عتر - نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن - دار النصر- حلب - سورية (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .

١١١) الصحاح للجوهري، ط. القاهرة.

١١٢) صـحيح مسلم - شرح النووي - دار المعرفة بيروت لبنان - الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ-١٩٩٣

١١٣) صحيح مسلم، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١٤) الطبراني / المعجم الكبير

١١٥) طريق الهجرتين /٢٥٦ ابن القيم

١١٦) عبد الرحمن حسن حبنكه ــ الصيام فى السنة والقرآن ــ دار القلم ــ ١٤٠٧/ ١٩٨٧

١١٧) عـبد الله بن عبد الرزاق السعيد ــ الرطب والنخلة ــ الدار السعودية للنشر والتوزيع ــ الطبعة الأولى ــ ١٤٠٥/١٩٨٥

١١٨) العلامـة عبدالرحمن الباجه جي زاده - تصحيح ومراجعة عبدالمنعم فرح درويش - ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م مطابع البيان التجارية - دبي .

١١٩) علم الأجنة بين القرآن والسنة ــ هيئة الإعجاز العلمى

١٢٠) العلمانـــية (النشـــأة والأثـــر في الشرق والغرب) - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة - الطبعة الألى ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م - زكريا قايد.

١٢١) العلوم الأمريكية - مجلد ٩ - عدد ٧،٨ - يوليو/ أغسطس - ١٩٩٣م (العلم والتقانة والمعجزة الغربية)- روزنبرك .

١٢٢) علـــوم التفسير د . عبد الله شحاته ــ مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة ١٩٨٦

١٢٣) علوم القرآن ــ الدكتور عدنان زرزور.

١٢٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط. دار المعرفة، بيروت.

١٢٥) فـــتح القديـــر - محمد بن علي الشوكاني- المجلد الأول- دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت- ١٤٠٣-١٩٨٣

١٢٦) فســـيولوجيا الحيوان العملى : عمران شلش ــ دار الندى ــ بيروت لبنان ــ الطبعة الثانية ــ ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ص ١٨٦ .

١٢٧) الفكر الدنيي في مواجهة العصر: د/ عفت محمد الشرقاوي.

١٢٨) الفلسفة القرآنية " العقاد

١٢٩) الفـــوائد المشوقة إلى علوم القرآن ــ منشورات دار ومكتبة الهلال - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٧.

١٣٠) في ظلال القرآن دراسة وتقويم صلاح عبد الفتاح،

١٣١) في ظلال القرآن: سيد قطب

١٣٢) في كتاب (البراهين العقلية على صحة الديانة المسيحية)

١٣٣) القاموس المحيط ج٣

١٣٤) كتاب إتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر د. فهد الرومى ـ الجزء الثالث

١٣٥) كتاب الأمة د ٠ حسن فرحات

١٣٦) كتاب الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ـــ منشورات دار ومكتبة الهلال - بيروت -الطبعة الأولى

١٣٧) الكشاف – الزمخشري- دار الكتاب العربي- الجزء الأول

١٣٨) كولين هوبكنز ـ تركيب ووظائف الخلايا ـ ترجمة د. أحمد سعيد المرسى ـ الطبعة العربية ـ مؤسسة الأهرام القاهرة ـ١٩٨٥م

١٣٩) الوحدة الإلهية بين الأسفار الربانية - الدكتور سافير المحاضرة الخامسة .

١٤٠) لسان العرب ـ إبن منظور، القاموس المحيط للفيروزبادى ٠

١٤١) لمحات فى الثقافة الإسلامية ـ عمر عودة الخطيب

١٤٢) الله في الفلسفة الحديثة-جيمس كولنز-ترجمة فؤاد كامل - مكبة غريب لقاهرة - عام ١٩٧٣م

ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين-.أبو الحسن الندوي - الطبعة الثامنة - دار الكتاب العربي- بيروت لبنان .

١٤٤) مالك بن نبى ــ مشكلة الثقافة

١٤٥) مــباحث فــي التفسير الموضوعي: جدد. مصطفى سلم -دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤١٨-١٩٩٧م.

١٤٦) مجلة المنار - الجزء الرابع

١٤٧) محاضــرة للأستاذ محمد مبارك بعنوان (سلطان الثقافة الغربية على الفكر الإسلامى المعاصر)

١٤٨) محمد عبده ومنهجه في التفسير - د. عبدالغفار عبدالرحيم

١٤٩) محمــد على البار ــ الصوم وأمراض السمنة ــ الدار السعودية للنشر والتوزيع ــ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٦م

١٥٠) المدخل إلى التفسير الموضوعي ..د. عبد الستار السعيد

١٥١) المــدخل إلى التفسير الموضوعي. د.عبد الستار سعيد - دار الطباعة والنشر الإسلامية

١٥٢) المدرسة القرآنية - د . محمد باقر الصدر

١٥٣) مسلم في صحيحه ٤: ٢٠٣٧ ح٢.

١٥٤) مسند أحمد ١: ٤٦٥.

١٥٥) مع المفسرين والكتاب " أحمد محمد جمال

١٥٦) معتـــرك الأقران في إعجاز القرآن - جلال الدين السيوطي- الجزء الأول صـــــ١٤-١٨ - دار الكـــتب العلميه بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـــ - ١٩٨٨م

١٥٧) المعجم الكبير للطبراني، ط مطبعة ابن تيمية، مصر.

١٥٨) المعجـــم الوســـيط - الجزء الثاني: -دار الدعوة- استانبول - تركيا بدون تاريخ. (مجمع اللغة العربية - الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث).

١٥٩) المعجم الوسيط ج٢

١٦٠) الصحاح للجوهري ج١.

١٦١) المعجم الوسيط، ط. دار إحياء التراث الإسلامي، قطر.

١٦٢) المفردات للأصفهاني

١٦٣) مقدمة التفسير لابن تيمية

١٦٤) مقدمة التفسير للراغب الاصفهاني

١٦٥) من تاريخ كتابة هذه السطور وهو شعبان سنة ١٣٨١هـــ.

١٦٦) من هدى القرآن: أمين الخولي

١٦٧) مناهج في تحليل النظم القرآني ٠٠ د منير سلطان

١٦٨) مناهل العرفان - الزرقاني - التفسير والمفسرون - الذهبي.

١٦٩) منصـــور حســـب النبى ــ الكون والإعجاز العلمى للقرآن ١٩٨١دار الفكر العربى

١٧٠) المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم: د/ كامل علي سعفان،

١٧١) منير بعلبكى : (المورد) ـــ الطبعة الثالثة ٠

١٧٢) ميلاد طفل ــ نيلسون، إنغلمان سندبيرغ ويرسون

١٧٣) نجيب الكيلانى ــ الصوم والصحة ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت طبعة الأولى ــ ١٩٨٧م

١٧٤) نحو القرآن د ٠ محمد البهي

١٧٥) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم – محمد الغزالي- الطبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣م- دار الشروق

١٧٦) نظم الدرر للبقاعى ،

١٧٧) مجموعة التفاسير ج٤ ،

١٧٨) هـــ . م. شيلتون ــ التداوى بالصوم ــ ترجمة ونشر دار الرشيد ــ الطبعة الثانية ــ دمشق بيروت ــ ١٤٠٧/ ١٩٨٧

١٧٩) حاشية الجمل على الجلالين.

١٨٠) إرشاد الفحول – الشوكاني – باب االحقيقة والمجاز

المراجع الأجنبية

7) Human development - Keith.l.More

Current Obsterric & Gynecologic Diagnosis & Treatment 1987
Boving. B.G. Anatomy of reproduction, in Greenhill, J.P. (editor), Obstetrics,

Moore Keith L. The Developing Human, Clinically Oriented Embryology 4th Edition. Philadelphia. Saunders 1988.

PATTEN, HUMAN EMBERYELOGY, 3RD EDP. 248 1968.

PATTEN, HUMAN EMBERYELOGY, 3RD EDP.

فهرس الموضوعات

مقدمة ١٣

الباب الأول (التأصيل الشرعى للتفسير الموضوعى) التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ١٧

الفصل الأول : تعريف التفسير الموضوعى وتقاطر الأدلة الشرعية على مشروعيته ١٧

التعريف اللغوى للتفسير الموضوعى ٢٨

خصائص للتفسير الموضوعى مستنبطة من تعريفه اللغوي ٣٠

التعريف الاصطلاحي للتفسير الموضوعي ٤٣

التعريف المختار للتفسير الموضوعي اصطلاحاً ٤٩

الفصل الثانى : أسباب ظهور التفسير الموضوعى ٤٩

الشيخ محمد عبده وشرارة البداية ٥١

نظرة حديثة فى تفسير القرآن ٦٤

نماذج من التفسير الموضوعى للشيخ محمد عبده ٧٦

الأسباب التي أدت إلى ظهور التفسير الموضوعي ٨٠

الفصل الثالث: التفسير الموضوعى فى تاريخ العلم الشرعى ٨٩

محاولات التفسير الموضوعى عند المتقدمين ٩١

أدلة السلف على مشروعية التفسير الموضوعى ٩١

أبو حامد الغزالى يفسر القرآن موضوعيا ٩٢

السيوطى ومناسبات السور والآيات ١٠٤

ابن القيم يفسر القرآن موضوعيا ١١٤

الفصل الرابع :الفرق بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي ١٣١

ل الخامس : شبهات حول مشروعية التفسير الموضوعى والجواب عليها ١٤١

الأد لشرعية التي اعتمدها المعارضون للتفسير الموضوعى ١٥٠

أولا : أدلة المعارضين من أهل الاصول ١٥٠

ثانيا: أدلة المعارضين من أهل التفسير بالمأثور ١٥١

المعارضون لمدرسة التفسير المعاصر من علماء المتأخرين ١٥٤

أصحاب التفسير بالدراية من علماء المتقدمين ١٦١

مجموع أدلة مشروعية التفسير الموضوعى ١٨٦
أولاً: أدلة الأصوليين ١٨٦
ثانياً:أدلة مشروعية التفسير الموضوعى بحسب تفسير القرآن بالدراية ١٩٨
الادلة الخاصة بالمجيزين للتفسيربالرأي دون تعلق بحجج المانعين ٢٠٧
الأدلة باعتبار التفسير بعموم اللفظ لا خصوص السبب ٢٢٢
الجواب على شبهات المعارضين لمشروعية التفسير الموضوعى ٢٣٣
ثلاثون دليلاً تأصيلياً عقلياً ونقلياً على مشروعية التفسير الموضوعى بفروعه المختلفة ٢٣٣

الفصل السادس الفوائد والمنافع الشرعية للتفسير الموضوعي ٢٦١

الباب الثانى أنواع التفسير الموضوعى .....
أنواع التفسير الموضوعي بحسب بناء النظم الكريم ٢٨١
مقدمة عظيمة النفع وإحاطة كاملة بكافة أنواع التفسير الموضوعي ٢٨٢
أولا : التفسير الموضوعي بحسب مركبات النظم الكريم ٢٩٠
أولاً : التفسير الموضوعي الذي يدور على الحروف الرابطة ٢٩٣
النوع الثاني من التفسير الموضوعي التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني ٣١١
النوع الثالث من التفسير الموضوعى التفسير الموضوعى على الآية من كتاب الله تعالى ٣٣٠
النوع الرابع التفسير الموضوعى لربع حزب من السورة ٣٣٧
التفسير الموضوعى للسورة من القرآن ٣٤٤
زهور يانعة فى روضة القرآن لكل سورة فى القرآن عبيرها الفواح وثوبها البهيج ٣٨١
دليل التفسير الموضوعي بالنظر في سورة من سور القرآن ٣٨٢
أولا : النبى ﷺ والتفسير الموضوعى للسورة من القرآن ٣٨٢
الدليل من السنة على مشروعية التفسير الموضوعى للسورة من القرآن ٣٨٦
ثانيا : الأدلة من أقوال الصحابة ٣٨٩
ثالثا : الأدلة من أقوال أهل العلم ٣٩٢
أقوال العلماء سلفا وخلفا حول وحدة الموضوع فى السورة من القرآن ٤٠٦
أمثلة على التفسير الموضوعى للسورة من القرآن .....
سورة البقرة وإعجاز التناسق الموضوعى ٤١٨
ســورة الأنفـال .....
الوحدة الموضوعية لقصار السور ٤٣٢
المثال الأول :الوحدة الموضوعية فى سورة الطارق ٤٣٣

المثال الثاني :الوحدة الموضوعية فى سورة التكوير..... ٤٣٩
محاولات المتقدمين في هذا النوع ٤٤٧
محاولات المتأخرين في هذا النوع..... ٤٤٧
النوع الأشهر من التفسير الموضوعي التفسير الموضوعي المبني على جملة القرآن الكريم ٤٤٩
الأصول الشرعية للتفسير الموضوعي من جملة القرآن ٤٥٢
أدلة القرآن على مشروعية التفسير الموضوعي من جملة القرآن ٤٥٦
دليل التفسير الموضوعي بالنظر في القرآن كاملاً..... ٤٥٧
النبي ﷺ يفسر موضوعياً ٤٧٧
تفسير موضوعي لابن عباس ٤٧٨
العلماء الأولون يصنفون موضوعياً..... ٤٨٠

الباب الثالث: التفسير الموضوعى بحسب منهج المفسر وعمله فى التفسير ٤٨١
الفصل الأول : التفسير الموضوعى البيانى..... ٤٨٥
تأصيل المنهج الموضوعى البيانى..... ٤٨٩
الأستاذ أمين الخولي رائد مدرسة التفسير الموضوعى البيانى ٤٩١
منهج المدرسة الموضوعية البيانية ، فتح علمى وسقطات على الطريق..... ٤٩٤
أركان منهج التفسير البيانى الموضوعى ٥١٥
نماذج من التفسير الموضوعى البيانى للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ٥١٨
التفسير الموضوعي البيانى للسورة. ٥٢٨

الفصل الثانى : التفسير التحليلى الموضوعى ٥٣١
مثاله الظاهر هو تفسير المنار ٥٣١
التفسير التحليلى الموضوعي : التفسير التقليدي (التحليلي) – واستطرادات موضوعية ٥٣٢
محمد رشيد رضا..... ٥٣٥
منهج الربط بين التفسير التحليلى والموضوعى ٥٣٧
مقدمة المنار ترسخ المنهج الموضوعى فى التفسير ٥٤٠
السمات التحليلية الموضوعية لتفسير المنار للسيد رشيد رضا..... ٥٤١

الفصل الثالث : التفسير الموضوعى التحليلى..... ٥٤٥
مدرسة تجديدية فى التفسير الموضوعى مثالها الفريد تفسير الظلال لسيد قطب ٥٤٥
موضوع سورة الأنعام وطريقتها في عرض هذه السورة ٥٥٨
نموذج (للتفسير الموضوعى الجامع) للسورة ٥٥٩

خصائص (المنهج الموضوعى الجامع) للسورة ٥٦٦
نموذج من (التفسير الموضوعى التكاملى) للسورة ٥٦٧
نموذج (التفسير الموضوعى التعبيرى) فى السورة..... ٥٧٢
خصائص المنهج الموضوعى التعبيرى ٥٧٧
نموذج للمنهج التحليلى فى ظلال القرآن ٥٧٨
خصائص المنهج التحليلى المعهد للموضوعى فى السورة ٥٨٢

الفصل الرابع الصنف الرابع من التفسير الموضوعي(المقال التفسيري)..... ٥٨٦
مثال للمقال التفسيرى الدعوى (الهدائى) ٥٩١
أمثلة للمقال التفسيرى العلمى : معجزة الصيام بين الطب والقرآن..... ٦٠١
مثال للمقال التفسيرى الأدبى : خصائص فريدة لثقافتنا القرآنية ٦٠١

الباب الرابع:تطبيق إعجازى على التفسير الموضوعى من جملة القرآن الكريم ٦١٩
معجزة خلق الإنسان فى ضوء القرآن والعلم الحديث ٦٢١
دراسة تطبيقية فى التفسير الموضوعى فى القرآن الكريم ٦٢١
بحر بلا ساحل من المعجزات..... ٦٢٣
معجزة القرآن وقد خلقكم أطوارا .. طور النطفة ٦٢٧
الماء الدافق والصلب والترائب ٦٣٠
أولا : الماء الدافق ٦٣٧
ثانيا : الصلب والترائب ٦٤٤
معجزة القرآن فى السلالة ٦٤٨
الآيات البينات فى تخصيب البويضة ٦٥٣
طور النطفة الأمشاج..... ٦٥٧
يالـه من قــرار مكين !!! ٦٧٣
نساؤكم حرث لكم ٦٧٩
طورالعلقة معجزات خلق العلقة..... ٦٨٧
معجزة تصوير الإنسان ٧٠٩
عجائب قدرة الله تعالى فى عالم الأرحام..... ٧٠٩
من النطفة إلى الولادة أيات فى إثرها آيات ٧١١
شهادة الكائنات خالق واحد وسنة واحدة فى خلق عامة الكائنات ٧٢١
توالد المعجزات فى الظلمات الثلاث..... ٧٢٩

دلائل القدرة فى تخليق المضغة..... ٧٣١
معجزة القرآن فى تخليق اللحم وكساء العظام..... ٧٤١
طور النشأة خلقا آخر..... ٧٥٤
طور فارق بين الحمل الخفيف(Faetus) والحمل الثقيل(Embryo) ٧٦١
طور فارق بين حياة النبات وحياة الإنسان..... ٧٦٣
طور الخلق فى أحسن تقويم ٧٦٦
الطور الفارق : ذكر أم أنثى ٧٦٧
كتاب المعجزات عشرون معجزة..... ٧٧٩
دقت الساعة الفاصلة : المخاض أو الولادة..... ٧٩٨
الجنين و الخروج العظيم فى رحلة الحياة والموت ٧٩٨
أمواج متلاطمة من الخطر المحدق بين الماء والدماء ومطارق الرحم وصرير العظام ٧٩٨
فتبارك الله أحسن الخالقين ٧٧٩